

سلسلة الفكر

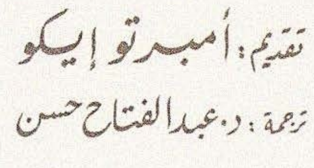
أعداء الحوار

أسباب اللاتسامح ومظاهره

مايكل أنجلو ياكوبوتشي

تقديم: أمبرتو إيكو

ترجمة: د. عبد الفتاح حسن








أعداء الحوار
أسباب اللاتسامح ومظاهره



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام

د . محمد صابر عرب

تصميم الغلاف

د . مدحت متولى

الإشراف الفنى

ماجدة عبد العليم
على أبو الخير
صبرى عبد الواحد

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

المجلس القومى للشباب

وزارة التنمية الإقتصادية

أعداء الحوار

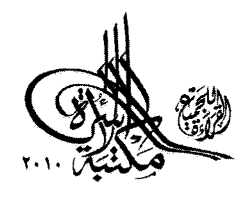
أسبابُ اللاتسامح ومظاهره

مايكل أنجلو ياكوبوتشي

ترجمة

د. عبد الفتاح حسن

تقديم: أمبرتو إيكو



أعداء الحوار

لوحة الغلاف من أعمال الفنانة : ريم حسن

ياكوبوتشى ، مايكل أنجلو .
أعداء الحوار : أسباب اللاتسامح ومظاهره / مايكل انجلو ياكوبوتشى؛ تقديم: أومبرتو إيكو؛ ترجمة: عبدالفتاح حسن .ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
٥٦٨ ص ؛ ٢٤ سم . (مكتبة الأسرة ٢٠١٠).
تدمك ٣ - ٤٩١ - ٤٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ ـ الدين - فلسفة
٢ - الديانات المقارنة
أ - إيكو، أومبرتو (مقدم)
ب - حسن، عبدالفتاح (مترجم)
جـ - العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٩١٠ / ٢٠١٠
I.S.B.N 978-977-421-491 -3
ديوى ٢٠٠,١

توطئـة

مثل كل الأحلام الكبرى التى بزغت منها مشاريع عملاقة أدت إلى تطور مجتمعاتها، ولهذا أرسى **مهرجان القراءة للجميع** جذوره الراسخة فى الأرض المصرية منذ عشرين عامًا.. لقد انطلق أهم مشروع ثقافى فى العالم العربى عام ١٩٩٠ تحقيقًا لحلم السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** راعية المهرجان، وصاحبة فكرته والتى دشنته آنذاك بافتتاح عشرات المكتبات فى جميع ربوع الوطن، وأطلقته فى سماء الواقع برؤية واضحة ومحددة تستند على الإيمان بأن الثقافة هى وسيلة الشعوب لتحقيق التقدم والتنمية بما لها من قدرة على تحويل المعارف المختلفة إلى سلوك متحضر، وإعلاء المُثل العليا، وقيم العمل والإنجاز، وإشاعة روح التسامح والحرية والسلام التى دعت إليها جميع الأديان، بهدف أن تُكوِّن ثقافة المجتمع بتأصيل عادة القراءة وحب المعرفة، لذا فإن وسيلة المعرفة الخالدة ستظل هى الكتاب الذى يسهم فى إرساء دعائم التنمية، وتحقيق التقدم العلمى المنشود.

لقد اتسعت روافد الحملة القومية **للقراءة للجميع** طوال الأعوام العشرين الماضية، وأصبحت تشكل فى مجملها دعوة حضارية للبناء الروحى والفكرى والوجدانى للإنسان المصرى نابعة من الإيمان العميق بأن الثقافة هى بكل المقاييس أفضل استثمار لبناء مجتمع المستقبل، وهى الجسر الرئيسى للشباب للحاق بركب الحضارة المعاصرة، بل تكاد تكون هى الوسيلة الوحيدة لنشر قيم العلم والتسامح والديمقراطية والسلام الاجتماعى والتطور الحضارى، وترسيخ قيم المواطنة وقيمة دور المرأة، وتعزيز قيمة التجدد الثقافى والتفكير النقدى

والحوار ومعرفة الآخر والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى، وأيضًا إبراز تواصل الإبداع المصرى من خلال نشر الآثار الأدبية لـ «مختلف أجيال المبدعين».

ومنذ العام الرابع لمهرجان **القراءة للجميع**؛ أصبحت **مكتبة الأسرة** من أهم روافده، وقدمت طوال ستة عشر عامًا دون توقف ملايين النسخ بأسعار رمزية لإبداعات عظيمة لشباب المبدعين وكبار الكتاب الذين أثروا المشروع فكريًا وثقافيًا وعلميًا ودينيًا وتراثيًا وأدبيًا، كما قدمت الموسوعات الكبرى التى تُعتبر أعمدة هذه المكتبة، والتى شكلت مسيرة فكر النهضة فبعثت فى نفوس الشباب من جديد الإحساس بالفخر بما قدمته أمتهم من كنوز إبداعية ومعرفية وفكرية للبشرية، وأقامت جسرًا يصل بين ماضيهم وحاضرهم، ويصل بين حاضرهم ومستقبلهم، كما بعثت فيهم روح الانتماء القوى لهويتهم المصرية والعربية، ولما لا وقد أطلت عليهم مكتبة باذخة الثراء تتكئ على مؤلفات حضارة مصرية قديمة ما زالت قادرة على إدهاش العالم حتى هذه اللحظة بما احتوته من تقدم فنى وفكرى وعلمى وفلسفى وأدبى شكَّل فجر «ضمير الإنسانية» وحضارة إسلامية أنارت ظلمات أفلاك البشرية لحقب طويلة من الزمان، ووضع أعلامها بعض أعمدة الحضارة المعاصرة فى مجالات الطب والفلك والرياضيات والآداب!.

لهذا كله ستواصل **مكتبة الأسرة** هذا العام نشر رسالتها بالسعى قدمًا نحو تطوير أدائها، وتحقيق حلمها الأكبر بتكوين ثقافة المجتمع كله بأيسر السبل، والتأكد من اطلاعه على جميع ما أنتجته عبقرية الأمم ممثلة فى تراثها الأدبى والعلمى والفكرى المستنير.

مكتبة الأسرة

٢٠١٠

المحتويات



مقدمة المترجم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

شاءت حكمة الخالق تعالى أن يخلق الناس متفاوتين في الأفهام، والاستنباط، وفي العقيدة، وفي اللون، الخ، ولو شاء سبحانه لجعلهم أمَّة واحدة. وعلَّل الخالق تعالى ذلك بمدِّ جسور التعارف بينهم لينهل كلٌّ ممَّا عند الآخر من خير.

بيد أن الفهم الخاطئ، والأحكام المسبقة، والغُلُوُّ، شتَّتت البشرية شذر مذر، ومزَّقتها كلَّ مُمَزَّق، وجعلتها تقترب ممَّا أسماه صموئيل هنجتون "صدام الحضارات".

ولا عودة إلى مد الجسور، وإلى الحوار الهادف القائم على الندية، والاحترام المتبادَل، إلاَّ برفع قواعد التسامح، ولن تقوم قواعد التسامح إلاّ بمعرفة النقيض، وهو اللاتسامح، حتى نتجنب انحرافاته ومظاهره، وما يغذِّيه.

ولقد سعدت بنيل شرف ترجمة كتاب "أعداء الحوار" لصاحبه سعادة السفير مايكل أنجلو ياكوبوتشي، صاحب الثقافة الموسوعية التي استقاها من أسفاره المتعددة التي جعلته شاهد عيان لبعض فصول اللاتسامح.

فمِما أعجبني في هذا الكتاب الذي بذلتُ في ترجمته من الجهد ما أضناني، أن مؤلِّفه يشخص بقوة وبعمقٍ الأسبابَ الكامنة وراء تفشّي موجة الأحقاد التي سادت العالم منذ القديم وصولاً إلى عصرنا الحالي.

وعصرنا هو عصر المعايير المزدوجة، والكيل بألف كيل، ومنظمات دولية وإقليمية فقدت مصداقيتها. ومع اقترابي من نهاية ترجمة هذا الكتاب الثمين كان المدَنيُّون العُزّل في غزَّة المحاصرة يُقصَفون بالقنابل الفسفورية المحرمة دوليًّا، وتَحَمّل المجتمع الدوليُّ بأسره عناء التسلِّي بالمشاهدة.

يأتي هذا الكتاب في وقت اختلطت فيه الأوراق، وتلاشى الخيط الدقيق بين الإرهاب المجرم الذي يسفك دماء الأبرياء، والمقاومة المشروعة دفاعًا عن العقيدة، والهوية، والأرض، والوجود.

إن ما يضع كتاب ياكوبوتشي دُرّة في عقد الكتب النفيسة، هو تصدّيه لموضوع شائك بشجاعة يُحسد عليها، مسلّحًا بثقافة موسوعية مكّنته من عرض أسباب اللاتسامح، وانحرافاته، في جميع المِلَل والنِّحَل، عرضًا دقيقًا وموضوعيًّا، لا يقلِّل من شأنه النذر اليسير من المفاهيم غير الدقيقة عن الحركات المعتدلة والمقاومة الشرعية في العالم الإسلامي، لأن ذلك ربما يعود في المقام الأول إلى ما استقاه المؤلِّف من مغالطات تُروَّج في العالم الإسلامي –قبل الغرب– عن هذه الحركات.

ولقد بذلتُ جهدًا خارقًا بفضل الله تعالى في ترجمة هذا السِّفْر الذي يعجُّ بمفردات أصيلة في لغاتها (ألمانية، وهندية، ويابانية، ويونانية، وروسية، وإنجليزية، وصينية، الخ).

وقد نحوت في ترجمتي منحًى أمينًا، فنقلت بحياد وأمانة النصَّ الأصليَّ، ولم أتدخل إلاّ لتصحيح أخطاء جليَّة واضحة في أسماء أعلام أو تاريخ مَثلاً.

وقد أضفت بذيل الصفحة بعض الملاحظات التفسيرية لمفردات ذات معنى خاصٍّ، أو زدت بين معقوفين ما يوضح دلالة بعض الكلمات.

وقد فضّلت ترجمة أسماء الأنبياء والرسل المكرَّمين والصحابة رضي الله عنهم، كما أوردها المؤلف، مجرَّدة.

فالنبي محمد (صلي الله عليه وسلم)، وموسى، وعيسى، وإبراهيم (عليهم السلام)، وبعض الصحابة (رضي الله عنهم)، ذُكِرُوا بأسمائهم فقط.

ولأنّ من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فإني أسجِّل امتناني –بعد ربي– لزوجتي، وأبنائي الذين تحملوا طول صمتي في بيتي، وجلوسي لساعات ولأيام وحولي حِمل بعير من المعاجم والموسوعات العربية والأجنبية.

وأشكر كل الشكر لأستاذَيّ الجليلين: أ. د. / عماد البغدادي، أ. د. / عامر الألفي.

وأترحّم على أستاذي المغفور له بإذن الله أ. د. / سلامة محمد سليمان الذي غرس فيّ عشق الترجمة.

والشكر الخاص لمن فجر طاقاتي في لحظات الفتور أ / حسني سليمان، صاحب دار "شرقيات".

وآمل في النهاية أن يُسهِم هذا التوصيف الدقيق لأعداء الحوار من كل المِلَل والنِّحَل، في تفويت فرصة وأْد الحوار إلى الأبد عليهم، وفي تروية شجرة التسامح، والاحترام المتبادَل، وتعظيم نقاط التلاقي، وتنحية نقاط الفرقة والتلاحي.

د/ عبد الفتاح حسن عبد الفتاح محمد محمود

كفر شبين– الإثنين ٢٠٠٩/٣/٩

مقدمة أومبرتو إيكو

تطالعنا الصحف بين الفينة والفينة بجدل حول مفهوم التسامح. ويرى البعض أن مصطلح التسامح هو مصطلح مبهم وهو، بإيجاز، مصطلح لامتسامح: حيث إنه يفترض، بالفعل، وفقا لرافضيه، بأنه يمكن لنا الاعتقاد بأن شخصا ما غير مقبول بشكل أساسي، أو أنه أدنى منا مرتبة (وخلاصة القول فإنه من الأفضل تحاشيه)، بيد أننا نتسامح معه من مبدأ الأدب أو إيثارا لمبدأ السلامة.

ويوجد بكل تأكيد استخدام شائع لكلمة "التسامح" tolleranza يميز هذه التصرفات، بيد أنه لا ينبغي أن نغفل أن كلمة التسامح بالنسبة لعالم الغرب المعاصر وبالنسبة لتلك الروح التي توصف بالليبرالية (بعيدا عن أي اختلاف سياسي)، تعتبر كلمة مميزة، ويكتب أول حروفها بحرف الـ T الكبير، على الأقل منذ أن قام لوك بكتابة رسالة في التسامح وكذلك كتب فولتير مقالا. وعليه فإن النضال من أجل خلق سياسة التسامح لايزال هدفا يجب علينا أن نضعه نصب أعيننا، دون أن نتقيد بكلمات بعينها؛ فإذا ما أردنا أن نستخدم عبارة "قبول أوجه الاختلاف" بدلا من "التسامح" فإن ذلك حسن أيضا.

ولكن إذا كان مصطلح "تسامح" يمكن أن يثير الانتقادات،على ما يبدو،فان الجميع متفقون على معنى "اللاتسامح" (وهو سلبي بالطبع). فإذا ما ساورنا الشك فإن بعض ألوان وممارسات التسامح يشوبها النفاق وتخفي في طياتها بعض التحفظات الذهنية، فإن اللاتسامح يتسم بالصراحة القاسية.

وهي أسباب وجيهة كي نتوقع إجماعا في الرأي حول كتاب عن اللاتسامح، لولا أننا غالبا ما نعتبر بعض التصرفات الواضحة جدا مثل أشكال العنصرية الشائعة لاتسامحية، ولكننا لا نقيس بالفعل كل مظاهر اللاتسامح، على المستوى الديني، والثقافي، والسياسي، والإيديولوجي. لدرجة أنه عند قراءة صفحات هذا الكتاب لياكوبوتشي قد يصاب بعض القراء بالضيق، عندما يتسلل إليهم الانطباع بأن أحدا ما لم ينج من جرثومة اللاتسامح، وعندما يكتشفون أن من كانوا في حلفهم أيضا كانوا لامتسامحين، أولئك الذين كانوا يظنونهم "الأخيار".

ليس ذلك فحسب، فمن ناحية توجد، كما وجدت دائما "مذاهب اللاتسامح"، والتي تنوعت أشكالها كثيرا على مر العصور وتباينت فيما بينها ومنها اضطهاد الزنادقة

ومطاردة الساحرات والديكتاتوريات الشمولية والأصولية الدينية (البروتستانتية، أو الإسلامية أو اليهودية) ومعاداة السامية، وبشكل عام تلك العنصرية المعروفة بـ "العنصرية العلمية". الأمر يتعلق إذا بحزمة من التصرفات قد يصعب التمييز بينها، والتي بسببها ظهرت الأصوليات غير المتعصبة،و اللاتسامح اللاعنصري، ومذاهب وحدوية غير أصولية، تطرف لا وحدوي، بل لدرجة التيار المثير للشغف المعروف بـ "الصحيح سياسيا" (politically correct)، والتي جاءت مناهضة للعنصرية، ومناهضة للتمييز العنصري، ليبرالية، تسامحية، والتي تفتح الباب مع ذلك أمام ميلاد مذهب أصولي جديد.

ومن ناحية أخرى، فهناك ذلك اللاتسامح الشائع، ذو الطابع الشعبي، ذو الأصل البيولوجي، ذلك اللاتسامح الذي بسببه نجد أن جميعنا مستعد للقيام بأكثر عمليات التعميم في أحكامه (فإذا ما سرقت حقيبة سفره في مطار ميلانو، فسوف يقول إن جميع أهل ميلانو لصوص). فالتسامح، بهذا المعني، ليس سلوكا طبيعيا، بل هو نتاج الثقافة والتربية، تماما مثلما يتعلم كل منا ألا يسرق أو يقتل. ولهذا السبب بالأخص فإن اللاتسامح الشائع هو أصعب أشكال اللاتسامح تحديدا ومواجهة. فمن الممكن مواجهة العنصرية "العلمية" بالبراهين العقلانية، وأن يتضح أن هذه البراهين على قدر من الإقناع؛ بيد أن ذلك يكون أصعب بكثير في مواجهة العنصرية البدائية والحيوانية. وتلك أشياء نتفهمها جيدا أيضا في إيطاليا في الوقت الراهن: فما من شيء أخطر من لاتسامح بلا مذهب، بلا ثقافة، من اللاتسامح "الحيواني".

فهما نوعان من اللاتسامح يدعمان ويغذيان بعضهما البعض، وهذا الكتاب يساعدنا على التوغل في دهاليزهما وفي منطقهما الداخلي. وكما هو واضح من العنوان، فإن البانوراما التي يقدمها لنا ياكوبوتشي هي قائمة من "مظاهر" اللاتسامح حتى وإن كانت ضاربة في القدم، أو غاية في النبل، أو يمكن تقديسها، أو تدعمها بعض الأسباب. ولكن قد يكون الأمر المحزن أن ينتهي هذا الكتاب، بعد أن قام بدق ناقوس الخطر ودعا لاستنفار الجميع، دون كلمة أمل.

في واقع الأمر أن كلمة الأمل موجودة، سرعان ما نجدها في العنوان (لأنه يضع "لا" في مواجهه الـلاتسامح، "نعم" للحوار، ونجدها أيضا في التمهيد. وفيه أشركني الكاتب، بحسن التفات منه، في الموضوع إذ أعاد التذكير باقتراح قدمته للقيام بإعلانات تلفزيونية لمكافحة العنف موجهة للأطفال قبل سن المدرسة، وفي المراحل الأولى من التعليم الابتدائي.

فلقد أعرب ياكوبوتشي عن أسفه لأن اليونسكو لم تفعل شيئا بهذا الاقتراح، بيد أن هذا المشروع قد تحقق بشكل أو بآخر، حتى وإن كان ذلك بطريقة أخري. أعتقد أنه كان قد مضي عام أو عامان بعد ذلك المنتدى الذي ذكره ياكوبوتشي، وبدأت الأكاديمية العالمية للثقافات Academie Universelle des Cultures بإنشاء موقع على شبكة الإنترنت

تم تخصيصه للقائمين على التربية في كافة أرجاء العالم، من أجل تربية الأطفال على قبول أوجه الاختلاف. وكان المبدأ الملهم (وما زال لأن الموقع لا يزال قيد التطوير) أن اللاتسامح، مثله مثل العنف، ليس بمرض، بل استعداد طبيعي للنفس البشرية. فالطفل، مثلما يرغب في تملك كل ما يعجبه إذا ما استطاع إلى ذلك سبيلا (فقط من خلال تربية مستمرة، يتربي على احترام ملكية الآخرين)، فهو، عادة، ما يتفاعل بشيء من الضيق مع كل ما هو غير مألوف، وكل ما هو مختلف (وبسبب ذلك على الأخص نجد أن الحواديت تلاطف نزعاته وتوضح له الشر في شكل شيء مخالف: ذئب،أو غول،أو ساحرة شريرة). ولكن نفس الطفل يمكنه أن ينمي، رويدا رويدا، سلوكا يتسم باستلطاف هذا الاختلاف، والبرهان على ذلك انجذابه (الذي تنميه وسائل الإعلام) للعديد من الغيلان الظريفة – مختلفة عنه ولكنها طيبة ومحبوبة.

وها هو موقع الأكاديمية يعالج مواد تتناول موضوعات مختلفة (لون البشرة، الدين، الطعام، العادات والتقاليد، وهكذا دواليك) موجهة للقائمين على التربية في أي بلد ممن يريدون تعليم أولادهم كيف يتقبلون من هم مختلفون عنهم وبالتأكيد على أن الجميع سواسية،ودون الكذب على الأطفال،. وسوف يدرك الأطفال جيدا أن بعض الجيران أو زملاء الدراسة ليسوا متساوين معهم، فلون بشرتهم مختلف، وعيونهم ضيقة، والشعر أكثر تجعيدا أو نعومة، يأكلون أشياء غريبة، ولا يحتفلون بالمناولة الأولى.

إذن ينبغي القول للأطفال بأن البشر يختلفون كثيرا فيما بينهم، وينبغي أن نشرح لهم جيدا في أي شيء يختلفون، ولماذا؟ لكي نظهر لهم فيما بعد أن تلك الاختلافات من الممكن ان تكون أحد مصادر الثراء. ينبغي على المعلم في المدن الإيطالية أن يساعد أطفاله الإيطاليين لكي يفهموا لماذا يتوجه أطفال آخرون بالدعاء والصلاة إلى معبود آخر، أو يعزفون موسيقي لا يبدو أنها الروك. بالطبع يتعين على المربي الصيني فعل الشيء ذاته مع الأطفال الصينيين الذين يعيشون بجوار مجتمع مسيحي.

إن كتابا مثل كتاب ياكوبوتشي، التي تستعرض بانورامته نقاطا سلبية، يمكن أن يكون في منتهي النفع حيث أنه يلهمنا بأنشطة تربوية إيجابية، ولأنه يلقي الضوء على النقاط الضعيفة، وعلى الفواصل التي عششت فيها بكتيريا اللاتسامح على مر القرون وشقت لها طريقا.

وعليه فإنه يبدو لي كتابا قاسيا، كما يجب، بيد أنه لا يبعث على اليأس.

أومبرتو إيكو

تمهيد

"لا تثقوا أبدا في أية نصيحة لأي جهبذ، أو في أي قصة جمالية، أو في أية كتابات ولا حتى في أية قصة أدبية، بما في ذلك قصتي. ولكن قصتي تلك سوف تكون معينا لكم في رأي لكم؛ بينما الأخريات ستحاول زحزحتكم عن رأيكم."
جوزيي بريتسوليني

- "الشاي وجرائد المساء، سيدي"
- "شكرا ياخوستو، ضع كل شيء على المنضدة، وانصرف، فلست أحتاج إلى شيء آخر".

وضع الخادم الصينية وكومة الصحف اليومية على المكتب وانصرف في صمت.

شرع ياجديش أشاريا Jagdish Acharya، أمين عام الأمم المتحدة حديث الانتخاب، في تصفح الصفحات الأربعة المستعرضة لموجز ما نشر بالصحافة والموجودة أعلى كومة الجرائد باهتمام.

لم تكن التعليقات حول انتخابه والتي احتلت رؤوس العناوين، بالقليلة، ولقد جاءت من كافة أرجاء العالم. كان جميعها، بشكل أو بآخر، يوضح نفس الأشياء، بدءا من الدرجات العلمية التي حصل عليها وانتهاء بكونه - لمرة أخرى - آسيويا، مثل يو-تانت U-Thant. بيد أن الأنباء التي أحدثت صدى صحفيا كانت بالأخص تلك الجوانب غير المحافظة من شخصيته. كانت الصحافة والتلفاز يصفانه بأنه مفكر نمطي منفصل عن لعبة السلطة، ذو تعليم غربي بيد أن لديه ميل تصوفيا، غارق في شرقيته. ذلك الملمح الأخير، كما أشار الكثيرون، كان بكل تأكيد غير مألوف؛ ربما ورثه عن أمه التي تنحدر من هضبة التبت، والتي كانت قد لجأت إلى المملكة المتحدة، في أعقاب اجتياح الاحتلال الصيني لبلادها، ثم تزوجت بأحد أساتذتها الجامعيين، وكان هنديا، يعمل مدرسا جامعيا بكلية لندن للاقتصاد London School of Economics.

ولقد أوضح أحد التحقيقات الصحفية التي قامت بها صحيفة النيوزويك أن "شخصا يسبح ضد التيار مثل هذا، يتمتع أكثر بروح المدافع عن الإنسانية حيث يعشق الوصول إلى قلب المشاكل، أكثر منه ذلك الدبلوماسي المعتاد على التحرك في دهاليز السلطة، يبدو وكأن في حوزته ورقة جيدة تمكنه من الرهان أخيرا على مبادرة شجاعة. فهل ينجح ولو لمرة واحدة في هز جدران مبني الأمم المتحدة الزجاجي؟"

ولقد كتبت عنه صحيفة أسبوعية إيطالية كاثوليكية: إن ذلك البروفيسور المتقدم في السن، والذي ربما تم انتخابه نظرا لقدراته كدارس مثالي، والتي كانت تجعل منه شخصا مرموقا وغير ضار في نفس الوقت، ربما احتفظ على أية حال ببعض المفاجآت والتي ربما تجعل منه "البابا يوحنا" العلماني للمجتمع الدولي.

كان أشاريا يستمتع بالاستماع إلى هذه التعليقات غير ملق لها بالا، وهو يستمتع بنكهة الشاي القوية. فهي ليست إلا نبرات رنانة نمطية وأقوال معتادة للصحفيين.

هل أمه كانت متصوفة؟ أكيد بالفعل وبالضرورة نظرا لكونها من هضبة التبت... أي صورة كان سيبدو عليها لو كانت أمه فرنسية؟ هل كان سيعشق النبيذ أم الحسناوات؟ الحقيقة أنه ما كان ليجد في إقليم الهيمالايا بأسره امرأة واحدة تتمتع بنفس ذلك القدر من الحس العملي واللامبالاة تجاه أسرار الغيب.

أما المقابلة التليفزيونية التي تمت مع أحد أشهر المحللين السياسيين الفرنسيين، والذي كان معروفا بتشككه وعدم ميله لإتباع شطحات الخيال، فقد بدا له على قدر لا بأس به من الأهمية. فلقد بدأ هذا الرجل بالتعرض بالتحليل الشغوف لحدود – ولقد منع نفسه بالكاد من استخدام كلمة عجز – الأمين العام للأمم المتحدة وأعرب عن أمله في أن ينجح من يشغل المنصب حاليا، بفضل تكوينه الفلسفي وميوله، على الأقل في تطبيق برنامج تربوي على نطاق واسع، وذلك من خلال تعبئة مختلف الهيئات المتخصصة، إذا ما لزم الأمر، لكي يهاجم التطرف والخوف من الأجانب والتمييز بكافة أشكاله. ولقد صرح ذلك المحلل في خضم الجدل الذي تم بثه على الهواء بأن "الكثير من الحكومات تنفق أموالا طائلة على الإعلانات الموجهة للشباب لتوعيتهم بالخطر الداهم للتدخين والمخدرات والإيدز. فلماذا لا يتم تخصيص القليل من الجهد والمال لمحاربة ذلك الوحش ذي المائة رأس وهو اللاتسامح؟".

أخذ يفكر البروفيسور أشاريا، وهو يتحسس لحيته القصيرة التي بدا عليها الشيب، وحدث نفسه بأن ذلك من أحد الواجبات التي يتعين على اليونسكو أكثر من غيرها الاضطلاع به! بيد أن أعلى سلطة عالمية في مجال التعليم والثقافة كانت لا تزال تفتقر للوسائل والنفوذ. وقد ثبت فشلها مسبقا في ذلك المجال. لا، لم يكن يفكر في "إعلان

مبادئ التسامح" التي صدرت عام ١٩٩٥ بعد معاناة طويلة، وهي وثيقة أخرى مثل مثيلاتها الكثيرة التي صدرت بنية حسنة، وظلت فقط قائمة من المبادئ الجميلة والنوايا المحمودة. بيد أن الشيء الذي أخذ منه مأخذ الاهتمام بالفعل كان أحد الاقتراحات المتخصصة الصادرة عن اليونسكو قبل ذلك الوقت ببضع سنوات. متى؟ كان يتذكر جيدا، كان ذلك إبان عام ١٩٩٣. اقتراح لم يعد له أي قيمة، فلم يعد أحد يتذكره. لكنه هو كان يتذكره، لأنه كان قد بدا له اقتراحا جدير بألا يلقى في سلة المهملات.

لقد شهد في باريس الاجتماع الأول للمشروع الوليد "منتدى ثقافي" الذي تألف قوامه من ١٥ شخصية رفيعة المستوي من المستقلين يمثلون القارات الخمس، تم اختيارهم من قبل أعضاء المجلس التنفيذي لليونسكو الاثنين وخمسين. وكان يتعين أن يكون هدف ذلك المنتدى رفيع المستوى هو القيام بوضع عدة استراتيجيات مبتكرة للتعاون بين الثقافات على المستوى العالمي. ومن بين المشاركين النشطاء كان هناك كاتبان كلاهما ذو شهرة عالمية: أومبرتو إيكو وجابريل جارسيا ماركيزGabriel Garcia Marquez. وكان إيكو، وهو متخصص في ذلك المجال، قد طرح فكرة حظيت على الفور بدعم جارسيا ماركيز: وهي فكرة القيام بإعلانات تليفزيونية موجهة ضد العنف واللاتسامح بين الأطفال في سن ما قبل المدرسة والمراحل التعليمية الأولى، تبثها بانتظام قنوات العالم بأسره. كان يتعين على كل بلد على الأقل توفير ثلاث دقائق على واحدة من أكبر قنواته المحلية. وكان يتعين على خبراء السكرتير العام لليونسكو، بتشجيع من المدير العام نفسه، القيام بالتحضير للمادة الإعلانية التي كانت سوف تبث تليفزيونيا. كان الأمر سوف يتعلق بإنتاج فيديو كليب ممتع بالألوان، ربما استخدمت فيه الرسوم المتحركة ذات الجودة العالية، ليتواءم مع جمهور من المشاهدين صغيري السن وتتنوع وسائل الجذب فيه ؛ بالأخص أن يكون المحتوي نافعا ومتساويا لكل ثقافات الدنيا، مع إدخال أقل التعديلات الممكنة، فقط تلك التي لا غنى عنها لكي يفي الإعلان ببعض الاحتياجات المحلية الخاصة.

تنهد قائلا لنفسه: لن يجدي شيئا القول بأن هذه الفكرة لم ينتفع بها على الإطلاق. ومع ذلك فلم يكن المشروع يتطلب تمويلا طائلا وكان سيسهم قليلا في تحريك المياه الراكدة داخل اليونسكو. وعلى جانب آخر، فقد تم إجهاض مشروع "منتدى ثقافي" نفسه بعد اجتماعه الثاني في مدينة قرطاج.

ارتشف رشفات الشاي المتبقية في شرود ثم هب واقفا واقترب من تلك النافذة العريضة والتي كان يري من خلالها ومن ذلك الارتفاع الكبير الازدحام المروري في شارع فيرست أفينيو First Avenue.

أخذ يحدث نفسه:" كيف يمكنني إعادة طرح بضعة مبادرات ذات اثر أكيد، لا تقتصر على كونها واحدة من تلك "الإعلانات" المعتادة، وإنما يكون بمقدورها تحريك المياه الراكدة، بالفعل، حول مشكلة خطيرة مثل تلك؟ الأمر يتعلق دون شك بضرورة بدء حملة شاملة ضد تلك الصعوبة الجمّة، وبالأجدر فأنا أقول الاستحالة، التي تواجه البشر، اليوم أكثر من ذي قبل، لا أقول في سبيل أن يفهم بعضهم البعض الآخر، ولكن على الأقل أن يتدبروا ويتحاوروا قبل الضغط على الزناد. بيد أن ذلك يعد واجبا يستطيع القيام به أحد القديسين أو الأنبياء، وليس موظفا دوليا، حتى وإن كان من أرفع المستويات! فأي من تلك الوسائل الناجعة والملموسة يوفرها لي منصبي هذا؟ كم شخص يدرك أنه في واقع الأمر منصب شرفي يمنح صاحبه هوامش ضئيلة من الحركة؟".

أخذ أشاريا يتدبر تلك الخواطر بينما كان جالسا متكئا على الوسائد المكومة في إحدى زوايا مكتبه الصغير. فعلي الرغم من عظم مساحة الشقة التي يوفرها له العمل وكونها مفروشة بذوق، كانت دائما بعينه ذات ذوق متكلف ولم يكن يشعر وكأنه في بيته. ويوما بعد آخر أصبحت فترة التأمل المسائي ملاذا لا غنى عنه. فهو لم يتوقف قط، طيلة أكثر من ٦٠ عاما، عن تلك العادة في الاستغراق لمدة ٢٠ دقيقة والتفكير اللحظي في موجات الفكر العاتية المتلاحقة، وما كان ليستغني عنها مطلقا مهما كانت الأسباب. وكان دائما يخرج منها منتعش الجسد والروح.

كانت الشمس، عند مغيبها على نهر إيست ريفر East River، تلقي بومضات أرجوانية على المباني العالية، التي كانت تختلف كثيرا عن البيوت في مسقط رأسه، وكانت تحول آلاف النوافذ مربعة الشكل غير الملونة إلى قطع فسيفساء متقزحة اللون. كان صدى المرور، والذي كان دائم الازدحام في ساعة الذروة، يصل مخففا إلى ذلك الارتفاع. كان الهدوء والصمت اللذان يخيمان على هذه الناحية من مدينة مانهاتن بمثابة هبة ثمينة ورائعة كان يدرك قدرها. أحسن ذلك السيد العجوز ترتيب كسرات بيجامته "اليوكاتا" القديمة ذات النقوش الزهرية البيضاء والسوداء، مكسرة وباهتة اللون ولكنها كانت تشعره أنه على راحته، أغلق عينيه، وتمدد وأخذ في تلاوة صلواته في صمت. وعلى الفور انزلق إلى أعماق الضمير في بُعد بلا مكان أو زمان.

وسرعان ما بدا له معلمه الداخلي. لم تكن تلك الرؤيا أكيدة الحدوث ولكنها كانت تحدث كثيرا، بالأخص، عندما كان القلق لا يعتريه بشكل طاحن. كان معلمه الداخلي يأتيه على هيئة شيخ مهيب مثل أولئك الذين تصورهم اللوحات الصينية المرسومة بالألوان المائية، رؤوسهم كبيرة شبه صلعاء، ذوو لحية طويلة بيضاء، بطونهم مستديرة وبارزة للأمام، يتشحون أردية من الحرير اللامع، عليها نقوش من التنانين زاهية الألوان. ذلك الشيخ الحكيم لم يكن دائما يرد على أسئلته، أو يجيب فقط على قدر السؤال،

بيد أنه كان عندما يخاطبه كان يفعل ذلك بلغته الأم، والتي كان لا يستعملها، تقريبا، منذ أن كان طفلا، ولكنها كانت قادرة على أن توقظ بداخله شجونا خفية كامنة. من المؤكد أنه كان قد أخبره – أو أنه كان يعرف ذلك دائما؟ – أن اسمه هو "لاو لان Lao Lan". لم يكن "لاو لان" يفعل أي شيء أكثر من أنه كان يطرح عليه من جديد، فقط من باب الطرح، الموضوعات التي كانت قد ألحت على خاطره أثناء اليوم، وذلك بعد تصفيتها جيدا من خلال تلك المسافة الذهنية السحيقة التي تقطعها، ولم يكن الأمر يتطلب فطنة خاصة في علم النفس لكي يدرك أن تلك الشخصية الجليلة لم تكن سوى اكتظاظ عقله الباطن الذي طهرته عشرات الممارسات التأملية. أم ربما غير ذلك؟ ربما لم يكن الأمر بتلك السهولة؟ أكان هناك شيء ما أكثر من ذلك؟ لم يرغب قط في أن يفكر كثيرا في هذا الصدد.

في هذا المساء تعرض لاو لان للموضوع على الفور ودون أية مقدمات.

"هل تبحث عن الأسلحة لتحارب أعداء الحوار؟ يجب الآن أن تُعلّم بني الإنسان من كل بقاع العالم، وأنت بمقدورك فعل ذلك من على منبر كبير يمكن من خلاله أن يصل صوتك مسموعا حتى إلى أبعد بقاع الأرض، أن يبحثوا عن ثلاثة طلاسم سوف تجديهم نفعا كبيرا".

وبينما كان يحدثه بذلك، اخرج من أحد أكمام ثوبه العريضة المطرزة ثلاثة أشياء صغيرة وعرضها عليه: كان أول هذه الأشياء عبارة عن مرآة صغيرة مربعة الشكل كان لها إطارا برونزي سميك، وكان ثانيها عبارة عن خاتم من النحاس الأحمر نقش عليه بالمينا الزرقاء رمز الين ورمز اليانج، وكان ثالثها عبارة عن قلادة صغيرة من النحاس الأصفر لها غطاء بلوري كان بداخلها حبة من خردل.

– توجه أشاريا لمعلمه قائلا بلغة العقل الصامتة: "معلمي، لا أفهم".

– "أين يمكنني البحث عن هذه الطلاسم وما هو معناها؟".

كانت الرؤيا متذبذبة وكأنها تنعكس من على صفحة الماء، ولكنها كانت مستمرة بوضوح كاف كما لو كان في حلم جميل بالألوان. أجاب المعلم الخيالي بابتسامة واستمر في إظهار الأشياء الثلاثة الصغيرة الموجودة في قبضة يده اليسرى.

"ياجديش، إني مندهش!" (كانت نبرة صوت لاو لان تشبه نبرة صوت أمه هذه المرة أكثر من المعتاد، عندما كانت تعطيه بعض النصائح الأبوية قبل ذلك بعدة سنوات في بيته الصغير في بلدة مسقط رأسه الصغيرة). "هل كل دراساتك وفلسفتك لم تكشف لك بعد عن سر العيش سويا بين البشر؟".

أخذ المرآة الصغيرة برفق بين أصبعين من أصابع يده اليمنى ورفعها جيدا في وجهه.

"إن فلسفة زين Zen[1] تعلمنا أنه يتعين على الإنسان استخدام عقله كمرآة، دون أن يقبل شيئا أو يرفض شيئا. إن المرآة يجب أن يستفيد منها الإنسان ليرى نفسه أولا في كل مرة يرى فيها الآخر عدوا تجب كراهيته. ألا تتذكر قول حكيم كبير مات بسبب عظم حبه للجار؟ "أتبحث عن القشة في عين جارك ولا ترى العارضة التي في عينك".

أعاد الطلسم إلى الجيب الداخلي الموجود في كمه وأخذ بعدها الخاتم المطلي بالمينا.

رمز الـ"ين يانج Yin -Yang " يذكرنا بأن كل شيء في العالم ما هو إلا تضاد واستقطاب. إن إبراز تماسك المتناقضات ووحدتها هو سر حقيقة الأشياء وهو بالشيء المطلوب للحياة. فالمادة والمادة المضادة موجودتان في توازن دائم. لن تستطيع أي منهما البقاء على قيد الحياة بمفردها. حتى بداخل جسدنا، فهناك نزال مستمر بين القوى الموجبة والسالبة. فالنور والظلام، الخير والشر يُعّرف ويحدد كل منهما الآخر.

لا يمكننا الاستغناء عن الآخر، ونحن الآخر بالنسبة له".

ثم عرض في النهاية القلادة ذات حبة الخردل.

"إن البذرة الصغيرة يجب أن تساعدنا في أن ننمي داخل أنفسنا بذرة الشك. الشك (ولتنتبه جيدا، لا أعني به التشكك الوجودي الدائم في الجميع وإزاء كل شيء، ولكن ذرة الشك الصحيّة)، هو شيء أساسي للنضج، لكي يغيرنا ويجعلنا أكثر تواضعا ونضجا.

إن من يطمئن تماما لأفعاله على الدوام، لن يستطيع أبدا أن يصحح من أخطائه، أو أن يتعلم من الآخرين ويحسن من نفسه".

أدخل لاو لان كلتا يديه في جيبيه، في وضع مميز لحكماء الشرق وصمت عن الكلام، وتحول إلى شخص ساكن لا تبدو عليه أيه انفعالات. أخذت الرؤيا في فقدان وضوحها، وأخذت في الاختفاء ببطء.

"معلمي، أرجوك، انتظر! لم تقل لي بعد ماذا أفعل لكي أجد الطلاسم الثلاثة!".

"الوصول إليها ليس بالشيء المهم. إن البحث عنها هو الأمر الذي يعتد به. إن من يحث الخطي للبحث عنهم، يكاد أن يجدهم بالفعل. داخل نفسه".

---

[1] هي فلسفة المدرسة البوذية، وقد نشأت هذه المدرسة في الصين في القرن السابع وانتشرت في اليابان بداية من القرن الثالث عشر، وتدعو إلى استنارة العقل من خلال تأمل كل مظاهر الواقع (المترجم).

لكم كان يعجبني أن أستمر في استخدام هذا الأسلوب المميز للرواية الحديثة، وهـو منتشر اليوم جدا نظرا لكونه الأكثر فاعلية في الوصول لأكبر عدد من جمهور القـراء. بيد أنني لست أحد الروائيين أو حتى الكتاب. لكم سيكون جميلا على أية حال إذا ما كان هناك حل سحري لعقد التعايش الكبيرة بين البشر، تأتي به شخصية مرموقة مستلهمة إياه من تعاليم حكماء الماضي العظام. على العكس، فمن الناحية الفعلية، نجد أنفسنا أمام بكرة خيط مليئة بالعقد الصغيرة، والتي تحتاج للجهود المتواضعة لكل واحد منا حتى يتسنى حلها. وبعيدا عن الصور البلاغية، فإن نقطة البدء لهذا الكتاب تتسم بالطابع العملي، وقد أتت لي من التأكد غير الباعث على الاطمئنان بأن الطريق صعب جدا، لا أقول طريـق التآخي ولكن الاحترام المتبادل بين أناس مختلفين، وكم يتطلب الأمر، أكثر من التلـويح بمبادئ كبيرة، أن يسهم كل منا بالقدر الضئيل الذي يقدر عليه لكي نقطع بعض الخطوات الملموسة في هذا الاتجاه. إن فكرة الحملة ضد اللاتسامح الخيالي الموجهة للأطفال فـي سن ما قبل المدرسة، والتي أشرت إليها في البوح الذاتي الداخلي الذي نسبته للأمين العام الجديد للأمم المتحدة الخيالي، ليست من ثمار خيالي. لقد كان هناك بالفعل مـا يـسمى بالمنتدى الثقافي لليونسكو، حتى وإن كان ذلك لفترة وجيزة. وكنت قد أسهمت بـدوري بحماس بوصفي أحد أعضاء المجلس التنفيذي لليونسكو في ميلاد هذا النوع من مراكـز البحوث "ثينك تانك Think Tank"، والذي كان يتعين عليـه معالجـة اقتراحـات جديـدة ومغايرة لعرف المجتمع الدولي بأسره. وبالطبع كان يملؤني الفخر لأنه تم اختيار أحـد الإيطاليين ليكون ضمن هذه الصفوة العالمية المحدودة، ولأنه بالفعل صدرت عنه أولـى الاقتراحات الذكية القابلة للتطبيق العملي. ولقد كانت خيبة أملي أكثر بكثير عندما شاهدت مبادرة المنتدى بأسرها تتبخر في الهواء في غضون عامين فقط. وبعـد عـودتي إلـى إيطاليا وافقت بكل ترحاب على قبول دعوة مدير معهد التاريخ الحديث والمعاصر بكلية العلوم السياسية سيزار ألفييري Cesare Alfieri بجامعة فلورنسا، البروفيـسور إينيـو دي نولفو Ennio di Nolfo ، لأن ألقى محاضرات ولمدة عام جامعي كامـل موضـوعها "دور عدم التسامح في التوتر العالمي".كانت الدعوة بمثابة فرصة لي للتنفيس عـن إحبـاطي والمشاركة، حتى لو كان ذلك بالقدر الضئيل جدا، في عمل للتوعية بين الشباب، هدفـه مواجهة موجة كراهية من هم مختلفون عنا، والتي بعيدا عن كونها بدت منافيـة للواقـع وليس لها مكان في عالم العولمة في القرن الواحد والعشرين، يبدو وأنها تتخـذ أشـكالا أكثر تعقيدا ووحشية مما كانت عليه في الماضي.

كان فلاسفة قرن الأنوار Illuminismo يتساءلون:"لو أننا استطعنا من خلال الضغط على أحد الأزرار أن نقتل، في الطرف الآخر من العالم، أحد كبار الموظفين الـصينيين الذي لم نره أو نعرفه قط، وان نحصل على ثروته، كم منا سيتردد في ذلك؟". واليوم لقد تحقق شيء ما، لم يكن متوقع الحدوث حتى في أوج الثورة العلمية التي شهدها العالم منذ

ثلاثة قرون: بمقدورنا مشاهدة كل ما يحدث في طرف الأرض الاخر، في نفس لحظة حدوثه وعلى الهواء، حتى تنفيذ أحكام الإعدام والمذابح. وعلى الرغم من ذلك، فإن ذلك الأمر لا يثنينا عن ضغط الأزرار التي تسبب الموت، ولا يجعلنا نتردد في منح موافقتنا للقيام بتدخلات عنيفة من كل نوع ضد من لا يشاركوننا نفس الآراء أو اختيارات الحياة.

في اللحظة التي أكتب فيها، تقوم إحدى كبريات الشركات العاملة في مجال الاتصالات ببث إعلان تليفزيوني للدعاية تظهر فيه صورة غاندي ولقد انتشرت في أبعد بقاع الكرة الأرضية بفضل أجهزة التليفزيون وأجهزة الهواتف النقالة وأجهزة الحاسوب، وعليها شعار "لو كان قدر له الاتصال هكذا، أي عالم كان سيكون عالمنا اليوم؟". واليوم أيضا لم نعدم الأشخاص ذوي الكاريزما الذين يحاولون في شجاعة وشغف لا يقل عن شجاعة وشغف الرائد الهندي الكبير، الدعوة إلى اللاعنف، ومع هذا لا ينجحون في إحداث أي تغيير يذكر. ففي عصر أكثر وسائل الاتصال تطورا لدرجة لا تصدق، تدهورت قدراتنا على الاتصال الحقيقي بجيراننا. نحن نعرف كيف نرسل رسائل فورية في كافة أنحاء الكوكب بيد أننا عاجزون عن صياغة رسالة واحدة فقط قادرة على أن توقف واحدة فقط من تلك المذابح التي، بينما أنتم تقرؤون هذه السطور، تتم في أرجاء الأرض الأربعة باسم الله، والعرف، والجنس (العنصر)، والأمة، باسم حاكم مستبد، باسم المال،باسم الحرية. ولقد كتب الإسلامي خالد فؤاد علام:" إن من العجب العجاب أن اللغة الإعلامية لا تمثل امتدادا للكلمة في العالم بل سلبا لها".

هل أصبح إنسان الألفية الثالثة، وهو الأكثر "تمدينا" دون أدني شك من إنسان الكهوف أو من إنسان العصور الوسطي بمعني أنه يقطن في منازل أكثر ثراء وأكثر تزودا بوسائل المعيشة المدهشة، أيضا أكثر "تحضرا" بمعني أنه تعلم العيش في تناغم مع أقرانه؟ ربما يكون من الصعب الإجابة على ذلك السؤال بطريقة يتفق عليها الجميع. وعلى العكس فإن من السهل التأكد من أن الجميع ينظرون لدعاة السلام بشيء من الريبة وأن أكثر مؤشرات الاستماع يحظى بها من يدعون إلى عدم تخفيف مراقبة "الآخر" ومعاملته دائما على أنه عدو محتمل. فالناس يحبون الأقوياء الذين يبعثون على الطمأنينة وليس من يزرعون الشك. ففي مقابل كل فيلم من أفلام الخيال العلمي يدور حول الالتقاء مع مخلوقات فضائية طيبة، نجد عشرة أفلام تتحدث عن "مخلوقات غريبة" لها في الغالب نفس ملامحنا تهدف بالخداع، إلى القضاء علينا أو استعبادنا.

أما اليوم فإن ما يقلقنا نحن الغربيين هو العالم الإسلامي الذي يشهد حالة جيشان لم يشهد مثلها قط في التاريخ الحديث. وهي محصلة كان قد توقعها مؤرخ كبير مثل أرنولد توينبيArnold Toynbee منذ خمسين عاما وهي تتعلق بهم أكثر مما تتعلق بنا: كيف يمكننا استهلال طريق الحداثة بعزم دون أن نجرد عقيدتنا الدينية من صفاتها الطبيعية بشكل لا

رجعة فيه. لكننا بصدد تحويل المسألة إلى "حرب حضارات"، وبالتالي نخاطر بأن ننجرف في نفس الدوامة الضالة للمواجهة بين الشرق والغرب، والتي خرجنا منها لتوّنا. إذا فلقد تحول صراع جغرافي- سياسي، بفضل عملية غسيل مخ قام بها كلا الطرفين لفترة طويلة امتدت إلى أربعين عاما، إلى صدام أيديولوجي، تمت إدارته ليس وفقا لمبادئ "الريال بوليتيك Realpolitik (السياسة الواقعية)" الباردة، بل استنادا إلى الأوامر الفوضوية والمانوية المتعلقة بصراع الخير ضد الشر. "الموت أفضل من الشيوعية better dead than red"كان أحد أكثر شعارات التاريخ بلاهة، ولكنه هدد بحدوث انقسام في الكرة الأرضية إلى نصفين مثل ثمرة المشمش.

أما الآن فكل أصابع المتعصبين الغربيين تشير إلى الإسلام على أنه المُصدّر المسئول عن الإرهاب المتأسلم ويهدد بأن يصبح الشيطان، العدو رقم واحد الذي يقود الحرب المقدسة ضد طريقتنا الخاصة جدا في الحياة. ولكن أي حرب باسم الدين أو الحضارة كانت وراء إبادة قبائل التوتسي في رواندا، أو الممارسات الوحشية في الشيشان، وصعود النازيين الجدد أعداء الأجانب في ألمانيا؟

تضرب مشكلة عنف الإنسان ضد الإنسان بجذورها منذ فجر التاريخ، وهو عنف ذو طابع فلسفي وأخلاقي، يتصل بطبيعة الشر، والإرادة الحرة، وقدر الإنسان على الأرض. ولكنه على الصعيد العملي يأتي في شكل مأزق – سياسي في أغلب الأحوال – يتعلق بحدود التسامح، وبمتى يحين الوقت لأن نقول كفى لمحاولات اغتيال القيم التي لا يمكن التنازل عنها بأي حال.

تشهد أرفف المكتبات زيادة شبه يومية في عدد الأعمال النقدية الثمينة، عن التسامح، لكبار الكتاب ممن يحتذى بهم فكريا، وتنظم المؤتمرات والندوات والموائد المستديرة على كافة المستويات. لا أدعي أنني سوف أضيف أي شيء جديد لكل ذلك. إن الشيء الجديد في كتابي يكمن فقط في أنني جمعت في إطار واحد موضوعات غالبا ما تتم معالجتها في دراسات أحادية الموضوع منفصلة؛ وأنني أعدت إلى الأذهان، في ترتيب جميل، الواحد تلو الآخر، سلسلة طويلة من الأحداث والعناصر التي توضح كيف أن أشكال اللاتسامح المختلفة: التعصب الديني، وكراهية الأجانب، والعنصرية، والشمولية، ومعاداة السامية، والتطهير العرقي وهكذا دواليك، ما هي إلا أوجه مختلفة لمنشور واحد، جوانب لظاهرة واحدة ترتبط بقوة فيما بينها ويمكن إرجاعها لمصدر واحد مشترك، ألا وهو اليقين المطلق أي المذهب اليقيني، ولقد وضعت كل هذه العناصر في أكبر إطار تاريخي ممكن.

تعتبر اليقينية هي الدافع المحرك لهذا العمل والخيط الخفي الذي يربط بين أكثر أشكال اللاتسامح تباينا، ورفض الآخر.

كثير من البشر "من ذوي العزائم" ممن يعرفون كيف يأخذون القرارات دون تـردد في أوقات الأزمات، وكلهم استعداد على أن يجعلوا الأعداء والأصدقاء يـدفعون أغلـي الأثمان حتى ولو كانت أرواحهم، لا يحلمون حتى بمجرد التسامح إزاء بعض التـأملات ذات الطابع الفلسفي. يهتمون فقط "بأمورهم"، ويفخرون بذلك، بل ويمتـدحون ويتلقـون الدعم من أجل ذلك. فلنر إذا جيدا هذه "الأمور" ولنمعن فيها النظر ونقارن بينها.

إن علامات الاستفهام التي بحثتها هي نفس تلك الاستفهامات التي سوف يطرحها أي شخص متوسط الثقافة ممن يهتمون بمستقبل أبنائهم وأحفادهم. إلا أنني كنت مـضطرا، بحكم عملي، أن أبحث سريعا عن بعض الإجابات وكان ذلك منذ نصف قرن، عندما كان العالم مختلفا وكان يجب الذهاب للبحث عن الغرباء، ولم نكن نجدهم رغمـا عنـا فـي وطننا.

ومقارنة برجل الشارع العادي الذي ضربت به المثل فإني بالكاد أتفوق عليه بالقدر الضئيل، ذلك القدر الذي يمكن أن يفسر دعواي بأني أرغب في أن أعلمه شيئا ما. فنظرا لطبيعة مهنتي الدبلوماسية، فإنني في مجال العلاقات مع "المختلفـين" حظيـت بخبـرة عريضة تفوق بكثير القدر المتوسط. لقد أمضيت حياتي كلها في السفر والترحال، زرت فيها سبعين بلدا وعشت لسنوات طويلة في عشر دول مختلفة من قارات العالم الخمـس. تعرفت إلى أشخاص بارزين ورموز تنتمي لأكثر العقائد والميول. تعلمت لغة كـل بلـد خدمت فيه وتعلمت، في حدود الممكن، كل الأشياء عن تاريخـه ومؤسـساته وعاداتـه وتقاليده والتي تعود معرفتها بنفع كبير. قرأت عنهم، في مواضيع شتى، كما ضخما مـن المعلومات التي تتعلق بالبشر الذين كنت على اتصال بهم، ورويدا رويدا بينما كنت أحقق تقدما في قراءاتي كانت تتكون بعض الأسئلة في عقلي وكان يتعين على البدء من جديـد حتى أجد إجابات جديدة.

إن الرجوع إلى أبعد المصادر التاريخية، وإيجاد روابط وتماثل في أحـداث بعيـدة بقدر كبير، زمانا ومكانا، كان دائما خير عون لي لكي أتفهم الحقائق التي كانت تحيط بي والتي كانت تربيتي وطبيعة تفكيري تصورها لي منذ النظرة الأولى غيـر مفهومـة أو مقبولة. في مدينة فيرجينا Vergina حيث تم اكتشاف مقبرة فيليب الثاني، كنت قد سـألت أحد معاوني الباحث الأثري الشهير البروفيسور أندرونيكو Andronico "، لو كانت لـديك آلة الزمن، وكان يمكنك العيش في مقدونيا القديمة، فأي الأشياء فـي اعتقـادك كانـت ستبهرك أكثر من غيرها؟ فرد على الباحث الشاب بلا تردد:"الوقوف على عدد الأشـياء التي تغيرت منذ ذلك الوقت".

وصحيح القول إن التاريخ، الذي نعظمه كخير معلم، يكون كذلك بحسابات نادرا ما تكون صحيحة، وهو على أي حال معلم لا يمكن الوثوق به على الدوام. ويتحسس فيه دائما أولئك الذين يدّعون بأنهم يتحركون بدافع اليقين المطلق، أسبابهم لأنه من الأسهل لهم أن يُرجعوا يقينهم إلى أقدم الأحداث الزمنية الممكنة، ومن بين الأحداث التي يزخر بها مستودع الذاكرة الكبير، يأخذون فقط الأحداث والتأويلات التي تخدم، أكثر من غيرها، دعواهم، عندما لا يخترعون الأحداث بشكل كلي. ويعلق فرانكو كارديني، أحد المؤرخين البارزين، قائلا: "إن الأشياء التي ليس لها وجود، تكتسب حيزا كبيرا على الرغم من ذلك، عندما يوجد شخص ما، يؤمن بها".

على أية حال عندما ندخل إلى حقل ألغام سلوك الإنسان، والمجتمعات البشرية الزائغة عن الحق، فإننا لا نستطيع الاستغناء عن التاريخ. بالفعل لأن إلهام وادعاءات بعض الطوائف والحركات المتعصبة تبدو منغمسة في استحضار أقدم المبادئ التي قامت عليها ثقافتهم وإيديولوجيتهم، (كما كان يقول بازوليني:"قوة الماضي المشينة") ولا غنى لنا عن الرجوع إلى هذه الجذور التاريخية الحقيقية أم المزعومة إذا ما أردنا أن نعي مسلكهم العقلي وأهدافهم الخفية. إذا فالتاريخ يساعدنا في أن نهزم هؤلاء على أرضهم. إن إعادة تمثيل التاريخ تشمل العالم بأسره وترجع بالزمن إلى آلاف الأعوام المنصرمة، تضع الأحداث في حجمها الصحيح، تقلل من انفعاليتها، بالأخص، حتى وإن كان ذلك تعبيرا لا يعجب الجميع على الإطلاق. فهي لا تلغي بالضرورة اليقينيات، ولكنها تقلل من مطلقيتها. وسوف يصبح من الصعوبة بمكان الاعتقاد بالتفوق غير القابل للنقاش لأحد الأجناس أو الثقافات أو حتى الأديان، عندما يتضح لنا أن كل رسالة حق تم الدفاع عنها في تفان وبطولة في فترة ما وفي بقعة ما من بقاع العالم، توجد غيرها في فترات زمنية أخرى وفي أجزاء أخرى من العالم، تخالفها، يدعهما آخرون بنفس العزيمة والصدق. بل، إن بعض المعتقدات والمواقف التي نعتبرها اليوم غير مقبولة أو مفهومة كانت حتى الأمس هي مواقف ومعتقدات آبائنا.

ويؤكد الحكيم لاو لان نفسه أن سبر أعماق الماضي لكي نصل إلى جذور اليقين الخاص بنا، يشبه النظر في المرآة، يمكنه أن يجعلنا نتعرف بشكل أفضل على الأنا الفردية والجماعية الخاصة بنا، وأن يبين لنا الآخر، ذلك الذي – حسب تعريفه- لا يفكر في الأمور بنفس طريقتنا، في ضوء أقل "اختلافا".

إن بحثي لا يسعي وراء عرض صنائع السوء، والنفس السوداء لهذا الدين أو ذاك، أو لأيديولوجية أو لأخرى، أو لعرق أو لآخر، أو لحركة سياسية أو لأخرى. بل إنه يسعى للتأكيد على أننا كلما مددنا أعيننا في الزمان والمكان، أدركنا أنه لا يوجد بشر أو شعوب، فقط من حيث الجوهر، أخيار أو أشرار، وأنه لا توجد عقائد أو أيديولوجيات

حسنة تماما أو شريرة تماما. يوجد فقط أناس على قناعة راسخة بأن بعض الأفكار تمثل الخير المطلق والأفكار المعارضة تمثل الشر، وهذا يحدث لأن هؤلاء يفسرون بطريقة جامدة وتفتقر إلى الاستناد النقدي للمثل والنواميس التي انتقلت إليهم من خلال معلمين مبرزين ومن خلال حكمة تكونت عبر آلاف السنين. مثل ونواميس أصبحت في النهاية سجنا لهم، لا يمكنهم التحرر منه حتى وإن غيروا الظروف.

ويحسن القول، بأن هؤلاء البشر هم دائما حسنو النية. وهذا يقودنا إلى تعويذة لاو لان الثانية، إلى جدل الين- يانج الذي لا ينتهي، والذي يساء دائما استخدامه، والقائل بأن اللاتسامح وعدم التسامح، على الرغم من كونهما نقيضين، يتلاشي بعضهما في البعض الآخر. ولكي نعمق من هذا الحديث، نلحظ أن التسامح ليس فضيلة بالفعل، إلا كما يؤكد تشسترتون Chesterton "فضيلة رجل بلا يقين"، بينما على الجانب الآخر نجد أن اللاتسامح ليس أسودا بالدرجة التي يتم تصويره بها، على العكس فكما يقول بول فاليري Paul Valery فهو "إحدى الفضائل المخيفة للأزمان الطاهرة".

وها نحن نصل بذلك إلى بيت القصيد لكامل بحثي، الذي يتكون من نبأ جيد ومهم كان سيسعدني، لو كانت تحققت فكرة إيكو، أن أراه منتشرا بين الصغار والكبار على كافة المحطات التلفزيونية: "أن التسامح لا يعني بالضرورة أن نحب الجار بقدر ما يوجب علينا أن نجتهد لاحترامه حتى ولو بالقدر الضئيل".

تعد مصطلحات "التسامح" و"اللاتسامح" من المصطلحات الحديثة نسبيا. الأمر يتعلق بابتكارات حديثة، مثل "المساواة" و"حقوق الإنسان"، تكتسب معنى خاصا بها طالما وضعت في منحني تاريخي محدد، ويرجي منها تكوين عالم أفضل. لا يجب الخلط بينها وبين مقولات عالمية خالدة مثل حب الجار من ناحية، وكراهية المختلف المتعصبة من ناحية أخرى. بكلمات أخرى يمكننا البدء في الحديث عن التسامح فقط عندما تبدأ في الرسوخ. الفكرة الثورية لكرامة كل البشر حتى أقلهم موهبة وشأنا، وبالتالي فكرة حق كل منا في أن تكون له أفكاره الخاصة به حتى وإن كانت أكثر الأفكار المنافية للعقل.

التسامح – لن أتعب أبدا من تكرار تلك النقطة الجوهرية – لا يعني مشاركة وجهة نظر الآخرين أو يعني أن نكون غير قادرين على أن نقول كفى للشيء الذي لا يمكن التسامح معه. إن وجه الاختلاف بين المتسامح واللامتسامح، هو أن ذلك الأخير لا يتشكك قط، بينما المتسامح لا يستطيع الاستغناء عن جرعة من الشك المنطقي. وهذا لا يعني التشكك في الكل وفي جميع الأشياء، ولا يعني أن ننكر أنه ربما وجدت هناك حقيقة واحدة فقط، بل يعني أن نضع تلك الحقيقة التي نؤمن بها بشكل راسخ تحت اختبار نقدي

دقيق. ويمكن لجرعة الشك إذن أن تتضاءل أيضا لتصل لحجم حبة الخردل التي تحدث عنها لاو لان؛ ولكنها حبة تزن مثقال جبل.

يعج طريق المتسامح نحو الحوار بعقبات يستحيل تخطيها تقريبا. وأكبر هذه العقبات وأكثرها أيضا وضوحا، هو التعامل مع ما لا يمكن التعامل معه، ومحاولة المناقشة مع من لا يود السماع أصلا عن مبدأ النقاش. لكي نقدر على تحمل مثل هذا التحدي غير السهل- وهو فهم وتسامح اللاتسامح نفسه حتى وإن كان ذلك في إطار حدود واضحة - فإنه يتعين على المتسامح أن يجاهد نفسه في المقام الأول.

غالبا ما نعلن عن استعدادنا للحوار، ليس لأننا نعتبر بحق أن "الآخر" جدير بالتقدير ولكن لأننا نعتبر أنفسنا على قدر كبير من الشجاعة، والكرم والعدل يسمح لنا بالتعايش مع أي شخص آخر. في الحقيقة لدينا قناعة داخلية بأن الآخر، إن عاجلا أم آجلا، سوف ينضم حتما إلى جانبنا بسبب قوة قضيتنا الواضحة. بكلمات أخرى، فإن تسامحنا مشروط بأن يكون الشخص المتسامَح معه مستعدا للتكامل، أي ينضم إلى مناخ عام من القيم، نكون فيه نحن المتسامحين الطرف الذي يضع الحدود[١]. والأمر يتطلب منا جد عناء لكي نواجه الأمر بأنه بالنسبة للامتسامح فإن اللامتسامح الحقيقي هو نحن.

اعتراف أخير. تضمنت رغبتي في النزول إلى ساحة القتال ضد عدم اللاتسامح، رغبة أخرى، كان لها ثقلها هي الأخرى، وهي أن أجمع الإرث الأخلاقي لساندرو بيرتيني، ذلك الرئيس الذي أحببناه كثيرا ونسيناه سريعا، والذي شرفني بتقديره لي وبصداقته، والذي كان له أكبر الأثر في نضجي. كان بيرتيني، في كل اللقاءات الطارئة التي كان يعقدها تقريبا صباح كل يوم بقصر الكويرينال Quirinale "قصر الرئاسة" مع مجموعات من التلاميذ تأتي من كافة أرجاء إيطاليا، يحب أن يذكر جملة لفولتير Voltair: "إنني مستعد أن أموت من اجل أن أدعك تتكلم بحرية مع مخالفتي الكاملة لما تقول".

[١] ماريا لاورا لانزيللو، دراسة نقدية بعنوان "التسامح"، بولونيا، إل مولينو Il Mulino، ٢٠٠١، ص ٩-١٠



مقدمة

فضيلتان غير مؤكدتين

"إن التسامح هو أفضل ما لدينا من أشياء، وعلى الرغم من كون هذه الكلمة ليست رنانة بالقدر الكبير، فهو إذا أحد الحلول. انتظارا أن ينجح بنو الإنسان في أن يحب بعضهم بعضا أو على الأقل يتعارفوا ويتفهم كل منهم الآخر، أظن أننا محظوظون لأنهم بدؤوا في تحمل بعضهم البعض..."
فلاديمير ينكيليفيتش، مقالة عن الفضائل

"لا يجب أن تنسينا أسباب التسامح الوجيهة أن اللاتسامح لديه أسبابه الوجيهة هو الآخر".
نوربيرتو بوبيو

[اللاتسامح كرغبة في إثبات الذات – التسامح، القاسم المشترك الأدنى للتعايش – إشكالية "الرجل الهادئ" – الإرهاب الهدام وإرهاب العصابات]

اللاتسامح كرغبة في إثبات الذات

إذا ما أردنا الخوض في حديث صعب حول التسامح واللاتسامح فسوف نجد أنفسنا على الفور أمام صعوبة بمجرد أن نشرع في هذا الحديث. فنحن لا ننجح حتى في الاتفاق على المعني الذي نعطيه لهذين المصطلحين، واللذين مثلهما مثل غيرهما من المصطلحات المجردة مثل على سبيل المثال "الحرية"، "الديمقراطية"، يتخذان معان مختلفة عند أناس مختلفة. يحثنا البعض على ممارسة التسامح كفضيلة ثم نكتشف أن هناك من يظن على العكس من ذلك أن الفضيلة الحقيقة كانت ستكون اللاتسامح نفسه، حتى ولو كانت "فضيلة بغيضة"[1].

إن ذلك حديث نظري لا غير، وهناك فرق كبير بين أن تُعدّ من زمرة المتسامحين أو اللامتسامحين، وذلك يرتبط بالطريقة التي نقيّم بها ردود الأفعال الأكثر ملائمة

[1] دبليو ليبيني W. Lepenies اللاتسامح – فضيلة بغيضة، جراسية – باريس ١٩٩٨ – ص III

لمواقف أزمات بعينها، ويوضح إذا ما كنا نساند التصرفات الساعية لإصلاح ذات البين أم المتعصبة، إذا ما كان لدينا نزعة لاستخدام الإقناع أو القوة. إذن لا يفرض الأمر فقط اختيارا أخلاقيا، بل اختيارات ملموسة حول مشاكل ذات بعد شمولي، مثل على سبيل المثال محاربة الإرهاب، الإبادة الجماعية، انتشار الأسلحة النووية.

وكما أشرنا من البداية، فإن كلمة "تسامح" هي مصطلح جديد، "حديث" ولد في أوروبا في عصر التنوير، مع نهاية الحروب الدينية، مصاحبا لترسخ الأفكار الثورية وهي حقوق الإنسان، التي كانت تترجم بمصطلحات سياسية المبدأ المسيحي القائل بالمساواة بين كل البشر.

أما اللاتسامح (حتى ولو كانت كلمة مشتقة من الكلمة السابقة تهدف إلى الإشارة إلى الافتقار إلى التسامح)، في جوهرها المتمثل في الانغلاق التام تجاه الآخر، فهي ظاهرة متعسفة، قديمة قدم الإنسان، وبالتالي يمكن فهمها بالغريزة. إنها تتعلق بلا أدنى شك بشيء ما أعم وذو صلة بجانب طبيعتنا المظلم، بـ"قلقنا" كما يقول يونج، أو بذلك "الحيوان المقزز" الذي تحدث عنه بريشت. ولمرة أخرى يترك فرويد أثرا له، فلقد حدد أن "قلق الحضارة" في "غريزة الموت": العمياء والمتسلطة، والجريمة، والهمجية، والإبادة الجماعية قد غرست بشكل لا رجعة فيه في جينات الجنس البشري سواء على المستوى الفردي أو الجماعي.

وليس هذا بالوقت المناسب للخوض في الجدل الفلسفي الشهير بين مقولة هوبس أن "الإنسان – الذئب" شرس بطبعه، وقول روسو "الهمجي الطيب" الذي تحول بفعل المجتمع إلى إنسان شرير. ويمكننا أن نتأكد كل يوم بأعيننا وعلى نفقتنا كيف يمكن لبني الإنسان أن يتسموا بالشراسة والعدوانية. فالإنسان هو الحيوان الوحيد (باستثناء الفئران وبعض الحشرات الاجتماعية) الذي يقتل بني جنسه بانتظام. ووفقا لآراء بعض الأنثروبولوجيين المعاصرين، لقد أصبح الإنسان سيد كل الحيوانات لأنه قاتل قبل كل شيء[١].

ومن المؤكد أن اللاتسامح ذو صلة بكل هذه الأمور، وهو في أغلب الأحيان عبارة عن سلوك عدواني وعنيف، ولكنه لا يُعّرف فقط بالعدوانية والعنف. فهو مخالف لذلك بل وأكثر منه.

إن الصدامات التي أدت إلى إراقة دم الأخوة والتي حددت تاريخ الإنسانية كانت تندلع في الغالب بسبب احتياجات موضوعية: الطعام، النساء، ماء البئر؛ ثم بعد ذلك في أعقاب تعقد التنظيم الاجتماعي، أصبحت تندلع لضمان مواقع مميزة في توازن القوى.

---

[١] أرماندو تورنو A. Torno، أخلاقية العنف، مونداوري – ميلانو ٢٠٠٣، ص ١٩ و ٩٤.

من النادر أن يكون الدافع الأول هو الازدراء أو الكراهية، وغالبا ما كان المنتصر يندمج في المنهزم، بل وكان يتخذه مثالا. أما قاموس اللامتسامح فإنه يذخر على العكس بعبارات مثل: "لا أطيق... يرعبني... يقشعر منه بدني". ويبدو أن الشعور السائد عنده هو الازدراء أكثر منه الكراهية. فالكراهية في واقع الأمر يمكن أن تكون شكلا ملتويا من أشكال الحوار والألفة، بينما لا يمكننا حتى أن نكره من نعتقد أنه لا يوجد بيننا وبينه شيء مشترك.

اللامتسامح هو إنسان عاجز عن النقاش. يفكر ويتكلم بمفرده، دون أي حوار. و، كما نبهت بشدة الفيلسوفة روبيرتا مونتيشيللي Roberta Monticelli، يمكن أن يتكلم المرء بمفرده أيضا باستخدام ضمير الجمع، فقط عندما يتوجه بالحديث إلى رفاق المعركة.

إذا فمن الأمر المعتاد جدا أن يصل اللاتسامح إلى أكثر أشكاله حدة ألا وهو التعصب. لأنه يجعلنا نري الحياة من منظور اختيارات إما.... أو.... ويمكننا القول بالتأكيد بأن اللامتسامح، وبدرجة أكبر منه المتعصب دائما ما تحركه أحكام تقويمية سلبية أكثر منها أي شيء آخر. إنه دائم الاستعداد للحكم على الأشخاص والأشياء، ولكي يحكم عليها فإنه نادرا ما يستخدم مصطلحات مثل "تقريبا" أو "نوعا ما"؛ فبالنسبة له فإن هذا الموقف "هو عبث مطلق" وهذا الفلان ما هو إلا "شخص أحمق تماما". وهو معتاد على التعميم، ولا يفعل شيئا آخر سوى تقسيم العالم إلى "حق" و"باطل". لديهم إحساس بصواب لا حيدة عنه. نحن ندرك ذلك من طريقة كلامهم، إيماءاتهم ومن هيئتهم.

حتي الفكرة العامة القائلة بأن اللاتسامح مرجعه الجهل لا تصمد أمام أي تحليل متأن: ففي أغلب الأحوال "يرغب" اللامتسامح في الجهل، فهو لا يشعر بأي احتياج لتعلم أي شيء ممن لا يفكرون على نفس شاكلته. إنه "يعرف" أن كل ما يعتقده هذا الآخر، كل ما يقوله أو يفعله هو خطأ ولذلك فهو لا يريد حتى أن يسمع أي شيء عنه.

كثيرا ما يتخطي اللامتسامح حدود المتعصب البسيط. فذلك الأخير لا ينوي أن يتحرك ملليمترا واحدا عن مواقفه، ولكن يمكنه رغم كل شيء الإقرار بشرف بأن للخصم أسبابه لكي يتصرف بمثل هذه الطريقة. أما اللامتسامح فهو لا يرضي بالتزام مواقفه. فالأمر الذي يضغط عليه أكثر من أي شيء آخر هو أن يكون على حق وأن يفرض هذا الحق على كل الآخرين.

فاللاتسامح إذا يحمل في طياته شحنة انفعالية عالية. شحنة ليست دائما أو بالضرورة شريرة، بل على العكس يمكن أن تكون شحنة مثالية.

نعم؛ بالفعل هكذا: شحنة مثالية.

كتب أموس أوز : "إن المتعصب هو أكثر المخلوقات غير النفعية على الإطلاق؛ يريد أن يخلصك، يريد أن يحررك، يريد أن يخلصك من زلة الخطأ، من التدخين، من إيمانك أو عدم إيمانك؛ يريد أن يحسّن من عاداتك الغذائية، يريد أن يمنعك من شرب المسكرات أو من التصويت بطريقة خاطئة[1].

وإذا ما بحثنا أكثر يمكن للاتسامح، أيضا في أقل صوره هوسا وتعصبا، أن يرجع إلى الشوق الدفين في أعماق كل إنسان إلى الترفع عن ترهات الحياة اليومية، والرغبة في الاستعراف وإثبات الذات. وأيضا كما أشار بول فاليري في خطاب شهير له بجامعة السوربون عام ١٩٣٢، قبل عام واحد من الصعود النازي، بأن اللاتسامح أيضا يمكن إرجاعه إلى "هوس النقاء"[2].

ويؤكد لنا التعبير المستخدم في اللغة الشائعة والذي يصف اللامتسامح بأنه ذلك "الشخص الذي يُعرض عن سماع الأسباب"، هذا المحتوي العاطفي، الذي يؤدي بفرد ما أو بجماعة ما إلى أن تتطوع لحمل يقين مطلق يجب على الآخرين مشاركته فيه، وإن لم يفعلوا فجزاؤهم التهميش، أو الطرد أو حتى التصفية الجسدية.

هذا الأساس الانفعالي يربط اللاتسامح مع الوعي الذاتي بعلاقة قوية، وبالتالي يربطه بتطور الإنسان. وكلما بعد الإنسان عن باقي العالم الحيواني من خلال خلق معتقدات مجردة، ازداد فخرا بتفرده وشعر بأنه مضطر للدفاع عنها بحياته، بالإضافة إلى المعتقدات النسبية التي تحدد جوهره. وذلك يمكنه أن يفسر كيف وصل اللاتسامح إلى ذروته في العصر الحديث، عندما وصل قلق الإنسان إزاء اليقين وإزاء إثبات الذات إلى أقصى درجاته.

في الماضي كان اليقين المطلق للحقيقة تقريبا ما يتخذ شكلا دينيا فقط: كان الحق فقط هو وجود إله واحد. ثم بعد ذلك أضيفت أنواع يقينية أخري قطعية، رويدا رويدا كلما كان فكر الإنسان ينفصل عن المحددات الدينية ليصبح أكثر استقلالا وتعقيدا مثل: الحقيقة التي تأتي من العرف، من الرئيس، من العلم، من أحد المثل. أصبحت مشاعل كثيرة مضيئة ونقاط كثيرة راسخة، نذكرها في إجلال ونكتب بحروف استهلالية كبيرة، أصبحت بديلة للآلهة.

اليوم وقد أزيل تمثال ماركس من على قاعدته، تتم إعادة تقييم مطردة لدور الانفعالات في سلوك الفرد والجماعة. ليس فقط فلاسفة وعلماء نفس وعلماء سياسة يستشهدون بأسطورة أفلاطون الشهيرة: العربة التي يجرها حصانان؛ الحصان الأسود

---

[1] ضد التعصب، لأموس أوز Amos Oz– فليترينيللي ٢٠٠٤ – ص ص ٤٥-٤٦

[2] دبليو ليبيي، اللاتسامح – فضيلة بغيضة – مرجع سابق، ص ١١٢

الرامز إلى "النفس الشهوانية" للغرائز والحصان الأبيض الرامز إلى "النفس العاطفية" أي العواطف؛ بالكاد يكبحهما الحوذي "النفس العاقلة". "التيموس" أي السخط والغضب المقدس في دعم أحد المثل أو للثورة في وجه الشر، يمكنه أن يدفعنا إلى التضحية بالنفس والنفيس، وبالتالي يمكنه أيضا أن يؤدي إلى عنف أعمي ضد كل من يبدو وكأنه تهديد لنا.

ألهذا السبب ازداد اللاتسامح في ظل ما يسمي بالتطور؟ ألهذا أصبح دائما أقل بدافع غريزة ودائما، أكثر فأكثر، كنتاج عقلاني أو روحي؟ ربما. حاول فولتير أن يخفف من دراماتيكيته. فكتب: أتوجه إلى الله بتضرع واحد مقتضب: "إلهي فلتسخر من أعدائي!". ولكن هيهات هيهات. لا يوجد أي شيء في اللاتسامح يمكن أن يستخف به. إنه شيء تراجيدي بشكل بغيض. فالمتطرفون يتدخلون بأعمالهم العنيفة بخاصة عندما يكون هناك نزاع على وشك أن تخف وطأته.

استنادا لما لاحظناه آنفا يمكننا إذن أن نحدد أربعة أشكال رئيسية للاتسامح؛ أربعة مظاهر مختلفة نلاحظ من خلالها نفس الظاهرة: اللاتسامح الديني – اللاتسامح الثقافي – اللاتسامح السياسي – اللاتسامح الأيديولوجي المذهبي.

أربعة طرق لرفض الحوار، تقوم جميعها على نفس المنبع: اليقين المطلق الذي يأمرنا بأن نرفض أي إدعاء بوجود حقيقة أخرى. اللاتسامح الديني ليس إلا اليقين المطلق لحقيقة تأتي من الله، اللاتسامح الثقافي هو اليقين المطلق لحقيقة واحدة تأتي من الآباء، اللاتسامح السياسي هو اليقين المطلق لحقيقة واحدة تأتي من عند الرئيس وأخيرا اللاتسامح الأيديولوجي وهو اليقين المطلق لحقيقة واحدة تأتي من العقل.

التسامح، القاسم المشترك الأدنى للتعايش

وعلى النقيض من هذه القوة الجائرة قاتمة اللون التي تحدد تصرفاتنا بشكل أكبر مما نريد الاعتراف به (من منا قد يصف نفسه باللامتسامح؟) يبدو لنا التسامح هشا بلا رونق. وكما قيل عنه "فكر ضعيف".

يزداد الحديث دوما عن التسامح، تكتب عنه الدراسات النقدية وتعقد حوله الندوات والمؤتمرات. ولقد احتفلت منظمة الأمم المتحدة بمرور خمسين عاما على تأسيسها وأعلنته عام التسامح. وفي نفس العام وبالتحديد يوم ١٦ نوفمبر من عام ١٩٩٥، وبمناسبة الاحتفال بمرور خمسين عاما على تأسيسها، طرحت منظمة اليونسكو إعلان المبادئ بشأن التسامح.

وبدلا من أن يعطي إعلان المبادئ المشار إليه أعلاه تعريفا حقيقيا للتسامح، حدد الإطار الخارجي لـ "معني التسامح" في أنه "احترام وقبول وتقدير التنوع الثري لثقافات عالمنا وأشكال التعبير وصفات الإنسانية لدينا"، ويؤكد أيضا على أن "التسامح هو الفضيلة التي تيسر قيام السلام، ويسهم في إحلال ثقافة السلام محل ثقافة الحرب". ولقد شاهدت بنفسي، من خلال متابعة الأعمال التحضيرية بصفتي أحد أعضاء المجلس التنفيذي للمنظمة، صعوبة الحصول على موافقة جميع المشرعين، الذين ينتمون إلى ثقافات مختلفة، على نص مثل هذا.

على أية حال فإن إعلان المبادئ الذي نتحدث عنه يحدد ليس فقط ملامح التسامح كما يتم ممارسته أو يبدو أنه يمكن ممارسته، ولكن التسامح المثالي، الذي يهدف إلى التعايش بشكل أكبر وأعم. بيد أنه كلما كانت الغاية طموحة، ازدادت المخاطرة في أن تظل غاية طوباوية (لمدينة فاضلة). ربما كان هناك احتمالات أكبر لتحقيق التسامح لو تم تجريده من بعض الشعارات الرنانة التي تلصق به وتجعله أكثر ركاكة ولكن أيضا سهل المنال. بعبارة أخري، أن نستسلم لفكرة أن التسامح ليس فضيلة، ليس قبولا ولا حتى احتراما لأشكال التنوع.

إن قبول وتقدير أشكال التنوع ينتميان إلى نطاق آخر، أكثر ترفعا ونبلا، ألا وهو التضامن والذي لا يجب أن نخلط بينه وبين التسامح.

إن التضامن، والذي يخاطر للأسف أن يصبح أحد الكلاشيهات الكثيرة "الصحيحة سياسيا"، والتي تفيد فقط في تغذية الخطابة البلاغية، يعد المفهوم الأكثر قربا للمحبة، والتآلف الذي يضع حدا للصراعات. إذن فمن الممكن تشبيهه بـ "وليمة الأصدقاء" عند الإغريق "أغابي Agape"، أو "مشاطرة الأحزان" عند الرومان "بييتاس Pietas"، أو "المحبة" عند المسيحيين "كاريتاس Caritas"، أو "الشفقة" عند البوذيين Compassione، أو "الرحمة" عند المسلمين Misericordia. أما التسامح فهو شيء أكثر تواضعا وشأنا من ذلك بكثير. ليس محبة أو شفقة، إنه فقط ذريعة عملية مصطنعة[1].

لو أننا سألنا أي مجموعة من الأشخاص ما رأيهم في التسامح، هل يعتقدونه شيئا إيجابيا أم سلبيا، فسوف نحصل على إجابات متناقضة.

البعض يعتقدون أن المتسامح، هو إنسان ذو عقلية متفتحة، ومنفتح تجاه الآخر. وللتعبير عن هذا المفهوم يستخدم الأنجلوسكسونيون مصطلح "متساهل" ليبرال" liberal. أما البعض الآخر فيرى،علي النقيض من ذلك، أن المتسامح هو إنسان سهل الجانب بدرجة كبيرة، يتحمل قدرا كبيرا من الظلم دون أن يتذمر.

---

[1] في لغة علماء القانون الصعبة، المستقاة من القانون الروماني، التضامن يمثل مرتبة قائمة على البناء الكامل للعلاقة مع الآخر (omnes juvar)، بينما التسامح يوضع في مرتبة من الامتناع البحت (alterum non ledere).

كلا الرأيين، في الحقيقة، غير صحيح، لأن التسامح هو بين هذا وذاك، في منطقة بينية رمادية اللون. فهو حل وسط، منزلة بين منزلتين: بين التفهم الكامل والرفض التام، وهو دائم التأرجح بين هذين القطبين. كانت بيوت الدعارة في إيطاليا وفرنسا، تعرف بـ"بيوت التسامح"، وتوضح هذه العبارة حقيقة الوضع بشكل جيد؛ موضحة أن كل ما كان يحدث في هذه البيوت ذات النوافذ المغلقة لم يكن، على الدوام، شيئا ممنوعا كلية أو مسموحا به كلية. ولقد أصاب هذا المثل الهدف، حيث وصف الأكاديميون النظرية المسيحية عن التسامح؛ تلك النظرية التي تنسب إلى القديس أجوستينو، والتي سميت بالـ"ضعيفة" – والتي ترتبط بإدراك الضعف البشري وبالتالي بفرصة التخفيف بين التضاد الدوغماتي "الحقيقة – الخطأ" من خلال جرعة من التساهل في مواجهة بعض العيوب – (بشيء من الفكاهة التي لا أعرف إذا كانت عن قصد أم عن جهل) بأنها "مفهوم دعاوى" للتسامح[1]. ففي حقيقة الأمر، كانت بيوت الدعارة، حتى وقتنا هذا في الفترة الزمنية التي تسبق قانون ميرلين الذي قضى بإغلاق "البيوت المغلقة"، تعمل بدون أية مشاكل جنبا إلى جنب بجوار الكنائس في قلب المدينة الخالدة "روما".

إذا كان التسامح لا يجب أن يكون تساهلا أو إرضاء للذات، فلا يجب أن يتم أيضا الخلط بينه وبين اللامبالاة. إذا كان قبولنا لشيء ما سببه أنه لا يمسنا من قريب أو بعيد، ولا يخلق لنا مشاكل، فلا يمكننا أن نسميه تسامحا. لو أنني، نظرا لأني لا أعاقر الخمر، لا أتذمر عندما يطلب المسافر الذي يشغل المقعد المجاور لمقعدي في الطائرة أن يحضروا له كأسا من الويسكي الدوبل، إذا لا يمكنني التفاخر بكوني متسامحا. سوف أكون متسامحا بالتأكيد على العكس من ذلك لو أنني لا أعارض عندما يشعل هذا المسافر سيجارة، على الرغم من كوني غير مدخن. إن عنصر الاحتمال، أي المعاناة هو بالفعل مكون أساسي. إن مصطلح التسامح يشتق من الفعل اللاتيني يتحمل "tolerare". ونفس الكلمة Tolleranza تستخدم كمصطلح فني وهو "حمل" أي أقصى درجة توتر يمكن لجسم ما تحملها قبل أن يصل إلى نقطة الانهيار.

إن من يتسامح يتحمل شيئا ما يسبب له الضيق. يقرر أن يترك الأمور تجري في أعنتها إيثارا للسلام، بيد أنه يتألم نظرا لتأذي مشاعره وإرباك عاداته.

وعادة لا يلقى هذا الجانب الاهتمام الذي يستحقه، بيد أنه هو ما يمنح التسامح معناه الحقيقي، فاعليته العملية، مستثنيا إياه من مملكة اليوتوبيا. يعتقد الكثيرون ممن يلتبس عليهم الفرق بين "التسامح والتضامن"، أن التسامح إزاء موقف معين يساوي تفهمه وجعله جزءا من الذات. على العكس تماما. إن التسامح يصبح له معنى فقط في وجود تناقض،

[1] ماريا لاروا لانزيللو، التسامح، مرجع سابق، ص ٢١.

عندما تتقابل سلوكيات وطرق تفكير غير متوائمة فيما بينها. من ينجح في امتصاص هذا التناقض والتسامي به، ليس به حاجة في التسامح.

أما من يتسامح فهو ينجح فقط، وفي منتهي الصعوبة، ولا يكون ذلك بالشكل التام مهما حاول من جهد، في أن "يضع نفسه مكان الآخر". وهذه نقطة حرجة. لن نكرر أبدا لمرات كثيرة أن التسامح لا يعني على الإطلاق الاستغناء عن اليقين الشخصي الراسخ، بل فقط الاستغناء عن ترسيخه بوسائل مغايرة لوسائل الإقناع. وهو ما يطلق عليه أحد المؤرخين التونسيين، وهو محمد طالبي: "تحمل رضائي"[1]. ولكي نوضح هذا المفهوم جيدا نضرب مثالين.

الأول مأخوذ عن الإطار الديني. فلقد أعلنت الكنيسة الكاثوليكية، بعد مرور ثلاثمائة عام على حكم الموت الصادر بحق جوردانو برونو، بأنها اقترفت ذنبا، لكنه كان اعترافا حريصا ومحدودا. إذ أقرت فقط بأن العقوبة الصادرة في حقه مبالغ فيها وأن عدم الموافقة الكنسية كان يجب أن يتم التعبير عنه بشكل أقل قسوة. إن هذا الفيلسوف "نولانو"، حاد الطبع، الذي واتته الجرأة في القول بأن الكون يحتوى على عوالم أخرى مشابهة لعالمنا، مازالوا يتهمونه بالهرطقة، فهو لا يستحق إعادة التأهيل بل فقط الكثير من الرحمة. ها هو سلوك نمطي بالتأكيد غير مستنير، ولكن بشكل أبسط أكثر تسامحا. (يمكن أن نتذكر على نفس نسق تلك الأفكار، قطعا، بأن سقراط بسبب أفكاره المعارضة حكم عليه بشرب السم، بينما حكم على برتراند رسل فقط بالحرمان من التدريس. لو لم يكن ذلك تطورا على مستوى المبادئ، فهو يعتبر تطورا على المستوى العملي، ويخلق فارقا كبيرا، ليس فقط للمهتمين المباشرين).

المثال الثاني يأتي في الإطار السياسي: تجربة التعايش السلمي بين الأيديولوجيات المتعارضة "شرق-غرب" في السنوات العشر ما بين عامي ١٩٦٩ و١٩٧٩، والتي تعرف باسم "الانفتاح". هذا المثال يخص بدقة النقطة التي نريد إيضاحها، لأن مواقف الجانبين ظلت غير متوائمة. ظلت الجيوش في وضع الاستعداد، ظلت الصواريخ ذات الرؤوس النووية عابرة القارات في وضع الإطلاق، مستعدة لإبادة الخصم من على وجه الأرض، وربما تدمير العالم بأسره أيضا. شيء مخالف للانفتاح العقلي أو التفاهم المتبادل! ومع ذلك كان يحتوي على مسودة تسامح. ثم خفض حدة لهجة الحديث عن دمار العالم والصراع بين الخير والشر (قوى الخير التي تمت تعبئتها ضد إمبراطورية الشر، البروليتاري المُستغل المنقلب على رأس المال الإمبريالي)، تمت الموافقة على بعض مبادرات التعاون الفني خاصة في مجال الفضاء، فضلا عن مشروع دبلوماسي

[1] محمد طالبي، التسامح واللاتسامح في السُّنَّة، في اللاتسامح، مرجع سابق، ص ٥٣.

يهدف إلى تقليل دراماتيكية الصدام من خلال إجراءات طوارئ (تشغيل الهاتف الأحمر بين "البيت الأبيض والكرملين"؛ إدارة الأزمات المحلية). إيجازا: تحديد أفضل "لقواعد اللعبة". وعلى الرغم من كل شيء تتنفس العالم الصعداء. وليس بالتأكيد بمحض الصدفة، ففي هذه الأعوام، بالتحديد، عقدت اتفاقية كامب ديفيد، أكثر المبادرات، الرامية لإيجاد حل لمشكلة الشرق الأوسط، دلالة.

إذن فالتسامح بإيجاز يهدف إلى إيجاد الحد الأدنى من التعايش، ومن شأنه إصابة محبي أفكار القوة الكبيرة بالحزن. ولكن نظرا لأن الحكمة التوراتية القائلة: " حب لجارك ما تحب لنفسك"، ظلت حبرا على ورق، فلنحاول على الأقل أن نتبع أكثر المعايير تواضعا "احترم جارك".

فلننح جانبا أي ادعاء بأننا نحب أو على الأقل نقبل جارنا، الذي يصلي، أو يلبس، أو يأكل بطريقة مخالفة لطريقتنا، وغالبا ما يختلف لون بشرته عن لون بشرتنا. فلنتحدث ولنتخذ سلوكا خاليا من النفاق، دون محاولة إخفاء عدم إعجابنا بهؤلاء أو كم هو قليل قدر الاحترام الذي نشعر به تجاه ما يقولون ويفعلون. الشيء الوحيد المطلوب منا كخطوة أولى هو أن نهجر أي فكرة تدعو إلى إزالة هؤلاء من على وجه البسيطة لكونهم مختلفين. هل تعتقدون أن هذا بالأمر اليسير جدا؟ فلتحاولوا أن تتخيلوا كم سيختلف العالم لو أننا نجحنا في تطبيق هذه المبادرة على مستوى عالمي بدءا من الغد ولمدة شهر واحد فقط.

إن مثل ذلك المجاز الذي يقلل من شأن التسامح يفيد أيضا في الدفاع عنه من ذلك الاتهام الذي يوجه إليه بانتظام: بأنه نسبي. إن قبول تواجد أكثر من حقيقة يعني نفي إمكانية "الحقيقة" نفسها. والقول بأن الجميع على حق يساوي القول أنه ما من أحد على حق. بناء عليه فإن المجتمعات التي تتسم بنزعتها إلى التسامح، في المقام الأول تلك القائمة على مبادئ الديمقراطية الليبرالية، والتي تتجه كما هو حالها الآن إلى قبول كافة المعتقدات، تخاطر – وهو ما يدعمه أيضا بعض المفكرين المعاصرين ممن لا تحوم حولهم شبهة مناصرتهم لنزعات تعسفية – بالوقوع في الركود وفي فقدان كافة المثل. إن اليقين عنصر جوهري بالنسبة لنا، تماما مثل الهواء الذي نستنشقه. وهذا أمر محل اتفاق، وتشجب مقولة بريشت الشهيرة: "طوبى للشعوب التي ليس بها أبطال"، استغلال القيم المقدسة لخدمة مغامرات حربية مجنونة، ولكن يجب علينا أيضا أن نأخذ في الاعتبار أن الأمم التي لم يعد لديها علم ترفعه عاليا هي أمم على شفا الانحطاط. بالمصيبة الشعوب التي لم يعد لديها شعار خاص بها، التي لم تعد تنظر للأعلى ولكنها ترضى فقط برغد العيش المادي وإرضاء مصالحها الشخصية الفورية!

وفي هذا الصدد تظهر أهمية التسامح بكل معانيها، كمنطقة رمادية اللون، تتخذ فيها كل درجات الاختلاف أهميتها. أن يكون الإنسان متسامحا لا يعني ألا يكون على يقين ما، يعني فقط أن يكون حذرا من اليقين "المطلق"، الأعمى الذي لا يقوم على قاعدة نقدية، يعني التشكك من كل شكل من أشكال الدوجماتية، من كل رفض لوضع المعتقدات الخاصة تحت الاختبار. تفيد الدوجما فقط لوضع الحقيقة تحت ناقوس زجاجي وأن نجعلها لا يمكن المساس بها، محصنة من إغراءات الحوار، وبالتالي من احتمالات دحضها. إن المتسامح، نصير الحوار، لديه هو الآخر حقائقه ويقينه. لا ينوي على الإطلاق التشكك من كل شيء، ولكنه يفكر، كما قلنا في البداية، أنه لا يمكن الاستغناء عن ذرة الشك، لتجعله أكثر تماسكا في معتقداته وأن هذه المعتقدات يمكن أن يتحقق منها فيما بعد من خلال مواجهتها بأفكار أخرى.

إشكالية الرجل الهادئ

عند هذه النقطة ينبغي علينا العودة إلى مشكلة التسامح الحقيقية الكبيرة، التي أشرنا إليها في المقدمة، وهي مشكلة حدود التسامح. هذه المشكلة هي العامل الذي يسهم بشكل كبير في جعل الحدود بين التسامح واللاتسامح أقل وضوحا، ويسبب تداخل المفهومين فيما بينهما مما يجعل التسامح يبدو أقل "حُسنا" مما كنا نعتقد، واللاتسامح أقل "شرا".

متى وكيف نحكم على شيء ما بأنه لامتسامح؟ تلتبس هذه المسألة مع مسألة أخرى عويصة وأبدية، وهي رد فعل الخير تجاه الشر. أيضا العقيدة المسيحية التي تمجد الطيبين تقر هي الأخرى بإمكانية حمل السلاح لنصرة قضية عادلة. هل هو صحيح ما يقوله النقاد عن المتسامحين، من أنهم من خلال التفكير في الأمور والموازنة بين حسنات وسيئات الأشياء، لم يعودوا قادرين على التيموس thymos ؛ على الغضب المقدس؟ هناك نقطة انهيار، إذا ما تخطيناها، فلن يتمكن حتى أكثر الناس دماثة من الاكتفاء بمجرد المشاهدة. كان جوزيبي جوستي Giusipe Giusti ينفجر في ضحك يختلط بالبكاء مرددا: "عذرا! لو كنت أنا البابا لبعض الوقت لكنت وضعت الغضب بين الأسرار المقدسة المسيحية.

بالفعل، ولكن أين توجد نقطة الانهيار هذه؟ متى وفي أي ظروف يجب على الإنسان ألا يكون متساهلا وأن يكون له رد فعل؟

وكما هو الحال دائما، يكون الشعراء والكتّاب هم من يعرفون أن يرسلوا لنا، أفضل من غيرهم، معنى بعض الحقائق الكبرى. إن أدب العالم كله ثري بقصص "أخيار" وجدوا

أنفسهم في النهاية، بعد أن بذلوا قصارى جهدهم لتحاشي اللجوء إلى القوة، مضطرين، رغما عن أنوفهم، إلى الثورة ومحاربة الظلم واللامساواة.

وها هو من جديد بيرتولد بريشت Bertold Brecht يوضح لنا بدقة مفهوم أن التعايش بين البشر ليس فقط اختيارا بين خير وشر، بين صواب وخطأ ولكن أيضا مشكلة كيف يجب على الدمث التصرف إزاء الإساءة والظلم. إن مأساة الرجل الطيب عند سيشوان Szechuan هي قصة فتاة الليل شينج تي Sheng Te، التي أثابتها الآلهة نظرا لكرمها بإعطائها شركة تجارية صغيرة، ولكنها في النهاية تضطر إلى أن تخترع حاميا لها، كي تتمكن من العيش، في ظل الاستغلال والاضطهاد، فتتنكر في شخصية ابن عمها "صعب المراس" شوي تا Shui Ta وهذا التنكر يضمن لها في النهاية الاحترام والتقدير.

وتوضح الرواية التي كتبها الأيرلندي موريس والش Maurice Walsh "الرجل الهادئ" وجها آخر لنفس المشكلة، أي الخطر في أن من يتردد في استخدام قوته ليضع حدا لاستغلال الغير قد يرمي بالجبن. ولقد قام جون فورد بتحويل هذه الرواية إلى فيلم شهير حمل نفس العنوان، قام ببطولته، وليس ذلك من قبيل المصادفة، جون واينJohn Wayne، ذلك الممثل الذي كان يجسد بشكل أفضل دور البطل الشهير عند أهل الجنوب الأمريكي: "الطيب" الذي لا يتردد للحظة في استخدام مسدسه دفاعا عن العدالة وفي تلك الرواية استخدم البطل قبضته المحظورة كملاكم سابق.

نعلم أيضا تمام العلم كيف أن هذه المشكلة حية وموجودة دائما على الساحة الدولية. إن التضاد بين "الصقور والحمائم" أثناء الحرب الباردة مثّل بالأخص جدلا حول مدى العلو الذي كان يجب أن يكون عليه سقف الشيء الذي لا يمكن التسامح معه. كان "القساة" في تلك الفترة يحبون ذكر المثال السلبي لسياسة "الإرضاء" التي كان يمارسها رئيس الوزراء البريطاني نيفيل شامبرلين Neville Chamberlain إزاء هتلر وموسوليني والتي يعتقد الكثير من المؤرخين أنها أدت في النهاية إلى تشجيع تطاولهم. ولقد أصبحت "روح موناكو" مرادفا "للوهم الداعي للسلام". وفي الصين أثناء الثورة الثقافية، للترويج لضرورة عدم وضع السلاح أبدا إزاء الأعداء الداخليين والخارجيين، تم إعادة نشر، في شكل نكات مصورة جميلة، الخرافة القديمة لذلك الحكيم العجوز الذي تملؤه الرحمة عندما يرى أن ذئبا قد وقع في شرك الصيادين، فيحرره، ولكن الذئب كاد أن يمزقه إربا لولا نجاح أحد الفلاحين بالدهاء في إعادة هذا الحيوان المفترس إلى الشرك.

والشكل الأكثر حداثة لمأزق الرجل الهادئ هو الذي عرضه الكاتب السويدي بيورن لارسون، والذي يتخيل، في رواية نشرت حديثا، محاولة اغتيال في مترو أنفاق باريس، يتم إحباطها في اللحظة الأخيرة. وأبطال هذه الواقعة هم بعض "الأخيار" والذين يجدون

أنفسهم، رغما عن أنوفهم، وقد وقعوا في أيدي مجموعتين من المتطرفين المتعارضين فيما بينهم: متعصبي الحركة الإسلامية الجزائرية GIA، ومتعصبي الجبهة الوطنية لـ "لو بانLe Pen"، وفي النهاية لا ينجحون في أن يتحاشوا، على الرغم من محاولاتهم الأمينة، أن يلجئوا هم أيضا إلى القوة وأن يقتلوا بدورهم[1].

وبالطبع فهي مشكلة ذات طابع أخلاقي في المقام الأول، تلقي أيضا بالمسئولية على الأغلبية الصامتة في مجتمع ديمقراطي. فعلي سبيل المثال، بخصوص الهولوكوست، كيف نحكم على صمت كل أولئك الذين، في داخل وخارج ألمانيا، وأيضا ضمن المراتب الكنسية، تظاهروا بعدم معرفة أي شيء ولم يحركوا ساكنا؟

وهي أيضا مشكلة سياسية: فالإغراء كبير في استخدام الاستياء والرغبة في العدالة لتبرير استخدام القوة حيث لا يكون هناك حاجة إليها. الجدل حول التدخل الأمريكي في العراق، على سبيل المثال، لا يرتكز كثيرا حول نقطة أخلاقية: وجوب استخدام القوة ضد الإرهاب أم لا، ولكن حول نقطة ذات طابع سياسي كامل: إذا ما أمكن اتهام صدام حسين والعراقيين بالتعاطف مع الإرهاب الإسلامي.

كان سوريل يحب توضيح إحدى الأفكار التي وردت في كتاب باسكال بعنوان "الأفكار" الذي يؤكد أنه ليس بالعدالة ولكن بالقوة يحكم العالم. "فالعدالة هي موضع جدال، أما القوة فتعرف على الفور وبدون جدل وعلى ذلك لم يستطع إعطاء القوة للعدالة مؤكدا أنها هي فقط العادلة. وهكذا نظرا لأنه لم يستطيع أن يجعل من الشيء الصواب شيئا قويا، فلقد جعل من الشيء القوي شيئا صوابا".

إذا نعود دائما إلى نفس السؤال الذي طرح عند البداية. كيف يمكننا أن نكون متأكدين أننا بالفعل في موقف به شر وأنه قد حانت ساعة أن نقول كفي؟ في ماضي ليس بالبعيد، كانت هناك شرور، نعتبرها اليوم لا يمكن التسامح معها، مثل التعذيب، والإبادة الجماعية، والرق كانت مقبولة وكأنها حتمية، حتى من قبل السلطات الدينية. أما اليوم فقد جردتنا العقلية العلمانية من ذلك المرشد الروحاني الأكيد الذي كانت تمدنا به النصوص المقدسة.

من الاستفهام السابق تنبع علامات استفهام أخرى كثيرة. هل وجود نية حسنة محتملة لدى من يمارسون الشر يعتبر أم لا يعتبر عاملا مخففا؟ هل يخفف الأمر من حدة جرائم

---

[1] بيورن لارسون "عين الشر" L' occhio del male إيبيربوريا ميلانو ٢٠٠٢. وقد كان أفلاطون يتساءل: "ولو أن أحدا ما اعتقد بأنه قد تعرض لظلم؟ أليس صحيحا أن تثور عندها ثائرته، أن ينفعل وأن يتحالف مع ما يبدو له أنه عدل؟ جريدة لاريبوبليكا ٢ – ٤٤٠ ب. انظر أيضا ف. فوكوياما F. Fukuyama : نهاية التاريخ والرجل الأخير، كتب أفون، نيويورك ١٩٩٢.

هتلر كونه كان مقتنعا بفعل الخير لشعبه وربما للإنسانية؟ كان تشاوتشيسكو يود لو وضع شاشة تليفزيونية في كل بيت روماني لأنه كان يقول بأنه بمتابعة الحياة الشخصية لمواطنيه حتى في أدق تفاصيلها كان يمكنه أن يفي باحتياجاتهم بشكل أفضل. لو كان هذا الطهر الظاهر قد تم التحقق من صدقه، هل كانت مثل تلك الموضوعات سوف تكون ممدوحة ومقبولة؟ هل سيكون بن لادن أقل خطأ لو تم التحقق من أنه يعتقد بصدق أنه ينفذ إرادة الله؟ يبدو وأنه يجب أن نخلص إلى أن الأمر الذي يعتد به ليس النوايا بقدر ما هو العواقب العملية لبعض الأفعال.

مرة أخري فإن التوجه البرجماتي الكامن في مفهوم التسامح يبدو وأنه الوحيد الذي يمكن ممارسته للخروج من هذه الورطة. وبعض المفكرين المعاصرين مثل ريتشارد رورتي Richard Rorty يشجعنا في هذا الرأي[1]. فهو يمدنا على أية حال بمعيار لتحديد متى يتم تخطي حد قابلية التسامح: هذا يحدث عندما تتعرض إمكانية القيام، مستقبليا بأي شكل من أشكال الحوار، نفسها للخطر.

وهذا ما يسميه كارل بوبير "عبث اللاتسامح". لو أننا مددنا تسامحا بلا حدود حتى إلى اللامتسامحين – وهذا هو جوهر أطروحته – ؛ لو أننا لم نكن مستعدين للدفاع عن مجتمع متسامح ضد هجمات اللامتسامحين، إذا سوف يتم تدمير المتسامحين ومعهم يتم تدمير التسامح. ويعلق فلاديمير ينكليفيتش Wladimir Jenkelevitch "حقيقة الأمر لو أن التسامح بلغ ذروته سوف ينتهي به المطاف إلى دحض نفسه"[2].
وعلى هذه المقدمات قام التفسير الأخلاقي لتدخل الدول الديمقراطية ضد التهديد النازي والذي كان هدفه المعلن هو تقويض دعائم النظام الديمقراطي[3].

---

[1] انظر أنيندا ن. بالسليف Aninda N. Balslev ريشارد بورتي، "نحن وهم"، حوار حول التباين الثقافي، إلــ ساجّاتور، ميلانو ٢٠٠١.

[2] يري أندريه كونت سبونفيل بأن "الشيء الذي يجب أن يحدد قابلية التسامح لهذا أو ذلك الفرد، لهذه الجماعة أو تلك ، لهذا السلوك أو ذاك، ليس اللاتسامح الذين يبرهنون عليه (لأنه في تلك الحالة سوف يتعين حظر كافة مجموعات شبابنا المتطرفة، وبسلوكنا هذا نعطيهم الحق)، ولكن خطرهم الفعلي: إن فعلا لامتسامحا، أو مجموعة لامتسامحة، إلخ، يجب أن يتم حظرهم إذا، وفقط إذا، شكلوا تهديدا فعليا للحريات أو لشروط إمكانية التسامح بشكل عام" (بحث صغير عن الفضائل الكبري، كورباتشو Corbaccio ١٩٩٦).

[3] جابريل مارسيل Gabriel Marcel (بحث في الفلسفة المادية، جاليمار ١٩٤٠، ص ٢٩٩ وما يليها) يثير بدوره نقطة مهمة: عدم التسامح الذي يجب التمييز بينه وبين التسامح، يتطلب دائما نوعا من التكليف، أي أننا نرفض تحمل شيء ما ليس بسبب من عند أنفسنا، ولكن باسم شيء آخر أو شخص آخر. إن رب الأسرة الذي لا يتسامح بأن يقوم أحد الغرباء بتلميحات مخربة، أثناء تناول الطعام في حضور زوجته وأطفاله، سيقول لذلك الأخير: " حضرتك تعتقد أنه يمكنك قول كل ما يعجبك عندما نكون بمفردنا، لكن الأمر يختلف في وجود زوجتي وأطفالي". ها هي المسألة تتعقد من جديد، لأن المسافة قريبة جدا بين عدم التسامح في هذه الحالة وبينه عندما يكون باسم المصالح المقدسة. إذا ها هو السبب في أن التسامح ينتهي دائما وأبدا بضرورة وجود انقطاع حتمي، وبعدا للصلة التي تربطنا برأينا. وبالقدر الذي أمنح فيه رأيي القليل من الأهمية، يمكنني أن أمنح الآخر تسامحا أكبر. ويتفق مارسيل أيضا على أن حدود التسامح لا يمكن تحديد معالمها مسبقا.

الأمر يتعلق بخطوة مهمة في توضيح المشكلة، حتى لو ظلت دائما هناك صعوبة في الاتفاق حول ما إذا كان التهديد فعليا بذلك القدر من الخطورة الحقيقية التي تهدد كامل الإطار الذي نسوقه هنا.

اليوم يتم الحديث عن "تسامح صفر" إزاء أشكال من الإجرام تمثل تهديدا حقيقيا لنسيج المجتمع الحضاري بأسره: تجارة المخدرات، واختطاف الأفراد، وتجارة الأعضاء البشرية، والتحرش الجنسي بالأطفال، وهكذا دواليك. ولكن، هل من الصحيح وضع كل هذه الأشكال على نفس المستوى، ومعالجتها كلها بنفس المعيار؟ هل من الممكن محاربتها بكفاءة بالقمع البوليسي فقط، متغافلين أن وراء كل شكل منها جرحا اجتماعيا؟

الإرهاب الهدام وإرهاب العصابات

نفس الإشكالية نواجهها فيما يخص أكثر أشكال الجريمة لاتسامحية ووحشية، في القرن الواحد والعشرين، وهي الإرهاب الدولي.

من الواضح أنه ليس من الممكن الوصول إلى أي شكل من أشكال الاتصال مع هذا الإرهاب الهدام الأعمى وغير العقلاني. أما الإرهاب الذي تقوم به أفراد أو جماعات مسلحة داخل بلد بعينه لقتال نظام يعتقد بأنه فاسد أو قتال قوة محتلة، يمكن مكافحته ليس فقط بتدخلات عسكرية أو من قبل فرق الشرطة ولكن أيضا بإجراءات سياسية واجتماعية واقتصادية، الهدف منها إزالة جذور الاستياء الذي يمكن أن ينبع منه بعض المساندة من جانب الشعب. فعند الحديث عن شخصية مهمة بالإدارة الأمريكية، فإن المجموعة الثانية (إرهاب العصابات) سوف تطلب لنفسها مكانا على طاولة المفاوضات أما المجموعة الأولى (الإرهاب الهدام) فسوف ترغب في قلب الطاولة بكل ما عليها. فأتباع هذه المدرسة الفكرية يعتقدون بأنه من حيث الحديث عن اجتثاث جذور الظاهرة الإجرامية، لا يجب وضع الجميع في نفس التصنيف، ولا يجب النظر بنفس المعيار إلى أعضاء خلايا القاعدة، وأنصار الانتفاضة الفلسطينية، أو أفراد العصابات المسلحة الجزائرية، أو الثوار الشيشان، أو الانفصاليين الباسك، أو أعضاء الجيش الجمهوري الأيرلندي، وهكذا دواليك. إن إدارة الحالات واحدة تلو الأخرى، من شأنه أن يوفر لنا أقصى قدر من الفاعلية في محاربة الإرهاب، بأن يسمح لنا بحربه على جبهتين: جبهة القمع الفوري، وجبهة "تجفيف المنابع" التي تغذيه. بكلمات أخرى سوف يكون من الأفضل التحدث عن "الإرهاب" ليس بوصفه "الشر الكبير"، ولكن عن "ظواهر إرهابية" يجب انتزاعها من جذورها عبر اختيار سليم لأكثر الوسائل المناسبة لكل ظاهرة منها على حدة.

هذا التمييز الأخلاقي على أية حال ينطوي على المخاطرة بإضفاء شيء من الشرعية على إرهابيي العصابات، بينما على العكس الإرهاب، مهما كانت أهدافه، فبسبب استخدامه العنف، بلا تمييز، ضد أبرياء، يوضع دائما خارج المجتمع المدني. ويعتقد الكثيرون في هذا الصدد أنه لا ينبغي أن نطرح مشكلة التسامح، لأن التسامح يفترض وجود حد أدنى من قوانين اللعبة بينما الإرهاب، كما يتضح من تعريفه، يقوض كل قاعدة.

ولقد حالفني الحظ في أن أتعرف في الجزائر، في فترة كان التطرف الإسلامي ما زال يبدو فيها بعيدا، على إرهابيتين كانتا ناشطتين إبان حرب الاستقلال. كانتا ما تزالان صغيرتين إبان هذه الفترة وكانتا فخورتين لأنه كان يطلق عليهما "مجاهدتين"،وعندما قابلتهما كانتا بالفعل قد أصبحتا سيدتين يافعتين، لاتزالان جذابتين وأنيقتين، مقربتين إلى الأوساط الحكومية، وتعيشان حياة اجتماعية معتدلة. كانتا تتحدثان بحرية عن هذه الأزمان، وكانتا تدفعان بنفس الحجج المعتادة: "كان للفرنسيين دبابات وطائرات ورشاشات آلية، كانوا يحصدون بها المدنيين. أما نحن فكان لدينا قنابل بدائية صنعت بأجهزة تفجير ميقاتية قديمة، واستخدمناها عندما وكيفما استطعنا". أما أنا فلم أتمكن من منع نفسي عن الرد بنفس النغمة، على الرغم من معرفتي أنه كان من الأفضل لي أن أتناسى الأمر، وأن ذلك كان سيجعلهم يرون في شخصي سفيرا على قدر ضئيل جدا من الدبلوماسية. قلت معارضا: "إن العسكريين عادة لا يصيبون عن عمد دائما وفقط أهدافا مدنية بينما التكتيك الإرهابي يستهدف بالفعل الأبرياء. إن الاختيار المدروس بتفجير قنبلة في أحد بارات اللبن milkbar الممتلئة بالأطفال هو جريمة ضد البشرية كبيرة الحجم لدرجة أنها تسبب وصمة لا تمحي في جبين أي قضية من أجل الحرية والاستقلال مهما كان نبلها". من وجهة نظري ليس أيضا بالأمر الصحيح أن نطلق لفظ "انتحاري" على من يفجرون أنفسهم دون أي تمييز ضد أهداف مدنية، لأن الطيارين Kamikaze الانتحاريين اليابانيين في الحرب العالمية الثانية كانوا جنودا نظاميين وكانوا يستهدفون أهدافا عسكرية.

والجدل حول هذا الشأن مفتوح أكثر من أي وقت مضى. إن إدانة الإرهاب على المستوي الأخلاقي لا تقبل أي نقاش، وليس لها استئناف. على أية حال ينبغي أن نتساءل إذا ما كانت القرارات على المستوى العملي، المراد بها مكافحة الإرهاب، لن تكون أكثر فاعلية لو أننا بدلا من أن نظل ثابتين على توجهات قبلية، بها "فائض من الإيديولوجيات"، أخذنا في الاعتبار وجود عدة تدرجات للشر.

من الضروري على أي حال أن نتحاشى أن تؤول كلمة تسامح إلى نفس ما آلت إليه كلمة "مبدأ المسالمة"، والتي اتخذت الآن معاني داخلية سلبية.

امل أن أكون قد أوضحت بالقدر الكافي، أنه من الممكن أن يكون الإنسان متسامحا، أيضا دون أن يكون دائما لين الجانب، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أنه أيضا ربما يكون اللامتسامح شخصا حسن النية، أو حتى مثـــالي. إن الفـــارق بـــين المتـــسامحين واللامتسامحين لا يمكن أن نلتمسه في طيبة البعض وشر البعض الآخر ولكـــن فـــي أن اللامتسامحون يضغطون على الزناد بسهولة، لا يتركون أنفسهم يتأثرون بأحاديـــث قـــد تضعف من تصميمهم، بينما المتسامحون، على الرغم من كونهم ليسوا مستعدين لقبـــول أي عوج، يفكرون مرتين قبل إطلاق النار.

وليس ذلك الاختلاف باليسير. ويعد الفهم العميق لعدم التسامح فـــي كـــل علاقاتـــه التضمينية أحد أهداف هذا العمل.

الجزء الأول

اللاتسامح الديني

اليقين المطلق المستمد من عند الله



تضرع إلى الله

"لا أتوجه بدعائي هذا إلى الناس بل إليك أنت يا إله الكائنات وإله العالمين وإله الأزمنة. أن أذنت لمخلوقات ضعيفة ضائعة في الفضاء الشاسع للكون أن تتجاسر فتسألك شيئاً أنت يا من أعطيت كل شيء ويا من أوامره ثابتة سرمدية، تفضل فانظر بعين الرحمة إلى الخطايا الناجمة عن طبيعتنا ولا تجعل هذه الخطايا مصدراً لمصائبنا إنك لم تعطنا قلباً ليكره بعضنا بعضاً وأبدياً. اجعلنا حيث يعاون بعضنا بعضاً لاحتمال أعباء حياة أليمة عابرة. واجعلنا حيث الفروق الضئيلة بين الملابس التي تستر أجسامنا الضعيفة وبين لغاتنا القاصرة وبين عاداتنا المضحكة وبين كل شرائعنا وقوانيننا وبين كل آرائنا الحمقاء وبين كل أحوالنا التي تبدو في عيوننا متباينة ولكنها أمامك متساوية. اجعلنا بحيث لا تكون كل هذه الفروق الضئيلة التي تميز الذرات التي تسمى بني الإنسان علامات وشارات لإثارة الكراهية والاضطهاد واجعل أولئك الذين يوقدون الشموع في رائعة النهار احتفالا بك يتحملون أولئك الذين يكتفون بضوء شمسك. واجعل أولئك الذين يغطون أثوابهم بقماش ابيض ويقولون انه يجب أن نحبك لا يكرهون أولئك الذين يقولون الشيء نفسه وهم يتدثرون برداء من الصوف الأسود، ولتكون سواءً عبادتك بلغة قديمة وبلغة حديثة واجعل أولئك المصبوغة ثيابهم بالأحمر أو البنفسجي ويسيطرون على قطعة صغيرة من كومة صغيرة من هذا العالم ويملكون بعض الشذرات المستديرة من معدن معين ويتمتعون دون كبرياء بما يسمونه عظمة وثروة. واجعل الآخرين ينظرون إليهم دون حسد لأنك تعلم أنه ليس في كل هذه الأشياء التافهة ما يستحق الحسد عليه أو التباهي به.

يا ليت الناس يتذكرون دائماً أنهم إخوة أو أن يبغضوا الطغيان في نفوسهم، كما يكرهون النهب الذي يسلب بالقوة ثمرة العمل والنشاط الهادئ! وإذا كانت بلايا الحرب لا مفر منها فلا يمزقن بعضنا بعضاً في حِضن السلام.

ولنستعمل لحظة وجودنا في حمدك بآلاف اللغات المختلفة من سيام حتى كاليفورنيا حمدا على كرمك الذي وهبنا هذه اللحظة."

فولتير، رسالة عن التسامح، الجزء ٣٣



الفصل الأول

القتل إرضاء للرب

"لدينا ما يكفي من الدين لكي نكره جارنا لا لنحبه"

جوناثان سويفت

[اللاتسامح الباطني للمقدس – الطبيعة الأفقية والرأسية للدين – تسييس الدين وتحويله إلى مؤسسة]

اللاتسامح الباطني للمقدس

إن رحلة بين أعداء الحوار ينبغي أن تبدأ، حتميا، من الدين. أحد أضخم الموضوعات التي تفرض نفسها في كل حديث عن اللاتسامح، ودائما ما تحظي منه بنصيب الأسد.

إذا ما كان اللاتسامح ينبع من اليقين المطلق، فإن الدين يأتي تاريخيا ومنطقيا في الصدارة، ويؤثر في كل يقين مطلق آخر. أي يقينا يمكن أن يكون غير قابل للجدال بشكل أكبر من ذلك اليقين الذي يأتي من الله؟

حتي وقت قريب كان الكثيرون يدعمون، على الأقل فيما يتعلق بإدارة شئون العالم، أن شمس الدور الذي يلعبه الدين قد غربت للأبد. على العكس فلقد عادت من جديد بقوة كأحد العوامل الأساسية على الساحة الدولية. ولقد أصاب أندريه مالرو Malreux عندما تنبأ: "إن القرن الحادي والعشرين سيكون دينيا أو لن يكون".

بدءا من عام ١٩٧٩، قبيل نهاية الحرب الباردة، كانت الثورة الخومينية في إيران تشكل صحوة النزعة الإسلامية الجهادية. وعاد الدين من جديد ليكون دفعة قوية من أجل انتفاضة روحانية وسياسية، في كافة أرجاء الأمة الإسلامية، حيث يستمر قرابة مليار

بسمة في ممارسة حياتهم اليومية وفقا للشعائر المقدسة التي تحدد طريقة أكلهم، ملابسهم، العلاقة بين الجنسين والعلاقات الاجتماعية.

في نفس تلك السنوات في أمريكا اللاتينية ولد لاهوت التحرير، وفي بولندا كانت الكنيسة الكاثوليكية تدعم حركة تضامن soildarnosc. ويرجع الدور الذي لعبه يوحنا بولس الثاني في اندحار الشيوعية العالمية في الجزء الأكبر منه إلى الكاريزما الخاصة به، وأيضا إلى حيوية العقيدة التي مثلها. الدليل على ذلك أن أول أولويات الشعوب التي ظلت، لمدة سبعين عاما، حبيسة التأثير السوفيتي وخاضعة لعملية غسيل مخ من قبل تربية ملحدة، بمجرد ذوبان طبقة جليد النظام الشمولي، كانت إشباع احتياجات الروح والعبادة. أيضا شهدت الصين في فترة ما بعد ماو تسي تونج نهضة للديانة البوذية والكونفوشية، وأيضا ظهرت فرق ذات صبغة دينية باهتة، مثل فرقة أنصار فالون جونج Falun Gong. في النهاية فإن إعادة انتخاب بوش ترجع إلى العامل الديني عامة أكثر بكثير مما يمكن أن نعتقد.

إنه حقيقي أن القائمين على أديان كثيرة يشكون دائما من أزمات في العلاقة مع الله، وانخفاض في حضور المناسبات الدينية أو وجود اتباع شكلي بحت، ولكنه حقيقي أيضا أن ظواهر فقدان الانجذاب إلى الشعائر التقليدية تجد عوضا كبيرا في أشكال تدين بديلة، حتى لو اعتبرت غريبة على الأرثوذكسية.

ويجب أن ننتظر من هذه الصحوة الدينية انخفاضا مقابلا في التناحر والعداء. لكن على العكس من ذلك يؤكد أن الدين منبع أولي من منابع اللاتسامح وأن أيضا أشكال اللاتسامح مثل كراهية الأجانب، والعنصرية، والاضطهاد، التي تبدو من أول وهلة أنها لا ترتبط بالعامل الديني، مرتبطة به أو بديلة عنه.

كيف يمكن القول بشيء مثل هذا؛ بأن الدين هو ما يشعل نار كراهية "الآخر"؟ نحن نعرف جيدا أن كون الإنسان مؤمنا متحمسا لا يعني على الإطلاق أن يكون لامتسامحا، لأن العقائد المختلفة تحث على التضامن والشفقة وأن الديانات، مهما كان تجسدها التاريخي، ثبت أنها منابع لا بديل عنها للرحمة والعدالة.

كيف نفسر إذا أعمال العنف والوحشية، من القتل الشعائري إلى الانتحار الجماعي، من اضطهاد المنشقين، إلى الحرب المقدسة، والتي استمرت في عصور وأماكن مختلفة، باسم عقيدة دينية؟[1]

---

[1] انظر بين أحدث الأعمال العديدة في هذا الشأن: هينت دي فريس Hent De Vries، الدين والعنف. رؤى فلسفية من كانت إلى دريدا، جون هوبكينز، يونيفريستي بريس، بالتيمور ٢٠٠٢؛ تشارلز سيلينجوت Charles Selengut الغضب المقدس=

إنه سؤال لا يمكن ألا نطرحه عندما نستعرض تاريخ العالم، ولكننا نطرحه اليوم بشكل أكبر. لقد طرحناه إبان حرب العراق وإيران، عندما نما إلى علمنا أن أطفالا إيرانيين كانوا يرسلون من قبل آيات الله إلى حقول الألغام لكي يفتحوا الطريق أمام جنود المشاة، وكانوا يحملون في أعناقهم مفتاحا صغيرا، مفتاح الفردوس التي ستفتح لهم مقابل هذه التضحية. لقد طرحنا نفس السؤال بعد اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي رابين Rabin عام ١٩٩٥، على يد شاب عبري من جامعة بار إيلان Bar Ilan الدينية، والذي صرح بعد إلقاء القبض عليه قائلا: "لقد أمرني الله بذلك ولست نادما". ثم طرح السؤال نفسه علينا في نهاية الأمر مع قراءة أحد الأنباء التي توضع في الصفحات الداخلية للصحف اليومية لأنها تأتي من أحد أقاليم العالم التي تعني لنا فقط البؤس والفولكلور: في الهند، حيث يبدو للكثيرين منا أن الدين هناك هو شيء أكثر بقليل من كونه فلسفة غريبة، قام الأصوليون الهندوس بهدم مسجد قديم وتسويته بالأرض مخلفين آلاف القتلى.

من المؤكد أننا لم نعدم الجهود الرامية للاستدلال على أنه ليس العامل الديني الذي أدي إلى اللاتسامح ولكن فقط هذه الديانة أو تلك هي التي ثبت عدم تسامحها. إن أكثر المقارنات التاريخية بساطة، لتكفي لإقناعنا بالعكس. كتب سلمان رشدي، الذي شعر بتهديد التعصب الديني يتابعه كظله: "مهما كانت الديانة التي بيدها مقاليد الأمور، فسوف تتفتق دائما وأبدا عن لاتسامح. وسيولد من رحمها محاكم التفتيش وتخرج علينا أعضاء طالبان".

الطبيعة الأفقية والرأسية "للدين"

"كيف يمكن أن نقتل باسم الله؟" أحد الأسئلة الكبرى التي ينجم عنها، بشكل حتمي، أسئلة أخرى أكبر منها، توقف عندها كبار المفكرين، مثل على سبيل المثال: "ما هي دوافع الإنسان للتدين؟". يمكننا هنا فقط إعطاء بعض اللمحات التأملية، التي تقوم على الحاجة الغريزية للفلسفة الكامنة في كل إنسان منا، حتى أقلنا امتلاكا لوسائل تصورية ملائمة.

لم يكن القدامى يسألون قط "ما هي ديانتك؟" وهذا السؤال مازال يبدو غريبا على الأسماع أيضا ليومنا هذا في كثير من الأقاليم الآسيوية والإفريقية. ولكن بغض النظر

=تفهم العنف الديني، والنت كريك Walnut Creek ، التاميرا ٢٠٠٣. هارولد إليتر Harold j . Ellens قوة الدين المدمرة. العنف في اليهودية، المسيحية والإسلام. برايجر بابلشر، ويستبورت ٢٠٠٤.

عن أي تعريف شكلي، إن معني المقدس، في جانبه الأكثر عموما، هو ظاهرة بالمدينة وشمولية، تعطي لونا لكل لحظات الحياة وتعزف على أعمق الأوتار لكل إنسان.

وإنه من الأمر البديهي جدا أن يكون للدين صلة وثيقة بما يمكن أن نسميه "مخاوف الإنسان الأربعة الكبرى": الخوف من الموت، الخوف من الوحدة، الخوف من ألا يكون للحياة معنى، والخوف من الحرية.

يحتل الخوف من الموت المرتبة الأولي، كانعكاس لغريزة البقاء. أيضا الحيوان يدرك أن كائنا حيا آخر لن يستيقظ ثانية من سباته كما هو الحال كل صباح. لكن وحده الإنسان لا يستسلم لهذا الأمر ويحاول أن يجد حلا له في عالم من الغيب. القبر والصلاة هي تعبيرات إنسانية خالصة. فالحيوانات لا تدفن موتاها. وأكثر العقول الإلكترونية تطورا لا يصلي.

ولكن الإنسان يتوجه إلى ذات عليا أيضا لكي يجد جوابا لسؤاله عن أسرار الوجود، ليقلل من شعوره بأنه أعزل، لكي يحصل على المحبة والعون.

ويؤكد يوحنا بولس الثاني في رسالته البابوية بعنوان (الإيمان والعقل fides et ratio): "إن نظرة بسيطة فى التاريخ القديم توضح لنا بجلاء كيف أنه فى بقاع مختلفة من بقاع الأرض تميزها ثقافات مختلفة، تطفو على السطح الأسئلة الأساسية التى تميز رحلة الوجود الإنسانى: من أنا؟ من أين أتى وإلى أين أذهب؟ لماذا الشر موجود؟ ماذا بعد هذه الحياة؟ نجد هذه التساؤلات فى كتابات إسرائيل المقدسة، ولكنها تظهر أيضا فى كتب الهندوس المقدسة Veda وأيضا بقدر لا يقل عن ذلك فى كتب الزرادشتية المقدسة Avesta؛ نجدها في كتابات كونفوشيوس ولاو تسيه Lao -Tze ، كما نجدها أيضا فى وعظ التيرتانكارا Tirthankara وبوذا؛ وهى نفس الأسئلة التى تظهر فى قصائد هوميروس وتراجيديات يوريبيديس وسوفوكليس، وكذلك فى مقالات أفلاطون وأرسطو الفلسفية. هي أسئلة تأتي من أصل مشترك، وهو طلب المعنى الذي يختلج في قلب الإنسان منذ الأزل: بالفعل فإن التوجه الذي نعطيه لوجودنا يرتبط بالإجابة على هذه التساؤلات. الدين إذن، كما توضح الرسالة البابوية، هو بحث عن معنى الحياة. وهو مجموعة الأفكار، والأحاسيس، والأفعال التى يحاول من خلالها الإنسان أن يتقصى ويتصل بمبدأ أعلى، متجسد غالبا (الأم الكبرى، أبانا) والذي يمكن أن يجد عنده هدف وجودنا في العالم".

غير أن البحث حول الآخرة ومعنى الحياة يبدو أنه مسألة كبيرة جدا بالنسبة لشخص بمفرده. فهى ينبغي أن نواجهها بالتعاون مع آخرين، ولذا تتطلب توحيد الهدف لكى نستعطف رحمة القوي الخفية لا تكفي فقط رغبة الفرد ولكن يتطلب الأمر انصهار كافة

طاقات المجتمع سويا من خلال تأدية بعض الأفعال بعناية وحذر. فالصلاة، عندما تؤدى في جماعة، تضاعف من فاعليتها ومن جانب اخر تقلل من شعورنا بالوحدة، وتعطينا دافعا إضافيا للتعايش، وهو هدف مهما يجب أن نتكاتف حوله كأننا جسد واحد. إذا ها هو الدين يصبح على الفور ظاهرة جماعية. فبجوار عنصر الغيب فإن حس الاتحاد، والخضوع لسلطة الجماعة يسهم بدرجة كبيرة في تأمين حياتنا وجعلها ذات معنى، وفي تبرير القيود المفروضة على حريتنا الفردية، وفي النهاية ليمنحنا أيضا شكلا من أشكال الخلود من خلال ذاكرة الجماعة.

واقع الأمر أن مصطلح "الدين"، الذي شهد ذروة انتشاره بداية من القرون الوسطى، يشتق من الفعل اللاتيني religare أي يربط (أو يحقق الترابط).

هذه الفكرة: الرباط أو الاتحاد (التي تعبر عنها أيضا كلمة اليوجا) يمكن شرحها في اتجاهين متضافرين ويدعم بعضهما البعض، اتجاه إلى الأعلى، صوب عالم الغيب، واتجاه آخر يتجه إلى الأشياء التي تحيط بنا، إلى تجميع مجموعة من البشر حول ما يُعتقد أنه مقدس. إن المقدس يدعم من تعايش الجماعة وتعايش الجماعة يتخذ بدوره قيمة مقدسة.

إذا يوجد في "الربط سويا" بعدان، أحدهما رأسي والآخر أفقي، وكلهما ضروري حتى يمكننا التحدث عن وجود الدين. إذا ما اقتصر فرد ما على تأدية الصلاة بمفرده دون أن ينضم إلى أية شعيرة، لا يمكننا وصفه بأنه يتبع أي دين. أما على العكس إذا اقتصرت جماعة ما على تأدية شعائر إجبارية ولكنها لا تستهدف القيام بأي اتصال مع ذات غيبية، فسوف يتعلق الأمر عندئذ فقط بظاهرة ثقافية بحتة وليست دينية.

ويرتبط بعدا الدين ارتباطا وثيقا فيما بينهما، لأن كليهما يتناول سبب وجود الدين ذاته، رد الفعل تجاه مخاوف الإنسان الكبرى الموروثة. يمكننا التحرر من الخوف من الموت عن طريق الاستغاثة برحمة القوى الخفية وأيضا في نفس الوقت بأن نعرض هويتنا على أعزائنا وعلى أعضاء الجماعة الآخرين، الذين سوف يحفظون ذكرانا وينقلونها للأجيال المستقبلية، التي سوف تقلل من شعورنا بالوحدة، وتساعدنا على إعطاء قيمة لحياتنا ويعملون على تنمية إحساسنا بالمسئولية.

وتتخذ الأديان المختلفة ملامح مميزة مختلفة فيما بينها ويتنوع مدى اللاتسامح الذي يظهرونه دفاعا عن نواتهم الأساسية، أيضا بشكل ملحوظ، حسبما تعطى الأفضلية لأحد البعدين: الأول أو الثاني.

إن الأديان التي نسميها بالفعل "منزلة" يُقيمون الحقيقة و الطبيعة المقدسـه ار سـالتهم على العلاقة المباشرة مع المعبود. فمن المنطقى إذا أن تحاط هذه الرسالة بأقصى درجات التعنت. لو أن الله تعطف بالكلام مع الإنسان وأملى عليه نواميس سلوكه، فإنه من غير المعقول أن نعصاه أو نخالف كلامه، فذلك سلوك جاحد بقدر ما هو طائش. ومن الحتمى وضع القواعد بحسم وعدم ترك أدنى شك لمتبعي الدين حول ماهية تفسير كلمة الله. والأولوية المطلقة هنا تكمن فى التأكيد على الاستقامة "أرثوذوكسية"، والتى تعنى بالفعل "العقيدة الصحيحة".

أما الأولوية فى سياق اجتماعى آخر فلا تتمثل فى أسرار الغيب التى تترك إلى الوجدان الفردي، ولكنها تخص بقاء الجماعة، والذي يتم ملاحقته عن طريق التضرع إلى رحمة قوي الكون الخفية. أيضا هذا الإلزام الأخير لا يترك أية مساحة عصيان، أو شك أو مخالفة. ويتطلب الأمر، لكى نحافظ على تماسك سلسلة "الطوطم والتابو" المقدسات والمحرمات (وهو عنوان لعمل شهير لفرويد)، تأدية الممارسات المتعلقة بذلك بدقة وصرامة وأن يتم عقاب كل من يبدو منحرفا ويطرد من الجماعة بوصفه الحلقة الضعيفة التى تعرض السلسة للخطر. وفى هذه الحالة فإن التأكيد يتم على التطبيق العملى الصحيح أي الممارسة الصحيحة.

تسييس الدين وتحويله إلى مؤسسة

إذا أمعنا النظر جيدا، سنجد أن هناك عنصرا أساسيا في الحالة الأولى وفى الحالة الأخرى يؤدى إلى أن تظهر الديانات الأكثر إيحاء بمظهر أقل نبلا، ومواقف غير متسامحة نحو من لا يتكيف مع تعاليمها : فهناك ضرورة أن كل الديانات دون تمييز تغوص في العالم المادي، وأن تواجه الحاجات اليومية، ومن ثم أيضا تتحرر عاجلا أم آجلا من متاهات السياسة.

فلا يوجد زعيم ديني يريد أن يكون اتباعا، ويحافظ على إيمانه متوقدا، يمكن أن يتجاهل المطالب الأساسية للعيش، و مساعدة المحتاجين، وكذلك الحاجات الملحة للجسد من جانب المؤمنين.

إن أكثر أولئك المؤمنين يكابدون ليتخيلوا الغيب دون الوصول إلى شكل ملموس، مثل تجسيد الإلهة والاحتفالات، والأضاحي وهكذا يسوع على الجبل حيث ألقى موعظته الأكثر سموا في كل الأزمان، وجب عليه أن يواجه مشكلة كيفية إطعام الحشود التي

جاءت لسماعه. وهناك قول صوفي يقول : "سبح الله، ولكن لا تنس أن تعقـل جملـك، وتربطه إلى الوتد"

إنه من السهل إلى حد ما إدارة مجموعة دينية قاصرة على قبيلة من البدو الرحل، أو قاصرة على فرقة صغيرة. ولكن عندما يتعلق الأمر بعقيدة دينية تشيع في مجتمع كبيـر بأسره، فإن الأمر لا يتعلق فقط بإشباع الحاجات الغذائية، بل بتنظيم الواجبات المختلفـة بصورة ملائمة، وكذلك لتؤتى المشاركة الجماعية في الشعائر آثارها الجماعية كاملة تولد هكذا مؤسسية الدين، التي تتخذ أشكالا عديدة، ودرجات، ويؤدى إلى إيجاد منظومة معقدة ودقيقة من الإجراءات حيث يتم تشييد المعابد بصورة تنافسية مع قصور الملوك، ومن ثم نشأت طبقة من الكهنة لإدارة الاحتفالات، ولعقد الزواج، ولمتابعة تنفيذ التعاليم الدينيـة. ولذلك أصبح الدين، كما يقول هوبرت Hubert، "إدارة حقيقية لما هو مقدس ".[1] بيـد أن تكوين مؤسسات، وتنظيمات إدارية يؤدى حتما إلى التسييس.

ها نحن قد وصلنا إلى أكثر النقاط حساسية، والتي تقدم لنا شـرحا وإن لـم يكـن مستفيضا، ولكن شرح جدير بالتصفيق إلى حد ما، للسلوك اللامتسامح الذي يتسم به كل دين عبر مسار تطوره : حتمية الاتفاق مع السلطة فقد رسخ قديما مبدأ أن كل مرحلة من مراحل الحياة الاجتماعية تحتاج بشكل أساسي إلى البركة الإلهية. فلا يمكـن اختيـار مغارة لقضاء الليل، ولا يمكن تشييد مدينة، ولا يمكن أن تتحرك الجنود إلى الحرب دون نيل علامات الرضا من الآلهة أولا – ومن ثم كان اتحاد العرش والمذبح لا غناء عنه.

وكثيرا ما كانت تتمثل، وتتحد مهام الرئيس، والكاهن في الشخص ذاته وإذا ما حدث غير ذلك كان يتم ثمة تحالف فيما بينهما، تحالف يغذيه ويدعمه كلا الطرفين، من جانب السلطة المدنية بواسطة إجراءات تشريعية تقوى مكانة الكاهن، ومن جانب السلطة الدينية من خلال تعاليم مقدسة تقدس مهمة القائد والزعيم. وقد بلغت هذه العمليـة المزدوجـة ذروتها من خلال تطورين ملحوظين نجدهما تقريبا في كل الثقافات والحضارات : تأليه الحاكم، وفكرة الحساب بعد الموت.

إن الحاجة إلى "ربط" الطاقات الروحية للمجتمع بكامله لتحقيق الاتصال مع الكيانات العليا من جانب، والحاجة إلى تدعيم اتحاد المجموعة بتقديس هذا الاتحاد، تؤثران على

---

[1] يعتقد دور كايم Durkheim وفان دير ليف Van der Leew أن فكرة المقدس أساسية أكثر من فكرة الله خاصـة في المجـال البروتستانتي في القرن العشرين ، ويميل كثير من علماء اللاهوت لعقد تمييز بين الدين والعقيدة ، واحد من أكبر هـؤلاء العلمـاء ، وهو كارل بارث Karl Barth يعارض بقوة المفهومين اللذين يريان في الدين شيئا يمكن مقارنته مع ذلك المفهوم الذي يمثله الجسد للقديس بولس : إنه شكل من أشكال إثبات ذات الإنسان ، بينما الإيمان على العكس هو حقيقة "فقط بالقدر الذي لا يدعى فيـه أية حقيقة تاريخية ، ونفسية ، فقط عندما لا يمكن وصف حقيقة إلهية " . انظر جاك روليه J.Rollet، الدين والسياسة Religion et politique جراسيه ، باريس ٢٠٠١ ، ص ص ٢١٤ – ٢١٢

شخصية القائد، وتضفيان عليها هالة إلهية، وهي أقوى صفة على الإطلاق. فقد كان الملك طوال العصور القديمة لا يعد فقط ممثل الالهه على الأرض، ولكنه نفسه أكتسب سمات إلهية. وحتى اليونان، الذين كانوا أيضا أبطال الديمقراطية ومخترعيها، والرومان الذين كرسوا أنفسهم لروح النفع العام (المصلحة العامة) فكروا جيدا في إدخال الفكرة الشرقية للطبيعة الإلهية للحكام بغية تقوية السلطة الضرورية واللازمة لإدارة منظومة اقتصادية – اجتماعية معقدة دائما، وذلك بدءا من الإسكندر عند اليونان ومن أغسطس عند الرومان.

وقد أثبت هذا المنحى فاعليته لدرجة أنه استمر حتى حقبة حديثه بمؤسسة الملكية التي تحكم بالحق الإلهي وقد ظلت بقايا فكرة العباءة الإلهية لمسئولي المصلحة العامة كامنة ومختفية في الشكل الذي تتمحور حوله فلسفة المحافظين السياسية في نظام حكم ديمقراطي: الله، الوطن، الأسرة.أما فيما يتعلق بالفكرة الأخرى المنتشرة إلى حد كبير ،وهي فكرة الجزاء بعد الموت، فمن السهل إدراك كيف أنها تدعم الأوامر والنواهي بطريقة أكثر فاعلية من أي تملق أو إطراء، أو تهديد دنيوي. فبالنسبة للزعماء الدينيين، وللزعماء السياسيين. كان الوعد بالجنة للصالحين – الطائعين، والوعيد بالنار للعصاة – الأشرار، بمثابة وسيلة "العصا والجزرة" العبقرية التي تجعل العبد يفضل الموت تحت ضربات سياط سيده، والتي تحفز المقاتلين في المعركة. ولقد أضافت الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى على هذه المنظومة، حيث زادت على الجنة الطائعين، والنار للعصاة، منزلة أخروية ثالثة وسيطة هي المطهر الذي أعطى إشارة البدء لتجارة صكوك الغفران المربحة، التي فقدت مصداقيتها وصلاحيتها اليوم. ولازالت أذكر حتى اليوم مشهدا من فيلم شهير في الثلاثينيات (هو فيلم رماة الألعاب النارية إن لم يلتبس على الأمر) وقد أثر في كثيرا هذا المشهد وأنا طفل صغير : فقد كان الضابط البريطاني يحاول أن يجبر أسيرا مسلما على الكلام، وكان الأسير صامدا أمام كل التهديدات حتى التهديد بالرمي بالرصاص، ولكنه عندما هدده بأن يدفنه في جلد خنزير، أبدى الأسير المسلم استعداده للاعتراف بكل شيء، بسبب ذعره من أن يدفن في جلد خنزير.

والتحالف بين عرش الملك والمذبح ليس بالأمر السهل كما يمكن أن يتوهم البعض، وحتى في الحالة التي يجتمعان فيها لشخص واحد، فإنها يبقيان في تنافس، وفي لعبة سلطة دقيقة : فالدين يميل إلى توظيف السياسة، والسياسة تميل إلى توظيف الدين ومن هنا قويت ذراع اللاتسامح الذي زاد بصورة أكثر تعقيدا لأن كلا الخصمين يحتاج في المقام الأول إلى الولاء غير المشروط من قبل أتباعه ليؤكد سلطانه على الآخر. وكثير من الحروب التي أطلق عليها "دينية" لم تكن إلا صراعات سياسية ارتدت عباءة دينية فقد أصبح الدين بمثابة "أيديولوجية صراع ". وهذا التشابك للمصالح والدوافع التي تتلاقى

أحيانا -- وتتعارض أحيانا أخرى وهو ما يستمر حتى أيامنا هذه – يعطينا فكرة واضحة عن ارتباط اللاتسامح ذي المحرك الديني بعوامل اجتماعية وسياسية فعندما يقوم الدين على مسلمات، يبلغ اللاتسامح ذروته، لأنه في هذه الحالة لن تكفى الطاعة المطلقة لتعاليم الدين من قبل المؤمنين، ولكن سيكون المطلوب هو ممارسة سلطان على نفس المؤمنين والسيطرة على ضمائرهم وطريقة تفكيرهم ومن ثم يكتسب احتكار المؤسسة الدينية لتفسير النصوص المقدسة أهمية قصوى فكون رجال الدين يعتبرون أنفسهم فقط هم المؤهلون لتحديد ما هو الجزء الذي لا مساس به من العقيدة، وما هو الجزء الذي يمكن تعديله، يعد مسألة سلطة، قبل كل شيء إذ أنه المعنى الذي يسند لكلمات الله من قبل السلطات الدينية التي تضطلع بهذا الواجب يفوق القيمة الحرفية لكلمات الله.

إن هذا الأمر لا يتعلق فقط بالكنيسة الكاثوليكية، بل وكما سنرى يعد التفسير مهما بنفس القدر في السياق العبري والإسلامي، حيث تشكل النصوص التفسيرية والشروح الجزء الأكبر والأبرز من المحتوى المذهبي لهما وليس ذلك فحسب بل يتعدى الأمر هذه الديانات السماوية : يكفى فقط أن نعود بالذاكرة إلى التأثير الذي كانت تمارسه "كاهنات أبوللو" وعرافون آخرون في تفسير المعجزات وكرامات الآلهة، وذلك فيما يخص قرارات ذات أهمية سياسية قصوى وهذه الأصولية نفسها في تحليل أخير هي مشكلة تفسير المحتوى الرئيسي للنصوص المقدسة.

إن قوة العلاقة الحميمة التي تربط بين الدين والسياسة استوجبت محاولة أولى حاسمة لقطع هذه العلاقة من خلال الفصل بين الكنيسة، والدولة، بحرمان الزعامات الدينية من دعم " السلطة المدنية"، وبحرمان الزعماء السياسيين من العباءة الإلهية، وهذه المحاولة للفصل كانت ممكنة في أوربا وفى زمن حديث فقط، وذلك في أعقاب سلسلة من الأحداث الثورية في الجزء الذي يخصنا من العالم (أوربا).

ولم يفلح الفصل حتى في تلك الحالة في حل جذري لمشكلة اللاتسامح المشتق من تسييس الدين. فقد تحولت المشكلة على الأقل جزئيا إلى المجال السياسي فقط بفتحها الباب أمام أيديولوجيات شمولية استبدادية نصبت من أنفسها مفتشا حتى على الضمائر، وجعلت من اللاتسامح الدوجماتي (المطلق) نحو المخالفين في الرأي، أهم معلم مميز لها.

وباستمرارنا في تحقيقنا وبحثنا، ندرك أيضا وبصورة أفضل سبب كون اللاتسامح الديني يمتلك ذلك السلطان والتأثير، لدرجة انه وإن تم إضعافه ولكنه لم ينته بالكلية، وندرك لماذا إذا حدث ذلك يوما ما سيكون العالم مختلفا كثيرا عن عالم اليوم في السراء وفى الضراء، أي في الخير وفى الشر.



الفصل الثاني

جسر بين بعدين

قال أودالكا أروني U. Aruni لابنه سفيتاكيتو Svetaketu: "فلتلق بهذا الملح في الماء، ثم ادْنُ مني في صباح الغد". فعل هذا الأخير كما طلب منه. ثم قال له الأب: "فلتأخذ إذن الملح الذي ألقيته في الماء مساء أمس". بحث الابن عن الملح، ولكنه لم يجده؛ كان قد اختفى تمامًا. "هيَّا، فلترتشف قليلاً من هذا الماء. كيف هو؟"، "مالح"، "اشرب منه قليلاً من منتصفه، كيف هو؟"، "مالح"، "اشرب منه قليلاً من الحافة الأخرى. كيف هو؟"، "مالح"، "فلتأكل بعده شيئًا مالحًا كدليل، ثم اجلس بجواري". فعل الصبي ذلك وقال: "هو دائمًا كما هو". عندئذ قال له الأب: "أي عزيزي، أنت لا ترى ما يوجد هنا، على الرغم من وجوده بكل تأكيد. أيًّا كان هذا الجوهر الرقيق، فإن العالم كله يتكون منه، إنه الواقع الحقيقي، إنه الإيمان Atman، إنه أنت، سفيتاكيتو".

شاندو جيا أوبانيدشاد، المجلد السادس ١٣/٣.

[بعيدا عن الرؤية المتمحورة حول المسيح – الفلسفة الأبدية – الآلهة كوسطاء – اندماج – الاتحاد مع الطبيعة – اعتدال في التبشير وتكوين الإبداع – "الأرض المنبسطة"]

بعيدا عن الرؤية المتمحورة حول المسيح

تنطلق رحلتنا في مجال اللاتسامح الديني ببداية منطقية من أراضي الدين مترامية الأطراف والتي ترجع إلى مهد التاريخ، والتي اختفى بعضها بالفعل، والبعض الآخر ما زال، بشكل لا يصدَّق، على قيد الحياة بعد آلاف السنين. هذه الديانات، البعيدة جدًّا عن نماذجنا لفعلية، تقدم لنا فرصة رائعة لقلب بعض الأفكار التحاملية والأفكار الشائعة عن الآخر.

أودُّ أن اعرض عليكم التدريب الأول الملزم لتغيُّر الرؤية، الـــذي [illegible] ربن صعبا للغاية. يتعلق الأمر بقلب الفكرة السائدة في تلك البقعة من العالم التي نعيش فيهـــا تجاه المعتقدات الأخرى، وهي فكرة الأفضلية، الاكتفاء، وبـــالأخصِّ إنكـــار جـــوهرهم الديني.

نحن بكل تأكيد متمحورون حول مركزية المسيح، كما سأوضح باستفاضـــة عنـــدما أتعرض لموضوع اللاتسامح المسيحي، لا يمكن أن يصير أحد مـــسيحيًّا دون أن يـــضع المسيح في مركز كل شيء. ولكن أيضًا الوثنيون وأولئك الذين لا يذهبون إلى الكنيسة قد رضعوا مع لبن الأمهات مناعةً تجاه كل العقائد والطقوس التي لم تعـــرف ولا تعـــرف التنزيل. وإنه لمن البديهي إذن أننا نستمر في نعت هؤلاء بوصف "وثنيين"، حتى إن كان هذا الوصف لا يُستخدم الآن أبدًا.

يُشتقُّ هذا المصطلح كما هو معلوم من كلمة باجوسٍ "Pagus"، وبالتالي فهو من فيللي "Villie" أو "Villani"، وكلتا الكلمتين تعنيان في إيطاليا "فلاَّحًا"، ولقد أدخل في القرن الرابع الميلادي[1]، عندما بدأ دين واعظ الناصرة المتواضع، والـــذي أصـــبح الـــدين الرســـمي للإمبراطورية، لتوه في أن يسمى "مسيحيَّة"، وكان يجب عليه أن يجاهد حتى يثبت نفسه، وقد وجد أعتَى جيوب المقاومة في سكان الريف، كما هو الحال دائمًا، فهم أكثر النـــاس ارتباطًا بالمعتقدات الموروثة، لدرجة أنهم كانوا يمارسون حتى وقتها طقوسًا تعود إلـــى عصر ما قبل الدولة الرومانية، وصمدت هذه الطقوس لقرون.

في النظام الجديد، الذي يسوده الدين الجديد، أخذ "الوثنيون" المكانة التي كان يحتلها قبلهم "البربر". إلا أن المقارنة لم تكن قادرة على الاستمرار لأن المنتصرين الذين وصلوا إلى الحكم لم يكونوا أكثر ثقافة على الإطلاق من المنهزمين. كانت الحمـــلات الدعائيـــة التي قام بها الأساقفة تهدف إلى نشر الاعتقاد بأن المقاومة ضد المسيحية تأتى فقط مـــن تكريس النفس من قِبَل فلاحين غلاظ الطباع جهلاء، ولكن في الحقيقـــة – وكـــان آبـــاء الكنيسة يعرفون ذلك جيِّدًا – إن هذه المقاومة كانت معقدة وشرسة وبها نقاط روحانيـــة عالية، بالقدر الذي تؤثر فيه على نفس البناء اللاهوتي للكنيسة الوليدة، مقاومة شـــغوف وشجاعة قادها مجموعة من القادة للطبقات المثقفة الغنية. كانوا ينظرون باحتقـــار إلـــى الأفكار التي انتشرت على يد طائفة من اليهود الديماجوجيين أتباع واحد مـــن الكثيـــرين الذين ضللوا العامة وتم إعدامه في الجليل، وهي أفكار كانت –كما قال تشيلـــسو Celso،

---

[1] أعطى تيرتيلليانوس Tertulliano لمقالته المناهضة للوثنيين التي كتبها نحو عام مائتين، عنوان Ad Nationes، وبعده بمئة عام أطلق أرنوبيو Arnobio على كتابه الهجائي عنوان Adversus nations. ثم ألّف توماس الأكويني Tommaso d'Aquinoبعد ذلك بألف عام عملا أطلق عليه عنوان Summa contra gentiles.

أحد الكتاب القلائل الذين أعطوا هذه المسألة بعض الاهتمام جيدة فقط "للأطفال والإسكافيين"[١].

بعد ذلك بوقت طويل حدث للشعوب الجديدة التي اكتشفت في إفريقيا وفي العالم الجديد شيء مماثل، حيث ألصقت بهم صفة "الوثنيون الجدد". وأيضا في نهاية القرن السادس عشر، في غمار فترة دراسات تاريخية ودينية عن القدماء،ينسب سيستو الخامس Sesto V في الكتابات التي نقشت على قاعدة مسلّة هيلوبوليس التي وُضعت في ميدان القديس بطرس، إلى نفسه الفضل في إزالة هذا الرمز القديم جدًّا للديانة المصرية القديمة، ووضع الصليب "بدلاً منه على المسلة ليعلو فوق الخرافات المشوهة"، وفوق "الطقوس الضالة لآلهة الوثنين"[١].

بعد المجمع الفاتيكاني الثاني، وهذا أيضًا معلوم، تَغيَّر سلوك الكنيسة، في ما يتعلق بالحوار بين الأديان، إذ استخدم يوحنا بولس الثاني دائمًا عبارات تنمُّ عن الاحترام الكبير لكل الأديان، حتى عقائد سكان أستراليا الأوائل الذين -كما أكد البابا- كان لديهم أقدم ديانة في العالم، على مدى تاريخهم الذي دام قرابة عشرة آلاف عام، وذلك في حدود معينة.

إن كتب النصائح الروحانية لأحد اليسوعيين المشهورين، وهو من أصل هندي، أنتوني دي ميللو Anthony de Meilo، والتي كانت أكثر مبيعًا في عدد كبير من بلدان العالم بعد عشر سنوات من موته (وبعد عشرين عاما من قائمة الكتب المحظورة)[٢]. لم ينصح بها الكاثوليك. فقد حذر مرسوم صادر في تاريخ ٢٤ يونيو ١٩٩٨ عن المجمع المقدس لعقيدة الإيمان (وريث المكتب المقدس)، من أن أعمال دي ميللو قد تأثرت بوضوح بالتيَّارات الروحانية البوذية والطاوية (ديانة التأمل الصينية) "على الرغم من أنها تحتوي على عناصر صالحة تأتي من حكمة الشرق"، فهي "غير متوائمة مع الإيمان الكاثوليكي ويمكن أن تسبب ضررًا جسميًّا".

وبعد ذلك بخمسة أعوام، أدان مرسوم للمجلس البابوي للحوار بين الأديان حركة العصر الجديد "New Age" واصفًا قواعدها الفلسفية بأنها "مزورة ومشوهة ومضللة".

هذا الموقف من الحذر الشديد اتخذته كل الفرق المسيحية، حتى الأوساط غير الكاثوليكية. وفي الأيام التي تلت أحداث ١١ أيلول/سبتمبر المأساوية عام ٢٠٠١،

---

[١] هنري مورية، الوثنية Il Paganesimo, Paoline, 1990، ص ص ٤١-٤٢.

[٢]هكذا في نهاية القرن الثاني، تحت حكم مارك أوريليوس، عبر هذا الكتاب في عمله المعنون "الحديث الصحيح" Discorso vero وكذلك تلك هي المرة الأولى التي يخصص فيها أحد المثقفين من ذوي المكانة الرفيعة عملا عن الدين المسيحي، حتى وإن كان للتحقير منها.

أدهشني نبأ نشرته الصحافة الأمريكية: "راعٍ لكنيسة لوثرية تمَّ وقفه من قِبَل رؤسائه لأنه أقام قدّاسًا لصالح ضحايا البرجين التوأمين إلى جانب ممثلي ديانات أخرى"، وكان من بينهم... بوذي. كان الاتهام هو "إظهار التعاطف مع المواقف الاندماجية"[1].

كل هذا أمر مفهوم، فالسلطات الدينية المسئولة عن المحافظة على نقاء الإيمان لا يمكن أن تتصرف خلاف ذلك. إن مسلّمات الأديان التي تقوم على الوحي من جهة، ومسلّمات الديانات الأخرى، على طرفي نقيض.

وهو اختلاف – على الرغم من مرور ألفي سنة- يمكن تلخيصه في جملتين قصيرتين لاثنتين من الشخصيات الكبيرة في العصور القديمة، فمن الجانب "الوثني" محافظ روما سيماكو Simmaco، ومن الجانب المسيحي أسقف ميلانو أمبروجيو Ambrogio

قال سيماكو: سر الله هو من الضخامة بحيث إن أحدا لا يستطيع الوصول إليه من خلال طريق واحد.

ولكن أمبروجو كان يجزم دون تردد: ما تبحثون أنتم عنه نحن نعلمه بالفعل من صوت الله نفسه.

إن الفجوة لا تتعلق فقط بالمسيحيين المتدينين، بل تشمل الجميع إلى حد ما، المؤمنين وغير المؤمنين. إن العقلانية اليونانية والتوحيد اليهودي-المسيحي قد شكلا "العقل الغربي"، الذي يسير في اتجاه معاكس للعقلية الشرقية.

نحن إذن أمام بعدين مختلفين يصعب –إن لم يكُن مستحيلاً- إنشاء جسر بينهما.

فعلى الرغم من العولمة، ومن هيام العديد من الشباب في العالم الشرقي الغامض، واهتمام المثقفين بـ"البدائيين"، فإن الموقف السائد في الجزء الخاص بنا من العالم هو عدم قدرة كبير على اختراق المضمون الأكثر خصوصية لهذا النوع من التدين. فلْنَقُم بتقييم هذه العبادة أو تلك في العالم الثالث أو الرابع وفقا لدرجة تطور من يؤمن بها (تقاس دائمًا على أساس معاييرنا نحن) لا على أساس تعاليم هذه العبادة. ففي ما يتعلق بمعتقدات الحضارات الأكثر تقدما يصل بنا الحديث إلى ضرب من التراكيب الفلسفية الموحية أو الحكايات الجميلة، ولكن في ما يتعلق بجوهرها الديني فإن حكمنا لا يختلف جدًّا عن الحكم المعلن على الحجر من جانب سيستو الخامس: إنها طقوس بربرية وخرافات. هذا الكون الغامض لا يزال ينقل إلينا عواطف وانفعالات لا تقلّ في قوتها عن تلك التي نقلها إلى أتباعه على مدار آلاف السنين عبر الأساطير والشعر والمسرح، ولكن

[1] انظر مقال نيويورك تايمز الصادر في ٢ فبراير ٢٠٠٢ بعنوان "هرطقة في قداس لإحياء الحادي عشر من سبتمبر". راعٍ لوثري يتعرض للهجوم بسبب صلاة بين الأديان.

الآن لا يسعنا إلا إدراك الجانب الجمالي والفني فقط، فقد جردناها تقريبًا من أخص معانيها المقدسة.

وهناك المحافظون الذين يصابون بالهلع لدى رؤيتهم لشباب حليقي الرأس في زيّ الرهبان البرتقالي اللون، أو أولئك الذين ما زالوا يعتقدون أن هناك أشخاصًا متوحشين كالحيوانات المفترسة يعيشون في الغابة الإفريقية أو في غابات الأمازون، وهناك واحد من نسّاك كاليفورنيا المشاهير من فترة شبابه هجر حياته كابن من الساحل الغربي وذهب ليعيش حياة التأمل في الهند، ورجع كـ"مستنير" وأصبح يُعرف باسم بابا رام داس Baba Ram Dass، وجذب حوله عددًا من شباب الجيل الوردي، فطرده والده واعتبره "مفقودًا"، ويشبه مدمن المخدرات، ماذا عساها أن تعلمنا طقوس مصر القديمة، أو الهند الحديثة بآلهتهم المرعبة، والأساطير التي تحيط بهم؟ هكذا يتساءل الناس الأذكياء أصحاب الأقدام الراسخة على الأرض، من الممكن أن نجد هذه الديانات والأساطير كل شيء ونقيض كل شيء، يمكن أن تعلمنا أشياء كثيرة جميلة، وقبيحة، ولكنها تعلمنا قليلاً جدًّا في ما يتعلق بنفسنا الخالدة".

وهناك دليل جديد على المواقف الصلبة التي تفرضها علينا جميعًا "العقلية الغربية"، إنه موقف أولئك الذين يقولون عن أنفسهم إنهم مبهورون بالروحانية الشرقية أو "الوثنية"، وهؤلاء المتحمسون كثيرون -ويؤكد ذلك نجاح حركات "العصر الجديد"، واحترام القديسين الذين أدخلوا ممارسات التأمل إلى الغرب، وفي النهاية زيادة الكتيبات حول حكمة الشرق- إلاَّ أن السواد الأعظم من أولئك المتحمسين لا يتمتع بمعرفة عميقة عن البعد الروحي الذي يجتذبهم، ويدخلون فيه بطريقة سطحية، فبغضٍّ النظر عن مجموعة من المعتنقين الحقيقيين، نجد أن كثيرين يبحثون ببساطة عن أشكال للمساعدة الذاتية، وعن "بناء النفس"، مثل أي نوع من "الأدوية البديلة"، دون الاهتمام بالأساس التنسُّكي، وبالإعداد النفسي، ومثال على ذلك أن اليوجا قد أصبحت من بين الوسائل الكثيرة، رياضة علية القوم، ولكن أي جسر يمكن أن نبنيه، وأي حوار ساذج يمكن أن نبدأ فيه إذا لم نعترف للطرف الآخر بالمساواة الكاملة، والكرامة الكاملة مثلنا تماما.

إن المظهر الكمي لا يمكن أن تكون له أهمية كبرى في حديث كهذا، ومع ذلك فإن استعراضنا المتمحور حول المسيح لا يمكن أن يتجاهل أنه في عالم أصبح "قرية عالمية" واحدة، يوجد واحد من بين أربعة فقط يدين بالمسيحية، وأكثر من ثلث البشرية ينتمون إلى عقائد "وثنية"، وحتى لو فرضنا على الجميع أجندة وتقويمًا يقومان على ما نعتبره نحن حدثًا مركزيًّا للتاريخ الإنساني، فإنه مما لا شك فيه أن أربعة مليارات شخص من بين ستة مليارات يعيشون على كوكبنا لا يرون هذا الحدث مثلما نراه نحن.

فقد تمّ تجاوز مفاهيم "المطهر"، والأعراف على ما يبدو، ولكن هل لا يزال من الممكن تخيّل أنه بالنسبة إلى "غير المؤمنين" لا يوجد خلاص، وأن ثلاثة أرباع البشرية- إن لم يكن أكثر- معرضون للضلال الأبدي أكثر منا نحن النصارى؟ وهل نحن إذن لن نكون فقط مستحوذين على نصيب غير عادل من ثروات الأرض، بل أيضًا على جميع الأماكن في الجنة؟

ويهدي إلينا لوتشايو دى كريشنسيو L. De Crescenzio واحدة من لآلئه في كتابه "تاريخ فلسفة العصر الوسيط"، ويكتب بمهارة شديدة عن أمه التي "أدَّت الصلاة طول حياتها، وذهبت إلى الكنيسة كل صباح، ولم تقترف أصغر المعاصي طوال ثلاثة وثمانين عامًا... أتمنى لذلك، أن نجد الجنة كما تخيلتها دائمًا عندما تموت، مع القديس بطرس تحت الباب الكبير في انتظارها والمفتاحِ في يده، ومعه كل القديسين الذين تحبهم ليحتفوا بها. يا لها من خيبة أمل! لو وجدت بدلاً من الرب الطيب مانيتو Manitu وعلى رأسه ريش كالهنود الحمر!".

ومع ذلك فهناك اعتبار آخر أكثر أهمية يجعلنا نعيد بلورة رؤيتنا لمسيحية هي مركز الكون وهي مكان وزمان الإنسانية.

إن ديننا، الذي يرتبط بقوة فكريًا وتاريخيًا بالديانتين التوحيديتين الشقيقتين، اليهودية والإسلام، يمثل معهما جزيرة تظهر خارج محيط الديانات الأخرى الفسيح، وذلك في لحظة من لحظات التطوُّر التاريخي.

وهذه الديانات الأخيرة، على الرغم من الاختلافات في مظاهرها الخارجية، تحيط بدياناتنا التي تضرب بجذورها في الزمان منذ القدم. إن ادِّعاءَنا بأننا المركز الأساسي يجب أن يعيد حساباته مع مخزون كبير من الروحانية لا يمكن إلاَّ أن يثير خوفًا مشوبًا بالاحترام بسبب امتداده عبر الزمان، ونظرا لأنه لم يتغير حتى اليوم، بداية من عبادات ما قبل التاريخ، وحتى الطقوس البدائية التي لا تزال موجودة، وحتى الأنظمة الدينية الكبيرة بالشرق. ولا أقصد بذلك تسجيل موقف حول مسألة حساسة مثل علو الرسالة المسيحية أو انتقاد زعم أن المسيحية هي الديانة الوحيدة "الحقيقية" لطبيعتها العالمية. إن كل ما ذكرته آنفا يجب تفسيره على أي حال، على أنه تداخل مع بحث لأحد الفلاسفة الألمان في أوائل القرن العشرين وهو إرنست توتشل Ernest Toetschl الذي يرى أن المسيحية هي فقط "جزء من وجه الله المتجه إلى أوربا". بيد أنه إذا كان حقيقيا أن المستقبل يتجه نحو مقارنة بين الثقافات يحتل فيها الدين نصيب الأسد، فلن يكون من الممكن الاستمرار في التقليل من قيمة هذا الكون اللامعقول من الآلهة الكثيرين، التي يضم – وهذا يجب ألا ننساه – أكثر من ثلث البشرية.

الفلسفة الأبدية

في كل مرة كنت أحاول أن أعرف المزيد عن الأمور الدينية - في خلال فترات إقامتي ومهماتي في دول العالم الثالث - كان أكثر ما يبهرني ويدهشني هو أنني كنت أكتشف باستمرار كم هي كثيرة نقاط التشابه والتواصل بين الديانات الثلاث الكبرى السائدة اليوم، والتي يطلق عليها المسلمون "الديانات الكتابية".

إن الديانات "الوثنية" -كما نسمِّيها- ليس لها كتاب واحد مشترك تستلهم منه، ولكن مع ذلك لها نقطة ارتكاز واحدة، تمَّ تناقلها عبر آلاف السنين، وتقوم على تقاليد تختلف في ما بينها إلى حد ما: إنه المفهوم المفتاحي لحقيقة وهمية غير معروفة، يملؤها الغموض، وهي أبدية وتسرح في الجسد، أيا كان اسمه، روح قدس أو نفحة حياة، أو غير ذلك

إنه كخيط غير مرئي يربط عبر المحيطات بين سلاسل الجبال وبين مرور القرون، وبين المعتقدات، وبين الطقوس المتباينة... فالكاهن المصري القديم، والآشوري، والفارسي، واليوناني في العصور البعيدة، أظهروا تشابهًا مذهلاً مع كاهن أمريكا الوسطى، وكاهن بيرو، وأيضًا مع الراهب البوذي بكمبوديا، ومع راهب التبت، ومع المعلم البوذي، الذين يبدو أن لهم تقريبًا نفس التصورات حول ما هو مقدَّس.

فهناك تشابه مذهل في بعض صور الصلاة، وهي صور التأمُّل التي ظلَّت دون تغيير منذ عصر الفراعنة وعصر فيثاغورث وسقراط، والإيسيين Esseni حتى مظاهر التنسك الحالية في تايلاند والهيمالايا.

وعلى الرغم من كونها متباعدة بفعل القرون أو تطورت على جانبي المعمورة المتقابلين، فإن بعض ممارسات العلاج متشابهة بصورة مذهلة، بداية من "رجل الطب" القزم أو من السكان الأصليين، وحتى المعالج السنغالي، وحتى قديس باهيا Bahia في البرازيل، ولا يقل عجبًا كذلك التوافق بين الأساطير في أنحاء المعمورة.

وتوجد إصدارات ثمينة، بعضها يعتبر كلاسيكيات حقيقية، حول أوجه التشابه بين المعتقدات والطقوس والأساطير من طرف الأرض إلى طرفها الآخر[1].

وقد كان لايبنز أول من أعطى للمخزون الروحي الكبير الذي أشرنا إليه اسم "الفلسفة الأبدية" Philosophia perennis، والذي تبناه فيما بعد ألدوس هكسلي Aldous

[1] يعد أشهر عمل حول موضوع التشابه الديني والتشابه في أعمال السحر بين شعوب الأرض، هو العمل الأثري الذي لا يفوقه عمل آخر، وهو عمل عالم الأنثروبولوجي الاسكتلندي جيمس جورج فريزر James George Frazer، الغصن الذهبي The golden bough. الذي ترجم إلى الإيطالية بعنوان: Il ramo d'oro

Huxley وإيليمير زولا Elemire Zolla. وهذا التعريف – الفلسفة الأبدية – يمكن أن يثير شبهات، ويبدو أنه يعطي الحقّ لمن يؤيد أن الديانات الكبرى غير السماوية ليست ديانات حقيقية، بل فلسفات، ومع ذلك فإذا ما قبلنا التمييز بين فلسفة ودين مثل التمييز بين "حديث عن الله" و"حديث مع الله"، فإن ديانات الشرق تبدو إذن مستحقة لأن تُعتبر ديانات أكثر من دياناتنا، لأنها لا تميل إلى بناء منظومات لاهوتية، وإلى تفسير ما هو إلهي، ولكن بالأحرى تنجح في فتح قناة اتصال مع ما هو إلهي.

الآلهة كوسطاء

هذه النواة الكونية المشتركة تغيب مع ذلك عن غالبيتنا، فعلى العكس تمامًا نجد أن مظاهر هذه المعتقدات التي تصدمنا – ولنقل أيضا التي تقزز مشاعرنا – تبدو لنا وقد كذبتها الصورة الموحِية المجتمعة التي وصفتها، فكل الملامح التي تبدو لنا غير مفهومة، أو تصدم شعورنا تُعتبر بصفة عامة هي الأكثر تأثيرًا، عبادة عشرات أو آلاف الآلهة، السلاسة التي يتم بها رؤية وهجران وخلط المكونات المختلفة لما هو مقدَّس، كما لو كانت تقريبًا عناصر معمارية أو أدبية بسيطة، وفي النهاية تأليه أشياء طبيعية كالأحجار والشجر ومجارى المياه، وهلمّ جرًّا. ويتحدث دارِسو الأديان عن تعدد الآلهة وعن اندماج المذاهب الفلسفية وعن الحلول أو الأرواحية.

وهنا يوضع جهدنا نحو "تغيير الرؤية" في محكٍّ كبير، فلنبدأ من الملمح الأول، وهو الملمح الذي نتصور من خلاله هذه الديانات، فهذه الديانات ليس لها ربٌّ واحد، بل مجمع الهة ثري بصورة غير معقولة، فكيف يمكن التوفيق بين هذا الأمر وما قلته حتى الآن؟ إن وجود عدد كبير من المعبودات لا يتناقص مع فكرة الإله التي أشرت إليها كنقطة جوهرية في الطقوس المختلفة، وكتدفق أبدي للطاقة غير المخلوقة، التي تفترض وجود مبدأ وحيد.

إن فكرة الواحد الذي لا تدركه الأبصار، والذي يهيمن على عالم الأوهام الظاهري، هي فكرة مركزية، وتفرض نفسها بقوة على العالم الديني الذي نقوم بدراسته، الواحد هو البداية "سابق على كل أصل، ولاحق على كل خاتمة" [أي الأول والآخر].

هكذا يعلم بلوتينو Plotino، ويقرأ الكتابة المنقوشة على حجر طاوي في كزيان Xian الواحد هو الذات التي تتجلى داخل التغير الذي لا يتوقف، الكل هو الواحد، والواحد هو الكل، وفي ذات الوقت عدم وفراغ. أول إذن بعيدًا عن الزمان والمكان، وفي حيز

مختلف عن الحيز الذي نعيش فيه، ومن ثم لا يمكن أن نحيط به أفهامنا، ولا تشرح كنهه أفكارنا.

وسأذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فهي ليست فكرة وحدة أساسية، ولكنها تلغي حتى ذلك التمييز الحرج في الرؤية المسيحية: التمييز بين الروح والمادة، فمفهومنا هو مفهوم ثنائي، أما مفهومهم فهو يميل إلى رد الشيء إلى أصل واحد. ولهذا يتردد دارسون كثيرون في الحديث عن وثنية، ويفضلون الإشارة إلى صورتين مختلفتين للتوحيد، توحيد "داخلي"، وتوحيد "خارجي".

ولكن كيف يتم الوفاق بين الواحد ومجمع الآلهة؟ فالتناقص ظاهري فقط، إذا ما توقفنا على أعتاب هذا العالم الروحي المتشعب حيث تغيب عنا سمة هذا العالم الرئيسية: إن عشرات، وأحياناً آلاف الآلهة، والربات التي تعجّ بها مجمعات الآلهة، بداية من المذكورة قديمًا في كتابات المعابد المصرية القديمة، وفي قصائد هوميروس، حتى مجمع الآلهة الذي لا يزال حيًّا في الماهاباراتا Mahabarata عند الهندوس هي في الواقع عبارة فقط عن وسطاء.

نعم، وسطاء حقيقية، ولا يمكن أن يشبه حتى الأب أو الأم أو كبير الآلهة المبدأ الأول خالق كل شيء وحتى إذا ما نجح الآلهة في الخلق، فإنهم لا يفعلون ذلك من العدم المطلق بل هم أنفسهم خاضعون للقدر.

ولا يجب أن ننزعج وندهش من كثرة الآلهة التي تكون ذكورًا وإناثًا – نصف بشر ونصف حيوان، ذات أربع أو ثماني أذرع وأقدام، ورأسين وثلاثة أجسام، وثلاثين ثديًا، وقادرة على أن تتشكل بأشكال متعددة.

كل أولئك فقط مدبرون أو حرس وظاهرهم غير العادي يُخفِي وراءه حبكة رمزية من المجازات الدقيقة. ويبرز المؤرخ رينشارد تارناس كم هو ثري بالمعاني اللجوءُ إلى الأسطورة من جانب فنّانينَ وكتابِ دراما إغريقٍ من العصر الذهبيّ، بدايةً من أفلاطون.

وقد كتب تارناس Tarnas "وفق سياق أحد الحوارات الخاصة، كان زيوس، وأبوللو، وإيرا، وآرس، وأفروديت، والبقية، تمثل آلهة حقيقية، وشخوصًا رمزية، ومواقف نفسية، وصورًا من الخبرات، ومبادئ فلسفية، وكائنات غيبية، ومصادر إلهام شعري أو اتصالات إلهية، وموضع شفقة تقليدية، وكيانات لا يمكن إدراكها، وأعمالاً لا يمكن اختراقها للخالق الأعلى، وكائنات سماوية، وأسس النظام الكوني، أو حُكَّامًا، أو معلمي الإنسانية"[1].

[1] ريتشارد تارناس، هوس العالم الغربي، بلانتاين نيويورك ١٩٩٩، ص ١٣.

ويُبرز عالم الكلاسيكيات الكبير جـون فينلــي John Finley بـدوره كيـف تـنجح الميثولوجيا في ترجمة التيّارات السفلية التي تحرك نفس الإنسان بلغة شـعرية وبقـدرة تعبيرية لا تبارى: "أتينا Athena ترمز للعقل، أرتميد Artemide يرمز للقوة، وإيـرا Era تعتبر رمز الاستقرار، وزيوس Zeus يُعتبر النظام المسيطر".

وفي ما يتعلق بالهندوسية، أقدم ديانة لا تزال موجودة بتراثها الذي يبلغ عمره خمسة الاف سنة، فإننا معرَّضون للوقوع في دوامة من الرموز الثرية والجميلة جدًّا، ولكن هذه الرموز تقلق وتزعج عقلنا كأبناء للتقنية، وإذا ما أردنا وصف هـذه الرمـوز بـصورة إجمالية فقط، فقد لا يكفينا كتاب واحد.

وإعادة تجسيد الرب فيشنو Visnu، وفي صور الآلهة المتعددة، نجد أنه لا يزال يوجد في الميثولوجيا اليونانية تجسيد شعريّ وغامضٍ لقوى الطبيعة الكبرى التي تقـدم فيهـا الآلهة مفتاحًا للتسلل إلى الأسرار التي تحجب وتخفي قدرة العقل البشرى.

الاندماج

إن دور الوساطة للآلهة –وهى وساطة متشعبة تجعل من هذه الآلهة –على حد قول جان بيير فرنان Vernant– "قوى، وأبطالاً لحكايات وروايات كبيرة"، كل ذلك يجعل من السهل فهم الخاصية الأخرى التي تبهرنا نحن الغربيين، ذلك الاندماج الذي رأيناه يقلـق أيضًا أتباع مارتن لوثر في نيويورك. ولأننا نتحرك داخل إطار لاهوتي يستبعد كل فكرة عن الرب الأعلى الذي يجسد المطلق ويهتمُّ بمجريات أمور البشر، كي يستطيع أن يقوم أفضل بدور آلهة متعددة، وهذا التشابه في الأدوار –وإن لم يكن كـاملاً– يفيـدنا فـي المقارنة مع قديسي التقويم الكاثوليكي. وكما يمكننا أن نتوجه إلى هـذا القـديس أو ذاك الذين ارتضيناهم كحارسين لنا، فهكذا في هذه الديانات التي تنتمي إلى "الفلسفة الأبديـة"، فإنه في داخل كل مجموعة اجتماعية، وفي كل قبيلة أو قرية أو مدينة، لا يلتزم الفرد بأن يتبع شعيرة محددة أو أن يرتبط بهذا الإله أو ذاك بشكل خاص.

ففي روما أو في اليونان القديمة، لم يكُن هناك ما يمنع الرجل الصالح من أن يختار الآلهة على مزاجه، ويستبدل بها آلهة أخرى حتى إن كانت أجنبية. كما أنه يمكننا بهدوء شديد أن ننذر نذرًا للقديسة لوتشيا ثم بعد ذلك مباشرة نذهب لنـضيء شـمعة للقـديس بارتولوميو. وهكذا كان يمكن لرجل صالح من رعايا الإمبراطورية الرومانية أن يذهب

في نفس اليوم ليصلي في معبد إيزيس ثم بعد ذلك يذهب ليضحي لمذبح أبولو، ثم في النهاية يشارك في احتفال في مغارة يقيمه أتباع ميترا Mitra.

إن التشابه يتوقف هنا، لأن ذلك كان ساريًا أيضًا في ما يتعلق بالعلاقات مع ديانات مجموعات أخرى أجنبية، وحتى معادية.

نعم كانت الآلهة تقاتل إلى جوار هذا الجيش أو ذاك إذا ما طلب المعنيون مساعدتها لقلب مصائر معركة ما. إن ملحمة باجافدجيتا Bagavad Gita إطارها معركة عسكرية، هي معركة طروادة التي كانت مواجهة بين الآلهة، فضلاً عن كونها مواجهة بين جنود. والمقاتلون الذين قاموا بأمجاد حربية كبيرة كان يتمّ تكريمهم كأنصاف آلهة. وأيضًا في القرن الثالث عشر عندما حاول الإمبراطور المغولي كوبيلاي Kubilai مرتين مهاجمة اليابان (عامَي ١٢٧٤، و١٢٨١)، وغرقت أساطيله ودمرَتها الأعاصير، تَمَّ نسبة إنقاذ اليابان إلى تدخُّل الأرواح الحارسة للأماكن التي تُسَمَّى كامي Kami، التي أرسلت على الغازي ريحًا إلهية، هي الكاميكاز Kamikaze (وهو اسم أُطلق فيما بعد على الطيارين اليابانيين الذين كانوا يقومون بمهام انتحارية بطائراتهم ضدّ السفن الأمريكية في الحرب العالمية الثانية).

وفضلاً عن ذلك فكل مدينة لها الإله الحارس لها، فنجد آلهة حامية للأسر الكبيرة الآشورية-البابلية، والمصرية القديمة والفارسية، وأسر الصين الإمبراطورية، وأسر سكان المكسيك قبل كولمبوس، والمدن الإغريقية الكبيرة، ولجمهورية روما، وروما الإمبراطورية. وهناك واحدة من أشهر أساطير أثينا وهي التنافس بين أثينا Atena وبوسيدون Posedone على من يكون حامي المدينة. وأصبحت أثينا تمثل بالنسبة إلى أهل أثينا ما يمثله سان ماركو بالنسبة إلى سكان البندقية، وقد تَمَّ تناقل قصص كثيرة عن تدخُّل الرَّبَّة أثينا بالمعجزات في أثناء الحصار الذي ضُرِب على قلعة أثينا عبر القرون.

غير أنه من المهم في معرض حديثنا عن التسامح في العالم "الوثني" أن نُبرِز أن الآلهة لم تكُن تشارك قط في الحرب لتثبت ذاتها على شعوب أخرى. وزيادة على ذلك فإن آلهة أقوام آخرين حتى آلهة الأعداء كانت تبدو غريبة وقاسية، غير أنها لم تكُن قط مزيَّفة أو غير موجودة.

هكذا كما تبدو عناصر الكون المتناسقة وغير المتناسقة في حكايات الإلياذة، والباجافنجيتا، وأسطورة جلجامش Gilgamesh، نجد أن الآلهة يمكن أن تنحاز إلى هذا الجانب حينًا، وإلى الجانب الآخر حينًا آخر، وتتبادل الأدوار. ولا يدهشنا أبدًا أن هذه الآلهة يمكن الإيمان بها وتبنيها كما يحدث لأي اختراع جديد. فيمكن لشعبٍ ما بعد

هزيمته أن يقبل آلهة المنتصر لأنها أظهرت أنها الأفضل، وغالبا ما يقرنها بآلهته القديمة التي لا ينكرها.

ومن ينزل بأرض أجنبية، مهما كانت نواياه، فسيكون من الأفضل بالنسبة إليه أن يضحّي للآلهة المحلية حتى لا تثور ضده وتغضب عليه. ففي جويانا Guyana بأمريكا الجنوبية، وأنا أزور واحدًا من التجمُّعات الأصلية البشرية في الغابة والمنحدرة من عبيد أفارقة، لاحظت عند مدخل القرية مذبحين بدائيين من جذوع وأوراق الشجر، أحدهما، كما شرحوا لي، مخصص لآلهة القبيلة الأصلية والآخر لآلهة سكان البلاد الأصليين.

ويمكن لإله معيَّن أن يتسمى بأسماء متعددة من بلد إلى آخر: فإله المصريين القدماء ثور Thor أصبح اسمه هيرمس عند اليونان، وميركوريو في روما.

وفى منطقة البحر المتوسط زاد الاندماج في الحقبة الهيلينية في أعقاب التقاء القيم الروحية اليونانية مع التصوف الشرقي بعد فتوحات الإسكندر. إن انصهار عناصر دينية مختلفة كان مركزًا للغاية، لدرجة أنه أحيانًا في خِضَمِّ ما وصل إلينا يصعب التمييز بين هذه العناصر والمكونات.

وكان يمكن خلق أحد الآلهة الاندماجية بفنٍّ كبير من خلال توافق بين السلطات السياسية والسلطات الدينية، وذلك لتسهيل إحلال السلام الاجتماعي، وتشجيع "الحوار بين الأديان". وكان هذا هو الحال في ما يتعلق بالإله الاندماجي سيرابيس، الذي كان يجمع خصائص الإلهين المصريين القديمين (أوزوريس وأبيس)، والآلهة اليونانية زيوس، وهيليوس، وإسكولابيو، وكذلك بين الآلهة الفارسية مثل ميترا. ويوجد كذلك أزواج من الآلهة التي تندمج خصائصها وتكوِّن ما يسمَّى بكيانات جديدة مخنثة.

وعندما تَمَّ التقاء المبشرين الكاثوليك بالمجتمع الهندي، وجد القديس سان فرانسيكو والقديس سان تومازو على الفور مكانا داخل مجمع الآلهة الهندي.

وفى البرازيل وجد الأتباع العديدون للطقوس ذات الأصل الإفريقي، أوباندا Ubanda، كاندومبل Candomble ، من الطبيعي ممارسة هذه الطقوس مع التزامهم المخلص بالشعائر الكاثوليكية، فربة المياه الكبيرة الزرقاء يمانيا Yemania تَمَّ مماثلتها بالعذراء مريم ذات الرداء الأزرق. وبنفس الطريقة وجد سكان آخرون من مجمع الآلهة أوريشا Orisha تطابقًا مع قديسي التقويم الروماني، فإله الصيد أوكسوسي Oxossi تَمَّ مماثلته مع سان جورج وهكذا.

الاتحاد مع الطبيعة

وها نحن في النهاية أمام العنصر الثالث، وهو أيضًا عنصر غريب على أعيننا، إنه الاتحاد مع الطبيعة. كيف لا ننتقد الوثنية المبالغ فيها لأناس يعبدون الحجر والشجر (المركز الأكبر لطقوس عبادة الأشجار بالنسبة إلى الجرمان كان شجرة سنديان أودينو)، والأجرام السماوية أو الحيوانات؟

إن المخاطرة بدخول عالم الوثنية مع ما فيه من غموض يكتنف رموزه موجودة أيضًا في كل الديانات، فاليهود والمسلمون يخشون هذا الأمر لدرجة أنهم يحرِّمون مطلقًا، ليس فقط تصوير الآلهة، بل أيضًا يحظرون تصوير الإنسان. فالكنيسة الكاثوليكية كانت على وعي بذلك وكانت تراقب الأمر بدقة عندما كان يصيح المؤمنون لرؤية المعجزة وينسبون صفات إعجازية إلى رفات أو تمثال هذا القديس أو ذاك كان من كتلة رخام أم قطعة قماش، ولا ينسبون ذلك إلى القوة الإلهية التي تقف وراء هذا الأمر المعجز. وكذلك حكماء وفلاسفة الماضي كانوا يواجهون نفس المشكلة وينتقدون وقوع الشعب الجاهل فريسة للخزعبلات لدرجة أنه ينسب إلى صور الآلهة قدرات خارقة. وقد كانت أعمال السحر في عصور ما قبل المسيحية محظورة بصرامة من جانب السلطات السياسية.

إن ثراء وتعقيد عالم الرموز والطقوس في الديانات غير السماوية، والثقل الكبير المنسوب إلى الالتزام بالشعائر، أي التنفيذ الصحيح لبعض التعاليم وبالوسائل الصحيحة لفتح أبواب الغيب، يشجع بوضوحٍ الميل نحو الوثنية، والخزعبلات والسحر. ولكن المعنى العميق لخاصية الاتحاد مع الطبيعة لهذه الديانات له أيضًا مضمون روحي لا يمكن التقليل من شأنه.

فعندما يؤكد الكاهن المصري القديم، أو الراهب الشرقي أن النجم في السماء هو الله، أو النهر هو الله، أو الشجرة هي الله، أو الحيوان في السهل أو في الغابة هو الله، أو الإنسان هو الله... فإنما يؤكدان على مضمون رؤيتهما لما هو مقدَّس، أي يريدان القول بذلك إن العالم بشموله يشبه الله، والكون مادة وطاقة، خالق ومخلوقات، عبارة عن لعبة مستمرَّة لقوى متعددة وأضداد، ما بين "ما هو أعلى وما هو أسفل"، كما تذكر نصوص النُّسَّاك.

وفضلاً عن ذلك وكما سنرى بعد ذلك، ففي كل ديانة من ديانات التوحيد الثلاث توجد تيارات صوفية تأخذ بجزء على الأقل من هذه الروح الإلهية، ولهذا ينظر إليها دائمًا بشيء من التوجس من جانب السلطات المنوط بها المحافظة على نقاء العقيدة. وهناك بعض الإشارات المؤثرة التي تحتوى عليها نصوص "مزيَّفة" متعددة تَمَّ حظرها

واستبعادها من مجموعة نصوص العهد الجديد. ولكي أسوق مثالا واحدًا فقط، نجد في إنجيل توماز و جُملا مثل "إن مملكة الرب مبسوطة على الأرض ولكن البشر لا يُلقون لها بالا... ارفع الحجر وستجدني هناك، اقطع خشب الأشجار فأنا موجود هناك...".

من هذا نخرج بمحصِّلة غاية في الأهمية، فهناك رؤية دينية ترى الله في كل مكان، في شعاع الشمس، وفي ورقة الشجر المبللة بالندى، وفي اليرقة التي تصبح فراشة، رؤية ترى في النفس كائنًا غير مخلوق لا ينتمي إلى شخص بعينه، بل هي كيان كوني يتلاشى مصيره في الإله الذي هو كل شيء، وهي رؤية ترى في الفعل الإنساني شيئًا يخضع باستمرار للعبة القوى، لدرجة أنه لا يستطيع أن يتحكم في هذه اللعبة (فليطلقوا عليها قدر، أو نصيب، أو كارما، أو دايوان)، ولا ترى الإنسان أبدًا بمثابة مسيطر على الطبيعة، بل على العكس هذه الرؤية تهتف بالإنسان باستمرار بأن يحترم البيئة التي ينغمس فيها، والتي لا يُسمَح بالإخلال بالتوازن فيها دون عقاب.

يجدر بنا أن نكرِّس المزيد لهذا الإحساس بالتبجيل والاحترام للطبيعة، وهي الوجه الآخر للإرواحية Animismo "الفلسفة الأبدية". فحيث تغيب فكرة الخلق، وتسلسل الخلق، لا يكون من طرح هذا السؤال جدوى: "أين ستذهب روحي بعد الموت؟" دون أن نطرح بالتزامن هذا السؤال: "أين كانت نفسي قبل الميلاد؟". فلا مكان لما يُسَمَّى بفكرة العلم بوصفه صراعًا مستمرًّا من أجل المعرفة ومن أجل التقنية كمعاناة مستمرة لتحسين أحوال العالم.

ويمكن لتناقضٍ في الصور الشعرية أن يوضح لنا بشكل أفضل من حديث طويل، هذا الاختلاف العميق في العقلية، فقد كتب بطل الشطرنج المشهور إيمانويل لاسكر Emanuel Lasker في نهاية القرن التاسع عشر أيضًا عن الفلسفة، وكان معتادًا أن يؤكد أن كل نشاط الإنسان ما هو إلاَّ "لعبة لا تنتهي للسيطرة على الطبيعة".

غير أن شاعرًا فارسيًّا من القرون الوسطى قد كتب صورة بلاغية مختلفة تمامًا من خلال لعبة الشطرنج:

"إن العالم مثل رقعة شطرنج مائلة ليلاً ونهارًا،
مثل القدر تحرك البشر هنا وهناك
تنقلهم وتضربهم بعضهم ببعض
ثم تعيد وضعهم في العلبة"[1]

---

[1] فريدل موسر Friedhel Moser، فلسفة صغيرة لغير فلاسفة، فلترينلي، ميلانو ٢٠٠٢، ص ١١٧.

إن احترام الطبيعة يتمُّ التعبير عنه في المقام الأول في مواجهة عالم الحيوان، فقبل أن يكون لتأثير الكمبيوتر الخطير على عقولنا مكانة علمية، لدرجة أنه جعلنا نفقد جزءًا من تركيزنا على قدرتنا العقلية، ونفقد حدة أحاسيسنا وأيضًا بعض قدراتنا النفسية الخاصة، حدث قبل آلاف السنين أن اقتنع القدماء بأن الحيوانات كان لها قناة اتصال مع المطلق، تلك القناة التي لم يكن يمتلكها الإنسان، وكان القدماء ينظرون إلى هذه الحيوانات باحترام كبير بوصفها تحتوي على قبسة من المقدس، ففي حقبة الصيادين وجامعي الطعام، كان انصهار الإنسان مع بيئته يعبِّر عن نفسه من خلال الآلهة الرمزية Totem، وهو تماثل مع الحيوانات التي كانت تمنح خصالها لمن يختارها ككيانات حارسة. فالمناطق التي كانت تسود فيها "الفلسفة الخالدة" تَمَّ فيها تناقل هذا المفهوم لأجيال متعددة دون أن يتلاشى أبدًا، أما طرق الكهانة المشتركة فكانت ترتكز على ملاحظة طيران الطيور، فهناك طقوس خاصَّة مستلهمة من تقليد الطيور، والدببة، والثعابين. وكان ذبح الحيوانات – وهو شائع في كل الثقافات تقريبًا- يمثِّل "تضحية"، أي احتفالاً له هيبته، كانت تساق فيه الأضاحي إلى المذبح تكللها الورود، وفي جو من الحزن، فقد كان التألُّم من إزهاق روح مخلوقات بريئة جزءًا لا يتجزأ من تقديم القرابين للآلهة. ومن ثم فقد أصبحت "الأضحية" تدلُّ على التخلي عن شيء ثمين.

وهناك ملمح آخر يميِّز حضارات الماضي، وهو تقديس المكان، فاختيار مكان إنشاء مستوطنة خاصَّة كان يُعتبر طقسًا مقدَّسًا غاية في الأهمية، ما زال موجودًا في ممارسة الصينيين للفنج شوي Feng - Shui، أي الاتجاه الصحيح إلى المسكن.

وتعد الأساطير اليونانية–الرومانية غنية بالجان المحلِّيّ، وبالحوريات، وبالآلهة الرومانية. والحوريات هي آلهة بدرجة أدنى تختلط مع عناصر المناظر الطبيعية وتحميها، وتنطلق من النبع ومن النبات الأخضر، أو من الكتلة الصخرية، وتقود إلى تشييد المعبد الصغير، أو الحجر المنقوش في هذا الركن من الغابة، أو المرج، وليس في مكان آخر، وعندما يؤخذ شاعر ما بجمال المنظر الطبيعي، كان بوسعه أن يصيح متعجبًا: "Numen est" أي (الرب موجود). ولا يزال تأليه الأنهار والبحيرات والجبال موجودًا لدى شعوب هنود أمريكا، إذ تُعبد الجبال في الإنديز ببيرو حتى قبل وصول الإنكا (سكان ما قبل كولمبوس)، الذي كان مجمع آلهتهم لضم النتوءات الصخرية المقدسة أبوس Apus، و"الأم المياه – ياكوماما" Yakumama وعدة آلهة أخرى للأرض ولثمار الأرض.

وقد كان سكان الصحراء لديهم خوف مقدَّس من الجان والجنيات المختفين بين الكثبان الرملية، والذين كانوا مألوفين لدرجة أن محمدًا لم يجد مناصًا من إدخالهم في لاهوته. وتتميز المناظر الطبيعية بالشرق الأقصى من التبت وحتى اليابان، بوجود

المذابح الصغيرة، والمقاصير، والأبراج، والمعابد البوذية، أو أيضًا بتلال بسيطة تحمل ذكريات مقابلات مذهلة مع الشين Shen، وهي الأرواح التي تحمل الرسالات بين السماء والأرض، وتساعد الإنسان على أن يوجّه طاقة الكون، ويحقق ذاته على طول مسار الطاو Tao، فتبدو حديقة ما –حتى في نظر ياباني متحضر– بمثابة معبد.

قد يطول مقام السرد، ولكنى سأقتصر على ذكر مثال أخير للاتحاد بين الإنسان والبيئة، الذي يذهب إلى ما وراء الأمر البوذي باحترام أي كائن حي.

حتى بعض الدارسين الذين درسوا بعمق عادات السكان الأصليين بأستراليا (أقدم ثقافة لا تزال موجودة في العالم) لم ينجحوا في فهم كامل لرؤيتهم السحرية للواقع. ففي الفترة التي عشت فيها في هذا البلد، منذ أربعين سنة تقريبًا، وكلما كنت أزور الصحراء الوسطى حول أليس سبرنجز Alice Springs، كان الموضوع يعرض على بنبرة خفيفة في حوارات الصالونات، غير أنه فقط في وقت متأخر بدأ الموضوع يخرج عن دائرة المتخصصين، ويجذب انتباه الكتاب، والسينمائيين أيضًا. وهذه الرؤية تثير في الواقع فضلاً عن عدم التصديق، القلقَ، حيث تفوق وتخرج عن القوالب الذهنية لدينا.

فهذه الرؤية تتخيل الأرض مغطاة بشبكات من خطوط القوى غير المرئية، ولكنها قوى من السحر، نعم من الأصوات، هذه الأصوات تشكل نوعًا من طرق، وملتقى طرق الحلم، التي لا تعتبر مع ذلك خيالات ميثولوجية بالنسبة إلى هؤلاء الناس، بل مواقع حقيقية ومقدَّسة، ومهمة لدرجة أن زعماءهم طلبوا رسميًّا من السلطات الأسترالية حمايتها كما تفعل مع الآثار. وهناك أكثر من ذلك، إذ تشكل قوى الأصوات هذه نقاط ارتكاز واقعية، أما الشيء غير القابل للتصديق والذي لا يقبله المنطق فهو أن "خطوط الأصوات" هذه تمثل خطوطًا حقيقية للاتصال، يتيح للمستكشف من قبيلة ما من البدو الرُّحَّل، أن يتبين طريقه ولا يفقد اتجاهه حتى لو كان على مسافة بعيدة من مكانه الأصلي، وأن يتفاهم مع قبائل أخرى بعيدة تتحدث لغة مختلفة[1].

اعتدال التبشير وتكوين الأتباع

كل الملامح التي سبقت الإشارةُ إليها تؤكد لنا خاصية أخرى عامة تشمل وتلخص كل الخصائص الأخرى: قدرًا ضئيلاً من اللاتسامح للديانات "السماوية" المنزلة. فهناك مسلَّمة من المسلَّمات هي أنه يوجد عدة طرق للوصول إلى الحقيقة –وهي حقيقة لا يمكن أن تظهر كاملة بنفسها مطلقًا بسبب محدودية العقل البشري– ومن ثم، فإن غياب الحقائق

---

[1] بروس شاتوين B. Chatwin، خطوط الأغاني The Songlines، طباعة بنجوين، ١٩٨٨.

المطلقة (الدوجما) التي يتعين على المؤمن الإيمان بها، يؤدّي إلى أن تترك ديانات الوثنية هامشا واسعًا لحرية الاقتناع. ولهذا كان فلاسفة عصر التنوير يتخذون ديانات روما واليونان نموذجًا للتسامح، حيث كان كل واحد حُرًا في اتباع العقيدة التي تروق له أكثر.

هذا الغياب لحقيقة مطلقة ولليقين المطلق كان له محصلة، وهي وجود أشكال متواضعة ومحدودة من تكوين الأتباع، والتبشير. وهذه الديانات السابقة والحالية على السواء قد عرفت حماسًا من جانب المعتنقين الجدد لاستقطاب أتباع جدد. وقد قام كل هؤلاء بجهود تبشيرية كبيرة انتشرت بفضلها البوذية من الهند إلى الصين، وكذلك طقوس عبادة ميترا وإيزيس كان لهما تأثير على الطبقة الأرستقراطية والعامة في روما على السواء. وقد تميزت الحقبة الهيلينية بجوٍ من الدعاية المشتعلة من جانب كل دين ضد خصومه[1]. غير أن هذا النشاط لم يكتسب قط سمات عدوانية وإقصائية، بل يمكننا بالأحرى أن نصفه بأنه حماس من وجد شيئًا ما طيبًا ويريد أن يقتسمه مع غيره. وهذا النشاط في الواقع كان له صلة مع مسائل مذهبية وكان يتعلق على الأكثر بمجال الممارسة، وبطرق العيش الأفضل على هذه الأرض، وللتغلب على الخوف من الدار الآخرة.

وقد كان السعار الجدلي حيًّا بصفة خاصَّة بين الطوائف التي أصبحت مثل الموضة بالنسبة إلى طبقة الصفوة المثقفة مثل الفيثاغورثيين، والأبيقوريين، والأفلاطونيين، وأتباع مذهب ازدراء الدين التقليدي في أثينا القديمة، وأتباع مذهب زينونة لمواجهة الألم، لدرجة أن كلمة "التحزُّب" أصبحت مرادفًا للتعنت، غير أن مروِّجي أفكار هذه الطوائف على الأقل لم يزعموا أنه يجب عليهم فرض الحقائق التي يؤمنون بها على أي إنسان آخر، فضلاً عن فرضها على البشرية كلها. وكما يلاحظ بول فيين Paul Veyne فإن هذه الفرق -على العكس- كانت تدرك أن تعاليم المؤسس بمثابة قواعد حياه لحفنة من الأتباع سعيدة بأنها هي وحدها التي تفهم هذه التعاليم.

الأرض المنبسطة

ونحن نرسم صورة عامة لهذه الديانات بهدف مواجهة القالَب النمطي الذي يميل للتقليل من شأن تراثها الرُّوحِيّ، حاولتُ أن أعرض عن عمد الصورة الوردية. ويظل هذا التراث لأوجه كثيرة صعب الفهم حتى لمن كرَّس له حياته كلها. فماذا نعرف في الحقيقة عن الديانات القديمة؟ وكيف يمكننا ونحن على مسافة آلاف السنين أن ندخل إلى

[1] أنيوس، سر الأديان The Mistery Religions، نشر دوفر، نيويورك ص ٩.

النواة الروحية التي يصعب تحديدها في نصٍّ مكتوب، أو في صورة مرسومة؟ وما الجوانب التي يكتنفها الغموض من الديانات المنتصرة؟ فنحن نجد أنفسنا عند مواجهة المعتقدات القديمة أمام نفس المصادر السطحية والمليئة بالثغرات، مثل من يريد بعد ألف أو ألفي سنة فهم روح المسيحية فقط من خلال بعض صفحات التعاليم الدينية، أو الإنجيل، أو من خلال بعض تعليقات المؤمنين، وعدد من التماثيل والتوابيت والرسوم العشوائية والموجودة على شكل شذور غير متكاملة.

أما في ما يتعلق بالديانات الوثنية الحالية فإن ما يسبِّب اللَّبس هو -على العكس- كثرة المصادر، وسهولة أن يتوه الواحد منِّا في دهاليز النصوص، والصور كما سنرى بعد ذلك.

إن هذا الكون المعقَّد على أي حال لا يمكن أن يكون فقط من الأنوار، بل من الواضح والمسلَّم به أن يحتوي أيضًا على ظلال كثيرة مقلقة. وأيضًا في ما يتعلق بمظهر التسامح المحتفَى به. ففي الفصلين التاليين سأحاول أن أبرز كذلك المظاهر السلبية واللا أخلاقية، مثلما تحدثت عن الجوانب الإيجابية، وسأتحدث أولاً عن ديانات الماضي ثم عن الديانات المعاصرة.

إن أي تدريب يهدف إلى "تغيير وجهة النظر"، وتطوير انفتاحنا العقلي سيكون فعلاً بمثابة لعبة تتغير فيها باستمرار زاوية الملاحظة مع المُعارِض، محاولاً في البداية أن يتبنى وجهة نظر المؤيِّد، ثم وجهة نظر المُعارِض، وهكذا من جديد، حتى نصل بشأن موضوع الملاحظة إلى فكرة أكثر موضوعية ووضوح. وسيقودنا معيار كهذا خلال رحلتنا.

وفى ختام هذا الفصل الذي يُعَدُّ دفاعًا عن المعتقدات التي تَدِينُ بها الديانات السماوية الثلاث السائدة في بيئاتنا، والتي يمكن أن تصدم مشاعر الكثيرين، من المهمِّ التأكيد على نقطة أرى أنها مركزية لفكرة التسامح.

إن الصفحات التي سطرتها سابقًا هي دعوة للنظر باحترام أكبر إلى عالَم ديني نراه نحن غريبًا وصعب الدخول إليه. ولكن الاحترام لا يعنى أن نقبل حتى واحدة من المقدِّمات الضرورية، بل -على العكس- هو أن نعتبر الديانات المعارضة لمعتقدنا على قدم المساواة، وتعتبر في نظر أتباعها ديانات كاملة بالمعنى الشامل.

وقد عبَّر طالب برازيلي جيِّدًا عن هذا المفهوم في أثناء مناظرة تَمَّت في مؤتمر حول هذا الموضوع حيث قال: "أنا لست مسيحيًّا، ولا أتبع أي شعيرة دينية، لأنني أعتقد كما يعتقد الشرقيون، لا أظنُّ أن الله هو كأبٍ يتابع أحوالنا خطوة بخطوة، ولا أعتقد أن

النفس ستعيش بعد الموت بصورة فردية. كانت عمتي على العكس متدينة، وتذهب دائمًا إلى الكنيسة، وعندها إيمان لا يتزعزع بالعناية الإلهية وبالدار الآخرة. ولا أعتقد مطلقًا أنها غبيّة أو واهمة، بل أحسدها. كم كان يعجبني أن يكون لي يقين مثل يقينها، فهذا اليقين عون كبير. أما هي بدورها فلم تعتبرني مطلقًا غير أمين، بل كانت تصغي إليّ وتقول إن حديثي هو حديث المثقفين. وقد كان يؤسفها أنني لا أجد الطمأنينة والأمل في الدين مثلها، وتتمنى ألا أكون على صواب في النهاية".

إن هذا الشاب لم يكُن يعرف أن تبادل القفشات هذا بين أناس بسطاء كان يعبِّر عن هذا التخبُّط الديني نفسه الذي عرَّفه باسكال بأنه "مراهنة"، وعرَّفه كيركيجورد Kirkegaard بأنه "قلق"، وعرَّفه ياسبرس Jaspers بأنه "مخاطرة"، وهو شعور منتشر وسائدٌ في كل المعتقدات، تميل ممارسة الشعائر في الديانات إلى كبته وقهره.

وسنرى لاحقًا ما وجهة نظر سلطتنا الدينية المرجعية، وهي الكنيسة الكاثوليكية، في هذا الشأن. فالحوار بين الأديان يبدو حتى من وجهة النظر العلمانية صعبًا للغاية، إذ يمكن اعتباره نجاحًا لأنه يؤدي إلى بعض التبادل في وجهات النظر والذي يمكن من خلاله فقط تجنُّب تبادل السباب، وتبشيع بعضنا صورة بعض، ومحاولة أن نتلاقى على أرضية مشتركة ومحايدة لأعمال الخير.

وفي أثناء رئاسة إيطاليا للاتحاد الأوربي في النصف الأول من عام ١٩٩٦ تَمَّ في البندقية وفي مؤسسة تشيني Cini المنتدى الأوربي الآسيوي الذي شارك فيه فلاسفة وعلماء ومؤرخون كثيرون من القارتين، وتَمَّ تقسيمهم إلى مجموعات عمل متنوعة. وقد ترأَّست بصفتي ممثلاً للبلد المضيف المجموعةَ التي كان يناط بها بحث المظاهر الدينية، وقد أدهشني كثيرًا أن عمل المشاركين كان موجَّهًا فقط لشرح أوجه التشابه الممكنة بين عقائدهم. وفي مداخلتي الصغيرة لم أستطع أن أقاوم طرح سؤالين مستفزَّين: "لماذا يتعين علينا أن نوجد شيئًا ما مشتركًا مهما كان الثمن بيننا نحن الأوربيين وبينكم أنتم الآسيويين، حتى في المجال الديني حيث تتباين وجهتا النظر تباينًا كبيرًا؟ ولماذا لا نعترف بهذا الأمر ونركز بالأحرى على التبادل الثقافي ومبادرات التعاون الملموس التي يمكن أن تعزِّز الاحترام المتبادَل وتساعد على تقدير الاختلاف لدى الآخر؟".

وكثيرًا ما تكون محاولة تحديد أشياء مشتركة على عكس المنطق وبأي ثمن بين عقيدتنا وعقيدة "الآخر"، صورة من صور اللاتسامح. حيث يُخفِي موقف كهذا القناعة الداخلية بأن وجهة النظر الأخرى، بما أن رؤيتي للعالم هي الوحيدة الممكنة، يجب أن يكون لها على الأقلِّ بعض نقاط الالتقاء مع وجهة نظري.

ومن ثمّ فإن الاعتراف الأمين بوجود اختلاف لا يمكن إنكاره، يمكن أن يوحّدنا أكثر من أي التقاء غير أكيد ومتذبذب في الرؤى.

ففي عام ١٨٨٤ (قبل نظرية النسبية، ونظرية الكمّ) أثار نشر رواية "الأرض المنبسطة" Flatland لإدوين أ. أبوت Edwin A. Abbot ضجة كبيرة، حيث اعتبرت هذه الرواية عملا كلاسيكيًّا، ونموذجًا لرأي ضدَّ التيار (يوجد مواقع لـFlatland على شبكة الإنترنت). ومعنى فلات لاند "الأرض المنبسطة"، ويتخيل أبوت بذكائه الحاد وبمهارته العلمية المتميزة، الحياة على أرض لها بُعدَان فقط في مواجهة "الأرض الفضائية Spaceland"، أي عالمنا ثلاثي الأبعاد. ونجد وصفًا جذّابًا وساحرًا لكل ما هو مختلف حتى طريقة سقوط أشعة الضوء، حيث لا يوجد مطلقًا مفهوم الارتفاع، ومن ثم لا يمكن حتى أن نتخيل سقوط أي شيء.

فمن المستحيل بالنسبة إلى ساكن البلد المنبسط -على سبيل المثال- أن يعيد وضع سيف في غمده إذا كان انحناء الغمد في اتجاه معاكس لانحناء نصل السيف، كما هو الحال بالنسبة إلينا عندما يستحيل لبس الحذاء الأيسر في القدم اليمنى.

إن المقارنة بين العالَم ذي الأصل الواحد لـ"الفلسفة الأبدية"، والعالَم اليوناني المسيحي ثنائي الأصل، يمكن أن يستلهم من نموذج الفلات لاند أكثر من محاولته إيجاد نقاط التقاء بأي ثمن، وإدخال المفاهيم الخاصة بنا في البنية الإيديولوجية للآخر، وهذا يعني محاولة مشتركة لأن نضيف إلى مفاهيمنا ثوابت غريبة عنا تمامًا. وهو جهد -كما أسلفنا القول منذ البداية- يساعدنا على أن نكون في زاوية الرؤية الخاصَّة بالآخَر، حتى نصل إلى فهم بعضنا بعضًا بصورة أفضل ولو قليلا.

الفصل الثالث

اللاتسامح عند الوثنيين

"الآن سأذهب محكوماً على بالإعدام من جانبكم، بينما يذهب أولئك محكوماً عليهم من الحقيقة بالظلم والطغيان. سأبقى في عقابي وهم في عقابهم"

أفلاطون، دفاع عن سقراط

[هوس التدين – أسرار خلاص النفوس والتعصب – ديانات الحس المدني – قطع رءوس تماثيل هرمس – قمع حفلات باخوس الماجنة – اضطهاد النصارى]

هوس التدين

إن التسامح الديني حتى في العالم الوثني لا يسود دون معارضة فهذه الديانات بالتأكيد، رغم أنها لم تكن تهدف إلى اليقين المطلق، ولا إلى دوجما، فليس لها تأثير قوى على المؤمنين بها، وهو ما يميز الديانات التي ترتكز على الوحي الإلهي. وفيما يتعلق بالبعد الأكثر التزاماً من الظاهرة الدينية، وهو البعد "الرأس" الذي يستقى، وينهل من محتوى العقيدة، فإن الديانات الوثنية تترك الحرية الكاملة للمؤمن بها، ومن ثم فهي متسامحة فيما يتعلق بالتدين، وهذا ليس بالشيء البسيط وقد كان فولتير على حق من هذه الزاوية، عندما اتخذ من ديانة الإغريق، والرومان نموذجاً للتسامح. فقد كتب في "ميثاق التسامح" أن اليونانيين لم يشعروا بالغضاضة من إنكار الأبيقوريين للعناية الإلهية، ولوجود النفس وكان يوجد في أثينا معبد مخصص للآلهة الأجنبية، وللآلهة غير المعترف بها. وتساءل فولتير: "هل هناك دليل أبلغ من هذا على احترام كل الشعائر؟"

أما فيما يتعلق بالرومان – من رومولوس وحتى الحقبة التي كان النصارى يجادلون كهنة الإمبراطورية، لم يتم اضطهاد ولا حتى رجل واحد بسبب مشاعره. فقد شك سيسرون Cicerone في كل شيء، وأنكر لوكريتسيو كل شيء. وقد كان المبدأ الأساسي

لمجلس الشيوخ، وللشعب الروماني هو "إن إهانة الالهة، هو شأن خاص بالآلهة". إن الرومان لم يمنحوا موافقة عامة لكل الشعائر، ولكنهم سمحوا بها جميعا.

وقد كان لليهود معابدهم في روما في عهد القيصر أغسطس ويتساءل فولتير: "هل هناك مثال أعظم من هذا على أن الرومان كانوا يعتبرون التسامح القانون الأقدس في حق الناس؟"[1]

ومع ذلك فكل الديانات الماضية والحالية، وبسبب غياب نسيج مذهبي – تفهم الشأن الديني كالتزام جماعي. وكما قيل "علاقة" يجب ألا تؤخذ بتهاون وتراخى، تقوم على تعليمات ومحظورات، وأشياء – يجب القيام بها معاً وحزمة واحدة، حيث يكتسب البعد "الأفقي" أهمية كبيرة.

وكما يبرز جان بيير فرنان J. P. Vernant في رائعته "الأسطورة والفكر عند الإغريق"، فإن أي صلة دينية تمر عبر الوسيط الاجتماعي. ولأن هذه الصلة جزء من كيان اجتماعي كالقبيلة، والمدينة، فإن الفرد يتصل بما هو إلهي. ولق استبدل الوثنيون الهوس الرائع لديننا (الأرثوذكسية) بالالتزام بالدين. إن العقيدة لا يمكن أن تتحد دون شرط مع شيء مكتوب عليه أن يبقى في دائرة المجهول، وما لا يمكن قوله، ولكن هي بالأحرى قبول مبادئ تنظم الحياة اليومية.

إن العقيدة تكمن فيما تحكيه الأساطير بوصفها رموزاً للقيم، وللرغبات، وللعلاقات التي تصبغ الشأن الإنساني، المغموس "بالحس الاجتماعي" الذي يمتزج مع ذلك الأخير. إن مهمة الآلهة الرئيسية قد تكون وصل البشر فيما بينهم. إن المجال فسيح جداً، لدرجة أنه إذا ما أردنا تأكيد ذلك على ضوء التجربة التاريخية، وإلقاء نظرتنا على الماضي، فسيتعين علينا أن نقتصر، كما فعل فلاسفة عصر التنوير، على الأفق القريب منا، وهو أفق أجدادنا البعيدين الإغريق والرومان.

أسرار خلاص النفوس والتعصب

إن غياب رسالة غيبية صريحة، واليقين بعدم القدرة على الاتصال مع الذات العليا، قد أفرزا شكلين متوازيين من التدين: شكل فوق الرسمي لطقوس الدولة، وشكل سرى، ومتعصب للاحتفالات الغامضة.

---

[1] فولتير، ميثاق التسامح Traite Sur La Tolerance فلاماريون، باريس ١٩٨٩، ص ٦١

ويجهل كثيرون منا وجود ذلك المظهر الغامض، والشائع أيضا، حيث تم كبته من جانب مخزوننا التربوي، واستبعاده بفعل مصادرة أرادت إزاحة كل ما يستهدف السكونات الروحية. ويحتفظ خيالنا الاجتماعي عن هذا العالم الديني بفكره عن بعض مظاهره الخارجية بالأحرى، وهى فكرة إعادة بناء حدثت في غمار إعادة الاكتشاف العام للعصر الكلاسيكي، أولاً في عصر النهضة، ثم في عصر الرومانسية بعد ذلك.

فنحن معتادون منذ فينكلمان Winkelmann وما بعده على التفكير في البنية الدينية الكلاسيكية بمفردات الاعتدال الكبير، حيث يتقابل مع نقاء الصور لون واحد واضح ناصع البياض. فالأعمدة بيضاء، والتماثيل بيضاء، والزخارف بيضاء. وكما هو معلوم تؤكد لنا أحدث الأبحاث التاريخية، والأثرية أن هذه المعابد كانت تشبه كنائس الباروك، وقد تحولت إلى قطع ملاط زاهية الألوان، وأعلام، وسلب الأعداء، والنفائس، والنذور، وتماثيل بملابس منقوشة، وعيون من الأحجار اللامعة، وشفاه مصبوغة بلون أحمر.

وقد كان النشاط الديني الذي يتم داخل وحول المعابد كذلك باهتاً، وضبابياً بعض الأحيان. أما الطقوس الدموية لديانات البحر المتوسط القديمة، مثل ذبح أول مولود (كما هو الحال مع بعل Baal عند البابليين)، وقتل الملك عند تغير الفصول (كما هو الحال في عبادة الربة البيضاء Dea Bianca)، والأضاحي البشرية، وطقوس أكل لحوم البشر، فكلها ترجع إلى ماض أسطوري. فهذه الاحتفالات العنيفة قد تم تهذيبها من فترة، وجعلها رمزية، وتم استبدال التضحية بالحيوانات، والتبرع بالفاكهة بها. أما بالنسبة للسواد الأعظم من المؤمنين، والناس البسطاء الجهلاء، فإن الأسطورة Mithos تبدو غير مفهومة، كما أن الأعمال الدينية الموجهة لآلهة متقلبة وذات نزوات، كانت تعكس الشظف، وقسوة الحياة اليومية. أما جشع الكهنة، فحدث عنه ولا حرج، فقد كان من السهل أن تتدنى ممارسة الطقوس إلى أشكال ساذجة من السحر، والشعوذة، كما أدانها فيثاغورث، وأريستوفان Aristofan، وكريتسيا Crizia.

وهكذا في طبقات الشعب المتنوعة بدأ في الظهور إلى جانب الاحتفالات المرفهة التي كانت تتم تحت ضوء الشمس، أشكال أخرى سرية لممارسة الشعائر مشتقة من الجانب الأكثر غموضاً للصوفية الشرقية، والتي كانت تلتقي بشكل كبير مع الظمأ الروحي المنتشر، ومع الحاجة إلى خلاص النفس والتي جهزت التربة فيما بعد للمسيحية الأصلية. وقد عثر علماء الآثار على سبيل المثال تحت أرض بعض المعابد بقلعة أثينا، وعلى أحد جوانب القلعة على بقايا كهوف ومغارات كانت مخصصة لطقوس سرية نجهل حقيقة طبيعتها، والتي كانت ربما تمارس بأشكال تختلف عن الخدمات الدينية التي كانت تتم داخل البوائك المزينة المفتوحة أمام الجمهور. وبعد فتوحات الإسكندر الأكبر بصفة خاصة زاد عدد وشعبية هذه الاحتفالات السرية في كل المنطقة الهيلينية، ممثلة

بذلك منعلقة غاية في الحساسية للسلطة السياسية التي كانت مضطرة للتعامل معها، ومع قدرتها الاجتماعية المتفجرة بحذر شديد، متسامحة معها حينا، وقاهرة لها حينا، ومعاقبة لها حينا اخر حسب ثقلها، وبناء على الظروف الخاصة.

وأهم هذه الوظائف الغامضة كانت أسرار العروض المقدسة التي كانت مخصصة فقط لطبقة محدودة من الأتباع، والتي كانت تتم في سرية كبيرة، وكانت ثرية بالشحنة الصوفية والشعورية. أما خصائص هذه الدراما الدينية فقد ظلت مجهولة لنا في جزء كبير منها، غير أننا نعرف أنها كانت تجسد بشكل كثير الإيحاء صراعات، ومعاناة أحد الالهة – قيامة اتيس Attis، العثور على أوزوريس، تضحية ميترا، البحث عن بروسربينا من قبل الأم ديميترا – ومن خلال صدمة بعض الطقوس العنيفة كانت تهدف إلى إثارة شحنة مولدة لدى المنضم حديثاً. وبعد إعداد صارم وطويل من العزلة والصيام، والتأمل، والندم، والعبادة الجماعية، يبلغ الأمر ذروته في احتفالات ذات طابع ماجن والتي يتم فيها الرقص، وتعاطي الكحوليات، وممارسة الجنس، وتدخين المواد التي تغيب العقل، ودماء الأضاحي، ودق الطبول، وكل ذلك كان يحمل المنضمين حديثاً إلى حالة من النشوة نسميها اليوم " حالة غياب الوعي"[1]

وفي جو هذا التدين الصوفي الغامض نجد أول أمارات التعصب الواضحة. فإن هذه الكلمة اللاتينية Fanatismo مشتقة من كلمة Fanum وهي تعني معبد، تؤكد لنا أن هذه الظاهرة لها باعث ديني. فنحن نعرف أنه في الديانات القديمة لا يمكن أن يكون هناك تعصب ضد "الكافرين". فالمتعصبون الوثنيون كانوا على الأكثر أناس متطرفون يجلدون أنفسهم، ويصيبون بعضهم بعضا في قمة طقوسهم المجنونة، وفي بعض حالات نادرة فقط كانوا يمارسون العنف ضد الآخرين. ونجد في الأدب اللاتيني إشارة خاصة إلى التعصب بخصوص كهنة بلونا Bellona، الذين كانوا يخرجون في أيام محددة من العام بملابسهم السوداء وهم يحملون البلطة ذات السلاحين، وعندما يرتفع ضجيج الطبول يمزقون لحوم بعضهم البعض، حتي يصلوا إلى حالة من الهذيان. وقد نسب جوفيناله Giovenale سلوكاً متعصباً مماثلاً إلى كهنة تشيبيله Cibele (ابنة أورانوس). وقد أشار كتاب آخرون إلى حالات من ممارسي عبادة إيزيس، وطقوس أخرى أنهم بعد أن تسيطر عليهم الآلهة، ينطقون بكلمات غير مترابطة، ويتخلون عن كل نوع من السلوك المنضبط. وليس من الصعب إذاً تخيل أنه بالنسبة لأتباع الفرق الصوفية المختلفة كان هناك قواعد صارمة للسلوك والتي كانت نادراً ما تكون حالات من القهر النفسي لا تختلف عن تلك التي نصادفها عند كثير من الفرق المعاصرة.

---

[1] انظر: S. Angus , The Mistery Religions مرجع سابق. إن تأثير الأسرار الغامضة في كل منطقة البحر المتوسط قد استمر لأجيال.

ديانات الحس المدني

إن أقصى درجات الصرامة والقسوة الدينية نجدها على المستوى الرسمي خصوصا، لأنه في الفترة التي نتحدث عنها، نجد أن الدين والحس المدني كان شيئا واحدا، حيث كان الدين شعيرة الدولة.

فقد أبرز جيبون Gibbon، وهو واحد من المرجعيات العظيمة في هذا الشأن، أن المجتمعات اليونانية والرومانية كانت تقوم على تبعية الفرد للمجتمع، وتبعية المواطن للدولة. وقد كان أبرز مرشد لتصرف الإنسان هو إنقاذ الجماعة.

وقد تغير هذا المثل الأعلى المدني بعد ذلك مع انتشار الديانات الشرقية التي كانت تكرز لاتحاد النفس مع الإله، وخلاصها الأبدي كأهداف جديرة بكل الجهد الإنساني. ولكن طالما أنه لم يتم إقصاء القديس والكاهن من على عرشهما، وطالما أن مركز ثقل الرأي الشعبي لم يتغير من الحياة الحاضرة إلى الحياة المستقبلة، فإن النماذج الأخلاقية الكبيرة التي أفرد لها مكان على المذابح بجوار الآلهة، كانت تتمثل في الزعيم الوطني، وفي البطل وهما مستعدان للموت في سبيل خير الوطن. وقد كان مثقفوا تلك الفترة على وعي كبير بهذا. فمن بين الرومان كان ماركو ترينسيو فارونه M. T. Varrone يعتبر الشعيرة الدينية بمثابة ظاهرة سياسية تتعلق بمنظومة التقاليد والتي تحتاج الدولة لوجودها. وهناك شيء آخر يجب أخذه بعين الاعتبار في بيئة منفصلة عن "اللاهوت المدني"، ألا وهو "اللاهوت الطبيعي"، أي البحث حول طبيعة الآلهة وهو ما يجب أن يتم داخل المدارس وليس على الملأ.

وحيثما يسود اللاهوت المدني فلا يمكن أن يسود معه التدين المتزمت. وقد كان أكثر من الطبيعي أن يصل الثنائي الرئيس – الكاهن إلى أوجه. ولنفكر للحظة حول أبعاد رؤية دينية من هذا النوع. فعندما نفكر في اللاتسامح وفق قواعدنا الحالية، فإننا نفكر بالأحرى في حيز محدود من الاستقلالية تتركه سلطة ما للمواطن الذي لا يتأقلم مع البيئة. ولكن فكرة "فرد" (حتى وإن بدأت في الظهور في اليونان متوازية مع تطور الفلسفة النقدية والديمقراطية) كانت مجهولة في العالم القديم، وكانت غريبة تماماً على السياق الديني. فقد كان محكوماً على بروميثيوس Prometeo أن يبقى سجيناً في أغلاله إلى الأبد. والإنسان لم يكن عملاقاً وسط كون يبدو أن يدور حوله، ولكنه كان كائناً صغيراً تحركه بقوة قوى أكبر منه. وكان الإنسان يحتاج إلى كل الدعم من أقرانه الذين كانوا يقتسمون معه نفس المتاعب والحاجات. وفي عالم لا يوجد فيه يقين في الذات العليا إلا أن تكون ألغاز، كان من المنطقي أن يسيطر هذا المبدأ على أي شيء: لا تضعف الأثر الذي يقوى الرابطة الجماعية في الدخول في الرحمة الإلهية.

فقد كان تدين يقوم على أشكال وأعمال يجب تنفيذها بالشكل الصحيح، وبصورة لا يمكن التنازل عنها. وأول ملامح هذا التطبيق الصحيح (والذي نجده تقريباً في كل الديانات) كان التمييز بين الأفعال "الطاهرة" و"غير الطاهرة" وثراء وتنوع طقوس التطهر، بدءاً من الوضوء، والتعميد وحتى الامتناع عن الاتصال بالمرأة في الأوقات غير الملائمة (أثناء الحيض، والوضع، وأشخاص يقومون بوظائف محددة...الخ). من هذا الإصرار على "عدم الطهارة" الذي يجب التخلص منها حتى نكون جديرين بنظر الله إلينا، تشتق بعض المواقف السلبية لدى بعض المعتقدات تجاه المادية بشكل عام، ومن جانب آخر فإن تعريف "الأطهار" الذين يطلقون على أنفسهم هذا الاسم لأنهم يعتقدون أنهم هم وحدهم من يحملون العقيدة "الصحيحة".

ونادراً ما تكون الصلوات، والاحتفالات في المناسبات الرسمية، لقاءات روحية، ودعوات إلى الاستفسار حول الطبيعة الإلهية. فكما يلاحظ والتر باتر W. Pater بمهارة عالية فهي على الأكثر وسائل مركزة لمنع هذا النوع من الأسئلة المحيرة.

وفيما يتعلق بما نعلمه حول موضوع عبادة لاريس Lares وبناتيس "Penates" (الأجداد والآلهة المنزلية الحارسة للبيت) وعبادة سلطة رب الأسرة، وقداسة التقاليد، كل ذلك يعطينا فكرة عن كيفية أنه في مجتمعات ذات أبعاد متواضعة وعادات بسيطة مثل روما الجمهورية، وليس فقط في الإمبراطوريات الكبيرة المستبدة، كان المواطن من المهد إلى اللحد محاطاً بشبكة حامية له ولكنها ملزمة من الواجبات الدينية، ومن العنصر الديني في حياته اليومية. وكم كانت بليغة قائمة التراتيل التي كان يقرأها من يقوم على الاحتفالات الرومانية ليطلب مساعدة الآلهة الدنيا للمجتمع العلماني: فاتيكانو Vaticano الذي يساعد المولود على إصدار الصرخة الأولى، فابولينو Fabulino الذي يجعل الطفل ينطق بأول كلمة كوبا، Cuba الذي يجعل الطفل هادئاً في مهده، دوميدوكا Domiduca الذي يساعد الطفل على أن يعود إلى البيت سالماً معافى.

إن أشكال الشعائر المتنوعة التي تهدف إلى التقاء إشارات الآلهة الحامية – تقديم القرابين، التضحية، التبرعات – كانت تمثل أكثر من كونها واجباً بالنسبة للإنسان التقى، واجباً بالنسبة للمواطن الصالح. فمن ناحية لم يكن مستساغاً أن إنساناً حراً لا يشارك في الحياة السياسية لمدينته، ومن الجانب الآخر كان التدين يهيمن على كل مظاهر الحياة العامة، بداية من تصرف القاضي الذي يتقلد أعلى المناصب، وحتى سلوك الناخب العادي. وقد تشكلت بذلك منظومة قيمية من الفضائل يتدخل فيها المقدس باستمرار ليساعد المؤسسات، وتكون المؤسسات كذلك دعماً لما هو مقدس.

إن افتتاح البرلمان، أو بداية حملة عسكرية، أو إلقاء كلمة مهمة دون تضحية للآلهة أولا أو طلب مشورتها، كان يعد فضيحة سياسية وانتحارا سياسياً.

أما إذا كان الأمر لا يتعلق بالإنكار ولكن مجرد تصرف خاطئ، وسخرية تجاه أشكال ما هو مقدس، فإن الذنب يمكن أن يكون عظيماً لدرجة تصويره على أنه جريمة كفر. وجريمة الكفر كانت تماثل جريمة سب الحاكم أو تهديد أمن الوطن، ومن ثم كانت تستوجب عقوبة الموت.

حقيقي كما يلاحظ فولتير أن فلاسفة، وأدباء يمكنهم أن يشككوا في كل شيء، وأن ينكروا أيضاً وجود النفس، وأن يسخروا من ساكني الأولمبوس؛ دون أن يتم اضطهادهم بسبب أفكارهم. ومع ذلك فلا يستطيع واحد منهم ولا حتى أقواهم، أو معبود الجماهير، أن يسمح لنفسه بتحدي المؤسسة السياسية – الدينية دو عقاب، وأن يأتي بتصرفات غير مهذبة تجاه رموز دينية رسمية. فنحن نجد في النصوص القضائية خاصة تأكيدات كثيرة على أنه سواء في اليونان أم في روما كانت الجرائم ضد الطقوس والرموز الدينية يتم العقاب فيها بقسوة. والإدانة بالسرقة كانت تكتسب خطورة كبيرة، إذا ما كانت تتعلق بسرقة النفائس المقدسة. ففي إحدى مواعظ ليزيا Lisia تم توجيه اللوم والاتهام بالهرطقة للشاعر الغنائي اليوناني شينيزيا Cinesia، الذي اتهم بأنه أقام الولائم في أيام بها أحداث أليمة، وبأنه سخر من الآلهة[١].

قطع رؤوس تماثيل هرمس

عند أول خيوط الفجر، استيقظت المدينة على صراخات "تدنيس المقدسات! تدنيس المقدسات! "، وحدثت هرولة كبيرة للحرس وجلبة للسلاح، وأصوات لأناس مذعورة. وقد أصبحت الشائعات التي كانت متناقضة وملتبسة خبراً واحداً يحاول الناس تصديقه" لقد قطعوا رؤوس التماثيل المقدسة! ". "ولكن أين؟ وكيف يمكن ذلك! ". ومع الصلوات والتعاويذ لإبعاد صواعق العقاب الإلهي، كانت هناك همهمات تسرى حول من عساه أن يكون مرتكب هذه الجريمة المشينة، وقد بدا أن أسمه يتردد على أفواه كثيرة على الرغم من أنه كان يُنطق بخوف وتبجيل، لأنه يتعلق بشخصية مرموقة هكذا ..."

مشهد كهذا يجعلنا نفكر في أي شيء ؟ هل في مدريد توركمادا Torquimada؟ أم في مدينة جينيف كالفينو Calvino؟ أم في فلورنسا سافونا رولا؟ أم في روما حيث يوجد البابا الملك؟

---

[١] أثينا السرية Umberto Albini, Atene segreta, Garzanti, Milano 2..2, pp. 96-97

لا شيء في ذلك على الإطلاق، نحن نتحدث عن أثينا الوثنية في عصرها الذهبي في القرن الخامس قبل الميلاد.

هكذا بالضبط المدينة " الإمبراطورية " الغنية والمثقفة ومركز الإشعاع الحضاري، ومقصد الفنانين الذين يستلهمون من عبادة الجمال الحسي والعلماء الذين تربوا على فلسفة الشك، والفلاسفة الذين وهبوا أنفسهم للعقلانية، والسوفسطائيين الذين يتعاطون أجراً لتعليم الناس كيف يؤيدون كل شيء وضد كل شيء، كانت تمتلك حساً عالياً بالطقوس الرسمية للدولة، وبصورة لا تقل عما يحدث في البلدان المجاورة. وأحد هذه الأسرار الكبيرة التي لا تزال تثير فضول المؤرخين، هو رؤوس تماثيل هرمس الشهير، يدلنا على أنه في تلك الحقبة، وفي تلك البيئة كذلك كان يكفي بمجرد شك بسيط بتدنيس المقدسات لتدمير شخصية قوية ومحبوبة وشهيرة في منطقة البحر المتوسط كلها

ففي عام ١٤٣١، وعشية حملة صقلية – وهي الحملة الإمبراطورية التي كانت محل خلاف والتي انتهت بكارثة بالنسبة لأثينا وكانت بداية انهيارها – أدرك الناس صبيحة مغادرة الأسطول وأثناء الحفل الكبير لمباركة السفن أنه أثناء المساء قطعت رؤوس كل تماثيل هرمس، وهي تماثيل هرمس بعضوه الذكرى المنصوبة لحماية تقاطعات الطرق والنقاط الحساسة الأخرى بالمدينة.

ولا يزال اليوم هناك شك حول سبب، وحول من قاموا بهذا الفعل الذي دُنست به المقدسات. فيعتقد كثيرون أن هذا الفعل كان هدفه توصيل رسالة سياسية إلى الشعب، بإلقاء الضوء على سوء الطالع الذي ينتظر حملة إلى ما وراء البحار يعتقد كثيرون بأنها متهورة وغير أخلاقية.

وقد حامت الشكوك المتعارضة فيما بينها حول قائد الأسطول نفسه وهو الفذ السيبياده Alcibiade، الذي لم يكن فقط قائداً للحملة، بل شخصية سياسية كبيرة بالمدينة، وتربطه صلة قرابة وصداقة شخصيات لها ثقلها ؛ فهو خطيب مفوه، وماهر بلعبة السلطة، ورجل المنتديات الأرستقراطية، وفاز وهو شاب بمسابقات أوليمبيا (الألعاب الأوليمبية)، ومحبوب جداً من الجماهير.

وكان من غير المنطقي أن يكون المسئول عن الحملة العسكرية هو من اقترف هذه الأفعال التي تهدف في ظاهرها إلى إفساد الحملة. غير أنه من المحتمل أن تكون الشكوك قد حامت حوله بسبب موقف يبدو مهماً كي نكتشف ما كان في هذه الحقبة من اللاتسامح الديني: فقد اكتسب هذا القائد سمعة سيئة بسبب تصرفاته غير اللائقة فيما يتعلق بالشعائر الدينية. وكان ذلك يعتبر سقطة يجب أخذها مأخذ الجد حتى ولو صدرت من شخصية بوزنه. حيث سرت شائعة أنه أثناء واحدة من الولائم التي نظمها بمنزله والتي اشتهر

بها، وصل به الأمر إلى عرض عمل فني ساخر حول ألغاز مدينة ألــوزى اليونانيـــة[1]، الأمر الذي يعنى أن من ينظم قداسا أسود لا يجب أن يندهش إذا ما تم الشك فيه عنـــدما توجد صورة مشوهة للحرس المقدسين. ولا يزال هناك غموض حول سير التحقيقـــات، وحول وجود عناصر قاطعة أخرى في حقه. وبقى القول أن زعيما سياســيا وعــسكريا بوزنه لم يتم فقط عزله ولكن أجبر على النفي إلى أرض فارسية لمجرد أنه اشتبه بأنـــه أهان رموزا دينية للدولة.

وقد حدث مصير مشابه، وأيضاً في العصر الذهبي لليونان الكلاســيكية، لشخــصية أخرى بأثينا، وإن لم تكن مؤثرة سياسيا، ولكن كانت تلك الشخصية صديقة لأنـــاس ذوى سلطة، إنه السوفسطائى بروتاجورس. إنه الفيلسوف الشهير المعاصر لـــسقراط والـــذي يرجع أصله إلى مدينة أبديرا (Abdera)، وقد اعتبر رائد مدرسة فن " المتناقضات " التي اشتهر بها المعلمون السوفسطائيون، بتعليم الشباب كيف يفلحون بنفس المهارة في الإقناع بالموضوعات المتناقضة. ومن الجدير بالتأمل أن أمرا كهذا من التحـــرر الأخلاقـــي لا يزعج مطلقاً أهل أثينا، بل يعظمونه، طالما أنه لا يمـــس الجانـــب الـــديني، ولايزلـــزل المؤسسات الكهنوتية.

ولا نعرف إذا ما كان بروتاجورس قد هرب قبل محاكمته أم أنه قد تم إبعاده. ويقال أنه بعد أن شك في وجود الآلهة، اضطر إلى مغادرة أثينا ولقى حتفه في حـــادث غـــرق السفينة التي كانت تحمله إلى منفاه[2].

وقد لقي نفس المصير آناساجورا Anassagora الذي يمكن اعتباره شـــبيهاً بجـــاليليو الذي كان يعتبر معاديا للثقافة السائدة Ante Litteram: فقد تم نفيه لأنـــه كـــان يؤيـــد أن الشمس والقمر ليس كيانات إلهية بل أجسام مادية، أحدهما متوهج، والآخر مـــن جـــنس الأرض.

وقد كانت قضايا الهرطقة متكررة، وشائعة، على ما يبدو في تلك الحقبة. وقد كـــان الأمر يتعلق بتهمة جسيمة تستوجب الحكم بالإعدام، ولكن كانت هذه التهمة أداة سياســـية مرعبة موجهة لسحق الأعداء غير المريحين فقد وقع تحت طائل تلك المحاكمات الشهيرة للهرطقة فاجرات من أصل أجنبي، ثريات، وصديقات حميمات تتردد على Anassagora، وكانت صديقة بريكليس Pericle، والذي دافع عنها شخصيا، وحصل لها علـــى البـــراءة، وفرينه Frine صديقة إيبيريدس Iperide الذي كان مبغوضا من الحزب الموالي لمقدونيا،

---

[1] هي مدينة تقع على مقربة من أثينا. (المترجم)
[2] أنظر: تاريخ موجز للفلسفة من خلال أقوال الفلاسفة Pietro Emanuele, Cogito Ergo Sum. Breve storia della filosofia attraverso I detti dei filosofi. Salani, Milano 2..2.

وقد كرس نفسه ذلك الأخير للدفاع عنها، ولجأ إلى الحيله البارعة التي خلدت المحاكمة عبر القرون، بأن جرد الفاتنة المتهمة من ملابسها في المحكمة، ليثير مشاعر القضاة والجمهور، وليستدر شفقتهم. وأكثر هذه المحاكمات شهرة محاكمة سقراط، الذي حكم عليه بالإعدام بتهمة الهرطقة. وقد كان الحكم متأثراً بمناخ الحرب الأهلية، والفترة الزمنية الملتهبة. فقد اعتبر الفيلسوف حافي القدمين مجرماً لأنه "لم يؤمن بآلهة المدينة، وأنه يبجل آلهته الخاصة به"، وبذلك يفسد الشباب من خلال تعليمهم الأفكار التي تناهض القيم الدينية للدولة. وكانت الهرطقة في الواقع تتطابق مع مفهوم الدين القديم كمجموعة قواعد للتعايش يتقاطع فيها بقوة العنصر المقدس مع واجبات المواطن الصالح.

وكون كاتب مسرحي هزلي مثل أريستوفان يستطيع السخرية من الآلهة، ومن زيوس نفسه في أعماله المسرحية دون أن يتعرض لعقاب، بينما سقراط الذي يزهو بسيرة ذاتية لجندي شجاع، ولمواطن مثالي يحكم عليه بالإعدام، يعطينا دليلاً قوياً على أن الجريمة القاتلة الحقيقية هي التعرض لقدسية المؤسسات. وتخبرنا المصادر المتناقلة والتي بحوزتنا أن الفيلسوف الكبير لم يتخل فقط عن الدفاع عن نفسه بالوسائل البلاغية، بل رفض كذلك اقتراحات بعض أتباعه المحببين له بأن ينجو بنفسه هرباً فقد تصرف كما تصرفت بعده أرواح نبيلة أخرى اتهمت بالهرطقة، وأسلمت نفسها للموت على المحرقة لتظل وفية لأفكارها، ومع ذلك لم ينكروا أبداً الإله، الذي كان هو نفس إله الجلادين. شرب سقراط العشب السام ليظل وفياً "لدينه" الذي كان عبارة عن احترام قوانين المدينة.

قمع حفلات باخوس الماجنة

لم تكن قدسية الشعائر الجماعية للدولة في البيئة الرومانية أقل وضوحاً. فتحكى لنا أسطورة ميلاد روما عن مؤسسها رومولوس الذي لم يترد في قتل أخيه وتوأمه ريموس بحد السيف لأنه تجرأ على تجاوز الحد الرمزي للمدينة، والذي رسمه بمحراثه، في تصرف يدل على استهزائه بهذا الحد، وذلك يدلنا على مدى احترام هؤلاء الناس للرموز المقدسة.

لقد ظل النطاق الداخلي لأسوار المدينة على الدوام بمثابة قُدْسْ الأقداس للشعوب الرومانية. ففي عام ٢٨ من الحقبة المسيحية، وعلى الرغم من أن مصر كانت مقاطعة رومانية، وعلى الرغم من انتشار تلك الطقوس إلا أن أجريبا Agrippa منع إنشاء معابد إيزيس وسيرابيس داخل نطاق هذه الأسوار، وأمر أن تتم الاحتفالات الخاصة بهما في محيط يبعد عن الأسوار بمسافة ميل على الأقل وحتى قبل الانتقال إلى النظام الإمبراطوري ذي الطابع الشرقي، فإن الحياة في روما الجمهورية كانت تتمحور حول

مبدأ السلطة - فرب الأسرة كان له سلطة الحياة والموت على أبنائه فضلاً عن مواليه وصرامة التقاليد التي اكتسبت قيمة مدنية أساسية.

وفى هذا المناخ الصارم لا يندهش الإنسان أن يجد تصوف هذه الشعائر الغامضة مجالاً له ولكنه أيضاً يجد مقاومة من قبل المدافعين عن نقاء التراث الروماني. أما الطقوس التي كانت تمثل فحوى التيار الماجن فكانت طقوس ديونيسيوس. حيث كانت احتفالات ديونيسيوس. بأثينا تمثل مبدئياً نقطة ارتكاز الحياة الجماعية، وتلعب دوراً هاماً في ميلاد فن المسرح، ذلك الفن الذي نشأ كما هو معلوم تحت عباءة دينية وقد أطلق على ديونيسيوس اسم باخوس على الأراضي الإيطالية، وكانت " حفلات باخوس الماجنة " في شبه الجزيرة الإيطالية بكاملها تمثل للطبقات المثقفة بالمجتمع وسيلة مزدوجة للتنفيس عن النفس، فهى من ناحية في مواجهة الاندماج الديني، ومن ناحية أخرى في مواجهة نزعة المحافظين السياسية. والرغبة في الخروج عن المألوف كانت تنتشر بين قطاعات عديدة من الشعب، فالأرستقراطيون تجذبهم صور الخلاعة والمجون في بلاطات السادة الشرقيين، والأتقياء من الطبقة الوسطى محبطون من الفراغ الروحي لأشكال الطقوس، والمواطنون منهكون من قسوة القواعد الصارمة التي كانت تضيق آفاق الصالح العام، وربما كان أيضاً عدد كبير من الشباب الذين كانوا يبحثون، بالتوازي مع ميلاد روما كقوة عسكرية، عن وسيلة للترويح عن النفس، وللتنفيس عن طموحهم المعنوي، الذي عبرت عنه الأجيال بعد قرون كثيرة من خلال الشعار " مارسوا الحب وليس الحرب ".

إن الأمر لا يتعلق بشيء هامشي، بل بظاهرة لها ثقلها والتي كانت تقلق السلطات المدنية، والدينية المنوط بها حماية نظامنا. ويؤكد مومسن Mommsen التكهن بأن القرار الحاسم قد تم اتخاذه لأسباب جادة تتعلق بالنظام العام، قبل أن يفلت زمام الأمور. فقد حدث عام ١٨٦ قبل الميلاد، وبعد خمسة عشر عاماً من نهاية الحرب البونية الثانية التي أقضت مضجع الجمهورية، أن كان القنصل بوستوميوس Postumius مكلفاً بمنع المؤامرات الداخلية، وكان أول مصادر الإزعاج للنظام يكمن في الشكل الماجن والخارج عن السيطرة لاحتفالات ديونيسيوس الغامضة فقد كان هناك شخصيات من علية القوم، وسيدات من خيرة المجتمع، وشباب من عائلات شهيرة ومن كلا الجنسين أتهموا بتنظيم حفلات ماجنة على شرف باخوس.

إن قمع حفلات باخوس الماجنة تم بلا هوادة لدرجة أنه يمكن اعتبار هذا القمع أحد أعنف فصول اللاتسامح المرتكز على أسباب دينية في العصر القديم. ويحكى تيتو ليفيو

أنه ليس فقط في العاصمة، بل في كل أنحاء إيطاليا بعد بالمئات عمليات السجن، والإعدام دون نظر لعمر أو الدرجة الاجتماعية للمخالفين[1].

وبمجيء النظام الإمبراطوري، أصبحت العلاقة بين الدين والسياسة أكثر وضوحا فقد تبعت حماية الممارسة الصحيحة للشعائر وما استتبعها من قمع لأى مخالفات، الأوامر المتعاقبة المتعلقة بسيادة الدولة. فقد أراد أغسطس وهو الذي أسس "السلام الرومانى Pax romana"، أن يدعم سلطات الدولة بالتزام مناسب بممارسة الطقوس الدينية، ومن ثم فقد دشن لهذا الغرض سلسلة من التدابير: بدءاً من إعمار المعابد لدعم الكهنة. وقد تقلد هو نفسه عام ١٣ بعد الميلاد منصب الحبر الأعظم، وبعد ذلك بسنوات أربع أعلن مدائحه العلمانية Ludi Seculares التي أثنى أوراتسيو Orazio على روعتها ومن البديهى كذلك أنه كان يتعين حماية هذا النظام الديني الجديد من كل ما عساه أن يهدده، ومن ثم حدثت مظاهر قمعية متزايدة.

وعلى الرغم من نسخ المعبد الشرقي عند إدخال فكرة تأليه الحاكم، إلا أن أغسطس وجد نفسه مضطراً لتحجيم انتشار بعض الطقوس غير الرومانية، وذات الأصل الآسيوي وقد تشدد خلفه تيبيريوس Tiberio أكثر في هذه السياسة، إذ أبعد عن العاصمة كل أتباع الطقوس الشرقية بما فيهم اليهود، ووصل به الحال إلى هدم معبد إيزيس، مما فجر ثورة لمريديه، والتي تم إخمادها بإراقة كثير من الدماء[2].

وفى النهاية كان جو القسوة فيما يتعلق بالطقوس مسيطراً لدرجة أن مجرد عدم الاحترام البسيط لصور القياصرة، كان كافياً لاتهام صاحبه بالجريمة العظمى Crimen Maiestates التي كان يعاقب عليها في القانون الروماني بالحرق[3]

ولكن من المعلوم أن بندول اعتبارات الموائمة السياسية يتأرجح باستمرار، فقد أدرك كاليجولا أن الشعبية المتنامية للتيارات الدينية ذات الخلفية الصوفية تفرض تغييراً في الإستراتيجية لصالح الاستشراق. وهكذا تم في عام ٣٠٤ بعد الميلاد اعتبار الإله الشمس الزرادشتى ميترا Mitra الذي حمله الجنود معهم " حامياً للإمبراطورية " وتبرز داخل هذا الإطار أيضاً السياسة في مواجهة المسيحية، والتي أعقبت أحداثاً مرتبطة بالوضع الداخلى، مروراً باللامبالاة أو التسامح مع تدابير قمعية، ثم الاعتراف بالمسيحية على قدم المساواة مع المعتقدات الأخرى، ثم في النهاية رفعها إلى درجة دين الدولة.

---

[1] باخوس : أشخاص وسلطة Jean Marie Pailler, Bacchus. Figures et Pouvoir, Ed. Les belles letters, Paris 1998.

[2] الديانات الغامضة S. Angus. The mistery religions. Cit., P. 36.

[3] التاريخ الحقيقي لمحكمة التفتيش Rino Camilleri, La vera storia dell'Inquisizione, Piemme, 2..1, p. 11.

اضطهاد النصارى

يجب أن نتخلص من بعض الأقوال الشائعة ونحن أيضا نتعرض لموضوع ملاحقة النصارى واضطهادهم، الذي يحتل مكانا بارزا في الأدبيات الكنسية للإكليروس، القول الأول يتعلق بالظاهرة. فقد رضعنا ونحن تلاميذ صغار مع لبن أمهاتنا، معلومة أن المقابر كانت ملاذات تحت الأرض لأتباع المسيحية الأوائل، وأن المقابر كانت الأماكن الوحيدة التي كانوا يستطيعون فيها إقامة طقوسهم دون أن يزعجهم أحد، وان الإكليزيوم Colosseo كان حلبة تمزق فيها الأسود أجساد النصارى، وأنه بعد وقت من صلب المسيح، كان كل من اعتنقوا الدين الجديد من الشهداء الأبطال، يتعرضون لصنوف الإيذاء والتعذيب بهذا المسرح الروماني.

ويلخص مونتسيكيو المسألة بأسلوبه الرخيم في عبارتين: " لقد تخيل كثيرون ممن أخذوا كلمات آباء الكنيسة بشكل حرفي، أن اهتمام الأباطرة كان كله منصباً على منع انتشار الديانة المسيحية. ولكن ذلك كان آخر شيء يشغلهم وكانوا يفكرون فيه بالكاد. إذا أن الجزء الأكبر من هذه الاضطهادات كانت ترجع إلى أحداث خاصة، وكان حدوثها في إمبراطورية حكم فيها طغاة كثيرون أمراً عادياً ".

أما بالنسبة لفولتير. فإن تكذيب " الأساطير المزيفة " حول الاضطهاد ضد المسيحيين، كان بمثابة أساس حملته نحو تسامح ديني أكبر فقد. فقد خصص فصلين كاملين من كتابه لهذا الموضوع، مؤكداً على أن إجراءات السلطة الرومانية ضد المسيحيين كانت ترجع إلى ضرورات سياسية، لقمع القلاقل التي تهدد السلام الاجتماعي، وليس بسبب الأفكار الدينية، وأن هذه الإجراءات لم تكن عنيفة، ولا ضخمة كما يتم تصويرها. وكتب فولتير:

" إذا كان الرومان قد اضطهدوا كثيراً الديانة المسيحية، وإذا كان مجلس الشيوخ قد قضى بالموت على كثير من الأبرياء بالتعذيب، وإذا كان النصارى قد ألقى بهم في الزيت المغلي، وإذا كان الرومان قد طرحوا الصبايا عاريات أمام وحوش السيرك، فلماذا ترك الرومان كل أساقفة روما الأوائل في سلام ؟.... من الصعب التوفيق بين هذه الحمّى للاضطهاد، وبين الحرية التي نعم بها النصارى، والتي بسببها عقدوا مجامعهم الكنسية الستة وخمسين التي أحصاها الكتاب النصارى خلال القرون الثلاثة الأولى "[1]

ويستعرض الفيلسوف بعد ذلك وبأسلوبه الذكي المتمكن المبالغات التي حفلت بها قصص الاستشهاد، ويلاحظ بدقة متناهية أنه في كثير من هذه القصص، يذهب رفاق

---

[1] فولتير : وثيقة حول التسامح Voltaire, Traite sur la Tolerance, cit., pp. 71-72

العقيدة ويجيئون إلى السجون وبها المحكوم عليهم، ويسيرون وراءهم وهم يعذبون، ويجمعون دماءهم، ويصنعون معجزات برفاتهم.

"فإذا كان الرومان يضطهدون الديانة نفسها، فلماذا لم يذبحوا هؤلاء النصارى الذين كانوا يساعدون إخوتهم المحكوم عليهم بتهمة عمل طلاسم ببقايا أجساد الشهداء؟ هل كان من الواجب أن يعاملوهم كما عاملنا نحن المتهرطقين في بروفنتسا، والفالديين Valdesi وأتباع هوس رائد الإصلاح بالكنيسة الكاثوليكية ؟ لقد ذبحناهم وأحرقنا منهم الكثيرين دون نظر إلى العمر، أو الجنس "[١].

نعم كان هناك اضطهادات لا نقلل من شأنها ولم يشهد بها فقط المدافعون عن النصارى، ولكن أيضاً بعض المؤرخين المحايدين مثل تاتشيتو Tacito، وسفيتونيو Svetonio ؛ فقد أكدا في سطور قليلة حول هذا الموضوع أن معاناة من اعتبروا فرقة ضالة انفصلت عن اليهودية، لم تكن آنذاك مشكلة ذات أولوية أولى.

وقد أشار تاتشيتو باختصار إلى ألوان التعذيب التي لاقاها النصارى الذين جعل منهم نيرون كبش فداء لحريق روما:

" لقد لاقى المضطهدون الأهوال، بين موت وهم مغطون بجلد الوحوش، أو معلقين على الصلبان، أو حرقاً بالنار ليكونوا مصابيح ليلية بعد الغروب، أو بنهش الكلاب لأجسادهم وكان نيرون قد خصص حدائقه بالذات لهذا المشهد"[٢]

ومزيد من إلماحات تاتشيتو نفسه، وشهادات أخرى لاحقة مثل التقرير المكتوب بعد ذلك بقرن بواسطة بلينيو إل جوفانه Plinio Il Giovane حاكم إقليم بيتينيا Bitinia بآسيا الصغرى إلى الإمبراطور تراجان، تؤكد كذلك أن هذه الحركة الدينية قد تم السيطرة عليها، وإدارتها بواسطة القضاء الروماني فقط، وبتهمة تهديد السلطة القائمة، وتهديد النظام السياسي والاجتماعي. وقد كانت شرطة الإمبراطورية تركز على المعارضة الداخلية في مناطق يهود الشتات، وتستخدم على ما يبدو وبتوسع سلاح اتهام النوايا. أما القضاة فكانوا يقومون بتحرياتهم وتحقيقاتهم، وإذا ما تم الاعتراف بالجرائم، كانوا لا يترددون في إيقاع العقاب الصارم.

ومع ذلك فلم يكون القضاة يلتفتون (على خلاف ما حدث بعد ذلك مع محاكم التفتيش) إلى البلاغات المقدمة من مجهول وفي أغلب الأحيان – وهو أمر لا يمكن إغفاله – كانوا يكتفون بتوصيف الجريمة على أنها عمل يتعلق بإنكار الدين، ويلحون

---

[١] نفس المرجع، ص ٧٩

[٢] حوليات رقم ١٥ Tacito, Annali, XV, 44, P. 464 in Opere, Torino, 1968, trad. Di C. Giussani.

على المتهمين بأن يقدموا قربانا إلى "إله" الإمبراطور حتى يتسنى إغلاق الملف دون أن يكون هناك عواقب أخرى[1].

أما موجة الاضطهاد الحقيقية فقد قام بها دقلديانوس، حيث لم تكن المشكلة لاهوتية، بل كانت على أساس تعدد العرقيات التي كان من الصعب إدارتها. وكانت الإمبراطورية قد بدأت في توجيه الاتهام المتزايد لوزن الضغوط من جانب الفرس ومن جانب البربر على الحدود، الأمر الذي أدى إلى وجود ضرورة ملحة لقمع بؤر التوتر، والقلاقل داخل أراضي الإمبراطورية. وقد زاد عدد أتباع النبي الغامض الذي حكم عليه بالموت في فلسطين بأعداد كبيرة لدرجة استوجبت مواجهتهم مرة أو مقاتلتهم أخرى، أو إبرام العهود معهم تارة أخرى.

وكان دقلديانوس قد تبنى الخط المتشدد، بينما أدرك قسطنطين أنه من الملائم استقطاب هذه القوة الناشئة إلى جانبه، واتبع سياسة مختلفة، بأن جعلهم موالين له.

ولكن هذه قصة أخرى سنتعرض لها فيما بعد.

---

[1] إن المشكلة التي أوجدها قبول المذنبين للقيام بهذا العمل الشكلي الذي يظهر الخضوع للسلطة لينجوا من الموت أصبحت مشكلة ذات شأن كبير عندما أصبحت الغلبة للكنيسة، وقامت بنوع من التطهير في صفوف المؤمنين خاصة فيما يتعلق بتوزيع المناصب الكنسية العليا. إن منح العفو للأخوة المترخصين الذين كانوا قد أبدوا ضعفا، كان دون شك عملا من أعمال الإحسان المسيحي، ولكنه كان نوعا من الظلم تجاه من لم ينطقوا بكلمة نعم لإنقاذ أنفسهم من الموت بسهولة مفضلين الموت حتى يظلوا أوفياء لقناعتهم. إن سياسة البابوية التي كانت منصرفة إلى تجنب الانشقاقات، مالت إلى مصالحة عامة، ومن ثم إلى قبول هذه الهنات داخل الكنسية، غير أن المعارضين الذين عرفوا فيما بعد بـ "الدوناتيستي" Donatisti (نسبة إلى اسم دوناتو أسقف نوميديا الذي عارض انتخاب أسقف قرطاجنة لأنه كان من المترخصين) كانوا يعتبرون هذا العفو ذنبا لا يغتفر وإهانة لكل شهداء العقيدة. وقد أدى الجدل والتراشق إلى إدانة الدوناتيستي بالهرطقة، وإلى انقسام إفريقيا المسيحية إلى معسكرين سقط منهما ضحايا كثيرون.



الفصل الرابع

الأصولية القومية الدينية

أركان الهندوسية الثلاثة: أولا: إعادة التأكيد على الهوية الهندوسية التي تهددها الدولة العلمانية: الثانية: إعادة تحديد الحدود الروحية للأمة الهندوسية؛ ثالثا: تعبئة رموز تراث ديانة الفيدا الهندية.

من منشور دعائي لجيش شيفا

[مقاومة "لينة"؟ - أصولية في غير موضعها - متاهة مذهبية وأسطورية- راديكالية الهندوسية الجديدة - حتى راما له حمام دم- "طريق السيخ"]

مقاومه "لينة"؟

بعد أن ألقيت نظرة على التعصب الديني لأجدادنا الأوائل، لقد حان الوقت لمواصلة رحلتنا في عالم الشرك اليوم، الذي لا يزال حيا ونشطا بصورة رئيسية في ما بالنسبة لنا هو الطرف الآخر من الأرض. وهي مهمة واسعة إلى حد انه ينبغي لنا أن نقتصر فقط على أهم الجوانب. ومن نافلة القول أن النظر إلى العالم الديني المليء بالآهة الكثيرة ككل هو مجرد وسيلة لتسليط الضوء على مصدر روحي مشترك، ففي الواقع نجد أن الطقوس والمعتقدات التي تكونه، تتباعد فيما بينها تباعد المسافة بين القارات الخمس.

إن الديانات المصنفة حالياً كديانات وثنية يبلغ عدد من يدينون بها قرابة مليارين من سكان كوكب الأرض، أي ثلث البشرية وأكثر هذه الديانات تطوراً، وعدداً من حيث الأتباع تتركز كما نعلم في آسيا.

ويحتل الهندوس المرتبة الأولى، إذ يبلغ عددهم قرابة ستمائة مليون (وهم وحدهم يماثلون نفس عدد النصارى غير الكاثوليك تقريباً). ويأتي البوذيون في المرتبة الثانية،

غير أنهم بعد اعتناقهم للوثنية في صين ماوتسي تونج، تقلص عـــددهم إلـــى ثلاثمائة و خمسين مليونا، ويعيشون فقط في البلدان الصغيرة بالمنطقة. وفى المقابل هنـــاك عـــدد مماثل تقريبا ممن يعتنقون ما يسمى "بالديانات الصينية التقليدية"، وهى عبارة عن طقوس توفيقية جاءت نتيجة توليفة ثلاثية العناصر (Sanjao) بوذية، وطاوية، وكونفوشيه، وكذلك بإضافة عناصر مسيحية، وإسلامية لتصير العناصر خماسية (Wujao).

إن المعتقدات الفلسفية الكبرى في الماضي كالكنفوشية، والطاويـــة، وديـــن اليابـــان الوثني المتمركز في الأرخبيل الياباني، لها وجود متواضع نـــسبياً. وتوجـــد فـــي آســـيا معتقدات أخرى محلية يؤمن بهـــا الـــصفوة مثـــل الـــسيخ، والبهـــائيون، واليابـــانيون، والبارسيون[1] Parsi، والتي لا يتجاوز معتنقوها في مجملهم أربعين مليوناً، بيد أن ثقلهـــم يتجاوز عددهم (والسيخ وحدهم على أي حال أكثر عدداً من اليهود).

ويوجد في النهاية عدد من الطقوس الدنيا (الإرواحية، والمذهب الروحاني، وفـــرق قبلية) منتشرة هنا وهناك، ويصل عدد معتنقيها جميعهم وفق الإحصاءات التقريبية إلى ما يزيد على ثلاثمائة مليون. ولا يوجد شيء أكثر تنوعاً، وسعة أكثر من ذلك. ومن بين كل هذه المعتقدات، حتى التي يوجد بينها تشابه واضح، لا يعترف بهـــا أتباعهـــا، فالكـــاهن الهندوسي، والكاهن البوذي التايلاندي يفزعان إذا ما اضطرا إلى التعرض لقاسم مشترك بين ديانتيهما، على الرغم من الجذر المشترك، تقريباً مثل القسيس، والحاخام. ربما نجد ردود فعل مماثلة من جانب معتنق البوذية اليابانية، أو أحـــد معتنقـــي المجوســـية Parsi فجميعهم يشعرون بالإهانة إذا ما وسلوا إلى مقارنة بين تقاليدهم الدينية، وبـــين بعـــض معتقدات إفريقيا، واستراليا وبعض الجزر المتناثرة في المحيط الهادي.

فهل هناك سمات مشتركة من اللاتسامح في هذه الديانات ؟ وهـــل لهـــذه الـــديانات مظاهر أصولية متعصبة أم لا ؟ وهناك سؤال آخر هام ذو طبيعة واقعية – في مـــستقبل قد يتسع فيه نطاق المواجهة بين الثقافات، والحضارات. هل هذه المعتقـــدات يمكنهـــا أن تغذى المقاومة ضد طريقتنا في الحياة بشكل عنيف، ومبالغ فيه كما يحدث على الـــصعيد الإسلامي ؟

ولنلاحظ جيداً أننا لا نتحدث عن تحد ممكن على الصعيد الجيوسياسى إذا كانت قوى كبرى مثل الصين أو الهند على سبيل المثال، بمقدورها مـــستقبلاً أن تـــصبح خـــصوماً ومنافسين للولايات المتحدة، ولأوربا، وهو ما سنتناوله فيما بعد. وسنشير هنا إلى تحـــد محتمل ذى طبيعة دينية – أيديولوجية. فإذا كنا نعى ما تم تناوله حتى الآن، فإن إمكانيـــة

---

[1] هم الزرادشت المنحدرون من أصلاب اللاجئين الفرس المقيمين في بومباي وغيرها. (المترجم)

هذا التحدي قليله، لأنه كما رأينا، فإن النواة الروحية لهذه الحضارات تفتقر فعلاً لأفكار استخدام القوة التي أعطت لحضاراتنا شحنتها العدوانية، وروحها التبشيرية، والرغبة في الاستيلاء: فلا يوجد اليقين المستمد من الحقيقة، لأن الحقيقة في هذا العالم الوثني ظنية، وغير معروفة؛ فالنزعة الفردية ضعيفة، لأنه في هذا العالم "الفردي" يكون دائما "للنواة الجماعية"، كما يقول كراناك Kranak كاليدونيا الجديدة (شمال اسكتلندا) مردود سلبي شبيه "بالأنانية" كما في اللغة الصينية ؛ والبحث عن السعادة في النهاية، والتي أدخلت في صلب الدستور الأمريكي، تم إحلال إشباع الرغبات محلها في الشرق وهو الهدف المضاد تماماً. وسنرى في الجزء المخصص للاتسامح المسيحي، ولتوسع النصارى في العالم، كيف أن الشعوب التي تعرضت لعمل الكنيسة التبشيري، حاولت مقاومة الاعتناق، وقد حققت الشعوب المتطورة نجاحاً كبر أم صغر، أما الشعوب الفقيرة فقد ظلت دون أمل. واليوم قد تغيرت مفردات المشكلة، إذ يتعلق الأمر بالتصدي لحملة جديدة من الاعتناق، يقوم بها نفس الأبطال، ولكن الاعتناق هذه المرة ذو طابع علماني، ومن ثم فهو أكثر إغراء بسبب ما ينطوي عليه من وعود واقعية وفورية: اعتناق التقدم التكنولوجي، الذي يقدم نوعاً جديداً من الخلاص، ليس الخلاص الروحي في العالم الآخر، ولكن الخلاص الذي يمكن إدراكه- تحت بصر الجميع- وهو التخلص من الفقر، ومن القهر وفوراً على هذه الأرض.

ومن الصعب التكهن بصور، وتطورات الجدل بين المبشرين الجدد بالعولمة وبين "الوثنيين الجدد" المدافعين عن التمسك بالأصول. إن الحضارات التي تجد نفسها بدون سلاح وجهاً لوجه أما حضارة مزودة بأدوات لا تقهر، وتسود العالم، تمتلك إمكانات أقل لتمارس على المنتصرين تأثيراً ذا طابع أخلاقي، وروحي أكثر من الإمكانات التي كانت تملكها في حقبة الاستعمار التقليدي. كما استطاعت آنذاك الاستمرار في كونها قوة "ناعمة" كما أسماها جوزيف نى J. Nye. وقد أطلق على هذه القوة "سحر الشرق". وهي يافطة مريحة تندرج تحتها في الواقع كل أساطيرنا، وأحلامنا التي، على الرغم من كل ما ورثناه عن "الفلسفة الأبدية Filosofia Perenne، لا تستبعد حتى تلك القادمة من العالم البدائي.

إن أفكار، وطرق الحياة الشرقية، خاصة الصينية التي تم تهذيبها، مثلت أقوى مصدر إلهام لمن يبحثون عن بدائل لأسلوبنا في الحياة.

وبداية من القرن الثامن عشر وما تلاه – كما هو معلوم، ولدت ليس فقط موضة التقاليع الصينية Chinoiseries، ولكن هناك من الكتاب، والفنانين من جعل من الشرق مكاناً أسطورياً، وموطناً للألغاز والأسرار، والسحر، والشهوانية، والتصوف العميق، والعاطفية. ولم يهمل هؤلاء حتى الشحنة الروحية، واستخلصت منها المحرك لنقد طرقنا

في التفكير، وخياراتنا الفلسفية العميقة. وقد استثمرت الجمالية Estetismo والانحطاط Decadentismo في نهاية القرن بقوة هذا الحلم الذي لا يقاوم في الجدل مع الرؤية الأوربية والمسيحية ولم يكن فقط ممثلو المعتقدات " الشرقية "، بل الغربيون أنفسهم أمثال نيتشه، وهسه Hesse، ويونج Jung ومثقفون آخرون بارزون، هم الذين أشاروا إلى الهندوسية والبوذية كديانات " سامية وعليا "، مع التلميح إلى ثقافة العمل السري Underground، وإلى المعارضة الشبابية عام ١٩٦٨.

وإلى جانب أسطورة " الحكيم الصيني" حظيت أسطورة "الوحش الطيب" كذلك بجذب وقبول كبير. بل إن سحر "البدائيين" قد زاد بالتوازي مع خيبة أملنا إزاء ما يسمى "التقدم". إن الثقافات الضعيفة والبدائية الخاصة بالشعوب التي " ليس لها تاريخ "، والتي لها قيم هزيلة، ومنغلقة أمام مغريات النمو غير المحدود، تمارس قوة جذب كبيرة لمن يفتقدون المادية، واستهلاكية الحداثة. إنه حنين إلى جذور الإنسانية، وهي حالة طبيعية متوقعة تجد نفسها في الأصوليات المتعصبة المختلفة، والتي صادفتها في متطوعي المنظمات غير الحكومية التي تمارس عملها في دول العالم الثالث ويبرز فيلم رجل الطب Medicine Man– الذي يجسد فيه شون كونري Sean Connery نسخة متطورة من الدكتور شفايتسر Schweitzer بالغابة الاستوائية غزيرة المطر – وجود هذه الجاذبية بوضوح.

أصولية في غير موضعها

ليس كل صور مقاومة الاعتناق ذات طبيعة " لينة " إذ توجد ديانات عديدة غير بعيدة عن استخدام العنف عندما يتعلق الأمر برد فعل على محاولات تهديد الهوية.

وقد مللنا من تكرار أنه طالما لا تمتلك هذه الديانات مضموناً أيديولوجياً يجب نشره في المدينة وفي أرجاء المعمورة Urbi et Orbi، بل تمزج بين نواتها المقدسة، وبين الإحساس بالانتماء، وبين الالتزام الصارم بالطقوس، فإن كثيراً من الدارسين يميلون إلى إنكار أنه في مثل حالتهم يمكن الحديث عن لاتسامح "ديني" بل بالأحرى عن لا تسامح "ثقافي" ذي خلفية عرقية – قومية يصبح الدين فيها هو الراية الرئيسية. وهذا أمر حقيقي بشكل جزئي، لأنه – على خلاف حالات أخرى من التعصب العرقي، أو القومي ذي الصبغة الدينية (كما هو الحال في أيرلندا على سبيل المثال) – لا يكون للدين فقط وظيفة الذريعة، أو الدافع المبدئي، بل يلعب دوراً مؤثراً، لدرجة أنه من الأصوب ربما الحديث عن أصولية في غير موضعها من النوع القومي – الديني.

ولا نقدم حتى في هذا السياق مظاهر التعصب التي هي غاية في حد ذاتها. والتعبير الإنجليزي To run amok أي "يجري بجنون ويقتل من يصادفه" والذي يدل على ظهور الغضب الجامح، تم نقله بواسطة البحارة الأوربيين في القرن الثامن عشر، والذين لاحظوا في جزر أرخبيل ماليزيا، الثائرين الذين ربما تحت تأثير المخدرات، وهم يقومون بطقوس غامضة، كانوا يهرولون وسط الحشود الهائجة، وينشرون بينهم الموت عند سماع صيحة "أموك". وأقرب حلقات التطرف الديني في المنطقة الأسيوية حدثت منذ سنوات باليابان، وهو آخر بلد يمكن أن نتخيل أن يكون مسرحاً لعمل من هذا النوع، نظراً لتماسكه، ولعدم وجود مشاكل كبيرة لأقليات دينية. ففي مارس ١٩٩٥، حدث هجوم بغاز الأعصاب بمحطة مترو الأنفاق بطوكيو، نجم عنه مصرع اثني عشر شخصا، وأصيب حوالي ستة آلاف بالاختناق، وقد أعلنت مجموعة Aun Shinrikyo (أي "الحقيقة العليا" ولها برنامج غامض يتميز بالتعصب) مسئوليتها هن هذا الهجوم.

وكان زعيم المنظمة الإجرامية، الذي كان قديساً اسمه شيزو ماتسوموتو Chizuo Matzumoto، وأطلق على نفسه بعد ذلك اسم شوكو أسارا Shoko Asara، قد أسس هذه الجماعة عام ١٩٨٧ (قبل القاعدة بعام)، وكانت تجند أتباعها من بين الشباب ذوى التعليم العالي إلى حد ما، وكانت تخضعهم لتدريب قاس، وتشكل عقيدتهم على أساس ممارسات صوفية، وفق رؤية النهاية الكارثية لعالم ينقسم بين المؤمنين "المختارين" برب الأرباب "شيفا Shiva "، وبين عدد كبير من " الكفار الأشرار والفاسدين ".

وقد كان المختارون أدوات مقدسة لـ Pao، أي الخلاص من خلال قتل الكفار "، الذين تحتل الحكومة اليابانية، والماسونيون الأمريكيون الأماكن الأولى بين هؤلاء الكفار وقد كانت مهمتهم هي " تطهير الكوكب " من خلال محرقة يجب تنفيذها بكل الأسلحة الممكنة ومنها أسلحة الدمار الشامل الكيميائية، والذرية والبكتيرية، والبيولوجية ".

وخارج هذه الحالات المتطرفة (بالأحرى الحالات النادرة من بقايا خيالات كاتب الأطفال سالجاري Salgari عن أتباع الربة كالى Khali المعروفون بطائفة ثج Thugs)، فإن التصرفات غير المتسامحة للعالم الوثني تتمحور على طول منحنى واسع يتطابق مع السمة الخاصة لهذا المعتقد الديني، أو ذاك، والتي تتراوح بين عقوبات بسيطة داخل المجموعة ضد مخالفات الالتزام بالطقوس، وبين التدخلات المسلحة ضد المجموعات الأجنبية.

وتحتل البوذية المكانة الدنيا في هذا المنحنى الافتراضي نظراً لأنها واحدة من صور التدين الشرقي الذي تغلب عليه النزعة الصوفية التي تستلهم من الاعتدال والعزلة. ولا حتى مدرسة ماهايانا Mahayana البوذية – وهى تميل غالباً إلى الالتزام بالتضامن – تبدو

لنا مناسبة لتوفير الشحنة الجاذبة لحركات تجديد، ومعارضة ذات خلفية دينية، وعصيان شعبي مضاد للحداثة والتغريب.

إن البوذيين في حقيقة الأمر كانوا ضحايا اللاتسامح الديني، وأحياناً كبش الفداء. ولأولئك الذين يشكون عندنا من التطبيق الهزيل لرسالة المحبة بالإنجيل، يمكن أن يكون مدعاة للسلوى أن البوذية، وهي عقيدة الرحمة التي تمنع حرفياً إيذاء ذبابة، لم تفلح في منع أشكال العنف، وانتهاك حقوق الإنسان حتى في بلاد تسجل معدلاً أعلى من الالتزام إلى حد ما. وأبرز هذه الحالات هي كمبوديا حيث جرت واحدة من أفظع المذابح في التاريخ المعاصر، بيد أنه ولا حتى تايلاند – وهي مهد آخر للبوذية – تمثل نموذجاً إذا ما وضعنا في الاعتبار أن دعارة الأطفال تتجاوز رقم النصف مليون[1] وهناك فضلاً عن ذلك أيضاً حالات فيها تورط سياسي مباشر.

أما سريلانكا – سيلان الحقبة الاستعمارية – التي استعادت اسمها القديم، وهي مركز الأسطورة القديمة للعالم الوثني، فتعتبر بحق مستودع التقاليد الدينية القديمة بآسيا. فتحكي الأسطورة أنه في جزيرة لانكا Lanka اختطف العفريت رافانا Ravana زوجة الرب راما Rama الذي أرسل صديقه الرب القرد هانومان Hanuman إلى الجزيرة للتجسس. وقد جُمعت في هذه الجزيرة للمرة الأولى التعاليم المكتوبة لبوذا، والتي انتشرت في كل جنوب شرق آسيا. وقد انتقل من هذه الأرض إلى الصين أول تنظيم للراهبات البوذيات. وقد اندلعت منذ أربعين سنة في الصين، حيث يعتنق أكثر من ٧٠% من السكان البوذية، أشرس حرب عرقية، بين الأقلية التاميلية ذات الأصل الهندي، وبين الأغلبية السريلانكية من أهل البلاد الأصليين. إن "نمور التاميل" واحدة من تشكيلات حرب العصابات الشرسة، التي تلجأ كثيراً إلى وسائل إرهابية. ومع ذلك فهناك أمر يثير الدهشة، وهو أن من يقفون في الصف الأول مؤيدين مبدأ اللاتسامح المطلق هم الرهبان البوذيون أنفسهم، الذين بدلاً من أن يقوموا بنشر السلام، أو على الأقل يظلوا على الحياد، أشعلوا نار التشدد العرقي – الديني، وأيدوا الدعاية الحكومية المدافعة عن " نقاء " العقيدة، والذاكرة الجماعية. ففي أشد أوقات الصراع حدة، كان الرهبان البوذيون يقومون بنشاط ملحوظ مناهض للتاميل ويملئون مواعظهم بمآثر الأبطال في الماضي الذين كانوا يناضلون ضد من كان يعمل على تقويض التقاليد المقدسة.

إن الطبيعة الخاصة للعقيدة الدينية لم تفلح، ولا حتى في هذه الحالة، كما في حالات أخرى كثيرة في التاريخ الماضي، والحاضر، في منع تحالف عدواني بين الدين والسلطة وما أعقب ذلك من ظهور طبقة من الرهبان الملتزمين سياسياً بتأييد توجه قومي له خلفية

---

[1] انظر: المسكونية وحوار الأديان Ecumenismo e dialogo religioso , cit. p. 64

اجتماعية. إن ثلاثية " الأرض – العرق – الدين " ؛ هي مألوفة في كثير من السياقات كمقدمة للعنف، تكتسب بعدا يبعث على القلق في بلد تضرب فيه عقيدة نبذ العنف بجذورها العتيقة، والنبيلة.[١]

أما وضع ما يسمى " بالبوذية الملتزمة " في فترة حرب فيتنام فهو مختلف. فعلاوة على منح الرهبان البوذيين قيمة، وثقلاً اجتماعياً، فإن هذا الاتجاه المسيّس استخدم دائماً وسائل سلمية تقوم على نبذ العنف، والصوم (على مثال غاندي)، وتستلهم من الشعر، والرسم، والموسيقى والأغاني الشعبية، وكذلك كخيار أخير يستخدم صورة متشددة للاعتراض: وهي قتل النفس والتضحية بها. وقد كان اللجوء إلى هذا الفعل اليائس من جانب الرهبان بجنوب فيتنام، والذين تحولوا إلى مصابيح بشرية، بمثابة دعوة مؤلمة إلى الوفاق، على الرغم من أنها كانت في النهاية تأخذ بعداً سياسياً يؤيد وجود فيتنام موحد، ومحايد. فهناك أغنية أطفال تتردد في كل فيتنام، والتي لا تترك مجالاً للشك في هذا الخصوص:

يوجد في يدي إناء من الشطة والملح
فالشطة حريفة، والملح قوى
يعانق أحدهما الآخر
فالشمال والجنوب يقتسمان نفس الألم.
فبيننا يوجد حب،
لماذا تركناه ؟[٢]

وقد فسر الأمريكيون هذا الموقف آنذاك بأنه تأييد للشيوعية وأبرز ممثلى هذا الاتجاه هو الراهب – الكاتب الفيتنامي تيش نات هان Thich Nhat Hahn، وهو نفسه الذي أطلق على هذا التوجه " الرحمة بالعمل "، وقد اضطر إلى الخروج إلى المنفى بسبب التزامه بالدعوة إلى السلام منذ الاحتلال الفرنسي لبلده. وقد أكد بوضوح أن التضحية بالنفس لأجل قضية ما، لا تبرر مطلقاً " العمليات الانتحارية " أي إزهاق روح أبرياء آخرين. ووصف عمل الراهب كوانج دوك Quang Duc، والذي سكب على نفسه البنزين وأشعل في نفسه النار عام ١٩٦٣، وهو جالس في أبهة وعظمة وبنفس الطريقة التي صلب عليها المسيح، بأنه عمل يعبر عن الرغبة في المعاناة بصورة توقظ وتحيى الآخرين من جديد[٣] وهذا ما فعلته الراهبة البوذية نات تشى ماى Nhat Chi Mai التي أشعلت في نفسها

---

[١] Enzo Pace, Perche le religioni scendano in guerra? Laterza Roma-Bari 2004. p 9

[٢] AA, VV, Buddismo impergnato, Neri Pozza, Vicenza 1999, pp. 69-70

[٣] المرجع السابق، ص ٧١ وقد نشرت موند أدوري آخر مقالات هان في ٢٠٠٥ بعنوان "سلاحنا الوحيد هو السلام"

النار عام ١٩٦٧. انتحرت نات تشي ماي، وضحّت بنفسها، لأنها كانت تريد قبل كل شيء أن يتوقف القتل"[1].

إن البوذية اليابانية – ديانة اليابان – التي تختلف عن البوذية نظرياً على الأقل، وتقوم على تقديس تقاليد الأجداد، ومن ثم على إعلاء شأن الهوية القومية، والخصوصيات المحلية (مثل كل جبل له روح)، يمكن أن تصبح مصدر إلهام ذا دلالة إيجابية وسلمية ضد الوهن الثقافي، والروحي المشتق من عملية العولمة – والتغريب. بيد أن الديانة اليابانية لا تمتلك قط قوة الدفع التي تجعلنا نتحدث عن " أصولية متعصبة للديانة اليابانية ". فقد بدأت تلك الديانة تفقد أرضا في مواجهة ديانات أخرى ذات نزعة دولية، تتجه نحو أطراف الأرخبيل الياباني، وتلتقي قبل كل شيء مع الغمس السريع، والكامل لشعب بأكمله في بحر التكنولوجيا والاستهلاك المتلاطم.

أما الكونفوشية فهي لا زالت خارج المشهد تماماً. فمنذ اعتمادها كأيديولوجية رسمية للامبراطورية الصينية عام ٦٩٤ بعد الميلاد (وهى تقريباً نفس الفترة التي شهدت مجيء النبي محمد)، قد مثلت لقرون الروح الإنسانية والمستهترة للصين، في تناقض أبدى جدلي مع الروح الأخرى لتلك الثقافة الكبرى، ألا وهى الروح التأملية، والصوفية للبوذية والطاوية. وإذا كانت منظومة القيم التي أسسها ماسترو كونج M. Kung، يمكن أن يطلق عليها "دين"، فهو "دين العيش الاجتماعي الصحيح"، ومن ثم فهو يتميز بقدر كبير من اللاتسامح، لأنه يقوم على طقوس متشددة. إن أشكال هذه الطقوس تصبغ كل المؤسسات السياسية، والاجتماعية، والمدرسة، والأسرة، والبيروقراطيين بخاتم التمسك بالشكليات، والصرامة، والتسلط. إنها لم تكن ديانة حقيقية، ومع ذلك كان لها معبوداتها، ولغتها، ولاهوتها، وخطاياها. إن مخالفة القاموس الأخلاقي الكونفوس كانت تستوجب العقاب البدني، والنفي خارج الوطن، مثل عقوبة الطرد من الكنيسة التي كانت بمثابة عملية إخصاء رمزية شاعت وانتشرت بمرسوم إمبراطوري، وكانت تخلق على الفور فراغاً حول موظف البلاط البائس الذي يقع تحت طائلتها. وقد سعى نظام ماوتس تونج على مدار تجربته في حكم دامت أربعين عاماً، وعبر تثقيف فولاذي على تفسيره الخاص للمادية الماركسية اللينينية، أن يحبط ويضعف تأثير التربية الكونفوشية الألفية على الجماهير بيد أن ذلك تم بقدر ضئيل من النجاح، لدرجة أنه في المرحلة الأخيرة من الثورة الكونفوشية الثقافية، اضطر نظام ماوتسي إلى أن يطلق حملة حقيقية " مناهضة للكونفوشية " وحتى في أسلوب الرئيس ماو الخطابي، وفى شعارات الحزب، نجد التأثير الكونفوشي يظهر، ويبرز باستمرار.

---

[1] المرجع السابق، ص ١٤٠

والـيوم هناك تحول يجري للنظام السياسي، وللمجتمع الصيني، فهل تلقت الكنفوشية قوة دفع، أم أنه يمكن أن تكون هناك إرهاصات لاستئناف جديد لنشاط الكونفوشية ؟ نعم هناك بوادر لعودة قوية لجذوة الكونفوشية. فعودة التأثير الكونفوشى، وإن كان متواضعا في الصين الجديدة، ربما يتجسد على صورة عودة لقيم الانضباط، واحترام السلطة، وتقديس الأسرة، أكثر من تجسده في صورة أصولية متعصبة. بل يمكن أن يمثل سدا منيعا أمام كل أشكال التطرف، وضد جرح الطوائف القديم، وضد الفساد، ومن ثم يكون دعماً للسلطوية، وللنظام القائم، وللوحدة القومية.

وفى تحليل أخير، أقول إنه ربما تبرز أقوى نواة للمقاومة من جانب المجموعات الثقافية الدينية الوثنية ضد هجمة التحديث من منظور عربي، كما حدث في العالم " الوثني"، في طبقات الشعب الأكثر تواضعاً، وتمسكاً بالتقاليد، حيث تتوه مظاهر الأسطورة الصوفية والرمزية في الزخم وأحياناً في المظاهر الخارجية الفجة للطقوس التي في الوثنية والخزعبلات. ولا تغيب صورة التدين القديمة التي تقوم على فخامة الطقوس والمعجزات حتى عن الديانات الأسيوية غير المتجسدة. فكل هذه الديانات لها مواكبها وتجهيزاتها الفخمة، وتماثيلها التي تفعل المعجزات، مثل تلك التماثيل التي تتصبّب عرقاً أيام الفيلسوف اليوناني بلوتارخوس Plutarco. إن الحشود الغفيرة التي تتعالى صيحاتها، وتبكى لدى رؤيتها للرمل الذي يصبح كريستالاً بين أصابع ساي بابا Sai Baba فتتحرك مشاعرها أكثر من الحشود التي تتأثر لدى رؤيتها لدم القديس جناروس Gennaro.

إن الأعداد الغفيرة التي تتوافد على بعض المزارات الهندية القديمة، لا تقل عن تلك التي تقصد المسجد الحرام بمكة. إن هذا الحماس الشعبى يمكن أن يتحول إلى غضب مقدس تكون له ملامح عنيفة ووحشية في الدفاع عن الأساطير والمقدسات، وتجد كذلك أن الحكومات ذات التوجه العلماني الشديد، والتي تميل إلى الحداثة غالباً ما تكون حذرة عند مواجهة هذا النوع من التيار الديني المحافظ. ويمكن القتل باسم الإله كذلك في عالم تسود فيه آلهة كثيرة، أياً كان اسم هذا الإله، بعل Baal، أو آريس Ares، أو ديونيسيوس Dionisio، أو بلونا Bellona، أو راما Rama، أو شيفا Shiva، أو كالى Khali وحتى لو كنت خبيرا بالأديان المقارنة، فلن أستطيع هنا أن أتعرض بشكل ملائم لمشكلة بهذا القدر. ومن ثم يمكنني فقط أن أؤكد على أساس خبرتي الشخصية المتواضعة، أنه في الأراضي التي تسود فيها العقيدة البوذية كذلك، تنتشر كذلك المظاهر الخارجية، والتقليدية للطقوس الدينية، والتي تلقى احتراما كبيرا من جانب السكان، فقد رأيت في تايلاند نساء شابات يصنعن تماثيل صغيرة من الفخار تحت أقدام إله النماء والخصوبة، الذي يتم تصويره على شكل عضو ذكري. ولقد صادفت في سنغافورة وهونج كونج طقوساً جنائزية،

واحتفالات دينية أخرى ذات أبهة وفخامة لا تتلاءم مع البيئة المحيطة المتواضعة، والتي تجعلنا نتكهن بأن المؤمنين تم خضوعهم من أجل ذلك لتضحيات ملحوظة. وقد رأيت في اليابان على وجه أشخاص لهم مظهر رجال الأعمال والموسرين، القلق والاضطراب وهم ينتظرون نتيجة عجلة الحظ التي يديرها كاهن المعبد. بيد أنه في إحدى رحلاتي إلى شمال فيتنام في الفترة الأخيرة من النزاع، أدهشني أنه على الرغم من وجود النظام الشيوعي، وحالة الحرب، فإنه لم يتم إغفال ممارسة الطقوس الدينية الشعبية مطلقاً، ففى معابد ضاحية هانوي، وفى خليج هالونج Halong، لاحظت دائماً على المذابح قرابين نذور بسيطة من الورود، والفاكهة، وقد شهدت عرضاً مسرحياً لقصة تقليدية لموضوع ديني، وهذا كان أمراً غريباً في الصين في ذاك الوقت.

غير أن ما يهمنا من هذا الالتصاق بالطقوس الدينية للأسلاف مظهر واحد: هل يمكن أن يؤدى هذا الالتصاق آجلاً أم عاجلاً إلى صور من اللاتسامح نحو الأجانب أو الغرباء؟

ولكي أجيب على هذا السؤال، يجب أن نضع في الاعتبار أن قوة اللاتسامح، وقوة بعض التيارات المتشددة المحتملة مرتبطة بتوليفة من بعض المكونات الأساسية، التي لا تصل إلى حد الانفجار، إلا إذا اختلطت بعوامل محفزة. أما إذا تم تحييدها بعوامل اعتدال فلن يترتب عليها مشاكل مطلقاً. ويبدو كذلك أن هذه المكونات توجد في كل الديانات المتعددة. ويمكن أن تكون المحفزات كثيرة بعضها عارض، والآخر متأصل في نفسية، وتاريخ شعب ما. والعنصر الفعال الذي يفرق بينها هو عنصر تحييد التعصب، ويتمثل في الروح العلمانية، التي تعتبر كقضبان الجرافيت في مفاعل نووي، وهو ما يحول دون خروج خليط المواد المتفجرة عن السيطرة، ووصولها إلى النقطة الحرجة.

ويبدو أن هذا الملطف، والمخفف للصدمات موجود في بعض المناطق الأسيوية بدرجة تبعث على الطمأنينة. فبلاد كالصين واليابان أدخلت في تاريخها الطويل، تراثاً طويلاً من العلمانية، وتيار الشكوكية الفلسفي، والبراجماتية، وكلها أسهمت كعناصر توازن مع الصوفية، والهياج الديني ولذلك، فإن مظاهر كالتي ذكرناها عن طائفة Aum Shinriko في اليابان، تمثل حالة شاذة ونادرة. وهناك مع ذلك أمر عميق يجب وضعه في الاعتبار، وهو أن العالم الديني الذي اعتاد على تسميته "الشرق" هو الأبعد عن العنف، وعن التمرد، وعن الراديكالية بكل صورها وخاصة الراديكالية الدينية. إن الطاوية بشكل خاص، ونسختها اليابانية وهى الطائفة البوذية المعروفة بـ "زن Zen" تبدوان محصنتين ضد التعصب الذي ظهر على السطح. ومع ذلك فإن هذه الصور الدينية غير المتجسدة يمكن أن تمثل في المستقبل إذا ظلت متكاملة ومتناسقة مع، مبادئها، أشد مظاهر المقاومة لنموذجنا الحضاري، ليس كما يحدث اليوم من جانب أفراد

ومجموعات صغيرة تحاول أن تكون بديلا داخل عالمنا الجديد الشجاع "Brave New World"، بل على مستوى الكون وليس من منطلق المواجهة، أو صدام الحضارات ولكن من منطلق الخيارات الوجودية العميقة، إن خيارنا الحالي الذي يقوم على التواصل، والتقييم، والتوضيح، والحكم على الأشياء، وتعلم ركوب الأمواج والإبحار ضد التيار، أما خيارهم فيقوم على العزلة، وعلى عدم إصدار الأحكام وعلى عدم محاولة تغيير وتحسين الأشياء، بل العيش في تناغم معها، وعلى ترك النفس للتيار، ولأمواج المياه.

إن هذه هي الاعتبارات المجردة التي تتطابق مع مستقبل طوباوى ومثالي. يوجد فقط بلد واحد في آسيا فتح الدين فيه بابا إلى بعض الظواهر الأصولية الملموسة و المنحرفة، مثل ما حدث مع الديانات التوحيدية، وهذه الظواهر لا تختلف كثيرا عن تلك المألوفة في هذا الجزء من عالمنا. هذا البلد هو الهند، وهو بلد مغموس في الأشياء المقدسة وبصورة معقدة و خاصة به. فنجد جماهير الناس في الهند هي الأخرى مرتبطة بحس ديني للحياة يقف عند مظاهر الحياة بشكل طقسي – المعبد المقدس – مثل ما كان يحدث عندنا حتى قبيل عصر الحداثة، وكما يحدث حتى الآن في جزء كبير من العالم الإسلامي.

لأجل ذلك ونحن نستعرض التطرف العرقي والديني في آسيا، نجد الهند، وهي البلد الأقدم ديانة في العالم ثرية جدا بالقصص المهيبة والتناقضات العبثية، مما يجعلها تحتل مكانا مركزيا في هذا الاستعراض.

متاهة مذهبية وأسطورية

حدث في الثاني من فبراير ١٩٩٥ أن شوهد تمثال صغير من الجبس للسيدة العذراء، يذرف من عينه دما. وكان هذا التمثال لأحد سكان مدينة تشيفيتافيكيا Civitavecchia بإيطاليا، كان قد وضعه في حديقته كذكرى لحجة إلى المزار المقدس بالبوسنة.

في ميديو أجوري medij ugorje (وهو أحد الأماكن التي ظهرت فيها العذراء بصورة إعجازية). وقد تكررت المعجزة في الأيام التالية الأمر الذي أدى إلى توافد أفواج المؤمنين والفضوليين، وأثار التبريرات العلمية المألوفة. وقد تم نقل التمثال في النهاية إلى كنيسة، وتم نسيان الحادثة، وإن كانت أضيفت إلى قائمة المعجزات والأحداث الغامضة التي يمتلئ بها التاريخ الديني.

وبعد ذلك ببضعة أشهر فقط، وبالضبط في فجر الحادي والعشرين من سبتمبر من نفس العام ١٩٩٥، وفى أحد معابد ضاحية دلهي بدأ تمثال جانيش Ganesh، وهو الإله

المشهور برأسه التي على شكل فيل، في شرب اللبن. وقد فعلت تماثيل أخرى في معابد أخرى نفس الشيء وانتشرت الظاهرة بسرعة في مدن أخرى من الهند ثم في أجزاء من العالم، من لندن إلى روما، ومن نيويورك إلى طوكيو، وفى كل مكان توجد فيه صور للإله.

وكذلك في المحلات وفى البازارات البسيطة. وقد ظلت الهند لأيام تحبس أنفاسها، في العاصمة وفى بومباي أغلقت متاجر ومكاتب حكومية، وتوقفت حتى مضاربات البورصة. وقام الناس المنفعلون بتقديم اللبن لكل تماثيل جانيش التي تحت أيديهم. وقد أذاعت الإذاعة البريطانية BBC أنه في أيام قليلة زاد استهلاك اللبن في الهند بمعدل خمسة أضعاف. وقد حاول العلماء بجهد دءوب تقويض هذه المعجزة من خلال سلسلة من التفسيرات التقنية حول الامتصاص الشعيرى. مع وجود مسام في المادة "وهكذا بما في ذلك افتراض هستيريا جماعية، دون النجاح في تفسير هذا اللغز.

وقد كنت حتى هذه الحادثة أعرف فقط عن جانيش القصة التي كان قد قصها عليّ الخياط الذي كان يحيك لي قمصاني في هونج كونج في نصف يوم، والذي كان يحتفظ بتمثال لهذا الإله وهو طفل، والذي قطع أبوه شيفا رأسه بعد أن أعمته الغيرة، ثم وضع مكانها رأس أول حيوان مر به. وقد حدث في هذه الأيام أن رأيت مرة أخرى صديقا هنديا قديما كنت قد تعرفت عليه في دبلن ونحن نشغل منصب الرجل الثاني في سفارتنا. وقد كان رجلا مثقفا وذا مشاعر دينية صادقة، ويكبرني ببضع سنين، وكان يبهرني بطريقته في شرح الفلسفة الشرقية لي، وفى قص بعض الطقوس الدينية العجيبة من أرضه. وقد تأثر هو أيضا بمعجزة جانيش، وبمجرد أن تقابلنا راح يقص على أشياء كثيرة لم أكن أعرفها حول هذا الإله المهم، الذي يحمى الكيان الأسرى، وإن كان هو أيضا مصدر إلهام لطقوس دينية غامضة. ولم يكن يصدق أنها تتعلق بظاهرة طبيعية، والتفسيرات العلمية في رأيه لا توضح شيئا. ولم يكن يعرف شيئا عن تمثال العذراء الذي بكى دما، ولكن بمجرد أن أخبرته بذلك لم يتردد في الربط بين الحادثين العجيبين قائلا " ربما يتعلق الأمر بنفس الرسالة الخارقة للنواميس التي وصلت إلى مجموعات مختلفة من البشر بلغة رمزية يستطيع كل واحد منهم أن يفهمها بشكل أفضل. وربما يكون من المهم أن يدرس المؤمنون من هذه المجموعة ومن تلك هذه الظاهر لمحاولة فك رموز الرسالة " هكذا علق صاحبي.

أسوق هذه الحادثة ليس فقط للربط العميق الذي قام به صديقي بين الإله الفيل وبين العذراء القديسة – وهو أمر بالنسبة لنا شائن جدا ولكنه طبيعي لمن يعتبر المسيح مثل نزول وتجسد فشنو، وللتأكيد بصورة قاطعة على أن العالم متعدد الآلهة دائما هو عالم التأمل للرهبان والنساك، ولكنه غالبا عالم مختلط، وتراجيدي، ويكتسب في الهند ملامح

بديعة ومقلقة في نفس الوقت. إذ أن أمزجة الجماهير أكثر حساسية من أوتار العود، وأكثر تقلبا من الرياح ؛ فكثير من هؤلاء الذين هرعوا وأنفقوا قروشهم البسيطة لإرضاع إلههم الطفل اللطيف والمرعب، كانوا هم أنفسهم ربما الذين حملوا المدى والرماح ثلاثية الشعب لينضموا إلى ميلشيات أبيه الشرس شيفا.

وفى الوقت الذي نجد فيه الهند، وهى شبة القارة المترامية الأطراف والمكتظة بالسكان والتي تعتبر إدارتها كدولة ديمقراطية وموحدة معجزة حيث نجد كل شيء وعكس كل شيء، نجد في دول العالم الثالث الأخرى أن النقاء وتصادم القديم في سياقات أخرى أقل تعقيدا.

ويعتبر الدين هو المرآة الصادقة لهذه الإشكالية المركبة، ذلك الدين الذي يسود داخل هذا التنوع الهائل من العرقيات هو الهندوسية. فالهندوسية – وهو دين فسيفسائي لأمة فسيفسائية – يلخص كل ما هو متناقض. فهو بمثابة رابطة أديان أكثر من كونه ديانة واحدة، وهو متاهة مذهبية وميثولوجية يصعب على عقلنا الديكارتي أن يجد طريقة فيها (كما تؤكد لنا مجموعة كبيرة من المقالات والروايات الغربية التي يهيم أصحابها بتلك الحضارة والذين عاشوا طويلا في هذا البلد).

وهى ليست فقط مشكلة عقلية. فإذا كان ما يمنعنا من الدخول في العالم الروحي للعالم القديم هو قلة المصادر، فإنه تحدث هنا ظاهرة عكسية، حيث يوجد كم كبير من المادة الوثائقية من كل نوع، من النصوص المقدسة، ومن الأساطير الشعبية وحتى العروض الفنية والشعرية. وفى هذا الكون الضخم الرمزي حيث الآلهة التي تعد بالملايين، نجد جواهر من الحكمة كانت مصدر إلهام قيم لنا على مدى آلاف السنين، امتزجت بتلك التي بدت لإنسان القرن الحادي والعشرين أحكاما مسبقة، وخرافات تثير الاشمئزاز. وهى عادات ترجع إلى عصور قديمة وتبدو في مظاهرها القاسية بمثابة ضيق أفق يناقض رسائل الإلهام الشعري والأخلاقي الذي نادرا ما تصل إليه الروح الإنسانية.

إن أشكال ممارسة الطقوس الموروثة هي المظهر الديني الذي يدهش الأجنبي بصورة أكبر، لدرجة أنة نادرا ما يحاول تجاوز الغلاف الخارجي، وربما إذا ما تجاوزه لن يفلح في الوصول إلى المعنى الباطني الكامل.

وقد أظهر علماء الأنثروبولوجي أن بعض هذه العادات التي تعتبر غير مقبولة على المستوى العالمي، ولكنها لا تزال موجودة في شبة القارة الهندية، لها جذور بعيدة نفعية: فإن تحريم البقرة المقدسة كان له وظيفة منع أن يتم التضحية في زمن المجاعة بمصدر نفيس لإمداد الألبان ؛ وذبح الأرامل "سوتي sutee" كان يضمن أعظم إعانة للأسرة،

وزواج الأطفال ونظام العشائر المنغلقة على نفسها هو لتأكيد الاستقرار الاجتماعي. غير أن المعالجة الأنثربولوجية والمعلقة بالسلالات البشرية لن تفلح في شرح واف لسبب استمرار هذا التقديس حتى بعد هذه الفترة الطويلة والتي قلت فيها الأسباب النفعية الأصلية.

إن تقديس التراث والتقاليد التي تجسدت عبر القرون، يجعل من الصعب اليوم اجتثاثها، ويبطئ أي تغيير اقتصادي واجتماعي. إن مقاطعة ماكدونالدز، الذي يتجسد في بلد كايطاليا كعودة متحضرة للوجبة البطيئة على حساب الوجبة السريعة، يمكن أن يصبح في الهند مأساة كبيرة كما حدث منذ سنوات عندما تم مهاجمة أحد مصانع لحم العجل المعبأ، مما أسفر عن مصرع العشرات. وقد ذكر الكاتب نايبول Naipaul أنه عندما ذهب عام ١٩٧١ لمتابعة الانتخابات في راجاشتان، اكتشف أن مرشح حزب غاندي كان يقوم بحملة ضد توصيل المياه: إذا ما توقفت الممارسة اليومية الفاضلة للنساء اللائي كن يذهبن لطلب المياه من الآبار، فيعلم الله كم من الرذيلة والفجور سيترتب على ذلك.

افصلوا حبة القمح عن السنبلة، وافصلوا عنا طقوس وعادات تعتبر عتيقة وغير مقبولة، ولكن دون اقتلاع للبناء الكامل للمعتقدات التي ترتكز عليها الهوية الجماعية: هذا هو الإطار الحاكم للطوق الذي كان يجب ولايزال يجب على حكام نيودلهي، والسلطات المحلية أن يعملوا له ألف حساب.

راديكالية الهندوسية الجديدة

إن هذه المعضلة التي سنجدها في سياقات أخرى كثيرة، اكتسبت صورتها الأكثر وضوحا ودراماتيكية في أعقاب الصدمة الثقافية التي أعقبت السيطرة الاستعمارية البريطانية. كيف يمكن استغلال النموذج المنتصر للمحتل البغيض لمحاربة التخلف، دون تمزيق المجتمع الذي كان يراد إعادة إحيائه، وقد التقى في هذا الطريق المجموعات الوطنية التي كانت تنشد الاستقلال كل، بطريقته، بدءا من نبذ العنف الذي تبناه غاندي حتى التمرد المسلح. فقد كان هناك من يريدون دولة علمانية تساير العصر تتطهر من كل العناصر التي تصدم الشعور المدني الحديث، ومن ناحية أخرى كان هناك من يريدون تأسيس بعث الدولة على العودة إلى تقاليد الماضي الدينية النقية. ومن ثم فقد احتل العامل الديني منذ البداية دورا كبيرا مقارنة بما حدث في بلاد أخرى.

إن القومية كما هو معروف يتم من خلالها تحفيز الجماهير، وهى تستقى من الجذور التاريخية النبيلة. ففي ألمانيا كانت الجذور المقدسة هي " البربرية حسب أساطير فاجنر ؛

وفي إيطاليا كانت بهرجة وبذخ روما في عصر القياصرة ؛ وفي اليونان التي تحررت أخيرا من الدولة العثمانية كانت القومية تتمثل في البحث عن لغة تسير على نهج القدماء الكلاسيكيين. ولم يكن هناك أدنى شك بالنسبة لتيار الوطنيين الهنود الأكثر عدوانية أن الهندوسية هي الأساس الوحيد الحقيقي لأمة هندية، لأن الهندوسية هي وحدها القادرة على أن تمنح الإحساس بالوحدة. بيد أنه لتحقيق رابط قوي يجمع شتات كل هذه العرقيات الكثيرة للفسيفساء الهندية، لم يكن كافيا فقط مجرد الشعور الديني، وإدراك أن هناك تراثا ثقافيا مشتركا لهذه العرقيات. فكان يلزم الاستقواء بأيديولوجية قومية دينية حقيقية ذات طابع راديكالي، وهذا ما كان في الهندوسية والذي ترجم إلى الانجليزية بمعنى " رابطة الهندوس hindu- ness"، والذي نسميه نحن بالهندوسية.

إن كلمة الأصولية كما سنرى هي الأخرى كلمة حديثة ومفهوم حديث، وربما أكثر حداثة من كلمة تسامح نفسها، إلا أن كلمة أصولية أكثر اتساعا، لأنها ظاهرة قديمة تتطابق مع الموقف المتشدد داخل التناقض الأزلي بين القديم والجديد، وهي موقف المدافعين البواسل عن الجمر المقدس للتراث ضد دعاة التغيير التقدمي. ويمكن أن نقول أن الهندوسية هي شكل آسيوي صرف، بل "متعدد الآلهة" للأصولية أن الأهداف العلمية لهذه "الهندوسية الجديدة" تسير على موضوعات سنجدها في معرضه بحثنا لأشكال أخرى من الأصولية.

إن الدين بوصفه قوة دفع " لبعث جديد للهندوسية " يستدعى للذاكرة صورة الميلاد الجديد "born again" للخطباء بالولايات المتحدة. إن إعادة "الصيغة الهندوسية من أسفل" وتكوين "أمة هندوسية صرفة "هندو راشترا hindu rashtra" يستدعى للذاكرة مطالب الإسلاميين بتأسيس دولة على الشريعة فقط.

إن "إعادة تقديس الأرض" من خلال إعادة تعريف لحدودها الرمزية يجعلنا نفكر في أرض إسرائيل Eretz – Israel.

ويعد ذلك اللجوء إلى رمزية دينية مؤثرة يمثلها في أغلب الأحيان تفسير النصوص المقدسة، سمة خاصة لكل أشكال الأصولية، سواء أكان الأمر يتعلق بنصوص توراتية، أم قرآنية، أم إنجيلية، وسنجد "رمح شيفا ثلاثي الشعب" وهو رمز التنظيم السياسي الهندي الأكثر تطرفا، مثل "سيف داود" في التزمت اليهودي.

وما يجعل الهندوسية الجديدة المتعصبة ليس فقط موقفها المناهض للدولة متعددة الثقافات – وهى سمة مشتركة لكل الفرق المتعصبة – ولكن أيضا معارضتها للدولة العلمانية الحديثة.

وهذه السمة الأخيرة، وهى المقاومة ضد علمنة المجتمع – تسمح للحركة القومية – الدينية بالحفاظ على، بل بزيادة خطها البياني أيضا بعدا، تحقق الهدف الأساسي وهو رحيل القوات البريطانية وقد وجدت الموجة الأصولية بالهند المستقلة إذا، سببا جديدا لمهاجمة المظاهر العلمانية، ومظاهر الحداثة التي أراد الآباء المؤسسون إضفاءها على الدولة الجديدة. وقد حدث توافق في هذا الاتجاه بين مجموعات طالما كانت متفرقة، ممثلو الطائفة العليا للرهبان وهم ضد العلمانيين بطبيعة الحال، وبين الجماهير الفقيرة من سكان المدن، والقبائل الريفية المتعلقة بطريق الآباء، وأعضاء البرجوازية الصغيرة من الموظفين، والطلاب الذين يجذبهم جميعا الحماس والاعتزاز بالقومية إن مبدأ الأمة الهندية كأساس لدولة الجديدة، فتح الباب أمام جدل: وهو أن الهوية القومية الهندوكية تتحقق وتثبت منطقيا فقط من خلال إنكار كل ما هو غير هندوكي. ولقد أضاف الغربيون – من خلال أعمال التحكم والهيمنة التي يقومون بها – إلى "الأعداء الخارجين"، فئتين أخريين من "الأعداء الداخلين": الطبقات العلمانية الحاكمة، وأتباع المعتقدات غير الهندوكية، ومن ثم في المقام الأول المجموعة الأكثر عددا، وهى المجموعة الإسلامية التي جاءت عقيدتها من الخارج في أعقاب غزو أجنبي قبل الاستعمار الأوربي.

وقد أصبحت المواجهات بين الهندوس والمسلمين – كما هو معروف أكبر مأساة صاحبت إعادة ميلاد الهند خطوة بخطوة. ويبدو أن تعاليم الحاكم العظيم للهند القديمة أسوكا Asoka قد نسيت، تلك التعاليم التي كان قد نقشها على الحجر قبل المسيح بثلاثة قرون، والتي تأمر باحترام كل المعتقدات: "كل فرصه تكون طيبة للاحتفاء بمعتقدات الآخرين، لأنك تجعل عقيدتك تزداد وتنمو أكثر، (الإعلان الثاني عشر)، وفى بداية العشرينيات – وهى سنوات المد القومي في أوربا والزحف نحو روما – تفوق الجناح الأشد راديكالية داخل الحركة الهندوكية الجديدة، وأصبحت له الغلبة، مما أعطى الفرصة لظهور تنظيم شبة عسكري ذي طابع فاشيستى، ولكن بخلفية دينية، وهو المعروف باسم جمعية المتطوعين القومية (RSS). والشيء العجيب هو أن اثنين من الرهبان البوذيين هما من قاما على تأسيس هذه الجمعية.

وكان أحد أعضائها – وهو راهب أيضا هو من قام بقتل غاندي في الثلاثين من يناير ١٩٨٤، هو متعصب هندوسي إذا، وليس متعصب من الإسلاميين هو من أجهز على واحد من أكبر الشخصيات في عالمنا، لمجرد أنه حاول أن يتعايش بسلام مع أكبر مجموعتين عرقيتين– دينيتين في بلده، وأزاد أن يتجنب، ويمنع الانشطار بين الهند، وباكستان. وهو نفس المنطق المنحرف الذي دخل اللعبة بعد ذلك في اغتيال الرئيس المصري السادات، الذي قتلة عربي، وفى اغتيال رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي على يد متطرف يهودي وكلاهما كانا ملتزمين بدفع عملية السلام في الشرق الأوسط ثم يحاول

قاتل غاندي ناتورام جودز N. Godse الهرب، فلم يطلب رحمة القضاة، وذهب إلى حبل المشنقة بشجاعة الثائرين وهو يغنى الأناشيد: "للوطن الباقي، أرض الهندوس".

وقد ولدت هكذا أكبر دولة ديمقراطية في أسيا على أثر واحدة من أكبر المآسي العالمية لظاهرة اللاتسامح الديني، والتي كان لها أبعاد أكبر من تلك التي كانت للحروب الدينية في أوربا بعد لوثر. فقد تم استئصال جذور ملايين الأشخاص، وإبعادهم لمسافة كبيرة عن بيوتهم التي ولدوا فيها، كما راح الآلاف ضحية الصدامات الدموية. أناس كانوا يتكلمون نفس اللغة، ويسكنون على نفس الأرض كما في البنجاب، وفى البنجال، تم عزلهم وتحولوا إلى أعداء ورفع كل منهم السلاح في وجه الآخر لا لسبب إلا اختلاف العقيدة.

حتى راما له حمام دم

ومع مرور الزمن تطور التطرف القومي – الديني، وأصبح أكثر تنظيما (وفق منظومة سنراها مع الأصوليات الأخرى) داخل أطار مجموعة من الهيئات ذات التخصيصات المتميزة: ذراع ديني، وذراع سياسي، أحدهما يعمل ويؤدى نشاطه على المستوى المحلى في القطاعات المختلفة كالمدرسة، والصحافة والنقابات، والعون الاجتماعي. وقد أضيف إلى "أسرة" الجمعيات في الستينيات، تجمع آخر من المتعصبين هو جيش شيفا المسلح Shiva sena يستلهم من الإله العظيم الذي يعد أحد آلهة الثالوث الهندوسي، وأكثرها تهديدا، وكآبة. وقد وصل الأمر وهو يجند أتباعه، أن قام بتوزيع مئات الآلاف من المعاول ذات الشعب الثلاثية عليهم (وهى شعار شيفا). وقد تم محاكمة هذا التنظيم عام ١٩٨٣ بتهمة إثارة حملة اضطهاد ضد المسلمين في بومباي، غير أن ذلك لم يمنع بل ربما ساعد على – أن تثبيت هذا التنظيم ذاته كحزب[1].

وكان من المتوقع أن تشكيلا سياسيا على رأسه تنظيم مماثل، وهو حزب الشعب الهندي B.J.P (حزب بهاراتيا جاناتا) يحصد ثمار نشاطه لدرجة أنة بفوزه في انتخابات ١٩٩٨ أصبح العنصر الرئيس في حكومة ائتلافية، كان فيها رئيس الوزراء، ونائب رئيس الوزراء من الموالين للجمعية الوطنية للمتطوعين.

وقد لعبت شخصية الإله الأكثر شعبية راما Rama أو اللورد راما، دوراً كبيراً في الترويج للتطرف فضلاً عن شخصية شيفا واللورد راما – كما يطلق عليه لبيان أصوله

---

[1] Pankai mishra, the other face تكملة المرجع السابق ص ٩٩

الأسطورية كحاكم لأرض أيدوهيا Ayodhia هو بطل أقدم أسطورة هندوسية قديمة تعرف بالراماياتا Ramayana ومن ثم فهو رمز كل الفضائل، والتقاليد الهندوسية.

ومدينة أيدوهيا هي واحدة من سبع مدن مقدسة بالهند وكانت مدينة جميلة، وأصبحت مع مرور الوقت مثل أورشليم وثنية، غنية بالمواقع التاريخية، والمعابد البوذية، والهندوسية، واليابانية، والإسلامية.

وفي القرن التاسع عشر كان هناك ستة وتسعون معبداً هندوسياً، وستة وثلاثون مسجداً وقد أصبحت المدينة مثل مدن أخرى كثيرة بها أماكن سياحية قليلة، وفقر كثير، وأصبحت واحدة من أفقر ولايات الهند وهى ولاية أوتار براديش وهذه الولاية هي كذلك أكبر ولايات الفيدرالية، ومساحتها تماثل تقريباً مساحة إيطاليا، وعدد سكانها يقارب مائة وستة وستين مليونا مما يجعلها سابع ولاية من حيث تعداد السكان على هذه الأرض، ولكننا نحن الغربيين نجهل أن تاج محل الشهير يوجد بإحدى مدنها وهى أجرا Agra.

وقد حدث أن شيد الإمبراطور المغولي بابور Babur المسجد البابورى في نفس المكان الذي ولد فيه الإله راما على حسب ما يذكره التراث عن مدينة إيدوهيا. فهل كان اختيار السادة المسلمين الجدد لمكان مقدس لدى الهندوس لبناء مسجدهم استفزازاً لإذلال الشعب المهزوم؟ هذا ما يؤكده، ويؤيده اليوم مناضلو الهندوسية. غير أن هذا السؤال التاريخي لا يؤثر كثيراً على وضع خطورته توليفة متفجرة تفوق خليطاً من الديناميت، وهو صدام رمزين متعارضين.

ومن العجيب أنه على مدى قرون لم يتسبب تجاوز مكانين مختلفين للعبادة بهذه المنطقة في حوادث كبيرة. فقد كان الحجيج الهندوس يتوافدون بأعداد كبيرة لعبادة تمثال الطفل راما، وكان المسلمون يصلون في المسجد دون مشاكل تذكر. ولكن ظهور تيار القومية الهندية حمل معه الجدل حول موقع إيدوهيا، وهو الأمر الذي ظل مكبوتاً طوال الحقبة الاستعمارية[1]. ولكن كان حتمياً زيادة حدة المسألة. فشيئاً كلما زاد تأثير الأصولية الهندوسية لا يهم أن يكون راما شخصية تاريخية، ولا يهم أن يشك الأثريون في وجود مكان مقدس أصلاً للهندوس في الماضي مكان المسجد ولا يهم حتى أن المسجد قد تم بناؤه من سنين طويلة. ولكن ما يهم الهندوسيين الحقيقيين هو هدم " رمز العبودية والعار " وهو ما يمثله وجود المسجد في هذا المكان المقدس.

يؤكد ذلك إحدى وثائق حزب جاناتا، الذي بدأ عام ١٩٨٩ حملة سياسية لبناء معبد هندوس في أيودهيا Ayodhia مكان المسجد وشكل حركة لهذا الغرض (حركة مكان مولد

---

[1] وقد أصدرت لجنة قضائية بريطانية عام ١٨٨٦ أحكاما تنص على أن بابور قد شيد عن عمد مسجدا في موقع هندوسي مقدس، غير أن الوقت متأخر لتصحيح وضع قديم عمره ٣٦٥ سنة.

الإله راما)، كان يشيدها بناؤون من متطوعين متعصبين عرفوا باسم "بناة المعبد" Karsevac. وقد ارتفعت بسرعة ألسنة لهب التعصب، ولم تعد السيطرة عليها ممكنة. فبعد سنوات من التصريحات، والمواكب، والمظاهرات، والتوتر الذي غذاه السياسيون، وصل الأمر إلى ذروته، ففي ديسمبر عام ١٩٩٢، دمر جمع غفير مسلح بالمعاول والفئوس، والقضبان الحديدية المسجد حجراً حجراً، وهم يصيحون " الموت للمسلمين ! "، ووضعت الحشود الموتورة صورة الإله الهندي على أطلال المسجد. وقد لقي على الأقل ألف وسبعمائة شخص حتفهم، غالبيتهم من المسلمين في المصادمات الدموية التي أعقبت ذلك وقد كان تعليق القادة الدينيين المتطرفين الراضين عن تلك الفعلة هو: " إن راما أيضاً له حمامات الدم الخاصة به "

وقد حدث في السنوات التالية صدامات متفرقة غير ذات شأن. ولكن في بدايات عام ٢٠٠٢ وبعد عشر سنوات من تدمير المسجد، بدأت جذوة النار الكامنة تحت الرماد تشتعل من جديد. فأثناء توقف قطار محمل بالحجيج العائدين من إيدوهيا، في ولاية جوجارات Gujarat المضطربة، وبعد تبادل السباب، والمشاجرات، تم إشعال النيران في إحدى عربات القطار على يد مجموعة من المسلمين، مما أودى بحياة ثمانية وخمسين ضحية بينهم نساء وأطفال. ولم يتأخر انتقام الهندوس، إذ استمرت المصادمات لعدة أيام وأسفرت عن مصرع مئات الضحايا في مدن متفرقة من الولاية، مما أدى إلى إعلان حظر التجول.

وقد كان العقاب وحشياً بصورة لا يمكن وصفها. فلم يسلم منه شيوخ، ولا أطفال، وحتى النساء الحوامل تم اغتصابهن قبل ذبحهن على يد الهندوس وكثير من البؤساء قد تم تقطيع أجسادهن أو حرقهم أحياء[١].

وقد علق أحد علماء الاجتماع وهو أشيس ناندي Ashis Nandy بقوله: لقد احتل قتلة غاندي روح الأمة ".

ولحسن الحظ يبدو أن رياح السياسة الهندية تهب في اتجاه معاكس لاتجاه القومية المتطرفة ومع ذلك من المهم أن نلاحظ كيف أنه في سياق ثقافي ونفسي مختلف عن سياقنا، ظهرت سيناريوهات اللاتسامح تشبه ما عشناها نحن فمنذ قرابة خمسين عاماً. لم يكن يخفى زعماء جمعية المتطوعين القومية RSS ميولهم الموالية للنازية وهم ينشدون

---

[١] حسب تقرير لمعهد حقوق الإنسان. حدثت أسوأ أعمال العنف في مدينة أحمد أباد التجارية. فقد قامت بها فرق من جمعية المتطوعين القوميين RSS بقمصانهم الكاكي التي تحاكي القمصان العسكرية السمراء، وبأوشحتهم الحمراء الداكنة ومعهم السيوف والشفرات الثلاثية والقنابل بدائية الصنع. وهذا يبين امتزاج التراث القديم بالتكنولوجيا الحديثة مثلما يحدث في إيران الخميني. فإلى جانب السيوف والشفرات الثلاثية كان هناك من يستخدمون الحاسب الآلي لتحديد قوائم العائلات المستهدفة (الوجه الآخر للتعصب — المرجع السابق).

صبغ الأمة بالهندوسية، أو الإخضاع الكامل "للأجناس الأجنبية" المنحدرة من شعوب "نزلت ضيوفا" كاليهود، و"الغزاة المسلمين" والنصارى والبوذيين اليابانيين. ثم بعد ذلك وجدوا ذريعة للجوء إلى العنف في ضرورة مواجهة الإرهاب الإسلامي الاتي من باكستان. والان يبدو أن هؤلاء الزعماء يرددون نفس كلام التيارات الإسلامية، عندما يؤكدون أن " حرباً جديدة توشك أن تبدأ بين القوى الشيطانية، والقوى الإلهية للسيطرة على العالم " وهم يشيرون إلى الولايات المتحدة كأكبر مثال لانتصار " اللاإنسانية " ويتوقعون الانتصار النهائي للقومية الهندوسية.

إن الأعمال العدوانية الهندوسية تستهدف الأقلية المسلمة، ولكنها موجهة كذلك إلى مجموعات أخرى غير هندوسية ومن ثم ضد الأقلية المسيحية التي عانت من هدم الكنائس ومن تبشير المدارس الكاثوليكية، كما حدث حرق للكتب المقدسة، وإبعاد للمبشرين، وتم قتل أحد الآباء اليسوعيين من بلجيكا عام ١٩٩٧

وقد حاول المتطرفين – وهو أمر ذو مغزى – أن يحكموا سيطرتهم على القنوات التربوية، والثقافية من خلال قوالب مألوفة، بداية من مراجعة كتب التاريخ. وقد تم استهداف قنوات الأفكار وهي السينما فخر الذكاء الهندي. وقد دمر منذ سنوات أعضاء من تنظيم شيفا المسلح أجهزة عمل فيلم "المياه" للمخرج ديب مشتا Deep Mchta، وهو اخر أفلام الثلاثية التي تدور حول نقد المجتمع، وأبطاله عضوان في المجموعات التي ما زالت تعانى من التمييز في الهند: أرملة، وشخص منبوذ.

طريق السيخ

عندما نتكلم عن التعصب الأصولي في الهند، لا يمكن أن يفوتنا أن نشير في النهاية إلى " طريق السيخ " وهو دين ذو لون عرقي قوى، يمثل مكوناً لا يمكن إغفاله داخل فسيفساء الفيدرالية المركب، وهو من عناصر التوازن السياسي والديني.

نحن هنا أمام نوع آخر من الأصولية، التي يمكن أن نسميها مؤسسية. ويمكن مساواة الراديكاليين الهندوس بالفاشيين، إذا لم يذهبوا هم أبعد من ذلك في تقديس رسمي لفكرة الأمة أما راديكالية طريق السيخ فهي على العكس ثيوقراطية، وضد الحداثة، على الرغم من كونها أخف حدة بفعل النفخة الأخلاقية والعالمية.

يصل عدد السيخ اليوم إلى عشرين مليوناً تقريباً مشتتين في بلاد كثيرة ولكن يمثلون في البنجاب جماعة تلتزم بتعاليم دينية صارمة، محافظة تدعو إلى المساواة.

وقد نشأت العقيدة الجديدة بين جبال هذه الولاية بشمال غرب شبه الجزيرة الهندية، ما بين نهاية القرن الخامس عسر، وبداية القرن السادس عشر من خلال موعظة جور ناناك G. Nanak، وهى تقوم على التوحيد، وعلى وجود طريق شخصي للتطهر لا يزيل فقط أي تمييز على أساس الفئة، أو الجنس، أو التعليم، بل يقضى أيضاً على الخصومة بين الديانات المختلفة.

" لا يوجد هندوس، ولا مسلمون " هكذا يؤكد ناناك ويضيف: " أي طريق نسلك ؟ إنه طريق الرب "[1] وهذه المحاولة الثورية لهذه الأزمات للبحث عن جسر بين الهندوسية، والإسلام، بدأت تتبلور في بناء لاهوتي توحيدي، وبكتاب مقدس هو أدي جرانت Adi Granth ويتكون من مجموعة من الأناشيد المقدسة، والصلوات ومعها طقوسها ومفكرتها الروحية، التي يطلق عليها سانت Sant إن رسالة الإخاء التي يحملها هذا المذهب، وطابعها الاجتماعي، وحرصها على الاستقلال من الأجنبي المحتل، جذبت عدداً كبيراً من الجماهير المختلفة، ولكنها أثارت توجس السلطات المركزية، التي بدأت في قمعها. وقد أدى القمع إلى جعل هذه الحركة السيخية حركة راديكالية، وأوجد نظاماً من الرهبان المحاربين "خلاصا Khalasa أو جماعة الأنقياء" التي تم تنظيمها بشكل نهائي عام ١٦٩٩ على يد المعلم العاشر والأخير جوفيند سينج Govind Singh وقد يطول بنا المقام إذا ما استعرضنا تاريخ السيخ، وهى حركة، مرتبطة بقوة بحركة السيخ الهندية، وهى مليئة كتاريخ أقليات كثيرة، بالمذابح، وموت زعماء أصحاب كاريزما على أعواد المشانق. ويكفى أن أذكر أنه بعد الاستقلال، تم تعبئة الأصولية المقاتلة للسيخ، التي تأسست لتدافع عن نفسها ضد نظام الاحتلال الإسلامي، من جديد ولكن في اتجاه مخالف لتدافع عن نفسها ضد التهديد الثنائي الذي يستهدف الهوية، والذي يتمثل في علمانية الحكومة الفيدرالية، وفى الأصولية الهندوسية.

إن أحداث البنجاب اتخذت بالتدريج منعطفاً متطوراً خاصاً بهذه النوع من المواقف وبمجرد أن اقترب المعتدلون من إنجاز اتفاق مع الحكومة المركزية يقوم على استقلال ذاتى للإقليم، حشد المتشددون قواهم وطاقاتهم لإفشاله، وبعثوا نموذج الرهبان – المقاتلين المستعدين للقتال حتى الشهادة. وقد أعلن التجمع المتطرف في عام ١٩٨٢ "حرباً مقدسة" وتبنى حملة تخويف، وعمليات إرهابية موجهة ليس فقط ضد السلطات، والهندوس، ولكن كذلك ضد العنصر المعتدل من السكان السيخ، بهدف نهائي وهو الاستقلال التام للبنجاب تحت اسم كاليستان Khalistan. وبعد ذلك بسنتين، وقبل أحداث إيدوهيا بكثير، وفى ظروف مختلفة تماماً، كانت تحدث هناك مذبحة حول مكان مقدس، هذه المرة بمباركة الحكومة العلمانية والديمقراطية فقد تبنت أنديرا غاندي ابنة نهرو خيار القوة لمنع

---

[1] I Fondamentalismi الحركات الأصولية، مرجع سابق، ص ٩٥

الانقسام. ففي يوم أحد أهم الأعياد الدينية للسيخ، تمت "عملية بلوستار المشئومة" وشارك فيها الجيش، والمظليون، والمدفعية، وتم مهاجمة مدينة أمريستار المقدسة.

وقد تم قصف " المعبد الذهبي " وهو رمز مقاومة السيخ وطريق السيخ، في فترة الاحتلال البريطاني. وقد تم سحق فرقة "مقاتلي الرب" المتحصنين به بعد حصارها. وكذلك تم تدمير المكتبة الغنية بالنصوص التاريخية الثمينة بفعل النيران. وفى نفس العام ذاته كما هو معروف، تم اغتيال أنديرا غاندي على يد حرسها الشخصي من السيخ ليثأر لهذا التدنيس لمدينة أمريستار المقدسة.

ومن حينها أصبح البنجاب تحت حراسة قوات من الجيش الهندي وقد تم إغلاق هذه الدائرة الشيطانية حتى حين: فقد أصبح المعتدلون على وشك تحقيق تسوية، ولكن المتشددين أفشلوا هذه التسوية، ولكن الغلبة كانت في النهاية للتعصب، إنه انتصار جديد لأعداء الحوار.

فهل السيخ – كما يؤكدون أنفسهم – هم من حالات كثيرة للأقلية المقهورة، والمظلومة في حقوقها الأساسية، أم هم يمثلون جيوباً عشوائية من سكان الجبال المتخلفين، والمتعصبين يجب قيادتهم إلى التقدم، وإلى الديمقراطية العلمانية، كما يؤكد الحكماء في نيودلهي ؟

إن زعم "التفرد" لهذا الشعب المغرور يبدو أنه يثير ردود أفعال سلبية أقل من تلك التي نصادفها في مواجهة مجتمعات أخرى معزولة. ففي المدن الكبرى مثل كالكوتا، وبومباي، تتردد نكات كثيرة أبطالها من السيخ، وبنفس استحساننا لنكاتنا حول رجال الأمن.

وفى الحقيقة يحظى السيخ ليس فقط بالهند بل في كل بلاد الشرق بالاحترام وذلك بسبب صرامة عاداتهم، والتزامهم الأخلاقي وليونة طبعهم، ويتم البحث عن الرجال السيخ لأعمال الحراسة. وكان أول لقاء لي بأحد رجال السيخ منذ سنوات عند مدخل أحد البنوك في هونج كونج حيث كان يعمل حارساً ويذهب ويجيء في جو من الصرامة، وهو يحمل بندقية ثقيلة ومن طراز قديم ولحيته كثيفة وعمامته المشهورة على رأسه لا ينزعها أبداً مثل عمامة الطوارق Tuareg، وتغطى هذه العمامة شعر لا يتم قصه مطلقاً. وكان آخر لقاء لي مع واحد من السيخ في وقت قريب في نيويورك: كان سائق تاكسي بدون عمامة، وشعره قصير، ولم أكن لأكتشف قط أصله لولا أنه أخبرني بذلك، وقد اعترف لي بأن تخليه عن عمامته سبب له كارثة في أسرته وأن والده لم يسامحه بسبب ذلك.

وعندما كنت في فرنسا ثار هناك جدل حول ما إذا كان مسموحا أو غير مسموح للفتيات المغربيات بالذهاب إلى المدرسة بحجابهن (إيشارب)، وقد فكرت ساعتها في السيخ، وفى أنه من الأمور المؤلمة عبر الصدامات المتعددة، وأشد من ضرب العصي، ومن السجن، بل ومن الموت بالنسبة للسيخ نزع عمامتهم وحلق شعرهم تماما.



الفصل الخامس

يقين التوراة

«إن وجود التوراة ككتاب للشعب، هو أكبر نعمة على الجنس البشري. وكل محاولة للتقليل من شأنها تعد جريمة ضد المجتمع». إيمانويل كانت

[اللاتسامح داخل الديانة الإبراهيمية - مركزية الإنسان - السياق التاريخي - عهد مع الله - إيمان وطاعة - ممارسة الشعائر كحقيقة مطلقة- الشعب المختار]

اللا تسامح داخل الديانة الإبراهيمية

هل من الممكن لمن لا يمتلك خلفية مناسبة أن يفهم كل جوانب العظمة، وحدود الديانة اليهودية، والشعب اليهودي؟ وهل من الممكن نقل معناها إلى آخرين في صفحات قليلة؟ لا أستطيع سوى دعوة القارئ إلى أن يقطع معي باختصار مراحل طريق شخصي قادني إلى الاقتراب من هذا العالم بشعور متزايد من الخوف الممزوج بالاحترام.

وبغضِّ النظر عن مسألة كيف ومتى وعلى يد من تمت كتابة التوراة، وإذا ما كانت معصومة أم لا، وإذا ما كان يجب أخذها حرفيًّا أم لا، وهكذا، فإني أرى أن مجرد وجود الشعب العبري هو معجزة، إن لم يكن من أكبر المعجزات. هل تدركون أننا نتحدث عن شعب ظلَّ دائمًا هو نفسه على الرغم من مرور آلاف السنين، وظل مستقيمًا دائمًا طوال طريقه الطويل، ومتَّبِعًا دائمًا لمصدر هداية وحيد، هو كلمة الرب؟ إن الشعب الذي نجا اليوم من تدمير كامل تقريبًا، والذي استطاع أن يعيد تكوين دولة تحظى بكل الاحترام، وتصبح عنصرًا فاعلاً في حياة وسياسة القوة العالمية الكبرى، هو نفس الشعب الذي هرب من مصر منذ آلاف السنين، وكانت مصر آنذاك هي القوة العالمية العظمى، ولكن هذا الشعب ترك أثرًا في الحياة وفى السياسة، لأنه لم يسمح لنفسه بأن يتزحزح قيد أنملة عن الشرائع الإلهية، وهو نفس الشعب الذي نفاه الآشوريون- البابليون، والذي أسهم بقوة

في الثقافة الهيلينية، والذي تمرّد على الرومان فشتتوه، وأصبح في بلاد عديدة أخرى هدفا لكل أنواع الاضطهاد والتمييز، فقط ليخرج منها أكثر قوة في عقيدته، وليترك بصمته على كل صور الثقافة والفنون والعلم.

أما فيما يتعلق بالموضوع الذي يهمُّنا أكثر هنا، وهو المكان الذي يحتلُّه اليهود بين أعداء الحوار، فإن الصورة التي رسمتها للتوّ، على الرغم من أنها إعجازية، تجعلنا على الفور مع ذلك ننسب إلى اليهودية - تقريبًا بالفطرة - مستوًى عاليًا من اللا تسامح. فمن المنطقي أن نعتقد أن معجزة هوية ما تظلُّ متماسكة طويلاً هكذا بفضل عنصر وحيد وهو العقيدة الدينية، يمكن أن تتمَّ فقط على حساب عدم مرونة كاملة ومطلقة مثل الحقيقة التي تغذيها.

لقد عوَّدَنا التراث المسيحي على صورة نمطية للرب في العهد القديم «رب الانتقام» (العين بالعين والسن بالسن)، «ورب الجيوش» الذي أسقط أسوار أريحا، وأمر «بالإبادة المقدسة»، ودفَن الأشرار بأمطار النيران والأحجار، وهو ما يتناقض تمامًا مع الرب في الإنجيل ورب المحبة والمغفرة.

وهذه الصورة هي في الحقيقة متعسفة بعض الشيء، مثل القوالب النمطية. فالحكمة التي كانت تقدم للشباب كواحدة من التعاليم، والوصايا العظيمة للمسيح كانت: «أحب قريبك كنفسك»، دون تحديد أن هذه الوصية لها أصل توراتي (سفر اللاويين ٩-١٨).

ويبدو أننا ننسى أن يهوه هو أيضًا رب النصارى، الذي جعل العدل في المقام الأول، ولكن كذلك الاحترام المتبادل، وهو الرحيم الودود مع من يمجِّده ويدافع عن أبنائه، ويسمع، ويعفو، وينزل المَنَّ من السماء. وبعد قول ذلك، لا يمكن إنكار أن اللاتسامح الديني -بالمعنى الضيِّق كما نفهمه اليوم- يبدأ مع التوحيد اليهودي، إذ إن التوحيد الذي افتتحه اليهود كان من نوع خاصٍّ، فلم تغِب حتى في هذه الأزمان محاولات لفرض عبادة إله واحد، فقد حاول الفرعون إخناتون، على سبيل المثال، أن يفرض على رعيته عبادة الإله الواحد الشمسي، وأدَّى ذلك إلى تمرُّد دموي. ولكن اليهود لم يقتصروا فقط على عبادة ربٍّ واحد له أفضلية على الآلهة الأخرى، بل أكدوا دون موارَبة أن الآلهة الأخرى كانت مزيفة وكاذبة، ووصلوا في النهاية إلى إنكار وجودها ببساطة. وكان هذا -كما رأينا- عجيبًا في العالم القديم.

ولكن الثورة الحقيقية لم تكُن حتى في توحيد وإفراد هذا الإله بالعبودية، بل كانت في طبيعته، وهي أنه للمرة الأولى يظهر الربُّ الواحد كيقين مطلق.

وسنحاول أن ندرك تعسبق عظمة هذا الحدث، فرئيس قبيلة صغيرة من البدو الرُحّل تبعد ألف ميل عن المعابد وعن القصور الملكية في العواصم الإمبراطورية بكهنتها، ورجال الدين فيها والكتبة والحكماء، أو بطريرك لا يختلف كثيرًا عن أولئك المبتدئين الذين يؤكدون بعد أن يجوبوا الصحارى طويلاً، ويصوموا أنهم يرون رؤى إلهية، يبدأ رئيس القبيلة هذا في نشر رسالة غير مألوفة فعلاً، فنجد أن هذا الرجل يجد الشجاعة ليؤكد أن من كلَّمَه ليس هذا الرب أو ذاك أو أحد الأرواح الموجودة في هذه الأماكن، ولكن الذي كلمه هو الربُّ الأعلى الذي يدبِّر أمور الكون والذي هو الموجود قبل كل شيء(1).

وهنا نجد مفتاح أول مظاهر اللاتسامح الديني وأكثرها تشددًا في كل الأزمان، فكيف يمكن أن نشكَّ أو نتردد عندما لا يتعلق الأمر بمظهر غامض لكيان غيبيٍّ، أو بأوامر أحد الآلهة المتقلبة، بل يتعلق الأمر بظهور وأمر الإله الواحد الذي يتفضل بأن يُظهِر للإنسان طبيعته الحقيقية، التي تجعله مشاركا له؟

إن المشكلة لم تكُن أبدًا هل يجب الطاعة العمياء أم لا، ولكن المشكلة هي هل تؤمن بالوحي أم لا. فلو أنك مقتنع بصدق بحقيقة الوحي (وكيف يمكن أن يشك في ذلك مَن سمع بأذنيه صوت الله؟) فلن تستطيع إلاّ أن تؤمن. يمكنك أيضًا أن تحاول المقاومة والتعبير عن بعض التردُّد، وأن تشكك في هذه النقطة أو تلك، وأنِ تناقش مباشرة مع الله بنفس صراحة الناس البسطاء، وصراحة الراعي الفقير الذي لم يكن له سيد قط. بيد أنك ستدرك في النهاية أنك لا تستطيع عمل شيء إلاّ أن تطيع هذا الأب – السيد الخاص ودون مناقشة، حتى لو أمرك بأن تذبح ولدك.

إن اللاتسامح بالمعنى الذي أوضحناه حتى الآن – كيقين مطلق للحقيقة، مع استبعاد أي بديل أو مناقشة – يتماثل إذن مع العقيدة الإبراهيمية، ويلتقي بقوة مع خصائصها الأساسية التي تقلب رأسًا على عقب طريقة استيعاب وتصور الأمر الديني نفسه.

إن هذه الخصائص يمكن أن تلخَّص في ثلاث نقاط أساسية، وكلها مسئولة عن التعنُّت والانغلاق لهذا الدين، ولكنها تولد الشحنة التي لا تهدأ والتي تثبت قدرتها الهائلة على البقاء على قيد الحياة، وتؤدِّى في النهاية إلى ميلاد إنسان جديد، نسمِّيه اليوم «الإنسان الغربي».

---

(1) Werner Keller, The Bible as History, W. Morrow and Co., New Yourk 1981
وارنر كلر، الكتاب المقدس كتاريخ

مركزية الإنسان

إن أولى هذه الخصائص مركزية الإنسان، فالإنسان فريد في السياق الكوني الكامل، الذي يدور حوله ويتصل به. ولقد كان ذلك أقل شيء يمكن أن ننتظره من مخلوق يتلقى رسالة مباشرة من الذات العليا الأولى لهذا الكون.

فالإنسان بهذا المعنى خُلق بيد الله «على صورته ويشبهه»، وحتى هذه اللحظة فإن إضفاء الصفات البشرية على الله كان يُعتبر مدخلاً بسيطًا لوضع هذا اللغز الكبير داخل أبعاد يمكن للعقل البشري أن يستوعبها. فلو أن للجياد إلَهًا لصوَّروه على هيئة حصان، على حد قول سفسطائي يوناني. وعندما كان روتاجورس يؤكد أن «الإنسان هو معيار كل شيء» فإنما كان يريد فقط أن يقول بأسلوب يمتد عبر آلاف السنين ويتردد على ألسنة فلاسفة، إن كل ما يحيط بنا يكتسب معنى بالنسبة إلينا نحن البشر بالقدر الذي تدركه أفهامنا.

وتظل العلاقة مع الإله بالنسبة إلى الإنسان مجرَّد محاولة بسيطة من طرف واحد للاتصال بقوى مرعبة، وأكبرٍ منه بكثير. وقد تَغيَّر كل هذا تمامًا مع نزول التوراة، إذ أصبحت مركزية الإنسان شيئًا موضوعيًّا. إنه الله، وليس هذا الإله أو ذاك الوسيط والمدبِّر، ولكنه المبدأ الأول «أنا أكون ذلك الذي أكون»، ولا يتجلى فقط هذا الإله للإنسان، بل يضعه في نقطة مركزية من الخلق، ويوجِّه عمله ليكون في خدمة هذه العلاقة.

وإذا كان الله قد أراد أن يخلق الإنسان من بين كل المخلوقات على صورته هو نفسه، أفلا يعنى ذلك أن الإنسان يحمل قبسة من الطبيعة الإلهية؟ فالإنسان هو وحده من بين كل الأحياء المقدَّر له أن يكون ملك الكون.

فلا ذهول إذن أمام كون لا يمكن سبر أغواره، ولا صلوات أبدًا للإله الشمس، وللإله القمر، ولا لقوى البحر والأرض حتى تستمر في تدفئة وتغذية المخلوقات (البشرية الضعيفة). فالله هو الذي خلق نورًا ضخمًا في صفحة السماء، هو الشمس، ليضيء النهار، وخلق ضوءًا أقل ليضيء الليل، وأجرى في الأرض المياه، وذرأ فيها حيوانات كثيرة، ولماذا هذا؟ فالله لم يترك غموضًا حول من سيكون المستفيد الرئيسي من عمله: إنه الإنسان، فالشمس والنجوم والأرض وكل باقي المخلوقات وُجدت لأنه يوجد مَن يستطيع أن يستفيد بحرارتها وضوئها ويتمتع بفوائدها، ويعجب بها ويتأملها، فأي فائدة تكون لاستعراض كبير دون مشاهدين؟

فبعد أن بارك الله أول رجل وأول امرأة، قال لهما كما يشير الكتاب: «تناسلا، واملأ الأرض واجعلوها خاضعة لكما، ولتكن لكما السيادة على أسماك البحر، وعلى طيور الجوّ، وعلى كل الأشياء الحية التي تتحرك فوق الأرض» (سفر التثنية ١، ٢٨). ويمكن لكل واحد منا أن يدرك مضمون هذا المفهوم الجديد، فبعد أن كان الإنسان جزيئا لا معنى له في طبيعة تفوقه قوة، ويحاول أن يروّضها باستمرار، أصبح له دور السيد الذي لا يعارضه أحد في هذا الكون[١].

السياق التاريخي

تنبثق عن هذه الخاصية خاصية ثانية تمثل انقطاعًا عميقًا عن الماضي، وسيترتب عليها عواقب كثيرة بالنسبة إلى المستقبل: إنها تاريخية المفهوم الديني الجديد.

فلم يعُد الكون الذي يحيط بنا مثل صورته في علم الكونيات الوثني، شيئًا لا يوصف ولا يمكن تعريفه، ولا بداية له ولانهاية، وعبارة عن تركيب كل شيء، والعدم، ودوران لعودة أبدية، بل أصبح للكون الآن بداية ونهاية، ونظام. وبعد ذلك عندما نبدأ ليس فقط في ملاحظته، بل في استكشافه بأدواتنا المنظورة، سنقول إنه التصميم الكبير للمهندس الأعلى.

وهنا يحدث الانفصال العميق المشترك في كل الديانات الأخرى: إنه الانتقال الكبير من الإيمان بالخلق إلى الإيمان بالخالق.

فالخالق يبقى دائمًا مهيبًا ولا يمكن الوصول إليه، ولا يمكن تصويره أو تسميته. ومن بين الأسماء التي دُعي بها في النصوص التوراتية «Eloim Adonai»، ولكن الاسم الأساسي مكون من حروف أربعة، وهو يهوه، ولا يمكن النطق به لأنه يعني الوحي والمسافة الرهيبة التي تفصلنا عن الله. وعلى الرغم من ذلك فالله يُظهِر وجوده بين البشر بطريقة تختلف عن الطريقة المعروفة عند مذهب الحلول الوثني، والتي تتلخص في تدخل الآلهة المتقلب، تلك الآلهة التي تتجسد من خلال قوى كونية غامضة. إن أبناء إبراهيم لم يكتشفوا الربَّ انطلاقًا من الطبيعة، أو من المظهر المقدَّس للخصوبة مثل

---

[١] ألفونسو ماريا دي نولا، من خلال تاريخ الأديان، دي رينزو، روما ١٩٩٦.
Alfonso Maria Di Nola, Attraverso la storia delle religioni. Di Renzo, Roma, 1996
انظر أيضا: أديان العالم بأسره ، مارابوت، بلجيكا، ١٩٨٩.
V. Grigoreff, Religions de monde entier Marabout Belgique,1989

الفينيقيين على سبيل المثال. ولم يوصلهم إلى معرفة الله التأمل الفلسفي. إنه الإله نفسه الذي عرّفهُمْ بنفسه[1].

إن إله إسرائيل أظهر نفسه للإنسان لأنه أراد أن يؤثر في العالم. فهو إذن مغموس في العالم باستمرار، ذلك العالم الذي يمثل مسرحًا لحل عقدة أحداث محددة تولاّها ذلك الإله، والتي يُعتبر الإنسان فيها هو البطل الرئيسي. إن يهوه هو ربُّ التاريخ قبل أن يكون ربَّ الطبيعة.

إن التاريخ إذن ليس إلا تنفيذًا محدَّدًا للخطة الإلهية من خلال العمل البشري، والذي يهدف إلى ظهور الإنسان على ظهر الأرض.

عهد مع الله

ونأتي هنا إلى الخاصية الثالثة، وهي أكثر هذه الخصائص تميزًا في العقيدة اليهودية، والتي لا نجدها في الديانتين اللتين تنتميان إلى نفس الجذع (الإسلام والمسيحية): إن التصميم الكبير يتضمن العلاقة المتميزة للإله مع شعب يكون مفسّرًا، ولسان حال لهذه العلاقة.

ففي المرحلة التكوينية الأولى من الدين الجديد، لم تكُن قد تأكدت بعدُ فكرة الربِّ العالمي الواحد لكل البشرية، حيث كان يهوه هو رب إسرائيل فقط، ولكن كان كذلك بالمعنى الحرفي، وكان ذلك أيضًا بمثابة شيء جديد تمامًا مقارنة بالمفهوم السائد.

وكان للشعوب الأخرى آلهة حامية خاصَّة بهم، كما هو الحال بالنسبة إلى أهل أثينا على سبيل المثال، عندما اتخذوا Pallade Atena حامية لهم، ولكن هذه الشعوب لم تجد غضاضة أن تتجه شعوب أخرى إلى هذه الآلهة، أو أن يطلبوا هم أنفسهم العون من آلهة أخرى، غير أن التوحيد اليهودي نما وتطور حول فكرة الإله الواحد، والغيور، الذي أوجب على شعبه أن يرتبط به من خلال علاقة خاصة في مقابل حمايته لهذا الشعب. وقد كان إبراهيم بطلاً لحدث غير عادي، إذ أبرم عهدًا مع الربِّ، كتلك العهود التي كانت الشعوب الخاضعة تبرمها في تلك الحقبة مع الملك لتكون تحت حمايته.

وبناءً على هذا العهد، فإن الله اصطفى شعب إسرائيل، وأعطاه أرضًا خصبة، وسيعينه في الحرب، وسيلتزم شعب إسرائيل في مقابل ذلك بأن يطيع الربَّ بصورة غير

---

[1] جاك روليه، الدين والسياسة، جراسيه، ٢٠٠١، ص ٣٠

Jaques Rollet. Religion et politique, Grasset, 2001

مشروطة، وألا يكون في خدمة إله اخر. وقد كانت تجربة الخروج والتحرر من العبودية في مصر حاسمة في تكوين العقيدة الجديدة، فقد امن شعب إسرائيل بيهوه كمحرر وسيد للتاريخ أولاً، ثم بعد ذلك فقط كخالق للكون.

إيمان وطاعة

سنفهم الآن أكثر وبصورة أفضل لماذا تضفي هذه الخصائص الثلاث: المركزية والتاريخية ومقصورية علاقة الإنسان بالله، على الدين الجديد صرامة وحقيقة مطلقة تختلف نوعيًّا عن أي دين آخر، وتؤصِّل لشكل من اللا تسامح الديني غير المسبوق.

إن الوحي هو في ذات الوقت مصدر موثَّق للحقيقة حول سر الخلق، وهو مجموعة من أوامر وتعاليم، وفى النهاية تكليف بمهمة.

ويُجلِي الوحي بخصوصيته الشمولية هذه كذلك النصّ المقدَّس الذي يسجِّل كل ذلك. وقد كانت النصوص المقدسة موجودة أيضًا في ديانات أخرى، يكفي أن نذكر تلك المنظومة المركَّبة والرائعة للنصوص المقدسة عند اليهود والمعروفة باسم Veda، والموجودة قبل إبراهيم بآلاف السنين. بيد أن النَّصَّ المقدس لم يكتسب في أي دين آخر مثل هذا اليقين لصدوره مباشرة عن الله.

وقد تَمَّت عملية تكوين الإطار المذهبي ببطء شديد: فقد تبلور الجسد الفقهي لليهودية فقط في أعقاب عناء قرون من خلال مجموعة كتب عُرفت في العالم باسم Bibbia اليوناني، الذي يطلق عليه اليهود «التوراة».

إن التوراة التي ظهرت في النهاية كنصٍّ نهائيٍّ قطعيٍّ وككتاب مقدَّس، تتحدث عن نشأة الكون، وهي نبوءة، وتاريخ أحداث مرَّت بشعب، وتجمع بين دفتيها العهد الذي أبرمه إبراهيم مع الله، ونقله إلى نسله، والذي تَمَّت صياغته كقانون وشريعة بالوصايا العشر التي أملاها الرب على موسى فوق جبل سيناء، وحفرت بالنار على الصخرة كرمز بليغ، ومبالغ فيه على طبيعتها التي لن تُمحَى، ولم يحدث في أي دين آخر أن تم انصهار الكتاب، والشريعة، والتاريخ بهذه الطريقة المدهشة. فقد تمّ التحام البعد الأفقي والبعد الرأسي من خلال التوحيد اليهودي، وتم التقاء حقيقتين مطلقتين، تلك التي تتعلق بالمذهب الفقهي، والأخرى الخاصة بالممارسة المقدسة.

إن الخير لم يعُد بعد -كما عَلَّم أرسطو أو بوذا- الطريق الذهبي الوسط بين طرفين، أو كما يؤكد هرقليط، أو زرادشت، أحد قطبين لجدلية مستمرة.

فالخير أصبح فقط ودائما هو الالتزام بأوامر الله. فالإيمان بحقيقة الإله الواحد، والطاعة غير المشروطة لأوامره لم يعودا منفصلين، بل أصبحا متبادلَين، وأصبح من المستحيل التمييز بين الدوجما [أركان العقيدة] والشعائر الدينية.

وعندما يؤكد النصارى أن دينهم دين المحبة، وأن الدين اليهودي هو دين الشريعة، فإن اليهود يأخذون ذلك على سبيل المجاملة، ويؤكد أحد الحاخامات في كُتَيِّب له حديث وهو يشرح للجمهور الأمريكي ما اليهودية بقوله: «إن ديانةً تضع في المرتبة الأولى محَبّة الله حتى لأولئك الذين يذنبون، تعني بوضوح أن الرجل والمرأةٍ لا يمكنهما أن يصبحا أفضل مما هما عليه. وتبرز إيمان البشرية الكبير بالله، ولكنها تقلّل إيمان الرب بالجنس البشري. إن ربَّ الشريعة يُلزمُنا بأن نُقرَّ أن بركة الربِّ تفرض علينا التزامات، وأن المزايا تفرض مسؤوليات، وأن طَاعة الأوامر هي ثمن يجب دفعه مقابل نعمة العيش هنا على الأرض... ويقال إن المسيحية هي دين الإيمان كما يؤكد العهد الجديد، آمِنْ بالربِّ يسوع المسيح وستنجو. أما اليهودية فهي مختلفة لأنها تضع العمل فوق الإيمان، وذلك لأن الربَّ هو ربٌّ لشريعة، ويعنيه ما نفعله أكثر ممَّا نؤمن به. ويؤكد ذلك بوضوح الفيلسوف الألماني وعالم التوراة الكبير موزيس مندلسون (١٧٢٩-١٧٨٦) بقوله: «لا يوجد في شريعة موسى أمر واحد: أنت يجب أن تؤمن أو لا تؤمن، فالعقيدة لا يتم الأمر بها، بل الأمر يكون بالأعمال»[1].

إن اليهودية إذن هي عقيدة تقوم على الصرامة، وعلى واجبات تجاه ربٍّ قاسٍ، ولا يرضى يهوه بشيء أقل من الطاعة الكاملة. والخطيئة الأصلية هي في المقام الأولى خطيئة معصية أكثر من كونها خطيئة غرور.

إن أمر إبراهيم بذبح ولده إسحاق، وتحويل امرأة لوط إلى تمثال من الملح، يؤكدان على نفس الأمر الذي لا لَبس فيه: الطاعة دون تَحفظات. والنص التوراتي مليء بأحداث ومشاهد حول هذا الموضوع، فكل الذين تجرؤوا على تحدِّي أوامر الربِّ قتلوا أو دُفنوا بأمطار النار والحجارة، أو تم إبادتهم بالمذابح أو بوباء الطاعون. إن الشريعة الأساسية تفرض عقابًا أساسيًّا -مثل الذبح أو الحرق- حتى بالنسبة إلى المخالفات التي نعتبرها اليوم ذنوبًا طفيفة. فالمؤمن لا يُسمح له بأدنى تنازل، ولا يُسمح له أن يتجه بوجهه إلى ربه (سفر الخروج ٢٠، ٤)، أو ينادي الربَّ باسمه (الخروج ٢٠، ٧، اللاويين ٥، ١١) فكل الشعب مُطالَب بالحماس الديني، والتقشف، وصرامة العادات.

---

[1] فهم اليهودية، ص ٤٥-٤٧

Benjamin Blech, Understanding Judaism, Alpha Books, Indianapolis 1999

ممارسة الشعائر كحقيقة مطلقة

يجب هنا أن أبرز نقطة أخرى مهمة. إن التركيز على الاستقامة في الديانة اليهودية، والتي كانت داخل المجال الشخصي في الديانات الوثنية، لم تهدأ بل زادت بقوة كذلك الحقيقة المطلقة في موضوع الممارسة الصحيحة، أي الالتزام بالشعائر، وذلك لسببين، ففي المقام الأول لأن الشعائر والمحظورات فرضها الربُّ صراحة وليس فقط من خلال إشارات خفيَّة.

وإذا لم يكُن التاريخ سوى تنفيذ لخطة الربِّ، فإن انصهار الدين والمجتمع يجب أن يكون كاملاً وشاملاً. ودولة شعب الله، الشعب-الكاهن الملتزم بتنفيذ التوراة، لا يمكن إلاّ أن تكون دولة ثيوقراطية.

وفى المقام الثاني لأن شعب إسرائيل هو شعب مرتحل، ومتجول إلى الأبد، وليس له أرض. ولذلك فإن التوراة هي البديل للحيز الفيزيائي الذي يفتقده هذا الشعب، ومن ثم يصبح الكتاب هو الحدود الحقيقية للأُمَّة العبرية التي بفضله يمكنها أن تُحقِّق هويتها.

إن عرقية إسرائيل وُلدت كعرقية مختارة وانتقائية، ومصيرها أن تبقى عبر القرون. ولنضع في ذهننا هذا الأمر لأنه كما سنرى بعد ذلك وبعد آلاف السنين سيكون له نتائج سياسية وتداعيات لا يمكن التشكيك فيها.

وهذا هو «الرباط» من خلال ممارسة الشعائر، الذي مثَّل بالنسبة لكل الشعوب الأخرى أقوى مثبِّت للشعور بالانتماء والهوية الجماعية، وأصبح بالنسبة «للشعب المختار» ضرورة لا يمكن التغاضي عنها. وكلما كان اليهود مضطرين إلى الكفاح من أجل البقاء في زمن العبودية والنفي والسير في الصحراء والاضطهاد، كانوا بحاجة دائمة إلى التأكيد على «عبقريتهم» من خلال سلسلة من الأعمال والممارسات التي تؤكد صدقهم وانضواءهم الجماعي تحت الشريعة. وتشمل ممارسة الشعائر كل أوجه الحياة الدينية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية.

وتجسد الشعائر والطقوس تعاليم العقيدة، وتحدد بوضوح أوامر الشريعة، وتقسم الوقت إلى فترات للتطويب والتطهير. والأعياد والعطلات بدءًا من يوم السبت Chabbat -وهو تقليد لراحة الربِّ في اليوم السابع بعد مشقَّة الخلق- تمجد الربَّ كإله للتاريخ. والختان هو أول علامة لا تقبل الشك على هذا التلاحم الجماعي، ولكنها كلها عبارة عن سلسلة من التقاليد والمهامّ والمحظورات، وإعداد الطعام بدقة للصوم، وكل ذلك يكشف عن نفس الهدف، على سبيل المثال أنه لا يمكن أداء الصلاة في جماعة دون اكتمال النصاب وهو عشرة من المؤمنين على الأقل. وفى خلال قرون النفي والشتات، وفى بيئة

الجيتو المنغلقة، تكون درجة الالتزام بالشعائر هي المؤشر الأكثر ضمانة للنسيج الاجتماعي، وفى نفس الوقت تعطى إشارة سهلة إلى الالتزام بالممارسة الصحيحة. وتساعدنا كذلك ظروف المرأة في المجتمع اليهودي على أن نقيس المسافة التي تفصلها عن النساء الوثنيات، وصرامتها وانغلاقها.

فالمرأة في العالم القديم -كما هو معروف- لم تكُن ندًّا للرجل ومساوية له، ولا حتى في ديمقراطية أثينا التي يتغنون بها، ومع ذلك وفى المجال الديني كانت المرأة في مكانة تفوق الرجل وليست فقط ندًّا له. وحتى بعد ذبول أسطورة الأم الكبرى كان لكل مجمع آلهة بلاط من الربات الإناث المحترمات، وكانت الآلهة في أعلى الدرجات جنبًا إلى جنب مع زوجاتهم. أما العقيدة اليهودية فتكرس البطريركية أيضًا في المجال الديني، وفضلاً عن اشتمالها على عقدة النقص في حق المنحدرات من حواء التي خُلقت من ضلع لآدم، تستبعد وتزيل عن صورة الإله الأب والسيد والقاضي، أي صفة أو رمزية مؤنثة. وقد تم ترجمة ذلك كما سنرى فيما بعد من خلال سلسلة من التضييق المفروض على النساء في المجتمعات اليهودية. وهناك كثير يجب قوله على هذا الصعيد عن اللا تسامح الذكوري لديانات التوحيد في المجتمعات الزراعية. وقد حاول المسيح -على ما يبدو- أن يثور على هذا الوضع، بأن أعطى للنساء دورًا مساويًا للرجال بين أتباعه وحوارييه، بيد أن الكنيسة المنتصرة تراجعت وأعادت العجلة إلى الوراء وتحالفت مع أنواع التمييز ضدَّ الأنثى، الذي يحمل خاتمًا يهوديًّا، وهو الأمر الذي استمر، بل زاد، من جانب الإسلاميين.

الشعب المختار

إن المصدر الأكبر للخصوصية اليهودية، ومن ثم الدافع الأكبر إلى الانغلاق نحو الآخر، يأتي من فكرة «الشعب المختار» المشتقة من العهد مع الرب.

وقد نقل إلينا التراث المسيحي في هذا الشأن الصورة النمطية لشعب صغير فريسة لحُمَّى الاعتقاد بأنه مختار من الربِّ من بين سائر شعوب الأرض، ومن ثم مصاب بنوع من عقدة الاستعلاء. إن زعم شعب بكامله أنه شعب من نوع خاص، وبأنه شعب لا يمكن اعتباره من البشر، لدرجة أن البشرية تنقسم بينه من ناحية، وبين الآخرين «الأمميين» من ناحية أخرى، يجعل من الحتمي وجود ردود أفعال من التوجُّس والسخط في البيئة المحيطة.

إن حجر الزاوية في التوراة، العهد والخِروج، يؤكدان - كما قلت- العهد الأصلي لإبراهيم، ويصادقان على وعد يهوه بأن يخلِّص شعبه من العبودية وأن يعطيه أرض

كدمان، وأن يجعله «بركة لكل الشعوب الأخرى»، شريطة أن يرفض هذا الشعب خدمة آخرين مثل الفرعون يزعمون أنهم آلهة، ويُعدّ هذا العهد بداية، وعلى الرغم من أنه يحتوي على مفهومٍ اصطفاء إلهيٍّ لا لبس فيه، وعلى الرغم من أنه يعطي لإسرائيل سبب الوجود، فإنه يظل هدفا في حدّ ذاته، ويكفي شعب إسرائيل أن لا يخون هذا العهد، وأن يظل وفيًا لربه، ولا يطلب شيئًا آخر. وإذا كان الوجود والشهادة والطاعة من جانب هذا الشعب الصغير، تبدو كافية لخُطَط الربِّ، فإن من غيرِ المسموح به البحث في ما وراء ذلك. ولكن اتساع الآفاق بالاتصال مع الثقافة الهيلينية، الذي يمثل الانتقال من اليهودية التوراتية إلى اليهودية الحاخامية، وانتشارها في كل أرجاء المعمورة، يعطي أيضًا للخصوصية اليهودية بعدًا عالميًّا جديدًا.

«شعب مختار» يكتسب إذن معنى الوسيلة التي اختارها الربُّ لخطته التي تجعل تاريخ الإنسان مقدَّسًا.

إنه زَعْم ليس هيِّنًا، إذ يجب أن نلاحظ فورًا أن تلك الخصوصية لا تتضمن مهمة حقيقية لأمر عالٍ، ولا تتضمن كذلك أي إشارة توسعية أو تهدف إلى تحقيق النصر على الأرض، بل على العكس فإن تاريخ اليهودية يؤكد أنها عاشت من منظور دفاعيٍّ، يميل إلى القيام بالواجب والمسؤوليةِ ومن ثم تاريخ معاناة. لقد مثلت فكرة الشعب المختار بالنسبة إلى اليهود، عبئًا وتكليفًا بواجبات، واختبارًا وجب عليهم باستمرار أن يثبتوا أنهم أهل له. وبغضِّ النظر عن إثارة أدنى رغبة في القوة أو هالة من العظمة، فإن هذا العبء قد استنفر عقدة الدفاع عن الذات، وولّد كابوس خيانة العهد، ومن ثم فقد الخصوصية، يمكن أن يؤدى إلى موتهم كشعب.

وقد حاول الأنبياء في الفترات الحالكة من التاريخ اليهودي، أن ينقذوا فكرة العلاقة المتميزة مع الربِّ من منظور التذلُّل ونقد الذَّات، وفسروا المحن والشدائد على أنها تحذير من الرب لأبنائه المختارين لأنهم لم يكونوا على مستوى ما كان ينتظره منهم.

إن إدراك هذه الخصوصية كان حاسمًا في تحديد صورة «يهودية القناعة» التي كانت أكثر إلزامًا من «يهودية الشرط»، وأدى ذلك إلى أن يلازم مسارَ اليهود عبْرَ التاريخِ شبحان: الاضطهاد، والتكيُّف.

إن أسطورة «الشعب المختار» كان لها دورها في إنتاج هذه الدائرة الجهنمية المفرغة، التي على أساسها شعر اليهود دائمًا أنهم معزولون، ومقتلَعون من أوطانهم من جانب، ومن جانب آخر نظرت إليهم المجتمعات المضيفة على أنهم مقاومون لأي اندماج، وعامل اضطرابات محتمل. سندخل الآن إلى مجال حسَّاس هو معاداة الساميَّة. وهذه الظاهرة الأخيرة لا يمكن تفسيرها على ضوء عنصر واحد، ونظرًا لأنها تلقي

بجذورها في اللاشعور الفردي والجماعي، فهي ذات صلة باللاتسامح عند اليهود نحـو الاخرين، بقدر صلتها بلا تسامح الآخرين ضدَّ اليهود. وسنتحدث عن ذلك فـي الجـزء الخاص بأشكال كره الأجانب المختلفة، لكن ذلك سيكون وقت تعميق حديثنا حول الجهود المبذولة داخل السياق اليهودي، للتخلص عن طريق التفسير من قبضة الدوجما الخانقـة، فضلاً عن التناقضات بين الجامدين والمرنين الذين يرون إمكانية التكيف وتحديث العقيدة والشعائر.

الفصل السادس

التزمت اليهودي

"أرض إسرائيل تمثل جزءاً من روح لشعب إسرائيل نفسها، ولا يتعلق الأمـــر فقط بمطلب قومي يهدف إلى توحيد شعب، أو لضمان بقائه على قيد الحياة. إن أرض إسرائيل روح وإكسير ضميرنا الوطني، فهي مرتبطة عضويًّا بالمصادر العميقة لحياة كل واحد منا".

أبراهام إسحق كوك (١٨٦٥- ١٩٣٥)

مُنَظِّر الصهيونية الدينية

[انتظارا للمسيح في بـــروكلين - حـــراس الـــدوجما والإصـــلاحيون - علمانية وخصوصية يهودية - الصهيونية - الروح المزدوجـــة لدولـــة إسرائيل - الصقور والحمائم في "أرض الميعـــاد" - تقـــديس الأرض - الحارديم - اللا تسامح عدو المستقبل]

انتظارًا للمسيح في بروكلين

إن ثقافة يهود ألمانيا -وهي التي عانت بشكل كبير من صدمة الإبادة، ولكنها ستبقى حية كذلك في العالم الثقافي "للأممين"- نقلت إلينا صورًا حية كثيرة عن الحياة اليومية في هذا الكون الاجتماعي المصغر الذي كان يمثله الـــ Shelt أي الحـــي الـــسكنى بأوربـــا الشرقية الذي تم التغني به في أعمال أدبية وفنية كثيرة.

إن شخصيات هذا العالم: الحاخام، ومُوَثِّق الزواج، والمتسول، والترزي، كانت كلها مغموسة في تلك الإنسانية العميقة، والفكاهة التي تنبع من المعاناة، ومن الحاجـــة إلـــى التضامن.

وكان من بين هذه الشخصيات الجندي، وهو أكثر الجميع إنسانية وتعاسة، وبعده المتطوع قسرا على يد ضباط روسيا القيصرية، ثم بعد ذلك على يد سادة أخرين كثيرين[1].

ويرى كثير من المراقبين أن القياس الأكثر فاعلية للمسافة التي تفصل هذا العالم عن عالم إسرائيل الحديثة يتمثل في شخص الجندي الذي يحتل، على ما يبدو، مكاناً محوريًّا في الدولة الجديدة، إذ يبدو للوهلة الأولى في عيون أجنبية أنه شعب مسلح بكامله، وتنظيم عسكري فاعل، وأنه غاية في التنظيم لدرجة تحسده عليها جيوش جوليلمو الثاني أو قوات فيرماخت Wehrmacht. ومع ذلك، فإننا إذا ما دققنا النظر جيدًا، فسندرك أن المسئولين الرئيسيين عن الخط المتشدد في السياسة الإسرائيلية الحالية التي تساند "اللاتسامح مطلقاً"، وتفضل القوة والانتقام على المفاوضات، ليسوا العسكريين، ولا قادة الأركان، ولكن الأوساط الدينية، أي المحافظين والتقليديين.

وحقيقة القول أن المحافظين المتشددين لا يزالون أكثر عددًا ونشاطاً في الشتات عنه داخل إسرائيل، ومن العجيب –وإن لم يكن مفاجأة– أن يكون مركز ثقلهم في نيويورك وليس في أورشليم، وهذا يرجع ليس فقط إلى تمركز الصفوة المثقفة الأكثر ثورية في كبريات المدن الأمريكية في فترة ما بين الحربين، وبعد الهولوكوست، تلك الصفوة التي اضطرت إلى ترك وسط أوربا، ولكن الأمر يعود إلى رفض بعض الزعماء ذوي الكاريزما، وضع أقدامهم في إسرائيل لعدم رضاهم عن قيام دولة عبرية علمانية، هؤلاء الربيون، وهم أنصاف قديسين، وأنصاف رجال مافيا، يناورون من وراء الكواليس، وهم خبراء في استخدام الكلمة، وكما هم خبراء في إدارة المال، أَنْشَأوا مراكز سلطة تشبه تلك التي كانت موجودة في بلاطات الحاصيدين hassidiche في القرن الثامن عشر، والتي انتقلت، مثل الأسر الملكية، عن طريق الإرث أو الزواج.

وقد كان مناحم م ز شنيرسون أحد أشهر، وأقوى هؤلاء الربيين نفوذا، ولم يغادر قط بروكلين، ولكنه بحركته المسماة بـ Lubavitcher (نسبة إلى مدينة لوبافيتش Lubavitch بروسيا البيضاء، حيث كان أنصار طائفة Abad نشطين في القرن الثامن عشر) وقد أثر بشكل ملحوظ على الرأي العام العبري نحو التعنت، والتشدد.

ولقد بقيت الحركة حتى بعد موته عام ١٩٩٤، فاعلة، بفروعها التي بلغت بضع مئات منتشرة في أنحاء العالم، غير أن الحركة انقسمت إلى تيارين: فهناك تيار يعبد

[1] انظر الرسوم اللطيفة والمثيرة للشفقة حول اليهودية التقليدية التي رسمها مونى أوفاديا في "اليهودي الذي يبتسم"، إيناودى، تورينو ١٩٩٨.

M. Ovadia, L'ebreo che ride, Einaudi, Torino,1998

رئيسه مثل المسيح وينتظرون عودته، وهناك تيار من لهم رؤية واقعية أكثر ويعتزمون استغلال ميراثه الروحي على الصعيد السياسي ليصنعوا منه رأس حربة التزمت المضاد لأي تنازل داخلي أمام العلمانية، وخارجي بالمحادثات مع الفلسطينيين. ولا يزال حتى اليوم، يجتمع مجموعات من الشباب الملتحي في ملابسهم السوداء مساء الجمعة بالمقر العام لحركة اللوبا فيتشر في حي كراون هايتس ببروكلين، ويرقصون في دائرة، وهم يترنمون وينشدون دون توقف الدعاء بطول العمر لمعلمهم الراحل[1] وهو مشهد يذكرنا بواحدة من أجمل القصص الحاصيدية لمارتين بوبر M. Buber الذي يحكى لنا عن رقص رجال سود ملتحين تتشكل حولهم في النهاية دائرة من النار السماوية اللون.

إن هذا الاحتفال ليس أهميته أنثروبولوجية فحسب، بوصفه نوعًا من الرقص الذي تؤديه القبائل طلبًا للمطر من منظور يهودي، بل إن له أهمية سياسية، لأن هذه المجموعات المتصوفة في الظاهر -على الرغم من خلافاتها الداخلية- لا تزال تمارس تأثيرًا ملحوظًا، وتجمع الموارد المالية، ففى ذكرى عيد ميلاد شنيرسون رقم مائة وواحد، خصص أولئك صفحة كاملة في النيويورك تايمز له واغتنموا الفرصة ليؤكدوا مناصرتهم للحرب على العراق، وذكروا أن الربي في عام ١٩٩١، وبخصوص عملية "عاصفة الصحراء" واستشهد بعيسو Isaia وهو يقول: "سقطت بابل وستستعبد"[2]

ولكن ليس المقام هو مقام مواجهة مشكلة العلاقات العربية الإسرائيلية أو مشكلة الشرق الأوسط، يهمنا هنا أن نبين أن العامل الديني أيضًا على الجانب العبري يلعب دورًا لا يقل عن نظيره على الجانب العربي، وكلاهما في اتجاه اللاتسامح.

حراس الدوجما[3] والإصلاحيون

إن المتطرفين الدينيين الموجودين بشكل مؤثر على الأرض الأمريكية، لهم دور فاعل ولا يخفى على أحد في إسرائيل، فبالنسبة إلى الغرب، تعتبر أمة إسرائيل الفتية بمثابة المثال الوحيد لمجتمع شبه ثيوقراطى، تسيطر عليه الأصولية بقوة، ويجب الانتقال إلى حضارة أخرى، بين مناوئي هذه الحضارة أنفسهم، كى نجد علاقة مماثلة لا توجد عندنا قط، بين "المتشددين" في السياسة، و"الأنقياء" في العقيدة.

---

[1] انظر مقال جوناثان ماهلر J. Mahler، انتظار مسيح الجادة الشرقية Waiting For the Messiah Of Eastern Parkway، في مجلة نيويورك تايمز، ٢١ سبتمبر ٢٠٠٣

[2] نيويورك تايمز، الأربعاء ١٦ أبريل ٢٠٠٣

[3] الحقيقة المطلقة [المترجم]

فمنذ نشأة دولة إسرائيل فصاعدًا، يوجد بداخلها قبضة حديدية دائمة بين الصقور والحمائم لحل مشكلة البقاء لدولة إسرائيل في سياق عدائي، ولا نستطيع أن نفهم جيدًا مفردات الجدل المتعلقة بهذه المسألة، الذي تتسع رقعته داخل الجماعة اليهودية المنتشرة في العالم، دون أن ندرك جيدًا المواقف التي تتسم بالمظاهر الراديكالية.

إن الأصولية بمعناها الضيق -كما قلنا وكما سنرى بشكل أفضل لاحقًا- هي ظاهرة حديثة وُلدت مع الحداثة، وهي تعد بالأحرى المظهر الأكثر حدة لمشكلة تعيّن على الديانات الكبرى، بما فيها أيضًا الديانة اليهودية نفسها، مواجهتها بشكل متزايد، ألا وهي مشكلة علمانية الحياة العامة والخاصة في أعقاب الثورة العلمية، فكل الأصوليات المختلفة تشترك في كونها موجودة على جبهة الدفاع ضد تهديد عصر العلوم الإنسانية الملحد.

أحد القواسم المشتركة هو أن كل واحدة من هذه الحركات، وهي تستقى من أسس أصيلة للاعتقاد سواء أكانت أسسًا حقيقية أم أسطورية، تناضل ضد الجديد، وضد تغيير الجذور القديمة، وضد تغيير مسألة جوهرية لكل ديانة، وهي مسألة إمكانية التفسير والمساس بالنص المقدس من عدمها.

إن الأصولية اليهودية - كما هو طبيعي لأقدم ديانة أنزلها الله- تلقى بجذورها في الزمن القديم، وما زالت تحتفظ بصدى من هذه الفترات البعيدة في مفرداتها الحالية، فهي تعود بنا إلى فجر التوحيد نفسه، وإلى أول صدام بين حراس الدوجما (وهم من كانوا يريدون الحفاظ على النواة الأصلية للعقيدة كاملة) والإصلاحيين.

إن النصوص المقدسة لأي ديانة عادة ما تكون صعبة التفسير إن لم تكن غامضة وغير مفهومة، الأمر الذي يبدو طبيعيًا عندما يكون له صلة بأسرار الكون العليا، إن التفسير لا يعنى فقط توضيح الرسالة الإلهية، بل أيضًا الحفاظ عليها في تناغم مع البيئات المختلفة التي هي مُكَرَّسَةٌ لها، ومن ثم مسايرتها للأزمنة، حتى تظل حية ومعاصرة. وهذا هو بوضوح الملمح الذي يفتح الباب على مصراعيه أمام الاختلافات والتباين.

إذن، فمن المؤهل للقيام بهذا الواجب التفسيري الدقيق؟ وإلى أي مدى يمكنه أن يتقدم فيه؟

إن المناقشات حول أسئلة مشابهة، وحول تباين الردود التي خرجت، قد أفرزت في أحسن الأحوال مدارس دينية متنافسة متخاصمة، وفي أسوأ الأحوال أثارت انقسامات وانشقاقات، أي ديانات جديدة. وحتى البوذية الهادئة نشأت في جدل مع الهندوسية

الأصلية وانقسمت بدورها إلى تيارين. فالطاوية[1] Taoismo والشنتوية[2] Scintoismo يمكن اعتبارهما تطورين مختلفين يفسران نفس النواة الأساسية.

ولكن ماذا يجرى عندما يصبح النص الأصلي، الذي يمثل أساس الدين ومصدره المباشر من الله كما رأينا في حالة التوراة هو "الرب الذي يتكلم"؟

فمن المسلم به أنه في هذه الحالة سيصبح التباين في المواقف كبيرًا، وسيبلغ مدى أكثر دراماتيكية.

إن تطور العقيدة اليهودية تَمَيَّزَ على مدى مساره بالتناقض بين من يعتبر الكتاب لا يمكن المساس به، ويجب أخذه حرفيًا، لأن الرب وحده هو من يعرف تفسيره، وبين من يؤكد على العكس أنه لكى يصل الكتاب إلى أكبر عدد من المؤمنين عبر الزمان والمكان، يجب أن يترجم ويحدَّث باستمرار.

ودليل ذلك التناقض، أننا نجد كمية هائلة من التعليقات والملازم الشارحة للكتاب المقدس في جانب، وفي الجانب الآخر كانت الصرامة في التفسير التي اعتمدت في المقام الأول على التراث الشفوي والرواية الشفوية، ومن ثَمَّ فقد نشأ عن ذلك كتاب مقدس جديد هو التلمود الذي يضم خلاصة حكمة الحاخامات فيما بعد التوراة، وأصبح التلمود جزءًا لا يتجزأ عن قسم العقيدة اليهودية: عملية تشريح وتقسيم جديدة للنصوص دامت قرابة ثمانية عشر قرنًا، بداية من القرن الأول قبل الميلاد وحتى القرن السابع عشر بعد الميلاد.

وعندما استوطن شعب إسرائيل في المنطقة التي نسميها فلسطين، وخرج من حالة شعب مرتحل كان ذلك أحد الأسباب الرئيسية للانقسام بين الطوائف المختلفة، وقد زادت حدة الصراع عندما تعلق الأمر بالدفاع عن النفس ضد ضغط التكيف مع الحضارة اليونانية الذي زاد بفعل الجذب الذي كانت تمارسه ثقافة عُلْيَا، ويدعمها سياسيًّا حكام المنطقة، وقد تميز في هذا الدفاع العنيد لليهودية ضد التكيف مع الحضارة الهيلينية "الأنقياء" أو من يدعون Hasidim، الذين أصبحوا مرادفين لحراس نقاء العقيدة، واستلهموا فيما بعد حركات أخرى للدفاع عن الالتزام الديني. وقد تجسد الصراع فيما بعد من خلال الفصيلين الرئيسيين اللذين نجدهما في الحقبة المسيحية في دولة يهوذا الأساسية: الفريسيين، والصدوقيين، وتعتبر المصادر التاريخية شحيحة، وغير واضحة في هذا الخصوص وقد كانت أسباب الانقسام بين الفريقين كثيرة، حتى على الصعيد الفلسفي-

---

[1] دين منتشر في الصين أسسه الملك تاو – تك (المترجم)

[2] دين منتشر في اليابان يقوم على تأليه قوى الطبيعة، وأرواح الأجداد، ومن قاموا بأعمال بطولية (المترجم)

اللاهوتي، لدرجة أنه من الصعب تحديد أيهما كان أكثر صرامة فيما يتعلق بالعقيدة والمذهب وقد نسب عموماً إلى الفريسيين وصف المدافعين الأكثر عناداً عن الحقائق المطلقة (الدوجما)، ووصف الإخلاص لتراث النقاء[1].

إن دفاعًا عنيدًا عن الالتزام الديني يؤدى إلى صرامة متزايدة في ممارسة الشعائر، ويمكن أن يسهم في تكوين صورة للفريسيين بوصفهم شكليين بصورة مفرطة، لدرجة أن اللفظ يصبح بالنسبة إلينا مرادفا لكلمة "منافقون" (وقد سماهم يسوع "المدافن البيضاء"، أما الصدوقيون "الأتقياء" فهم على العكس؛ ربما كانوا يميلون أكثر إلى تكييف التعاليم مع الحاجات السياسية والاقتصادية، ومن ثم كانوا أكثر انفتاحًا على مؤثرات الحضارة الإفريقية.

وهنا يلح علينا إبراز تردد مثل هذا التناقض الجدلي في التاريخ اليهودي- صرامة-- مرونة، وعند تفسير النص المقدس. ونجد ذلك في حقبة حديثة في انقسام الشتات في الجذعين الكبيرين السفرديم، والأشكيناز.

ويعطينا اسمهما فكرة عن عقليتهما المختلفتين، إذ إن الاسم مشتق من أصولهما الجغرافية (سيفاراد هو اللفظ العبري لإسبانيا وأشيناز هو الاسم العبري لألمانيا)[2].

فقد تأثر السفرديم بالعوامل الثقافية بالأندلس، وظلوا دائمًا يميلون إلى استيعاب واستقبال التقاليد المحلية، ومنفتحين على الاتصال والتواصل مع غيرهم، فقد كان اليهود الذين كانوا نشطين حتى حقبة قريبة على طول سواحل إفريقيا، والشرق الأوسط، من المغرب وحتى اليمن، منحدرين من أولئك الذين طردهم حكام شبه جزيرة أيبريا (الأندلس) الكاثوليك بداية من ١٤٩٢ بعد استرداد إسبانيا من العرب، وقد تم اعتبارهم ممثلين ليهودية أكثر وضوحًا، وتواصلاً مع الآخرين، عاشت في الحماس وفي سعادة، أكثر من عيشها في دفاع ظليل عن التوراة وفي التزام صارم بالتعاليم والمحرمات.

أما الأشكيناز فليسوا كذلك، بل غمسوا في التقشف والصرامة والإحساس التراجيدي، فقد انغلقوا في أحيائهم الأصلية، وقراهم التي تميزهم بوسط أوربا، وشرق أوربا، ومن ثمَّ أعلنوا أنهم منابع نقاء العقيدة الحقيقيين، وحراس التراث التوراتي، والتطبيق الصحيح للشريعة في هذه البيئة الضبابية، المصبوغة بمطاردة الساحرات، مهد ثقافة جديدة، ثقافة يهود ألمانياYiddish، التي أفرزت أول حركة حقيقية للتزمت في التاريخ، في النصف

---

[1] كلمة "فريسيون" قد تعني "المنعزلون" Perushim، أو حسب بحث حديث Parosim من يحددون الطريق الصحيح، ويرى البعض أن التراث النقائى Hasidica وَجَدَ مُكَمِّلِيْنَ له في فرقة ثالثة هي Esseni والتي يعد اسمها تحريفًا يونانيًّا لكلمة Hasidim

[2] إن أسلوب الحياة المختلف، والمناخ الروحي لكلا الجماعتين أوضحه ببراعة أبراهام ب. يهوشوا في روايته "رحلة في نهاية الألفية"، أيناودي ، تورينو ١٩٩٨

الثاني من القرن الثامن عشر، ومنذ موعظة إسرائيل بن أليعازر، الذي أطلق عليه أتباعه (معلم الاسم الطيب) Ba'al shem Tov (حتى وإن لم تعد هذه الكلمة مستخدمة) وهذه الحركة تعد بمثابة بعث جديد لاسم Hasidim. وقد ولدت حركة النقاء في القرن الثامن عشر في الأصل كحركة ضد التيار، في جدل مع شكلية الصفوة للحاخامات التقليديين، الذين كانت تعارضهم موعظة "صفائيو العقيدة اليهودية" وهم معلمون متجولون نصف أنبياء، ونصف صانعي معجزات، غير أن الأمر لم يكن متعلقاً باعتراض ثوري بالمعنى الحقيقي، يهدف إلى تجديد روحي واجتماعي، كما كان ذلك في المجال المسيحي، من جانب الإخوة الرهبان فراتيتشيللي Fraticelli " وحتى لوثر. ولكنها كانت تلتفت إلى الوراء، إلى عصر الأسطورة في التراث التوراتي، وإلى ميراث الفريسيين، وأيضًا أبعد من ذلك في الزمن، إلى إرث "الأتقياء" أي أولئك الذين دافعوا عن اليهودية ضد الصبغ بالصبغة اليونانية، التي وسعت آفاقها، ومن خلال ترجمة التوراة إلى اليونانية نشرت العقيدة اليهودية خارج الحدود الإقليمية الضيقة. وقد كان مارتن بوبر، وهو أحد المفكرين اليهود الكبار في عصرنا، مجذوبًا بفعل النقائية، وقد قاده ذلك إلى الاهتمام بالعالم الغربي، ويمكن أن يعتبر بوبر المنظر الرئيسي للتسامح في المعسكر العبري، فقد وضع الحوار أساسًا لفلسفته اللاهوتية، وقسم العالم إلى شكلين رئيسيين بينهما صلة: الـ "أنا-أنت"، تلك الفلسفة التي تقوم على الانفتاح، والتواصل، والانسجام وصيغة الـ "أنا- هو" العلاقة التي تعامل الآخر بوصفه شيئًا بعيدًا ومجردًا من الإحساس.

إن ما جذبه إلى الحركة الحاصيدية (النقائية) كانت عناصر ومكونات التواضع، والتلقائية، والحماس الفطري للبحث عن الرب، وممارسة هؤلاء "الأوفياء بالعهد" وتقديسهم لكل لحظة في الحياة. لا أعتقد أنه يعجبه العنوان الأصولي الصارم الذي ألصق به في العقود الأخيرة بدءًا من إعادة تجسيد "الأنقياء" Hasidim، التي أشرنا إليها في بداية الفصل.

غير أننا سنواصل الخط الزمني. فقد وصلنا إلى القرن التاسع عشر، والتقدم يقفز، وشيئًا فشيئًا، دخلت أوربا حتى بجزئها الشرقي الأكثر تخلفاً (أوربا حصان الجر في مقابل أوربا ذات حصان البخار) بقوة في العصر الحديث وقد أصبح ضغط ما هو جديد ليس فقط أقوى، ولكن كان مختلفاً على مستوى الكيف بالنسبة إلى الماضي.

فاليهود الذين تعين عليهم منذ آلاف السنين إبداء صلابة في العقيدة في مواجهة عداء، وعدم فهم الشعوب الأخرى، وجدوا أنفسهم الآن في نفس قارب الديانات الأخرى الكبيرة، مضطرين إلى مواجهة التحدي الفلسفي الذي تمثله الحداثة والافتتان بالعلوم الطبيعية العلمانية ضد الإحساس الإلهي نفسه. وقد حدث داخل السياق اليهودي نفس الصدع الذين رأيناه داخل الهندوسية، والذي سنبحثه بشكل أفضل عندما نتناول المسيحية،

والإسلام: الانقسام بين دينيين وعلمانيين، بين ملتزمين بشريعة الله، وملتزمين بشريعة البشر.

ولكن بالنسبة إلى اليهود فقد ترتب على هذا التحدي الكبير تحدٍّ ثانٍ يتعلق فقط باليهودية، وهو ذو طبيعة سياسية بالدرجة الأولى: الفرصة التي أتيحت لليهود للمرة الأولى للاندماج داخل الدولة التي تستضيفهم كمواطنين بالمعنى الكامل.

علمانية وخصوصية يهودية

إن التهديد الذي تمثله العلمانية يكتسب في هذه الحالة تعقيدًا إضافيًّا وخاصًّا جدًّا. فتطبيع وضع اليهود واعتبارهم أخيرًا كسائر الآخرين وهو نتيجة منطقية، وطبيعية للتطورات الجديدة، يبدو في عيون الصفائيين أكبر فخ قد يؤدى إلى فقد خصوصية الشعب اليهودي، تلك الخصوصية التي تم الدفاع عنها بغيرة شديدة عبر آلاف السنين. إن التحرير الذي وعدت به قوانين نابليون التي تنوى إدخال القيم الليبرالية والتحريرية لعصر التنوير والثورة الفرنسية إلى أوربا كلها، تتعلق في الواقع بكل يهودي بوصفه مواطنًا فردًا، ولا تمثل حماية لليهود في مجموعهم. وسيصبح ذلك، كما سنرى لاحقًا، مشكلة ذات طابع عام تحدث لأي أقلية أخرى، والمخاطرة هي أن التركيز على حقوق الإنسان كفرد يتطور على حساب حقوق مجموعة لها خصوصيتها.

ويوجد عدد كبير من اليهود المحافظين وليسوا دائما ملتزمين دينيًّا يميلون-وهم منجذبون بفعل الفرص التي يتيحها مناخ التسامح الجديد والانفتاح تجاههم- إلى تجنب التمادي إلى العمق حول هذا الملمح، فهم يؤكدون على ما يبدو أن اليهودية لا تزال، كما حدث عبر القرون، قادرة على استيعاب القيم الجديدة للمجتمع الحديث دون أن تفقد أصالتها أو يتم تشويهها؛ ألم يجسد الفيلسوف اليهودي مايموندس- أرسطو في مجموعته حول النظم القضائية؟ ألم يحقق التلمود بسهولة المصالحة بين التقليد والتجديد، بين سلطة الوحي والتعددية؟

ولكن الصفوة الأكثر حفاظًا على التقاليد وتلاميذ المدارس الدينية وطلبة الفكر الصوفي اليهوديKabbalah، والحكماء الكبارGodol، والمعلمون في البلاطات الحصيدية (النقائية) لا يفكرون في الأمر بنفس الطريقة.

فهؤلاء الغيورون حماة الالتزام كانوا يصوبون سهامهم على قاعدة المعتدلين، ويهاجمون استعدادهم لقبول تسويات خطيرة حتى وإن كان بهدف تحقيق خلاص الشعب اليهودي من التمييز وعقدة النقص. وهذا التيار يرى أن إيمان أولئك المعتدلين فاتر،

وأنهم مؤمنون على سبيل المجاز، أما المتشددون أكثر الذين سيُنعتون بـالمتزمتين فقد تعدى رفضهم المجال السياسي- القضائي، وهاجموا مباشرة كل محاولة من جانب اليهود لإجراء إصلاح داخلي وإدخال رؤيتهم للتنوير Haskalah، في عالمهم المنغلق والذي عفا عليه الزمن. إن أكبر ممثل للتيار المتزمت هو هاتام سوفر H. Sofer، الذي كان يمارس تأثيرًا كبيرًا من مركز عمله بمدينة برسبرج على كل يهود الشتات، وقد هاجم دون هوادة ميلاد مبادرات نابليون الإصلاحية، وأدان أي فكرة للتجديد بقوله: "كل جديد مضلل، وتحظره التوراة" الذي كان له شعارًا، وكان يعتبر المطلب الإصلاحي لبعض الأوساط اليهودية بمثابة أزمة في الشعور الديني، والظاهرة التي لم يسبق لها مثيل "للوالد التقي لله، والشغوف بالتلمود، بينما الابن ينتهك حرمة يوم السبت".

وغداة الحرب العالمية الأولى، أي بعد ذلك بقرن، واصل مثقف عبري مشهور هو ناتان بيرنبوم إدانته بحماس متجدد؛ لقد أفرزت حركة التنوير اليهودية مجموعة من اليهود "بالاسم فقط" بحكم مولدهم، وهم في الواقع غير ملتزمين. وَوُلِدَ تعبير لاقى حظًا كبيرًا، وسنجده بعد ذلك لدى مفكرين إسلاميين: هو الحارديم، أي المؤمن الحقيقي، هو في الحقيقة "في غربة وعزلة بين اليهود"[1]

وبغض النظر عن أي ضغط راديكالي، فإنه كان يبدو واضحًا إلى حد ما أنه بالنسبة لليهود، فكون اليهودي علمانيًا فلا يمكن أن يكون له نفس المعنى الموجود في سياقات أخرى اجتماعية وثقافية، وأن المفهوم الرئيسي للخصوصية العبرية لا يمكن تجاهله أو أخذه بسطحية.

ولم يكن من السهل أيضًا بالنسبة لمن يتنكرون للقيم أن يصالحوا بين العلمانية والعبرانية فقد رأينا أن عرقية اليهود لم تكن كسائر العرقيات الأخرى، فقد كانت "عرقية انتقائية" تدور حول الكتاب المقدس والشريعة. فلو كان اليهود قد أصبحوا أعضاء أقلية عادية كأقلية الباسك على سبيل المثال، فإن خصوصيتهم قد تكون قد وصلت إلى لا شيء يزيد على مفهوم ثقافي بسيط محكوم عليه عاجلاً أو آجلاً بالضعف والتلوث، الأمر الذي سيؤدي إلى فقد الهوية، وهو الأمر الذي يخشاه اليهود؛ إن العلمانية جعلتهم "أميين" بمرور الوقت.

[1] جابرييل ألموند، ر. سكوت أبلباي، إيمانويل سيفان: الدين القوي Strong religion، طبعة جامعة شيكاغو، ٢٠٠٣، ص٢٣

الصهيونية

إذا لم نضع في اعتبارنا هذا المسار في التفكير، فلن يكون بوسعنا أن نلم بخصوصية الحدث غير العادي في التاريخ اليهودي الحديث ألا وهو الصهيونية، فالانقسامات والجدل الذي أثارته الصهيونية يمكن تفسيرها في جزء كبير منها على ضوء الجدل حول العلمانية، فمن وجهة النظر العلمانية ليس للحدث أثر غير عادي، ففي القرن التاسع عشر الذي سيطر فيه الحماس القومي كان من الطبيعي جدًّا أن يطمع الشعب اليهودي في أن يكون له وطن خاص به بأرض وحكومة وعلم.

وعندما بدأت الفكرة في التبلور من خلال مشروعات سياسية ملموسة، ودعا تيودر هرتزل إلى أول اجتماع لما سماه الحركة الصهيونية في بازل عام ١٨٩٧ مسترجعًا بعض الاستشهادات التوراتية[1]، لم تلق هذه الفكرة قبولاً فقط لدى أوساط الشتات المختلفة، ولكن أيضًا لدى التمثيل الدبلوماسي لبعض القوى الكبرى لدرجة أنه في النهاية تحقق حلم اليهود في العودة إلى أرضهم الأصلية وهو ما كان يبدو مستحيلاً. إن الأمر يتعلق إذن بمشروع علماني تحقق دون إهمال قواعد السياسة الواقعية الذهبية. إن القوميين اليهود الذين أسهموا أكثر في تحقيقه، ووضعوا بعد ذلك قواعد دولة إسرائيل الجديدة لا يختلفون كثيرًا عن القوميين في بلاد أخرى، فقد كانوا يريدون دولة تقف على قدم المساواة مع الدول الأخرى المتقدمة، أي دولة حرة، وديمقراطية، ومتقدمة حضاريًّا واقتصاديًّا، وقادرة على أن تدخل بقوة في المجتمع الدولي[2]. ولكن الحدث رآه دعاة التزمت اليهودي -وليسوا جميعهم متطرفين بالضرورة- بطرق مختلفة تمامًا، ولا يمكن القول إن رؤيتهم تفتقد للمنطق والصدق، فالحدث بالنسبة إلى أولئك الذين يتعلقون بقوة بالتقاليد الدينية لم يكن له صلة بالسياسة الواقعية. فبالنسبة لكثيرين منهم، العودة إلى أرض الميعاد لا يجب أن تكون إلا معجزةً، وإحياءً لماضٍ أسطوريٍّ ومجيد، وبدايةً لمرحلة جديدة لخطط الرب، ولا يجب إدارة هذا الحدث إلا بنفس الطريقة التي يدار بها أي تطور في السياسة الدولية.

وبالنسبة لقلة من الصفائيين والمتزمتين فإن نهاية النفي السياسي من خلال عملية سياسية كانت تعتبر تدنيسًا لما هو مقدس، بسبب نفس الاعتبارات التي يعارضون لأجلها أي شكل من أشكال العلمانية. فعلى مدى قرون وقرون كانت القوة الكبرى الموحِّدة للأمة اليهودية قوة "ما وراء المكان وما وراء الزمان". فإن حالة المواطنين العاديين لدولة

---

[1] جلست عند مياه بابل أبكي ذكرى صهيون (المزمور ١٣٧، ١)

[2] في مرحلة أولى من سياسة هتلر ضد اليهود، والتي كان يبدو فيها أن حل مشكلة "تطهير" الرايخ من العنصر اليهودي تتجه نحو النفي، حدث بعض التلاقي في المصالح بين مسئولين صهاينة ومسئولين نازيين (انظر آنا أرنت، أيخمان في أورشليم A. Arendt Eichmann in Jerusalem ترجمة إيطالية: تفاهة الشر، فلترينيللي، ميلانو ٢٠٠١

حقيقية تشبه حالة مواطنين اخرين كثيرين، ستضعف الشحنة الروحية والتبشيرية لتراث الأنبياء، والتي سمحت لشعب صغير أن يبقى لالاف السنين كما هو، وأن يترك بصمته في تاريخ العالم فماذا يكون حال الجماعة اليهودية بكاملها عندما تدخل في إطار قضائي ودستوري طبيعي خاص بها؟

فقد كان يرى أولئك أن الحالة اليهودية لم تكن مثل تلك الحالات التي يمكن أن يطرأ عليها التعديل من خلال شراك الدبلوماسية: السلاح والمال. فقد كان يمكن الخروج من النفي فقط بالخلاص[1]: المسيح فقط كان بوسعه إعادة إنشاء مملكة داود.

فقد انقسم الشعب اليهودي بسبب محنة الاضطهاد النازي إلى جزأين: جزء بقي في الشتات وجزء عاد إلى الأرض الموعودة، وقد أصبح الآن لهذا الشعب تميزه وتمحوره حول هذه الملامح السياسية والأيديولوجية التي تغمرها شحنة عاطفية قوية تتكون من قناعات ومواقف تتأرجح بين مناهضة التدين والإفراط في التدين.

الروح المزدوجة لدولة إسرائيل

لا يبدو غريبًا في هذا الإطار الأيديولوجي والانفعالي أن تعلن الدولة العبرية أنها علمانية وشريكة لمجتمع غربي علماني ومادي جدًا، ومن الجانب الآخر لا تنجح في إخفاء ملامح الدولة الثيوقراطية ودستورها التوراة. وما يدهش أكثر أنه وُلدت دولة حقيقية من المجتمع اليهودي المنتشر عبر العالم، وأن هذه الدولة تؤدي وظائفها ككل دول العالم.

فإن المشكلات، والصراعات، والأزمات التي تواجه دولة إسرائيل -صراع الطوائف، عدم استقرار الحدود، عقدة الحصار- تصبح أكثر استيعابًا عندما نضع في الاعتبار إلى أي نقطة يستمر الدين ومعدل اللاتسامح العالي في ممارسة تأثيرهما على الحياة في الدولة العبرية.

ففي بلاد أخرى كثيرة، وأيضًا عندنا في إيطاليا يمكن أن يؤدى الجدل حول موضوعات سياسية كبيرة بها خيارات أخلاقية إلى جدل ذي طبيعة دينية، بيد أنه في إسرائيل -وهو مالا يختلف عما يحدث في البلاد الإسلامية- يحتل الدين المكان المركزي والرئيسي ويؤثر على تناول المشكلات السياسية والاقتصادية، حتى وإن تعلق الأمر غالبًا بذلك التدين الذي يسميه علماء الاجتماع "تدين ثقافي" أي شكلي تمامًا بدرجة

[1] في تفسير الصفائيين المتزمتين كلمة نفي " Galut" ليست فقط حدثًا تاريخيًا كبيرًا، ولكن مفهوم ديني أساسي: فالنفى هو عقاب إلهي بسبب مخالفة العهد مع الله.

التزام معقولة وليست مرتفعة. إن ما قمنا باستعراضه حتى هنا ليس مجرد عرض دقيق ومثقف، ولكنه يساعدنا على أن نفهم أفضل الاتجاهات العميقة واللاتسامح لدى دولة ورثت روح اليهودية المزدوجة، الروح التقليدية المحافظة، والروح الإصلاحية، تلك الروح التي لا تستطيع الخروج من تلك الازدواجية، والفصل بين سلطة التوراة، وسلطة الدولة[1].

وبعد نصف قرن من قيام دولة إسرائيل، ما زال عدد من المتخصصين البارزين في علم السياسة يقسمون إسرائيل من الداخل إلى معسكرين لا يمثلان فقط اتجاهين سياسيين مختلفين أو ثقافتين مختلفتين، بل يمثلان رؤيتين متعارضتين للعالم.

ففى الفترة الأولى، وهي مرحلة الطوارئ القصوى التي كان يلوح فيها التهديد الخارجي، كان يبدو طبيعيًّا أن تنتهي المناقشات السياسية داخل وخارج البرلمان بجدل كبير حول طبيعة الأمة اليهودية الوليدة: "ما معنى أن تكون عبريًّا؟" هذا لم يكن سؤالاً عبثيًا، ومطروحًا للفلاسفة، ولكنها مشكلة واقعية تؤكد الشعور بأن مفاهيم الأمة، والأرض، والدستور، والديمقراطية بالنسبة إلى إسرائيل أكثر من الدول المتطورة الأخرى، ليس لها نفس المعنى لكل المواطنين.

وعلى الرغم من مضي ما يزيد على نصف قرن، ومع كل التغييرات التي حدثت في العالم وفي منطقة الشرق الأوسط، فإن النتائج العميقة تظل كما هي نفس النتائج: ما معنى "دولة اليهود؟ هل لا تزال دولة ملاذ ومأوى لليهود المضطهدين؟ وهل هي دولة يتم فيها ممارسة القيم اليهودية بدقة والإعلاء من شأنها؟ وما القيم الدينية أو الثقافية؟ وداخل أي حدود تكون؟"

الصقور والحمائم في "أرض الميعاد"

على عكس أي جهد للتطبيع فإن تفرد هذه الأمة ما زال يؤثر بقوة على كل مظاهر الحياة، فالجنسية بالنسبة إلى شعوب العالم الأخرى مرتبطة بقوة بالأرض، وبذاكرة الأماكن، والكفاح بالنسبة إليهم له معنى لأنه يتعلق بالاستقلال الوطني، في الماضي، وفي الحاضر، أي طرد الغزاة الأجانب.

---

[1] انظر من بين الكتابات الكثيرة حول هذا الموضوع، نوح ج. إفرون Noah J. Efron اليهود الحقيقيون، العلمانيون أو الأصوليون والصراع من أجل الهوية اليهودية في إسرائيل Real Jews,secular vs Ultra-ortodox and the struggle for Jewish Identity in Israel, Basic Books، نيويورك ٢٠٠٣

أما جنسية اليهود فهي على العكس؛ ولدت قبل الأرض وبدون الأرض. فمن خلال الهجرة الكبيرة نحو فلسطين، كان يتم استعادة الأرض القديمة التي كانوا فيها منذ قرون وقرون بثمن باهظ، ثم فقدوها بعد ذلك، ثم استعادتها مرة أخرى ولكن بطرد آخرين كانوا يعتبرونها أرضهم، والآن يمثل شعب إسرائيل صورة الدخيل والغازي، فقد كانت النزاعات الإقليمية لدول أخرى تقود إلى معاهدات، وإلى سوابق تاريخية محددة، حتى وإن كانت متعارضة، ولكن بالنسبة لإسرائيل كيف يمكن تحديد الامتداد "الصحيح"، والحدود "الحقيقية"؟

فالعودة إلى أرض الآباء كانت بالنسبة لمن وصلوا حديثًا من دول مختلفة، هربًا وحماية من الشر وأمنًا لم يتمتعوا به من قبل، وخلاصًا من فترة تمييز، واضطهاد طويلة، أما الأكثرية، وبخاصة أولئك الذين نجوا من الهولوكوست، واضطروا إلى ترك ديارهم التي ولدوا فيها، فكانوا يرون في العودة –وكان ذلك منطقيًا– فرصة لبناء مجتمع جديد دون أن يشعروا بحاجتهم إلى التسامح، ودون أن يشعروا بأنهم في منازل آخرين وغرباء. إن العودة إلى أرض الميعاد تمثل في نظر المؤمنين المتحمسين حدثًا لا يمكن اختزاله في مجرد عملية سياسية للحصول على "مجتمع عبري"؛ إنه حدث له معنى تبشيري سامٍ، وهو يتعلق بتحول كبير أثَّرَ على مسار التاريخ ومجراه في أعقاب هدم هيكل أورشليم. إن الهجرة إلى فلسطين –على العكس– لها صلة وثيقة دون شك بإرادة الله، وتكذب وتدحض بعد ألفى سنة اللعنة التي ينسبها التراث المسيحي لقتل الرب المزعوم، وإذا كانت العودة إذن من صنع الله، وليس من صنع سياسة بشر، فإن الأرض التي تم استعادتها والتي كانت مقدسة دائمًا يجب أن يتم تقديسها للمرة الثانية، ولا يجب أن تكون فقط معبدًا ضد أي تمرد محتمل، بل يجب أن تكون نقطة البقاء لكل التراث الروحي للأنبياء، وأرضًا للتطبيق الفعلي للقيم اليهودية الحقيقية.

وها هو يطل من جديد النزاع الدائم بين المثاليين والنفعيين، بين المتدينين والعلمانيين ذلك النزاع الذي يرقد تحت الرماد ويظهر على السطح بمجرد أن تحدث بعض الأزمات الكبيرة.

تقديس الأرض

كانت " حرب الأيام الست " عام ١٩٦٧ هي أكبر العناصر الكاشفة، فقد فتح الانتصار الخاطف للقوات الإسرائيلية على القوات العربية المحيطة بها والتي تفوقها عددًا، الباب في كلا المعسكرين لتفسيرات من منطلق ديني تتناقض فيما بينها بوضوح. ولكن هذه التفسيرات قَوَّت الأفكار الأصولية التي تتصل بها. فقد اعتبر المتطرفون في

الجانب العربي الهزيمة المروعة وما أفرزته من انقسام في صف الأمة بمثابة اية على غضب الله على فساد وضلال الحكومات الموجودة بالسلطة، واستطاع أولئك المتطرفون استغلال السخط الشعبي بمهارة، لدرجة أن عام ١٩٦٧ يعتبر بصفة عامة تاريخ بعث الأصولية الإسلامية.

أما الأثر النفسي لهذا الانتصار في المعسكر الإسرائيلي فلم يكن أقل، وإن بدا بشكل مختلف، فقد غَيَّرَ هذا الانتصار بعمقٍ مفهوم الدولة وصورة اليهودي الذي كان ضحية دائمًا وكان المتزمتون هم من اغتنموا فرصة هذا الزخم الجديد، وراحوا يؤكدون أن الكافرين فقط هم من يشككون في تدخل الرب الذي ساعد "شعبه" كما حدث مرات كثيرة في التاريخ. فقد أحبط الخطة التدميرية الشيطانية للمنحدرين من "عيسو" الذين كانوا أكثر عددًا، وكانوا أصحاب تراث حربي طويل.

ومع وصول مهاجرين جدد من الولايات المتحدة، وروسيا إلى إسرائيل، حدث تغيير في صفوف متطرفي اليمين في اتجاه مزيد من اللاتسامح، وفي اتجاه سياسة القوة في مواجهة العرب، ورثه الأماكيليون Amacheliti الذين قاتلوا يوشع Giosue، والذين يعد الحوار معهم غير مُجْدٍ.

وفى الوقت الذي كان يتعاظم فيه باستمرار هذا الذراع الحديدي المتشدد، رفع معسكر المعتدلين صوته، وهم كانوا يمثلون جزءًا من الأوساط الدينية حتى وإن كانوا في غالبهم علمانيين، ومن حزب العمل فقد رأوا أن النجاحات العسكرية لا يمكن أن تكفى وحدها لحل مشكلة التعايش مع الجيران، التي لا يجب حلها بالقوة، بل بالمفاوضات، دون إغفال المعنى الأخلاقي الذي تمثله تجربة الإبادة النازية، والدوافع التي يمكن أن تؤدي إلى سياسة الهيمنة التي ترتكز على الاستعلاء، ويؤكد هؤلاء المعتدلون أن "دور القوة الإقليمية لن يفيدنا، وأفضل ضمانة للأمن لا تكمن في التفوق في امتلاك الأسلحة، بل في تقليل النزاعات من خلال بناء الثقة المتبادلة".

وكان المعتدلون يتهمون المتطرفين بالرغبة في العودة إلى العصور القبلية، وكانوا دائمًا ما يستشهدون بآية سفر الخروج (٢٣، ٩): " ولا تضايق الغريب فإنكم تعرفون نفس الغريب لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر". ولكنها كانت صرخة في صحراء، حيث كان المتحمسون الجدد يكسبون أرضًا بصعوبة، ويفلحون في استقطاب عدد من المحافظين الذين كانوا يتأثرون بهذا النوع من الأحاديث المثالية- النبوية.

إن إعادة صياغة أسطورة أرض إسرائيل، التي أصبحت ممكنة بفضل النجاح العسكري، وإعادة السيطرة على القدس، وحائط المبكى، وسامراء، ويهوذا، لا يمكن أن تعتبر مرحلة تؤدي إلى التباحث على مائدة المفاوضات بوساطة قوى صديقة، فإذا كان

فتح هذه الأرض عملاً للرب، فإن من الضلال إعادة إحصاءها للنقاش. وإن أي تنازل أو حتى أي حوار بسيط بشأن الأراضي التي استولت عليها إسرائيل بشكل إعجازي بعد أن أنهت المحرقة عقاب الرب بالنفي، يعتبر بمثابة تشكيك في الخطة الإلهية لـ"يهوه"، الذي قال لإبراهيم: "كل الأرض التي ترى سأعطيها لك ولنسلك إلى الأبد"- (سفر التكوين ١٣- ١٥).

ويلوح المتطرفون كذلك بالاستشهاد التوراتي الذي تبناه المتطرفون اليهود بعصابة شتيرن شعارًا لهم إبان الصراع ضد الاحتلال البريطاني لفلسطين، ثم بعدهم تبنته عصابة إرجون بزعامة مناحم بيجن، ذلك الاستشهاد والذي يقول: "عندما يقودك ربك إلى الأرض التي تذهب لتمتلكها ويطرد منها سبع أمم أكثر وأعظم منك، إذن ستدمرهم جميعًا، فلا تقطع لهم عهدًا، ولا تأخذك بهم أي شفقة"، (سفر التثنية ٧: ١، ٢).

الحارديم

يمكن القول كذلك إن ميلاد التيار الأصولي لليمين المتطرف الإسرائيلي كان في ٤ أبريل ١٩٦٨، ففي هذا اليوم، وبعد عام من الانتصار، وعشية عيد القيامة اليهودي، أسس الحاخام موشيه ليفنجر -على رأس عشر عائلات تتكون في مجملها من قرابة ستين شخصًا- بالقوة أول مستوطنة في الخليل، وهي مدينة مقدسة عند اليهود، وهي المكان الذي حصل فيه الخليل إبراهيم على أول جزء من أرض كنعان عندما اشترى مدفنًا لزوجته سارة في إحدى المغارات، وقد كان ذلك حدثًا من أحداث التاريخ الكثيرة، التي تبدو ثانوية ولا معنى لها في الظاهر، ولكنها تثبت بعد ذلك قدرتها على تغيير مسار الأحداث، وتحديد مصير الأجيال. فعلى مدى ثلاثين عامًا تقريبًا تضخمت هذه النواة الصغيرة لدرجة أنها أصبحت تمثل في وقت من الأوقات مكونًا أساسيًّا لنظام الدافع الإقليمي عن الدولة، ومحفزًا للطاقات الروحية. ولم يكن المستوطنون الذين وصل عددهم إلى ما يزيد على مائتى ألف، متطرفين جميعًا إلا أنه لا يمكن أن نغفل نسبة لا يستهان بها منهم كانوا متطرفين يستلهمون مبادئهم من روح تبشيرية (وكانوا منظمين عسكريًّا، ولهم تمثيل مؤسسي، وهو مجلس الاستيطان، الذي لا يمكن أن تتجاهله أي قوة سياسية) وكان عدد أولئك يقارب العشرين ألفًا على الأقل. وهؤلاء هم أبناء التلاقي بين الصهيونية واليهودية المتزمتة الذين يجعلون من "لاهوت الأرض" عنصرًا أساسيًّا للإسراع بعملية إنقاذ النفس والهوية، وهو اتجاه مضاد للتراث اليهودي الذي ينسب إلى المشيئة الإلهية فقط طرق وأوقات الخلاص، فكثيرون منهم يؤمنون بشدة بأن الاستيلاء الكامل على أرض إسرائيل هو فقط الذي سيسمح بتوحيد الشعب بكامله تحت ظلال

التوراة، وهو شرط أساسي لوضع حد للنفي والعزلة الحقيقية، وهي عزلة الإنسان عن الرب، وتعيد تحقيق التناغم الأهلي للكون Tikkun، الذي انهار بسبب الكارثة الكونية التي أوجدت الشر. ومن الواضح أنه لا يمكن الشروع في برنامج جاد للتفاهم وتقديم تنازلات مع من يعتقد أن السيطرة الإقليمية على الأرض لم تكن أمرًا سياسيًّا عسكريًّا، بل حدثًا ذا طبيعة إلهية قدِّر له أن يحدد مصائر العالم.

وعلى أية حال فقد أصبحت المستوطنات واحدة من العقبات الرئيسية لقضية السلام في الشرق الأوسط، خصوصًا أنه بدايةً من مولدها اكتسبت مظاهرُ التطرف الديني ثقلاً سياسيًا متناميًا.

وكما سنرى، فإن طائفة الأقلية الشرسة من المتطرفين لا تتكون فقط من الذين يستلهمون وينهلون من تقاليد وتراث يهود ألمانيا وأوربا الشرقية. وقد أطلق على الكم الكبير من التجمعات السياسية المتشددة اسم "الحارديم" وهذا اللفظ التوراتي الذي يعني "ملتزمون بكلمة الرب" هو تعريف عام ينطوي تحته اتجاهات مختلفة تدعمها راديكالية دينية مناهضة للحداثة، متسلطة، ولا تقبل حلولاً وسطًا سواء أكان لها طابع لاهوتي أم طابع سياسي.

إن المجموعات المتطرفة الفاعلة بإسرائيل استطاعت بسهولة كبيرة أن تحتل موضعًا لها بفضل تفتت وتشرذم التكتل السياسي. ولقد أصبحت المساجلة المعتادة بين اليمين واليسار معقدة بسبب انقسامات أخرى قديمة خاصة بالسياق العبري، والتي أصبحت بمرور الوقت أخف حدة، وأكثر سلاسة، بَيْدَ أنها لم تنته تمامًا. والانقسامات التقليدية التي أثرت بقوة على التكتلات الانتخابية، مثل الانقسام بين العلمانيين والمتشددين، وبين الصهيونيين ومعارضي الصهيونيين، بين من وصل إسرائيل أولاً ومن وصلها بعد ذلك، وبين الأشكيناز والسفرديم، طرأ عليها تغيرات، وتعرضت لعمليات مزج بسبب هيمنة مجموعات عرقية لها خصوصيتها مثل المجموعات ذات الأصول العربية والروسية.

إن حاجة الحزبين الرئيسيين المتصارعين: الليكود، والعمل للّجوء إلى حكومات ائتلافية، أعطت في النهاية لبعض الأحزاب الراديكالية دور رمانة الميزان.

إن تركيبة هذه التكتلات السياسية – الدينية متنوعة ولكنها مقلقة، مع وجود مجموعات تنقسم، وتنفصل الواحدة عن الأخرى في مجموعات ثانوية كثيرة، تعقد تحالفات، وتشكل ائتلافات، وتغير اسمها أحيانًا، يجعل من الصعب جدًّا على المراقب الخارجي أن يحدد مساره ورأيه جيدًا في وسط هذا الخضم.

ويعبر الجزء الأكبر من المعسكر المتشدد عن راديكاليته بصور شرعية تتمثل في العملية الانتخابية، وحصل على قبول كاف أهلهُ لأن ينتظم في أحزاب فعلية وحقيقية[1].

وهناك تشكيلات أقل عددًا، وأقل تأثيرًا توجد خارج البرلمان، وتميل إلى العنف، بل مباشرة إلى وسائل إرهابية. إن الاتجاه العدواني يتضح جليًا في أسمائهم الحربية لدرجة يحسدهم عليها النازيون: فمن بين الحركات الدينية فوق البرلمانية ذات الخلفية القومية، تبرز حركة المستوطنين "جوش أومونيم" (كتلة المؤمنين) وهدفها هو تنظيم مقاومة المستوطنات في الأراضي المحتلة، وهناك مجموعات أخرى منحرفة ذات توجهات أكثر عنفًا مثل مجموعة "السفاحين" Sicari التي يعتبر اسمها بمثابة برنامج كامل[2]، ومجموعة EYAL "منظمة القتال اليهودية" ومعها جماعة تفرعت عنها هي "سيف داود".

وتعد حركة "كاخ" Kach "هكذا فقط" هي أهم هذه الحركات، ولها تاريخ جدير بالتأمل، فقد نشأت هذه الحركة في السبعينيات بمبادرة من أحد حاخامات بروكلين هو مائير كاهانا، وهو واحد من القلائل الذين انتقلوا إلى إسرائيل، حيث حاول أن يعطي حركته مكانة حزب سياسي، ودخل معترك الانتخابات رافعًا شعار طرد العرب من دولة إسرائيل، وحقق نجاحًا محدودًا، حتى استطاع دخول البرلمان عام ١٩٨٤، ولكن منذ ذلك الوقت شهد الحزب الصغير انشقاقات، وتطورًا في الاتجاه الراديكالي لدرجة أنه يمكن تصنيفه كجماعة متطرفة[3] وقد كان الجراح باروخ جولد شتاين Baruch Goldstein منضمًا لهذه الحركة، وقد أطلق النار في فبراير ١٩٩٤ وقتل تسعة وعشرين مسلمًا من المصلين في مسجد مدينة الخليل. وقد اعتبرت الحكومة الإسرائيلية فرق هذه الجماعة المتطرفة خارجة على القانون، غير أن المتعصبين وصفوا القاتل بأنه "ابن عظيم لإسرائيل"، وأصبح قبره مقصدًا لليهود، وتم بيع آلاف النسخ من كتاب حياته.

---

[1] من بينها وهو الأقدم أجودات إسرائيل Agudat Israel، الذي يعد أبًا للتيار الديني السياسي المحافظ في إسرائيل، ويعود إلى أيام الشتات. وقد التقى في إسرائيل مع الصهيونية، وبمرور الوقت خرج من تحت عباءته حزبان آخران: شاس الذي تأسس عام= = ١٩٨٣ إثر انفصال لأحد أجنحة السفرديم (واسمه يعني " حماة التوراة السفرديم "، وحزب "راية التوراة " Degel Hatora الذي تأسس عام ١٩٨٨ وهو حزب أشكيناز. وقد تحالف هذان الحزبان في حزب " يهودية التوراة الموحدة " Yahat Hatorah الذي حصل في انتخابات ٢٠٠٣ على خمسة مقاعد بالكنيست. وكان حزب شاس قد حصل في انتخابات ١٩٩٩ على تسعة عشر مقعدًا، تقلصت إلى أحد عشر في الانتخابات الأخيرة ولكنه يظل الحزب الخامس في إسرائيل، وفى صدارة الأحزاب الدينية.

[2] من بينها وهو الأقدم أجودات إسرائيل Agudat Israel، الذي يعد أبًا للتيار الديني السياسي المحافظ في إسرائيل، ويعود إلى أيام الشتات. وقد التقى في إسرائيل مع الصهيونية، وبمرور الوقت خرج من تحت عباءته حزبان آخران: شاس الذي تأسس عام ١٩٨٣ إثر انفصال لأحد أجنحة السفرديم (واسمه يعني " حماة التوراة السفرديم "، وحزب "راية التوراة " Degel Hatora الذي تأسس عام ١٩٨٨ وهو حزب أشكيناز. وقد تحالف هذان الحزبان في حزب " يهودية التوراة الموحدة " Yahat Hatorah الذي حصل في انتخابات ٢٠٠٣ على خمسة مقاعد بالكنيست. وكان حزب شاس قد حصل في انتخابات ١٩٩٩ على تسعة عشر مقعدًا، تقلصت إلى أحد عشر في الانتخابات الأخيرة ولكنه يظل الحزب الخامس في إسرائيل، وفى صدارة الأحزاب الدينية.

[3] بعد مقتل كاهانا على يد إسلامي مصري، انقسمت حركة كاخ إلى فصيلين وخرج منها تشكيل جديد هو "كاهان حي" Kahan Chai، الذي تولى قيادته بنيامين زيف كاهان ابن كاهانا والذي قتل هو الآخر بعد ذلك انظر: أنماط الإرهاب العالمي Patterns of global terrorism وثيقة ٢١٠ وزارة الخارجية، مايو ٢٠٠٢.

إن هذا العرض جاء موجزا بحكم الضرورة لا يمكن أن يغطي كل جوانب مشكلة معقدة ومتشعبة كهذه، بيد أنني أتمنى أن يكون كافيًا لإبراز نقطة غاية في الأهمية: إن هناك اتجاهات، ومواقف غير مفهومة لابن الثقافة الديمقراطية، والتكنوقراطية للقرن الحادي والعشرين، تكتسب موضوعية، ومنطقية غير متوقعة، إذا ما تم وضعها في إطار أيديولوجي مختلف وفي سياق ثقافي مختلف. وبنفس الطريقة نجد أيضًا بعض المجموعات التي تستلهم من التطبيق العملي للوعود الأصولية المتطرفة، وقد بدت أكثر قبولاً.

وإن تشابهها وتماثلها مع تصرفات وقناعات أصولية متطرفة لديانات أخرى أمر عادي تمامًا، بل وحتمي.

إن أول نتيجة فعلية هي أن التوراة بالنسبة إلى المتعصبين اليهود يجب أن تنظم كل مظاهر الحياة العامة والخاصة، مثلما يؤمن كثير من الإسلاميين بالنسبة للشريعة الإسلامية. فعلى الرغم من أن إسرائيل نظريًّا دولة ليبرالية ديمقراطية على الطراز الغربي، فإن مسألة الفصل بين الكنيسة والدولة التي تركناها وراء ظهورنا قطعيًّا لم يتم حلها بعد، فكثيرًا ما تكون السياسة، داخل الكنيست وخارجه، هي "سياسة ثيوقراطية" على حد قول عالم السياسة الأمريكي ن. ذوكر N. Zucher. ويرى غالبية المعتدلين - الذين أطلق عليهم بمهارة " المتحمسون السلبيون "- أن "الصواب لاهوتيًّا" أكثر أهمية من "الصواب سياسيًّا" فهم يُدينون -بالكلام أحيانًا- غلو المتزمتين، ولكنهم عند تصفية الحسابات يتسامحون ويتقاربون معهم، دون أن يحركوا ساكنًا لتقليل سيطرة المؤسسة الحاخامية على مظاهر حيوية متعددة في الحياة الاجتماعية كالزواج والجنائز، والتربية، وتعظيم يوم السبت، والأطعمة المباحة. ويستغل المتزمتون من اليمين دعم الحكومة للمؤسسات الدينية، ومع ذلك يهجر بعضهم احتفالات يوم الاستقلال، وما كان ذلك كله ليحدث لولا رضا الأغلبية الصامتة، وكما أشار كاتب إسرائيلي علماني بقوله: "إن الدولة هي التي تسمح للمتزمتين بتجاهل الدولة". لكن الأكثر ثراء بالتوابع العملية هو إدانة الحداثة الذي أشرنا إليه، والذي تولد عنه كل المظاهر الأخرى وفي أحضان هذا الرفض غير النظري والعاطفي فقط بل الرفض الملموس والشرس الذي يندفع نحو نتائج مغالى فيها، رفض لكل تقدم مادي من شأنه أن يغير الظروف الطبيعية للحياة الإنسانية، إذ تبرز بقوة الجذور المشتركة لكل الأصوليات المختلفة، ولخلفيتها المتعصبة. أما المتطرفون اليهود -شأنهم شأن الأصوليين المتطرفين والنصارى الأوائل ومن المسلمين- فيعتبرون العلمانية الفعالة منذ أربعة قرون بمثابة الخطيئة الأصلية، أو على الأقل بمثابة المحصلة المنطقية للخطيئة الأولى: زعم الإنسان أنه يستطيع الاستغناء عن

الله. فنتيجة لهذا الاختلال في التوازن بالانتقال من عالم أصله الرب، إلى عالم أصله الإنسان، تولدت كل شرور العصر الحديث، مثل المادية، والتكنوقراطية، واللاأخلاقية، وثقافة الاستهلاك، والأنانية، والداروينية الاجتماعية، والتفكك الأسرى.

ويرى "أنقياء" اليهودية أن "الحداثة" بالمعنى العلماني لعصر العلوم الإنسانية مساوية لكون اليهودي غير يهودي، وهذا يشبه تأكيد النصارى الأصوليين على أن المسيحية التي يتم ممارستها اليوم أصبحت خالية من المضمون الروحي، وكذلك يرى الإسلاميون من جانبهم أن هناك عودة إلى عصر الجاهلية الذي سبق نزول القرآن.

وهذا التوافق في الرؤى يجد تأكيدًا مدويًّا ومثيرًا للفضول في أنه في عصر الذرة والفضاء، نجد أن بعض العلماء الإسرائيليين المتشددين لا يترددن في تقليد مواقف الأصوليين البروتستانت في أمريكا، الذين تبنوا مواقف رافضة للثورة، ورافضة لإعلاء شأن العلم، فمثلاً الحاخام الذي -ربما دون أن يدرك- كرر نفس الموضوعات التي استخدمت في العقود الأولى من القرن ضد داروين في بعض الجامعات الأمريكية، مؤكدًا أن عمر الأرض بالضبط هو ٥٧.. سنة، وأن بقايا الهياكل العظمية التي يبدو وكأنها تؤكد العكس قد أظهرها الرب في طريقنا لاختبارنا.

ويرى بعض المتطرفين اليهود أن مقاومة جيتو وارسو للنازيين كانت محاولة علمانية لا معنى لها بداية من اللحظة (وواضح هنا الربط مع رؤية الأنبياء في حقبة النفي) التي تم فيها تفسير المحرقة والاضطهاد النازي كعقاب للشعب اليهودي بسبب ذنوبه، التي يعد أولها أن الشعب اليهودي قد أصبح علمانيًّا.

ونجد أن أوجه التشابه بين الأصوليات تزداد على صعيد ممارسة الشعائر التي تعد دفاعًا عن استمرار الطقوس المقدسة، واستمرار التقاليد، ويمكن أن نعتبرها مناهضة للحداثة، وكما رأينا فإن الاحترام الصارم للتقاليد الموروثة تكتسب في أعين الصفائيين الدينيين قيمة أساسية، ودليلاً على مدى الالتصاق بالشريعة، ويساعد على قياس صدق المؤمن وعلى مساعدته على أن يظل مؤمنًا كما هو، فيتفق اليهود والمسلمون والنصارى الملتزمون بالشعائر على أهمية وعدم الاستغناء عن الصلوات والصوم والحج والشعائر، وأعمال خير أخرى بما فيها استخدام لهجات وتعبيرات محددة تعود إلى السلف والأجداد، ويعتبرون ذلك بمثابة قنوات اتصالات مع الله، ودعامات للعقيدة في مواجهة ضعف الطبيعة البشرية.

من المؤكد أنه في بلد متقدم صناعيًّا، ومتطور فكريًّا كإسرائيل يكتسب الالتزام الدقيق بالطقوس التي يبلغ عمرها آلاف السنين مظاهر أكثر حدة مما يحدث في مجتمعات فقيرة ومتخلفة ببعض البلدان الإسلامية، أو في مجتمعات العالم الثالث والعالم

الرابع. إن القاعدة الأشد صرامة للمتزمتين الإسرائيليين، والتي يشاركهم فيها كذلك قاعدة عريضة من المعتدلين، هي راحة يوم السبت. ويمكن أن نجد مبالغات مفرطة بشأن هذه القاعدة في الرواية الإنجيلية، عندما اُتّهم يسوع بالضلال لأنه قطف بعض سنابل القمح يوم السبت، ففي المدن الإسرائيلية لا يجب أن تسير السيارات بدءًا من منتصف ليل الجمعة، حيث حدثت مواجهات في بعض أحياء تل أبيب، وعلى الشريان الحيوي بارا إيلان بالقدس بسبب استفزاز بعض النشطين الدينيين الذين كانوا يحاولون منع سائقي السيارات من المرور. وهناك كذلك حظر إيقاد النار يوم العطلة (راحة السبت) وهو حظر كان يراد له بالقياس أن يمتد ليشمل إضاءة مفاتيح الكهرباء من خلال اللجوء إلى عدة وسائل تقنية (مثل مفاتيح كهرباء بالوقت ومصاعد بالاستشعار إلخ).

فجهاز التلفاز محظور بالنسبة للحارديم بصور لا تقل عن السعودية أو أفغانستان طالبان، ويعتبر "وسيلة مدمرة وتبعث على الميوعة والتحلل".

ولكي يتم إيجاد حلول عملية وعبقرية لمشكلات من هذا النوع والتي نجمت عن المحرمات والمحظورات الدينية، يوجد في إسرائيل معهد لهذا الغرض[1]، ويوجد في إسرائيل، شأنها في ذلك شأن البلاد العربية ذات الحكم الأصولي "فرق لنشر الأخلاق" (وإن كانت غير مرخصة ولكن يتم التسامح معها). و هذه الفرق غير مسلحة، ولكنها لا تقل عن نظيراتها السعودية أو الإيرانية في الحماس لما هو مقدس وتدمير الإعلانات والرموز ذات الخلفية الجنسية. فقد هاجمت هذه الفرق في السبعينيات محلات "الجنس" في تل أبيب والقدس وأضرمت فيها النيران وحطمت كذلك أجهزة التليفزيون.

أما اليمين المتطرف فيعارض إقامة منشآت رياضية، وحمامات سباحة، ويعتبر أن تقديس الجسم الإنساني يخلق "أفكارًا شريرة" (ويرد على الذهن في هذا الشأن معارضة الكنيسة الكاثوليكية وخوفها من ممارسة الجنس بالحمامات).

ويلقى الزواج المختلط بأميين أو عرب مقاومة شديدة، وهناك إصرار على الفصل بين الأطفال اليهود والأطفال غير اليهود بالمدارس.

ويصل الأمر ببعض المتشددين إلى رفض الحديث بالعبرية ويستبدل بها اللهجة التي يتحدث بها يهود ألمانيا.

---

[1] على سبيل المثال، هناك أمر أثار جدلاً لسنوات طويلة، وهو إذا ما كان حظر التوراة لإزالة الشعر الزائد من على سطح الجلد بشفرة ينسحب أيضًا على استخدام ماكينة الحلاقة الكهربية أم لا. وقد تعين على سلطات الدفاع المدني في أثناء حرب الخليج أن يهتموا كذلك بلحية المتزمتين من خلال توفير أكثر من نصف مليون قناع واق من الغازات، هذه الأقنعة مزودة بدعامة خاصة، وحتى بعض الأجهزة الكهربية يتم تكييفها مع "أشكال نقاء اليهودية" من خلال حساسات تقوم بتشغيلها بمجرد إيقاف المشغل.

أما فيما يتعلق بالنظرة للمرأة، فهناك ثمة اختلاف مقارنة بالأصوليين الإسلاميين، فالنساء الحارديم يتم عزلهن في أماكن منفصلة عن الرجال (وقد توصلوا بعد مفاوضات طويلة مع الحكومة إلى تخصيص أتوبيسات للسيدات وأخرى للرجال في أحياء الحارديم)، غير أن نساء الحارديم مسموح لهن بالدراسة على خلاف نساء الأصوليين الإسلاميين، بيد أن النساء غالبًا يَتَمَتَّعْنَ بتسهيلات كبيرة في الانخراط في مجالات العلم، والتكنولوجيا، نظرًا لأن الشباب الذكور يحتقرون التقنية، ويتجهون بالأحرى نحو دراسة النصوص المقدسة بالمدارس الدينية (التي تدعمها الحكومة باستمرار) ليكونوا بذلك جماعة طالبان يهودية. وتشبه وسائل تجنيد الأتباع، وجمع الأموال من خلال الأنشطة الخيرية، والتربوية، والدراسة في عطلة نهاية الأسبوع، والمواعظ، والعروض، وإنشاء الأندية ورياض الأطفال، المنظومات التي رأيناها عند المتشددين الهندوس، والتي تمثل عنصر قوة كما سنرى، للمتشددين الإسلاميين في إيران، والجزائر على سبيل المثال. قد يطول بنا السرد، ولكن الأمثلة التي ذكرتها تكفي لإعطاء فكرة عن سبب تجاوز المظاهر الفجة للتزمت واللاتسامح للحدود العرقية والدينية، وميلها لاتخاذ أشكال تتناسب في الزمان والمكان مع طبيعتها ذاتها.

إن الدفعة الكبرى – إذا أردنا استخدام تعبير مشابه للمتعصبين أو للصفائيين أو الأصوليين، أيًّا كان الاسم الذي يطلق عليهم، وأيًّا كان الإله الذي يعبدونه، يهوه أو يسوع أو الله أو حتى شيفا Shiva أو خالي Khali، يجب البحث عنها لا في هذه العبارة أو تلك من الكتاب السماوي ولا في هذه الوصية أو تلك فقط، بل بنفس الدرجة نلتمسها في عزمهم على وقف الاتجاهات التطويرية التي يعتبرونها مدمرة لعالمهم المنغلق والجامد من اليقين المطلق، مهما كلفهم الثمن.

ويجدر هنا للفائدة تكرار أن اغتيال رئيس وزراء إسرائيل رابين في ٤ نوفمبر ١٩٩٥ بتل أبيب له أوجه شبه ليست سطحية مع قتل الهندي غاندي، والسادات بمصر، فلم يحدث الاغتيال في هذه الحالات الثلاث بِيَدِ "العدو" المتدين، بل بيد من ينتمي لنفس الديانة والذي أراد بعمله الإجرامي هذا تخريب مسودة حوار مع "الآخر": تم اغتيال رابين على يد طالب يهودي شاب وهو إيجال عامير، وهو طالب نشيط بجامعة باراسلان الدينية، وكان قد انضم إلى جماعة إيال Eyal المتطرفة، فلم يكن فعله فعلاً فرديًّا لمجنون، بل كان تنفيذًا لخطة محكمة كما أعلن هو أمام القضاة– وامتثالاً تامًّا للشريعة اليهودية التي تحث على "قتل العدو"، ومن ثَمَّ فهو عمل مشروع، فرابين كان خائنًا حسب تعليقات المتطرفين، ولذلك كان كل شعب إسرائيل يضغط على الزناد مع عامير.

إن أكثر ما يشد انتباه الرأى العام العالمى نحو المحرك لكل موجات التعصب الديني هي التصريحات الباردة لقاتل رابين بعد القبض عليه حيث قال: "أمرنى الله بذلك، ولست نادمًا".

وحدث بعد ذلك بأيام تفجير بالديناميت بالسعودية أسفر عن مقتل خمسة مستـــشارين أمريكيين وقد كتب صاحب عامود أمريكى شهير: إن هؤلاء القتلة كان لهم نفس الهدف: "كانوا يريدون قتل المستقبل".

الفصل السابع

الاستبداد باسم المسيح

بفضل تضحية المسيح على الصليب، انتصرت مملكة الرب للأبد، وعلى أي حال فإن وضع المسيحية يستوجب نزاعًا ضد كل إغراءات وقوى الشر. وقد علمنا الكتاب المقدس أشياء تتعلق بمصائر مملكة الرب لا تخلو من نتائج وثيقة الصلة بحياة المجتمعات المعاصرة والتي تعتبر -كما تقول كلمة الرب- جزءًا من الحقيقة المعاصرة كونها تحمل في طياتها حقائق قاصرة ووقتية. فمملكة الرب الموجودة على الأرض -دون أن تكون جزءًا منه- تجعل نظام المجتمعات البشرية أكثر إشراقًا بينما قدرة الصفح والغفران تتغلغل فيه وتعيد إليه الحياة.

من منشور العام المئوي

[بواعث اللاتسامح - تأريخ الرب الإنسان - عناء النصوص المقدسة - من «طريق ديونسيوس» إلى «طريق أبولو» - ارتقاء الفرد - الدور الشمولي للكنيسة ذات الهيئة المنظمة - الروح التبشيرية - أهي خطيئة آدم الثانية؟

بواعث اللاتسامح

يبدو أن المحطة الثالثة لرحلتنا في دروب اللاتسامح لا تتبع فقط معيارًا زمنيًّا، ولكن أيضًا تتبع منحنًى تصاعديًّا في مستويات اليقينية، ونستحضر هنا إلى الأذهان للحظة الخطوط العريضة للمسار الذي سلكناه حتى الآن.

ولكن قد بقي قدر ضئيل من اللاتسامح لدى الديانات التي تؤمن بتعدد الآلهة لأنها راسخة على "مستوًى أفقيٍّ" أي المستوى الذي يتعلق بالجانب الجماعي الخاص بعملية التدين.

وداخل ذلك الإطار العتيق للمقدسات يبدو الأمر الأولى ذا طابع شكلي: أداء الشعائر التي تكفر الخطايا واحترام كل المحظورات وبطريقة صحيحة. هكذا وكما يحدث في

حالة الحريق فإنه يستلزم تنظيم وجود سلسلة من البشر لحمل أسطال المياه في أقصر وقت ممكن إلى المكان المراد الوصول إليه، وكذلك القيام برقصة المطر، أو كما يحدث عندما يتم اللجوء إلى بعض التعويذات لمحاربة الأوبئة متبعين وبوعي تام الأشكال المناسبة، فذلك الأمر يستمد قوته وشرعيته من كونه مقدسًا، ولكنه يصدر دائمًا من داخل الجماعة، فالعصيان يعرض صاحبه للعقاب من قبل الجماعة عن طريق الإبعاد أو إبادة تلك الحلقة الفاسدة في السلسلة.

وقد أدخلت ديانة التوحيد اليهودية مفهومًا جديدًا مانحًا مبدأ اللاتسامح انطلاقة كيفية لأنها تجعلها ترتكز في المقام الأول على البعد "الرأسي" للظاهرة الدينية. ولم يكن الأمر الإجباري نابعًا من داخل الجماعة ولكنه نابع من كيان غيبي علوي، فالوضع هنا لا يشير فقط إلى الشعائر الخاصة بالحياة الجماعية، ولكنه أمرٍ استبدادي يشمل أيضًا الجانب الأخلاقي والضمير الخاص لكل فرد في الجماعة محققًا بذلك التلاقي الكامل بين السلطة الدينية والسلطة السياسية التي يعهد إليهما بالسيطرة الكاملة على كل مظاهر الحياة الخاصة بالمؤمنين باليهودية.

أما المسيحية، فقد أكدت هذا التحول بأن أدخلت -وبقوة- اللاتسامح على المسلمات اليقينية المذهبية التي عملت على تنقيتها وإدارتها هيئة منظمة متسلسلة جعلت السيطرة الاستبدادية أكثر انتشارًا وهيمنة، ويعد الحديث بمعزل عن الدين الذي يدخل في الحيز الثقافي الخاص أمرًا غاية في الصعوبة، كما أن مواجهة موضوع اللاتسامح المسيحي يحمل في طياته مخاطرة مزدوجة: مخاطرة إعادة موضوعات محظورة ذات علاقة بمناهضة سلطة الكنيسة في نهاية القرن الثامن عشر أو على العكس مخاطرة تبني أصوات تبريرية دفاعية. وهناك حقيقة يقينية يظهرها أبسط تحليل تاريخي وهي أن المسيحية مثّلت أقصى درجات اللاتسامح الديني، ويظهر في الأفق هنا أمر يصعب تفنيده وهو أن الدين الذي يتميز عن سائر الأديان بأنه دين المحبة أظهر أقصى درجات التشبث والتمسك بتأكيد مبادئه وكذلك تأكيد انتصار قضيته. فعلى مدار تاريخها كله كانت المسيحية أكثر الديانات عدوانية، فقد بذلت الكثير من الجهد وأزهقت دماء الكثيرين من معتنقي الديانات الأخرى ليس فقط لمحاربة الأعداء الخارجيين ولكن أيضًا الداخليين، كانت تقومٍ بمحاكم التفتيش ومطاردة الساحرات خارج السياق العبري والإسلامي. لقد استخدمت أفعالاً في زمن الماضي لأن الموقف تغير الآنٍ، فإذا كان صحيحًا أن قواعد المسيحية قد ظلت ثابتة بلا تغير لمدة ألفي عام، فإن تحولاً كبيرًا قد طرأ عليها، وقد تأكد ذلك في مجال اللاتسامح، فمنذ قرنين لم يحرق أي مخطئ، بينما في الهند استمروا في حرق الأرامل، وفي العالم الإسلامي يتم رجم الزانيات. ولكن ذلك لا يعني اختفاء اللاتسامح بين المسيحيين، ولكنه يعني فقط أنه تغير عما كانت عليه الأوضاع حتى حقبة

قريبة، أي حتى أقصى مراحل اللاتسامح، فقد تم الحد من تأثير اللاتسامح عن طريق امتزاج (اختلاط) قوي "للجرافيت"التي يشكلها الفكر العلماني، والذي يعد أعظم إسهام للحداثة، ونجح في نزع فتيل البواعث الرئيسية على اللاتسامح، الأمر الذي لا يمكن تحقيقه بصورة كاملة ومرضية في السياقين اليهودي والإسلامي. ولا يُدْهِش أحدًا أن كل الكنائس المسيحية مع اختلاف عقائدها لا تزال في قرارة نفسها على قدر من عدم التسامح أي أنها حاسمة فيما يتعلق بأي قدر ضئيل من التساهل حول "القاعدة الصلبة" لمعتقداتها الدينية، فأخلاقيات التسامح لدى الديانات التي تؤمن بتعدد الآلهة تفترض أن يعترف كل مواطن بحق الآخرين في جزء من تلك الحقيقة التي لا وجود لها في المجال الديني، وعلى العكس فإن ديانة التوحيد المسيحية ترتكز على مسلمات غير قابلة للجدل، أي حقائق تشكل مبادئ عقائدية يحظر على المرء الارتياب فيها حتى يصبح من المسيحيين الحقيقيين. فالفرق هنا ذو قيمة كبيرة ويكمن في أن الاعتناق القوي لهذه الأركانِ العقائدية متروك لحرية الاختيار الفردية بينما في الماضي كانت إجبارية وتضَمَنها "سلطة الكنيسة". وتبدو السلطات الكنسية اليوم، وعلى رأسها السلطات الكاثوليكية، على قناعة تامة برغبتها في أن تكون على وفاق وألا تتبع أحدًا فيما يتعلق بتعدد الثقافات وحرية المعرفة. وفي أغلب الأحيان يجدون أنفسهم بين نارين: فمن ناحية هم معرضون لاتهام الأوساط العلمانية لهم بمواصلة تبني مواقفٍ تختلف في جوهرها عن مثيلاتها التي استطاعت في وقت مضى أن تفرض شروطًا على الوضع الاجتماعي والحياة الخاصة للمواطنين ومع محاورين آخرين وفرص جديدة متاحة على الصعيد السياسي.

ومن ناحية أخرى فهم يتعرضون لاتهام مضاد من التيارات المتشددة بأنهم ليسوا متوائمين مع مسلماتهم ويخاطرون بالركائز العقائدية. ولكننا لا نريد أن نسبق الأحداث، فسنرى كيف أن عدم تسامح المسيحية نجم عن تطورها العقائدي والتنظيمي ونرى أيضًا ما المحفزات التي جعلت منها أكثر الديانات عنفًا. تلك المحفزات ذات الطابع التاريخي والفلسفي والسياسي والمتداخلة فيما بينها بل أيضًا ينبثق بعضها عن البعض الآخر، تختلط مع الملامح الأساسية للعقيدة[1].

تأريخ الرب - الإنسان

تختلف ديانة التوحيد المسيحية عن اليهودية بعدم تسامح يمكن وصفه بأنه ذو طابع خاص ومرتبط بجوهر عقيدتها كما أن شدة وقوة عدم التسامح المسيحي على صلة وثيقة

[1] كلاودي برودم، تاريخ المسيحيين، دار نشر كويرينيانا، بريشيا ١٩٩٢. انظر أيضًا :ب. أو. جورمان، وم. فوكنر، فهم الكاثوليكية، دار نشر ألفا ٢٠٠٠

بمبدأ القطيعة الذي يفصلها عن الأصول اليهودية والذي لا يجعل منها انحرافا هرطقيًّا عن اليهودية، وإنما دين جديد بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وعلى الرغم من أننا جميعًا حتى من لا يعتبرون مؤمنين أو متدينين– غارقون في الثقافة المسيحية (لنتذكر "لماذا لا نستطيع أن نصف أنفسنا بالمسيحيين" لبنديتو كروتشيه B. Croce) فإننا نادرًا ما نتوقف لندرك فكرة المسيح يسوع ابن الله بكل محتواها ونتائجها وقليلاً أيضًا ما نتخيل كيف يمكن رؤية فكرة كهذه من الخارج" من قِبل ثقافة مختلفة كلية عن ثقافتنا.

ويكفي لحظة تأمل لكي نستطيع إدراك ضخامة تلك الفكرة:"الرب لم يتجل للإنسان ولكنه أصبح هو نفسه إنسانا". فالكثير من الديانات، إن لم يكن جميعها، منذ حقبة طويلة تسبق ميلاد المسيح وحتى اليوم، لديهم أساطير تتعلق بآلهة ذات سمات ومظاهر بشرية أو ترتفع إلى درجة أنصاف الآلهة. فالأمر يتعلق بالمظهر الخارجي، وخلع بعض الصفات البشرية على الآلهة واستخدام الرموز، فقد كانت الآلهة تستطيع أن تقرر أن تكون لها سمات بشرية أو صور أخرى مختلفة لحيوانات، أو نباتات، أو صخور، أو حتى أمطار من الذهب مثلما فعل زيوس ZEUS، ولم يكن الأمر يتعلق بتجسيد حقيقي، ومعاناة جسدية ووفاة، فعندما تم إدخال الروح العظيمة، مثلما حدث في النصوص الهندية، لم يكن المقصود خلعًا حقيقيًّا للصفات البشرية على الآلهة والكائنات التي هبطت على الأرض والتي قد شاركت بالفعل في أحداث الحياة الإنسانية، فكانت تحارب وتموت وتنتصر ولكنها لم تكن مخلوقات بشرية بالفعل.

ومن جانبهم كان اليهود هم من أدخلوا عن طريق رسلهم فكرة المسيح الذي سيصل لكي يحرر الشعب اليهودي وكل البشرية من الخطيئة، وبعد ذلك يموت ثم يبعث مرة أخرى. وقد وصف العديد من المؤرخين هذه الفكرة بأنها ذات أصول زرادشتية، فقد كانوا يفتتنون أيضًا في حقبة قريبة العهد بشخصية أو بأخرى ذات قبول كبير، والتي كانوا يحاولون أن ينسبوا إليها شخصية المسيح، ولكنهم كانوا يقتربون من هذه الفكرة بالكثير من التحفظات والحذر، وكذلك يدورون في فلك تلك الفكرة برمزية غامضة حتي يحيلوها إلى شيء يشبه السراب، وفي كل مرة يكون فيها الإنسان على وشك لمس ذلك السراب يبتعد عنه ويصبح مستقبلاً دائم الغموض. واليوم، مثل أمس، فهم يشتهرون بفكرة الرب المجسد. وعلى العكس، فبالنسبة إلى المسيحيين فإن هذا الحدث محدد وحاسم وواضح تاريخيًّا بلا أي لبس، وقد أراد الرب في الظهور الأول أن يكون على اتصال مباشر مع مخلوقه المفضل مانحًا إياه قبسًا من نوره، وأن يجعل منه المخلوق الوحيد بين جميع مخلوقاته الذي يستطيع فهم الكلام المقدس. والآن في الظهور الحديث أصبح الكلام المقدس مجسدًا. فهل كان يمكن أن يكون ذلك حدثًا مثيرًا للذهول وذا أهمية كبيرة؟

ذلك الإله الأب خالق جميع المخلوقات الذي تجلى لإبراهيم ولنسله، كما بدا كصوت فقط أو كسحابة في فلك إسرائيل، ولم يستطع أحد رؤيته أو الوصول إليه لدرجة يصعب من خلالها تمثيله أو إطلاق الأسماء عليه حتى وصل لأن يجسد في هيئة كائن بشري ولدته امرأة، ليس فقط، ولكن سيصل ابن الله ليضحي بنفسه حتى يعطي للإنسانية في الحاضر والمستقبل رسالة حب وأمل باعثة على الاطمئنان لم يدركها الإنسان من قبل. فالأمر لا يتعلق هنا بشخصية أسطورية عبدها الناس، ثم قتلت، وفي النهاية ارتقت، وارتفعت لمنزلة الإله، ولكنه الرب ذاته، الرب الواحد.

فهل ذلك الرب الخالق ولد ثم قتل؟ إنه أمر مذهل وعجيب. إنها فضيحة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لدرجة تغير من مصير الإنسانية جمعاء. إذا كان صحيحًا أن فكرة بعث المسيح -الذي أطلق عليه القديس بولس "جنون الصليب"- هو العنصر الرئيسي للعقيدة المسيحية والاختلاف الذي يميزها عن سائر العقائد، فإنه من المؤكد أن الإيمان بيسوع الذي مات، وسيبعث يعتبر وثيق الصلة بطبيعته المزدوجة كانسان ورب.

فالرب الذي يخلو من أي عناصر بشرية لا يمكن أن يموت، والإنسان الذي ليس له صفات إلهية لا يمكن أن يبعث. فإذا كان علم اللاهوت اليهودي يعتقد بأن تاريخ العالم قد بدأ بقدوم الإنسان، فلدى علم اللاهوت المسيحي بداية التاريخ تكمن في قدوم المسيح.

وليس من الصعب إذن إدراك أن علم اللاهوت الخاص بالعهد الجديد يحمل في طياته إمكانية تمسك وتشبث واستئثار أكثر من العهد القديم بالإضافة إلى قدرته على إنقاذ الأرواح، فعدم تسامح اليهود كان يتعلق بهم بالأخص، فأمنهم وسلامتهم كانت نابعة من اتفاق مع الرب، ورسالتهم كانت بالفعل ذات طابع عالمي ولكن كان أساسها البقاء في المقدمة في طريق الإخلاص والطاعة للخالق.

وعلى العكس فإن المسيحيين بداية من الوقت الذي توقفوا فيه عن أن يصبحوا جماعة مشتتة تابعة لمبشر غامض، واكتسبوا شكل دين جديد خاص بابن الرب الذي سيبعث من جديد، أسسوا لاتسامحهم على مبدأ أنه من الذنب الذي لا يغتفر عدم جذب سائر البشر إلى رسالة الخلاص الجديدة واعتبار ذلك أول الواجبات.

وانطلاقًا من تلك الرسالة كان منطقيًا لدى أتباع تلك العقيدة الجديدة أن الإنسانية تنقسم إلى مجموعتين: الأولى تؤمن به [داخل إطار المسيحية] ومجموعة أخرى لا تؤمن به [خارجه]. ولم يك ممكنًا أن نغفل وأن نكون متسامحين تجاه من يصر على رفض تداعيات التوجه المصيري الذي طبعه الإنجيل على التاريخ الإنساني، ولا تِجَاه من أنكر بطريقة سيئة حقيقةَ هذا التوجه المرحلي. فقد ميزت المعركة ضد كل من يشك في الطبيعة المزدوجة البشرية والإلهية للمخلص منذ الوهلة الأولى تطور العقيدة الجديدة.

وبالنسبة إلى هؤلاء الذين "من الخارج" فإن لعر الرب الإنسان كان يبدو أمرا صعبا أن يقبلوه، أما الوثنيون فلم ينجحوا في فهمه واستيعابه: في أي شيء اختلف عن تجسيد الإله زيوس والإله هيرميس؟ فاليهود كانوا يعتقدون أن عملية إدانة المسيح المزعوم قد أغلقت نهائيًا المسألة فيما يتعلق بهم.

ولكن السمة الجديدة والمميزة لحالة اللاتسامح لدى المسيحيين تكمن في الشكوك والارتياب داخل صفوفهم، أي من معاركهم الداخلية الأكثر التهابًا ودموية من معاركهم الخارجية الناجمة في المقام الأول عن نقطة ضعف في العقيدة الجديدة: عدم الثقة في المصادر.

عناء النصوص المقدسة

أن تكون شخصية المسيح محاطة بهالة من الغيوم الأسطورية (لدرجة جعلت بعض المؤرخين يشككون في حقيقة وجوده) وأن يكون تاريخ ميلاده غير معلوم، فهذا ليس في حد ذاته أمرًا يثير الدهشة والارتياب المبالغ فيه.

وهناك شخصيات أخرى كثيرة كرجال الدين يكتنفها الغموض مثل شخصية محمد، الذي عاش بعد المسيح بستة قرون، المليئة بالقصص الأسطورية، غير أن ما يلفت النظر أكثر هو أن واعظ الناصرة المتواضع لم يترك أي أثر مكتوب مثله مثل بوذا، وسقراط.

فالرسالة التي بدأ ابن النجار– والذي احترف نفس الحرفة – في نشرها في أراضي فلسطين عندما كان في مقتبل عمره، بدون معرفة شيء عن ماضيه وعن تكوينه (هل سافر؟ هل كان يمارس السحر؟ هل كان يعرف أسرار الطلاسم الخاصة بالمصريين القدماء والفرس؟) تم التعبير عنها بلغة مختلفة تمامًا عن لغة الحاخامات أو لغة مثقفي المدينة الكبرى، إنها لغة صممت خصيصًا للفلاحين والحرفيين والصيادين الذين هرعوا لسماعها. إن تعاليمه الروحية ومبادئه الأخلاقية كانت مباشرة وواضحة، وتم تمثيلها بطريقة أكثر مباشرة عن طريق قصص رمزية يمكن للجميع فهمها.

منذ سنوات عديدة، عندما كنت طالبًا في المرحلة الثانوية، وكان التلفاز لم يظهر بعد، حدث أن استمعت في الإذاعة إلى حلقة نقاش حول موضوعات دينية، وتم فيها مناقشة واحد من أشهر المحامين في تلك الفترة وهو كاثوليكي صادق وذو ثقافة واسعة، إنه فرانشيسكو كارنيلوتي Francesco Carnelutti – وأتذكر هنا عبارة قد صدمتني: "الدليل الأكبر على أن الإنجيل هو كتاب من وحي الله هو بساطته".

وللأسف فإن هذه البساطة انتهت بعد وفاة المسيح بوقت ليس بطويل، ليس بسبب المبالغة في الحماس اللاهوتي لأتباعه ولكن بسبب الحاجة لوجود أساس مذهبي قوي وفعال، فإذا كان المراد هو أن تعاليم هذا المعلم الكبير لم تنحصر في نطاق ضيق من التابعين له مثلما كان يحدث مع مبشرين آخرين وأصحاب معجزات، ولكنها خرجت من حدود فلسطين ومن إطار اليهودية.

ويعد ظهور دين جديد، وهو مغامرة ليست بالتأكيد ذات قيمة قليلة، تتحقق أيضا بصعوبة بالغة بسبب نقص النصوص الأصلية. كما أن الكتابين المقدسين الآخرين الخاصين بديانة التوحيد ظهروا بالفعل بعد عناء طويل في صياغتهما.

فبينما لم يكن لدى اليهود أي شك في أن شريعة الألواح الاثني عشر أملاها يهوه على موسى بحروف من نار، وكذلك كان المسلمون يعتقدون أن القرآن هو نسخة من كتاب سماوي أملاه جبريل على محمد بتفويض من الله، فإن المسيحيين كان بينهم جدل واسع وكانوا يتساءلون عما قاله يسوع في موعظته بالضبط.

ويعد الكتاب المقدس لتابعي المسيح -أي الإنجيل- مجموعة من الشهادات المتشابهة ولكنها ليست دائمًا متزامنة، كما أنها توثيق لجيل أو أكثر بعد موت المسيح في الوقت الذي كان قد مات فيه الكثير من شهود العيان بينما جسده تحول وتغير عموده الفقري عن طريق عملية شاقة استمرت لأربعة قرون[1].

وكما هو محتمل أن تكون تعاليم سقراط (الذي لم يترك شيئًا مكتوبًا) قد تم تنقيتها عن طريق تلميذه أفلاطون الذي أكسبها سمات مختلفة عن سماتها الأصلية، فكذلك من المحتمل أيضًا أن يكون شيء كهذا قد حدث على الأقل فيما يتعلق بالشرح النقدي الأول والرئيسي لتعاليم المسيح والتي قام بها باولو دي تارزو Paolo di Tarso والذي يمكن اعتباره المؤسس الأول للمسيحية كدين والذي لم يكن قد عرف المعلم شخصيًا[2].

---

[1] ويعتبر حتى التاريخ الصحيح لصياغتها محل جدل بين المتخصصين. ويتم تداول نصوص أخرى مزيفة مثل النصوص التي يطلق عليها "الأناجيل المزيفة"، غير المعترف بها. وحتى لا نتحدث عن الاكتشاف الغامض لمخطوطات البحر الميت فهناك بعض المتخصصين الذين يشككون في أصولها بالكامل. وحتى أقدم الأناجيل وهو إنجيل مرقس تم الحكم عليه بأنه لا يرجع إلى ما قبل سنة ٧٠، وهو تاريخ تدمير هيكل أورشاليم على يد الرومان (على الرغم من أنه قد ظهر أخيرًا رأي أنه ربما يعود إلى بضع سنوات قبل هذا التاريخ. وربما يكون قد تمت صياغته على أية حال بعد ثلاثين عامًا من موت المسيح (وهو جيل كامل).
انظر إدوارد لوشيه، صياغة العهد الجديد، أبينجدون، ناشفيل، ١٩٧٢
Eduard Loshe :The formation of the new Testament, Abingdon , Nashville, 1972

[2] انظر ن. ويلسون , N. Wilson ، الرجل الذي اخترع المسيحية، Rizzoli ميلانو ١٩٩٧. ويجب أن نضع في الاعتبار أن بعض الخطابات فقط التي أرسلها بولس بتاريخ سابق على صياغة نصوص الأناجيل إلى مختلف الكنائس التي أسسها ينسبها المؤرخون مباشرة له، وهناك خطابات أخرى مختلفة قد تكون لاحقة على موته وتعكس إشكاليات بالنسبة إلى الجيل التالي.

إن الخلافات في الرأي في الغالب بين الفصائل المختلفة ذات الطابع العنيف، كانت قد بدأت عندما لم يكن التابعون الأوائل للمسيح معروفين باسم "المسيحيين"، وكانت هذه الخلافات تدور حول أمرين: سواء حول ركائز الهيكل اللاهوتي الوليد مثل التمييز بين الروح والمادة، وضع الروح والجسد على قدم المساواة من حيث الرقي، طبيعة المسيح التي كانت في وقت ما بشرية وإلهية في ذات الوقت، أو حول التوجهات والقواعد التي يجب اتباعها لقيادة جماعات المعتنقين للمسيحية نحو عمل صحيح في العالم أي حول سلطات الكنيسة.

إذن فالأمر يتعلق بموضوعات بالغة الأهمية على الصعيدين النظري والتطبيقي والتي تشمل ليس فقط السلطات الدينية ولكن أيضًا العامة الذين كانوا يشاركون بولع في المناقشات المتعلقة بتلك الموضوعات مثلما يحدث اليوم في العالمين اليهودي والإسلامي وفي عالمنا الإنساني العلماني عندما يتم مناقشة موضوعات ذات طابع عالمي مثل حقوق الإنسان، أو البيئة وأبحاث علم الوراثة.

ففي الاتجاهين النظري والتطبيقي يؤدي ذلك التوهج الفكري الحاد إلى تطورين بالغي الأهمية وكلاهما مشحونان بنتائج تندرج تحت طائلة اللاتسامح والتي تستحق دراستها عن قرب.

من طريق "ديونيسوس" إلى طريق "أبوللو"

يمكن القول بأن أول تحول جوهري قد حدث منذ البدايات عندما أدركت السلطات اللاهوتية العليا – التي يُطلق عليهم بحق "آباء الكنيسة" لأنهم عمدوا انتقال المسيحية من مجرد موعظة إلى مرتبة دين– أنها في مفترق الطرق في اتجاهها لإكساب ذلك الدين مصداقية وحق استماع من قبل حافظي الثقافة المسيطرة والمدافعين عنها. فكان يجب عليهم أن يختاروا بين ديونيسيوس وأبوللو، واختاروا أبوللو.

ويلزمنا بحث كامل وتام لمناقشة هذه النقطة ومعرفة ماذا تعني للمسيحية ولثقافتنا.

ففي بادئ الأمر كان نمو ونهاية – حتى في عاصمة العالم نفسها [روما] – ما كان يبدو في البداية طائفة متهرطقة لا معني لها يرجع بالدرجة الأولى إلى مهمتها الإنقاذية وعلاقتها بديونيسيوس الأمر الذي رفع من قدر الاتجاه الذي يتبعه أنصار الإله أرفيوس ويهذب من أسلوبه مجردًا إياه من سماته التي تتميز بالانحراف والفجور.

وكان ما يغوي في الدين الجديد هو دعوته إلى الاستسلام، إلى العفوية، إلى السمو والرقي، ولكن وعلى وجه الخصوص إلى الحب. هذه الدعوة الأخيرة غير المعتادة

والمطمئنة في حقبة من الوحشية والشك تبدو للكثيرين مثل أكبر معجزات الرب. فللمرة الأولى بدا الرب ليس بوجه الأب/ السيد، ولكن بوجه الأب/ الرحيم المستعد للعفو والغفران حتى وإن لم يتخل عن إصدار الأحكام.

فحب الآخر الذي رفعه المسيح إلى مبدأ سلوكي ثابت وراسخ وعالمي، كان حبًّا ديناميكيًّا وفعالاً ويبدو أسمى من الشفقة السلبية للمدارس الفلسفية الوثنية أو من التعاطف [الشفقة] التأملي لحكماء الشرق.

ويجدر بنا الإشارة هنا إلى أن الاتفاق الجديد هدأ من روع أنتجوني Antigone وانتقم لها، فالتضحية التي لا يمكن تصديقها لابن الرب، ذلك المبشر البريء الذي سيق إلى الصليب كمجرم همجي، كانت تفرض بطريقة غير مسبوقة وعبثية، وعدم جدوى العنف بكل صوره وأشكاله، كما أنها أطاحت بمنطق كبش الفداء الذي كان أساسًا للعديد من المجتمعات والأديان منذ آلاف السنين. فالأمر يتعلق هنا بتضحية ذات طبيعة وعمق يختلفان بشدة عن التضحيات الأسطورية لأوزوريس، أو أورفيو Orfeo وأدوناي Adonai والتي كانت تحمل في طياتها جانبًا عاطفيًّا مؤثرًا لدرجة كانت تثير مشاعر الملايين من المنتمين لأصول مختلفة.

ولكن إلى متى كانت تستطيع العاطفة البسيطة لجماعة محدودة من التابعين أن تصون الروحانية الطبيعية للرسالة الأصلية؟

فقد توجهت الحاجة إلى توسيع الآفاق الفكرية والجغرافية للعقيدة الجديدة نحو اتجاه عكسي. فإذا كانت هناك رغبة لنشر التعميد أيضًا بين غير المنتمين لتلك الديانة، والتأثير ليس فقط على طبقة المحرومين ولكن أيضًا على الأوساط المثقفة والأرستقراطية، وكذلك منح قيمة عالمية لهذا الدين على الصعيد الجغرافي وعلى مستوى الطبقات الاجتماعية، فمن الضروري الخضوع والاستسلام للتسييس والعقلانية. وهذا كان يعني التصنيف الفلسفي والتنظيمي والتشريعي. ففي المواجهة بين الفصيلة التي كانت يقودها القديس بطرس والتي ستحفظ الهداية والتبشير في إطار اليهودية، وفصيلة أخرى يقودها القديس بولس والتي كانت على العكس ترغب في توسيعه لتشمل أيضًا مسلمي تركيا، وكانت للأخيرة الحظ الأوفر، فكان هناك معنى أكثر من مجرد انشقاق الفصائل العبرية (وهكذا تعاظمت المخاطرة، فانتصار بولس الذي أعطى لمهمة الرسل بعدًا عالميًّا افترض سلفًا هدفًا مزدوجًا: الهدف الأول ذو طابع أيديولوجي جعل الزعم الأساسي للمسيحية بأنها "الدين الحق"، والدين الوحيد الجدير بأن يطلق عليه كلمة دين، محوريًّا وجوهريًّا عن طريق الوسائل الفكرية المصطنعة، أما الهدف الثاني فهو هدف سياسي ويعتبر نتيجة طبيعية للهدف الأول: إكساب الدين الجديد -الذي أصبح الآن مستقلاً- ليس فقط شرعية

كاملة بين الديانات المعترف بها من قبل الإمبراطورية ولكن أيضا السيادة عليها جميعا، في انتظار لتجريدها من كل قوتها وسلطاتها والتخلص منها قطعيًا لكونها تمثل انحرافات عن الحقيقة، فتلك هي غاية الطموحات التي كانت تتطلب وسائل جديدة.

وفي بادئ الأمر كان يلزم ترك اللغة الأرمينية واللجوء إلى اللغة اليونانية، اللغة الصريحة والواضحة لدول البحر المتوسط كما أنها لغة الأرستقراطية الرومانية، بالإضافة إلى أن التوراة قد ترجمت لليونانية في هذه السنوات، ولكن تغيير اللغة لا يمكن أن يبقى فقط على مستوى المعنى الحرفي للكلمات، ولكن أيضًا تنظيم وسائل التفكير نفسها، مثلما كتب مؤرخ كاثوليكي: "اليونانية ليست لغة فقط، ولكنها أسلوب ليكون الإنسان جزءًا من العالم، فإذا كان المسيحيون يريدون نقل الوحي المنزل عليهم إلى الدول القريبة منهم [جيرانهم] في الشمال أو الجنوب، وإذا أرادوا أن يصبحوا جزءًا من أثينا أو الإسكندرية، فإنه يلزم أن يدخل مرور يسوع على هذه الأرض في طيات الفكر اليوناني، إنه الثمن الذي يجب دفعه حتى يصبح العالم مسيحيًّا"[1].

فالتحدث عن ثمن يجب دفعه يعد أمرًا ملائمًا. وكان إدخال علم اللاهوت الناشئ لذلك الذي سيصبح فيما بعد "المسيحية" في نسيج اللغة اليونانية والفكر اليوناني يعني إقحام درب الإله أبوللو الخاص بالعقل، بالفكر، بالنظام وبالسيطرة على البيئة المحيطة. ويعني أيضًا ترك الدرب "الشرقي" أي درب ديونيسيوس الخاص بالفطرية وبغموض الكائن البشري والاتحاد مع الطبيعة. ولخدمة هذا النبل الفلسفي كان ضروريًّا عملية إعادة تفسير وتأويل في إطار مسيحي للمعلمين الكبار لهذه الكلاسيكية الوثنية والتي كانت في البداية مكروهة ومنبوذة كدرب من دروب الزيف الشيطاني وتبني العديد من أفكارها ومفاهيمها. وكان أرسطو يقدم أنواعًا من الجدل المنطقي، أما أفلاطون فقد منح مذهب الثنوية الفلسفي السماء– الأرض، الروح– المادة، الروح– الجسد[2]، تأييدًا مرموقًا وذا قدر. وهكذا نمت ثمرة وُلِدَت نتيجة تلقيح بذرتين قيمتين نابعتين من ضفتين مختلفتين للبحر المتوسط: الإنسان صورة للرب وتمثل الإرث اليهودي والإتقان الذاتي اللامحدود ويمثل الإله اليوناني المزدوج، وتجدر بنا الإشارة إلى العديد من الملابسات والظروف - بعضها مرتبط بشخصية هذا البطل أو ذاك في تاريخ الكنيسة، والبعض الآخر ناجم عن التطور السياسي– التي أسهمت في انتصار العقل على الأسطورة مدعمًا الزعم الذي بدأ بالقديس أجوستينوس ولكن من وجهة نظر بعض علماء اللاهوت المبتدئين منذ القديس بولس، ذلك الزعم الذي يرى أن المسيحية هي استكمال وليست دحضًا لأعظم فلسفات القرون الأولى.

---

[1] جورج سوفوير، أنت بطرس، دي فالوا، باريس ٢٠٠٠ ص٣٠
[2] كارين أرمسترنج، تاريخ الرب، بالانتاين، نيويورك، ١٩٩٣

وخطوة تلو الأخرى، سما العقل المجادل لمنزلة الأكثر صمانا وثقة وربما أيضا الجسر الوحيد بين البعد الخاص بكيان غيبي علوي والعالم المادي. أما المفكر فقد كان من منظور مذهب القديس توماس الأكويني المخلوق الإلهي الأروع والمثير للدهشة.

فالعقل استطاع أن يشرح ماهية الرب مثلما استطاعت نظريات وافتراضات أعظم الرياضيين أن تشرح ألغاز وأسرار الكون، كما استطاعت أن توضح المعقولية التاريخية للقصص العبرية مانحة إياها توجهات نحو البحث العلمي. أما الروح فهي الوميض الإلهي المتشوق للتحرر من "سجن" الجسد (تمهيد بعيد لـ "أوهام الآلهة" لديكارت). أما الإنسان، الذي يعد السيد الحقيقي لبيئته، فاستطاع أن يحصل لنفسه على الجنة عن طريق أعماله في الحياة الدنيا (تمهيد لـ "البحث عن السعادة" المنصوص عليه في دستور الولايات المتحدة الأمريكية). ومن ناحية أخرى فإن إنكار الفرق بين مملكة المادة ومملكة الروح أو جعلها أقل وضوحًا سيُعَدُّ في النهاية انتكاسة جديدة نحو الاتجاه التوفيقي والفلسفة الحلولية، كما أنه يبطل إعادة تقييم العالم التي تحققت عن طريق تجسيد المسيح. أما الصوفية فلم تُنَحَّ جانبًا، ولكن سيتم إعادة وضعها في إطار جديد، وستخضع لقواعد جديدة مثلما يحدث في التدريبات الروحية الخاصة بيوحنا قديس الصليب San Giovanni della Croce.

وقد قدّم العالم الأمريكي فرانك ل. مشبرجر Frank. L Meshberger. افتراضًا (تم تأييده ومساندته بالاستناد إلى الوثائق الموحية) بأن تصوير "خلق آدم بالكنيسة السيستينية Cappella Sistina قد رسمه مايكل أنجلو طبقًا لملامح ولقسمات وجه تخيلها عقله البشري. فالأمر يتعلق بواحدة من أكثر نقاط الفضول المتوارثة التي استمرت عبر الزمن، ويعكس هذا الأمر فكرة أننا نحن الغربيين يمكن أن نجد افتراضًا كهذا ممتعًا وغير محتمل ولكنه غير مستحيل حتى إنه يمكن أن يكون معقولاً ومنطقيًا بينما لا يمكن أن يخطر ببال أي مؤمن بحضارات أخرى ربط الخلق وعلاقة الرب- الإنسان بالعقل. وتستطيعون تخيل أية حيرة وارتباك يمكن أن يثيرهما رسول يريد أن يتلو مواعظه على قرية إفريقية، أو هندية، أو صينية أو على دولة مسلمة بادئًا مواعظه بعرض مفصل لـ "العقل المفكر".

وقد أكد هانس كنج Hans Kung وهو واحد من علماء اللاهوت البارزين والذي لا يزال على قيد الحياة "أعتقد أن الكثير من المسلمات ستجد صياغة مختلفة إذا لم يتم صياغتها باليونانية أو اللاتينية وربما ستكون أيضًا أكثر فهمًا واستيعابًا من قبل اليهود والمسلمين[1].

[1] انظر مقابلة أجراها ماركو بوليتي على صفحات "الجمهورية" Repubblica بتاريخ ١٠ مارس ٢٠٠٥

كانت النقاط الثلاث المحورية لعلم اللاهوت المسيحي الوليد- هي تأليه التاريخ الإنساني، وخلع الصفة البشرية على المقدسات الإلهية، وتقييم وتقدير العقل باعتباره أعظم الهبات الإلهية- نواة للفساد والانحلال، وأدت إلى ارتقاء الذات البشرية الغامضة في المحيط الروحي اللامحدود الخاص بالديانات الأخرى، حيث الذات ليست سوي ذروة قصيرة الأجل وزائلة لإحدى الأمواج.

وقد أشار أومبرتو جاليمبرتي Umberto Galimberti إلى "فضيحة" يسوع بإعلانه أنه تجسيد للرب "يدنس" المقدس، وهي كلمة هندأوربية تحمل معنى "منفصل- separato"، أي منفصل عن الحياة البشرية. ولكن هذا لم يؤد لشيء سوى إلى تقديس الإنسان.

فالعهد القديم بدأ أيضًا -كما رأينا- بتأكيد محورية الإنسان، تلك المحورية الناجمة عن كون الإنسان الكائن الموجه إليه الوحي. ولكن الآن هذه المحورية بولغ فيها حتى وصلت إلى الأبدية، وذلك يرجع إلى أن الرب قد تجسد في الطبيعة الإنسانية.

وفي العقيدة العبرية تمت موازنة ارتقاء وسمو الإنسان كأول مخلوق بين جميع الكائنات الحية عن طريق العقاب عن خطيئة الاعتزاز بالذات في إعادة صياغة لأسطورة برومثيوس Prometeo. فمثلما كُبِّلَ بروميثيوس بالسلاسل لأنه تحدى زيوس Zeus، فإن تمرد أول زوجين قد قوبل بعقاب فوري بطردهما من الجنة. فهل هو إعادة تفكير - من قبل الخالق - لأنه ذهب لأبعد من خلق كائن شبيه له؟ وعلى العكس تمامًا -مثلما أوضحت التفسيرات الأكثر مصداقية للتوراة- فإن هذا أيضًا يعد جزءًا من المشروع الإلهي، فقد سمح الرب لإبليس -أفضل ملائكته- بالتمرد وتحريض الإنسان أيضًا على التمرد لخلق بديل أبدي للخير وجدل مستمر في لهث وراء الكمال، فقد أراد اختبار الطريقة التي سيتعامل الإنسان بها مع الهبة التي لا تقدر، والتي جعلته فوق جميع الحيوانات: إدراك الذات ونتائجه الطبيعية، والاختيار الحر.

فعن طريق خطيئتهم الطائشة المتعلقة بعدم الطاعة، والكبر (وها هو إبليس يعود دائمًا ليمارس دوره ومهمته طور الرجل والمرأة تمامًا من إدراكهما الذاتي وحريتهما، منفصلين نهائيًّا عن سائر المخلوقات الحية ومكتسبين ثلاث ملكات لا تمتلكها سائر مخلوقات الأرض والبحر والجو، ولن تستطع أبدًا الحصول عليها: الخجل (فقد أدركوا أنهم عرايا)، القدرة على تحويل المادة (عليك أن تعمل بعرق جبينك) والملكة الأكثر علاقة بالإله، هي ملكة وقدرة على تقرير من يجب أن يعيش ومن يجب أن يموت. وعلى خلاف الحيوانات، فالإنسان يقتل دائمًا أقل بسبب ضرورة حقيقية وواضحة، يقتل لحسابات خاصة، بسبب الحب، بسبب الكراهية، وليس أمرًا نادرًا أن يقتل للشهوة أو

لنزعة القتل لديه أو للتسلية. فقد قتل حتى أخاه، لدرجة أن الرب سيُدْخِلُ في أوامره الإلهية تحريمت صريحًا وواضحًا للقتل.

ولكن بسبب هذه الحرية، وبسبب خروجهم من القفص الذهبي في جنة عدن، فقد دفع الزوجان أكبر ثمن يمكن تخيله: فلم يفقدوا فقط براءتهم ووجدوا أنفسهم في ضائقة الاحتياجات المادية، ولكن تضحية أكثر شقاءً من أي تضحية أخرى، العدول عن هبة الخلود، فأملهم الوحيد هو التبشير بالمسيح الذي يشير وجوده إلى نهاية الحياة ويعيد فتح أبواب الجنة إلى سلالاتهم، فمولد يسوع يحقق الأمل في وجود المسيح، وبعثه يحقق أيضًا التحرر من الخطيئة الأولى، ويضمن لكل مؤمن ومعتنق أنه هو أيضًا سيبعث.

فالخلود هو خلود النفس الفردية، والأنا البشرية التي ستقدر، لن يتم استيعابها في الروح الكونية الكبرى، ولم تتلاشَ وتختفِ في دورة متتابعة من النهوض، فلن يكون ظل شاحب هائم على وجهه دون هدف في بقاع جهنم المظلمة بل سيظل أوحدا وفريدًا أيضًا بعد الموت حتى يستعيد جسده يوم القيامة.

فتقدير الإنسان في جملته والذي بدأ على يد الفلاسفة الإغريق، قد اكتسب السمات المقدسة وأدى إلى الخطوة التالية –غير المعتادة في العالم الديني السابق– وهي تقديس العقل، الذي تم الارتقاء به كأول خاصية تميز الإنسان، وتعد إشارة ودليلا فريدًا على البريق الإلهي، والسمة الوحيدة الدالة على الهيمنة والسيطرة على المخلوق.

وتعد الفردية والعقلانية سمتين مميزتين للعقيدة المسيحية بالإضافة إلى كونهما متداخلتين مع بعضهما البعض، فبينما ظهرت المظاهر المرتبطة بروحانية الفرد في مرحلة أخرى مختلفة وفي إطار إيضاحات أخرى للمقدسات (فقد رأينا كيف أن الشعائر الجماعية والصلاة الفردية يكتملان جنبًا إلى جنب)، فإن عقلانية مبادئ العقيدة والشرح العقلاني لوجود الله كانت إلى حد ما غير مألوفة أو معتادة في الحياة الدينية التي تسبق المسيح حتى في مختلف صور التوحيد.

ولهذا فالأمر يتعلق بتطور وطفرة ذات نتائج لا حصر لها في خلق حضارتنا وخاصة عدوانيتها ذات الطابع الخاص.

ويجدر هنا ذكر أن المناقشات اللاهوتية المسيحية الخاصة بسيادة "العقل أم الإيمان" مقابل "العقيدة أم العقل" تعد مسألة شديدة التعقيد ومختلفة. فمن الممكن تأكيد أن الاختيار لصالح العقل لا ينجم بشكل ضروري عن مسلمات العقيدة التي تم توضيحها من قِبَلِ الرب، ولكن بوجه خاص من قِبل الظروف التاريخية ولا سيما من الضرورات السياسية لانتشار العقيدة ذاتها.

وفي قلب الكنيسة بدا أن الكثيرين بداية من يوحنا بولس الثاني قد نفوا وأنكروا أن تقدم الفردية قد قوبل باستحسان من جانب العقيدة المسيحية ونسبوا إلى اتجاه التنوير العلماني مسؤولية التحول الذي أدى إلى الفردية الجامحة للحداثة[1].

الدور الشمولي للكنيسة ذات الهيئة المنظمة

كان التأكيد المتزايد على تأريخ العقيدة وعلى الإدراك الفردي للعهد القديم قد طور من محفزات اللاتسامح: أهمية دور الكنيسة. تلك الأهمية التي تهدف إلى أمرين: حفظ مبادئ الهيكل النظري كاملة وتامة، وكذلك تجنب أن يؤدى إعادة تقييم شخص الفرد المؤمن إلى وضع متعلمي مبادئ الدين المبتدئين في المرتبة الثانية.

وفي أي دين آخر كان للمظهر التنظيمي أهمية لا تقارن وذلك المظهر التنظيمي كان مبررًا حتى النهاية على أساس ثلاثة عوامل: تحريض على التشبث بالرأي وكذلك بالنقاط الخلافية الأخرى. العامل الأول هو الإرادة المنسوبة بشكل واضح وصريح للرب "أنت بطرس، وعلى هذه الأرض سأبني كنيستي"، فهذا التنصيب، المباشر سيجعل طموح بابا الكنيسة الرسولية الرومانية Apostolica Romana في أن يكون خليفة المسيح في الأرض جوهريًّا ومحوريًّا وسيمنح أيضًا أساس وركيزة السلطة الدنيوية لباباوات الكنيسة عن طريق هيكل قوي وبارع، ولكنه زائف قضائيًّا وقانونيًّا.

أما العامل الثاني فهو المشار إليه عن طريق عدم الثقة في المصادر التي جعلت مشكلات التفسير أكثر حدة. ومن هنا تظهر ضرورة وجود هيئة نظامية لها وظيفة المفسر الرسمي، والوعاء للمراسيم الكنسية. أما العامل الثالث فهو ذو طابع مؤثر وفعال ووثيق الصلة بالمقتضيات الواقعية لزيادة ونمو الاتجاه المسيحي داخل الإمبراطورية، ففي عمليات الهداية والتبشير التي دخلت في منافسة مع ثقافات أخرى شديدة القدم وشديدة القوة، لم يكن كافيًا تهذيب الآليات الثقافية، ولكن كان لزامًا مخالفة المعارضين بداية من اليهود أنفسهم، على صعيد الأفعال الواقعية.

وإذا تم تتبع تلك الأفعال التي ستكون في فترات قريبة منا نموذجًا يحتذى من كل الاتجاهات الدينية ذات القَدْر والمميزة، فإن أعمال الخير تكمن في قلب تلك الأفعال، تلك الأعمال التي كانت بدورها تتطلب تنظيمًا فعالاً ودقيقًا.

---

[1] انظر باولو فلورس دي أركايس في مناظرته مع الكاردينال جوزيف راتزينجر، هل الرب موجود؟ ملحق في ٢٠٥/٢ لـــ"ميكروميجا"، ص١٦

وسيكون ذلك التنظيم بالإضافة إلى عدد المسيحيين المتزايد السبب الذي جعل من المسيحيين في بادئ الأمر خطرًا ثم محاورًا سياسيًا ذا صلاحية أمام أعين السلطات الرومانية، فبمجرد أن أصبحت المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية، حلت الكنيسة محل الجماعات القساوسية الأكثر تأثيرًا والموجودة من قبل.

وقد وجدت الكنيسة نفسها تمثل قوة كبرى وسيطة وحامية، ففي بادئ الأمر كانت ملاذًا ضد معاداة واضطهاد أعداء المسيحية، ثم عن طريق ارتقائها لمنزلة السلطة والشرعية قامت بدور الوسيط لدى سلطات الإمبراطورية، وبعد سقوط الإمبراطورية، في عصور الغزو البربري الأكثر ظلامًا، عادت لتصبح ملاذًا معنويًا وماديًا أيضًا، بل على العكس فإنها أصبحت الوعاء الوحيد للحضارة القديمة.

وحتى هذه النقطة يجب ملاحظة أنه، على الرغم من ذلك الدور السياسي البارز للتعاليم الكنسية، كان يوجد في المسيحية دائمًا تفريق بين الكنيسة والدولة، حتى لو لم يكن في الطريقة التي اتخذتها في العصر الحديث.

ففي القرون الثلاثة الأولى لتلك التي كانت تسمى "مرحلة القسطنطينية" ظهرت نقطة الالتقاء الأبدية لمصطلح العرش – المذبح بطريقة واضحة ومميزة. فمن ناحية كان القادة السياسيون والعسكريون في حاجة لمساندة فكرية ليهزموا منافسيهم، ومن ناحية أخرى كان زعماء الاتجاه الديني في تصاعد وفي حاجة إلى شرعية رسمية.

وعندما وصلت حكومة الإمبراطورية لحل وسط مع الكنيسة، قامت بحسابات خاصة بها، فالمسيحية ستهرب رويدًا رويدًا إلى وضع التبعية الذي كانت قد شغلته الوثنية الرسمية حتى ذلك الوقت أمام الدولة. وبدورهم سَيَسْعَدُ زعماء الكنيسة باللحظة التي يقْصون فيها الديانات الأخرى، ويصبحون سادة المجال الديني.

وعلى أي حال فإن العلاقة ستكون عنيفة وغير مستقرة من خلال أحداث أخرى متعاقبة حتى في فترة الدعم هذه التي تتميز بحل وسط واضح إلى حد ما. فلن تؤدي أبدًا إلى ثيوقراطية [حكومة إلهية] كاملة، ولكنها ستظل في المرحلة المرنة للمعاهدة للتحالف-المنافسة بين قوتين متطلعتين إلى الهيمنة والسيطرة.

ففي الغالب كانت توجد دائمًا لحظات، مثلما حدث في مرحلة ما يطلق عليه "القيصرية البابوية"، التي كان الإمبراطور يتدخل فيها بقوة في شؤون الكنيسة، ولحظات أخرى كان للبابا فيها دور محدد في الأحداث السياسية للإمبراطورية.

ولكن كان الأمر يتعلق بالتحديد بتدخلات متبادلة، أحيانًا مقبولة وأحيانًا مرفوضة، ولم يتم أبدًا التفكير في أن الدمج بين السلطة الدينية والسلطة السياسية هو أمر طبيعي ولا

أن القانون الإلهي يتداخل مع القانون العام للجماعة مثلما كان يحدث في المضمون الوثني واليهودي والإسلامي.

فالقول المأثور الموجود في الإنجيل يقول:"أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما للرب للرب" لم يتم تكذيبه أو معارضته.

وبالتأكيد، فإن الدعم المتزايد للمظهر التنظيمي واكتساب سلطات ليست فقط روحية ولكن أيضًا سياسية من قِبَلِ ورثة بطرس سيخلق إغراءات لاستعادة السلطة، ويشكل جبهة مستقلة لـ"اللاتسامح والعنف". وفي هذا الإطار كان التطور السلبي الأكثر درامية يكمن في حجة السلطات الكنسية لأن تمتد سيطرتها ليس فقط إلى المراقبة الرسمية لممارسة الطقوس الدينية، ولكن أيضًا إلى المشاعر الخاصة للمعتنق للدين حتى تشعر بنفسها قادرة شرعيًّا على نقد قواعد المعرفة، وهكذا تفتح الطريق لتلك الديانات الشرسة الملحدة الشمولية.

ولكن اللعبة الجدلية المستمرة، والتي لا تقل حدتها أبدًا، مع الجبهة العلمانية للسلطة، والتي ستسمح مع مرور الزمن بوجود تلك الثورة التي لم تستطع الديانتان الأخريان أن تكملهما بعد، ينجح فيها طرفا السلطة في إيجاد التوازن فيما بينهما في النهاية.

روح تبشيرية

وهكذا نصل إلى السمة الأخيرة والعظيمة للعقيدة المسيحية، وهي سمة ذات قدر كبير: "الروح التبشيرية". تلك السمة التي تنجم مباشرة عن نزعة هذا الدين لأن يصبح عالميًّا.

فبينما أخذ اليهود والمسلمون إشارة البدء من نقطة انطلاق قبلية، أي أن ميلهم للعالمية وصل إذن في مرحلة لاحقة، نجد أنه بالنسبة إلى المسيحيين منذ بولس ومنذ نزول الروح القدس، أي منذ مرحلة انطلاق العقيدة الجديدة، بدا الميل إلى العالمية وثيق الصلة والارتباط بالدين الجديد.

كان يسوع واضحًا في كون مجيئه إلى الأرض وتضحيته لم يكونا موجهين لهذا الشعب أو ذاك، ولكن لكل الجنس البشري:"اذهبوا في كل العالم وعلموا كل الأمم" (مرقس ١٦، ١٥، متى ١٩:٢٨).

فقد نجح بولس في تعميم الطابع العالمي وأبرز -بطريقة واضحة- الانتقال إلى نشر الإنجيل إلى روما وكل العالم ناقلاً مركز الدعوة من القدس إلى روما.

وبعد تجاوز أول مرحلة دفاعية طويلة ستتبنى الكنيسة سياسة الهداية والتبشير العنيفة والداعية إلى الحرب بمجرد الانتصار في المعركة الحاسمة لتأكيد دورها ولتصبح "منتصرة" مؤكدة واجب كل مسيحي صادق بأن يذهب "إلى الناس" والقيام بدور الهداية. فالهداية أصبحت كلمة السر الجديدة للمسيحي الملتزم الدءوب، كما أن الضغط على غير المعتنقين للمسيحية لإجبارهم على اعتناق ديانة المسيح تم تقديمها ليست كفرض أو إلزام، ولكن كدرب من دروب أعمال الرحمة. ومن يرفض قبول التغيير الذي طرأ في العالم بمجيء ابن الرب لا يمارس حرية الاختيار ولكنه فريسة لجهل سيؤدي ليس فقط إلى هلاك روحه ولكن دماره على الأرض.

ويمكن القول إن الحماس التبشيري سيصل إلى ذروته في مواجهة "الوثنيون الجدد"، أي الشعوب الجديدة التي لا تعترف بالمسيح، "الذين تم اكتشافهم" كنتيجة للاكتشافات والتغلغلات الاستعمارية، وهكذا أصبح القس مصاحبًا إجباريًّا للتجار والجنود الذين وصل بهم الأمر إلى الاستيلاء على أراضٍ جديدة وكان يقوم أيضًا بمساندة إداريين ومتعلمين في الأراضي التي يتم الاستيلاء عليها. ويمكن اعتبار ذلك المظهر بالغ الأهمية في إطار من اللاتسامح المسيحي، الذي سأخصص له فصلا كاملا.

أهي خطيئة آدم الثانية؟

يمكن أن تبدو الصورة التي رسمتها للاَّتسامح المسيحي سطحية للبعض وغير كاملة للبعض الآخر، كما أنها قد تبدو محددة بنقاط تأكيد جريئة وغير لائقة. ولكنها لا تصبو إلى الكمال أو الصرامة العقائدية، وتريد فقط أن تقدم للقارئ بعض نقاط التأمل عن السبب الذي كان يجعل الطريق التاريخي لديانة الصليب المسيحية مكتظًّا بأحداث التعصب والعنف.

وتبدو لي العناصر الخمسة المحفزة التي قدمتها في الصفحات السابقة -عدم الثقة في النص المقدس الأصلي، البعد العقلاني للبناء الإيديولوجي، ارتقاء وسمو الفرد، الدور الراجح والمسيطر للمؤسسة المنوط بها مراقبة المذهب الديني وإجراءات نشره، الروح التبشيرية - مفاتيح تفسيرية لتطور أدى إلى - منذ الإنجيل الأول الذي بني على الحب والتضامن ودماثة الخلق- سلسلة مستمرة من النزاعات والاضطهادات حتى ظهور أكثر الحضارات التي عرفتها الإنسانية عنفًا وتنافسًا.

إذا أراد المسيح أن تصبح رسالته عالمية، فلا شيء مما وُرث عنه ومن الكلمات التي نسبت إليه تجعلنا نفكر في أن المسيح أراد أن تتحقق هذه الدعاية بأي ثمن، بسلطة

المال أو حتى بالسلاح، فهو بخلاف موسي أو محمد لم يكن زعيما مشرعا أو قائدا عسكريًا، وعلى العكس فقد رفض بطريقة واضحة أي استخدام للقوة، حتى لو كان بغرض الدفاع عن النفس.

ألم يعد لصق أذن المحارب المبعوث للقبض عليه والذي هاجمه بطرس بالسيف؟ وكم من مرة، وكم من منبر ذكرت عليه التطويب الثالث لحديث الجبل، "طوبى لمن سمع النداء لأنهم سيرثون الأرض" (متى ٥، ٥)؟

لقد كانت مواقف يسوع ضد أي صورة من صور العنف والانحراف قوية وواضحة: "إن مملكتي لا تنتمي إلى هذه الأرض" (يوحنا ١٨، ٣٦)، "من لطمك على خدك الأيمن، فحول له الآخر، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضًا" (لوقا ٦، ٢٩، متى ٣٩)، "لقد أنصتم لما قيل: أحب صديقك وَاكْرَهْ عدوك، ولكني أقول لكم: أحبوا عدوكم وباركوا من يلعنونكم، أحسنوا لمن يكرهونكم وصلّوا لمن يسيئون إليكم ويضطهدونكم"(متى ٤٣-٤٤).

إذن، فلم يعد فقط ما قالته التوراة: "أحب صديقك"، ولكن "أحب عدوك".

وحتى أجعل لنفسي سببًا للكيفية التي وصلت بها تلك المسلمات إلى روح تأكيد وانتصار الإنسان المسيحي الذي أصبح بعد ذلك الإنسان الغربي، فلن أجد شخصيًّا شرحًا اخر غير أن من تمت دعوتهم لجمع ميراث المسيح -تحت ضغط الظروف- اعتقدوا أنه من الضروري تطوير نقاطه التعليمية الجديرة بالبقاء والتوسع بدلاً من تلك التي كانت موجهة للشفقة والرحمة.

وسنرى فيما بعد قدر الأهمية التي أعطاها الإسلام للجهاد، الذي تم فهمه كصراع موجه ضد نقاط ضعفه بهدف وصوله إلى الكمال الدائم لخدمة الله. إذن فبالنسبة إلى المسيحي الصادق المخلص فإن فكرة النزاع، بداية من الصراع ضد أهوائه، وفكرة الحافز لتجاوز تلك الأهواء، وفكرة الصدام المستمر ما زالت محورية. فإذا نزل الرب بيننا، بل وأصبح واحدًا منًا لإنقاذنا من الخطيئة ولإعادة منحنا الخلود، فأقل القليل الذي يمكننا فعله أولاً هو أن نبدو دائمًا جديرين بهبته هذه، ثم نشر تلك الحالة النفسية للآخرين قدر المستطاع. وإذا هبط كائن علوي قادم من كوكب آخر على الأرض بنية مُحِبَّة وعطوفة، ألا يجدر بنا بذل قصارى جهدنا للتفوق عليه ومحاولة وضعنا في مستواه، وإقناع الآخرين للقيام بنفس الشيء وأن نقاتل ونحارب من يجحد أو يعارض جدوى وجوده؟

"إن الخلق هكذا يؤكد يوحنا بولس الثاني Giovanni Paolo II بعد ألفي عام من نشأة المسيحية وُهب وأوكل للإنسان كواجب عليه ليشكل له مصدر معاناة بل أساس وجود خلاق للعالم. فالإنسان الذي يؤمن بالطيبة الأساسية للمخلوقات يعد جديرًا باكتشاف كل أسرار الخلق لإتقان العمل الموكل له من قبل الرب بصفة دائمة ومستمرة. فيجب أن يكون واضحًا لمن يتقبل الوحي وبخاصة الإنجيل أنه من الأفضل أن يكون من ألاّ يكون، ولهذا فإنه في أفق الإنجيل لا توجد مساحة لأي سعادة وطمأنينة قصوى، لأية لا مبالاة أو خضوع، ولكن على العكس يوجد تحدٍّ كبيرٌ لإتقان كل ما هو مخلوق: البشر أو العالم".

فدائمًا وأبدًا -يؤكد مرة أخرى الحبر الأعظم- سيكون الإنجيل تحديًا للضعف الإنساني، ولكن تكمن كل قوته في هذا التحدي، فالإنسان ينتظر في عقله الباطن تحديًا كهذا، ويوجد بداخله الحاجة لتجاوز ذاته، فقط عن طريق تجاوز ذاته، يكون الإنسان حقًا إنسانًا[١].

وتنجم عن فكرة التحدي تطورات لا حصر لها، وتعد إيجابية لتاريخ الإنسانية جمعاء. فقد غزا الغرب المسيحي العالم فارضًا تقويمه، وقوانينه، وعاداته، بل استطاع أيضًا نشر مظاهر الخير والنفع التي في ثقافته وعلمه، مساهمًا في هزيمة البؤس والمرض والأحكام المسبقة والتمييز.

وإذا كان صحيحا بأن هذه الحضارة تعد واحدة من الحضارات الأكثر عدوانية، فإن هذه العدوانية تكمن في خيره وشره. فعدوانيته هي عدوانية "أوليس" Ulisse و"كولومبس" Colombo النازعين إلى اكتشاف الجديد وإنشاء عوالم جديدة، فالأمر لا يتعلق بالعدوانية المنسوبة لـ"أتيلا" Attila والذي، كما يقال، لم يترك أخضر ولا يابس في طريقه. وربما سيكون من عدم الصواب ومن الزيف تاريخيًّا إلقاء المسؤولية الكاملة لعدوانية ولاتسامح الحضارة الغربية على عاتق العنصر المسيحي فقط، تلك الحضارة ذات الجذور الرباعية.

وكما رأينا، فقد تأثرت المسيحية بقوة بالعناصر اليهودية والهيلينية التي صاحبت مولدها وتطورها، بالإضافة إلى أن "محفزات اللاتسامح" التي سردناها تنجم أيضًا عن هذين المؤثرين.

فلقد كان اندماج العنصر اليوناني- الروماني مع العنصر اليهودي المسيحي وراء خلق إنسان جديد لا يطمح لأي شيء سوى السيطرة على العالم. ويبقى أن نذكر أيضًا أن

---

[١] يوحنا بولس الثاني، اجتياز عتبات الأمل، ص٢٢، ١١٨، ١١٩

هذا الإنسان الجديد الذي نطلق عليه اليوم "غربي"، وهو لقب إيديولوجي أكثر منه جغرافي، يستأنف إحكام العقل في ميله لهداية سائر العالم داعيًا إياه إلى الجذور المسيحية والتي لم تتردد في اللجوء إلى الإجبار لخدمة طموحاته.

فهو يصبو إلى تفسير إعادة فتح أبواب الجنة بفعل تضحية المسيح قليلاً في إطار من الذل والهوان وكثيرًا في إطار من الانتصار. فعلى مدى قرون قام فيها مسيحيو الكنيسة المنتصرة بتفسير القول المأثور "من ليس معي، يكون ضدي" (متى ١٢، ٣٠) حرفيًّا واستنادًا لأقوال مأثورة أخرى، كما أنه أبدى شفقة قليلة تجاه معارضيه، وأصبح شديد الغيرة على ممتلكاته التي كان يفخر ويعتز بزيادتها إلى ما لا نهاية، واكتسب في كل مكان هيئة الغازي والمعلم، ومن يعرف أفضل من الجميع كيف يدير العالم ويرفع من شأنه، دائما (من أجل مجد الرب)".

ومثلما أوضحت، فإن مجموعة عوامل مؤثرة وقوية أسهمت في تأكيد بطيء وراسخ لهذه العقلية الانتصارية الإقصائية، ويبدو لي أن العامل الذي أدى إلى الحل المنطقي الحالي يمكن تحديده في البذرة التي تم إلقاؤها في القرنين التاليين لموت المسيح في لحظات لقاء آباء الكنيسة مع الفلسفة العقلانية.

ولقد كان التقدم الحذر والمحدد على طريق أبوللو بداية من فكرة أن الرب لم يعد خفيًا للأبد في بُعْد مختلف عن بُعْدنا، ولكنه كان على العكس متداخلاً في البعد الإنساني -الذي كان إذن قابلاً للشرح" من قِبَل عقلنا الذي يشبه عقل الرب- حتى أدى إلى الاحتفال بالعقل الإله وانتصار الأشياء على كل الكائنات الحية، أي انتصار "غير الطبيعي- المصطنع"، أي ما يجعل الإنسان قادرًا على صنع الأشياء.

وحتى هذه النقطة يبدو أن مسار "الإنسان الغربي" قد أصبح مستديرًا دافعًا إياه إلى نقطة الانطلاق – وهي الحنين إلى الرب- بعد أن قرَّرَ موته.

وسنستأنف هذا الحديث الدقيق في الجزء الأخير المخصص للاتسامح الإيديولوجي، ولكن سنرى عن قرب المراحلَ الرئيسيةَ للمعركة التي قامت بها المسيحية دون توقف دفاعًا عن العقيدة الناشئة في البداية ضد مقاومة العالم الوثني، ثم ضد المقاومة الداخلية التي كانت ضارية ومتكررة حتى إنها جعلت من الهرطقة ظاهرة مميزة لتطورها التاريخي.

الفصل الثامن

صواعق ضد صلبان

"حتى أنت يا قداسة الإمبراطور، يُطلب منكم الإدانة والمعاقبة. إن قانون الربِّ يفرض عليك الاضطهاد وبشق الصور، وبما تتحلون به من الصرامة، ملاحقة ومطاردة جرائم الوثنية " فرميكو ماتيرنو

[هزيمة زيوس - سيماخوس وأمبروجو - طمس الماضي - دعاية متحررة - طالبان المسيح - إزالة الأصنام -هدم السيرابيون- الفيلسوفة "إباطيا" ومهاجمة معابد المعرفة - إغلاق أكاديمية أثينا - اجتثاث سنديانة أودين]

هزيمة زيوس

لا تخلو الكتابات العديدة المتعلقة بـ"الخطر الإسلامي"من بعض الكتابات التي تحمل نغمة خيال تاريخي: إذا لم يوقف شارل مارتل المسلمين عند حدود بواتيه أو إذا لم يردّ يوجين حاكم سافويا الأتراك عند أبواب فيينا، فإنه كان من الممكن أن توجد اليوم في قرى أوروبا المآذن بدلاً من الأجراس. ولكن إذا أردنا حقًا الاستمتاع بالتاريخ الذي أساسه كلمة "إذا" وأن نستخلص منها بعض الدروس المستفادة، فلنتوقف عند حدث آخر أغفله التاريخ الذي كتبه المنتصرون: المعركة الأخيرة بين مسيحيين ووثنيين، والتي إنها لو انتصرت فيها الجيوش المخلصة للطقوس [الوثنية] التقليدية، بدلا من انتصار تيودوزيو Teodosio لتغيرت مصائر أوربا. ومن يدري ماذا كان يحدث إن لم تحافظ على دورها في كامل رونقه وانفتاحها على الثقافة جنبا إلى جنب مع الكنائس والمعابد اليهودية ومعابد كونكورديا Concordia وساتورنو Saturno وفورتونا فيريله Fortuna Virile، الخ؟

هذا الحدث الذي، بإسقاطه آخرَ سدٍّ دفاعيٍّ منيع ضدّ السلطة المطلقة المسيحية، أصدر حكمًا بالإعدام على الوثنية، وقد يقدم عنصرًا سينمائيًّا هامًّا وممتازًا. فطريقة

معالجة تلك المأساة، التي وصفها لنا مؤرخو تلك الحقبة، من شأنها أن تكون مثالية من أجل عمل فني على شاكلة أعمال المصارع. وفي إطار أكثر نبلا، يمكن أن تكون عنصر إلهام لغروب ثانٍ للآلهة. ونحن على مقربة نهاية القرن الرابع بعد الميلاد. حيث تتزايد حدة التوتر السياسي والاجتماعي يوما بعد يوم من روما حتى القسطنطينية. الإمبراطورية تتماسك بالكاد، فقد أصبحت مترامية الأطراف لدرجة أنه أصبح من الضروري تقسيم المناطق الشرقية والغربية بين اثنين من الأباطرة، وهذا التوازن السياسي والدستوري قد أذكي الصراعات على السلطة وعلى العرش بين الخصوم، وخلق بذلك جوًّا من الحرب الداخلية المستمرة، مما أدي إلى دخول البربر في اللعبة، إذ لم يضغطوا فقط على حدود الإمبراطورية، ولكنهم كانوا منخرطين داخل الجيش الإمبراطوري ذاته. ففي السنة التي نطلق عليها الآن ٣٩٤ بعد الميلاد، وصل الأمر إلى حافة الهاوية، فقد تنازع القيصر أغسطس فلافيو أوجنيو، وهو في الحقيقة من صناعة الجنرال الفرنسي أبورجسته Aborgaste (وهو بربري أيضًا)، مع تيودوزيو على اللقب الإمبراطوري، وعلى من يقيم في العاصمة الجديدة التي تقع على ضفاف البسفور. وكانت هذه هي مقدمة الانقسام النهائي للمملكة إلى إمبراطورية شرقية وأخري غربية. وإذا ما أردنا أن نضع ذلك في سياقه التاريخي، فإنه يمثل واحدة من حلقات الصراع التي تدخل في المرحلة النهائية لأزمة متفاقمة. وبعد أقل من ثمانين عامًا، أي عام ٤٧٦، وفي نهاية سلسلة من الصراعات الداخلية والصدامات على الحدود، سيقوم أودو أكري، الذي انتخب ملكًا من جانب الرؤساء الجيرمان المتمردين بإقصاء الإمبراطور رومولوس أغسطس وإرسال مراسيم الإمبراطورية إلى القسطنطينية التي ستأخذ من روما مكانًا كمقرٍّ شرعيٍّ وحيد للسلطة الإمبراطورية. ولكن هناك عامل من شأنه أن يجعل هذا التحدي ذا طابع خاص، شيئًا غير مألوف أو متعارَف عليه في تلك الأوقات: العامل الإيديولوجي- الديني.

وقبل تلك المعركة بسبعين عامًا، والتي ظلت ذات شهرة وتحمل في طياتها العديد من الرموز، وهي معركة بونتي ميلفيو Ponte Milvio التي ورطت الدين في الصراع على السلطة مستجيبة بذلك لرغبات الجماعات المسيحية التي هي في تزايد مستمرٍ. فقسطنطين بدلاً من محاربتهم تحالف معهم وهزم منافسه مازيتسيو Massenzio مُعليًا بذلك رمز الصليب عاليًا وكاتبًا على لوائه: "في هذا رمز للمنتصرين". والآن يلوح في الأفق مرة أخرى هذا الموقف ولكن بأسلوب مضادٍّ. هذه المرة أخذ حزب "الوثنيين"، أي المساندين للتقاليد المتوارثة زمام المبادأة رافعًا لواء الدين. أمَّا خصمهم الإمبراطور ثيودوزيو الذي دفع الاختيار السياسي لقسطنطين لأقصي العواقب الممكنة، على الرغم من كل هذا فقد رفع المسيحية إلى منزلة الدين الرسمي للإمبراطورية بادئًا سلسلة من

الإجراءات ضدّ الوثنيين والزنادقة في المناطق الشرقية التي تخضع لسلطانه[1]. وها هو عدد لا نهائي من القوالب النمطية التي تنهار. فنحن قد اعتدنا أن ننظر إلى روما بوصفها مركزًا ومنارة للمسيحية. ولكن في هذه الفترة الانتقالية، أي الفترة التي وقعت فيها تلك السلسلة من الأحداث التي أدَّت إلى ميلاد المسيحية، والتي لم تكن نقطة ارتكازها في روما ولكن في الشرق، في القسطنطينية. فلا تزال روما مهد التقاليد الرومانية، وفي الغرب قام "الوثنيون" بحشد كل قوتهم ضدّ التهديدات التي تسعى لاستئصال حقيقيّ لديانة أسلافهم.

وقد قام حاكم إيطاليا نيكوماكو فلافيانو N. Flaviano بمحاولة متأخرة ويائسة لإعادة فتح المعابد وإعادة إحياء الشعائر الدينية منتهجًا بذلك نهج جيوليانو. وفي ربيع عام ٣٩٤ تم الاحتفال بترف شديد بالأعياد على شرف آتيس Attis وسيبيلي Cibele.

وبدأ تيودوزيو زحفه فورًا من قسطنطينوبولي إلى القتال. فلم يبقَ له سوي اللعب بالورقة الأخيرة، الخيار العسكري.

وفي الخامس من سبتمبر من نفس العام حدثت مواجهة بين الجيوش المتناحرة والآتية من كلا ضفتي نهر فريجيدوس (والذي يطلق عليه اليوم فيبافا Vipava) في امتداد وادي إيسونزو Isonzo. فهذا المشهد جدير بوقفة متأنية لإظهار الحقيقة التي اضطلعت السيوف بإظهارها. وعلى امتداد نقطة التقاء الجبال التي تحدِّد الحدود بين شطري الإمبراطورية، أمر القائد أربوجسته الذي كان على رأس الجيش بتشييد سلسلة هائلة من التماثيل الضخمة لجوبيتر كبير الآلهة والتي تعلو بهيئتها الضخمة والمخيفة فوق النتوءات الصخرية لتكون كحاجز معنوي منيع ضدّ حشود الأعداء التي تتقدم في تماسك. فسيد الأوليمبوس سيحميهم من تقدم الأعداء بصواعقه الذهبية التي كان يتغنى بها الشعراء Aurea Fulmina. وعلى غرار ما قامت به قوات قسطنطين، ولكن الآن من الجانب المضادّ، أي جانب الأسلاف المقدسين، فقد فرض زعماء الطوائف الوثنية إضافة صور كبير الآلهة على الرايات. وهكذا ظهرت الصواعق الذهبية على الرايات والأعلام والتي يجعلها الهواء النقي للجبل تمتلئ كأشرعة السفن عندما يهب بين حشود الجيش.

وفي أول صدام بين الحشود العسكرية القوية للجيشين، يبدو أن الإله الأعظم قد أنصت إلى صلوات جنود فيلق الغرب وقام بحماية تقدُّمهم الجارف، وحيث إن العدو قد بدأ يتقهقر، فإن الرايات التي كانت تحمل الصليب بدأت تتشتت وتتبدد في أثناء الهروب.

---

[1] صدرت سلسلة من المراسيم الإمبراطورية تحظر التنجم، ودخول المعابد وطقوس وعبادة الآلهة في المنازل، بل وحتى الألعاب الأولمبية. وآخر هذه المراسم صدر في ٣٩٢م، بعنوان ذي دلالة وهو "ضدّ الملاحدة والوثنين"، وكان هذا المرسوم يحقق حلم النصارى غير المتسامحين ويفتح الباب أمام تدمير وإزالة كل الطقوس والرموز الشركية.

أمّا تيودوزيو فتقاعس عن الصلاة، وكان أحد الناسكين المتعبدين المعتكفين بجبال تيبايدي ويُدعى جيوفاني دي نيكوبولي، قد تنبأ له بأنه سينتصر وبعدها سيُتوفّى. وفي الحلم قام كل من سان جيوفاني وسان فيليب بتذكيره بتلك النبوءة. ثم حدث أنه في اليوم التالي بغتة (كما يقص أيضًا بعض المؤرخين الذين يُعتبرون قليلي الميل إلى الخيال مثل روفينو) استأنف القتال في ميدان المعركة ثم هبَّت فجأة رياح بورا Bora الجليدية الشمالية بكامل قوّتها وعنفها تجاه تماثيل جوبيتر، والكتائب المتحصنة حولها لدرجة جعلت دروع الجنود تصطدم بعضها ببعض وملأت أعينهم بالرمال وارتدت السهام إلى من قذفوها بعنف، تلك الرياح التي تطوي الأشجار عندما تهبُّ ناحية جزيرة أستريا، وتحولها إلى غصون جافة.

هذا الوصف الذي يصور انتصار فريجيدوس Frigidus على الوثنيين كالمعجزة أسهم في جعلها الاستئناف المثالي لمعركة بونتي ميلفيو وتمنح كلاً منهما سمة المحنة، فهي إذن حكم حقيقيٌّ من الله الذي قدّر بطريقة قطعية سيادة "الشفقة المسيحية" على الخزعبلات وترك المجال حرًّا أمام اضطهاد الوثنية إلى أقصى حدٍّ ممكن.

"كما ظننت وأعلنت أن المنتصر سيكون تيودوزيو –هكذا كتب أجوستينو– الذي أطاح بتماثيل كبير الآلهة التي كانت ترتفع فوق جبال الألب والتي تبدو مخصصة لذلك الإله الذي يناقض عقيدة تيودوزيو ".

وقد انتحر نيكوماكو فلايانو، أما تيودوزيو فمات في العام التالي مؤكدًا النبوءة. وسيتمُّ ذكره في التاريخ المكتوب من قِبل المنتصرين بلقب "العظيم".

سيماخوس وأمبروجو

عادة، عندما نفكر في الرموز الدينية المتصارعة، يتبادر إلى الأذهان الصليب والهلال. وفي هذا السياق تبدو هذه المعركة القديمة والتي دخلت الآن في طَيِّ النسيان أكثر تفرُّدًا والتي تتصادم وتتواجه فيها الصلبان والصواعق. إذا كان الخير الذي تحمله أي قضية يمكن قياسه من عددٍ الأشخاص المستعدين للموت من أجلها، كما يؤكد ويساند تلك الفكرة الكثيرون، فإن تذكُّر هذه المقاومة الأخيرة للوثنية بتماثيلِ ملك أوليمبوس جنبًا إلى جنب مع آلات الحرب وفي نداء أخير للمعجزات، يمكن أن يشكِّل سببًا آخرَ لتأمُّل حالة نسبية الأحداث الإنسانية وإعادة النظر تجاه قوالبنا النمطية وأفكارنا الجامدة التي تتعلق بالديانات القديمة. فقبل هذه المبارزة في ميدان المعركة، كانت هناك مبارزات أخري فكريةٍ. ومن بين كل هذه المبارزات تبدو واحدة مليئة وثرية بالمعاني وكان محورها تمثالاً، كما أن قيمتها الرمزية جعلتها شديدة التفرد. ويعد Quinto Aurelio

Simmaco حاكم روما واحدًا من آخر المدافعين الكبار عن الوثنية، وهو الآن في غياهب النسيان، كما أنه ذو ثقافة كبيرة وشديد الارتباط بالتقاليد الوطنية (وابنته تدعى فيستاله ماسيما Vestale Massima). فقبل عشر سنوات من المواجهة العسكرية في وادي إزونزو وبالتحديد في عام ٣٨٤، كان هو الراعي الأول لمبادرة تهدف إلى منع نقل تمثال النصر المجنّح من قاعة مجلس الشيوخ، ذلك التمثال الذي يرمز إلى قيم روما القديمة. وفي خطاب له في حضور الإمبراطور فالنتينانو الثاني Valentiniano II دافع النصير الشهير للأرستقراطية القديمة بقدرة خطابية كبيرة وبهدوء عن القضية التي من أجلها كانوا يحاربون الإجراءات التشريعية بغرض النصرانية كدين رسمي، حتى "لا يتمّ إقصاء الديانة الرومانية من بنود القانون الروماني"[1]. وقد أخذ على عاتقه الدفاع عن حُرِّيَّة الأديان والتعددية الثقافية وكذلك احترام الهوية العرقية ناسبًا إلى نفسه المناقشات الجدلية التي صاغها وعبَّر عنها الإمبراطور جيوليانو في المعاهدة التي تحمل اسم "ضدّ جاليليوس" Contra Galilelos، ذلك الإمبراطور الذي قام قبل ذلك بوقت ليس ببعيد بأكثر المحاولات شجاعة ووضوحًا لإعادة إحياء ديانات الأسلاف حتى أصبح جديرًا بلقب "المرتدّ".

أمَّا سيماكو Simmaco فأكَّد أن نفس "العقل الإلهي" يحدد أن لكل شعب تقاليده الخاصة mos ولكل مدينة ديانتها الخاصة ritus، وكما أن المواطنين يكتسبون أرواحهم لحظة الميلاد، كذلك فإن الشعوب عند بدايتها تكتسب عبقريتها الدفاعية[2] fatales genii.

والنقطة المحورية الخاصة بالمدينة الفاضلة هي عبارة أصبحت شهيرة، وقد أشرت إليها متحدثًا عن الفلسفة الأبدية لأنها تلخِّص جوهرها، ويمكن اعتبارها رمزًا للتسامح الديني في كل العصور:

"إنه شيء واحد ذلك الذي نبجِّله جميعًا، ونفكِّر فيه، فنحن نتأمل نفس النجوم، والسماءُ التي تُظلُّنا واحدة، وعالَم واحد يحيط بنا جميعًا. فما الذي تجلبه مختلف أنماط الحكمة التي عن طريقها يبحث كل منا عن الحقيقة؟ فلا يمكن الوصول إلى لغز كبير كهذا عبر طريق واحد (Uno itinere non potest perveniri ad tam grande secretum).

---

[1] تمَّ اتخاذ قرار إزاحة تمثال النصر المجنَّح بواسطة فالتنيانو الثاني المعروف باسم جراتسيانو Graziano الذي حكم ما بين عامَي ٣٦٧ و٣٨٣م، وكان قد اعتنق المسيحية في سن صغيرة وأمضى بعض الوقت في ميلانو وتأثر بالأسقف Ambrogio وكان أول إمبراطور يتخلى عن منصب الحبر الأكبر، وينقل ملكية الأموال العامة التي كانت مخصصة للطقوس التقليدية إلى الدولة، وبذلك حجب عن المدارس الكهنوتية امتيازاتهم، وقد لعبت المصالح السياسية دورها جنبًا إلى جنب مع رمزية الصور الدينية وتم اغتيال جراتسيانو، وبعد موته أصبح حزب الوثنيين قويًّا للغاية لدرجة أن من المنتمين إليه فضلاً عن سيماكو كان مسؤول القضاء والحرس الإمبراطوري لإيطاليا وإفريقيا وIlliria على ساحل الأدرياتيكي الشرقي فليتو أجوريو برتستاتو Veltio Agorio Pretestato ورجع حزب الوثنيين إلى سابق قوته مع الإمبراطور الجديد وتم إلغاء المرسوم السابق.

[2] انظر Theoi etnharchoxai لجوليانو.

ولكن كان صوت الشعب هو أن القياصرة والأباطرة لا يقررون أي شيء دون التشاور أو لا مع الأساقفة مثلما كان يفعل أسلافهم في وقت ليس ببعيد حينما كانوا يستشيرون العرّافين والكهنة. وللإجابة برفض وإعراض على نداء المدافع النبيل عن تقاليد روما التي يمتد تاريخها لألف عام، كان الأمر يتطلب شخصية شديدة القوة، وكان هذا الشخص هو الأسقف Ambroglio Mediolanum ذا الشخصية الجذّابة (وكان هو أيضًا ينتمي إلى أسرة أرستقراطية بالإضافة إلى كونه "علمانيًّا"، وعضوًا في الحكومة وتمَّ انتخابه كأسقف بإجماع الشعب).

فالخطاب الذي وجَّهه هذا الشخص المبجَّل، الذي خضع لسلطته ثلاثة أباطرة[1]، إلى الملك بشأن هذا الموضوع كان يحتوي على عبارة رمزية أغلقت إلى الأبد الحديثَ باسم الكنيسة المسيحية ولَخَّصَت بإتقان وضع مسلمات كل عقيدة: "الذي لا تعرفونه نعرفه نحن من صوت الربِّ. والذي تبحثون عنه عن طريق الافتراض، نحن نعرفه بطريقة مؤكَّدة من حكمة الربِّ شخصيًّا ومن الحقيقة".

طمس الماضي

إن التاريخ الذي يتمُّ تدريسه لتلاميذ المدارس بوصفه التاريخ الفاصل في انتصار المسيحية هو إعلان ميلانو عام ٣٢٢م، والذي منح هذا الدين وصفة الشرعي " religio licita وهو منعطف هامٌّ بالتأكيد، والذي لا يغيب أثرة عن المعاصرين أنفسهم، مع الوضع في الاعتبار أنه حتى قرابة عشر سنوات قبل ذلك، كانت توجُّهات القيادة والإدارة تبدو مضادّة تمامًا، بل تحت حكم دقلديانوس وجاليريو، جرت موجة المحاكمات والمذابح البشعة ضدّ المسيحية، ومع ذلك فقد تمَّت المبالغة في الدلالة على ضوء ما حدث بعد ذلك.

وقد كان الأمر في الواقع عبارة عن صدام يغلب عليه الطابع الوثني، فقد راهن قسطنطين من جانب، وخصمه Massenzio على الجانب الآخر على من كانوا يعتقدونه الربّ الأقوى ليكون حاميًا لجيوشِ كل منهما. بل وكما وضح جليا بعد اثنين وسبعين عاما في معركة Frigido، أصبح لُبُّ وجوهر المسيحية في الشرق، حيث كان يحكم Massenzio، وليس في روما.

---

[1] انظر اللاتسامح المسيحي تجاه الوثنيين: L intolleranza cristiana nei confronti dei pagani إعداد بيير فرانكو بماريتشه، طبعة بولونيا ١٩٩٠، ص ٢٥

إن إعلان ميلانو، ظل وثيقة حذرة ومحدودة من جانب قسطنطين لاعتبارات، ومواءمات سياسية[1]، وكانت مقتصرة على السماح للنصارى، مثل كل الآخرين "بحرية اعتناق الدين الذي يفضلون".

إنها كانت وثيقة، يمكننا أن نطلق عليها اليوم "وثيقة تسامح"، لأنها كانت تمنَح أولئك الذي كانوا يُعتبرون حتى تلك اللحظة خطرين على النظام القائم، وعلى السلام الدائم pax deorum، تمنحهم حقَّ ممارسة شعائرهم إلى جانب المعترف بهم قانونيا.

ولم يكُن ذلك كافيًا على الإطلاق لأتباع دين لا يقبلون الديانات الأخرى على قدم المساواة، وقد كان هناك -على هذه الخلفية، عدم إمكانية المصالحة بين الأديان وبين المسيحية التي ظهرت مرات عديدة، بين مفهومَين متعارضَين تمامًا، فمن جانب "لا يمكن الوصول إلى سرٍّ الإله عبر طريق واحد"، ومن الناحية الأخرى "ما تبحثون عنه بجهد، نعرفه نحن عن الله بشخصه". غير إن هناك عاملاً آخَرَ أيضًا، فقد كانت هناك فكرة أخرى أساسية في المسيحية زادت من الهوَّة، وغذَّت التعنت بعد الانقطاع عن الماضي. فالديانتان الأخريان المنزَّلتان تستمدَّان الإلهام من الماضي، فبالنسبة إلى اليهود يبدأ العالم بهم، وبالنسبة إلى المسلمين فإن الوحي الذي جاء به محمد لا يناقض ما جاء به أنبياء اليهود والنصارى السابقون، بل يعطي فقط التفسير الصحيح له.

أما بالنسبة إلى النصارى، فإن ميلاد، وآلام المسيح، على الرغم من أنها لا تنكر العهد القديم في الظاهر، فإنها في الواقع تعيد بدء كل شيء من أول السطر وعلى أسس جديدة تمامًا.

إن توسُّعًا دينيًّا يُفهَم على أنه تدمير مملكة الربِّ في العالم بدايةً من تجسُّد المسيح، لا يمكن إلاَّ إن يكون خطرًا، ويؤدِّي منطقيًّا إلى تدمير تامٍّ وقاطع لكل المعتقدات السابقة.

ورغم أن الكنيسة أصبحت سيدة الميدان وفارس الحلبة في مدى بضعة عقود، فإن ذلك لم يكُن كافيًا؛ إذ كان يتعين تقويض الأسس الدينية لحضارة كاملة عمرها آلاف السنين، ولم يكُن ذلك أمرًا هيِّنًا. وقد كان الوثنيون كثيري العدد، ويسيطرون على قطاعات هامَّة في الأرستقراطية، والبيروقراطية الإمبراطورية، وفي الجيش، وفي الثقافة. وقتال الوثنيين كان مثل التصادم مع جدارين لأن عقيدتهم -على تمكن عقيدة النصارى- فيها مقومات تلقي وامتصاص عقائد الآخرين.

---

[1] إن قسطنطين لم يكُن بالتأكيد مثالا للقداسة، فقد أوعز بقتل أمه وابنه. لقد اعتنق النصرانية فقط وهو على مشارف على الموت، وأراد أن تكون جنازته عسكرية لا دينية، وبصفته المسؤول الأعلى عن كل عقائد الإمبراطورية فقد كان يحرص على الاحتفاظ بخط انتقائي على المستوى الشكلي، فأمر ببناء كنيسة للسلام في العاصمة الجديدة على ضفاف البسفور والتي كانت تحمل اسمه، ومعبد مخصَّص لإله الظلام Dioscvri، ومعبد للربَّة Dea Fortvna، وقد وضع تمائم كثيرة في قواعد هذه المعابد وهذه الكنيسة.

وعلى الصعيد السياسي كان هناك حذرون يتهمون تيودوزيو بأنه أسرع عملية تفكك وانهيار الإمبراطورية بدعمه لعقيدة إقصائية مثل العقيدة المسيحية، في الوقت الذي كان فيه عديد من أسلافه يعتبرونها مدمّرة لدولة متعددة العرقيات تقوم على الولاء للرموز المقدّسة، حيث كان يُعتبر رفض التضحية من أجل الإمبراطور هرطقة أشد جرمًا من سبّ وإهانة العلم بالنسبة إلينا، ولم يتحمل رجال ذوو حسٍّ عميق مرهف حظر الاحتفال بشعائر الأجداد، وانتحروا بقطع شرايينهم.

وقد وصف أحد كُتَّاب العصر وهو زوزيمو Zosimo تنصير الإمبراطورية القسرى بأنه السبب الرئيسي لسقوط روما وفى عام ٤١٠م (بعد أربعة عشر عاما من صدور القوانين التي تحظر الاحتفال بالأعياد الدينية للقديسين الآباء) احتلّ ألاريكو Alarico، مدينة أوربه Urbe ، ففسَّر زوزيمو ذلك على أنه "انتقام من آلهة الأوليمبس"[1].

وبناء على هذه المصاعب، كان يتعين اعتبار مراسيم تيودوزيو على أنها نقطة انطلاق فقط. فلم يكن من الممكن النوم على أكاليل الغار، بل كان على العكس يلزم تقوية النجاح بسلسلة من الحملات -ولا يهم أن تستمرَّ لقرون عديدة- لاجتثاث جذور أي أثر لأعداء العقيدة الداخليين والخارجيين، ولطمس أي إشارة عابرة للوثنية والكفر بكل الوسائل، وبلا هوادة. على الصعيد اللاهوتي، والسياسي، والثقافي. فبعد ثلاثمائة عام من الصمود، صار النصارى مضطهَدين، بعد أن كانوا مضطهِدين.

دعاية متحررة

إن القمع المنهجي الذي قامت به السلطات الكَنَسيَّة، بمباركة أو تأييد السلطات العلمانية، حصد عددا كبيرا من الضحايا، لا سيما على صعيد المتهرطقين. وكما هو معلوم، فإن الخائنين عادة تتمّ معاملتهم بقسوة أكثر من الأعداء، ويرى الخيال الجماعي أن عجلة التعذيب والمحرقة التي عُذِّب بها المتهرطقون الضالُّون، أخذت مكان حلبات الأسود والإعدامات الأخرى التي كان تنفذ فيها في السابق الأحكام على شهداء المسيحيين الأسبقين.

وقد كان تبنِّي وسائل قمعية تجاه غير النصارى أكثر غموضًا، وإذا كان كثير من غير النصارى - ومن بينهم عدد غير قليل من اليهود - قد دفعوا حياتهم ثمنا لقناعاتهم، فقد حدث ذلك بسبب اضطرابات أو أعمال متعصبة، لا بناءً على خطة للسلطات الحاكمة، ولم يكن ملائما قط استخدام القوة لمنع الناس من ممارسة شعائرهم القديمة، أو

---

[1] Michel Grant, 'gli imperatori romani Newton Compton 1984 p 356 الأباطرة الرومان

لفرض التعميد عليهم. إن هدف الكنيسة كان في العمق، فقد كانت معركة من أجل النفس. فالهدف كان التنصير، أي الاستيلاء على الضمائر، وتحقيق التحام حميمي وكامل مع العقيدة، وليس التحامًا شكليًّا.

وقد كان أصعب عمل لتجنيد أتباعٍ هو الذي جرى بين أعضاء الطبقات المثقفة، الذين لم يفلحوا في فهم سبب عدم إدخال الرسالة الجديدة من أجل إنقاذ النفس بهدوء في تراث المعتقدات التي كانت سلفًا كما حدث دائمًا. بل كان يلزم إقناعهم بأن كل ما آمنوا به طوال حياتهم، وما آمن به آباؤهم وأجدادهم على مدى أجيال عديدة، كان خطأً، ورجسًا من عمل الشيطان. وهو الأمر الذي لم يؤكده في الماضي أحد حتى مع الديانات الأكثر سذاجة وغموضًا.

إن عملية جذرية، وطموحًا هكذا، كانت تُحَتِّم أن تتم ليس فقط بوسائل تشريعية، بل كان الأمر يتطلب هجومًا إيديولوجيًّا واسع المدى، وصبورًا، وهجومًا دعائيًّا محدد الأهداف. ومن ثم تم ممارسة أشكال من العنف المعنوي بطريقة منظمة ودقيقة، وقد تعين خصوصًا في البداية تجاوز بعض التناقضات. فعند تكوين الجسد Corpus المذهبي سواء لاكتساب الفئات المثقفة، أو لترشيد التيارات الروحية العاملة بالفعل، انتهي الأمر -كما رأينا- بالأخذ بحرية من تراث الفلسفة والميثولوجيا الكلاسيكية.

وكان ذلك سلاحًا ذا حدَّين، لأنه دعّم المقاومة الشرسة التي تمثلها البيئة التقليدية الفظَّة للوثنيين pagus، وهو عالَم المزارعين الخالد المرتبط عاطفيًّا بأعمال السحر وبالخزعبلات المتنوعة.

وتحت هذا الملمح أظهر دفاع المسيحيين الأوائل عن العقيدة لباقة وهو يدحض الحقيقة التاريخية لدى جمهور الناس، وفى قلبها جذريًّا بطريقة يحسدهم عليها خبراء استخدام المعلومات المعاصرين، وقد كانت الذريعة بسيطة، ولكنها عملية. كانت هناك قصص متنوعة واحتفالات مسيحية مألوفة تتشابه بصورة واضحة مع حكايات وطقوس ميثولوجية. ومع ذلك أسرع المبشرون النصارى بالتحذير من أن الشيطان قد نزغ في هذا الأمر، وهو أستاذ كبير في تعكير صفو الأمور، والذي استخدم الآن كل حيله وألاعيبه الخادعة ليوقف انتشار البشارة Buona Novella ويرى جوستينو الشهيد G. Martire على سبيل المثال، أن الدينية المسيحية لا تستقي من الطقوس التي كانت قبل ذلك، بل الكيانات الشيطانية. الاحتفالات الدينية هي التي فتحت الباب للمحاكاة الساخرة للأمور المقدَّسة في المسيحية. وهكذا كانت عقيدة ميترا القائمة على نضح دم الثور عبارة عن سخرية بسر القربان المقدس وكان رش المعابد الوثنية بهدف التطهير يحاكي التعميد وهكذا، وكانت بمثابة عمل شيطاني دائمًا كانت تحقيق النبوءات الكاذبة، وتشبيهات أخرى

مزيّفة مع الألغاز المسيحية، مثل الموت العنيف، وارتقاء باخوس وميلاد بيرسيو Perseo من عذراء، وإحياء الموتى على يد إسكولابيوس.

ولكي نصل إلى المنظِّر الأول الكبير والمتطرف لتاريخ الكنيسة، بل المنظِّر الحقيقي للّاتسامح المناهض للوثنية، يجب أن نصل إلى حقبة متأخرة بعض الشيء، أي فترة ما بعد قسطنطين. هذا الأصولي المحارب للوثنيَّة هو يوليوس فيرميكوس ماترنوس J. Firmicus Maternus، وقد كان يوليوس محاميًا وعالمًا بالفلك من سيراقوزا، واعتنق المسيحية في سنّ متقدمة ومن ثم كان لدية الحماس المتوقد لمن يعتنقون الديانة، وقد كتب وثيقة أسماها "أخطاء تدنيس الدين" عام ٣٤٥م De errore profanarum والتي وجهها إلى أبناء قسطنطين، داعيا إياهم لتدمير كل أثر للوثنية، التي ما هي إلا سلسلة طويلة من الأخطاء والخدع، ورجز من عمل الشيطان. وكان أول من نظّر إلى نشر المسيحية بالقوة، وبدعم من السلطة العلمانية.

وكان أشهر المدافعين عن المسيحية قبله من اليونان واللاتين، يرون أن الفكر الوثني مضحك، وموصوم، وكانوا ينظرون إليه كعمل شيطاني، ومع ذلك كانوا يعتقدون بأن إجبار الناس على اعتناق المسيحية مخالف للإنجيل. فمفكرون من حجم إيرينيو دي ليونه Irenio di Lione وكليمنته أليساندرينو Clemente Alessandrino وإيبوليتو Ippolito، كانوا يؤكدون على أن الإله يريد اعتناقًا ينبع من قناعة داخلية، وليس بالقوة. إن حرية الضمير تحدَّث عنها كذلك مؤلفون نصارى لاتينيون مثل لاتانسيو Lattanzio وترتوليانوس Tertulliano، فقالوا: «ليس من الدين الإكراه في الدين». وفى بداية القرن السادس الميلادي كذلك، كان تيودوريكو Teodorico يدافع عن الفكرة القديمة التي ترى أن الدين، سيما الدين المسيحي، لا يمكن أن ينتشر بالقوة.

إن تحريض يوليوس الفظ والمحموم على العنف، لم يكُن له ثقل كبير، ولا مردود كبير. غير أن التنظير المؤثر لاستخدام العنف لمناصرة العقيدة كان بعد ذلك ببضع سنوات على يد أجوستينو Agostino، الذي فسَّر قصة العشاء الرمزية في الإنجيل -لكي يهزم هرطقة انشقاق الكنيسة الإفريقية- كتبرير للإجبار والإكراه. وسنعود للحديث عن هذه القصة الرمزية في الجزء السياسي، لأنه تأسست عليها إحدى أهم الكتابات الخاصة بالتسامح، وهى كتابات بايل Bayle. وقد حدث في هذه الأزمان صور عنف في مناطق شمال إفريقيا وجنوبها، حيث كان الاحتكاك والتماسُّ بين النصارى وخصومهم. وقد كان أبطال العنف الرئيسيون هم خدم الربِّ، الذين كان كل شيء متوقَّعًا منهم عدا السلوك العدواني؛ إنهم رهبان هذه المناطق الذين كانوا كثيري العدد. فقد أعطوا المثال على إمكانية أن يتحول الحماس المفرط بسهوله إلى أداة تدمير متعصبين، وإلى تعصُّبٍ موظفٍ سياسيًّا.

كثير من الأساقفة، سيما في القلاع الهيلينية حيث كانت تسود تجمعات مرتبطة بقوة التقاليد الدينية (يهود، أتباع ميترا، أتباع إيزيس، زرادشت)، وهم يمارسون سياسة أنجلة (نشر الإنجيل) الكنيسة المنتصرة، كانوا يضيفون إليها غالبًا روح العداء، والانتقام، التي هي عكس روح الإحسان Caritas، مطمئنين إلى أنهم على أقل تقدير سيقابلون إنكارًا ومقاومة من جانب السلطات الإمبراطورية، لا من رفاقهم، والرتب الكنسيَّة التي تعلوهم[1].

ولكي يمارسوا أعمالهم المتطرفة ضدّ إرادة حُماة القوانين، وجد هذا النوع من آيات الله النصارى ضالّتهم في "طالبان" مناضلين بالضبط في مكان لا يخطر على بال أحد، وهو الصحراء حيث كان الرهبان كثرة ومحمومين بالحماس المقدس.

ويؤكد مؤرخ الأديان ويليام فرند W. H. C. Frend أنه يلزم مهارة علماء النفس، وعلماء علم الاجتماع، فضلاً عن مهارة المؤرخ، لحل اللغز العجيب، وهو كيف أن رجالاً كرسوا أنفسهم للصلاة والعمل والإحسان، من أجل الفقراء والمقهورين، استطاعوا أن يكونوا أبطال مشاهد عنف جسيمة ضدّ أتباع عقيدة مخالفة لعقيدتهم[2]. وقد نجد لذلك تفسيرًا في أن من خضع لحياة من التضحيات القاسية والعزلة والصوم، لا يستطيع أن يظهر بمظهر المستريح والطيب تجاه من يُنكِر ويسخر -بالأقوال والأفعال- من هذا النوع من الحياة. ولقد تركت قسوة، وتطرف هؤلاء الرهبان علامة كئيبة في تاريخ الكنيسة بالأقاليم الشرقية من الإمبراطورية الرومانية، خصوصًا في سوريا وفينيقيا ومصر، بداية من آخر سنوات القرن الرابع، وحتى بدايات القرن السابع الميلاديَّين، وذلك من خلال أشرس لحروب الرهبان وأكثرها دموية ضدّ الوثنيين والزنادقة، والتي تركزت أكثر في الخمسة عشر عامًا الممتدة ما بين عامي ٣٨٥م و٤٠٠م.

لقد أصبح رهبان الصحراء، الذين كان يطلق عليهم قطاع الطرق Paralabani، أكثر من كونهم ذراعًا مسلحة للكنيسة، جماعةً من المقاتلين المتعصبين، الذين يمكن أن توفر مغامراتهم مادة لحكايات الرعب، أكثر من قصص القداسة. كانوا يلبسون الأسوَد من الثياب والقلانس ويعيشون بعيدًا عن المدن كقُطَّاع الطرق، في تقشف، ويمارسون الزهد، وفنون الحرب، ومستعدين، إذا ما أمرهم الأسقف، لأن يقوموا بحملات تأديبية عقابية، وبوحشية، ودائمًا باسم الرب القادر على كل شيء.

---

[1] من بين المدخلات السياسية لأمبروجو كانت تلك المداخلة التي كانت تهدف إلى إلغاء القرار الذي أدان به الإمبراطور أسقف مدينة callinico على نهر الفرات وحكم عليه بدفع تعويض عن خسائر حريق المعبد اليهودى الذي أضرم ناره النصارى.

(2) مرجع سابق، ص٣٨ l' intolleranza cristiana.

قد صار رئيس الدير الأبيض في Tebaide واسمه Scenute مشهورًا، ويقال إنه وصل إلى سن ١١٨ عامًا، وحتى اخر نفس له بذر الرعب والهلع في مصر بين الوثنيين واليهود والنسطوريين في حقبة كان انتصار المسيحية فيها يبدو أكيدًا (منتصف القرن الخامس الميلادي). فلم يتخل سكينوتي Scenute عن حملته المتعصبة من الشتائم وحتى أعمال العنف.

وقد كان يؤكد على أن قدرة الرب تجعل أي موضوع في اتجاه معاكس لا قيمة له. وقد منع عمل النصارى عند الوثنيين، وأحرق عددًا من المعابد، وسرق كتبًا مقدسة حتى من مواطنين محرومين. وحتى في المرة الوحيدة التي تم اقتياده فيها للمحاكمة أمام الوالي، توافد النصارى على المدنية ومنعوا جلسة المحاكمة. ولم يتجرأ حاكم تيبايده Tebaide العسكري نفسه تيودوزيو على إدانته، على الرغم من أنه أضرم النيران في معبد كرونوس Kronos في سالينوم Salinum.

وقد وصف ليبانيو Libanio، وهو أحد المدافعين الشجعان عن الوثنية في خطبته المؤيدة للمعابد "Oratio Pro Templis"، هؤلاء بأنهم "رجال يلبسون ثيابًا سوداء، ويأكلون أكثر نهما من الفيلة، ومشهورون بما كانوا يشربونه من... ، وكانوا يهرولون إلى المعابد ومعهم العصي والأحجار والمعاول الحديدية، يدمرون الجدران ويقلبون الصور والمذابح. وكان على الكهنة أن يتحملوا في صمت أو يموتوا. ولا يكتفون بسلب المعابد الحامية التي تردد عليها الفلاحون لأجيال، بل كان الرهبان يهاجمون أراضي المزارعين، ويستولون عليها كأرض مقدسة".

ويعطى كذلك مؤرخ وثني آخر هو إيونابيوس Eunapio الذي عاش في قلب الأحداث، حكمًا على الرهبان لا يختلف عن ذلك كثيرًا في مؤلَّفه "حياة الفلاسفة". فقد كتب: "كانوا بشرًا في ظاهرهم، ولكن يتصرفون كخنازير، وكانوا يقترفون جرائم عديدة، ويسمحون بها، وكانوا يعتبرون إظهار الاحتقار للأشياء الإلهية ورعًا.

فمن كان يلبس ثوبًا أسود، ويقرر أن يتصرف بطريقة غير لائقة على الملأ، كانت له سلطة طاغية، إلى هذه الدرجة من الفضيلة وصل الجنس البشرى (حياة الفلاسفة، ٤٧٢).

ذهبت الشكاوى الموجهة إلى الأساقفة أدراج الرياح، لأنهم كانوا في أكثر الأحيان – كما قيل– هم المحرضين، وكان كل شيء يمكن أن يدخل تحت التدابير الحكومية ضدّ رموز التدين القديم، حتى وإن كان بشيء من الإكراه.

وقد أشار تيودوريتو Teodoreto في كتابه "تاريخ الكنيسة" Historia ecclesiastica إلى أن كبير أساقفة القسطنطينية جوفانى كريزوزستمو G. Crisostomo "اختار بعض الزُهّاد المتحمسين، وأرسلهم ليدمروا المعابد". وأضاف قوله إن "سيدات ثريات معروفات بعقيدتهن" دفعن كل النفقات المترتبة على التدمير[1].

وفي ذكريات ديوسكورو Dioscoro تم وصف تفصيلي لهجوم مسلح ضدّ معبد وثني في مصر في القرن الخامس، قاده الأسقف مكاريوس، وانتهي بقتل الكاهن الأكبر للمعبد أوميرو Omero الذي مات حرقا.

وقد تمّ تسجيل هجمات مماثله لرهبان في الأقاليم الغربية للإمبراطورية، على الرغم من أنها لم تكُن متكررة ومدمِّرة هكذا، ففي شمال غاليا Gallia قام قُطَّاع الطرق هؤلاء وبعباءتهم المعروفة بتدمير المعابد ودُور العبادة الأخرى يقودهم أسقف تورز Tours، واسمه مارتينو، وهناك واحدة من أشهر القصص حول هذا القديس (الذي يُعَدُّ من بين آباء الكنيسة لرحمته وشفقته أكثر من عقيدته)، تحكي أنه أحرق معبدًا. فقد دمرت النار التي "أمر بها" وبدقة المقرات الظالمة للآلهة المزيفة والكاذبة. ولكن عندما أوشكت النار أن تلمس عتبة بيت مجاور يسكنه أناس أبرياء وأمناء أسرع القديس أمام ألسنة اللهب فتوقفت على الفور دون أن تلقِي ولو بشرارة واحدة على هذا المسكن.

إزالة الأصنام

لقد توقفت طويلا عند هذه المظاهر من اللاتسامح لدى النصارى الأوائل لأنها تمتلك كل ملامح ذلك الحماس الديني المنحرف، والذي نطلق عليه اليوم "الحماس الأصولي". وكما يفعل علماء الآثار في العصر الحديث، الذين يتبنون طريقة التوفيق البندولية بين القطع الأثرية في الماضي والتي جادت بها البيئة المعاصرة، بحيث تبرز إحدى القطع الأخرى والعكس، يمكننا كذلك هنا أن نتسلل إلى مجال اللامتسامح، والمحارب للأيقونات في أول تولِّي المسيحية لمقاليد السلطة من خلال عقد مقارنة مع ما يجرى في البلاد الإسلامية التي بها أنظمة حكم ثورية-دينية، أو متطرفة، ويمكننا أن نفهم بشكل أفضل الجو الذي يسود في البلاد الإسلامية من خلال استلهامنا لما كان يجرى في المرحلة الريادية لديننا.

[1] المرجع السابق ص ٥١

كثير من أوائل التدابير التي تمّت بحماس خاصّ، وعلى خلفيه الخوف من ممارسة الجنس، كانت ضدّ كل ما يبدو أنه تسلية وتفاهة، ويلهي عن السلوك الصحيح لخدمة الربّ.

فاليوم سواء في إيران أو في السعودية (وكذلك في الأحياء المتعصبة في تل أبيب والقدس) نجد أن أول شيء تستهدفه فرق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو السينما والتلفاز، بوصفهما أدوات للشيطان، ووسائل للترويج للرذيلة والفجور. وتأتي بعدهما الرياضة والموسيقي والموضة، وهلم جرًّا. وقد كان حماة العقيدة في عصر النصارى الأوائل يستهدفون الطابع الشهواني للصور، والطقوس الوثنية.

وكان تاتسيانو Taziano من أوائل الذين أدخلوا فكرة أن أعمال الفن الكلاسيكية مثل النحت بصفة خاصة أدوات فسق تفسد الشباب بعريها الفاضح، وتؤدي بهم إلى الغواية. فقد ذكر تاتسيانو في كتابه "موعظة لليونانيين" Orazio ai greci (عام ١٧٨م) أنه ليظلّ في الأمان كان يفضل نبذ كل الحضارة اليونانية والميثولوجيا والفلسفة والشعر والبلاغة والفن.

أما المظاهر الموصومة أكثر ومحط السخرية باستمرار، فكانت مظاهر التهتُّك، والرموز الذكرية (للعضو الذكرى) لبعض الطقوس التي كانت تُظهِر صرامة الشعائر المسيحية بصورة أفضل، ولكنه ذهب سريعًا أبعد من هذا. فقد تم حظر استخدام التيجان والموسيقي، وحتى الرقص (الذي كان يُعتبر مكوِّنًا أساسيًّا لطقوس ديانات كثيرة في كل أنحاء العالم.

وقد تم السماح بموسيقى الكورال داخل حدود ضيقة جدا، وقد خضع المسرح لبحث دقيق. وقد تم النظر إلى ارتياد الحمامات العامة، وهى عادة اجتماعية عتيقة في العالم الروماني، بتوجُّس متزايد. وثم تم حظرها في النهاية، وقد تم إدانة الصور والنحت بصورة مزدوجة سواء لأنها كانت تصور دون احترامٍ الجسم الإنساني، وأيضًا أعمال الحب الجسماني، أو لأنها كانت تصور الآلهة في جزء كبير، أي أنها أصنام.

ونظرًا إلى أنها في كثير من الحالات تتعلق بأشياء جميلة ونادرة وثمينة، فكان يجب على الحملة التي تهدف إلى تدميرها أن تكون مقنعة بشكل كبير، فالوثنية يحب تصويرها على أنها شيء أشد خطورة من مجرد عبادة منحرفة لجماد من الجمادات. فلا يجب اعتبار الأوثان رمزًا أو مجازًا، بل مظاهر مرئية للشياطين. فهذا التمثال، وهذا المعبد الصغير، وهذا المحراب للأيقونات، وهذا المذبح، كلها تجسيدات حرفية للشرِّ، ومن ثم يحب إزالتها قبل أن تنشر اللعنة، كما يحدث مع الأشياء الملوثة في زمن الوباء.

ومن ثم كانت مطاردة الأعمال الفنية ذات صفة دينية واضحة، أو تم الحكم عليها بأنها ماجنة، وفاضحة، وتحولت هذه المطاردة إلى إقصاء على مستوى واسع وفي غمرة الحماس التبشيري المتنامي، أصبح للشياطين وجود حقيقي، إذ تم رسم هذه الشياطين على شكل أرواح سود تسكن داخل التماثيل والمباني، وكانت تشكو وتعترض منذ أن أجبرت على الخروج إلى الفضاء المكشوف، وتم طردها من الصلوات وطقوس التطهير، بالضبط كما يحدث في حفلات طرد الأرواح الشريرة عن الممسوسين. "لماذا، يا خدام الربّ العلي، جئتم حتى هنا لطردنا من مساكننا القديمة والناعسة؟". الهدف الأول كان يتمثل في المعابد بطبيعة الحال فلم يتمّ إغلاقها بوصفها أماكن طقوس محرفة وتضحيات بربرية فحسب، بل كان يجب اجتثاثها عن ظهر الأرض، لأنه بداخلها كان يتركز أكبر عدد من الصور والرفات "الشيطانية"، وكما رأينا فهناك أساقفة كانوا يعتبرون تدمير هذه الأشياء من أهم واجباتهم (ويجلب ثمارا هائلة للكنائس). وكان الرهبان يقومون بهذا الدور بحماس شديد من خلال تحريض الناس.

ويؤكد أغوسطينو Agostino في "الآلهة الشياطين" Divinatione daemonum، أن إلغاء التضحيات وتدمير المعابد والأصنام كان تحقيقًا لإرادة الربِّ، ولم يأمر الرسل فقط بهذا العمل، بل تم -بإذن الله- التنبؤ به من قبل الشياطين أنفسهم. آن الأوان، وجاء وقت صنع المعجزات[1].

لم تسفر عملية التدمير المنهجي عن ضياع أعمال رائعة فحسب، بل نجم عنها إراقة دماء، وإزهاق أرواح لا حصر لها لأنها كانت تثير اضطرابات ومقاومات مسلحة، بل تحولت في بعض الحالات إلى حرب أهلية حقيقة. فكل تضحية تهون عندما يتعلق الأمر بأن تعلو صورة العذراء مع المسيح على الخزعبلات، ولا مجال للحديث عن التسامح. كيف يمكن التفاهم مع الشياطين؟

هدم السرابيوم

من بين المعابد الكثيرة، الصغيرة، والكبيرة، الجميلة والقبيحة التي تم هدمها في خضم الثورة على الأيقونات في نهاية القرن الرابع الميلادي كان معبد السرابيوم، وهو أكثر المعابد سحرا، والذي اعتبر المعاصرون هدمه بمثابة هدم للوثنية.

كان السرابيوم موجودا بمصر، مهد الحضارة، والتي كانت تعتبر على مدى العصر القديم كله على أنها الأرض التي اختارتها الآلهة، والمكان الذي يتم فيه القيام بالطقوس

---

[1] المرجع السابق، ص ١١٤

بإخلاص، والتي ظلت المركز القديم، والأكثر رونقا للتدين التقليدي، والنبع الدائم للروحانية حتى في تلك الحقبة التي تميزت بالاضطرابات، أما التراث المسيحي فقد اعتبر أن الهة مصر "الهة الأمم" التي تحدث عنها العهد القديم، والتي سيهزمها الإله الحق يومًا ما[1].

وقد كان السرابيوم فسيحًا ورائعًا ومتعدد الطوابق، ويقع على تلٍّ يُشرِف على الإسكندرية بحدائق معلقة وشرفات وأماكن إقامة لعديد من رجال طبقة الكهنة كان يتمّ الدخول إلى المعبد من خلال سُلَّم رائع مكون من مائة درجة، وكان هذا الجزء تزينه العناصر المعمارية اليونانية والمصرية، ويمتلئ بكنوز الفن والتماثيل والرفات والرموز المقدسة والأثاث.

إلاّ أن القبلة الرئيسية لآلاف القاصدين من الحجيج الذين كانوا يتوافدون يوميًّا من كل أنحاء العالم، كان تمثال الرب سيرابيس الذي يجلس على عرشه في قلب المعبد. هذا الإله التوفيقي، وهو أحد أكثر الآلهة المعبودة في العالم، كان يجمع بين ميراث الطقوس الفرعونية القديمة، واتخذ مظهر الإله الحامي للحصاد، ومن ثم لفيضان النيل، ولانتقال الأرواح نحو العالَم الآخر. ويؤكد أحد التقاليد القديمة أنه إذا ما تم الاعتداء على صورة سيرابيس، فلن تقلّ فيضانات النيل فحسب، بل سيتعرض العالم بأسره للتدمير، وسيعود الناس إلى زمن الفوضى القديمة[2].

تم الهجوم على المعبد الكبير في صيف عام ٣٩١م ودون مرسوم إمبراطوري على ما يبدو رغم خطورة العمل. وقد ألمح إيونابيو Eunapio إلى أن مهاجمة المعبد قد تكون مبادرة شخصية لأسقف الإسكندرية تيوفيلو Teofilo الذي كان بحاجة إلى أحجار مقطوعة بعناية لتشييد مبانٍ مسيحية. على أي حالة فقد قام بتحريض الرهبان على إتمام عملية التدمير.

وقد أشار روفينو Rufino في كتابه "تاريخ الكنيسة" إلى أنه حتى ممثلو السلطة وقادة الحشود التي تدمر المعبد، قد انتابهم الخوف والرهبة لحظة اجتياح الحشود للمنطقة المقدسة.

وقد كان تمثال الإله سيرابيس في آخر الرواق الأوسط محاطًا بالأشياء المقدسة وتنعكس حوله آلاف الأضواء الزرقاء والذهبية. ووسط صمت وذهول الحشود الغفيرة،

---

[1] المرجع السابق، ص ١٠٤

[2] كان من وقت إلى آخر تشبيه سيرابيس بأوزوريس وديويتريو، ويوسف أيضًا. وقد وردت أوصاف وتفاصيل للتمثال الموجود بمعبد الإسكندرية، لأنه كان شهيرا تقريبا بنفس قدر شهرة تمثال زيوس في أوليمبيا.

قام جندي أجنبي بتناول بلطة وهوى بها على قمّة الصنم، ففرت الجرذان من رأس التمثال المقطوع.

ويصف روفينو ذلك فيقول: "علت صيحة، ومع ذلك لا السماء سقطت، ولا الأرض غاصت وانخسفت، وكان من السهل على النصارى من وقتها أن يستثمروا هذا الأمر لصالح حروبهم ضدّ الوثنية، وأنه لم يحدث شيء، وأن النيل سيجرى في هذا العام بواحد من أفضل فيضاناته.

وقد استولى الأسقف على بقايا حطام المعبد، ومن ثَمَّ جعلها تجوب المدينة بهدف السخرية من هذه الطقوس الوثنية، وكانت هذه هي القشّة التي قصمت ظهر البعير، فقد هاجم حشد ثائر يقوده الفيلسوف أوليمبو Olimpo النصارى، وقتل منهم عددًا كبيرًا. ووجب على الإمبراطور Teodosio أن يتدخل شخصيًّا، فقد منح العفو عن المتمردين بحكمة كبيرة، وأعلن أن النصارى القتلي شهداء، غير أنه في النهاية أصدر أمرًا بهدم السرابيوم تمامًا. وبعد انتقال النصر الحاسم إلى روما، كان في الإسكندرية يتمّ قطع رأس تمثال أكثر الآلهة المعبودة في حوض المتوسط. وبعد ذلك بعامين تم إسقاط تماثيل جوبيتر Giove سيئة السمعة التي تم نصبها على طول قم الجبال قبل معركة فريجيدو Frigido. أهي حالة تذكرنا بكم التحولات التاريخية التي جرت بعد سقوط ذلك التمثال؟ ففي التاسع من أبريل عام ٢٠٠٣ أعلن سقوط بغداد على الهواء مباشرة عبر الشبكات التليفزيونية في العالم كله من خلال صور التمثال العملاق لصدام حسين الذي تم إسقاطه عن قاعدته بميادين الفردوس، وقد أتاح الحدث الفرصة لذكر أحداث أخرى مشابهة في أزمان قريبة، مثل تدمير تماثيل هتلر وموسوليني وستالين ولينين وسور برلين، وتدمير تماثيل بوذا في أفغانستان على يد طالبان بمنطقة باينان Banyan.

إن سقوط تمثال سيرابيس قد أوضح للعالم آنذاك أفضل من أي إعلان أو مرسوم إمبراطوري، أن الآلهة هُزمت بصورة نهائية. ومنذ ذلك الحين زادت عمليات تدمير التماثيل والمعابد والمذابح، وتم إغلاق معبد إيلوزي Eleusi بعد ذلك ببضعة أعوام، وكان ذلك بمثابة حجر آخر تم به إغلاق مقبرة الإلغاز.

ومنذ نهاية القرن الرابع، بدأت في التلاشي واحدة تلو الأخرى أركان تديُّن كاسح صاغ -بداية من ملاحم هوميروس- حضارةً متلألئةً، استمرت في التأثير وبصور متعددة، على ثقافة ما أصبحت معروفة باسم أوربا فيما بعد. ومن هنا حدث تصدع للأركان السياسية والعسكرية، واكتسبت الحضارة الرومانية الغربية وجها جديدا.

الفيلسوفة إباظيا ومهاجمة معابد المعرفة

متى تمّ التوقف عن هدم المعابد والبدء في تحويلها إلى كنائس؟

احتاج الأمر إلى مئتي عام أخرى حتى تهدأ الثورة على الأيقونات، ومع زيادة الاطمئنان إلى التفوق بدأت مرحلة ثانية أكثر تعقّلاً واعتدالا، كما هو الحال في كل الثورات.

فبداية من عام ٦٠٩م، ومع تكريس البانثيون Pantheon في روما في أثناء بابويّة بونيفاتشو الرابع Bonifacio IV، بدا افتتاح كنائس عديدة فوق المعابد، كنيسة تلو أخرى.

وحقيقة الأمر أن معابد حوض المتوسط التي تم الحفاظ عليها بشكل أفضل، هي تلك التي كانت مستخدَمة لهذا الغرض مثل تيزيون Theseion والبارثينون Partenone في أثينا، وما يسمّى معبد كونكورديا Concordia في أجرينتو Agrigento وكنيسة سيراكوزا Siracusa. إن الجانب الإيجابي لم يكمن فقط في استخدام أفضل لأشياء ثمينة وفنية، ولكن أيضًا في منح جمهور المؤمنين الشعور بالنصر. لم يعد هناك بعد حاجة إلى إزاله التماثيل والحجارة، فقد ولّى الشيطان الأدبار إلى غير رجعة. وبأعين متجهة دائمًا إلى القطيع، أيقن رعاة النفوس المسئولون عن تنظيم الطقوس الدينية، أنه آن الأوان لتغيُّر الموقف السابق الذي يجرِّم المصادر الميثولوجية والعقائد التي كانت موجودة قبل ذلك، ولجعلها تصبُّ في مصلحة العقيدة المسيحية مع صورٍ التدين التي غاصت في أعماق النفس الجماعية، والتي ترتبط بها بقوة الشرائح الأقل ثقافة من السكان.

وقد تمت العملية هذه المرة بمهارة كبيرة بإخفاء وإعادة تدوير الإرث الوثني بمهارة شديدة. وهذا - لكي أسوق لكم بعض الأمثلة - كان يبدو باهتا في إيجاد صلة بين العبادة الجديدة لمريم العذراء، وبين الأساطير البدائية للأم الكبرى وللربة البيضاء Dea Bianca (التي تم سبكها وصياغتها في حقب بعيدة بنفس التقنية في شخص إيزيس، وتشمل سيبيله Cibele وديميترا Demetra وأرتميدس Artemide، فقد تم استيعاب الشعائر الدينية التي قدّسها التراث السابق في الأجندة المسيحية، كطقوس الخصوبة (الكرنفال)، والاعتدال الشتوي، وحفلات الحصاد، وجني المحاصيل وقد تم تحديد يوم ميلاد المسيح - وهو تاريخ لا يمكن تحديده بدقة- بيوم الرابع والعشرين من ديسمبر، لأن هذا التاريخ هو تاريخ واحد من أكبر الاحتفالات تكريمًا لميترا Mitra، وهو احتفال تجلي الشمس Sol Invictus[1].

---

[1] انظر Jean Claude Bologne - Du Flambeau au bucher باريس Plon ص ٧٢. كان التاريخ حتى القرن الرابع هو ٦ يناير ثم ٢٨ مارس، ثم ١٩ ابريل، ثم ٢٩ مايو. وعلى نفس المنوال كان قرار الكنيسة بجعل عيد العمال الشيوعي في أول مايو عيدا كاثوليكيا لتكريم القديس يوسف النجار.

وقد تمّ إيجاد قديسين مشابهين لكل الالهة الحامية الهة الحصاد، والهة التجارة، والهة الفنون، وحتى الهة الحرب أو الالهة الحارسة للمدن، ومن خلال قصص تتلاءم مع الوظائف المنسوبة إليها[1].

وبعد ألف عام صار التمكين للعقيدة الجديدة مطلقا وأصبحت رمز الجمال الروحي، الذي يوقظ روح الحب الإلهي، وظهور بديل للسيدة مريم. وقد تم تشبيه آلهة أوليمبية أخرى بالملائكة، فديوتيما Diotima التي كانت دليل سقراط المحاور له في "الوليمة Simposio" والتي تم وصفها وكأنها تستلهم من روح القدس[2].

إن عملية طمس "الوثنية" كانت تدخل إذن ضمن مسار من الهدوء والسكينة، كان من الحكمة التقليل من استخدام وسائل عنيفة، واللجوء إلى حلول وسط، وتسويات من أجل الوصول إلى الهدف الأقصى، وهو الاعتناق الكامل، أي عالم مسيحي تمامًا.

وتبقى هناك عقبة أخيرة كأداء، وهي المثقفون، الذين تظلُّ مقاومتهم للتكيُّف شوكة في حلق كل الأنظمة الشمولية، فهؤلاء المتصلبون الذين كان يصعب زحزحتهم بموضوعات سطحية، أو خدع دعائية ساذجة، كانوا يمثلون ألدَّ الأعداء الذين يجب قهرهم. ليس مهندسو الدين المسيحي الجديد هم من لا يحترمون الثقافة السائدة في عالمهم، بل على العكس كانوا يهابونها ويحترمونها، وكانوا يدركون -كما قلنا- أنه لا يمكن الحديث عن انتصار كامل لعقيدتهم دون كسب أنصار هذه الثقافة. ولكن ذلك كان هدفًا صعب المنال بالنسبة إليهم من وجهة التعددية الثقافية، لأن رؤيتهم كانت دائمًا وفقط رؤية الاعتناق، وقد تمّ الاعتراف بقيمة فكر ما قبل المسيحية داخل حدود وبشروط معيَّنة. ومن بين آباء الكنيسة، يلجأ بازيليو Basilio إلى صورة موحية ومعبِّرة للغاية، إنها صورة شجرة الجميز: "إن شجرة الجميز تثمر كثيرًا، ولكن ثمارها لا طعم لها، إلا إذا تم خدش سطحها بعناية، وترك العصارة تخرج، وبذلك تصبح ثمار الجميز شهية ولذيذة. ومن ثم فإني أرى شجرة الجميز هنا ترمز للسواد الأعظم من الوثنيين، الذين يمثلون ثروة لا طعم لها، وهذا يرجع إلى الحياة التي يعيشونها وفق التقاليد الوثنية. فإذا استطاع أحد أن يحفزها بكلمة، تتحول عندئذ وتصبح حلوة المذاق، وتصبح قابلة للاستخدام"[3].

---

[1] بعد ذلك بألف سنة، أيقنت سلطات الكنيسة في العالم الجديد، خصوصًا في أماكن العرقيات المتعددة، أن تتبع أفضل سياسة، وهي غض الطرف عن بعض الاختلاط بين تعاليم المسيحية وطقوس أهل البلاد الأصليين، بدلاً من الدخول في مواجهة مباشرة عواقبها وخيمة، وحاليًّا في البرازيل استسلم الأساقفة الذين حاولوا منع النصارى من التردُّد على معسكرات "Campos " الـ Ubanda والـ Condomble. لدرجة أن الكنيسة استطاعت أن تسمح لنفسها أن تنظر بعين التسامح إلى مزيد من استرداد الثقافة الوثنية لقوتها من خلال جهد مثقفي عصر النهضة، من خلال زيادة عملية الاستيعاب للعناصر المثيولوجية. فقد اكتسبت فينوس حقَّ المواطنة في عالم الديانات الجديد.

[2] مرجع سابق، ص ٢١٦ Richard Tarnas, The passion of the western mind

[3] اللاتسامح المسيحي intolleranza Cristiana مرجع سابق، ص١٣٥.

يُظهر مشهد شجرة الجميز جيّدا اتحاد مفهومي المحافظة، والتحويل، وكان يمكن للتراث الثقافي القديم أن يجد مكانا في الحضارة الجديدة فقط عندما يكون التحول ممكنا (وهو المفهوم الذي يقوم على أساس أنصار "انشر الكلمة" Semina Verbi). وما دام على العكس كان يتمّ اعتبار الأفكار القديمة معادية تمامًا، ولا يمكن التصالح والالتقاء بينها وبين الأفكار الجديدة، كان من اللازم محوها إلى الأبد، وطمسها من التاريخ.

فالفلاسفة والمفكرون إمّا كان يجب استيعابهم في المنظومة الجديدة أكثر من التماثيل، والمعابد، وإما أن يطويهم النسيان. وكذلك اللغة كان يحب مراجعتها بعناية، وتجنب أن تثير بعض التعبيرات ذكريات ودلالات مزعجة وضارَّة، فالقوة لا تفيد كثيرا، والكنيسة كانت تتجنب أن يسقط شهداء، بل كانت تفضل، ما أمكن ذلك، أن تبارك الخصوم. فكان يحب إقناع المثقفين، وإطراؤهم، وإغراؤهم وإلا فلن يبقى هناك خيار سوى تكميم أفواههم، وحرمانهم من بيئتهم humus الطبيعية، المدارس والكتب والمنابر ومن ثم يُعتبر بمثابة شيء استثنائي وشاذ قتل مثقفة على مستوًى عالٍ في فترة الاضطرابات البعيدة تلك، ويُعَدُّ قتل الشهيدة الوثنية حالة ترمز بوضوح إلى ظاهرة اللاتسامح المسيحي. ما زلنا في الإسكندرية الزاهرة، وفي عام ٤١٥م وتحت حكم الإمبراطور يتودوزيو الثاني. وكان أسقف الإسكندرية آنذاك Cirillo، وهو حفيد Teofilo الذي رأيناه يتميز بسعاره ضدّ المعابد، وبتدميره لمعبد السرابيوم. وقد كان Cirillo متوقد الحماس ضدّ الوثنية، وقد لقي انتخابه معارضة كبيرة، وسرعان ما دخل في صدام مع ممثِّل السلطة الإمبراطورية Oreste بسبب بعض مبادراته الذاتية ضدّ الفرق المتهرطقة، وبإغلاق بعض الكنائس، ومصادرة بعض الممتلكات. وكانت الجالية اليهودية المحلية التي كانت في حالة توتر دائم مع النصارى، أحد أهداف Cirillo التي صوب إليها سهامه، فقد كان يتحرك في هذا الاتجاه بتطرف وحقد رهبان الصحراء، الذين كان واحدًا منهم لسنين عديدة. واتخذ من كمين نصبه يهود لمجموعة من النصارى ذريعة ليقود الثأر بنفسه، وبدعم من أصدقائه الرهبان، بدلاً من أن يلجأ إلى السلطات، مستغلاً بذلك لسلطته، فاقتحم ومن معه معابد اليهود، ونهبوا ما فيها، وأخرجوا من المدينة أناسًا سكنوا الإسكندرية منذ أيام الإسكندر المقدوني[1].

جوٌّ مشحون كهذا ميَّز عصرًا انتقاليًّا بكاملة قد يساعد على تفسير القتل البربري والوحشي لواحدة من أقطاب الثقافة السكندرية المرموقات، وهي الفيلسوفة إباظيا Ipazia. فقد كانت إباظيا شخصية فلسفية، وعالمة بالحساب والفلك، وتخطَّت شهرتها حدود

---

[1] وقد قام أولئك "الهمج الثائرون" بمهاجمة ممثل السلطة الإمبراطورية وحراسه بتحريض من تشيريللو Cirillo، وقد نجا أوريسته Oreste ومن معه بأعجوبة بعد تدخل السكان. وقد أعلن تشيريللو أمونيو Ammonio شهيدا، وطوّبه، وأمونيو هو أحد الرهبان المتمردين، الذي قتل بعد القبض عليه بتهمة قيادة العدوان، وإصابة الوالي بحجر.

المدينة، كان من أنصارها وأصدقائها العديدين الأسقف سينيسو Sincsio نفسه، وهو أسقف توليمايده Tolemaide في تشيرينايكا[1] Cirenaica. هذه الفيلسوفة مزقها المتعصبون النصارى إربًا إربًا بالمعنى الحرفي للكلمة.

وتوجد روايات متعددة حول هذا الحادث الدموي بعضها رواه الجانب المسيحي، وبعضها رواه الجانب الوثني[2] ". وربما حملت كلتا الروايتين منها جزءًا من الحقيقة، ولكن كيف جرت الأمور؟ يصر الوثنيون على تأكيدهم على أن الحادث الإجرامي كان مع سبق الإصرار، وأن الأسقف نفسه كان مسئولا عنه من الناحية الأخلاقية. ويرى النصارى أن الموقف كان خارج السيطرة وأنه كانت هناك مثيرات كثيرة على أنه حال حتى هذه اللحظة كانت المعركة ضدّ الوثنية حتى تلك المعركة الشخصية لتيوفيل Teofilo كانت قد أبقت على معابد المعرفة. فمعبد موزيون Museion (الذي يوجد في مساحته المخصصة للزراعة مقر أشهر وأهم مكتبة في العالم) كان من بين أعضائه والد إباظيا تيون Teone وهو عالم حساب شهير أيضًا كان يعمل في ذات المعبد. وقد كانت الصدمة للتعدِّي على احترام هذه المنطقة بمثل هذه الجريمة أكبر، نظرًا إلى شخصية الضحية المرموقة، والتي يقال إنها فوق ذلك كانت جميلة للغاية. وقد عاشت إباظيا طويلاً في ذاكرة البيزنطيين لدرجة أنه كلما أرادوا أن يشيروا إلى امرأة حكيمة وعليمة كانوا يقولون إنها إباظيا ثانية، أو إنها تيانو Teano الثانية، وهي واحدة من أتباع فيثاغورث.

ولقد كانت إباظيا مصدر إلهام وما زالت لكثير من الأدباء والمؤرخين.

وسواء أكانت عملية التطهير للمثقفين عنيفة أم لا، وكانت تتوافق مع منطق حديدي أم لا، لا يمكن تأكيد ذلك، فإذا كانت الأصنام والمعابد يجب تدميرها بوصفها: رموزًا تتعارض مع جوهر العقيدة الحقة، فإنه كان من المنطقي أكثر تكميم أفواه المفكرين الذين كانوا يروجون لهذه التصورات الضالّة، ويستمرُّون في إحيائها إذا لم يتمّ إسكات صوتهم.

وقد تم القمع على نطاق واسع للمثقفين تحت فترة حكم جوستينيانو Giustiano، وهي السنوات التي تقع بين عامَي ٥٢٧ و٥٦٥ من الميلاد، وسيطول بنا المقام هنا للحديث حول استعادة الوحدة الرومانية على يد هذا الإمبراطور الذي يعتبر بحقٍ شخصية مؤثرة

[1] كانت قديما جزءًا من شمال ليبيا (المترجم)

[2] إن وصف الأحداث متشابه إلى حدٌ ما في التقارير المتنوعة، ولكن تفسير الأحداث ليس هكذا خصوصًا في ما يخصُّ دور تشيريللو Cirillo الذي يشار إليه بوضوح على أنه المحرك الرئيسي للجريمة. ويبدو على أي حال أن عصابة من الموتورين النصارى على رأسهم شخص يُدعَى الراهب بطرس -وهو من رجال الكهنوت- فاجئوا الفيلسوفة بينما كانت تعلم على منبرها على قول، أو في طريق عودتها إلى بيتها علي حدّ قول آخرين، وقاموا بجرِّها حتى كنيسة اسمها Caisareion شُيِّدت في مكان كان فيه معبد أوجوستو Augusto سابقا. وهناك -حسب ما يرويه سقراط المؤرخ المعاصر للأحداث في "تاريخ الكنيسة"- وبعد أن جردوها من ملابسها، قذفوها بالحجارة حتى ماتت، ثم مزَّقوها إربًا إربًا، وراحوا يحرقون بقايا جسدها في ميدان عامٌ. ويرى سقراط -وهو كاتب مسيحي- أن "عار هذه الجريمة يقع على كاهل Cirillo وعلى كاهل كنيسة الإسكندرية.

أدت إلى التواصل بين عملين تاريخيين ويكفي أن نتذكر هنا إطلاق جوستينيانو لفكرة توسيع المدينة الرومانية إلى المدينة الأرضية، أي عالمية إمبراطورية يحق لها بناءً على القانون الطبيعي سيادة العالم، وكان يقصد بالضرورة أيضًا الوحدة الإيديولوجية للدولة ومن ثم الزواج بالأيديولوجية المسيحية، الأمر الذي يصب في مفهوم ثيوقراطي تقوده السلطة الأرضية إلى نظام علوي يريده الله. ويلخص جوهان إرمشير J. Irmscher هذا الموقف النابع من هذه الخطة هكذا:

"إنها دولة ذات صبغة مسيحية، تقوم على ممارسة الشعائر، وتميل إلى شكل الإمبراطورية التي تضمُّ العالم بأسرة، يقوم على أمرها إمبراطور، تمثل مسألة العقيدة بالنسبة إليه أهم المشكلات، التي من أجلها يتعين عليه أن يُلقِي بنفسه بكل قوته في مواجهة أولئك الذين يتعدون بأي شكل هذه العقيدة، سواء أكانوا في صفوف النصارى أم اليهود أم سمرّائيين، وسواء أكانوا ينتمون إلى أقدم ديانات التوحيد أم وثنيين، أم يمثلون الاتجاهات المختلفة"[١].

إغلاق أكاديمية أثينا

إن امتداد القمع ضدَّ الوثنيين إلى مدارس الفكر يمكن أن يمثل الفصل الأخير والختام المنطقي للعملية الطويلة التي بدأها تيودوزيو Teodosio قبل مئة وخمسين عامًا.

إن سلسلة التدابير ضدَّ المثقفين، والتي جاءت متوافقة مع سياسة جوستنيانو، تجعلنا نفكر بطريقة مثيرة في ما جرى ضدّ اليهود، وضد مسلمي الأندلس في فترة إعادة تحرير إسبانيا، وفي القوانين المناهضة للسامية في الفترة الفاشية، وتؤكد أنه في حالة وجود محرّكات مماثلة، ستتولد مواقف مماثلة. فقد كان تدابير جوستنيانو تستهدف المتهرطقين والمانويين والهلينيين المخلصين للوثنية، واليهود والسمرائيين. فهؤلاء كان يتمّ إبعادهم عن كل الدرجات والمناصب العليا المدنية والعسكرية وعن مناصب مجلس البلدية، فضلاً عن مهنة المحاماة. ولم يكن مسموحًا لهم بامتلاك عبيد نصارى (كما كان الأمر في العصر الفاشي إذ لم يكن اليهودي يستطيع أن يستعمل خدمًا من النصارى)، وكان حظر ممارسة وظائف محدَّدة يتضمن مصادرة الممتلكات، وعدم الإعتراف بحق الميراث، والرقابة من جانب الأسقف المختصِّ. فمَن كان يرغب في تقلُّد منصب عامٍّ كان عليه أن يثبت التزامه بممارسة الشعائر المسيحية عن طريق ثلاثة شهود. ومن لم يتمّ تعميدهم بعد، كان يجب تبليغ أسمائهم ليتلقوا بعد ذلك التعاليم المسيحية، والتعميد، وكان يتمّ

---

[١] La fine della scuola neoplatonica di Atene في كتاب intolleranza cristiana مرجع سابق ص١٩٤، ص١٩٥. نهاية مدرسة الأفلاطونية الجديدة بأثينا.

مواجهة أيّ انتكاسات محتملة أو عودة إلى الوثنية بعمر اسه. وكان يعاقب بكفارة كبيرة عن التضحيات والطقوس الوثنية، أتباع هذه الممارسات المنحرفة كانوا معرّضين للتعميد القسريّ. وإذا ما قبل مزارعُ التعميدَ لأسباب انتهازية، ولكن أسرته ظلت وثنية، فإن عاقبة ذلك تكون مصادرة المملكات، وفقد الجنسية. كما كانت عقوبة للوثنين الذين يمارسون تعليم الشباب. ولضمان تنفيذ هذه التدابير، كان أفراد الشرطة الإمبراطورية ينتشرون في كل مكان من الإمبراطورية لتحديد المتشبه فيهم. وقد فرَّ كثيرون تاركين بيوتهم، وهاموا على وجوههم دون غاية محدَّدة، وآخرون قتلوا أو انتحروا مُؤثرين الانتحار علي أن يرتدُّوا، وقد كانت هناك حركات تمرُّد أيضًا مثل تمرُّد السمرانيين الذي استوجب تدخل القوات الإمبراطورية لمدة سنتين قبل أن يتم قمعه بإراقة دماء كثيرة.

وقد كان آخر إجراءات القمع وأبرزها إغلاق أكاديمية أثينا، بعد تدمير السرابيوم أو إغلاق معبد إليوزي. ويُعتبر هدم المؤسسة التي كانت تدَّعِي منذ ألف سنة تقريبًا أنها وريثه أفلاطون بمثابة خاتم المصادقة على غروب الوثنية الكلاسيكية نهائيًّا بعد معركة دامت قرابة قرنين[1]، ويؤكد هذا التميز والتفوق الديني -إضافة إلى الفلسفي- للعبقرية اليونانية أن علماء الآثار عثروا وهم يحفرون في موقع الأكاديمية بأثينا على بعض جذوع الربة ATHENA مخبأة في الآبار وربما نجَت هذه التماثيل النصفية من التدمير على يد المدرسين والتلاميذ قبل الإغلاق النهائي للمدرسة.

اجتثاث سنديانة أودين

تعود مسألة التنصير الكامل للظهور من جديد كلما دخلت شعوب جديدة في المجال السياسي للديانة المسيحية، فقد استغلّ رجل دولة كبير آخر، بعد جوستنيانو وبتحرر كبير رمز الصليب ليحقق برامجه التوسعية، وإعادة الوحدة واللحمة لإمبراطورية رومانية غربية وليدة، أصبحت هي الأخرى مقدسة، إنه شارلمان Carlo Magno تدمير كل أثر للوثنية على أرض أوربا الشمالية التي استولى عليها، وقام بذبح الشعوب الساكسونية التي رفضت التعميد.

---

[1] كانت المؤسسة الأثينية -مع المدرسة السكندرية- أحد أكبر مراكز الأفلاطونية الجديدة التي يمثلها التيار الصوفي والميتافيزيقي، وقد قبل أعضاء هيئة التدريس بها دعوة الملك الفارسي كسراويه الأول للانتقال إلى مملكته معتقدين إمكانية تحقيق دولة أفلاطون المثالية هناك، ولما ذهبت طموحاتهم أدراج الرياح بحج الحاكم الفارسي -مؤكدًا انفتاحه الذهني الرائع- في التفاوض مع جوستنيانو لإعادتهم إلى وطنهم مع الإعفاء من العقوبة وحرية التفكير، وظل محظورا عليهم ممارسة التدريس، ولكن ليس التدريس الخاص، لدرجة أن SIMPLICIO بعد أن عاد إلى بيته، استطاع أن يكرس نفسه بهدوء لتعليقه واستدراكه على أرسطو، واعتبرت السلطات ذلك بمثابة نشاط ثقافي موجه إلى الصفوة، ولا خطر منه على السياسة الإمبراطورية.

والمشهد الذي حدث في تلك الفترة، وله قيمة رمزية ويمكن مقارنتـه بقطـع رأس تمثال سيرابيس قبل أربعة قرون، كان قطع سنديانة أودينو Odino، وكان أودينو أو أودين Odhin أعظم لعالم الشعوب الجرمانية الديني، ذلك العالم الذي أعادته أعمال فاجنر إلـى الحياة بطريقة مهيبة، وكان أودين هو الذي يستقبل روح الأبطال الـذين يموتـون فـي الحرب في فالهالا Walhalla ، قوم الفالكيري Valkirie على حراسة هؤلاء الأبطال.

ويحكي رواة الأخبار وبتأثر كبيرٍ الغضبَ العارم، والألم الذي أحس به جموع الناس التي تجمهرت بالغابة لحظة قطع شجرة البلوط المقدسة، التي كان يقـصدها الحجـيج، وكانت موضع إجلال كبير، إذ أنها واحده من أقدم وأشهر الآثار الحيـة لتـديُّن البربـر والتي كانت مبجّلة باعتبارها حلقة الوصل بين السماء والأرض، أى بين ما هو طبيعـة وما هو وراء الطبيعة.ولم يكُن ذهول هؤلاء الرعاة البسطاء وجامعي الحطب والفلاحين لسقوط عالَم يمثل قيمهم، بأقل من ذهول أهل الإسكندرية المتطورة ذات يوم لدى تـدمير معابدهم، وقطع رؤوس تماثيلهم.

لم تُهزمِ الوثنية تمامًا على الإطلاق، ففي بعض المناطق المعزولة نجحت الوثنية في البقاء طويلاً تحت ضوء الشمس كما في laconia حيث انقرضت فقط في القرن التاسـع على يد الإمبراطور Basilio الذي أجبر السكان على قبول التعميد. وقد ظلت الوثنية في سياقات أخرى سرية ومهمشة أو تم اعتبارها غير ضارة، ويمكن تجاهـل أن مطـاردة الساحرات اعتبرها البعض مواصلة للحملة المضادة للوثنية، وكما أظهرنا في معـرض حديثنا عن تعدد الآلهة الذي كان موجودًا خارج القارَّة الأوربية، فإن المـشكلة سـتعود تحت عباءة أنجلة الوثنيين الجدد(فرض الإنجيل عليهم) عند بدايـة المرحلـة الحديثـة للكشوف الجغرافية، ولاندفاع أوربا خارج حدودها. إن النظر إلى الأعمال الفنية والأدبية على أنها تجسيد لقيم تتعارض مع المسيحية لم تتلاش كاملا من عقل المدافعين عن نقـاء العقيدة. فستتواصل أعمال تدمير الأعمال الكبيرة للعقل البشري في فترات صراع الأديان الأكثر حدة وستمتد أعمال التدمير كذلك إلى الصور المقدسة خشية أن تُعبَد، ويقع الناس بذلك في الشرك، ففي الفترة من منتصف القرن الثامن وحتى منتـصف القـرن التاسـع والتي كان فيها أوج الدفعة التوسعية للعقيدة الإسـلامية الجديـدة التـي كانـت تحـرِّم التصاوير، اشتعلت في الإمبراطورية البيزنطية معركة طويلة حول تحريم عبادة الصور Iconolastia، حيث كان الإمبراطور ليون الثالث Leone III يريد حظر الـصلاة أمـام الصور المقدسة، وكان ذلك مصدر خلاف بين الكنيـسة الـشرقية والكنيـسة الغربيـة. وسيظهر من جديد وبعد عدة قرون بحرمان الكنسي التوراتي ضدّ عبادة الأوثـان، فـي الرفض الكامل للتصاوير من جانب البروتستانت مقارنـة بالكاثوليـك، ففـي إنجلتـرا الإنجليكانية أيام هنري الثامن، تم إزاحة تماثيل السيدة العـذراء مـن أمـاكن العبـادة

وتدميرها، وقد تركزت أكبر جهود الكنيسة في فترة العصور الوسطى كلها على تـدعيم سلطتها في المنطقة التي استولت عليها، ومن ثمّ على إزالة أي بـؤر خـلاف داخلـي، وسنتحدث عن ذلك في الفصل التالي.



الفصل التاسع

موسم المحارق الطويل

"إن حياة البسطاء لا تضيئُها المعرفة، ولا الحسُّ الحارس للتميُّز والسموِّ الذي يجعلنا حكماء. والانضمامُ إلى مجموعة متهرطقة يعني لكثيرين منـــهم مجـــرَّد طريقة مثل أي طريقة أخرى للتعبير عن يأسهم وقنوطهم، إذ يمكن حرق بيت كاردينال سواء بسبب الرغبة في تحسين حياة رجال الدين، أو بسبب الاعتقاد بأن النار التي ينذر بها، لا توجد...".

أومبرتو إيكو، اسم الوردة

[«حرية الخطأ» أو «موت النفس»- الكنيسة حارســة الأرثوذكــسية - الجدل حول الثوابت "الدوجما"- موضوعات الهرطقة الكبرى - نبذة عن الحملات الصليبيّة - محاكم التفتيش الثلاثــة - «مطرقــة الــساحرات المشعوذات» - قمع الهرطقات في المعسكر البروتستانتي -أهي حقبــة أصولية طويلة؟

"حرية الخطأ" أو "موت النفس"

ظهر المسيح في شوارع سيفيليا Siviglia ما بين القرنين الخامسِ عـشر والــسادس عشرٍ، تعرَّف عليه الناس، وقام بإبراء الأمراض بطريقة معجزة. تَوقّف فيٍ كنيسة بهــا جنازةِ طفلة، وأعاد الطفلة إلى الحياة. وفي تلك اللحظة بالضبط وصل المفتش الكبيــر، وأمر بالقبضً عليه! وجرَت في السجن مواجهة دراماتيكية حكم العجــوز فــي نهايتهــا بحرق يسوع، لأن وجوده نفسه وتصرفه يمثلان خطرًا على النظــام القــائم. وبــصفته حارسًا لهذا النظام، ومن سلطته التنفيذية، فلا يملك خيارًا آخر، على الرغم مــن وعيــه التامِّ بأن الكنيسة التي يمثِّلها تطورّت بشكل يخالف تعاليم المسيح، وأنـــه، أي المفــتِّش،

بتصرُّفه المنسقٍ مع السلطة الزمنية والممالئ لها، يعرِّض نفسه للخسران الأبدي. وكردٍّ وحيد على المفتش، طبع يسوع قبلة على وجنة المفتش الذي فتح له أبواب السجن وهو يرتعش قائلاً له "اذهب ولا تعد أبدًا بعد ذلك!".

إن حكاية المفتِّش الأكبر Grande inquisitore، التي رصَّع بها دوستوفسكي روايته "الإخوة كرامازوف" التي تُعَدُّ بحقٍّ إحدى روائع الأدب العالمي، لَتؤكد كيف يمكن لروائي كبير أن يتغلغل بحدسه ويقتحم موضوعات معقدة للغاية، وذات أهمية تاريخية ضخمة. من بين هذه الموضوعات بالتأكيد موضوع الهوّة الكبيرة بين المُثُل العليا للدين، وممارسة هذا الدين، والخلاف الداخلي بين الأرثوذوكسية (الالتزام الصارم بالدين) والممارسة الصحيحة له في المسيحية، أي مشكلة الهرطقة، إذ يمكن حكاية تاريخ الكنيسة بوصفه حملة متواصلة ضدَّ الزندقة.

وقد كانت الخلافات الداخلية في السنوات التالية مباشرة لموت يسوع قوية للغاية إلى حدِّ أنه يمكن الحديث مباشرة عن وجود صور مختلفة من المسيحية. وعندما نتحدث عن ارتقاء المسيحية إلى مرتبة الدين الرسمي للدولة الرومانية، فالأصوب أن نتحدث عن تمكين للتيَّار المسيحي الذي نجح في أن يفرض نفسه على التيَّارات المسيحية المنافسة الأخرى. وقد أبرز ذلك بعد خمسة عشر قرنًا أميانو مارتشللينو A. Marcellino مؤلِّف كتاب "حياة جوليانو المرتدّ" عندما قال: لا يوجد حيوان مفترس أقسى على الإنسان ممَّا كانت قسوة النصارى فيما بينهم.

لماذا؟ لماذا الزندقة خاصة بالمسيحية؟

إن اشتقاق هذه الكلمة يعود إلى جذر الفعل اليوناني Airesmai ومعناه "يختار". فـ"الزنادقة" (المتهرطقة) كانوا هم من ينتمون إلى هذه المدرسة الفلسفية أو تلك، مثل المدرسة الأبيقورية أو المدرسة الرواقية، وهم على دراية بأنهم لا يفعلون أكثر من الاختيار بين طرق مختلفة للمعرفة، ووصفات طبية متعددة للحياة.

وهذا ينطبق تمامًا حتى على السياق اليهودي التوحيدي الصارم حيث كان يشار إلى التيَّارات المختلفة كالفريسيين والصدوقيين، والفلسطيين، والإسِّيين Esseni على أنهم "خيارات"، دون أن يكون لهذه الكلمة أي دلالة تحقيرية[1]

---

[1] فلافيو جوسيف، وهو أحد المؤرخين، وكان يطلق على التيارات اليهودية المختلفة في وقتها "زندقة". ويوجد تحليل دقيق للحرب على الهرطقات عند سيرجيو فو ولورا ماروتشللي: كتاب المسيحية الأسود". Fo, Sergio Tamat, Laura Malucelli, il libro Nero del Cristianesimo ، ص٤٤ نشر في نوفي موندي Nuovi Mondi

كان هدف المسيحيين على العكس من ذلك هو بالضبط إلغاء أي خيار، لأنه لا توجد طرق متعددة للسير، أو وصفات طبية للحياة يجب اتباعها، بل هو طريق واحد، ذلك الطريق الذي حدده "المعلم" الذي قال: "أنا الطريق، وأنا الحقيقة، وأنا الحياة".

فكل رأي يخالف الرأي الرسمي لا يمكن إلاّ أن يكون خاطئًا، ويصير المعنى الجديد لكلمة Eresia في المعجم المسيحي هو "رأي خاطئ"، بعد أن كان معناها السابق في اليونانية "خيارات".

ونظرًا إلى أن -على حدّ القول الشائع- الخطأ بشري، والإصرار على الخطأ شيطاني، فإن الزنديق الذي كان يرفض التوبة، يتحول رأيه الخاطئ إلى ذنب كبير. من لا يعرف الحقيقة يمكن أن يستحقّ الشفقة، ولكن من يبتعد عن الحقيقة بعد أن عرفها، ويستمرّ في غيِّه، لن يجد من يعفو عنه. بل إن الأمر في النهاية لم يكن يتعلق حتى بذنب، بل بجريمة حقيقية بمعنى الكلمة، جريمة أكبر من كل الجرائم، أكبر من الخيانة العظمى، ومن سبِّ الإمبراطور، إنها جريمة سبِّ الذات الإلهيَّة.

إنّ رفض العقيدة الصحيحة، والارتداد عنها لصالح عقيدة أخرى، كان يُعَدُّ تَحَدِّيًا لا يمكن التسامح معه، لأنه كان يلوِّث الأنفس، ويصيبها بالاضطراب. ومن ثَمَّ كان "الزنادقة" هم "الأعداء الداخليين"، الأشد خطرًا من غير المؤمنين، وكان يجب تحييدهم، وعزلهم بكل وسيلة[1].

والتشبيه المتردد الشائع الذي يجسدّ التصرُّف الذي يجب عمله تجاه الزنادقة، هو تصرُّف الجرَّاح الذي لا يجب أن يكون رحيمًا، بل يجب أن يبتر دون تردُّد العضوَ المريض لينقذ الجسد كله. وقد طرح أجوستينو Agostino المسألة بوضوح كامل. إن الأمر يتعلق بخيار صعب بين "حرية الخطأ" (Libertas erroris) و"موت النفس" (Mors animae)، أي أنه لا يوجد أي حيِّز في ما يخصّ العقيدة: إن إفساح المجال لاستكشاف طرق ما هو مقدس، حتى الخطأ، كان يعني تعريض النفس للخسران المبين والأبدي.

كيف يكون هناك شكّ -إذا ما وجب الاختيار بين حرية الخطأ، وموت النفس- في الاختيار الصحيح؟ نعم يمكن العفو عمَّن أخطأ، ولكن مطلقًا لا يكون العفو عن الزلَّة إذا كانت تمسُّ أمور العقيدة.

---

[1] القديس تومازو Tommaso II-II (1-11) : يعرف الهرطقة بأنها "نوع من كفر البشر الذين بعد قبولهم لعقيدة المسيح، يفسدون حقائقها المطلقة". والإنحراف عن المسيحية له طريقان: الأول رفض الإيمان بعقيدة المسيح وهو طريق الكافرين مثل اليهود والوثنيين، والطريق الثاني حصر عقيدة المسيح في أشياء بسيطة يتم اختيارها، وصياغتها على المزاج، وهو طريق الزنادقة المتهرطقين.

إذن هذا هو التفكير الذي أوصلنا إلى المحرقة مباشرة، وهو صورة من أشكال الإعدام لجرائم تهديد أمن الدولة، وسبّ الحاكم.

وهي شكل من العقاب لا يتلاءم مع الواقع: فألسنة اللهب كانت وسيلة التطهير الأكثر انتشارًا، وكانت مستخدَمة من جانب الأطباء لِكَيِّ الجروح، أو في حالة الطاعون، وفي نفس الوقت كانت مقدِّمة لألسنة النيران الخالدة في جهنم. وهكذا تدخل المحرقة ضمن الوسائل المؤلمة، ولكن لا غنى عنها لمجتمع يخشى الله، ويسير خطوةً خطوةً مع نشر البشارة السارة Buona Novella (الإنجيل). ففي نفس اللحظة التي كان فيها الفاتحون المتشددون في العالم الجديد يرتعدون عندما اكتشفوا أن سكان أمريكا الوسطى الأصليون Aztechi يمارسون طقوس التضحية بالبشر، كان يتمُّ في كل ميادين أوربا عرض مشاهد التضحية، بالعُصَاة المذنبين وهم يُحرَقون أحياء على الملأ، بعد تعرُّضهم لصنوف ألوان التعذيب.

الكنيسة حارسة الأرثوذكسية

لكي نستطيع الدفاع عن الأرثوذوكسية (الاستقامة على العقيدة الحقة) المتزمتة لدرجة تقديم الإنسان كقربان، كان يجب أولاً تحديد محتوى العقيدة، وتثبيت حقيقتها.

فالمشكلة المشتركة بين كل الديانات أصبحت أكثر تعقيدًا في حالة المسيحية، بسبب الشكّ في المصادر التي يقوم عليها الوحي، وهو شكٌّ حرِجٌ تكلمنا عنه في ما سبق.

أما بالنسبة إلى العقيدتين التوحيديتين الأخريين -كما قلنا- فاليقين المطلَق كان في الكتاب المنزل. أما في هذه الحالة، حالة المسيحية، فإن كلمة الربِّ لا يحويها كتاب مقدَّس، بل أصبحت شيئًا حيًّا، تكلم كإنسان مع البشر، وبفم بشري. كيف نتأكد أنه، حول بعض نقاط العقيدة الهامَّة، هذه هي كلمة الله وليست الأخرى؟ وكيف نجد النواة الحقيقية في مستودع عقائد الكتاب المقدس الكبير Deposit um fidei؟

ولإعطاء إجابة على ذلكٍ، صار ضروريًّا دعوة عديد من المجامع، وهي نوع من المحافل والجمعيات التي تشكِّل الكنيسة، تلك المجامع التي دامت لسنوات، وكانت مسرحًا لمساجلات عنيفة بين الإمبراطور، والبابا، والأساقفة، وعلماء اللاهوت، والخطباء المعارضين للإصلاح، المحافظين، والمعارضين لهم، وكلٌّ قد شهر سلاحه ضدّ الآخر.

وخرجت المسألة -كأي مسألة تأويل أخرى- من اللاهوت ودخلت في السياسة، إذ كانت مسألة السلطة. هل تذكرون المقايضة في "أليس في بلاد العجائب"؟ إن أليس كانت تقول: "إن المسألة هي إذا ما كان أحد يستطيع أن يعطي للكلمات معاني مختلفة هكذا،

فهو يجب أن يكون السيد. هكذا قال هاميتي دامبتي H. Dumpty". إن الأمر يتعلق إذن بالأحرى بتحديد من يملك سلطة فرض معنى محدّد على أنه هو المعنى الحقيقي.

والحلُّ الذي تمّت دراسته كان بسيطًا، وعبقريًّا. فعند عدم وجود نصٍّ أملاه المسيح شخصيًّا، يلزم اللجوء إلى مصدر وسيط له هيبته، وهو مصدر شهود العيان على موعظة المسيح، التي كانت قاصرة على مجموعة صغيرة من الحواريين الاثني عشر.

وكان تحديد هذا المصدر المرموق كمصدر وحيد له فائدة وميزة مزدوجة. فالميزة الأولى كانت إدخال معيار موضوعيّ وقابل للتصديق لاختيار النصوص التي يجب اعتبارها "معترَفًا بها وموافقة لمبادئ الكنيسة"، أي تقوم على "الحقيقة" ذات الأصل الإلهي. مَن المؤهّل أكثر من غيره لإعطاء هذا الخاتم من التوثيق من حواريِّي المسيح، الذين تابعوا الموعظة خطوة بخطوة؟

أما الميزة الثانية فهي إعطاء البعث -فضلاً عن معنى تأكيد ألوهية المخلّص- معنًى سياسيًّا -بأرقى معنى للكلمة- لوصاية محدَّدة للمسيح على حوارييه. فبعد عودته من عالم الأموات، قال المسيح: "اذهبوا إلى العالم أجمع وكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها" (إنجيل مرقص ١٦:١٥).

ولكن وصاية إلهية للدنيا كلها كهذه، يمكن تحقيقها فقط من خلال نظام كهنوتي منظوم في سلسلة لها فعاليتها. ومن هنا وبهذه الطريقة تَمَّ كذلك التكريس -مع عمل المعلم الروحي- لنظام المراتب والمناصب لكنيسة Gerarchia[1] يختارها الحواريون تكون وريثة طبيعية لهم، وتأخذ اسم "رسولية" زيادة على "كاثولوكية" و"رومانية". ويأتي على رأس الكنيسة البابا، وهو خليفة المسيح نفسه، ويستمدُّ شرعيته من بطرس Pierto أول الرسل، لأنه "أول شاهد لقيامة المسيح". ثم يأتي بعده الأساقفة والقساوسة.

ومنذ تلك اللحظة صارت العقيدة، والتقاليد، والتدرُّج الكَنَسِيّ هي الأركان التي يقوم بناء المسيحية عليها. وكل محاولة تستهدف واحدًا من هذه، فسيترتب عليها انهيار البناء.فالدفاع عن استقامة العقيدة، والدفاع عن المؤسَّسة، صارا صنوين لا ينفصلان. وكل واحد بمقدوره أن يدرك كم هو مدوٍّ من الناحية السياسية تطوُّر كهذا، فمنذ تلك اللحظة "العقيدة-الدوجما" لم تعد فقط حقيقية مُنزَلة، بل حقيقة مُنزَلة "كما تعرّفها الكنيسة[2]

---

[1] كتب إنياتسيو Ignazio أسقف أنطاكية: "مِن دون التدرج الكَنَسِيّ، لن يكون هناك شيء يمكن أن يُقال عنه كنيسة". وكذلك يؤكد Tertulliano في كتاباته ضدّ الزنادقة، أَن: "العقيدة الواضحة المحدودة التي توجد بيننا هي دليل آخر على الحقيقة، فضلاً عن أن الكنيسة هي التي تتمتع بضمانة التسلسل الرسولي، ومِن ثَمَّ فهي مؤهَّلة للتغيير الحقيقي لشرائع الكتاب المقدس".

[2] انظر مادة "دوجما" Dogma في الموسوعة الكاثوليكية.

إن اللا تسامح الديني الذي تمّ تسييسه على أعلى مستوَى، وكان في خدمته خليط مذهل من إيديولوجية، وبناء تنظيمي لم تفلح أقوى النظم الشمولية الحديثة في امتلاك نظير له.

ومن هنا بدأ منحنى المعارضة-القمع الذي على أساسه كانت طبقة الكهنوت تعتبر أن أي انحراف عن الشرائع يُعَدّ -قبل كل شيء- اعتداءً على سلطتها، وأن المعارضين يحوّلون انحرافهم عن العقيدة إلى مطالب اجتماعية واقتصادية. وهذا قوّى أكثر التحالف بين العرش والمذبح للدفاع عن النظام القائم، وجعل من المتمردين زنادقة متهرطقة، وجعل قمعهم -الذي لا يمتّ إلى اللاهوت بصلة- ذا صفة قانونية وانضباطية[1].

وكان أجوستينو أول من نادى باستخدام القوة ضدّ الزنادقة، واقتفى أثره Isidoro di Siviglia، الذي وضع نظرية أن الأمراء منوط بهم فرض حقائق العقيدة، التي يعلمها رجال الدين بالكلمة، بقوة القانون.

الجدل حول الثوابت (الدوجما)

إن النجاح في التأكيد على دور الكنيسة كحكم وحيد على مسائل استقامة العقيدة من خلال تكريس سلطة البابا، والأساقفة دون لَبس، كان بلا شكٍّ الخطوة الأولى الهامّة لحل المعضلة المتعلقة بنقاط العقيدة التي لا يمكن التنازل عنها. غير أن ذلك لم يكن كافيًا بعد، فكثير من الثوابت التي ضحَّى الشهداء الأوائل من أجلها بحياتهم، كان من الصعب عقليًّا شرحها، لدرجة أن Tertulliano اضطُرَّ إلى إصدار "credo quia absurdum".

وقد ظلت علامات الاستفهام التي تظهر بتلقائية حول هذه الدوجما هي نفسها حتى اليوم: إذا كان المسيح له طبيعة مزدوجة، بشرية وإلهية، وإذا ما كانت قيامة المسيح رمزية أم حدثت حقيقة، وإذا ما كان بين أشخاص الثالوث تدرُّج، وإذا ما كانت السيدة مريم عذراء وقت حملها بالمسيح، وإذا ما كانت العذراء ارتقت إلى السماء، وإذا ما كان هناك نار أم لا، وإذا ما كان بعث الأجساد يجب فهمه بالمعنى الحرفي أم لا، وهكذا.

وجدل ثريّ بالألغاز هكذا كان عسيرًا حتى على أهل الفصاحة خطباء الحضارة الهيلينية المعتادين على كل دهاليز المجادلة، أو على المتحدثين الصينيين السفسطائيين في زمن متى ريتشى Matteo Ricci، الذين لا يقلّون براعة في التركيبات اللفظية، فلنتخيل كيف كان يبدو هذا الجدل بالنسبة إلى الناس البسطاء معدومي الثقافة، فأي مؤمن بالمسيح

[1] متهرطقون وهرطقات في العصور الوسطى، ص٧.
Grado Giovanni Merlo, Eretici ed eresie medibevali Il ، Mulino, Bologna 1989

كان سيتخذ فورًا موقف الدفاع أمام تأكيدات من هذا النوع: "الله غير موجود" أو "الشمس هي الربّ". بيد أن رجلاً ضعيف الصلة باللاهوت ماذا عساه أن يجيب على من يجزم بأن "الإله الآب، الخالق، سيد السماء والأرض، أعلى من الابن" أو "الرب ليس قادرًا حقيقة، لأنه لا يستطيع منع الشر"؟

وأمام بعض التأويلات الموصوفة بالهرطقة، والتي كانت تبدو مع ذلك وكأنها تُجلي نقاط عقيدةٍ غامضة، وجد قساوسةٌ وآباءٌ خطباءُ أنفسَهم في مأزق وهم يدافعون عن المواقف الرسمية.

وقد كانت دراماتيكية الجدل اللاهوتي-السياسي خلال الفترة الطويلة التي نطلق عليها "العصر الوسيط" مصدر إلهام لأعمال أدبية عديدة [1]. هذه الأعمال يمكن أن تساعدنا على الغوص في جوّ تلك الحقبة، وتعميق تلك المراجعة للمعنى التحقيري الذي كان يراد إلصاقه بكلمة "وسيط".

وكم هو معبِّر ما قاله في هذا الشأن دارسٌ حاذقٌ للفكر الغربي:

"يجب أن ننتبه أن لا نُسقِط معايير الحكم العلمانية الحديثة عند مراجعة عالم حقبة سابقة، فالتوثيق التاريخي يشير إلى أنه بالنسبة إلى نصارى العصر الوسيط، فإن النقاط الرئيسية لعقيدتهم لم تكن معتقدات مجرَّدة فرضتها السلطات الكَنَسيَّة، بل كانت -على العكس من ذلك- جوهر تجربتهم ذاتها. وحديث الربِّ عن الشيطان، أو عن العذراء مريم، وعن حالات المعصية والنجاة، وانتظار ملكوت السماوات، كل هذه كانت مبادئ حيَّة تمثّل الأساس والمحرِّك الأكثر فاعلية للعالَم المسيحي [2]

وقد وصف Giorgio di Nissa عام ٣٥٠م تقريبًا وبمهارة وحرفية هذه الغرامية السياسية-اللاهوتية التي كانت بالتأكيد في أَوْجِها في ذلك القرن الفاصل في تطوُّر المسيحية، ولكنها لم تخبُ مع فجر عصر التنوير:

"اسألوا أحد المتاجرين بتغيير العملات عن دورة العملة، سيجيبكم بدقة حول المولود وغير المولود. ادخلوا عند الخباز، سيقول لكم: الآب أكبر من الابن. وإذا ذهبتم في النهاية إلى الحمامات المعدنية وسألتم هل الحمام جاهز، فسيأتيكم الحكم: خرج الابن من العدم" [3]

---

[1] كي أقتصر على الروايات الأكثر شعبية والحديثة أذكر: "Il gioco delle Perle di Vetro", "di Herman Hess" il nome della rosa" di Umberto Eco, وهما عملان يظهران ببراعة الجو الديني لتلك الأزمان الغابرة.

[2] Richard Tarnas, the Passion of the Western ....., OP. Cit., P. 169

[3] أنت بطرس Georges Suffert, Tu es Pierre, cit. P. 70

موضوعات الهرطقة الكبرى

كم كانت الهرطقات؟ وصلت في مجملها، كبيرها وصغيرها، إلى بضع مئات، وهذا بالإشارة إلى فترة تزيد على عشرة قرون، وإلى أرض فسيحة، ومع وجود حواجز جغرافية وإيديولوجية. ففي خضم اختلاط البشر، والقلاقل السياسية والاجتماعية، أصبح الدين هو الوعاء الكبير الذي تلتقي فيه كل الميول والاتجاهات، من الصوفية حتى العقلانية، ومن السحر حتى الخرافة.

وقد وصلت الكنيسة إلى هدفها العالمي بأن تصبح الطبقة الكهنوتية الوحيدة للإمبراطورية، ولكن بعد أن صارت الإمبراطورية مُمَزَّقة الأوصال. ومن ثَمَّ وجب على الكنيسة أن تبدأ من جديد وبمهارة عملها لإثبات ذاتها، وصلابتها أمام الوثنيين الجدد، البربر المسيطرين، الذين حملوا معهم ضروراتهم الدينية والأخلاقية والثقافية.

وقد أفلحت الكنيسة في الاحتفاظ بمواقفها حتى في الواقع السياسي الجديد، باستمرارها دينا للدولة، ودفعت إلى الأمام عقد الزواج المهلهَل بين البابا والإمبراطور. وكان الثمن الواجب دفعه للإمساك بزمام الوضع، كان يقظة وتشدُّدًا مطلقًا ضدّ أي صورة من صور الزيغ والانحراف.

يمكننا هنا أن نشير إجمالاً إلى أحد موضوعات الهرطقة الكبرى، التي بلغت من القوة ما جعلها تفتح الباب أمام حركات تمرُّد قادرة على القيام من جديد، وبصور جديدة على مرِّ الأجيال رغم كل الإعدامات، وكل ألوان الحرمان الكنسيّ. إنه الموضوع الذي أثار أقدمٍ وأخطر صدع، وأثار عاصفة لم تهدأ بعد على طريق الكنيسة، وما زال -كما كان- يمثّل الموضوعات الرئيسية لكل دين. إنه موضوع الخير والشر. لماذا يوجد الشرُّ، وكيف يسمح به إله قادر ورحيم؟

إن الثنائية الأفلاطونية بين المادَّة والرُّوح، والفصل بين عالَم محسوس وعالَم مفهوم، كسرت المنطق غير العقلاني لـ"الفلسفة الأبدية" التي يُعتبر الخيرُ والشرُّ على أساسها عنصرين يتفاعلان باستمرار، ويتغلغل كل واحد في الآخر بالتبادُل. وقد عَظّمَت الرؤية المسيحية هذه الثنائية، ثنائية النور في مقابل الظلمات، والخير في مقابل الشرِّ، ووجود مملكة غيبيَّة للمسيح في مقابل عالَم أرضيٍّ بين براثن الشيطان. بيد أن هذه الرؤية كان عليها أن تسير في طريق ضيِّق حتى لا تقع في تناقضات. كيف يمكن حلّ لغز "تبرير الإله للشرِّ"، وهو الإله القادر، ومع ذلك لا يستطيع، أو لا يريد، اجتثاث الشرِّ؟

فكان ضروريًا اللجوء إلى توازنات عقلية لتقديم مسار المخلوق البشري على الأرض سلبًا على أنه مرور في "وادي الدموع"، وفي نفس الوقت إيجابًا بوصفه طريقًا اضطراريًا نحو الخلاص.

كان يلزم اعتقاد راسخ لتجاوُز هذا التناقض الظاهري، وقبول مفهومَي الشرّ والشيطان، على أن الله أرادهما لاختبار الإنسان، ولإعطائه الفرصة ليمارس إرادته الحرَّة.

فبعد مئتَي عام من موت المسيح بدأ ماني Mani (أحد أتباع زرادشت، وأحد خطباء بابيلونيا Babilonia) في شرح مسألة بدت في نظر كثيرين تستحقُّ التصفيق، بدفع الثنائية ببساطة إلى أقصى العواقب المنطقية: كان الخير والشرُّ قوتين كونيتين متعارضتين، ولكن ذواتَي قوة متساوية، وفي متوازن مؤقّت، وفي صراع دائم. ها هو سبب أنه في العالم لا تسير الأشياء في الاتجاه الصحيح، وأن الواقع المادِّيَّ خاصٌّ بالشيطان، والشيطان تعادل قوته قوة الإله.

وانتشرت المانوية -كما أُطلِقَ عليها- انتشار النار في الهشيم، وأصبحت تقريبًا دينًا ينافس المسيحية. وقد كان القديس أجوستينو مانويًّا كذلك لوقت طويل. وما زلنا حتى اليوم نستخدم هذه الكلمة لنشير إلى موقف واضح نقصد منه تبشيع صورة خصمنا.

الموضوع الثاني محلّ النزاع، والذي ظهر تقريبًا بالتزامن مع العقيدة المسيحية، كان موضوع طبيعة المسيح: هل كان يسوع ابن الله بالمعنى الحرفي كما تؤكد النصوص التي تعترف الكنيسة بها، أم بالمعنى المجازيِّ كما في تجلِّيات الإله للإنسان في ديانات أخرى؟ وإذا كان يسوع ابن الله حرفيًّا، فماذا كانت طبيعة علاقته مع الأب؟ أمَّا اللغز الثالث فيبدو كأنه صُنع عن قصد لإثارة الكثير من علامات الاستفهام. هل كان المسيح إلهًا أيضًا مثل الآب، أي -كما يؤكد علماء اللاهوت- من جوهر مطابق "Homoouaion"، أم من جوهر "مشابه" Homoioousion؟

وقد أثار قسٌّ متواضع بالإسكندرية (هو آريوس Ario) بلبلة، ولكن قبولاً واسعًا كذلك، عندما أيَّد الأمر الثاني. وقد أكد آريوس أن الآب لجوهره نفسه كان سابقًا على الابن. وكان الآب المبدأ الأول، وغير المخلوق الوحيد الذي يرجع أصل كل شيء إليه، بما في ذلك الابن. ولم يكن معقولاً أن يتمَّ وضع الآب والابن على نفس الدرجة، بل إن الديانة التي نشأت من تكريز يسوع تضع يسوع في مكان مركزي، وهي تتحدث عنه أكثر مما تتحدث عن الإله نفسه.

وكان من الضروري دعوة مجامع متعددة، وتدخل الإمبراطور قسطنطين شخصيًا للوصول إلى حكم بالحرمان الكنسيّ بحق اريوس (طرده من الكنيسة)، وإلى إصدار أول مجمع مسكوني في التاريخ، وقد انعقد في نيقية Nicea عام ٣٢٥م لخلاصة العقيدة المسيحية، والتي تنصُّ على وحدة الجوهر للآب والابن.

ولكن المذهب الإيرياني (مذهب اختلاف جوهر الآب والابن) لم ينكسر قط رغم كل الحرمانات الكَنسيّة، ففي القرن السادس الميلادي قرَّرَت مجموعة من الأساقفة الأسبان أن يهاجموا الآراء الإريانية بإضافة توضيحية للعقيدة المسيحية، فالنَّصُّ الأصلي كان يقول: "أؤمن بالرُّوح القُدُس الذي يستمدُّ أصله من الآب"، فاقترح هؤلاء الأساقفة إضافة كلمة Filioque، أي ابن، ليصير النص: "أؤمن بالروح القدس الذي يستمدُّ أصله من الآب والابن".

وجاء ردُّ الفعل السلبي حادًّا، وسريعًا، سيَّما من جانب كنيسة بيزنطة: الإضافة المخالفة للتُّراث كانت تُخلُّ بالتوازن الثالوثي الذي يقوم على المساواة بين الأقانيم الثلاثة. وقد برز الجدل، الذي أُطلِق عليه المؤرخون "جدل الابن"، أكبر من كونية بيزنطية لاهوتية. وقد انحاز شارلمان فورًا إلى معسكر "الابن" Filioque، الذي صار لمدة أربعة قرون راية سياسية، على سبيل المثال عند دخول المبشِّرين الرومان إلى بلغاريا، التي كانت تحت سيادة القسطنطينية.

وقد حدث أخيرًا الانشقاق الأكبر حول هذه الكلمة عام ١٠٥٤ م، والذي أدَّى إلى انفصال الكنيسة الأرثوذكسية الشرقيَّة عن كنيسة روما الكاثوليكية. هل تدركون مغزى ذلك؟ الانشقاق الجَسيم الأول في المعسكر المسيحي كان بسبب كلمة واحدة، ولكنها مليئة بالمعاني. وبعد نحو ألف سنة لم يفلح حتى المناخ المسكوني الجديد، ثم لقاء بولس السادس مع بطريرك أتيناجورا Atenagora، وفي النهاية مبادرة يوحنا بولس الثاني لزيارة روسيا، في رأب صدع لا يزال قائمًا أيضًا على المستوى الشعبي.

أما الهرطقة الثالثة فهي الأوسع نطاقًا، لأنها كانت أكثر من كونها هرطقة، تيَّارًا فكريًّا كبيرًا يضمُّ جزءًا من الآراء الآريانية، والمانوية، وتيَّارات أخرى عديدة، وأثَّرت بدورها في عديد من الحركات المتهرطقة الأقل منها، إنها "نزعة الفهم العقلي للأسرار الربانية" Gnosticismo.

وهي كلمة مشتقَّة من Gnosi، أي معرفة. لا نستطيع أن نشير إلى زعيم بعينه، ولا إلى نقاط مذهبية محدَّدة، بل بالأحرى هي طريقة مختلفة تمامًا لفهم الرسالة المسيحية من منظورٍ تصوُّفيٍّ، ينهل دائمًا من مصادر شرقية وزرادشتية. وتواجه هذه الهرطقة مسألة الشرِّ، من خلال إعادة إدخال الصورة المألوفة للمدبِّر، والخالق الوسيط الذي يجب أن

يتحمل مسؤولية خلق هذا العالم غير كامل. وفي ما يتعلق بطبيعة المسيح، تؤكد هذه الحركة على الطابع الرمزي لتوحُّد الطبيعة الإلهيّة والبشرية في شخص المسيح، ولقيامته. ومملكة السماوات صورة مجازيّة، والنجاة يجب أن نبحث عنها داخل أنفسنا. ولقد كانت "نزعة الفهم العقلي للأسرار الربانية" مصدر إلهام للكيميائيين في العصر الوسيط، وعصر النهضة، وأساسًا فلسفيًّا لفرقتين كان لهما أثر كبير في قرن الأنوار: الماسونية، ووردة الصليب Rosa Croce.

وفي القرن الثالث عشر بدأت نواة معتقدات نزعة الفهم العقلي تكتسب قوة سياسيّة مع حركة Catari أي "الأنقياء"، التي انتشرت من بروفنتسا Provenza وحتى البلقان، وتفرع عنها فرق كثيرة مثل ألبيجيزي والباتاريني والبوجونيلي (Albigesi, Patarini, Bogonili)[١]

وتعتبر كذلك فرقة "فقراء ليون" خارجة من رحم "الأنقياء"، وقد أسَّس "فقراء ليون" في Delfinato، التاجر بطرس فالدو P. Valdo، والتي أصبحت بعد ذلك الكنيسة الفالدية.

وينطلق الأنقياء من أفكار مانوية تُدين المادية، والجسمانية (بعضهم كانوا يرفضون الطعام، ويتركون أنفسهم ليموتوا جوعًا)، وكان يصل بهم الأمر إلى مواقف جدلية نحو القواعد التعبُّدية والنظام الاجتماعي الموجود. وقد سبقوا معارضة لوثر، فكانوا ينكرون الحاجة إلى الوسطاء للانضمام إلى المسيح، كما كانوا ينتقدون التمسُّك بالشكليات في العبادة، مؤكدين على أن النضج الرُّوحِيَّ، لا التعميد، هو ما يصنع المسيحيَّ الصالح.

وكانت حياة التقشُّف وعمل الخير التي يَحيَونها بمثابة احتجاج على فساد وثراء طبقة رجال الدين العليا، ووسَّعوا بذلك الاتحاد بين التطلّع الصوفي إلى الفقر، والمطالب الاجتماعية التي تجري في كل أوربا منذ زمن، والتي انجرف إليها رهبان، وقساوسة مثل Arnaldo da Brescia، وهم من أتباع أجوستينو أو من يطلق عليهم "Fraticelli"، الذين حُكم عليهم بالهرطقة[اتُّهِموا بالهرطقة] وتَمَّت ملاحقتهم، لأنهم فسَّروا التعاليم الفرانشسكانية حرفيًّا.

وفي جنوب فرنسا، استغلت السلطات المحلية الحركة المتهرطقة سياسيًّا لتدفع إلى الأمام مطالبها بالحكم الذاتي.

---

[١] Bogomili هم أتباع الراهب البلغاري بوجوميل Bogomil، في البلقان وغرب أوروبا، وكانوا أول من اعتنق الإسلام بعد الفتح العثماني كردٍّ فعل على تهميشهم في البيئة المسيحية بسبب معتقداتهم المناهضة للتكيُّف مع الأفكار السائدة. وقد انحدر منها الأقلية المسلمة التي انجرَّت إلى عمليات الثأر العرقية-الدينية في البوسنة.

وها هما البابا والسلطان، يجدان نفسيهما مرة أخرى متحالفين حتميًا في "حرب صليبية"[1] للدفاع عن نظام الدولة القائم، ضد من وصفهم اينوتشينسو الثالث Innocenzo بأنهم "أشدُّ خطرًا من الكفار"، ونظرًا إلى أنهم اتخذوا قلعتهم الحصينة في مدينة Albi، أطلق عليهم Albigesi.

ولمدة عشرين عامًا صارت أرض التروبادور، وهي واحدة من أروع وأجمل أقاليم أوربا، مسرحًا للدمار والسلب والحرائق والمذابح.

وقد ظلّ مشهد الاستيلاء على بيزيير Beziers في ٢١ يوليو ١٢٠٩م، مضرب المثل، فقد سأل قادة "الصليبيين" كيف يمكنهم أن يتعرفوا في المدينة المفتوحة على الكاثوليك الصالحين، ويميزوهم عن الزنادقة، فأجاب أرنولد أموري Arnald-Amaury مندوب البابا الذي كان يصحب القائد العسكري سيمون دي مونفورت Simone de Montfort كمستشار روحي، وكان آرنالد كبير دير Citeaux، ومتعصبا: "أقتلوهم جميعًا، والرب سيتعرف أهله!".

ونجد في التقرير الذي أرسله للبابا: "تَمَّ الاستيلاء على Bezieres، ونظرًا إلى أن جنودنا لم ينظروا لا إلى جاه، ولا إلى جنس، ولا إلى عمر، فقد مات قرابة عشرين ألفاً بحدّ السيف. وهكذا جرت مذبحة عظيمة للرجال، وتمَّ نهب المدينة، وحرقها، وبهذه الطريقة نزل بها العقاب الإلهي المذهل"[2].

وحتى اليوم تتعقب الكنيسة ظلّ المانوية ذات الطابع الذي يميل إلى نزعة الفهم العقلي، وهي دائمًا متحفزة ضدَّ أي تَفَشٍّ لأفكار ترى العالم المادي كتجسيد للشرِّ.

وقبل أن نغوص أكثر في تطور الصراع الطويل ضدَّ الهرطقات، أودُّ أن أعطي نبذة عن ظاهرة أخرى، تُعتبر بصفة عامَّة أبرز علامات اللا تسامح المسيحي، ألا إنها الحروب الصليبية.

نبذة عن الحملات الصليبية

تتردد كثيرًا في المعجم الحديث كلمة "حملة صليبية". والذين ينتقدون اللا تسامح بشتَّى صوره، يستخدمون هذه الكلمة بنبرة سخرية، كما حدث وأكدوا على سبيل المثال "استخدم الرئيس الأمريكي نبرات الحملة الصليبية في تصريحاته ضدّ الإرهاب".

---

[1] قد حصل المشاركون في "حملة البيجيزي Albigesi الصليبية" على الممتلكات التي تمت مصادرتها من المتهرطقين، وهو نفس ما جرى مع الصليبيين في الأرض المقدسة.

[2] Michel Beignet, Richard Leigh, L' inquisizione, Marco Tropea, 1999, p. 29

ولكن لفظة "حملة صليبية" تشير غالبا إلى حملة تمّت لهدف محدّد، وتتميز بتكريس النفس إلى أبعد حدّ للقضيّة، وبالبعد الأخلاقي، كما هو الحال عندما نتكلم عن "حملة ضدّ السرطان"، أو "حملة لإنقاذ الحيتان البيضاء".

وهذا المعنى المجازيُّ لمعنى حملة تُرصَد لقضية ما، يبدو الأكثر ملاءمة للحملات الصليبية التاريخية، أي الحملات الثماني التي تَمَّت ضدَّ المسلمين على مدى قرنين من الزمان تقريبًا، أي ما بين عامَي ١٠٩٥م و ١٢٧٠م.

ولقد كانت الحملات الصليبية بمثابة أشياء كثيرة، إذ يمكن اعتبارها بالتأكيد أول محاولة من جانب الغرب الأوربي لفرض هيمنته السياسية، والاقتصادية على شعوب أخرى، ولكن ليس على نطاق واسع هكذا، وبشكل شامل هكذا كما يميل البعض إلى الاعتقاد على أساس بعض التفسيرات الحديثة. فالحملات الصليبية في واقع الأمر لم يكن لها قط المظهر المانوي لحرب مقدَّسة ضدّ حضارة أخرى، وهو ما يريد البعض إلصاقه بها. فهي في تاريخ اللاتسامح -حسب رأيي المتواضع- ورغم ثقلها العامّ وشهرتها، لا تستحق فصلاً مستقلاً، لأنها لا تقدّم عناصر غير مألوفة وغير منشورة في المسار الطويل للتشدُّد المسيحي دعمًا للأرثوذوكسية، والالتزام بالشعائر، كما وصفناها، ولكنها تضيف لنا فقط قائمة أخرى لمشاهد العنف الذي كان يُرتكب مع صيحة "شاء الرب" "Dieu Le Volt". ومن ثَمَّ نجد في الحملات الصليبية تأكيدًا على تسييس المؤسَّسة الكَنَسيّة، وعلى تأثير الكنيسة في القرون الأولى بعد الألفية الأولى، وعلى التطرُّف الذي يمكن أن يصل إليه الحماس الديني. ولكن تلك الحملات ليست أشكالاً أصلية خاصة لإقصاء الآخر تقوم على يقين مطلق، ولا فرض خيارات لاهوتية على الخصم.

ولم يكُن ممكنًا أن تغيب العباءة الإيديولوجية عن تعبئة عسكرية دامت لأجيال، فدعاة الحملات الصليبية المروِّجون لها في تلك الحقبة كانوا يردِّدون أفكار القديس أجوستينو حول الحرب العادلة لتأكيد شرعية "العنف المسيحي" لقمع الإهانات الموجَّهة إلى العقيدة. ولكن على الرغم من أنه على الجانب الإسلامي يؤكدون أن تلك الحملات كانت تمهيدًا للعدوان الإمبريالي الضخم الذي قام به الغرب بعد ذلك، فإن هجمات الدول الأوربية -ليست كلها، لأن البعض تحالفوا مع المسلمين- كانت على نطاق ضيِّق، ولم يكُن لها طابع الهجوم المضادّ الموسَّع، ولم تتخذ شكل "الجهاد" المسيحي، فقد ظلت الحملات الصليبية إذن "حملات للوفاء بنذر تحرير الأماكن المقدَّسة من الطغيان الإسلامي" (على حدِّ تعريف الموسوعة الكاثوليكية)، أي -كما يمكننا القول اليوم- أنها عمليات عسكرية ذات أهداف إقليمية محدَّدة.

وحتى عندما ظهرت في الفترة الطويلة من الحملة الأولى وحتى الأخيرة، أهداف إستراتيجية أوسع، فلم تكن موجّهة لتحطيم وإزالة تامّة للتهديد الإسلامي، بل من منظور الاحتواء والحفاظ على التوازنات القائمة.

وهكذا في ما يتعلق بالوجود العربي، ثم التركي، في حوض المتوسط، وهو الأمر الذي يمثل كابوسًا سياسيًا وعسكريًا للحكام الأوربيين، تمَّ الوصول إلى صيغة عملية للتعايُش. والتبادُل التجاريُّ والثقافيُّ المكثَّف، والحيطة التي كانت تُدَارُ بها المواقفُ المعضلة في الصراع (مثل القرصنة وأخذ الرهائن)، واختيار عدد كبير من "المرتدِّين" النصارى السابقين على قمَّة المناصب في العالَم الإسلامي، وهكذا، كل ذلك يجعلنا نستبعد التفكير في رفضٍ متبادَل، بل يجعلنا نفكر في تجانس -ولو بطيء وفيه شيء من الإحجام- للحضارات. إن المواجهة بين العقيدتين المختلفتين يظل في الخلفية، ولكنه لم ينفجر بشكل حادٍّ.

وقد كانت هذه المهمة الطويلة لتلك الحملات التي فشلت تمامًا على المستوى العسكري قد أدّت إلى امتزاج ثقافات تلقي من خلاله الأوربيون في النهاية، من العالَمَين الإسلامي والبيزنطي، أكثر مما تركوا فيهما.

كان أربان الثاني في كليمونت Clemont شتاء ١٠٩٥، هو أول بابا يلقي بالمسيحية في أتون حرب، ولكنه لم يتوقع أن مبادرته ستفجر سلسلة من الأحداث الطويلة والمأساوية، وكذلك لم يدُرْ بخَلَده أن نتيجتها النهائية -بعيدًا عن تعميق الفجوة بين العالَمَين- ستيسِّر دخول الثقافة العربية إلى القارَّة الأوربية، التي كانت متخلفة آنذاك إلى حدٍّ كبير، فقد أثارت الحملات الصليبية مزيدًا من اهتمام المسيحيين بالإنجازات المادية والفكرية الوافدة من المنطقة الإسلامية، تلك الإنجازات التي فتحت آفاقًا جديدة في مجال الحساب، والكيمياء، والفلسفة، وأعادت إلى الغرب ميراثه اليوناني، وأدخلت موضات، ومنتجات متطوِّرة، لدرجة أنها أحدثت ثورة في الحياة اليومية، مثل التوابل، والعطور، والمنسوجات النفيسة. وفي المجمل على أي حال لا يمكن أن نقول عن الفصل الخاص بتلك الحملات، وهو يتعلق بتاريخ الغرب أكثر من تناوله لتاريخ الكنيسة، إنه فصل قدوة حسنة، لا للكنيسة ولا للغرب. بل يظل في مخيِّلتنا الجماعية سلسلة من الأحداث البطولية التي لا تخلو من السحر، والتي في سبيل تفسيرها لا يزال المؤرخون يسكبون أنهارًا من المداد، وتسيل أقلامهم لأجل ذلك. ونجد في أنهار المداد هذه كل شيء، ونقيض كل شيء، بداية من مكوِّنات الحروب الإيديولوجية، نجد خليطًا من سوء النية (استغلال قضية مقدَّسة لأجل أغراض سياسية وتجارية)، والحماس الديني الصادق (تضحية زعماء ذوي كاريزما، وولع الناس البسطاء)، والبطولة، وحسابات السلطة، وروح المغامرة،

والجشع. وكان الأبطال ملوكا قدّيسين، وقدّيسين ملوكا، وحكومات متحررة، وحُجّاجا مسلّحين فقط بعقيدتهم، وأبطالا في فنون القتال.

وشأنهم شأن أبطال حروب كثيرين، أعطوا دلائل، لا على الرحمة، بل على قسوة وغلظة لم يخفف منها الصليب المطرّز على الصدر.

إن وجود عشرات، وعشرات الألوف، يلبسون الثياب البالية، ودون شيء يخشون ضياعه، ويواجهون الهول، تُعوزُهم المؤن والطعام، تجذبهم فقط الأنفال والوعد بصكوك الغفران، وتحرّكهم نفحة رُوحيَّة قوية وساذجة، كل ذلك يُسهِم في خلق جوٍّ من الفوضى والإثارة، ويؤدّي حتمًا إلى سلب ونهب، وهما كانا من الأمور المألوفة في الحملات العسكرية لتلك الفترة. ويبدو كذلك أن التشكيلات النظامية لم تكُن أقلّ حتى في تجاوز التحرُّر، والصعلكة، التي تميِّز أي جيش زاحف. ولم يدفع ثمن هذا الجوِّ الملتهب والمتعصب "الكفار" فقط، بل اليهود أيضًا، وهم كبش الفداء المعتاد، الذين ذُبحوا بأعداد كبيرة على طول مسار الجيوش الصليبية، إلى جانب البيزنطيين، عندما "انحرفت" الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها الرئيسي، وغزت القسطنطينية ونهبتها دون شفقة. إن الطابع المقدَّس للحملة، وهالة القداسة للأماكن التي تحدثت عنها التوراة، لم تُجْدِ في تخفيف شراسة المنتصرين عندما كانوا يفلحون في فتح بعض القلاع المسلمة. فعادةً لم يكُن يُترك أحد على قيد الحياة في المدن المفتوحة، فعند الاستيلاء على القدس عام ١٠٩٩م كان الجنود الصليبيون الذين تَجمَّعوا بورع حول القبر المقدَّس المحرَّر مخضَّبين بدماء القتلى من المسلمين من منبت شعرهم وحتى أقدامهم.

وقد كانت حملة "الغلمان" واحدة من الصور التي تثير الحيرة لأحداث عبثية وجنون المغامرات بتلك الفترة. وأودُّ أن أشير إليها باختصار رغم كثرة ما كُتب عنها، لأنها ستعطينا مثالاً صارخا عن مدى الآثار التي يمكن أن تُفرزَها عملية طويلة من غرس التعصُّب في نفوس بريئة بسيطة. ففي ربيع عام ١٢١٢ انطلق آلاف الأطفال من ألمانيا وفرنسا إلى "حملتهم"، سائرين على نفس المنطق الساذج لبُلهاء آخرين كثيرين تبعوا التشكيلات العسكرية المسلحة فقط بالأطمار والأسمال البالية. وكانوا يعتقدون أنها ليست عملية حربية عاديَّة، بل حملة أوحى الرب بها، ومن ثَمَّ فإن الأنفس البريئة والصبيَّة على وجه الخصوص يمكن أن ينجحوا فيها أفضل من المحاربين النبلاء. وشأنهم في ذلك شأن المحرومين الكبار، وكان كثير من أولئك الشباب يحاولون الهروب المجنون من عبودية الرعي والعمل في الحقول. بيد أنهم كانوا بالأخصِّ قد تأثروا بالمُناخ السائد في تلك الأيام، وكانوا على قناعة أنه ما دام هدفهم السامي هو تحرير قبر المسيح، فإن العناية الإلهيَّة ستلبِّي حاجاتهم المادية، وتمدُّهم بالطعام، بل وستنقلهم إلى ما وراء البحر ولو

بشقّ طريق لهم بين الأمواج، كما فعل الربُّ مع موسى، أو بجعلهم يسيرون على الماء مثل يسوع.

وعلى الرغم من محاولة ملك فرنسا شخصيًّا في لحظة ما التدخُّل لإثناء الصغار المتحمسين عن عزمهم، فإن السلطات المحلية لم تفعل شيئًا ذا بال لمنع الحملة الطائشة، أو لتقديم العون لها. وسرعان ما تفرق جمع هذه الصفوف، فمن بقي على قيد الحياة من الطابور الرئيسي الذي أهلكه على طول الرحلة الجوع والبرد والأمراض وهجمات منحرفي القصد، وجدوا في مرسيليا تاجرَين غير أمينَين أصعداهم على ظهر بعض السفن المتهالكة، فغرقت سفينتان منها قبالة جزيرة سردينيا، ولم تتجه السفن الأخرى إلى القدس، بل صوب أسواق العبيد المربحة في مصر.

محاكم التفتيش الثلاثة

ها نحن قد وصلنا إلى النقطة المركزية في موضوع الهرطقات: محكمة التفتيش Inquisizione، وهي كلمة مجرَّد النطق بها يستدعي إلى ذاكرتنا عجلات التعذيب والمحارق في الميدان العامِّ، وهي مرحلة مزعجة من رحلتنا.

فمحكمة التفتيش أثارت -حتى بالنسبة إلى الكُتّاب الكاثوليك- نقطة سلبية للغاية في تاريخ الكنيسة، وجعلت من هذا التاريخ "آلةً لا تهدأ للقمع الإيديولوجي"[1]. وتُعَدُّ المحكمة في نظر آخرين "آلة للقتل"[2]. وواحدة من كُبرَى السقطات، وعلامات الانحطاط الأخلاقي للتاريخ الديني لتلك الأزمنة.

ولكن هل هي هكذا فعلاً؟ سنحاول أن نفهم بشكل أفضل الشيء الموجود خلف مؤسَّسة أصبحت مرادفًا للاَّ تسامح المسيحي، بل للا تسامح ببساطة.

وهناك دفاع عن محاكم التفتيش كذلك من جانب بعض المؤرخين العلمانيين، فأول تبرير من نوع عامٍّ، ولَعَلِّي أسميه أكثر من كونه تبريرًا، يستقي من المعيار الأنثروبولوجي الذي مفاده أن تصرُّف أي سلطة محدَّدة أو مؤسسة لا يكون إلا انعكاسًا للشعور الشعبي السائد في تلك الحقبة، ومن ثَمَّ يجب الحكم على هذا التصرُّف في إطار سياقه التاريخي. فلم يكن حتى الطغيان ذو القبضة الحديدية بمقدوره تنفيذ تدابير متطرفة على نطاق واسع ولفترة طويلة، إلاّ إذا كان ذلك بمباركة ورضا على مستوى الجماهير العريضة. ففي الفترة الطويلة التي نشطت فيها محكمة التفتيش، كان المعارضون من

---

[1] G. Suffert, Tu es Pierre, cit. P. 224 ومابعدها.

[2] J. Fo, S. Tomat, L. Malucelli, il libro Nero del Cristianesimo, cit, P.159

منظور ديني مُبغضين من جانب السواد الأعظم من المؤمنين، أكثر من بغضهم من جانب الأساقفة والأحبار. فكل من تسوّل له نفسه الدخول في جدل مع حفظة النظام الذي أراده الربُّ، لا يمكن إلاّ أن يكون مجنونا، أو خادمًا للشيطان. كان الزنادقة يفتنون الناس بأفكارهم، ولكن بمجرَّد أن يُكشف النقاب عنهم، ويتمّ الإعلان بأنهم زنادقة، كان الناس يخشونهم. "خليط من الأسطورة والخوف من المجهول -هكذا يكتب جورج سوفير G. Suffert- كان يدفع الناس في المدينة ليوافقوا على صنيع الأساقفة، والمفتشين"[1].

أما في ما يخص التعذيب، وهو سمة محكمة التفتيش الذي يصدم خيالنا، فكانت تتمّ ممارسته في تلك الأيام على نطاق واسع، ويعتبر أداة لا غنى عنها لاكتشاف وانتزاع أدلة إدانة المتهمين. ومن ثَمَّ يصدمنا كثيرًا تصرُّف الأنظمة المعاصرة التي تستخدم التعذيب، في الوقت الذي يبدو فيه التعذيب شيئًا مقزّزًا للحسِّ العامِّ، وقد تَمَّ فعلاً إلغاؤه رسميًّا في البلاد المتحضرة. ومع كلٍّ فقد تَمَّ المبالغة في كثير من جرائم محاكم التفتيش أيضًا على مستوى الكَمِّ، إذ يصل الحال بالبعض إلى التأكيد على أن المحاكم كانت تمثل أداةً قضائيَّةً للضمانات الفرديَّة، وبفضلها كانت الاتهامات ضدَّ الزنادقة تمرُّ عبر إجراء دقيق للغاية لدرجة أنه قد يستغرق أعوامًا، هذا في أوقات كان فيها المواطن المحروم يتمتع بحماية ضئيلة في مواجهة السلطات"[2].

وقد تظهر اعتراضات مختلفة على هذه التأملات، ففي ما يخص احترام الضمانات الفردية على سبيل المثال، من السهل أن نلاحظ (حتى إن تركنا جانبًا كل اعتبار بشأن فاعلية التعذيب بهدف انتزاع الاعتراف الساذج) أنه يغيب أمر جوهري لإصدار حكم عادل: الإمكانية الفعلية للدفاع المتاحة للمتَّهَم الذي يقع على كاهله إثبات براءته. وعلى الرغم من محاولة إيجاد علاقة مع القانون الروماني، وذلك بإدخال إمكانية أن يلجأ المتهم إلى محامٍ يدافع عنه، وضرورة وجود الدليل قبل رفع الدعوى، فإن محاكم التفتيش ظلّت بعيدة عن إجراءات القاضي الروماني ضدَّ المسيحيين الأوائل الذين كانوا يرفضون تقديم القربان للإمبراطور: يكفي أن المحاكم الإمبراطورية لم تكن تقبل الشكاوى من مجهول، والتي كانت -على العكس- الأساس بالنسبة إلى المستجوبين الكَنَسيِّين. بل يبدو لي أكثر ملاءمة تأمُّل عميق مستقًى من التناقض الذي جلاّه ببراعة دوستوفسكي بشأن المستجوب الكبير، بين أفعال السلطة الدينية وجوهر العقيدة الأساس، وهو المحبَّة ونبذ العنف. وكون حراس العقيدة المسيحية نصَّبوا أنفسهم أوصياءَ على المشاعر الشعبية، ومفسرين لها، وتبنوا وسائل دفاع شائعة في أزمانهم، يشرح -ولا يبرّر مطلقًا- سلوكهم، لأن رسالة يسوع -على العكس من ذلك تمامًا- تستلهم من المحبة، والعفو، والتضحية، وتتضمن

[1] انظر George suffert, Tu es Pierre, cit.. P 225.

[2] انظر: التاريخ الحقيقي لمحكمة التفتيش Rino Camilleri, La Vera Storia dell' Inquisizione Pimme 2001

تحدي رأي الأكثرية، والسباحة ضد التيار، ومواجهة التعذيب والموت إذا لزم الأمر، دون تفريط، وخيانة للأمر بالمعروف Caritas. ويبقى هنا سؤال عميق: بأي طريقة كانت تتشكل المشاعر الشعبية؟ ألم تكن -ولو جزئيًا على الأقل- وبعد تعلم منهجيٍّ وبطيء للدّين، قد رُضعت مع لبن الأمّ وقوّتها، طقوسًا دينية معاونة؟

الحقيقة أننا هنا أمام مشكلة سياسية بالدرجة الأولى.

ولقد قلت إن منظومة العقيدة المسيحية قد قامت على أساس أن مهمة الدفاع عن الدوجما (الثوابت)، والدفاع عن المؤسَّسة المنوط بها حماية هذه الثوابت، كلٌّ لا يتجزأ وشيء واحد.

وقد وجدَت الكنيسة نفسها مضطرَّة إلى مواجهة محاولات خطيرة استهدفت وجودها، وكانت الكنيسة مزوَّدة بأذرع رسمية قانونية، غير أنها كانت في الواقع أدوات بوليسية صارخة تشبه أدوات أي سلطة مستبدَّة أخرى.

لا يجب أن نتكلم عن "محكمة تفتيش"، بل عن "محاكم تفتيش"[1] إذ يوجد في الواقع ثلاث محاكم تفتيش مختلفة، أُنشئَت كل واحدة منها لمواجهة تحدٍّ كبير ومحدَّد للكنيسة، بل تحدٍّ للمسيحية نفسها. وهذه التحديات الكبيرة إن لم تبرِّر، فهي بالتأكيد تفسِّر، كيف أن السلطات الكَنَسيَّة تحالفت مع السلطة الزمنية، واستخدمت كل الوسائل حتى الأكثر تحرُّرًا للدّفاع عن أنفسهم.

ولقد أطلق المؤرخون على محاكم التفتيش التي ظهرت في أزمنة متعاقبة: "محكمة القرون الوسطى"، و"المحكمة الإسبانية"، و"محكمة التفتيش الرومانية". وكل واحدة من هذه المحاكم لها سماتها الخاصة وهدفها الغالب، فالمحكمة الأولى كانت لمواجهة ظهور المانوية، والثانية ضدّ التلوُّث العرقي، والثالثة ضدّ تيَّار العلم العلماني.

ويكفي حول المحكمة الأولى أن نسترجع ما قلناه ونحن نتكلم عن الهرطقات الأكثر خطورة سياسيًّا وإيديولوجيًّا، التي وضعَت في مأزقٍ أولئك الكهنةَ غيرَ المؤهَّلين جيدًا في العقيدة ونشر الدين.

وكان راهبٌ إسبانيٌّ شابٌّ -هو دومينيك دي جوزمان D. de Guzman- هو الذي أشار إلى أن جريجوريو التاسع أصدر أمره بإنشاء جمعية متخصصة -هي جمعية الآباء الدومينيكان- لتساند ولتشرف على الأساقفة والخوريين الذين يفتقرون إلى الإصرار وإلى الإعداد لمواجهة خطب ومواعظ الزنادقة الخادعة بصورة ملائمة.

---

[1] يرجع أصل الكلمة إلى البابا لوتشو الثالث (١١٨١ - ١١٨٥) الذي -بدايةً من مجمع لاترانو Laterano- صادق على واجب "التفتيش" بالنسبة إلى الأساقفة، بهدف التحقيق حول الانحرافات الخطيرة.

ومنذ ذلك الحين كان الاباء الدومينيكان في الصف الأول من هذا الصراع، وتمّ اختيار المفتشين الكبار من بينهم.

وكانت محكمة التفتيش الإسبانية سياسية بصفة خاصة، وجزءًا لا يتجزأ من حملة الحكام "الكاثوليك جدًّا": فرديناند في أراجونا، وإيزابيلا في قشتالة لاستكمال "إعادة فتح" مملكتهم التي كانت موحَّدة، من خلال طرد المسلمين واليهود، أو إجبارهم على اعتناق النصرانية[1]، ومن ثمّ كانت أول عملية "تطهير عرقي" على نطاق واسع. وقد أقرَّ المجلس البابوي Curia في روما هذه الحملة، ليس فقط لأنه لم يستطع معارضة القوة الكاثوليكية العظمى في ذلك الوقت، بل أيضًا لأنه في نفس تلك الفترة، ومع اكتشاف قارة جديدة، لاحت فرص لم يحلم بها أحد لأَنْجَلَة شعوب غير معروفة (نشر الإنجيل بينها)، ولأنه من المريح امتلاك أداة مراقبة وقمع لأي محاولة توفيق أو تسامح مفرط مع العقائد المحلية في هذا العالم المكتشَف حديثًا. وليس مصادفةً أن دخل النشاط التفتيشي فورًا إلى العالم الجديد.

أمَّا بخصوص المحكمة الأخيرة "الرومانية"، فقد جاءت كردٍّ فعل على القوى الفكرية والاجتماعية الجديدة الصاعدة، التي كانت تهدد الاحتكار الرُّوحِيَّ للكنيسة.

وكانت مهمة محكمة التفتيش الأخيرة في الأساس اختراع قمم كَنَسِيّة لمواجهة طلائع ومقدمات الحداثة بطرق حديثة أيضًا، فالطفرات الفكرية الجديدة التي أثارتها زوبعة الاكتشافات والاختراعات من التليسكوب حتى الصحافة، كانت تتطلب وسائل دفاعية جديدة أكثر تطوُّرًا، وعلى مستوى الحقبة. وقد أظهرت أيضًا الكنيسة في ذلك قدرًا من الليونة بإدخالها وسائل جديدة من العنف المعنوي، فضلاً عن العنف البدني، الأمر الذي مهَّد الطريق بصورة مزعجة للحروب الإيديولوجية في الحقبة الحديثة.

إن الأمر يتعلق بتطور منطقي نضج تدريجيًّا. إن الاتجاه والاندفاع السريع نحو ظهور أداة تفتيشية جاء من التحدي الأكثر جدية الذي واجه المؤسَّسة المسيحية، ذلك التحدّي الذي أحدث الانشقاق الأكبر في صفوف الأرثوذكس، إنه "اعتراض" لوثر Lutero.

كان ردُّ الفعل الكاثوليكي على إصلاح لوثر طويل النفس، ومن خلال عملية مراجعة أمينة وصارمة، ومن خلال نقد ذاتي أدَّى إلى إعادة تنظيم جذرية، وإلى عملية تطهير للوسائل والهياكل، بما فيها الإدارة البابوية. ومع ذلك فإن انطلاق محكمة التفتيش لعب

---

[1] ولكي تدعم الثقل الكبير لدورها كحامية للكنيسة، حصلت مملكة إسبانيا في ١٤٧٨ م، وبوثيقة من سيستو الخامس، على موافقة بإنشاء " محكمة تفتيش وطنية " على الأراضي الإسبانية. وكان يسند نشاط التفتيش للأباء الدومينيكان، ولكن حق تعيين وإقصاء المفتِّشين لملوك إسبانيا.

دورًا لا يمكن إغفاله، من خلال إعادة التأكيد على قدرة الكنيسة غير العادية على التكيف مع الظروف والأوضاع الجديدة.

وإلى جانب الآباء الدومينيكان في أزمان الهرطقة، أُنشئت جمعية أخرى متخصِّصة، ليس فقط من الخطباء وعلماء اللاهوت، بل ومن المثقفين المتمكنين في الفلسفة، والقانون، والعلوم، كما كان الأمر في سنوات عصر العلوم الإنسانية وعصر التنوير. إنها جمعية يسوع التي أصبحت الجيش النظامي للحركة الإصلاحية المضادة[1]، لأن تلك الجمعية تأسَّسَت على يد أحد الجنود صار بعد ذلك دارسًا لعلم اللاهوت.

وهذه النسخة الثالثة والأخيرة من محاكم التفتيش التي نشأت على النموذج الإسباني باسم Sant' uffizio، كانت تقوم على أربع قواعد إجراءاتية: العقاب حتى لمجرَّد الشكِّ. لا هوادة ولا توقير مع ذوي النفوذ. القسوة مع من يحتمون عند أشخاص ذوي سطوة. عدم إظهار أيِّ تسامُح مع أنصار كالفين[2] بصفة خاصة.

وهذه القواعد الأربع تكفي في حدِّ ذاتها لإسقاط ورقة التوت عن محاكم التفتيش كأدوات للضمانة القضائية، فالإشارة المزدوجة إلى "ذوي النفوذ" و"ذوي السطوة" كانت تهدف إلى تحييد أيِّ تدخُّل ملطف للسلطات الزمنية.

إنّ تحقيقًا يقوم على الوشاية، والتحريض والخداع لدرجة يحسده عليها الجوستابو Gestapo أو الجيبو Gepeu، كان يخون هدفه الأصلي وهو إخراج المتهرطقة من أوكارهم، وحملهم على الاعتراف، لا تثبيت حقيقة الأمور. وفي أمر غامض كهذا، يبدو الغموض كأنه القاعدة، نفس الظروف، ونفس الكلمات كانت تدار بمهارة، وتدار من جديد حتى يجعلوا المتهمين يقولون ما كان يراد لهم أن يقولوه. وقد كان المحققون يباركون بعض الحيل، مثل تلك الحيلة التي استخدمت في حالة جوردانوا برونو G. Bruno، وهي وضع رفيق للمتهَم في زنزانته، هذا الرفيق يكون عميلاً مثقفًا للمحكمة مهمته جمع أسرار المتهم.

بعض هذه الحالات التي ظلَّت رمزيةٍ مثل قضايا برونو وجاليليو، كانت تقدِّم بعض الذرائع لتخفيف العقوبة من جانب المحققين، مع عدم إغفال عقلية تلك الفترة من جانب، ومن الجانب الآخر الطابع الحادّ، والسلوك المتنافر للأشخاص المستجوبين السالف

---

[1] من بين الدومينيكان تَمَّ اختيار المفتِّش الأول العامِّ، وكان يمثل للمحكمة الرومانية، ما يمثله سيئ السمعة Torquemada للمحكمة الإسبانية. وقاد جان بيترو كرافه Carafa الذي صار البابا بعد ذلك وأخذ اسم بولس الرابع Paolo IV حملة ضدّ "اليوم الآخر" لمايكل أنجلو وأراد "تصحيح" العُري الفاضح بالمقصورة السيستينية بـCappella Sistina بسترات وقطع من القماش.

[2] كالفين هو لاهوتي فرنسي بروتستانتي، أسس مذهب الكالفينية وعاش مابين عامي ١٥٠٩، ١٥٦٤م (المترجم).

ذكرهم ("ساحر" اخر في عصر النهضة هو الدوسيبكاني توماز و كامبانيلا T. Campanella، كان ماهرًا في الهروب من المحرقة، بتظاهره بالجنون)، إلاّ أن بعض هذه الحالات يُظهِر بوضوح أيضًا البعد الجديد المضادّ للحداثة في محاربة الهرطقات، والذي كان يدور ليس فقط حول علامات استفهام متوارَثة وغيبية، بل حول تفسيرات حول الكون، ويعرض بذلك بوضوحٍ ذلك الصراعَ بين الدين والعلم الذي لم تُحلَّ عقدته بعد، وأدّى إلى الاتجاهات الأصولية في النصف الأول من القرن العشرين. هذه الرؤية الموجَّهة ضدَّ الثقافة العلمانية بالدرجة الأولى تبدو واضحة في صياغة "دليل الكتب المحظورة"، الذي استهدف أيضًا -فضلاً عن النصوص التي وُصِمت بالزندقة (من كتابات لوثر وهوس Hus وحتى التلمود)- أعمالاً دون محتوى ديني محدَّد، بل اعتبرها غير أخلاقية، ومدمِّرة، بداية من أحدب روتردام[1].

مطرقة الساحرات المشعوذات

إن هذه المرحلة الأخيرة والحادَّة للا تسامح المسيحي تجاه الأعداء الداخليين خصوصًا في الفترة التي كانت فيها حضارتنا تصطبغ بشعار العقلانية، والصرامة العلمية، أخذت منعطفًا يبدو لنا -نحن رجال القرن الواحد والعشرين ظلاميًّا معاديًا للثقافة: مطاردة الساحرات[2]. وقد صار تعبير "مطاردة الساحرات" مثل "حرب صليبية" مرادفًا للا تسامح الأكثر رجعية، وخليطًا من التدليس والأحكام المسبقة والجهل.

وهناك تصرُّف في ظاهره لا يمكن تفسيره، ويحتاج إلى تعمُّق وإيضاح.

إن مطاردة رجالٍ ونساءٍ بتهمة غير عقلانية، هي ممارسة أعمال السحر، وهي تهمة تستند إلى أدلة غير موجودة، وإلى قرائن لا يمكن توثيقها، يمكن في حدِّ ذاتها أن تثير فضيحة لا مفاجأة. فمنذ عصر الظلمات، ومنذ المجتمعات البدائية، كان "الساحر" كاهنًا، و"رجل طبٍّ" في وقت ما، وكانت أعمال السحر تثير مشاعر مزدوجة من التوقير والخوف. وفي العالم اليوناني-الروماني، كان يتعين على الدين مع ذلك، والذي كان غائصًا في الممارسات الغامضة والكهانة، أن يأخذ بعين الاعتبار القواعد الحديدية للنظام العامِّ، فلم يتمَّ حظر السحر على أنه سحر، ولكن تَمَّ فقط حظر تلك الصور من السحر

---

[1] في عام ١٧٧١ تأسست "جمعية الدليل" وكان واجبها تحديث قائمة الكتب المحظورة. وكانت آخر طبعة لهذا الدليل عام ١٩٤٨. وكان من بين المؤلفين المحظورين: برونو، ديكارت، ديموس، Renan, J.stuart Mill, Jon Locke, Flaubert, Fenelon, .Voltaire, Stendhal, Spinoza, Rousseau, Montaigne. Zola.

[2] لاقى هذا التعبير رواجًا بعد ظهور عمل الكاتب المسرحي آرثر ميللر "Il Cruogiolo" أي "البوتقة"، في الخمسينيات. في فترة الحملة المناهضة للشيوعية من جانب عضو مجلس الشيوخ Mc Carthy. وأصبح يعتبر "مطاردة الساحرات" منذ نهاية القرن السابع عشر يشير إلى أي محاولة لطرد الأعداء المشتبه بهم بنشر الخوف الجماعي.

التي تضرُ بالأشخاص وتُلحق الأذى بهم، والتي يُنظر إليها على أنها مثيرة للجرائم العامّة.

وبعد أن صارت الكنيسة فارس الحلبة، وسيّد الميدان، هُرعت إلى تقوية احتكارها لما هو وراء الطبيعة أيضًا في هذا الاتجاه، فأدانت كل أشكال السحر والشعوذة دون استثناء. فبعد مجيء المسيح، وانتصاره لم تعُد إلى المعجزات حاجة، ومن يدَّعِ امتلاكه لقدرات إعجازية، فهو إما دجَّال وإما يستمدُّ قدراته من الشيطان، ومن ثَمَّ يخون العقيدة الحقّة، ويمكن مساواته بزنديق متهرطق[1].

أمّا بقايا الاتجاهات التي تهدف إلى السيطرة على القوى الغيبية، والتي كانت تُعتبر ضلالات شركيَّة وثنيَّة شيطانيَّة، فقد تَمَّ تحييدها بثلاث طرق، بالفلكلور، وذلك بإبعادها إلى مرتبة أساطير لهذا الشعب أو ذاك. وبالعقلانية، من خلال محاولة إعطائها تفسيرات علمية. وثالثًا بصبغها بالصبغة المسيحية. ولقد أصبحت الطريقة الثالثة هي الشائعة والغالبة طوال فترة العصر الوسيط، التي لم تبلغ فيها حملة مطاردة السحرة والساحرات درجة الحملة المسعورة، واقتصرت فقط في أغلب الأحوال على النفي والحرمان الكَنَسِيّ.

أما ما يلزم شرحه فهو كيف وصل قمع السحر والشعوذة إلى قمته، وبشراسة كبيرة، ليس في القرون التي نعتبرها مظلمة، وظلامية، أي في العصر الوسيط، بل بالتوازي مع انطلاق ما نطلق عليه عصر العقل.

ولكي أوضِّح هذا اللغز، يمكننا أن نسترجع ما قيل حتى الآن بخصوص محاكم التفتيش، والذي كان البطل الأكبر لهذه الحملة الأخيرة ضدّ هذا النوع الجديد من الزنادقة. فلم يكن أيضًا في هذه الحالة السعار ضدّ كل من يشتبه في امتلاكه لقدرات سحرية، اختراع القساوسة، بل كان يتفق مع شعور منتشر على نطاق واسع في الرأي العامِّ.

وكان يمكن للكنيسة في هذه الحالة أيضًا (أو بالأحرى الكنائس، لأن الظاهرة لم تستثنِ المعسكر البروتستانتي) أن تمارس دور الاعتدال، والكابح، ولكنها لضرورة دفاعية، وجدت نفسها مضطرَّة إلى ركوب موجة الهستريا الشعبية.

وأمام ظهور تيَّارات الفكر الثورية القوية التي ظهرت على شكل موجتين كبيرتين متعاقبتين باسم عصر النهضة وعصر التنوير، كان يجب على الكنيسة أن تدافع عن

---

[1] لقد امتد الحظر إلى كل ما يثير الدهشة، وشمل كل المسار العادي للطبيعة. وكانت قائمة الممارسات المحظورة طويلة للغاية تشمل الرُّقَى، والسَّحَرة، والمنجِّمين، والمشعوذين، إلخ. (انظر الصورة الرائعة التي رسمها: Jean Claude Bologne, Du Flambeau au bucher, Plon, Paris 1993.

نفسها على جبهتين. فعلى الجبهة الأولى كانت محاربة عصر العلوم الإنسانية الملحد، والعقلانية العلمية تستدعي ادّعاء امتلاك الحقيقة، وقيم المتيافيزيقا، والغيبيات.

بيد أنه في اللحظة نفسها التي أطلقوا فيها تحذيرهم -"توجد أشياء بين السماء والأرض أكثر مما يمكن أن يحيط به خيالك" (لكي أستخدم التعبير الشهير لهاملت)- كان يجب على القمم الدينية في كل القوس المسيحي أن ينتبهوا خلفهم إلى التهديد القادم من جبهة ثانية، وهي جبهة ما وراء الطبيعة التي كانوا يعتبرونها منطقة نفوذهم وتخصُّصهم. كان هذا التهديد الجديد يكمن في استئناف الاهتمام بالعالَم الغامض لـ"الفلسفة الأبدية". فصعود نجم الكيمياء وعلم النجوم، وعلم الآثار، فتح الباب لاكتشاف لم يفكر فيه أحد، القوى الغامضة التي تغوص في ثنايا خلق الكون، وتطرح رؤى ما وراء عالَم الأرض، في تنافس مع تلك الرؤية المسيحية. ولقد كان للاهتمام الجديد بالتأثيرات القوية الظنية للأجرام السماوية في حدّ ذاته -على سبيل المثال- ملامح وثنية مقلقة.

ولقد كانت مثل هذه الرؤى خطيرة للغاية لأنها ليست معزولة وقاصرة على قرى نائية، أو على غابات شمال أوربا، بل كانت موضوع جدلٍ في منتديات الجامعات الكبرى. وهذا ما كانت السلطة الدينية العليا لتسمح به مطلقًا، بل وجب عليها -مهما كلّفها ذلك- أن تدَّعي لنفسها -كما فعلت منذ البداية- احتكار كل ما يتعلق بالمجال الغيبي. ودائمًا كان في عمق المسألة تأكيد لسلطة تفسير كل ما يتعلق بالعقيدة.

وما دام يوجد رؤيتان متعارضتان لعالَم ما وراء الطبيعة، فإن حُرَّاس العقيدة الصحيحة اعتبروا أن واجبهم الذي لا فكاك منه هو توجيه المؤمنين إلى التفسير الصحيح.

وحتى لا تقع النفوس الصالحة في شباك الشيطان، الذي يلجأ إلى إغراء الناس، بالجنس وبالسلطة، كان على الكهنة البدء في المطالبة بحكم حصري أيضًا على شؤون الشيطان.

ومع ذلك تعقدت المسائل بشكل كبير، لأن السلطات الكَنَسِيّة وجدت نفسها تدير وضعًا غاية في الحساسية، ولا نبالغ إذا ما عرّفناه بأنه نوع من الحُمَّى الجماعية، ولم تكُن السلطات الكَنَسِيّة مؤهَّلة جيدًا مثلما كانت جاهزة للتصدِّي للهرطقة التقليدية، لأنه أمر يمكن أن يبدو كم هو غير معقول، أن يؤمن الناس في القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر بالسِّحر. ولم يكُن أكثر المتحمسين "المطاردين للساحرات" أو على الأقل الوشاة بالساحرات، هم المحققين، أو القساوسة، أو الأساقفة، بل محافظين من كل طبقات المجتمع. فالعمال، والفلاحون، والجنود، والتجار، وموثِّقو العقود، وربّات البيوت، وحتى الأطباء، والأدباء، كانوا جميعًا على قناعة -كل واحد حسب مستواه الثقافي- أنه من

الممكن لبعض الأفراد، رجالا ونساء، المزودين بشكل خاص، أن يسخروا القوى الغيبية، وأن يثيروا كل أنواع النتائج الخارقة لنواميس الطبيعة.

ولم ينجُ من حُمّى الغيبية حتى ممثلون بارزون للفكر العلماني، مثل نيوتن، وباكونه Bacone، فجوردانو برونو وأكثر منه تومازو كامبانيللا كانا يمارسان السحر. وكانت شخصيات بوزن وقامة ديكارت وهوبيز وجروتسيو Grozio لا يقاومون سحر الممارسات الغامضة[1].

وكان المنظِّر الكبير للدولة العصرية والتسامح الديني جين بودين Jean Bodin هو أيضًا مؤلف الدليل القضائي لمذبحة الساحرات، الذي نشر عام ١٥٨٤ بعنوان "الهوس بالشيطان" Demonomanie.

فالمادة في حدِّ ذاتها لا تُسمِن ولا تُغنِي من جوع في إدارة هادئة ومحايدة. وإذا كانت القضايا حول نقاط العقيدة غامضة، فإن القضايا حول الساحر كانت بالتأكيد أكثر غموضًا، وأدَّت إلى ظهور أحكام تعسُّفية مطلقة[2]وقد اندرج تحت مسمًّى "أعمال السحر" كل المعتقدات والطقوس والإجراءات، بما فيها بعض طرق العلاج من الأمراض التي كانت تُستلهم من شكل غامض من أشكال التديُّن وليس من مبادئ عقلية، كانت تصنف جميعها تحت تعريف عام هو السحر. وهكذا كان يمكن أن ينتهي الحال باضطهاد "النساء العاقلات" بالقرى، اللائي كُنّ يقُمن بعمل القابلات (المولِّدات)، أو يعالجن بالأعشاب، أو بوسائل علاج تقليدية أخرى. الكنيسة فقط كانت تستطيع استخدام طقوس وممارسات مثل الزّار[3] بطريقة شرعية، اعتبرَتْها سحرًا في سياقات أخرى، ولكن ضمانتها كانت تجعلها محترمة. وكانت الكنيسة تعترف -على سبيل المثال- "للملائكة المقدسة" بأنهم حلفاؤها غير المجسَّدين والغامضون ضدّ قوى الساحرات الغامضة.

وكان العمل الكبير ضدَّ أعمال السحر من خلال أمر بابوي صدر عام ١٤٨٤م، وكان يُدِين بعض الأشخاص بألمانيا الذين "يبيعون أنفسهم للشيطان والكوابيس والأخدان"، والذين عن طريق السحر وأشكال الشعوذة "قتلوا أطفالاً في أحشاء الأمهات، وأهلكوا نسل الأنعام، والحرث في الأرض، وعناقيد الكروم، وثمار الأشجار".

---

[1] R. Camilleri, La Vera storia dell ' Inquesizione, Cit, PP. 73 - 74

[2] تجسيد رائع لهذا الجو نجده عند ليوناردو شاشا L. Sciascia في عمله الساحرة والقبطان، بومبياني، ميلانو، ١٩٨٦

[3] حفل طرد الأرواح الشريرة عن الممسوسين (المترجم).

وقد بلغ القمع ذروته في فترة حرب الثلاثين عاما، فقد حاكم كبير أساقفة Treviri ٣٦٨ ساحرة ما بين عامي ١٥٨٧ و١٥٩٣م، أي في المتوسط ساحرة ونصفا كل أسبوع[١]

إن "توراة" مطاردة الساحرات، التي يُعَدُّ عنوانها البليغ "مطرقة الساحرات" Malleus Maleficarum[٢]، تفتتح بتأكيد لا يحتاج إلى تعليقات:

"إن الإيمان بوجود الساحرات جزء أساسي من العقيدة الكاثوليكية، وتأييد الرأي المعاكس بعناد يُعَدُّ هرطقة واضحة جليَّة".

إن هذه الفقرة تصف بوضوح كل مظاهر أعمال السحر المفترَضة، بشكل مُعَاد للمرأة، وبإصرار استحواذي على صور نشاط الجنس المختلفة مع كائنات شيطانية (الأشكال المذكَّرة كوابيس، والمؤنثة الأخدان. ويرى مؤلفو "مطرقة الساحرات" أن مضاجعة كائنات غير متجسدة أشدُّ فظاعة وبشاعة، لأنه يمثِّل سخرية من حمل السيدة مريم بيسوع على يد الروح القدُس)[٣].

وكان هناك اهتمام دقيق بتقنيات المستجوبين لانتزاع اعترافات المتهمين، وهي تقنيات لا تستبعد أي دهاء نفسي، بل تستغلُّ الخديعة واللعب على الحبلين.

"وأخيرًا يدخل القاضي، ويَعِدُ باستخدام الرحمة، وهو ينوي في قرارة نفسه أن ما ينويه سيكون رحمة لنفسه وللدولة، لأن كل شيء يتمُّ عمله من أجل الدولة سيكون عمل رحمة".

إن الإشارة إلى الدولة تؤكد أن النشاط القمعي كان يحدث بالتعاون مع السلطات الزمنية، التي كانت ترى هي الأخرى في أعمال السحر عنصرَ قلقٍ للنظام القائم، وللأمن العامِّ.

قمع الهرطقات في المعسكر البروتستانتي

عندما نتكلم عن الساحرات، يقفز إلى أذهاننا على الأكثر سيناريوهات موجودة في شمال أوربا، حيث حصون البروتستانتية، أو في أوائل دول أمريكا الشمالية التي أسَّسها

---

[١] M. Baigent - R. Leigh, L' Inquisizione, cit, pp. 131, 141

[٢] "مطرقة الساحرات" هو عمل ضخم نُشر عام ١٤٨٦ على يد أول مفتِّشَين عيَّنهما البابا بهدف قمع أعمال السحر، وكلاهما من الآباء الدومينيكان، وهما Johannes Sprenge, Heinrich Kramer، وقد أصبح هذا العمل في غضون سنوات قليلة الأكثر مبيعًا في العالم.

[٣] M. Baigent, R. Leigh, L' Inquisi zione, Cit, P. 134

أنصار الكنيسة الأنجليكانية المعروفون باسم البوريتانيين Puritani. من لم يسمع عن مذبحة الساحرات التي جرت في سالم Salem؟

إن الموضوع يقودنا إذن إلى موضوع أوسع هو اللا تسامح في المعسكر المسيحي الأخر، أي المعسكر البروتستانتي. فيرى الكاثوليك أن حركة لوثر الإصلاحية كانت الهرطقة الكبرى، والتي نجم عنها أخطر العواقب. وقد عانت المسيحية في واقع الأمر صدعًا لا يلتئم، بانقسامها إلى جزأين لكل منهما تفسيراته المختلفة. أما الفرع الذي انفصل في جدل مفتوح مع سياسة سلطة البابوية، ومن ثَمَّ ثوريّ، فكان يبدو القدرة على إدخال عناصر أكثر تسامحًا وليبرالية في العقيدة وفي الممارسة المسيحية للشعائر.

وكان ذلك حقيقيًا من حيث المبدأ، فعلى الرغم من غموضه وتشعباته، فإن روح الإصلاح كانت إعلانًا للحرية الدينية، ولتمرُّد المؤمن على آلية مؤسَّسية متصلبة واستبدادية. وكان المعنى الأكثر عمقًا لهذا التمرُّد المتناغم مع دوافع التحرُّر في عصر النهضة، يكمن في إعادة تقييم الضمير الفردي والحكم النقدي ضدَّ السلطة الأحادية للكنيسة.

ربما كان هذا هو الروح والحِسُّ العميق الذي جعل حركة لوثر تذهب إلى أبعد ممَّا كانت تتخيل، وربما أبعد مما كانت ترغب، وأصبحت جزءًا من تَحَوُّل ثقافي واسع فَي الغرب.

كانت حركة الإصلاح واحدة من القوى التي فتحت الطريق أمام التعدُّدية وأمام نقد ثوابت السلطة والمعرفة.

وقد اكتسبت مسألة التسامح أهمية على الصعيد السياسي خصوصًا في إطار الصراعات بين الكاثوليك والبروتستانت، كما سنرى بعد ذلك، سيما أنه بالنسبة إلى طوائف كثيرة من الإصلاحيين كان التسامح في المجال الديني وسيلة للحصول على اعتراف يخصُّ أمورًا سياسية[1].

إن أول وثيقة سياسية حول التسامح تحدِّد مفهومه وتفتح الباب أمام إثبات حرية الضمير -وهي خطاب جون لوك J. Locke حول التسامح- قد كُتبت في بيئة بروتستانتية، وكانت خلفيتها الاضطهادات الدينية في إنجلترا، أن ذاك للتدليل على الانفصال بين المجال الديني والمجال السياسي.

---

[1] ماريا لورا لانزيلو، التسامح، مرجع سابق، ص ٤١

بيد أنه كان هناك أيضًا في هذه الحالة الوجه الاخر للمسألة، فقد كان لهذه التفسيرات الجديدة للعقيدة المسيحية خصائصها المطلقة أيضًا، وكانت تلك التفسيرات تقتفي أثر مسارات تلك الحقائق المطلقة بصرامة وتصلُّب.

إن الحركات التي تكاثر منها روافد كثيرة في كل أنحاء أوربا على طول الأخدود المفتوح بداية من "مسائل لوثر الخمس والتسعون" التي علقت على باب كنيسة وينبرج Wittenberg يوم ٣١ أكتوبر ١٥١٧، كان لها نفس ضرورات ومبرِّرات الدفاع التي رأيناها ملزمة لكل حركة دينية وليدة، ومن ثَمَّ الحاجة إلى معاهدات سياسية، وتسوية، بل بالأحرى من الحزم والنظام الداخلي.

وكانت هناك عوامل أخرى عارضة تلعب دورها، وكانت مرتبطة بشخصية وحساسية هذا الزعيم الديني أو ذاك. وقد قدمت المجموعة البروتستانتية أمثلة عديدة على اللاتسامح والعنف الأعمى.

فسرعان ما صارت أوربا مسرحًا لحرب دينية طويلة، ودموية، هي الأولى من نوعها، أظهر فيها الطرفان أدلة متساوية على البشاعة والغلظة. وقد وصفت اتفاقات وستفاليا عام ١٦٤٨ نهايةً لعالَم يقوم على السيادة العالمية المزدوجة للإمبراطورية والبابوية.

إذ بدأ بهذه الاتفاقات مجتمع دولي جديد يقوم على الدول القومية، ووضعت حلاً للسجال الديني حول المعيار الحكيم الذي تَمَّ الموافقة عليه في سلام أوجستا Pace di Augusta منذ عام ١٩٠٠: في كل منطقة يوجد دين واحد "Cuius regio eius et religio"، انتهت إذن أي محاولة للحوار الديني داخل دولة ما، حيث كان يتمُّ التسامح فقط مع دين واحد، كل مواطن كان عليه إمَّا أن يعتنق الدين السائد في منطقته الأصلية، وإمَّا أن يختار الرحيل. وكانت النتيجة الفورية والفعلية أن كل دولة ظهرت في النظام الجديد قد أعطت إشارة البدء لعمليات "تطهير" عرقي-ديني لا تختلف عن تلك التي مارستها مملكة إسبانيا قبل ذلك بسنوات طويلة. وحتى حكام الدول "الإصلاحية" لجؤوا إلى آليات من نوع محاكم التفتيش لضمان تناغم مملكتهم والسلام الديني.

ولم يؤدِّ الانقسام الأخير لجزء من المجتمع المسيحي إلى جو من الانفتاح والتعددية الحقيقية. وقد خصَّص هانز ساخس H. Sachs (أحد أشهر الأدباء وأغزرهم إنتاجًا) للوثر، الذي كان يسميه "الدكتور مارتن"، قصيدةً يمدحه فيها بوصفه "بلبل فيتنبرج"، ويدعوه إلى افتتاح عصر جديد لقطيع المؤمنين، الذي لاحقه القساوسة الكاثوليك، الذين صوَّرهم هانز على أنهم ذئاب.

بيد أن لوثر قد سلك مسلكا مختلفا تماما عن مسلك الحمل، أو البلبل، إذ لم يتردد في طلب تدخل الأمراء المسلّح لقمع تمرُّد المزارعين أولاً، ثم أنصار مذهب إلغاء تعميد الأطفال في مونشتر المعروفين بـ Anabattisti di Munster، الذين كانوا أشعلوا حرب مزارعين في عام ١٥٢٥ م، وأسّسوا "مملكة صهيون" الخاصة بهم، أو أورشليم الجديدة، واتهموا بإثارة الفوضى والمجون، فضلاً عن حصدهم لعدد كبير من "الشريرين" و"أنصار البابا"، حتى تمَّ الاستيلاء على المدينة، وتَمَّ إعدامهم.

بطل آخر من أبطال البروتستانتية هو السويسري هولدريش زونجلي Huldrich Zwingli، وهو كاهن، وعالم إنساني، مات في المعركة وسلاحه في قبضته.

أمّا في ما يتعلق بالرعايا الأنجليكان لهنريكٍ الثامن وإليزابيث الأولى وكرومويل، فقد كان هؤلاء الرعايا مسؤولين عن مذابح في حقِّ المعارضين الدينيِّين، وقد كلّف اضطهاد الكاثوليك، الذي بدأ بانشقاق هنري الثامن، إنجلترا أكثر من سبعين ألف ضحية، كان أشهر أولئك الضحايا توماس مور مستشار منطقة العمليات العسكرية، ومؤلف المدينة الفاضلة.

وكانت تهمة أولئك الذين ظلّوا مخلصين للبابا هي الخيانة العظمى، وقد تَمَّ إصدار قانون عام ١٥٢٦م بمقتضاه أعلن أن "المعجزات لم تعُد موجودة"، ومن يؤمن بالمعجزات أو يجزم أنه شاهد واحدة منها، وهذا هو الأسوأ، يعرِّض نفسه للإدانة. وقد تَمَّ فرض فضائل العهد القديم بقوة القانون في جنيف كالفينو. تطهير خاصّ للنفوس (يفوق "تطهير التراث" في السعودية أو إيران) جابِ البيوت بيتًا بيتًا ليجلد العاطلين، والفاجرين، ويفاجئ الزناة، ويقبض على المجدّفين. طفل قُطع رأسه لأنه ضرب والديه.

وفي عامٍ ١٥٦٣م تَمَّ صدور قرار بالمداولة يقضي بأن "تعذيب السحرة والساحرات كان عادلاً ومقدَّسًا"[1]

وقد توهم جوردانو برونو أنه سيجد في أرض كالفين آذانًا استعدادها أفضل لسماع مسائل لوثر التي أدانتها كنيسة روما، غير أنه فوجئ بوجود جدار من عدم الفهم والعداء بصورة تفوق ما هو موجود في الأوساط الكاثوليكية.

ولكن الحالة الأشهر والأوضح للشهادة الفعلية بسبب اللا تسامح البروتستانتي كانت حالة الطبيب والفيلسوف الإسباني مايكل سيرفيتو M. Serveto، الذي نما وترعرع في جوٍّ

---

[1] R.Camilleri, La Vera Storia dell ' inquisizione التاريخ الحقيقي لمحكمة التفتيش , Cit., PP.103 – 109

عصر النهضة الفكري، وكان واحدًا من أوائل الداعين إلى الحوار بين الأديان وتوحيد شعوب ديانات التوحيد الثلاثة من خلال مراجعة بعض نقاط الخلاف، وأولها دوجما الثالوث.

وارتكز سيرفيتو على أحد المفاهيم الرئيسية للاتجاه الإصلاحي، وهو التأويل الحُرّ والمباشر للنصوص المقدَّسة، فأكد على وحدة شخص الرب، ومن ناحية أخرى امتدح بشرية المسيح، منكرًا بذلك وحدة جوهر الابن والآب.

تَمَّت ملاحقته، ثم محاكمته على يد محكمة التفتيش بإسبانيا، وتَمَّت إدانته، وحرق صورته، وبعد طول تجوال فرّ إلى جنيف باسم مستعار، لكن سرعان ما تم التعرُّف عليه، وإرساله إلى المحرقة في نفس جلسة المحاكمة بأمر كالفين شخصيًّا[1]

وقد حدثت مشاهد عنف من الجانب البروتستانتي أيضًا في حقبة حديثة، مثل مذبحة الهنود التي قام بها طائفة من البروتستانت المعروفين بـ Metodisti Uniti في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية، والمذبحة التي اقترفها المرمونيون Mormoni في الحادي عشر من سبتمبر ١٨٥٧.

وأخيرًا أشير إلى أن بعض الجمعيات البروتستانتية قد حذت حذو الرُّتَب الكَنَسِيّة الكاثوليكية، في توجيه اعتذارات عامَّة عن أفعال غير متسامحة في الماضي.

فقد اعتذر اللوثريون عن تصريحات مارتن لوثر المعادية للسامية، واعتذر المعمدانيون الجنوبيون Southern Bapists عن دعمهم للرق.

أهي حقبة أصولية طويلة؟

هذا الفصل يُعَدُّ أطول الفصول، لكن الحقبة التي يغطِّيها طويلة، وكذلك قائمة الموضوعات التي يدور حولها اللا تسامح المسيحي، الذي يمكننا أن نسمِّيه "الداخلي". تفتيش، وحروب صليبية، ومطاردة ساحرات، واضطهاد البروتستانت من جانب الكاثوليك، والكاثوليك من جانب البروتستانت، وبعض التواريخ والأسماء التي يرتبط بها منشور نانت Nantes، وأزمنة سان بارتولوميو، وتوركيمادا، وسالم Salem، وبرونو، وسيرفيتو... كلها تلقِي بظلال مزعجة على حقبة مظلمة دون شكٍّ، ولكنها مليئة بهيجان

[1] على الرغم من أن الإدانة صدرت عن محكمة جنيف المدنية، فلم تكُن على أساس قانون جنيف، بل على أساس قانون الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة بخصوص جرائم إنكار الثالوث، وتكرار التعميد، انظر: (M.L.Lanzillo, Tolleranza, Cit., P. 44).

ووعود لكل باقي البشرية. ويمكن أن نستخلص من سلسلة الأحداث والمشاهد التي تمّ استعراضها، عدة نتائج هامّة للغاية لتحديد تاريخ وملامح أعداء الحوار.

النتيجة الأولى، وهي أكثر النتائج وضوحًا وعمومية، تقودنا إلى السبب الموصل لدراستنا، والذي يمكن أن يلخصه قول مانتسوني Manzoni: "الصواب والخطأ لا يتميزان أبدًا بخط فاصل قاطع لدرجة أن يكون هذا الجزء صوابًا، وهذا الجزء خطأً". إن التاريخ الطويل الذي استعرضناه حتى هنا له مغزى أخلاقي: إن عملَ حدٍّ قاطع فاصل بين من يحمل الحقيقة، ومن هو زنديق، مسألةٌ محلّ نظر، فالزنادقة الذين تحكم عليهم كنيسةٌ ما بالموت، يمكن أن يصيروا مؤسِّسين لكنيسة أخرى. وكثير من المواقف التي تبدو لنا غير دائمة، أو لا يمكن التلاقي بينها مطلقًا، إذا ما تم التعمُّق فيها، ووضعها في الإطار التاريخي الملائم، فستفقد كثيرًا من استحالتها وعبثيتها، وسيظهر في كل موقف جزء من معقوليتها وصلاحيتها الأخلاقية.

إن المشاهد والصور التي يُنظر إليها بوصفها أشكالاً منحرفة من أشكال السلطة، أو، من الجانب الآخر، أعمال عصيان ضدَّ السلطة، لو قمنا بتحليلها بعمق، ستظهر كأنها نتائج حتمية لبعض المقدِّمات والفرضيات.

ومع ذلك فها هي النتيجة الثانية الأقل وضوحًا، ولكنها ضئيلة القيمة بلا شكّ، في المآسي التي تَمَّ استعراضها، وهي أنه لم يُبدِ أحد الأبطال -رغم تغير الظروف، والأفكار الجارية- استعداده لمراجعة نقدية، بالاشتراك مع الخصوم، للمقدمات المنطقية، والفرضيات المسلَّم بها والعزيزة عليه. بل -على العكس- بدا كل واحد مستعدًّا للتضحية بحياته من أجل دوافع ومحركات سيتضح بعد بضع سنوات أنها بالية، وعفا عليها الزمن.

إن تصرُّف الزنادقة، الذين كانوا على استعداد أن يحرقوا أحياء ولا يتنازلون عن قناعاتهم، وسلوك كثير من جلاّديهم المستعدين للقيام بنفس الشيء إذا ما وجدوا أنفسهم في نفس الموقف، يؤكد أن "التضحية بالحياة لا تكفي لضمان بقاء وصلاحية قضية ما".

إن المعنى الرمزي المستخلَص من محكمة التفتيش، التي استمرت في إسبانيا حتى عام ١٨٣٤، تؤكد لنا أنه ولا حتى محكمة تفتيش مسلحة بقوة، ومكانة مؤسسة عالمية مرموقة، يمكن أن تحلّ مشكلة كيف نميِّز ونفرق بين الاستشهاد من خلال التضحية بالنفس، وزيغ وضلال التعصُّب.

وفي الختام نتيجة أخيرة، وهي أكثر النتائج إثارة للجدل، ولكننا سنجدها في ما يتعلق بالشمولية والاستبداد. لا يمكن إنكار أن قمع الانحرافات في مجال العقيدة، والذي تَمَّت ممارسته طويلاً، وبتلك القسوة، لم يكن ليتم دون مباركة وسلبية أغلبية الشعب،

فالمؤمنون الذين كانوا يُهرعون إلى الميدان العامّ ليشهدوا حرق زنديق أو ساحرة، كان من الممكن أن يشعروا بالهلع على المستوى الشخصي، بيد أنهم، كأعضاء في جماعة، كانوا يشعرون بنفس شعور "تحقيق العدالة" لدى الحشود الغفيرة التي تشارك في شنق سارق الجياد في الغرب البدائي للرواد الأمريكيين، أو التي تقوم اليوم بدور الجلاّد في بعض البلاد الإسلامية برجم الزانية.

إذا وُلدت الأصولية المتعصبة -كما سنرى- كردٍّ فعل لأقلية عنيدة في مواجهة هبوط الحماس الديني، الذي حدث مع موجة الحداثة العلمانية، وعلى طول "موسم المحارق"، الذي استمرَّ حتى أعتاب العصر الحديث، فإن الموقف يبدو مقلوبًا، فلا يزال المدافعون عن الفكر الحر والملاحدة يشعرون بأنهم قلة مُبغَضة ومهمَّشة، وبهذا المعنى ليس من المصادفة التأكيد على أن عصر محاكم التفتيش كان عصر الأصولية الشاملة التي كان فيها السواد الأعظم من جماعة المؤمنين يؤيِّدون ويدعمون أُسُس العقيدة، بل يطلبون من الإكليروس (طبقة رجال الدين) الدفاع عنها.



الفصل العاشر

المعركة الثانية من أجل النفس

الليل مظلم، والسماء داكنة ملبدة
تركنا قرية آبائنا،
غضب الخالق علينا...
أصبح النور ظلاماً، والليل بعده ليل،
غدا يوم جوع ومسغبة
غضب الخالق علينا،
...
رحل كبار السن،
بيوهم بعيدة هناك
قيم أرواحهم.
أين قيم أرواحهم؟
قد تعلم ذلك الرياح العابرة
عظامهم بعيدة هناك.
...
هل هم هناك تحت الأرواح؟
أهم هم؟ يرون الصدقات موضوعة في نظام بديع؟
الغد عرى، وخواء بطن،
لأن الخالق لم يعد معنا، إنه هناك،
لم يعد هناك وجود للضيف الذي يجالسنا حول نارنا.

أنشودة المنفى لساكني الغابات الاستوائية بالجابون[1]

---

[1] مقتبسة من النصوص المقدسة للعالم Sacred text of the world، طبعة كروس رود، نيويورك، ١٩٨٢

[مذبحة شعوب بلا تاريخ مقاومة التنصير - غوص في عقليّة البدائية - تهاوي «الشعائر الصينيّة» - بذر الكلمة واحتكار الخير.]

مذبحة شعوب بلا تاريخ

قادتنا رحلتنا هكذا إلى فجر العصر الحديث، فقط لنؤكد كيف أن اللا تسامح في المسيحية لم تخفّ حدته بعد. بل جعله مرور القرون أشد عدوانية، وأشد تعقيداً، تحت ضغط تهديدين ظهرا على جبهة الخلاف الداخلي: انشقاق المسيحية الذي لا علاج له، وهو أشد خطورة من انفصال مجموعة ما عن الكنيسة، وظهور معارضة "علمانية" منظمة.

ولكن ماذا كان يحدث في ذلك الوقت على الجبهة الخارجية ؟

كان الوضع هنا يبدو مقلوباً، لا من المنظور الدفاعي، بل من منظور ديناميكي. فبعد أن تحققت طريقة للتعايش. وإن كانت غير مستقرة - مع الخصوم التقليديين من اليهود، والخصوم الجدد مسلمي الأندلس "موري Mori"، لاحت فرصة ذهبية أتاحها اكتشاف عالم جديد، وبعده أراضي أخرى واعدة أمام المد التبشيري.

لم يعد هناك أعداء يجب سحقهم، بل أنصار يجب كسبهم.

وقد وجد الكاثوليك والبروتستانت أنفسهم في تناغم تام - على ما بينهم من تنافس قوي - مع السلطات السياسية في تحقيق نموذج وحيد كبير يتلخص في فرض رؤية واحدة للعالم تتمحور حول المسيحية وحول أوربا في كل أنحاء العالم.

بدأت هكذا حملة ثانية لاعتناق المسيحية، بعد الحملة الأولى التي تمت مع الوثنيين، والتي تميزت بنبرة أكثر ثقة، ومزهوة بالنصر، وبمظاهر قمعية صارخة.

كان يجب أن يتم الاعتناق دون تنازلات، أو حلول وسط، وأن يمتّد إلى كل الشعوب التي يصادفها المبشرون، والمكتشفون في طريقهم دون استثناء. كان يجب غرس الصليب أولاً وقبل العَلم في كل أرض يتم اكتشافها حديثا، لنؤكد انضمامها إلى العالم المتحضر.

هذا الهدف التوسعي، والعدواني، وذو البعد السياسي الواضح، لم يكن فعلاً يفتقر إلى البعد المثالي. فقد كان الدافع لعمل الخير Caritas الذي حرّك المسيحيين الأوائل، يحرّك نفوساً تقية كثيرة، وعدداً غير قليل كذلك من الشخصيات المرموقة.

إنه دافع متوافق تماماً مع الإيمان بالله الذي – نظراً لأنه ظهر في نقطة محددة للزمان والمكان – يطرح مشكلة توفير مكان لأولئك الذين كانوا "في مكان ما"، أي الذين لم يكن لديهم أي فكرة عن الحدث الضخم [المسيحية]. ففي هذه الفترة الذهبية من تاريخ الكنيسة المنتصرة، التي تعلم فيها القوى العظمي أنها أبطال للكاثوليكية، ازدهرت روح التبشير التي رأيناها متداخلة مع العقيدة، وكانت تريدها الرتب الكنسية، وتعتبرها أعظم أعمال الخير. إن اللقاء العارض مع أناس ظلوا معزولين عن البشارة، والاقتصار على قيادتهم نحو التقدم المادي دون بذل كل جهد ممكن لجعلهم شركاء في الخلاص المتاح لكل الجنس البشري، وبذلك إنقاذ أنفسهم، كان يعتبر أحد الذنوب التي لا تغتفر.

وقد التحم هكذا الشعور بالاستعلاء على الصعيد السياسي، مع الشعور بالاستعلاء على المستوى الديني، وذلك في أجواء التطور التاريخي الذي جرت فيه الاكتشافات الجغرافية.

وقد كانت الطبقات الحاكمة في أوربا حسنة النية على الأكثر وهي تشعر بمسئولتيها العالمية في نشر التحضر، وفي حمل " مسئولية الرجل الأبيض " على عاتقها، والذي تغنى بها كيبلنج Kipling في شعره الشهير والسيئ. وكانوا متفقين تماماً مع القمم الدينية على أن أول، وأعظم هدية يمكن لحضارتهم السامية أن تقدمها للشعوب المراد "استعمارها" هي استمالتهم، وضمهم لرسالة الإنجيل.

ومع ذلك يظل من العسير شرح كيفية انحراف عمل الاعتناق – التحضر بطريقة مفاجئة إلى لا تسامح واضح، أي غياب كامل تقريبا لاحترام الآخر. وقد كان تأثير النفحة الدينية، بسيطاً في تخفيف حدة العنف المادي والمعنوي ضد الثقافات المحلية، والذي لا تبرره ضرورة التغلغل العسكري أو التجاري. هناك اعتراف واضح بالطابع العدواني للحروب الصليبية التي لم تغير شيئاً، على الرغم من أنها جرت بأسلحة متعادلة، وضد عدو قوي يمثل تهديداً.

إن الأنجلة [نشر الإنجيل] التي أعلنت نيتها بأنها متجهة لا لقتال الأعداء، بل لإنقاذ الخراف الضالة، كانت بمثابة مبرر لعمليات عسكرية على نطاق أوسع ضد خصوم ضعفاء للغاية، ومن ثم ترتب عليها آثار مروّعة.

إن قوة دفع "نشر التحضّر"، وحماس الاعتناق امتدا في كل الأراضي التي وقعت تحت سيطرة الأوربيين دون استثناء. فقد كتب فولتير عام ١٧٦٨ في مقاله الذي يحمل عنوان " إنذار إلى كل الشرقيين": "كل أمم آسيا، وإفريقيا يجب أن تنتبه إلى الخطر الذي يهددها منذ زمن. إذ يوجد في عمق أوربا، أو بالأحرى في مدينة روما، طائفة تسمى "لنصارى الكاثوليك".

وقد كان هناك تدرج في التغلغل "الأبيض" وفق المنطقة المراد استعمارها. فلا بقل حماس، ولا جهد مبشر في اسيا – سواء أكان كاثوليكيا أم بروتستانتيا – عن نظيره في إفريقيا. ومع ذلك فإن الثقافات الكبرى مثل الهندية، أو الصينية كانت تثير الخوف والمهابة، واتساع البلدين، وكثرة عدد السكان خففا الصدام، وجعلا مشروعات الاعتناق على نطاق واسع غير واقعية. أمّا الوضع بالنسبة للبلاد التي تعرف اليوم بالعالم الثالث، أو بالعالم الرابع فكان مختلفا .

ففي الأمريكتين، وإفريقيا، والأقيانوس Oceania، وفي بعض المناطق الآسيوية المتخلفة، كان التقاء "شعوب بلا تاريخ مع شعوب تحمل العالم على أكتافها"[1]– على حد تعريف ذكي لكاتب سنغالي – مدمرا بصورة لا يمكن تخيلها. فقد وقع الصدام، ولم يترك أدنى فرصة للنجاة، وقلب رأسا على عقب نظام حياة شعوب دام آلاف السنين.

هل هناك حاجة لذكر بعض المظاهر البارزة لتغلغل يستلهم بوضوح من احتقار "لآخر"؟. فمن المعلوم أن أهل البلاد الأصليين الذين لم تحصدهم الأمراض المعدية، أو تغيير بيئتهم، أصبحوا عبيدا، أو تم استئصالهم بصورة منهجية.

فقد بدأت المذبحة تقريباً في كل مكان، ومنذ أول إنزالات الغزاة. ففي جزيرة Hispaniola، وهي أول الموانئ التي رسا بها كولومبس، نزل عدد السكان المحليين من مليون تقريباً، إلى أحد عشر ألفا في غضون عقود قليلة[2].

وقد كان وصول البرتغاليين بداية نهاية الحضارة النهرية في غابة الأمازون حيث كانت توجد تجمعات سكانية قديمة، وحيث تم اكتشاف قطع أثرية من أقدم الآثار في كل شبه جزيرة أمريكا الجنوبية[3].

وقد بقيت آنذاك حضارات مزدهرة مثل حضارة المايا Maya، والإنكا Incas، والأزتك Aztechi، وقد عجل وصول البرتغاليين بغروبها المحتوم.

ولا أستطيع أنا شخصيا أن أقنع نفسي، كيف أنه في فترة من فترات الثقافة الأوربية المزدهرة التي ولد فيها تقديس القدماء، وكان يرفع التراب بتبجيل عن الآثار الحجرية للحضارات المتوسطية، بدا المثقفون الذين كانوا يقومون بأنفسهم في الأناضول وسوريا ومصر بحفريات محمومة بحثا عن قطع أثرية، أو يعكفون على فك رموز كتابات غامضة، غير مبالين بالشواهد الحية لثقافات هنود أمريكا الحية، تاركين لحكام عسكريين

---

[1] Cheikh Amidou Kane, Julliard, Paris 1961 شيخ أميدو كين، المغامرة الغامضة

[2] Sven Lindqvistالمختلفون، بونته أليجراتسيه، ميلانو ٢٠٠٣، ص ٣٥

[1] Geoffrey Blaney الرواية الكبرى للبشر، ترجمة إيطالية، بيمّه، ٢٠٠٣، ص ص ٣٩-٤٠

جشعين، وجهلاء سرقة، ونهب، وتدمير معابد، وتماثيل، وكتابات، وأعمال يدوية مليئة بعبق التاريخ، ورموز مليئة بالأسرار لم أفلح في العثور على دراسات حول هذا الموضوع، لا من جانب خبراء في أمريكا الجنوبية ولا خارجها، لتجيب على سؤالي.

وهذا في حد ذاته له مغزى، ولذلك أدليت بدلوي الشخصي الذي لا أدري إن كان يتفق معي فيه دارسو مثل هذه المشاكل أم لا؟

ففي عصر النهضة، والتنوير كان هناك رجال لهم ثقل كبير أنفقوا عمرهم في اكتشاف الأهرامات المصرية، ولكن قليلا منهم أو لا أحد منهم أظهر اهتماما بأهرامات المكسيك. وربما يرجع ذلك – في نظري. إلى أن الأهرامات الأولى تنتمي إلى "ميراثنا"، بينما الأهرامات الأخرى كانت شيئاً غريباً "خارج" عالمنا، ومن ثم كانت مهمّشة ومهملة، وتم تجاهلها مثل شيء غير موجود. كانت الشعوب الجديدة المكتشفة حديثا، بمثابة "آخرون" ببساطة، ومن ثم تم تصنيفها بصورة آلية، على أنها شعوب من الطبقة "الأدنى"، منبوذة في الخلفية، مثل صورة العرب في روايات كامي Camus.

وقد استمر إذلال أو القهر البدني للسكان الأصليين بمستعمرات أمريكا الشمالية طوال القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر. إذ يحكي اليكس دي توكفيل Tocqueville في تقريره الشهير عن رحلته في أمريكا كيف أن المستعمرين أجبروا – بطرق غير صحيحة ولكنها قانونية شكليا – الهنود على ترك أراضيهم، حتى أصبحت ظروف حياتهم لا تطاق.

وقد استطاع الأمريكيون بذلك، وبدون إراقة دماء، تحقيق هدفهم باستئصال جذور السكان الأصليين تماماً، وهو ما لم ينجح فيه، أو لم يرده الأسبانيون. وقد ختم الشاب الأرستقراطي تقريره بتهكم قائلاً: "ما كان بوسع أحد هكذا أن يستأصل شأفة قوم بكل احترام للقوانين الإنسانية[1].

وقد تبنى التغلغل الأوربي في إفريقيا، واستراليا وسائل لا تختلف كثيراً، وربما أكثر سرعة. فلم يتميز أي واحد من المستعمرين – الفرنسيون، أو البلجيك، أو البرتغال، أو الإيطاليون، أو الأسبان – مهما قيل ذلك، بانفتاح ذهني، وإنسانية في معاملة أصحاب البلاد الأصليين.

ففي الكونغو كان المستعمرون البلجيك يلزمون الحرّاس بأن يقدموا لهم يد زنجي قتيل مقابل كل رصاصة يتم إطلاقها.

[1] سفن لاندكفيست، المختلفون، مرجع سابق ص ص ٦٩-٧١

وقد أباد المستعمرون في أستراليا تماماً السكان الأصليين في تاسمانيا[١] Tasmania، وهم سكان ظلوا معزولين، ومتفردين في العالم لخصائصهم العرقية، بعد أن انفصلت جزيرتهم عن باقي القارة في أعقاب ذوبان جليد الدائرتين القطبيتين. ولكي نعرف كيف كان شكل أحد سكان تاسمانيا كان من الممكن في الفترة التي كنت موجوداً فيها هناك، أن نرى عينة محشوة بالقش في متحف هوبرت Hobart. وبقى اليوم فقط الصور لأن الأثر الجنائزي قد تم رفعه بسبب اعتراض الجمعيات المحلية.

مقاومة التنصير

ما هي مواقف ومسئوليات السلطات الدينية، والتبشيرية إزاء الإستيلاء البشع على أراضي جديدة من جانب الحكام، والجنود، والتجار ؟

ما كان يعني خدام الرب فقط هو فرض الإنجيل ونشره [أنجلة] الشعوب المكتشفة حديثا، وهو التزام أخلاقي، وعمل صالح لكل مسيحي. أما الباقي فهو شأن رسل القيصر. ومع ذلك فقد ظهر من بينهم عديدون عارضوا سوء معاملة السكان الأصليين، ومنهم من كانت معارضته شجاعة ومؤثرة، أثمرت سلسلة من التدخلات الإنسانية. غير أن ما يعد وصمة لعملهم الباعث على الاعتدال، أنهم كانوا مثل رجال زمانهم، لم يتخلوا عن قناعتهم التامة والجازمة بأن الجزء الأكبر من الشعوب الجديدة المراد أنجلتها كانت في حالة من التخلف لدرجة أنها لا تستحق كثيراً احترام تجاهها، لأن كل رقة في التعامل ستذهب سدى، فربما يحاول الفرانشيسكاني الطيب – الذي مرّ عبر آلاف المصاعب لنقل رسالته إلى غابة باراجوا، أو غابة السافانا الإفريقية – طمأنة نفسه بقوله: "ربما نستغل كثيرا سذاجة، وبساطة هؤلاء المتوحشين، ولكن إذا كانوا هم سعداء وهم يتلقون مرايا صغيرة، وقلائد زجاجية، في مقابل الذهب والأحجار الكريمة التي لا يعرفون ماذا يعملون بها، فما الضرر إذاً في أن تكون هناك مصلحة مشتركة؟". أليس عند أناس لا عمليين مثل المستعمرين الهولنديين حق عندما يؤكدون أن الخسارة الحقيقية في ترك أراض رائعة مهجورة لو تمت زراعتها أو استخدامها للرعي فستجلب الرخاء لكل السكان بيض وسود؟ وقد كان مبرر المستعمرين، والمبشرين على السواء هو نفسه. الدونية الموروثة لهؤلاء " البدائيين " الذين احتقروا بالضبط، مثلما احتقر اليونان والرومان البربر، فقد كان ينظر إليهم كأطفال جهلاء يلزم تربيتهم بصبر، وعناء، وتارّة على أنهم حيوانات لا نفس لها يلزم ترويضها بالقوة.

---

[١] جزيرة كبيرة تقع جنوب شرق أستراليا اكتشفها تاسمان عام ١٦٤٣ [المترجم]

وفي المرحلة الأولى من فتح الأمريكتين، كان تعليم السكان الأصليين يعتبر نوعـا من الجهد الضائع. فقد نقل المبشر الفرانشسكاني بيرناردينو دي ساجون B. De Sahagun، الذي فتح عام ١٥٣٦ مدرسة في تلاتلوكو Tlateloco لأطفال نبلاء المكسيك الأزتكيين Aztechi، أنه لاقى معارضة، وسخرية ليس فقط من السلطات الأسبانية، بل كـذلك مـن جانب طرق دينيه أخرى، لأن الهنود كان ينظر إليهم على أنهم "أغبياء كالحمير"[1].

ودائما في نفس الفترة التي كان فيها كوبر نيقوس يقلب النظرة للكون، وكان مونتاني Montaigne، وباكون Bacon يكتبان "مقالاتهما" الرائعة، وكان جوردانو برونو G. Bruno ينشر Dell ' infinito Universo e mondi، وكان مايكل أنجلو يرسم على مقصورة سستين C. Sestia وشكسبير يعد "هاملت" – كان اليسوعي خوزيه دي كوستا J. de Costa فـي مقاله "تاريخ الهنود الطبيعي والأخلاقي" يفرق بين "البربر الذين لا يبتعدون كثيرا عـن العقل، والذين رغم معرفتهم بالكتاب المقدس يمتلكون مدناً، وقـضاة، ورؤسـاء، وبـين المتوحشين الذين يشبهون الحيوانات المفترسة، وبشر بالكاد، أو الذين يتسمون بالهـدوء، والخجل ولهم عقل محدود يجعلهم غير قادرين على حكم أنفسهم وحدهم"[2].

إن خوف هؤلاء الناس، وإحساسهم بالعجز أمام عنف، وكثرة وسائل الـذين حلّـوا بديارهم حديثا [المستعمرون]، فسّره المستعمرون على أنه استسلام، ولا مبالاة، ومن ثـم دليل آخر على تخلفهم الواضح الذي لا علاج له.

فقد تم كتابة قصة المعركة الثانية من أجل النفس مثل المعركة الأولى كذلك بواسطة المنتصرين، فنجد اليوم كذلك مبالغات في سير الرجال النصارى، من المبشرين الشهداء الذين لم يُلقَوا هذه المرّة وجبة للأسود، بل مزقت سهام السكان الأصـليين المتوحـشين أجسادهم، وإذا لم يتم قذفهم في القدور التي تغلي يتم دفنهم. نفس التاريخ المسيحي يخون مشاعر الإحساس بالذنب المتزايدة وهو يشاطر بعض الأحكام القاسية حـول تجـاوزات الاستغلال الإمبريالي، وحول قسوة الداروينية الاجتماعية. إن أقسى أمـر هـو النظـرة الأبوية التي ترى الشعوب المستعمرة كأطفال يجب توجيههم خطوة بخطوة نحو التحرير، لأنهم عانوا من كل أنواع الظلم، وكانوا ضحايا البؤس واللامبـالاة، وأنـه بوسـعهم أن يظهروا معارضتهم فقط بفرقعات عمياء وعشوائية من العنف، وجمهرة وحشود غبية.

---

[1] تودوروف وبودو، حكايات الأزتكيين عند الفتح، طبعة أيناودي، تورينو، ١٩٨٨، ص ٢٦٩ Tzevtan Todorov, Georges Baudot

[2] الوثنية، مرجع سابق، ص ٨٥ Henri Murier

ولكن هل موقف هذه الشعوب المعذبة كان سلبيا حقيقة، أو غير ملائم كما يــراد أن يُعتقد؟ وهل ترك هؤلاء أنفسهم للقهر والظلم في أخص قناعاتهم لأنهم غير قادرين عقليا على القيام بمقاومة متزنة؟

لن نتحدث هنا عن المقاومة الجسدية – وهي كانت موجودة – على الرغم من أنهــا عرضة للنقد انطلاقاً من الدونية العسكرية ضد جحافل منظمة جيدة، ومــزودة بأسـلحة فتاكة. ويكفي أن نذكر المعارك البطولية التي خاضها الزولو Zulu والماوري Maori.

أما المقاومة المعنوية فقد لعب فيها السلاح النفسي أكبر الأثــر والــذي اســتخدمه المستعمرون ببراعة: إقناع السكان الأصليين بدونيتهم. وكما يعرض لنا فرانس فانون F. Fanon بوضوح في "المعــذبون فـــي الأرض Les damn'es de la Terre" أن الـشعوب الكبيرة، والصغيرة التي تعرّضت لقضية "التحضّر" كانت منذ البداية مجردة من أثمن ما تملك، وهو تقدير الذات.

وكتب تشارلز تيلور: "إن هويتنا يصوغها اعتراف أشخاص آخرين أو عدم اعترافهم بها، ولذلك يمكن لفرد، أو مجموعة أفراد أن يعاني من خسارة حقيقية، أو كارثة فعلية إذا ما أعطاه الأشخاص أو المجتمع الذي يحيط به، مثل مرآة، صورة له تحدّده، أو تقلل من شأنه، أو تذله. إن عدم الاعتراف يمكن أن يدمر، وأن يكون شكلاً من أشكال القهر"[1]

إن هذه الصورة التي تبخس الشخص حقه، والتي حدثت في مجتمع الأسلاف فيمــا يتعلّق بالمرأة، تم تطبيقها بعد اكتشاف أمريكا على الشعوب أصحاب الأرض الأصليين، الذين تم النظر إليهم على أنهم "غير متطورين"، أو على أساس ما ينقصهم (نقــص رأس المال، والعقلية العلمية، والوعي السياسي).

غير أنه كان هناك عامل آخر يجعل هؤلاء الناس غير مسلحين أكثر – مثل الوثنيين القدماء أمام المجيء الأول للمسيحية – وهو أن هؤلاء "الوثنيــون الجــدد" لــم يكونــوا يتوقعون أن يصل السادة الجدد إلى هذه الدرجة المفرطة من رفض عالمهم.

ولنحاول أن ننتقل للحظة إلى معسكر المهزومين.

فقد وجد السكان الأصليون أنفسهم – أمام من اعتقدوا في البداية أنهم ضيوف – في ظروف نفسية سيئة، لأنهم لم يستطيعوا إدراك وفهم ما يمنع من دخول الرسالة الجديــدة لإنقاذ النفس بهدوء في تراث معتقداتهم التي كانت موجودة، كما حدث دائماً. فقد حــدث في خلال تاريخهم مرات كثيرة أن فرضت عليهم قبائل معادية آلهتهــا. والآن، وللمــرّة

[1] تشارلز تايلور، التعددية الثقافية، طبعه وقدم له أمي جوتمان، جامع برينستون ١٩٩٤، ص ٤١ Charles Taylor

الأولى، لم يقتصر الأجانب الذين لا يقهرون على إدخال دين جديد، بل كانوا يفرضون طريقة جديدة تماما لفهم الدين، مقارنة بتلك التي كانت سائدة آنذاك. وقد كشف الواصلون الجديد سريعا عن وجههم كغزاة، بيد أن الأسوأ هو أنهم لم يكونوا يريدون الاستيلاء على الأراضي والثروات الخاصة بسكان المكان، ولا جعلهم عبيدا، ولا إجبارهم على احترام آلهة الغزاة، بل كانوا يريدون مباشرة التغلغل إلى ضمائرهم، وفرض نفس الرؤية للعالم عليهم.

ماذا كان يمكن عمله للاعتراض على هذه الطريقة؟

إن شعوب الإمبراطوريات الوثنية الكبيرة، على الرغم من عجزهم مثل كل الشعوب الأخرى على الصعيد الاقتصادي والعسكري، كان بوسعهم – على المستوى الثقافي – أن يواجهوا تلك المحاولة التي تستهدف رؤيتهم للعالم بشيء من اللامبالاة، بل والتسامح.

وبوسعنا أن نقارن مقاومتهم لفرض المسيحية عليهم بالمقاومة المتطورة والقوية للساسة والمثقفين بالتجمعات الهيلينية الكبرى في القرون الأولى بعد الميلاد.

إذ تشبه مقاومة الشعوب الفقيرة والمتخلفة مقاومة القرويين البسطاء الذين كانوا يقطنون التجمعات الريفية بالإمبراطورية الرومانية، الذين كانوا ملتصقين بطقوس الأجداد، وقاوموا لعدة قرون ضد الاعتناق القسري، وإن كان النضال آنذاك يبدو عبثيا وبلا أمل، وكم كانوا يشعرون بالألم كلما كانوا يدركون أن قضيتهم إلى زوال.

هل كانوا مستسلمين؟ ولكن لماذا لا يجب عليهم أن يستقبلوا بامتنان الزائرين الذين جاءوا من بعيد وكانوا يؤكدون فضلا عن امتلاكهم أسلحة مرعبة، وإظهارهم قدرات إعجازية على تحويل الأشياء المادية – على أنهم يريدون توصيل رسالة روحية مدهشة.

فلو حدث يوماً أن التقينا – كما يصور الخيال العلمي – مع كائنات من عوالم متقدّمة علينا، ألا نود أن يثمر هذا اللقاء عن مصلحة مشتركة وعن توحد بناء؟.

ولماذا إذن لم يكن واجبا على هؤلاء "البدائيين" أن ينتظروا نفس الشيء من لقائهم مع الكائنات غير العادية التي جاءت من وراء البحار؟.

وكما كان المبشرون النصارى مخلصين لمبادئ عقيدتهم عندما أرادوا تنصير "الوثنيين الجدد" فإن أولئك الآخرين كانوا أيضا مخلصين لمبادئهم الدينية عندما وجدوا أن مفهوم الاعتناق نفسه لا مبرر له وغير مفهوم، فقد كانت رؤيتهم للمقدس تعني اقتسامه أو تكييفه مع رؤية الآخرين الأكثر قوّة والأكثر حكمة.

وقد كانوا ينتظرون أن يتم التعامل مع قناعاتهم الدينية باحترام واهتمام بوصفها إسهامات في شبكة قراءات عامة للعالم ولإظهار افاق أكثر اتساعا للعالم المجهول ولم يكونوا يتخيلون قط أن معابدهم ستهدم، وأن عقيدتهم ستمحى بالقهر. وحتى عندما أدركوا سريعا أن الزائرين هم في الحقيقة غزاة يريدون. ليس فقط سرقة خيراتهم. بل أنفسهم، لم يصبح لهذه الفكرة معنى بالنسبة لهم.

كيف يمكن السيطرة على النفس التي هي كقمة موجة في المحيط؟

فالنفس لا يمكن إلا أن تكون جماعية، وتلقى بجذورها في عقيدة الأجداد والسلف، وتستمد حيويتها وقوتها من الشخصيات الكبرى بالقبيلة، ومن الشعائر، والطقوس التي تم تناقلها جيلاً بعد جيل.

فقد كانت هذه الشعوب، وهؤلاء الأفراد يبنون هويتهم على هذه النفس، وعلى "إتحادهم مع القديسين Koinonia" منذ القديم. وتلاشي الحس الديني للأجداد، واستبداله بأخر يتم فرضه بالقوة من الخارج، يعتبر شبيهاً بفقد البوصلة، والجهات الأصلية، وفقد نقاط الارتكاز الروحية، والعقلية، التي تحدد مكانها في العالم.

وكما حدث بعد ذلك. فإن هذا الشعور السائد يتجسد من شعب إلى شعب، ومن منطقة إلى منطقة، بحسب المستويات المختلفة للثقافة، وللتنمية الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، ولم نعرف سبب عدم استشارة المعنيين المباشرين بالأمر، وعدم سماع صوتهم. ربما نستطيع أن نعرف أكثر عندما يمكن إضافة الأبحاث التاريخية الجادة والموثقة إلى المداخلات المتفرقة، والروايات، والشعر الخاصة ببعض الكتاب من السكان الأصليين.

وتدلنا المعلومات الضئيلة التي بحوزتنا، أنه غير صحيح أن هؤلاء "المهزومين"، والأكثر " بدائية " كانوا غير قادرين على إبراز أسبابهم ومنطقهم. ولكن ببساطة – وهذا هو الملمح الأكثر مأساوية في الموضوع – لم يكن عندهم القوة، والأدوات للقيام بذلك بصورة فعالة. وكان الفاتحون – وقد فهم ذلك فيما بعد – يمتلكون سلاحاً أقوى من المدافع، وهو المدرسة. فالمدفع يفتك بالأجساد، أما المدارس فتسحر العقول أكثر من أي سحر.

فبعد الحرب، جاءت الصداقة، والتعليم، والعلاج من الأمراض، والمساعدات ضد الفقر والبؤس. ولكن النتيجة كانت واحدة في كل مكان – على حد قول أميدو كان A. Kane الذي كتب "من قاتل، ومن استسلم، من أبرم العهود، ومن قاوم، تم حصرهم،

وتقسيمهم وتصنيفهم، وتسجيلهم في الخدمة العسكرية، وإدارة شئونهم"[1]. وهو أمر نجده دائما في حديث السادة: نبذ، ورفض اعتبار المهزومين يمثلون "الاخر".

وبنظرة سريعة على الفكر الخفّي لهذا النوع من الغرقى الذين نجوا رغما عنهم، يتاح لنا قدر من المعلومات عمّا جاءنا من الوثائق القليلة وتقارير المبشرين التي نجت من مصادرة الكنيسة (وهي نشطة في المعسكر الكاثوليكي أو في المعسكر البروتستانتي)، فقد أورد تقرير للأب بيير شازيل P. Chazelle، في ١٥ أبريل ١٩٤. م. مقدم إلى جمعية "نشر العقيدة" De Propaganda Fide [2]، تصريحات بعض رؤساء القبائل الهنود في جزيرة والبول Walpole بكندا، حيث قام هناك بمهمة تبشيرية لسنوات عديدة:

"لو أني أتيت إلى جزيرتك لأتحدث ضد عقيدتك، وأحاول أن أجعلك تقبل شعائري المقدسة، فهل ستسمعني؟ "هكذا سأل أحد رؤساء القبائل. وأعقبه زعيم قبيلة آخر بقوله: "نحن لا نتشابه، دمنا ليس نفس الدم، ولا لغاتنا نفس اللغات. إن الروح الأكبر بالتأكيد هو الذي وضع كل هذه الاختلافات في الأشياء التي خلقها، وكانت غايته إذن ألا يكون لدينا جميعا نفس الطريقة في الصلاة".

(وهنا يبدو أننا نستمع من جديد إلى حديث سيماكو في مجلس شيوخ روما وهو يدافع عن الآلهة).

وأخيرا انبرى رئيس قبيلة ثالث وكان أكثر صراحة في رفضه الدعوة إلى التنصير بقوله "لو قلت لك: ها أنذا. خذني حيث تشاء أين ستقودني؟ أنا لا أعلم عن ذلك شيئا، غير أنك بالتأكيد ستجرني بعيداً جدا عما كان عزيزا ومحبباً إلى أجدادي وستجعلني أحتقر ذكراهم، وهذا مالا أسمح به أبدا[3].

غوص في العقلية البدائية

كان أول اتصال مباشر لي مع عالم "البدائيين" وأنا شاب فوق الأربعين، في رحلة مغامرات قمت بها في غينيا الجديدة Nouva Guinea التي كانت تحت وصاية الإدارة الأسترالية، في الفترة التي كنت فيها نائب قنصل إيطاليا في ملبورن.

---

[1] شيخ أميدو كين، المغامرة الغامضة، مرجع سابق ص ٢٣ Cheikh Amidou Kane

[2] بعد مجمع الفاتيكان الثاني صار اسمها "جمعية تنصير الشعوب".

[3] هنري مورييه، الوثنية، مرجع سابق ص ١١٤، ١١٥ Henri Murier

ففي تلك الحقبة كان بعض سكان الجزيرة، خاصة على طول وادي نهر سيبيك Sepik في نفس مستوى العصر الحجري. وكان يبدو أن بيئة البيض تأخذنا إلى زمن الاستعمار أيام الملكة فيكتوريا ذهبت إلى سهل جوروكا Goroka البديع مع اثنين من رفاقي لزيارة أحد المبشرين الأمريكيين الذي يعيش منذ سنوات كثيرة في ضاحية تجمع سكاني صغير، ولكي نصل عنده تعين علينا السير لمسافة طويلة. وكانت السيارات القليلة التي تقطع الطريق غير المرصوف تتوقف لتعرض علينا الركوب، وكنا نقدم الشكر قائلين بأننا نفضل شيئا من الحركة. ولما وصلنا إلى الراهب العجوز، ونحن نشرب معه الشاي لاحظت أن سكان هذا المكان يتمتعون بلطف غير عادي، ومن ثم أخبرته بالدعوات المتكررة التي تلقيناها على الطريق للركوب. فتبسم المضيف بزيه من الطراز القديم المليء بالأزرار حتى الأقدام، وبلحيته البيضاء الطويلة وقال: "إنه ليس لطفا بالمرة. لأن البيض هنا لا يريحهم، ولا يحبون أن بيضاً آخرين يسيرون في الطريق ويختلطون بالسكان الأصليين".

كم كان يسعدني أن أحكي لكم تفاصيل اللقاءات الكثيرة، والمواقف الجميلة والسيئة مع أولئك "الأصليين"، الذين كانوا يفتحون لي نوافذ مذهلة على إنسانيتهم العظيمة حيناً، وعلى همجيتهم حينا آخر، وحيناً أخر على قدرتهم غير المعقولة على التفاعل مع البيئة بذكاء: المرأة العجوز التي بقى لها إصبع واحد في يدها اليمنى لأنها تحترم عادة قطع إصبع عندما يموت أحد أفراد الأسرة، كبير القبيلة الذي يتزين بعقد من سيقان البامبو، كل قطعة منه تمثل مساعدة، أو قرض قام به، وهي علامة مهمة تميز الإنسان في هذه المجتمعات، حيث ترتكز السلطة على إنفاق الثروة، المشهد الذي لا يوصف لانتحاب، وحزن قبيلة بكاملها بالمطار الصغير بسبب سفر أحد أبنائها، الصيد العبقري باستخدام السلاح الخفيف لصيد الأسماك الطائرة.

ولكن الاستطراد في سرد خبراتي كمكتشف هاو، ربما تخرجنا عن موضوعنا.

ويبدو لي هنا في لب الموضوع، أن أتوقف قليلا عند الاكتشاف الذي ترك فيّ انطباعاً هاماً: إنه "طقس النقل Cargo Cult".

وبعد هذا الاكتشاف الخاص بي، عدت إلى بيتي، ووثقته بطريقة ما، وعلمت أنه كان معروفا لدى علماء الأجناس البشرية الذين كانوا يدرسونه في كل أنحاء ميلانيزيا[1] Melanesia، منذ ظهوره في فترة الحرب العالمية الثانية، والذي كان موضوعه يتردد في كتب متنوعة. ولكني ظللت مندهشا عندما وصفه لي أحد القضاة من أصل إيطالي يعمل في ميناء موريسبي Port Moresby.

---

[1] مجموعة جزر في المحيط الهادي إلى الشمال الشرقي من أستراليا وتضم جزرا مثل غينيا الجديدة وسانتا كروز وسالمونه .. (المترجم)

بعد أن لاحظ السكان الأصليون بدقة العادات الحياتية للغزاة البيض، وصلوا إلى نتيجة مفادها أن الغزاة اكتشفوا أشياء سرّية ليجذبوا نحوهم بركة أرواح أسلافهم، من خلال جعل الطيور الغريبة والكبيرة التي يبدو أنها تأتي من مسافات بعيدة، تهبط في الأراضي التي يسيطرون عليها. وما إن تهبط هذه الطيور وتلمس الأرض حتى تلقى من جوفها بمجموعة من الخيرات من كل نوع. ومن ثم فكر السكان الأصليون أن يقلّدوا هذا الأمر فأقاموا على المرتفعات بالأغصان وأوراق الأشجار أشكالا تحاكي هذه الطيور الضخمة وممرات هبوط وهمية. وحتى هوائيات الراديو وذلك بهدف تحويل هدايا الأجداد التي كانوا يعتبرونها حقا لهم إلى اتجاههم من جديد. وهذا السلوك كان متسقاً تماما الأفكار مع الذهنية التي زودتهم بها البيئة، ولكنه كان يرجع إلى منظومة دينية تقوم على السلوك المستقيم الذي وصفت آليته قبل ذلك، وهي مجموعة من المنظومات والتصرفات المجتمعة التي بناء عليها يعول في العلاقة مع الآلهة على التنفيذ الصحيح للحركات، وللأشكال، وذلك من خلال الأدوات الصحيحة بهدف توجيه الأشياء في الاتجاه الصحيح.

وبكلمات أخرى فإن الصلاة كان يجب أن تقتفي أثر أعمال تشبه السحر، مع احترام ما أسماها جوردانو برونو (صلات) الكلمة، ونظرة الخيال والفكر من خلال "ربط" نقاء النوايا مع نقاء الأماكن والملابس، والقرابين. وكان هؤلاء "البدائيون" يحاولون التكيف بطريقة غريزية وفظّة مع طقوس الأقدمين في "الفلسفة الخالدة"، وأن الفيلسوف نولانو Nolano، وهو يحاكي بلوتينو Plotino، أوضح كيف أن فهم "السلم القيمي" الذي على أساسه ترتقي طقوس الطبيعة إلى عبادة إلهية، وأن الإله بدوره كان ينزل ويحل في الأشياء الصغيرة. وفي المنطق الداخلي لهؤلاء الناس – هكذا قال لي القاضي – يكون تفسيرات كبار رجال الدولة والموظفين الذين كانوا على صلة بسكان الداخل قيمة لا تذكر فإنها كانت تفسر على أنها خدعة جديدة من جانب البيض لإخفاء سرهم. وفي النهاية اهتدت حكومة كانبرا لفكرة تنظيم رحلات لرؤساء القبائل إلى أستراليا وجعلتهم يزورون المصانع التي تنتج الأشياء الأكثر شيوعا.

ومن ساعتها لم تنقطع اتصالاتي المباشرة القصيرة مع جيوب أخرى " لمقاومة الاعتناق" (ومنها زيارة قريبة – إلى حد ما – إلى قرية هندية في نيومكسيكو بمناسبة اجتماع اليونسكو في سانتا فيه Santa Fe، وأثناء مهمتي في البرازيل، وفي التجمعات السكانية في منطقة الأمازون، وبالتحديد ماتو جروسو Mato Grosso، وبورورو Bororo ويامومانى Yamomani). وقد استخلصت منها نفس انطباعي برفض جماعي سواء للأنجلة أم للحداثة، اللتين ينظر إليهما على أنهما خطر يتهدد طريقة حياة أهل المكان، وفي نفس الوقت لاحظت في البيئة المتطورة المحيطة مزيجاً من العداء والمنة. وفي النهاية أود أن أقول أنه بالنسبة لهؤلاء الناس تعد سياسة رسمية لشبه اللامبالاة مثلما

يحدث في البرازيل، أقل ضررا من عدم المساعدة في اتجاه تنمية عرقية وثقافية مستقلة "رشيدة" كما في الولايات المتحدة.

إن الرحلات إلى هذه المناطق على الحدود بين القديم والجديد، هي رحلات في الزمان فضلا عن كونها في المكان. كم أتمنى أن أعود إلى غينيا الجديدة لأرى كم من التغييرات حدثت خلال هذه السنوات الأربعين، خاصة بعد الاستقلال، وهي تغييرات جذرية بلا شك تفوق تلك التي رأيتها على سبيل المثال في هونج كونج، أو في سنغافورة التي اختلفت تماماً عن تلك الفقيرة التي رأيتها في شبابي.

إن مرور السنوات على أية حال لم يجعلني أعدل كثيرا من عصارة أفكاري التي نبعت من أول تجاربي وخبراتي الشبابية التي أثارت فيّ – ولا أخجل من قوله – مشاعر قوية، وغيّرت إلى الأبد من طريقة نظرتي لواقع العالم النامي.

تهاوى "الطقوس الصينية"

ولكن ماذا يجري في المناطق الأكثر نموا نسبيا؟

لم يتم التخلي حتى في هذه الحالة تماما عن فكرة الدونية التي تلتصق بهذه الثقافات، التي تظل أفضل ذريعة لتبرير ظلمنا. إن ثقافات أمريكا الجنوبية، التي كانت تغير كذلك بوفرة منتجاتها، وخيراتها الحياة اليومية لكل أوربا (وهل نتخيل مائدة طعامنا بدون طماطم، أو ذرة، أو بطاطس، أو كاكاو؟)، أثارت كما قلت اهتماما ثقافيا متواضعاً إلى حد ما، لكنها لم تثر مراجعة جادة لقوالب عقلية وذهنية متوطّدة.

وفي آسيا نجد أن مبررات الاستعلاء الثقافي تصمد بصعوبة، ومعركة النصارى من أجل النفس قد انتهت تقريباً بهزيمة شاملة، لأن تلك الحضارات نجحت – على أقل تقديرٍ على المستوى الأيديولوجي. في التصدي لغزو أوربا من خلال مقاومة أكثر قوة، وتقدماً من مقاومة "البدائيين". إنها مقاومة قائمة أيضا على نفس العجز عن فهم مفهوم الاعتناق نفسه.

وفي هذه الحالات على الأقل أمام رفض ثابت وقوي كهذا والذي يمكن تعريفه بمقاومة الرسالة التي يحملونها، ألم يكن حريّا بالسلطات المسيحية أن تفكر جدياً، وأن تقوم بمحاولة لخلق جسر؟ الإجابة لا. فقد ظلّت العلاقة تتميز بسوء الفهم المتبادل والمعتاد. وقد سجل المبشرون البروتستانت بعض النقاط، لأنهم كانوا يعملون في البيئات الريفية حيث يكون للعمل التربوي، والخيري مردود بارز. أمّا على الجانب الكاثوليكي فإن المحاولة الوحيدة التي تركت أثرا في الثقافة المحلية، والتي لاقت احتمالات النجاح

فكانت محاولة اليسوعيين Gesuiti في الصين بيد أن هذه المحاولة قد وئدت في مهدها على يد الرتب الكنسية بالفاتيكان نفسها وظلت في التاريخ كنوع من التأكيد على انغلاقهم.

وعندما وصلت إلى الصين في بداية السبعينيات، وفي مرحلة الثورة الثقافية، وعلى الرغم من أن الوقت لم يكن مواتياً تماماً على المستوى التاريخي، والديني، فكان الاسم الذي يتردد على لسان الجميع في الصين – بمجرد أن يلتقوا بإيطالي – بعد ماركو بولو مباشرة، هو إسم متّى ريتشي M. Ricci، أو ماتو Li Matou كما يسمونه أهل الصين، وجعلوه تقريباً واحداً منهم.

بفضل الثقافة العميقة، والمعارف الفلكية، وحب الثقافة الصينية، استطاع هذا المبشر العالم أن يبني جسراً بين بعدين لم يتجرأ قبله، ولا بعده أحد على أن يفعله: فقد اختار لنفسه اسما صينياً وتعلم اللغة الصينية، ونجح في الحصول على إذن الفاتيكان – وهو استثناء في هذا الوقت – أن يقيم القداس باللغة الصينية.

إن تجربة "الطقوس الصينية" والتي استمر عليها من خلف ريتشي، فتح باب جدل واسع في أوروبا عصر التنوير وقد ألقى بدلوه في هذا الجدل مثقفون من حجم باسكال Pascal، الذي اعتبر ذلك أمرا خطيراً ولا معنى له، ومثل لا يبنز Leibnitz الذي نظر – على العكس – لهذا الأمر بصورة إيجابية. وقد حدث كذلك صدع بين الطرق الدينية مع الدومينيكان والفرانسيسكان بجبهة الرفض، الذين دخلوا في جدل مع اليسوعيين.

أما الصينيون من جانبهم وعلى الرغم من أنهم قد استمعوا باهتمام لليسوعيين على أعلى المستويات، فقد ظلّوا ثابتين في التعبير عن نفس الشكوك التي عبّر عنها قبل مائتي عام، وعلى مسافة آلاف الكيلومترات أعيان جزيرة والبول Walpole وإن كان بطريقة منظمة ومثقفة كما أشرنا سلفا. فلقد قال الإمبراطور يوانج شنج Yuang – cheng نفسه إلى الرهبان الأجانب الذين كان يقدرهم ويستضيفهم في بلاطه "لو أني أرسلت رهباناً بوذيين في مقاطعات أوربا، فهل تسمح مبادئ دينكم بذلك؟"

وقد كانت النصوص التوراتية تبدو لكثيرين من مثقفي إمبراطورية الصين بمثابة مجموعة من القصص الساحرة على المستوى الأدبي، ولكنها دائماً غير مفهومة، وغير أخلاقية، مثلما تبدو نصوص الميثولوجيا الشرقية للكثيرين منّا نحن الأوربيين.

وقد كتب الأديب والفيلسوف الكبير لي زي Li Zhi عن متّي ريتشي: "إنه رجل من نوعية عالية، ولكني لا أفهم ماذا جعله يعمل هنا. فهل قطع رحلة طويلة من أوربا ليتحدث عن خطيئة – آدم الأصلية وعن الآب القادر؟ – إن هذا الأمر يبدو لي غبياً. بالتأكيد أنا الذي لم يفهم جيداً هذه المسألة". ويقول مثقف آخر مشهور هو فانج يزهي F.

٢١/٧/١١ إن الأوربيين كانوا "عباقرة في البحث والتجريب، بيد أنهم عاجزون تماما عن التغلغل إلى الأنظمة الأكثر عمقا في الكون[1].

وفي النهاية كانت الكنيسة الرومانية هي التي تراجعت أولاً، وأوقفت التجربة، بسبب خوفها الذي يميز كل المنظومات الدوجماتية، ذلك الخوف الذي يبعث على الانغلاق، وعلى التوجس من المنظومات "المنفتحة"، وعلى النظر إلى حوار حقيقي يعمل في الاتجاهين على أنه قناة "تلوث إيديولوجي". إن فتح قناة لإدخال ديانة مسيحية على الطريقة الصينية كان سيضيف قطرة إلى محيط عقائد الشرق. ولكن من كان يتوقع مدى التأثير على التعاليم الكاثوليكية إذا ما عملت هذه القناة في اتجاه عكسي فأدخلت إلى الغرب أفكارا بوذية وطاوية؟[2]

وعلى الجانب الصيني أيضاً كان هناك مشروع بين الديانتين، على شكل مسيحية متصيّنة [على الطريقة الصينية]، ولكنها كانت تجربة ذات خلفية ثورية لأحد المتعصبين.

ففي عام ١٨٥٣ أعلن معلم في إحدى القرى اسمه هونج كسيوكان H- Xiuquan، بعد أن رسب للمرة الرابعة، أو الخامسة في مسابقة لمنصب كبير، وبعد أن أمضى عدّة أشهر مع راعي كنيسة بروتستانتيه، لقي نفخة إلهية، وأعلنت أنه "شقيق أصغر ليسوع المسيح" ووضع نفسه على رأس حركة دينية – سياسية استغلت السخط الشعبي تجاه أسرة كنج Qing الحاكمة، وتحولّت الحركة إلى ثورة حقيقية. فقد بنى هونج "مملكته السماوية للسلام الأكبر" Taiping Tianguo، وقد دخل التمرد التاريخ باسم Taiping، وكانت عاصمة مملكة هونج في نانكينو Nanchino، وقد وضع وسط الصين بكامله تحت وطأة الحديد والنار لسنوات، وقد أمر بإعدامات، وأعمال هدم لمعابد، وآثار. وكان ما فعله محاولة حمقاء ليدخل في السياق الصيني تفسيراً "خاصاً" Sue Generis لمسيحية زاهدة مختلطة بأشكال من التدين المحلّي، من بينها تكييف صيني للتعميد، كان يتم ممارسته من خلال حفاضات مبتلة بالماء يلبسها الأطفال، والكبار. وقد لقي النبي المسلح الهزيمة في نهاية الأمر وانتحر.

[1] الديانات الآسيوية وعلاقتها بالتقدم، المنتدى الأوروبي، الذي نظمته المجموعة الأوروبية، مؤسسة تشيني، فينيتسيا، في ١٨ و ١٩ يناير ١٩٩٦، ص ٧ من التوصيات حول آسيا Asian religions

[2] حورج سوفير، أنت بطرس، طبعة دي فالوا، باريس ٢٠٠٠، ص ٣١٨ وما بعدها، وانظر كذلك ف. بورتونه، اليسوعيون في بلاط بكين، هيئة المطابع البابوية، روما، ١٩٦٩

بذر الكلمة واحتكار الخير

ماذا تغير اليوم مع كل هذا الكلام عن التعددية الثقافية والحوار بين الأديان؟

إن الكنيسة الكاثوليكية، وقد أعطت دليلاً على قدراتها الهائلة على التجديد، والتكيف مع مرور الوقت، كانت في الطليعة في هذا المجال. فخطابات البابا "الحديثة" للأساقفة والمخصصة لهذا الموضوع، تظهر حكمة، وإحساسا بالمسئولية. ولكن لا توجد رغبة في الانفتاح على عوالم الدين المختلفة، مهما كانت صادقة ومستتيرة – تستطيع أن تتجاوز المصاعب الموضوعية للحوار، والتي أشرنا إليها، وتعبر بالكنيسة خطاً أرادت له المبادئ الأساسية للكنيسة ألا يتم عبوره.

من بين هذه المبادئ أن الكنيسة هي دائماً "في وضع تبشيري"، ومن ثم لا تستطيع التخلي عن هدفها في إدخال الناس إلى المسيحية. وكذلك يؤكد مجمع الفاتيكان الثاني الثوري والمجدّد ويوضح أن: "الكنيسة بطبيعتها تبشيرية"، وواجبها هو "الكفاح من أجل نفس هذا العالم" (Ad Gents , n. 2).

من هذا المبدأ تنبثق إضافة أخرى وهي أن المخاطبين بالاعتناق – وهم الذين يحتفظون بالتعريف اللاتيني التقليدي "Ethnici" (والذي ترجم أحياناً بـ "وثنيون"، ومرّات أخرى، وبدقة أكثر، بـ "الأمميون" – يحتفظون بالنسبة للنصارى، بنفس الصورة النمطية "للبؤساء الذين يعيشون في الجهالة بالعقيدة الحقيقية، والذين يجب أخلاقياً إنقاذهم من ظلمات الضلال "لا يوجد أحد أكثر حاجة وفاقة، وعرياً، ولا عطشا وشقاء ممن حرم من المعرفة ومن نعمة الرب" هكذا يقول Rerum Ecclesiae التي أصدره بيوس الحادي عشر عام ١٩٢٦.

وكتوافق مع الاتجاهات الجديدة التي تميل إلى احترام الثقافات العرقية، جاء إدخال مفهوم أنصار "إبذر الكلمة" "Semina Verbis". " فكل ما هو موجود في هذه العادات، والتقاليد (للشعوب غير المسيحية) ولا يتعلق بقوة بأخطاء دينية سيلقي تحليلاً محموداً، وإذا أمكن سيتم حمايته، وتشجيعه"، هكذا يذكر Evangelii Praecones الذي أصدره بيوس الثاني عشر في ٢ يونيو ١٩٥٢.

ولكنه مفهوم أبوي "هل تذكرون صورة شجرة الجميز في الفصل الثامن؟). فالكنيسة هي دائماً السيدة، والبطلة التي تحتكر لنفسها أن تختار، وتنظم وفق ما يلائمها، كل ما يبدو لها أنه جدير بذاته في الآخرين.

إن تنوير الأمميين Lumen Gentium الصادر في ١٩٦٤، يواصل هذا المفهوم مؤكداً أن: " أولئك الذين يجهلون – دون ذنب – إنجيل المسيح، وكنيسته، ومع ذلك يبحثون

بصدق عن الرب، وبمساعدة عناية الرب يجتهدون في تنفيذ إرادة الرب بأعمالهم، والتي تعرف من خلال مبادئ الضمير - يمكنهم أن يصلوا إلى النجاة الأبدية". ويحدد بدقه، وفصاحة قائلاً: "لأن كل شيء حسن، وحقيقي يوجد فيهم، تعتبره الكنيسة إعدادا لاستقبالهم للإنجيل، منحهم إياه من يضيء كل إنسان حتى ينعم بالحياة في النهاية".

لا الدفعة التجديدية لمجمع الفاتيكان الثاني، ولا الدفعة الثانية التي أعطاها يوحنا بولس الثاني للحوار بين الأديان، أفلحت في تعديل موقف متسامح في أعماقه، لأنه يتطلب أن تتم مواجهة المشكلة الدينية فقط داخل القناعات الدينية المسيحية.

وقد أشار يوحنا بولس الثاني في الكتاب الشهير الذي أعده فيكتور ميسوري V. Messori - وكان مقابلة تليفزيونية قبل أن يصير كتابا - مرات عديدة إلى بيان المجمع الكنسي Nostra aetate أي عصرنا، حول علاقات الكنيسة الكاثوليكية بالديانات غير المسيحية، للتأكيد أن "الكنيسة لا ترفض شيئا حقيقياً ومقدسا في كل الأديان". وقد أستخدم البابا تعبيرات تقريظية كذلك إزاء الطقوس البدائية مع تقارب بين الطقوس الإفريقية للأجداد، وبينْ وحدة القديسين [التي تفرض علاقة بين المسيح والمؤمنين الأحياء والأموات]

وقد اعترف البابا أن "سكان أستراليا الأصليون يفخرون بتاريخ يمتد لعشرات الآلاف من السنين، وبتراثهم الديني، والعرقي الذي هو أقدم من دين إبراهيم، وموسى". ومع ذلك لم يستطع رأس الكنيسة المسيحية أن يعترف بوضوح بأي صلاحية أخيرة لأي من هذه الديانات لأن - كما يؤكد صراحة وهو يستلهم من المجمع الكنسي أن - "المسيح فقط هو الطريق، والحقيقة، والحياة"، "والمسيح" جاء إلى هذا العالم لكل هذه الشعوب، وخلصها كلّها، وله طرقه بالتأكيد للوصول لكل واحد منهم في المرحلة الحالية من تاريخ الخلاص[1]".

وفي الختام، ندرك باستمرار، ونحن على أعتاب الألفية الثالثة أن عقدة الاستعلاء لدى الغرب وهي المسئول الأول عن اللاتسامح، لم تحدث فيها أدنى مرونة، بل زاد هذا الاستعلاء، الذي يغذيه مكونان خطيران: أولهما تجريبي وهو التأكيد على النجاح المادي في اكتشاف واستغلال الكون، والمكون الثاني ميتافيزيقي، وهو اليقين من امتلاك المفتاح الوحيد، والحقيقي للدخول إلى الجوهر الخاص للعالم المخلوق، ومن ثم فهو نوع من الاحتكار المعنوي لتحديد ما هو خير لكل البشرية.

---

[1] يوحنا بولس الثاني، وفيكتور ميسوري، عبور عتبة الأمل، موندادوري ١٩٩٤، ص ٩١

وسنعود لهذا الموضوع في الجزء الأخير الذي يخصص لموضوع اللاتسامح الأيديولوجي. ونستطيع أن نؤكد على اعتبارين عميقين وردا في خلال رحلتنا في هذا الكتاب.

أولهما هو أنه – على الرغم من الطابع العلماني الصرف للحضارة الغربية، فإن للعامل الديني ثقلا كبيرا مستمرا، على الرغم من أنه لا يمكن مقارنته بالماضي. أما الاعتبار الثاني فهو ما ذكرناه سلفاً ، وهو أن ما يحدد غرورنا وتكبرنا تجاه كل من هم "خارج" حضارتنا "العليا "، ليس اكتشافنا المتدرج لمعرفتنا على السيطرة أفضل منهم على البيئة المادية، بقدر ما هو القناعة الجازمة بأننا مختارون مقارنة بهم، ونتمتع ببهبات روحية لا يمتلكونها هم. فقط عندما نضع في اعتبارنا قناعة كهذه على أنها مكون لا غنى عنه في جوهر عقيدة المؤمن الحق، يمكننا أن نقف على الطبيعة الجامدة لمسألة اللاتسامح المسيحي. وقد قال يوحنا بولس الثاني:

"توجد اليوم حاجة ماسة لأنجلة جديدة. فمع نهاية الألفية الثانية، قد نحتاج أكثر من أي وقت لكلمات المسيح "لا تخافوا !،... تحتاج إليه شعوب، وأمم العالم كله. يلزم أن يكون في ضميرهم اليقين أنه يوجد واحد يمسك بيديه على مصائر العالم الذي يمضي..[1]

أما الحبر الأكبر الجديد، فقد عرفه مصدر رفيع بأنه: (بمجد القديس أغوسطين، وبسلام بيير بايل Pierre Bayle") مبشر بالإنجيل يعرف برقّته كيف يجبر الآخرين على أن يعيروا انتباههم لكلمات المسيح"[2]

---

[1] المرجع السابق، ص ١٣١، ص ٢٤٣

[2] انظر مقدمة الكاردينال كاميللو رويني Camillo Ruini في مجلد "ثورة الرب" ، طبعة Paoline ، ٢٠٠٥، التي تضم خطب بندكت السادس عشر بمناسبة يوم الشباب العالمي في كولونيا Colonia



الفصل الحادي عشر

الأصولية المسيحية

«كل شيء يتحطم، المركز يتهاوى

فوضى عارمة تجتاح العالم

بحر من الدماء يجري في كل مكان يغرق طقوس البراءة،

الأفاضل يعوزهم الإقناع بينما الأكثر سوءاً لديهم الرغبة الكاملة»

وليم بتلر ييتس ، المجيء الثاني W.Y. Years

[«قضية القرد» – الأصولية اختراع أمريكيّ – مناهضة الكاثوليكية للحداثة – «الأصول» – نبوءات ونزول المسيح – تصفية الحسابات بين الخير والشر – إنجليو التلفاز وأغلبية أخلاقيّة – من مونسينيور ليفيبيري إلى ميل جيبسون]

قضية القرد

حدثت في دايتون بولاية تينيسي Tennessee في فترة قريبة إلى حد ما لدرجة أن الأجيال المتقدمة في السنّ تذكر ذلك، وبالتحديد في الفترة من ٢١ إلى ٢٥ يوليو ١٩٢٥، حادثةٌ عجيبة وصفتها الصحف بأنها «قضية القرن»، ودخلت التاريخ باسم «قضية القرد». وقد أُلِّفت حولها كتب كثيرة، وعمل مسرحي تَحوّل فيما بعد إلى فيلم، وعملان تليفزيونان آخرهما كان منذ بضعة أعوام[1] ويقوم سكان دايتون كل عام باستحضار مشاهدها لجذب السائحين.

[1] من بين الإصدارات الحديثة Edward J. Larson , Summer for the gods. The scopes trial and America's continuing debate over science and riligion, Harvard univ. Press 1998=

قُدِّم جون سكوب J. scopes، أستاذ علم الأحياء بمدرسة تقع في تلك البلدة النائية بأقصى الجنوب الأمريكي، والبالغ من العمر أربعة وعشرين عامًا، إلى المحاكمة لأنه عرض على تلاميذه نظريات داروين، مخالفًا القانون الذي كان يمنع تدريسها في Tennessee، وفي ولايات أخرى جنوبية. وكان الأمر يعني بالنسبة لجون سكوب في المقام الأول مسألة حرية تعبير، ومسوَّدة قانون مبدئية فقط. وكان القاضي يودُّ من جانبه حصر الموضوع في مخالفة لائحة تشريعية من عدمه. بيد أن فعلة هذا الشاب غير المعروف في زاوية نائية من العالم، وكما يحدث عادة، أتاحت الفرصة التي كان ينتظرها كثيرون لفتح جدل موسَّع على المستوى القومي بشأن ردِّ فعل أمريكا تجاه ثورة العلم على رؤية العالم التي كما نقلتها النصوص التوراتية. ونشأ بذلك سجال بين أنصار نظرية التطوّر، وأنصار نظرية الخلق، أي بين المحافظين والليبراليين. وقد حشد كلا المعسكرين جهابذته وعباقرته. فكان على رأس فريق الدفاع عن سكوب أحد نشطاء وعباقرة القانون المدني المعروفين، وهو المحامي العجوز كلارنس دارو C. Darrow، (وقد اتَّجه التفكير أولاً إلى الكاتب هـ. ج. ويلز H. G. Wells، الذي رفض).

أما جانب الادِّعاء فكان على رأسه شخصية شعبية مشهورة في الجنوب، هو ويليام براون W. Brown زعيم الديمقراطيين المحافظين بالجنوب، الذي قبل أن يترك السياسة ليصبح مبشِّرًا كالفينيا، اضطلع بدور بارز في إخراج التشريع المجرِّم لنظرية النشوء. أما البلدة المغمورة التي كان عدد سكانها يصل إلى ألفي نسمة تقريبًا، فقد امتلأت بعشرات الآلاف من الفضوليين، ومن أفضل الصحفيين في ذلك الوقت. وعلى الرغم من «الهياج الديني» -كما كتبت الصحف- فقد تحولت البلدة إلى معرض أمريكي صرف، حيث كانت تباع أعلام عليها صور قرود، وإلى جوار زوجين من الشمبانزي الحقيقيين رجل طويل ضخم، قسمات وجهه مستطيلة، كان يعرض مثل «الحلقة الناقصة».

كان الزحام في المحكمة شديدًا، وافتتح القاضي الجلسة بقراءة آيات من سفر التكوين، ودعا إلى ترتيل بعض المزامير، غير أن الدفاع بدوره طالب بنزع شريط مكتوب عليه «اقرأ توراتك» مرفوع في مرج مجاور. وفي النهاية تمّ الانتقال من قاعة الجلسات بعد أن أصبحت كالفرن، وكادت تغوص تحت وطأة ثقل جماهير الحضور.

- وفي عام ١٩٥٥ اقتبس جيمس لورنس وروبرت لي من قضية سكوب للقيام بعمل مسرحي في برودواي وهو Inherit the wine الذي كان يهدف إلى إدانة القمع المكارثي. وقد أُقتبس من هذا العمل ١٩٦٠ فيلم بطولة سبنسر تراسي الذي جسد دور دارو وفريدريش مارش الذي جسد دور براون. أما النسخة التيلفزيونية لعام ١٩٨٨ فقد قام ببطولتها كيرك دوجلاس وجيسون روبارد. أما نسخة ١٩٩٩ فقد قام ببطولتها جاك ليمون وجورج سكوت.

وقد تحولت المرافعة التي تمّ بثها مباشرة للمرة الأولى في تاريخ الإذاعة تدريجيًا إلى منازلة بين براون ودارو، واتخذت طابع الصدام بين قيم لا يمكن خرقها، بل -كما ذكر كارين أرمسترونج «نزاع بين الرب والعلم»[1] وقد استهل براون كلامه مؤكدًا -بين التصفيق، وصيحات «آمين! آمين!» على أن المسيحية ستنتهي «إذا ما انتصرت نظرية التطوُّر». ولم يكن دارو أقل منه في الردِّ وسط تصفيق مدوٍّ من جانب قطاع آخر من الحاضرين، إذ قال إن الموضوع «ليس قضية سكوب، بل إنها الحضارة».

وقد وصفت «نيويورك تايمز» الجلسة الختامية بأنها «أعجب مشهد قضائي في تاريخ الأنجلو ساكسون».

وقد وافق براون على الجلوس في مقعد الشهود، وعلى أن يستجوبه دارو. وقد كان ذلك بمثابة نهاية براون الذي أظهر جهلاً وضيق أفق مدهشين لرجل سياسة ترشّح ثلاث مرات لرئاسة الولايات المتحدة، وكان وزير خارجية الرئيس ويلسون.

وقد كان خصمه حاذقًا في استخدام النص التوراتي لإرباكه بأسئلة مثل: «هل حضرتك تؤمن أن الحوت قد التهم يونس فعلاً؟».

وقد حرص الصحفيون على إبراز بعض «دُرَر» إجاباته. وقد جاب العالَمَ هذا السجالُ بين المتجادلَين:

دارو: هل تعتقد أن قصة الطوفان هي تفسير حرفي؟
براون: نعم سيدي.
دارو: ومتى حدث الطوفان؟
بارون: لا يلزم تحديد يوم بعينه.
دارو: ولكن ماذا تظن أن تقول التوراة؟ ألا تعرف سيادتك كيف وصل إلينا؟
براون: لم أحسب مطلقًا.
دارو: ولكن ماذا تعتقد سيادتك؟
براون: أنا لا أفكر في الأشياء التي لا أفكر فيها.
دارو: وهل تفكر في الأشياء التي تفكر فيها؟
بارون: نعم، أحيانًا.

وقد حكم في النهاية على سكوب بغرامة قدرها مائة دولار لمخالفته القانون، بيد أن القضية نظر إليها الرأي العام على أنها انتصار للتيار الليبرالي، على الرغم من أن التشريع الذي يجرِّم نظرية التطوُّر لم يتم إلغاؤه (فقد مرّ عام آخر قبل أن تلغي المحكمة

---

[1] الحرب من أجل الرب، كتب بالانتاين، نيويورك ٢٠٠٠، ص ١٧٦ Karen Armestrong, The Battle for God

العليا الحكم، وتحكم بعدم دستورية القانون الذي يجرّم تلك النظرية). وقد حفلت كل الصحف اليومية بتعليقات ساخرة ضد التزمُّت والظلامية بالمقاطعة الأمريكية، وأعطت مكان الصدارة في تقاريرها لمداخلات دارو التي تعطينا الفقرة التالية فكرة عنها:

«جهل وتعصُّب ينشطان ويجب تغذيتهما. فاليوم مدرسو المدارس العامة، وغدا معلمو المدارس الخاصَّة. واليوم التالي سيكون الخطباء، والمحاضرون، والمجلات، والكتب، والجرائد. في البداية ستكون المواجهة -أقسم بشرفكم- بين إنسان ضد إنسان، وعقيدة ضد عقيدة، حتى نزحف إلى الوراء تحت قرع الطبول، والرايات الخفَّاقة، نحو أزمان القرن السادس عشر المجيدة، حيث كان المتزمِّتون يشعلون الأعواد الجافة ليحرقوا الرجال الذين تَجرَّؤوا على حمل المشاعل والثقافة والذكاء للحياة الإنسانية».

وقد حمل أحد رسوم الكاريكاتير العديدة بالصحف اليومية (وهو من الرسوم القليلة التي لا تصوِّر أحد القرود) عنوان «حكم المحكمة»، وكان فيه القاضي يشير إلى طفل يحمل حقيبة المدرسة وعليها لافتة مكتوب عليها «لا تفكِّرْ».

أمّا فيما يتعلق بالنبرة الساخرة في الصحافة الأوربية، فيكفي تعليق صحيفة « Paris Soir» التي أسوق لكم بعض سطور منها:

«على هذا الجانب من المحيط يصعب فهم تمسُّك الأمريكيين العنيد بتفسير التوراة. فقد جاء في سفر التكوين أن خلق الإنسان من طين، والطين ليس شيئًا نظيفًا. وعلى أي حال فإذا جاز لأحد أن يغضب من فرضية داروين، فيجب أن يكون هو القرد. فالقرد حيوان بريء نباتي منذ مولده. ولم يَقتلِ الربَّ على الصليب، ولا يعرف شيئًا عن فن الحرب، ولا يمارس قانون سفك الدماء، ولم يحلم قط بقتل قرد مثله...».

الأصولية اختراع أمريكي

أردت أن أمهِّد للحديث عن الأصولية المسيحية بهذا الغوص في التزمُّت بأقصى جنوب الولايات المتحدة لأعطي فكرة أفضل عن البيئة التي وُلدت فيها لفظة «أصولية»، والحركة المتعلقة بها، وذلك لأن الأصولية بمعناها الضيق وُلدت فعلاً في أمريكا. فاليوم يلصق وصف الأصولية، أو التعصُّب، أيّا كان المسمى[1]، بالإسلام، لدرجة أنه عندما

[1] الاستخدام الصحفي الجاري يعتبر كلمتي Fondamentalismo, Integralismo مترادفتين وتعنيان "الأصولية" و"التكاملية" (واللفظة الأولى مفضلة في اللغة الإنجليزية. أما الثانية فمفضلة في الفرنسية والإيطالية). ويقصد بعض الدارسين بكلمة "التكاملية" على المنطقة الإسلامية، ويتحدثون عما يسمى "بالأصولية الجديدة" بالنسبة للمنطقة المسيحية. ويستخدم آخرون كلمة "التكامليين" Integralisti عند الحديث عن الحركات الكاثوليكية الحديثة المحافظة التي اتخذت مواقف متشددة ضد مجمع الفاتيكان الثاني. ولايزال آخرون يصفون تيار الكاثوليكية الثوري في القرن التاسع عشر والذي دخل في جدل ع عصر التنوير والثورة الفرنسية=

نتكلم عن صور التعصُّب يبدو لنا أنه من نافلة القول إضافة «الإسلامي». يذكر البعض فقط من ان إلى اخر أنه يوجد تعصب يهوديّ، ومتعصبون كاثوليك. وقليلون يعرفون أن الولايات المتحدة –فضلا عن كونها مهد الأصولية، هي أيضًا واحدة من البلاد التي بها نسبة كبيرة من المتعصبين، بداية من الرئيس الذي يتولى مقاليد الحكم الآن[1]، على الرغم من أنهم يفضلون أن لا يطلق عليها أصوليون بل «المسيحيون الذين وُلدوا من جديد» .born again Christians

فبعد ثمانين عامًا بعد قضية دايتون، أعادت ولاية كنساس إدخال تعليم خلق الإنسان ضدَّ داروين.

ومن الصعب علينا قبول فكرة أن جذور الأصولية في المعسكر المسيحي كانت بالضبط في البلد الذي وجد فيه الآباء البليجرونيين Pellegrini ملاذًا من اللاتسامح الديني. ولكن يجب أن نضع في الاعتبار أن الأصولية هي ظاهر حديثة تمامًا، ظهرت كرد فعل على موجة الحداثة لخلق نوع من التوازن مع ذلك الابتكار الحديث الذي هو التسامح الذي يقوم على حرية الضمير، وعلى الفصل بين المجال السياسي والمجال الديني. ومن ثم فليس من المدهش أن يكون ردّ فعل المحافظين قويًّا هكذا خصوصًا في البلد الأكثر تطورًا وانفتاحًا على فلسفة التحديث.

ولكي نضع الظاهرة في سياق أكثر عمومية، ونفهم خصائصها بشكل أفضل في البيئة الأمريكية، سيكون من المفيد إلقاء نظرة على ما كان يحدث في نفس التوقيت، على الصعيد الأوربي والكاثوليكي. إذ بسبب وجود عنصر كاثوليكي كثير العدد ونشط، نجد أن الحملة المضادَّة للتحديث من جانب البابوية لا تغيب وتلقي بثقلها، وتؤثر على الكنائس البروتستانتية المختلفة في ما وراء المحيط.

مناهضة الكاثوليكية للحداثة

إن الجدل ضد نظرية التطوُّر الذي رأيناه يشتعل في أمريكا عام ١٩٢٥، كان قد دهم أوربا كذلك قبل ذلك، ومنذ أول نشر لأعمال داروين الذي كان هو نفسه فريسة لأزمة دينية بسبب نظرياته العلمية. إن مبدأ الانتقاء الطبيعي أدانته الكنيسة الإنجليكانية على الفور بوصفه «لا يستقيم مطلقًا مع المفهوم الكامل للحالة الأخلاقية والروحية للإنسان،

="بالتكاملية". Enzo Pace, Renzo Guolo, Fondamentalismi, طبعة لاترسا، باري ١٩٩٨ ص ٩ و ١٠، وانظر أيضا باولو برانكا، مساجد قلقة، المولينو، بولونيا ٢٠٠٣، ص ٢٠ وما بعدها

[1] هو جورج دبليو بوش الابن (المترجم).

الذي ورث السيادة على الارض، والقادر على التعبير عن نفسه، ومستودع هبة العقل، والذي يمتلك المسؤولية، والإرادة الحرة، والذي خلصه الابن الأبدي، ومسكن الروح الخالدة».

فقبل المساجلة اللفظية بين دارو وبراون بأكثر من سبعين عامًا، حدثت مساجلة مماثلة – وأثارت ضجة لا تقلّ عن ضجّة قضية سكوب – بين الأسقف الأنجليكاني صاموبل ويبرفورس S. Wiperforce، وتوماس هنري هكسلي T. Huxley المتحمس والمؤيِّد لنظرية التطوُّر، والذي يعتقد بأنه مخترع كلمة {الفلسفة اللا أدرية}. فقد سأله الحَبْر في مناظرة عامّة بسخرية إذا ما كان انحداره من سلالة القرد من ناحية أبيه أم من ناحية أمه. غير أن هكسلي الذي كان آنذاك مدرس علم حضارات شعوب ما قبل التاريخ، وجد من الشجاعة ما يعينه على الردّ بأنه يجب أن يخجل من نفسه من استغرق في مسائل علمية جعلته يفقد ألفته مع هدفه الوحيد في دعم أوهامه الدينية، وليس من كان جده قردًا[1]

وقد كان أعداء نظرية التطوُّر على أهبة الاستعداد دائمًا، إذ ثبت ذلك عندما لم يجد بعض العلماء الذين يميلون إلى التكيف مع الواقع –كما رأينا بالمثل في حالة المتزمِّتين اليهود– ردودًا أفضل، وحيثيات أقوى ضد نظرية التطوُّر من جزمهم بأن الله خلق البقايا المتحجرة على شكل الهياكل العظمية للحيوانات ليختبر إيمان البشر[2].

ولا يجب أن ننسى أن أول من أطلق جرس الإنذار وصيحة التحذير المدوِّية ضد نظرية التطوُّر والافتتان بالعلم، كانت الكنيسة الكاثوليكية. ولقد رأينا أن انطلاق محاكم التفتيش في المرحلة الثالثة، أي في الحقبة الرومانية، كان كردٍّ فعل على الخطر الذي كان يمثل في ضمير المؤمنين تقويضًا لقوالب وأنماط الفكر التقليدية ومجيء الحقبة الحديثة، ذلك التقويض الذي قام به من قبلُ عصرُ النهضة، وبعده عصر التنوير.

إن رؤية كوبرنيقوس بأن الشمس مركز الكون، والتي قلبت مفهوم الكون، والتي أدانها بولس الخامس عام ١٦١٦ ووصفها بأنها «نظرية زائفة وهرطقة»، لأنها تصادم تمامًا الكتب المقدسة، احتاجت إلى قرنين تقريبًا حتى تدخل وتتغلغل في ضمير جماهير الناس، ويتم استيعابها من منظور ديني. ولكن طفرة المعارف وما تبعها من انطلاق العقلية العلمية والوضعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أعادت وضع هذه الآراء الشائعة إلى المناقشة، واستدعت إلى الذاكرة –كما حدث من قبل– شبح طمس

[1] William E. Philips, Darwin Religious Odyssey, Trinity Press Harrisbourg 2002 pp 89-90 International ويليام فيليبس: أوديسة داروين الدينية.

[2] دائما يذكر ويليام فيليبس في هذا الخصوص إصدار Omphalos لفيليب جوس (استشهاد ص ٩٢)

المسيحية في العالم، بل «موت الرب». وقد صدرت سلسلة أعمال فلسفية، وأدبية اتخذت أبعادًا جديدة مذهلة، أقصت الإنسان تمامًا عن مكانته كبطل لقصة الخلق بكاملها.

وبعد ماركس وداروين وفرويد، لم يعد هناك قناعة بالتأكيد على أن الأرض لم تكن قط مركز الكون، بل كان هناك معارضة كذلك لمركزية الإنسان في المملكة الحيوانية، وكان هناك مطالبة بتحليل نفس الإنسان بطرق علمية. كانت هناك إرادة لتخليص الإنسان من الحاجة ومن العناء، لا من خلال التكفير عن الذنوب، والإعداد لمرحلة ما بعد الموت، بل من خلال قوانين الاقتصاد والسياسة.

وقد تمّ تجاوُز الخطوط الحمراء، بالوصول إلى غزو المجال الديني مباشرة، بإخضاع الكتب الكَنَسِيَّة والتاريخ المقدَّس لتحليل نقديٍّ دقيق على يد «العلوم الإنسانية» الوليدة.

فنصوص مثل «جوهر المسيحية» لفويرباخ Feuerbach، و«تعليم المسيحية الوضعية» لكومت Comte، وكذلك أعمال أدبية مثل حياة المسيح لشتراوس Strauss ورينان Renan، كانت تعتدي على شخص المسيح نفسه، وتستعين بالتفسير التاريخي الحديث لإنكار طبيعته الإلهية.

فإذا ما انتقلنا من جبهة الأفكار إلى جبهة السياسة، سنجد أن تهديدًا آخر لنظام الأشياء كان موجودًا وقتها، وهو صعود الديمقراطية الليبرالية -بعد الأسباب الثورية عام ١٨٤٨- والذي اعتبره أنصار التمسك بالتقاليد -وسأستعين بكلمات أسقف ريمي Reims صاحب الغبطة جوسيه Gousset- بمثابة «هرطقة زماننا الخطيرة، والتي يصعب اجتثاثها مثل حركة الأسقف جيانسينيو Giansenio المتزندقة»[١]

فقد رمى ليبراليُّون وقوميُّون، و«مفكرون متحررون» الامتيازات الكَنَسِيَّة وسلطة البابا الزمنية عن قوس واحدة، وشكّكوا في شرعية البابا في إصدار مراسيم تتعلق بالمجال الأخلاقي مثل قانون الأسرة والتعليم.

فلم يكُن طريق محاكم التفتيش سهلاً ولا معبَّدًا، ولم تكُن ذراع العلمانية متناغمة مع رجال الكهنوت، ومن ثم كان يتعين التفكير في وسائل دفاعية أخرى. وعلى الرغم من ضعف الكنيسة السياسي، إلا أنها اختارت الصدام المباشر. فقد كان الانحياز للتسامح الصفري (اللا تسامح المطلق) يتجاوب في هذه الحالة مع شعور سائد لدى قطاعات عريضة من مجمع الناخبين الكاثوليك، مع وجود شخصية عنيدة ومتسلطة تقود سياسة الفاتيكان في ذلك الوقت. إذ يُنسَب إلى بيوس التاسع (الذي طوّبه يوحنا بولس الثاني) أنه

---

[١] مرجع سابق: أنت بطرس، ص ٤٣٠ , G. Suffert. Tu es Pierre

صاحب مبادرتين مؤثرتين تحملان طابع التطرف، ومناهضة الليبرالية، وأغلقتا الباب تماما أمام أي أمل في الإصلاح السياسي والاجتماعي، أولاهما كانت إصدار وثيقة (ملحقة بالرسالة الرسولية Quanta cura) تحمل اسم «وثيقة الأخطاء «Syllabus erratum». وجاء إصدار هذه الوثيقة عام ١٨٦٤، أي بعد ستة عشر عامًا من نشر بيان الحزب الشيوعي، وبعد خمس سنوات من نشر «أصول النوع الإنساني».

وتُعد هذه الوثيقة، التي تعرف باسم «الوثيقة البابوية» بيانًا ضد الحداثة، وكاتالوجًا للنقاط التي لا يمكن التنازل عنها في العقيدة، والتي ذكرت في ثمانين جملة، واعتبرت أخطاء لا يمكن قبولها من جانب القيادة الكَنَسِيَّة.

وكثير من المعارضين كانت مواقفهم إجبارية، بقدر ما كانت محسوبة على العقيدة، لأنهم كانوا يدافعون عن حاجزَي حدود لا يمكن تجاوزهما، والتي في داخلهما تمت ملاحقة الساحرات: أول حد كان يغلق الباب على «الفلسفة الخالدة» (لا للحلولية، لا للطبيعية)، والحد الثاني الذي كان يمنع اقتحام العقلانية للميتافيزيقا (لا للعقلانية المطلقة، أي للعقل كمعيار أخير للوصول إلى الحقيقة، ولا أيضًا للعقلانية «المعتدلة» التي تتناول الدوجما (الحقائق المطلقة) كموضوع من العلوم الطبيعية، أو كالفلسفة.

وقد كانت هناك قضايا أخرى تمثل خيارات سياسية مشروعة للكنيسة ضد تهديدات قديمة وجديدة (من بين الأخيرة الشيوعية، والاشتراكية، والكنيسة الفرنسية الغاليكانية فيما وراء جبال الألب)، وكانت تدافع عن منظومات وامتيازات مطردة أمام سرمدية الزواج مع السلطة الزمنية للبابا[1].

إن ما أثار الجدل الواسع حول الوثيقة في حقيقة الأمر، هو طابعها الشامل، أي أن هذه المحظورات والمحرَّمات يجب أخذها ككتلة واحدة، كشيء واحد لا يتجزأ. وكان هذا يفرض على مواطنين كاثوليك في الدول العلمانية الجديدة إشكالية صعبة، لأنه يجسِّد هيمنة الكنيسة على المجتمع المدني، ويفرض إدانة ليس فقط الموضوعات اللاهوتية القابلة للنقاش، أو الموضوعات السياسية، بل كذلك الابتكارات السياسية والتشريعية التي تساير تطلعات التحرُّر التي تسللت إلى الوعي الجماعي: حرية الضمير، وحرية الرأي، وحرية إقامة الشعائر، والفصل بين الكنيسة والدولة، وعلمنة التعليم، والمساواة بين كل العقائد أمام القانون.

---

[1] المرجع السابق، ص ٤٣٦

ويلخص البند رقم ثمانين الذي اختتمت به الوثيقة الجوهر الرجعي لهذه الوثيقة، حيث يشير إلى اخر الأخطاء غير المقبولة وهو أن «يجنح البابا الملك إلى التصالح، والتساهل مع التقدم، ومع الليبرالية، ومع الحضارة الحديثة».

أما مبادرة بيوس التاسع الثانية، بعد أربع سنوات من الوثيقة البابوية، فكانت دعوة مجمع الفاتيكان الأول إلى الانعقاد عام ١٨٦٨.

وكان ذلك هو أول مجمع له طابع مسكوني حقيقةً، شارك فيه ستمائة أسقف من قارات العالم الخمس، في وقت لم يكن فيه السفر ميسرًا للجميع.

وعلى الرغم من أن هذا المجمع شهد بعض الشد والجذب، وعلى الرغم من توقف أعماله بسبب حرب فرنسا وبروسيا، فقد نجح في إقرار أهم نصوص المجمع الكنسي بالإجماع، والذي يوثق الموقف المتشدد والمتعنت للوثيقة البابوية: مبدأ عصمة البابا.

لقد تأكد التحدي الذي كان يجب على الكنيسة مواجهته بعد ذلك بعامين، مع نهاية السلطة الزمنية للبابا-الملك، وبدخول جيوش بيد منت إلى روما في ٢. سبتمبر ١٨٧..
وقد واصل البابا الجديد بيوس العاشر في بداية القرن التالي، حملة سلفه ضد الحداثة.

ولم يكُن يدور بخيال أحد احتمال تحدٍّ مباشر ومستفزٍّ هكذا لفكر العصر الحديث الحر، الذي يقوم على الشك، وعلى البحث الدءوب عن الأخطاء، ومواصلة التدقيق العلمي.

ذلك التحدي الذي يرقى إلى منزلة الدوجما، أي الحقيقة التي لا جدال فيها، هو إلزام المؤمنين بأن يقبلوا دون نقد مبدأ أن رأس الكنيسة «لا يمكن أن يخطئ مطلقا».

الأصول

كانت ردود أفعال النصارى في ما وراء المحيط، على تحديات الحداثة، تتميز بخاصيتين أمريكيتين: التركيز على التفسير التوراتي، والتطلع نحو المستقبل.

وكان العنصر الجديد الذي أطلق رد الفعل المحافظ للأوساط الدينية على الأرض الأمريكية، هو صعود نجم العقلية العلمية، وهجومها على السلطة الدينية، وعلى العقائد التُّراثية، ومن ذلك، وكما رأينا، نظرية التطوُّر الداروينية.

بيد أنه كان من الطبيعي أن الدفاع المستميت عن «أسس» العقيدة يرتكز في المقام الأول على الكتاب المقدس. وحول هذه النقطة كان يمكن للأصوليين الأمريكيين أن

يتلاقوا مع الأصوليين الإسلاميين. ويوجد في الولايات المتحدة مسميات بروتستانتية عديدة تتنافى فيما بينها، مثل المنهجية والمشيخية والرسولية Metodisti ،Presbiteriani، Episcopali، وأخرى ذات وزن أقل[1] وقد كانت هذه الطوائف تبني تعاليمها في المقام الأول على تحليل وثائق العهد القديم والعهد الجديد.

وقد كانت التوراة هي نقطة ارتكازهم الأساسية، وربما الوحيدة، وكان أهم شيء يعتمدون عليه هو معصومية نقطة الارتكاز، لا سلطة البابا وكلامه. فلم تعد هناك مرجعية هادية لها قدرها مثل كنيسة روما، قادرة على التوسط وتخفيف حدة التناقضات والخلافات.

ففي أمريكا التي اهتزت روحيًّا أيضًا بسبب حرب الانفصال، حيث كان يسود تقشُّف ديني بروتستانتي، كان اجتماع يوم الأحد لقراءة الكتاب المقدس يمثل أهمّ حدث في الحياة الجماعية. وكانت العقلية الوضعية الجديدة المتجهة إلى النقد، وإلى المراجعة، وإلى تشريح المعتقدات المتوطدة، كانت تسبب ضياعًا وتيهًا ربما بصورة أكبر مما هي عليه في السياق الأوربي.

وكون النقطة الثابتة هي أن النص المقدس لا يخطئ أبدًا، يمثل مشكلة لكل من يلتزمون بالتطبيق الصحيح للدين. والآن ومع وجود الزخم الثقافي ووسائل وأدوات التحقيق العلمي الحديثة، ظهرت المشكلة على السطح من جديد وبقوة. ولم يكن من المستطاع التظاهر بأن شيئًا لا يحدث.

فالمسألة الرئيسية أصبحت لا يمكن التملص منها: هل كان من الممكن الاستمرار في تأييد معصومية التوراة، وأخذها حرفيًّا حتى لو تعلق الأمر بظواهر الطبيعة؟ إن السؤال الحائر منذ آلاف السنين حول تفسير الكتب المقدسة يرتبط حتمًا بالطريقة الجديدة لرؤية العالم، وتحويله إلى خدمة الإنسان. ويرى كثيرون أن الاستمرار في أخذ الكتب الإلهية بصورة حرفية يعني أن نجد أنفسنا آجلاً أو عاجلاً أمام نفس المواقف البالية والعبثية التي اتخذها قضاة جاليليو.

ويرى كثيرون آخرون مع ذلك أن إخضاع هذا الجزء أو ذاك من الكتاب المقدس للتحقيق النقدي، يعني فتح ثغرة ربما تقوِّض مصداقية بكاملها.

---

[1] إن المسميات، والطوائف والفرق التابعة للكنائس البروتستانتينية عديدة لدرجة تداول عدد من الكتيبات في هذا الشأن، أكثرها ذيوعا كتاب كارمن رينيه بري (The unauthorized guide to choosing a church, Brazos Press, Grand Rapids 2003) الذي يزودنا بمعلومات عن الكنائس الرئيسية فقط، والتي يفوق عددها الثلاثين.

وكان علماء اللاهوت المحافظون يرون أن الشيء الأكثر حكمة هو الإبقاء على الدين منفصلاً عن العلم، ومنع انتصار جديد للعقل على القيم Mythos.

ويرى علماء كثيرون الأمر ببعد مزدوج: بُعد العالم المحسوس حيث كانت تسود قوانين الفيزيقا والرياضيات، والبعد الغيبي الذي تسيطر عليه قوانين الربّ؟ إذ يجب إدارة ما هو مقدس بحذر شديد، لأن أسراره ورمزياته مثل الشعر، لا يمكن فحصها تحت أشعة x. ماذا يتبقى من سحر قوس قزح عندما يتم إخضاعه لتحليل طيفي دقيق؟

بيد أن أولئك المنظِّرين للعقيدة الذين تَشربّوا بعقلية الرواد التقدُّمية، والذين كانوا يوجهون العالم الجديد نحو المستقبل، كانوا يعتقدون -على العكس- أن المنهجيات التي توفرها النظم الإنسانية الوليدة، كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الأجناس (أنثروبولوجي) وعلم كتابة التاريخ، يمكن أن توسع الآفاق أيضًا فيما يتعلق بمصادر الكتاب المقدس، ومن ثم تجعل انضمام المؤمنين أكثر نضجًا وتعقلاً. إنهم كانوا يسلكون بتفاؤل وحماس أمريكيَّين نفس السبيل الذي سار فيه في نهاية القرن الثامن عشر بأوربا ما سُمِّي بالنقد العالي «Higher Criticism»، أي التفسير «العلمي» للنصوص التوراتية (وسُمّي هكذا ليبين أنه ليس مقارنة فيلولوجية بسيطة وتابعة للنصوص أو مجرد نقد هابط « Lower Criticism»).

أمَّا الذي كان يدفع فاتورة الصِّدام بين الطريق «القديم» والطريق «الجديد» في رؤية التوراة، فكان عامةَ المؤمنين بها.

فقد تَجدَّد القلق الذي ظهر عند الإعلان عن خطأ فكرة دوران الشمس حول الأرض، أو أن الإنسان خُلق بمعزل عن كل الكائنات الحية الأخرى.

كيف سيتمّ استقبال «اكتشافات» تحليل علم كتابة التاريخ، مثل أن موسى لم يكتب التوراة، وأن المزامير ليست من عمل الملك داود، وأن الطوفان كان من ذكريات تغطية الجليد لسطح الأرض، وأن مصائب مصر كانت كوارث طبيعية، وأن ميلاد المسيح من رحم عذراء كان مجازًا، وهكذا؟

وقد عبَّرت الكاتبة البريطانية همفري وارد H. Ward عام ١٨٨٨ عن هذا القلق في رواية روبرت إلزمير Robert Elsmere، والتي أحدثت ضجة هائلة في الولايات المتحدة، لأنها كانت تعكس مشاعر سائدة ومنتشرة إلى حد كبير.

بطل هذه الرواية هو كاهن شابٌّ حدث له اضطراب نفسي بسبب النقد العالي «higher criticism» لدرجة أنه ترك طريقته الرهبانية، وكرّس نفسه لأعمال تقديم العون والإسعافات مع جمعية إيست إند East End في لندن.

وتلخص عبارة لزوجته هذا الصراع الداخلي عندما تصيح متعجبة: «ولكن اذا كانت الأناجيل غير صحيحة من وجهة النظر التاريخية، فلا أرى إذن كيف يمكن أن تكون صحيحة بوجه عامٍّ، أو تكون ذات قيمة!»[1]

وقد جاء ردّ فعل المعسكر البروتستانتي في الولايات المتحدة متأخرًا بعشرين عامًا عن الكنيسة الكاثوليكية التي تحركت ضد الحداثة العلمية، وأعلنت عصمة البابا، واعتبرت أنه من الأخطاء التي لا تُغتفر مساواة اللاهوت بالفلسفة (البند رقم ٨ من الوثيقة البابوية)، وإخضاع الدوجما (الثوابت المطلقة) للتمحيص من جانب العلوم الطبيعية، والفلسفية (البند التاسع).

فقد بدأ في المعسكر البروتستانتي نضوج الحاجة إلى تحديد بعض نقاط العقيدة التي لا جدال فيها، واعتبارها أساسية لا يمكن التفريط فيها.

فقد صرح أحد أبرز رعاة الكنيسة من طائفة المنهجية قائلاً: «إذا لم يكُن لدينا معايير معصومة، نكونِ كمن لا يملك أي معايير. إن هدم معجزة ما، وحقيقة ما يعني هدمها كلها. وإذا لم يكن يونس قد أمضى ثلاثة أيام في بطن الحوت، فهل سيكون المسيح قد بُعث حقيقة من قبره وصعد؟»[2]

عند هذه النقطة وفي هذا المناخ كان أول ظهور للأصولية.

وقد أسس دويت مودي D. Mody عام ١٨٨٦ في شيكاغو «معهد مودي للتوراة» في جدل مفتوح مع تيار «النقد العالي».

وكما تمّ تشكيل الآباء الدومينيكان في وقت ما لمساعدة الآباء الخوريين ضد الزنادقة، فقد اقترح مودي تشكيل فريق من النشطين لمساعدة من يقومون على الطقوس الدينية في نضالهم لدحض الأفكار الزائفة عن الدين، التي تدمر القواعد الأخلاقية للأمة. وقد أُطلق على مودي «أبو الأصولية الأمريكية». غير أنه لم يؤسس لا طريقة رهبانية ولا حركة خاصَّة به، فقد كان قليل الاهتمام بالمظاهر المذهبية الدينية، وظلّ اهتمامه على الصعيد العاطفي بصفة غالبة، ولم تصل رسالته قط إلى شكل تنظيمي وقوة جاذبة.

ويرجع كثيرون الميلاد الحقيقي للأصولية البروتستانتية بالأحرى إلى عام ١٨٩٥، حيث صدر بيان نياجرا فالس N. Falls Manifesto، على يد مجموعة من علماء اللاهوت المحافظين.

---

[1] كارين أرمسترونج: الحرب من أجل الرب، مرجع سابق، ص ١٤٣
[2] المرجع السابق، ص ١٤٤

فقد حدد بيان نياجرا فالس في خمس نقاط هي النواة التي لا يمكن التخلي عنها، إذا ما أردنا احترام حقيقة التوراة:

النقطة الأولى: عصمة النص المقدس.
النقطة الثانية: ألوهية المسيح.
النقطة الثالثة: ميلاد المسيح من رحم عذراء.
النقطة الرابعة: خلاص العالم من خلال موته.
النقطة الخامسة: بعث الأجساد، والمجيء الثاني للمسيح[1]

والنقطة الأولى والنقطة الأخيرة هما ما يميزان غالبًا ما سيعرف فيما بعد بالحركة الأصولية، وسيمثلان تقريبًا بوصلة كل المعتقدات المتشابهة ذات الخلفية الأصولية، اليقين الجازم بحقيقة الكتاب وخلوّه من الأخطاء، وعودة المسيح.

وإذا جاز لنا بحق أن ننسب إلى المشاركين في مؤتمر نياجرا فالس فضل سبقهم في إصدار نوع من «وثيقة بروتستانتية مصغرة»، فيجب أن يقول أيضًا إن هذه المبادرة لم يكُن لها، نتائج كبيرة.

فقد كان البيان سيظل مقصورًا على مجموعة ضيقة، لولا أنه أخذ قوة دفع جديدة بعد ذلك بخمسة عشر عامًا، مع نشر سلسلة من اثني عشر كتيبًا في كاليفورنيا ما بين عامي ١٩١٠ و١٩١٥ بعنوان «الأصول» Fundamentals، والتي كتبها مجموعة من علماء اللاهوت المعروفين ذوي الميول المحافظة، وقد شرحوا وبشكل إذاعي النقاط الرئيسية للعقيدة، منطلقين دائمًا من الدوجماوات الخمس الرئيسية[2]

وقد وُلد هكذا في وقت واحد، سواء المفردة التي لاقت خطًّا وأصبحت فيما بعد مرادفًا للراديكالية الدينية، أو المشروع الملهم التابع لها، وهما عنصران لا غنى عنهما لميلاد تيار له شأن يمثل القوى الدينية المحافظة.

نبوءات ونزول المسيح:

تقودنا النقطة الخامسة والأخيرة من البيان -المجيء الثاني- إلى بحث السمة الثانية من سمات الأصولية الأمريكية، وهي التطلع نحو المستقبل، والتركيز على الهدف

[1] إيترو باتشه، ور. جوولو: الأصوليات، مرجع سابق، ص ١٣-١٤
[2] تم توزيع ثلاثة ملايين كتاب على رعاة الكنائس، وأساتذة، وطلبة اللاهوت في كل أنحاء أمريكا. وقد قام بتمويل هذه المبادرة إثنان من أقطاب البترول هما ليمان وميلتون ستيوارت اللّذين اقتفا أثر مودي Moody، وأسسا الكلية التوراتية بلوس أنجلوس، وهي كلية معارضة للنقد العالي " Higher Criticism".

الأخروي. وهذا الطابع يميز هذه الأصولية عن الحركات المماثلة في ديانات، وعقائد أخرى.

إن ما نسميه «حداثة» يمثل ثورة مقارنة بالماضي كذلك وخصوصًا فيما يتعلق بالأساطير الأخروية الكبيرة. فإن «الروايات الكبرى» في الفترة الحديثة هي أساطير حول المستقبل، وتطلعات إلى ما هو قادم، ونوع من اليوتوبيا لا يعرفه العالم القديم.

ومَن أفضل من أمريكا يجسد تيار المستقبلية؟

إن التزمُّت في السياقات الدينية الأخرى يستمد قوته من العودة إلى التقاليد. ومثله الأعلى هو العودة إلى لقاء الماضي البعيد، مثل أزمنة بطولات الأنبياء بالنسبة إلى اليهود، وبداية عصر الرسل وآباء الكنيسة بالنسبة إلى الكاثوليك، وفي النهاية مثل العصر الوسيط للنبي محمد بالنسبة إلى المسلمين.

أمَّا في بيئة البروتستانت الأمريكية التي كان لا يسود فيها تقديس التُّراث، بل تقديس الجديد، فإن ردَّ الفعل على المادية العلمية–التكنولوجية اتخذ صورة هروب إلى الأمام، أي نحو المستقبل.

ففي الإطارِ الأخلاقي لأُمَّة تَغذَّت على التطلُّعات الطوباوية، التي يمثل فيها البحث عن السعادة حقًّا لكل المواطنين لا يمكن التفريط فيه، وليس لكلمة «الرؤى والخيالات» أي معنى تحقيريٍّ، فإن الراديكالية الدينية كانت تتجه تقريبًا وبصورة حتميَّة نحو خيالات ورؤى تتعلق بعقيدة انتظار المجيء الثاني للمسيح.

فالمجيء الثاني، إذا ارتبط بالتبشير التوراتي الذي مثَّل عنصرًا مهما ومتكررًا في تاريخ المسيحية قد تمّ استبعاده من جانب الكنيسة الكاثوليكية، لأنه اتَّخذ مظاهر معارِضة للمذهب الرسمي[1] ولم يكُن الأمر هكذا في العالم البروتستانتي[2] خصوصًا في أمريكا، حيث

---

[1] المسيحيون الأوائل كانوا يعتقدون أن نهاية العالم وشيكة، وأن المسيح سيعود، وقد أعلنوا ذلك خلال حياتهم. وقد كانت طائفة Montanisti [أتباع مونتانوس] التي أدينت بالزندقة. تؤمن بعودة المسيح. فقد استند زعيم الطائفة مونتانوس Montanus على سفر الرؤيا ليوحنا، وكان يعلن قرب مجيء أورشليم جديدة، ومجيء مملكة الرب. وانتظر كثيرون أن يكون العام ألف الميلادي هو نهاية العالم "ألف وليس أكثر من ألف!". وفي القرن الثاني عشر تنبأ جاكومينو دا فورته G. da Forte وهو من كالابريا بمجيء وشيك للمسيح الدجّال، بنهاية العام، وقد أدين كذلك بالهرطقة.

[2] وفي المعسكر البروتستانتي، أول من ساند أفكار المجيء الثاني للمسيح -ودائما مع وجود بعد سياسي - كان معارضو التعميد Anabattisti، والتقويّون Pietisti. فقد كان توماس مونزير T. Munzer، وهو شخصية بارزة في حركة تمرد المزارعين بألمانيا مابين ١٥٢٤ – ١٥٢٦، يقول إن إبادة الأغنياء ستفتح الطريق أمام عودة المسيح. وللإلمام بالحركات الحديثة المؤمنة بعودة المسيح انظر:

Thomas Robbins and Susan J. Palmer Millennium, Messiahs, and Mayhem: Contemporary Apocalyptic Movements , Routledge , New York 1997.

جعلت منه بعض الحركات والجماعات (مثل Avventisti، أو أتباع «البعث الثاني secondo Risveglio») المبدأ الأساسي الملهم لها.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازدهرت عقيدة المجيء الثاني على يد واعظ إنجليزي هو جون نلسون دربي J. N. Darby، الذي أخذ في التكريز بأجزاء من سفر الرؤيا، مثل الحرب الشاملة بين الخير والشرّ، وهزيمة المسيح الدجَّال، وعودة مملكة المسيح على الأرض قبل يوم القيامة. ويرى دربي أن تاريخ الخلاص ينقسم إلى سبع مراحل، ونحن الآن في المرحلة السادسة أي قبل الأخيرة. وستنتهي هذه المراحل بنزول المسيح الدجَّال، الذي سيخدع العالم بوعوده، ويفتتح سبع سنوات من الفتن والاضطرابات تكثر فيها الحروب والمذابح، ويستخدم الشيطان في حربه على هضبة هَرْمَجِدُّون خارج القدس، وهنا تبدأ المرحلة السابعة، التي ستستمرُّ ألف عام.

وقد أكَّد –وهو يستوحي من جملة جاءت في رسالة القديس بولس إلى أهل مدينة Tessaglia بوسط اليونان– على مفهوم الرفع «Rapture»: في بداية الفتن، يتم «رفع» الصالحين رُوحًا وجسدًا إلى السماء، لينجوا من ويلات الأيام الأخيرة.

وكل ذلك كان يتمُّ فهمه بصورة حرفية، لا مَجَازِيَّة، وذلك يجعل موجة الرضا التي يلقاها الخطيب بين السكان غير عاديَّة، خصوصًا تحت وطأة الحرب الأهلية. وحتى اليوم في بيوت الأصوليين المؤمنين بعقيدة المجيء الثاني للمسيح، لا يندر وجود رسوم بسيطة تظهر رجلاً وهو يحصد الحشائش في مرج أمام منزله، بينما ترفع زوجته إلى السماء من نافذة بالطابق العلوي[1]

إن أول صراع عالمي دخلت فيه الولايات المتحدة للمرة الأولى فيما وراء المحيط، غذَّى من جديد خطباء الكوارث بالمادة المعتادة لحديثهم، لدرجة أنهم فسَّروه كعقاب على المعاصي، وطوال فترة الحرب الكبرى من ١٩١٤ وحتى ١٩١٨ عقدت «ثلاثة مؤتمرات حول النبوءات» كان لها دويُّها في كل أنحاء الفدرالية، وكانت تهدف إلى تحليل «آيات الأزمنة» ليستخلصوا منها ما يؤكد نبوءة سفر الرؤيا. وفي هذا الإطار، رحبوا بوعد بلفور بعودة اليهود إلى فلسطين، لأنه يحقق النبوءات التي كانت تتحدث عن عودة اليهود إلى أرضهم قبل نهاية العالم، وعند انفجار الثورة السوفييتية تركزت النبوءة حول «قوة شمالية» ستهاجم إسرائيل قبل هَرمَجِدُّون. وقد استقبلوا ميلاد عصبة الأمم بتوجس، لأن النبوءة قالت إن المسيح الدجَّال سيكون له مظهر المزيف الذي يدعو إلى السلام، ويشجع «نزع السلاح الأخلاقي».

---

[1] كارين آرمسترونج، الحرب من أجل الرب، مرجع سابق.

وقد بدا المجيء الثاني للمنزمِّتين في أمريكا بمثابة الحل الأمثل لتحقيق صمام الأمان بين عدم الانخداع أمام تقدم لا حدود له، والتطلع إلى المستقبل. إن رؤية نزول ثان للمسيح يتيح الفرصة لتثبيت الرؤية نحو المستقبل، ولكنه ليس مستقبل «المصائر الرائعة والتقدمية»، بل مستقبل الكوارث والفتن، سيستهلّ نوعًا من تطهير «لاهوت اليأس والقنوط».

تصفية الحسابات بين الخير والشر

إن أول انطباع تتركه تلك الرؤى الرهيبة لدى الجزء الأكبر منّا نحن الأوربيين، هو أنها تتعلق بخيالات تهذي بها مجموعة من الحمقى، ولا يجب أخذها مأخذ الجد. غير أن هذا الانطباع بدأ في الانحسار بسبب اثنين من الأصوليين النشطين هما جيري جنكينز J. Jenkins، وتيم لاهاي T. La Haye[1] اللذين حقَّقا معجزة حقيقية على مستوى النشر بإحيائهما -وبشكل روائي- لهذه الموضوعات السالفة الذكر، بداية من «خطف الأخيار» وحتى «الفتن»، وذلك من خلال دعاية دينية متطرفة على نطاق واسع.

وفي السنوات الأخيرة ترتفع نسبة مبيعات ذلك النوع من الكتب المسماة بـ«خيالات سفر الرؤيا» في الولايات المتحدة، على الرغم من أن المتخصصين في الأدب يصنفونها كتبًا من الدرجة الثانية، وقد أدَّى الإقبال عليها إلى تخصيص قسم لها في المكتبات الكبرى بالجزء الخاص بالأديان. وعلى الرغم من ذلك، وعلى الرغم من كثرة العناوين في هذا الموضوع، فإن نجاح سلسلة الروايات للكاتبين المذكورين والمسماة ب"المخلَّفون Left Behind" قد فاقت كل الأرقام القياسية. فوفق المعلومات الواردة عن دار النشر تيندال هاوس Tyndal House، وبداية من المجلد الأول الذي نُشر عام ١٩٩٧، وحتى المجلد الثاني عشر المسمى بـ"التجلي المقدس Glorious Appearance" الذي صدر في ربيع ٢٠٠٤ تمّ بيع أكثر من خمسين مليون نسخة، وتمّ كذلك ترجمتها إلى لغات عديدة (بما فيها الإيطالية، حيث أخذت عنوان «المُبعَدون»). وقد تمّ كذلك عمل طبعة خاصَّة بالأطفال، ويجري الإعداد كذلك لعمل سينمائي. ويوجد آلاف النوادي للقراءة الجماعية لهذا العمل ونشره في الجنوب في "حزام الكتاب المقدس Bible Belt". إن حبكة هذه السلسلة ليست معقدة كثيرًا، فهي تواصل نشر المحتوى العميق لخطب المجيء الثاني قبل وبعد داربي، ويمكن

[1]. إن جري جنكنس Jerry Jenkins ، وهو مؤلف أكثر من مائة وخمسين كتاباً، وصديق بيل جراهام B. Graham أحد مشاهير الخطباء التليفزيونيين، عضو فاعل في معهد مودي للتوراة بشيكاغو، ذلك المعهد الذي يعتبر أحد المراكز التاريخية لنشر الأصولية الأولى. أما فيما يتعلق بتيم لا هايا T. La Haye، فهو كاتب غزير الإنتاج، إذ ألّف أكثر من أربعين كتاباً، وهو ملتزم بالوعظ، والنشاط الرعوي كسفير إنجيلي. تخرج في كلية اللاهوت، وأسس معهداً لدراسة النبوءات، وهو في الواقع نواة لنشر أفكاره كما يبدو منه بوضوح من الاسم : " Pre – Trib Research Center".

تلخيصها بسهولة ويسر. سيختفي ملايين وملايين من الأشخاص في العالم فجأة كما لو كانوا تبخروا، سيارات تصبح بلا سائق، وقطارات بلا فنيين وسائقين، وكثيرون يرون أعزاءهم وهم يختفون أمام أعينهم. ويبدأ قائد طائرة بدأت رحلتها بنصف الطاقم، ونصف الركاب في التحرِّي حول الظاهرة، ويكتشف أنها تحقيق للنبوءات حول عودة المسيح ليس إلاّ. فالأخيار يتم «خطفهم» إلى السماء، بينما يُترك الأشرار «Left Behind» ليشاهدوا الصراع بين الخير والشر، الذي سيبلغ ذروته بمعركة هَرمَجِدُّون، وبالألف سنة لمملكة المسيح التي تنبأ بها سفر الرؤيا. ولكن قبل ذلك سيكون نزول المسيح الدجَّال، وسبع سنوات من الفتن. وقد أدرك قائد الطائرة ورفاقه أن المسيح الدجَّال تجسد في شخص الأمين العام للأمم المتحدة، وهو روماني يخدع العالم بمبادراته لإحلال السلام، وبوعوده بالرفاهية، ولكنه في تحقيقه يهدف إلى السيطرة على الكوكب كله، وتدميره. وتدور كل القصة حول الصراع الذي تخوضه مجموعة «المبعدين» المنتظمين في «قوة الفتن»، من خلال سلسلة من المغامرات العجيبة، بهدف إفشال خطط المسيح الدجَّال، الذي يظهر دائمًا، ويعمل من مقرٍّ حكومته العالمية بحصن بابليون الجديد، ولا يتردد في إبادة مدن بكاملها. أمَّا المجلَّد الأخير فيذهب إلى أبعد من ذلك، إذ يعرض المجيء المنتظر للمسيح مثل عودة المحارب الذي لا يهدأ، والذي يفجر أنهار دماء الملاحدة، والكفار، وغير النصارى. وهذا العنصر ربما هو الذي جعل هذه الرواية تتخطى كل الأرقام القياسية في مبيعات الكتب بالولايات المتحدة.

والحبكة هي حبكة خيال علمي ممزوج بخلفية دينية، ولم يفهم العمل من منظور أدبي صرف، كرواية طويلة لمن يكتوون بنار الخيال العلمي ذي الخلفية الكارثية، ولكنها فُهمت كعمل يهدف إلى تجنيد أنصار، وكان لها تأثير على الشباب بخاصَّةٍ وعلى ذوي الثقافة المحدودة.

وقد يرى البعض أن لاهاي وجنكينز لم يخترعا شيئًا من العدم، واقتصرا على نشر أفكار نُقلت إليهما منذ ما يزيد على قرن، وذلك في ثوب روائي.

وأي عيب في نشر ما قبل المجيء الثاني على الجمهور العريض مع لمسات الخيال العلمي؟

لا يتعلق الأمر –للأسف– بعملية غير مؤذية لها أهداف انتشار فقط، فإذا ما كان القصص الطويل من خلال سلسلة من «المبعدين» في مجلدات عديدة، يمكن أن يؤدِّي أيضًا إلى التفكير والتأويل حول هشاشة الإنجازات البشرية، وحول انقراض الجنس البشري نهائيًّا، فإنه مع ذلك يضعف الحظر المفروض على استخدام العنف المفرط لتقوية الخير.

إذ إن «شبه الأخيار» الذين تركوا للإعداد للمعركة النهائية في هرمجدُّون لن يقفوا مكتوفي الأيدي، بل سيستخدمون أي وسيلة لنصر قضيتهم ضد المسيح الدجّال: سيقتلون، سيخدعون، سيستخدمون كل أنواع الأسلحة. وفي هذا الإطار سيتم تقديم نزع السلاح، والتعددية الثقافية، والدعوة إلى السلام، والأمم المتحدة نفسها من منظور سلبي (مع وجود إشارات غير مستترة ضدَّ اليهود، وضد المسلمين)، وسيتمُّ تغذية ما يُعرف بـ«نظريات المؤامرة»، التي يبدو أنها تدهش بصورة خاصَّة تخيلات الأمريكيين.

إنجيليُّو التلفاز وأغلبية أخلاقية

أيًّا كان الثقل الفعلي لما يُعرف بـ«خيالات سفر الرؤيا»، فإن التيارات الأصولية في الولايات المتحدة قد واصلت سيرها[1] حاليًّا، وقد أسهمت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في تغذية هذه التيارات. وقد صوَّر بعض الخطباء المشهورين العمل الإرهابي المرعب على أنه «عقاب من الله للشعب الأمريكي لأنه ترك الربَّ»، وقد وجد ذلك الرأي آذانًا صاغية.

وقد صرح أحد الخطباء المعروفين وهو جيري فالويل J. Falwell في مناظرة تليفزيونية مع الزعيم الآخر ذي الكاريزما بات روبرسون P. Roberson بقوله: كفرة، مبيحون للإجهاض، جميعًا حاولتم علمنة أمريكا، وأنا أتهمكم! إن ما حدث كان بسببكم!

وقد سجل النصف الثاني من القرن العشرين مراحل متفاوتة لتجاوب الرأي العامِّ الأمريكي نحو الأصولية، مثل ما حدث بالضبط في النصف الأول.

فإذا كانت الحرب العالمية الأولى قد أعطت دفعة لأولئك الذين كانوا يتنبؤون بحقبة كوارث بسبب تنحيتهم للربِّ باسم التقدُّم المادي، فإن التأثير الذي أعقب الحرب العالمية الثانية كان أكبر من حيث أزمة الضمير. إذ إن التقنيات العالية الجديدة التي استخدمتها الجيوش في الحرب الأهلية التي اندلعت في أوربا المتحضرة جدًّا، قد أودت بحياة عدد غير مسبوق في التاريخ، ودمَّرت ممتلكات ثقافية لا حصر لها تخصُّ كل الإنسانية. وقد تمّ تقويضٌ نهائيٌّ لمؤسسات عظيمة، لأنماط ولطرق تفكير وطّدَتها التقاليد.

ويمكن القول كذلك إن المحرقة على يد النازيين، ومعسكرات ستالين وأشياء أخرى كثيرة هي نتاج الحداثة، لأنها تَمَّت ببرود علمي وفاعلية تكنولوجية. ويمكن أن نقول نفس الشيء عن القنابل الذرية على هيروشيما وناجازاكي على أساس حساب عقلي للميزات

---

[1] ولأجل الإلمام بصورة حديثة عن الراديكالية الدينية في أمريكا، أنظر: Barbara Victor, The Last Crusade, St. Martins Press, New York, 2004

والعيوب التي تحكم بالموت الفظيع على مئات الالاف من الضحايا الأبرياء في ضـربة واحدة. ويجب أن نقوم بنفس الحساب المتعقل بعد النظريات الاستراتيجية للحرب الباردة، وللردع، وللردّ المتدرج، الذي قد يودي بحياة عشرات الملايين، في حالة تبادل ضـربة نووية.

وفي نفس الوقت قد أعطى الانتحار المتبادَل للأوربيين، بُعدًا عالميًّا جديدًا لأمريكـا المنتصرة، وقلَّل كذلك الفجوة بين شمال متقدم وصناعي، وجنوب زراعي ومحافظ.

كيف نعيد بناء روحانية جديدة تكون على مستوى القوة الجديـدة وعلـى مـستوى المسؤوليات الجديدة؟

فقد حاول فلاسفة وكُتَّاب من مختلف الأطياف (مثل سارتر، وماركس بصفة خاصَّة، وفروم Fromm) تحديد معنى جديد للحياة، ومصادر جديدة للإلهام للهـروب مـن سـجن «الإنسان ذو البعد الواحد». إن حركة الطلاب المعارضة في الستينيات، والتي انتـشرت من السوربون حتى بيركيلي Berkeley، وامتدّت إلى جامعات أخرى بالولايات المتحـدة، كانت محاولة لإيجاد بديل للمادية، وتسلط الثقافة المسيطرة.

كان الأمر يتعلق بمحاولة مخلِصة، لكنها عشوائية وغير ثابتة، وغير مثمرة لم ينبثق عنها منظومة فكر أو مشروع مؤثر.

وهؤلاء الشباب الذين حاولوا أن ينفِّسوا عن حماسهم بإيجاد أشكال جديـدة للتـديُّن تفرقت بهم السبل بين مسارات غامضة وهم يكتشفون هـذه الطقـوس أو تلـك دون أي تعمُّق.

وقد وجدت الأصولية تربة خصبة في جوٍّ كهذا، لترفع رأسها، وتخرج إلى الـضوء بعد نصف قرن من العزلة، والانطواء، وقد واجهت بصورة ذكية القلق من هزَّة دينيـة يُخشَى منها على كل المستويات في الدولة. ولكن البديل الذي كانت تقدمه كان معارضًـا تمامًا لطرح فلاسفة ١٩٦٨.

فقد حرَّك الأصوليُّون محورهم السياسي ناحية اليمين، وأصبحـت أمريكا المتزمِّتـة أكثر هي حتما الأرض التي يكرزون فيها.

فلقد تمّ هجومهم المضادُّ بشكل لا يلفت النظر، وخافت على المستوى المحلي، فكونوا شبكة من المدارس والمكتبات ودور النشر وبعض الـكليات فـي الأمـاكن الـصغيرة، وجسور لفتح «أمريكا الحقيقية» مستودع القيم «الأمريكية الحقيقية». ولكي نفهم آلية هذا الطرح، يلزم أن نتذكر أنه في فيدرالية الولايات الواسعة التي تمتد في شبه قارَّة، استمرَّ الصدع الإيديولوجي بين المحافظين، والليبراليين.

قد يكون من المبالغ فيه القول بأن حرب الانفصال لم تنته بعد، فما زال هناك شرخ وصدع، لا بين الشمال والجنوب، بل بين الساحل والداخل، بين الولايات الصناعية والولايات الريفية الزراعية. فهناك مواقف وتصرفات تبدو صحيحة وطبيعية في نيويورك أو لوس أنجلوس، ولكنها غير مقبولة ولا تغتفر في ألاباما أو آركنساس.

إن المحافظين الملتزمين من قلب مقاطعات أمريكا (أولئك الذين يعرقون ويكدحون، ويدفعون الضرائب، ويسيرون على الطريق المستقيم، ويذهبون إلى الكنيسة كل أحد، ويتصدقون، وفقط للتسلية في نهاية الأسبوع يلعبون الورق، أو يأكلون اللحم المشوي في الخلاء، أو يسمحون لأنفسهم كحد أقصى برقص جماعي، ومن ثم الأغلبية من السكان هم بعيدون ألف ميل حتى روحيًّا عن موظفي واشنطن، وأساتذة جامعة هارفارد، وعن عمال بنوك وبورصة وول ستريت Wall Street، وعن البوهيميين بسان فرانسيسكو. هؤلاء هم الناخبون الذين كرموا بوش لحزمه في مواجهة الشرِّ بكل الوسائل مهما كلَّف ذلك.

ويحكي جرفازو Gervaso أن مونتانيللي Montanelli عندما كان يكتب سلسلة كتب التاريخ، كان يوصيه: تذكر أنك يجب أن تجعل بائع اللبن في ولاية أوهايو يفهمك!

إن سرَّ سحر خطباء اليمين المتشدد ليس فقط إفهام، بل إدهاش بائعي اللبن بأوهايو، وكل «الأمريكيين الحقيقيين»، بنفس القدر الذي به يُقلِقون النخبة المثقفة وأنصار الكون الواحد.

وقد كان التلفاز هو الأداة الفعَّالة التي استثمرها المتشددون واستغلُّوا إمكاناته الهائلة. فقد جعلوا منه نوعًا من «كنيسة إلكترونية» تهدف إلى جذبِ الأغلبية الصامتة والمحايدة من المسيحيين الملتزمين، الذين يتعاطفون مع من يتخذ موقفا حيال مجتمع التسامح المفرط، ويدافع عن سلطة ربِّ الأسرة، ويُدِين اللواط والإجهاض، أي يمنع بقوةٍ تدهور العادات الذي أذهل الآباء البليجريين، وراح يشوه طريقة العيش الأمريكية «Way of Life».

وقد تميزت العشرون عامًا من بداية الستينيات وحتى نهاية السبعينيات بنجاح كبير لإنجيليِّي التلفاز، الذين سجَّلوا على شبكاتهم الخاصَّة عدد مشاهدين أكبر من الشبكات الوطنية الكبرى. وقد لجأ أولئك إلى كل الوسائل والحيل في عالم التسويق.

وكان هناك أيضًا من يستخدم بقوة إمكاناته الطبية، ويتكسب، أو يقدِّم وصفات طبية للشفاء عن بعد. ولم يكن كل الخطباء ذوي صراحة أصولية، بيد أنهم جميعًا يوحِّدهم حماسهم لكسب الأنصار، وانتماؤهم إلى اليمين المحافظ جدًّا، وأصولهم التي ترجع إلى الأمريكيين البيض البروتستانت WASP. وكان أهم ما يوحِّدهم هو أنهم لهم عدو مشترك. وهؤلاء المؤمنون بالمجيء الثاني للمسيح كانوا يميزون بين نوعين من الأعداء: داخليِّين

وخارجيّين. فالأعداء الداخليُّون، أي الزنادقة الجدد، كانوا هم أنفسهم من خمسين عامًا عندما نشأت الحركة، ليس فقط الكاثوليك، بل البروتستانت الليبراليين، لا يهم الاسم، الذين يروجون -في زعمهم- لمذهب لا يمت إلى المسيحية بصلة.

أمّا الأعداء الخارجيُّون فهم «الإنسانيون العلمانيون»، وهم أكثر خطورة من اليهود أنفسهم. وفي فترة إعادة الانطلاق هذه للأصولية، حلّت الإنسانية العلمانية Secular humanism «محلّ» النقد الأعلى «بوصفها التهديد الأكبر. وقد عرَّفها تيم لاهاي «ضدّ الله، وضدّ الأخلاق، وضدّ أمريكا، وضدّ الالتزام»، وعلى هذا الأساس كان نفس المفهوم الذي يرى أن العقل العلميّ يمثّل تهديدًا للتديُّن وللشعور المقدس.

ولا يدخل تحت عباءة الإنسانية العلمانية فقط الشيوعيون والاشتراكيون، بل كذلك أبطال الانتفاضة الطلابية عام ١٩٦٨، وكذلك ناشطو الحقوق المدنية. ويرى كاتب أصولي آخر هو بول بروكس P. Brooks أن الإنسانية العلمانية تنطوي في أصلها على مؤامرة تهدف إلى خلق نظام عالمي جديد تحتل فيه عناصر مختلفة جزءًا كبيرًا مثل الإتحاد السوفييتي، ووول ستريت، والصهيونية، والبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي. ونجم إنجيليِّي التلفاز جيري فالويل يرى بحملته ضد العلمانية أنه فتح قليلاً الأبواب التي كانت مغلقة أمام الراديكالية الدينية[1] وقد حدا ذلك باليمين الجمهوري إلى اختياره حليفًا لتوسيع قاعدة القبول لدى طوائف مختلفة، ليس فقط المورمون وأتباع الروح القُدُس Pentecostali، بل حتى الكاثوليك واليهود.

وبعد أن حَظِيَ بهذا الدعم السياسي، أسَّس فالويل تَجمُّعًا جديدًا هو «الأغلبية الأخلاقية» Moral Majority، الذي فاق عدد المنضمِّين إليه نصف المليون في وقت قصير. وكانت رسالة هذه الحركة بسيطة ومباشرة: إن أغلبية الشعب الأمريكي يبنون قيم حضارتهم على الدين، وسياستهم على التوراة، بينما الليبراليون يمثلون «قلة غير أخلاقية»[2].

أمَّا على الصعيد العملي فكانت استراتيجيته العميقة هي خلق شبكة من المؤسسات والكوادر الوسيطة، خصوصًا المدارس الدينية، لممارسة نوع من التعبئة السياسية من أسفل الهرم. ومن بين الأشياء التي سدَّد التعصُّب الأمريكي سهامه إليها موضوع حرية المرأة، الذي اعتبروه من تعاليم الإنسانية والماركسية الخادعة.

---

[2] إنطلاقا من محطة تليفزيونية متواضعة في لينشبورج Lynchburg بولاية فرجينيا، استطاع فالويل في غضون سنوات قليلة تأسيس جماعة واسعة، وجامعة على مستوى عال، تقوم على أسس كالفينية صارمة، وهي جامعة Liberty Baptist College وبلغ عدد المنتمين لحركته عام ١٩٨٨ حوالي ثمانية عشر ألف عضو، حوالي ستين راعيا، ودخل سنوي يزيد على ستين مليون دولار. وكان أكثر من ٣٩٢ قناة تليفزيونية، و ٦٠٠ محطة إذاعية تبث مواعظه، ومواعظ خطباء آخرين.

[2] انظر: الأصوليات مرجع سابق، ص ٣١ E. Pace, R. Guolo, I Fondamentalismi

وقد واصل اليمين المسيحي الجديد السير على طريق الفلسفة السياسية لحركة «الأغلبية الأخلاقية»، ومما يدل على تأثير العنصر الديني على السيناريو الانتخابي في الثمانينيات وبالتالي الذي ينسب إلى هذه الحركة، أن الرئيس ريجان نفسه لم يُخفِ إعجابه بهذه الحركة.

وبعد أن لبس ريجان عباءة الجمهوريين، بدأ الدعوة إلى دقيقة للتأمُّل والصلاة كان قد طلب إعادة إدخالها إلى المدارس، بعد أن كانت المحكمة العليا قد ألغتها. وفي الوقت الذي تقدَّم فيه لفترة رئاسة ثانية، كان واضحًا أنه يترجم بعض الموضوعات المحبَّبة إلى الأصوليين، من خلال مقترحات سياسته، مثل مراجعة قانون الإجهاض وخفض سياسة الضرائب لتشجيع دخول المدارس الدينية.

ويبدو أن شعبية «إنجيليُّو التلفاز» قد انحسرت في الفترة الأخيرة، ولا يرجع سبب ذلك إلى انعطاف وتغيُّرٍ في مشاعر الرأي العامِّ، بقدر ما يعود إلى أخطاء بعض الخطباء المشهورين، الذين اضطرُّوا إلى مغادرة الساحة في أعقاب راديكاليتهم المفرطة، أو فضائحهم المالية والجنسية[١]

وقد أعطت الرئاسة الأمريكية الحالية قوة دفع جديدة لليمين الديني.

إن ميول جورج دابليو بوش الأصولية التي تظهر بجلاء في خطبه، يمكن أن نرجعها إلى الأزمة الروحية التي -باعترافه هو- أنقذته من إدمان الكحوليات. ولكن كما يبرز في تحقيقات صحفية بارزة، فإن ميول بوش الأصولية كانت أفضل أوراق اعتماد له لدى الأوساط المحافظة جدًّا في المؤسسة البروتستانتية، وأدَّت إلى انقسامات سياسية جليَّة في فترة رئاسة أبيه. وقد كان عدد من معاونيه كذلك من الأصوليين Born Again. وقد كانت أحداث ١١ سبتمبر فرصة ذهبية لاستئناف نبرة الحرب الصليبية الراديكالية، ومواصلة اختيارات ريجان الصدامية [تؤمن بالصدام بين الخير والشر].
ويقول سلمان رشدي: يمكن اليوم أن يترشح، ويُنتخب في بعض المناصب السياسية العليا نساء، وشواذ، ويهود، وأمريكيون من أصل إفريقي. ومع ذلك فإن أي ملحد لا يملك فرصة الفوز حتى لو ترشح ليبيع فيشار Popcorn في الجحيم[٢].

---

[١] في هذه السنوات، انتقلت الكرازة البروتستانتينية، التي ضعفت في الولايات المتحدة، إلى أمريكا اللاتينية وبحماس كبير. وقد كانت الورقة الرابحة بأيدي المكرّزين – بين السكان الكاثوليك والمنفتحين على الإشارات التبشيرية. هي العمل الفعلي، ومواساة الآلام الجسمانية، والمعنوية، وتنافسوا سواء مع القساوسة الكاثوليك، أم مع المطببين التقليديين. ففي كتاب الكنيسة العالمية لمملكة الرب، وهي أحد الكنائس الأكثر انتشارا بقارة أمريكا اللاتينية، تتم دعوى المؤمنين للتوحد على طريق الخلاص الذي يحل المشاكل الأسرية، والعاطفية، وأيضا "الصداع النصفي "، وآلام الظهر، والإحباط، والأرق " أنظر أيضا :
الأصوليات مرجع سابق، ص ٣١ E. Pace, R. Guolo, I Fondamentalismi
[2] مقال في جريدة الجمهورية "لاريبوبليكا" ١٥ مارس ٢٠٠٥ نشرته نقابة عمال نيويورك تايمز.

من مونسينيور ليفيبر ى حتى ميل جيبسون

لم تكن الأوساط الكاثوليكية أقل تأثرًا بمشكلة «العلمانية» أو «اللا دينية». واستخدام كلمتين لتوضيح المفهوم يدل على الازدواجية. فالكلمة الأولى التي كان يستخدمها الأنجلو ساكسون تشير إلى الدلالة على موقف ضدَّ الدين من ناحية فلسفية وعلمية غالبًا (وهذا يُشتق من كلمة Secular، ومن حاجات العالم). أما الكلمة الثانية (مشتقة من اليونانية Laikos «حاجة الشعب» بعيدًا عن دائرة رجال الدين) فيفضلها الإيطاليون والفرنسيون، وهي كلمة تسلِّط الضوء على المظهر السياسي، فهي في فرنسا يمكن أن تصل إلى «راديكالية الدولة العلمانية».

مياه كثيرة كانت قد مرَّت تحت الجسور منذ الهجوم المضادِّ على العلمانية في الوثيقة البابوية Sillabo، بيد أن المشكلة استمرت في التأثير على خيارات ذات شأن في الحياة العامة والخاصَّة، من الطلاق وحتى الإجهاض، وظلت مركزية في المناظرات اللاهوتية والسياسية بكل أنحاء أوربا، مع الصراع المألوف بين المحافظين ودعاة التجديد، الذي لم يترك حتى مركز صنع القرار في أعلى مؤسسة كَنَسِيَّة.

ففي عام ١٩٦٢، وفي الوقت الذي كانت تحدث فيه الطفرة الهائلة بأمريكا بالنسبة إلى الإنجيليين التليفزيونيين، وإلى المدارس الأصولية، فاجأ يوحنا الثالث والعشرون العالم كله ببرنامجه لتحديث الكنيسة، مما جعل من الضروري دعوة المجمع المسكوني الثاني إلى الانعقاد، ولكن من منطلق مواقف مضادَّة تمامًا لمواقف بيوس التاسع. كانت إذن مبادرة إصلاحية ترجع إلى تحديد البابا من أصول ريفية، لأنه نفد صبره من سفسطة الـCuria، الأمر الذي كان يهدِّد بزلزال لنظام الكنيسة الرومانية[1]

ولا يمكن هنا حتى المرور سريعًا على مسار مليء بالزخم، والعمل الدءوب -١٦٨ جلسة بكل الأعضاء في مدى أربع سنوات- لمجمع الفاتيكان الثاني، ولا حتى ذكر الوثائق العديدة والمهمة التي نجح هذا المجمع في إقرارها، والتي تتراوح بين إصلاح الليتورجي (التعاليم والشعائر الدينية) وحتى حوار الأديان. إن ذكر الهدفين الرئيسيَّين كافٍ لكي ندرك أن هذا العمل كان يفتح باب جهنم، أو يزيح الغطاء عن جرة باندور Pandora: إعطاء وظيفة للمؤسسة العلمانية، ودور أكثر مركزية للنصِّ التوراتيِّ.

فالانفتاح على العلمانيين كان يعني إعطاء الحرية لقوى تقدمية كانت مقيدة، وعملها هامشيًّا في الماضي، ومن ثم كانت خطوة شجاعة من الكنيسة مع تطوُّر العالم الحديث في المجال الاجتماعي وحقوق الإنسان والديمقراطية، ومع ذلك فإن هذا الانفتاح كان

---

[1] جورج سوفير: أنت بطرس، مرجع سابق، ص ص ٤٩٧-٥٠٧

يؤكد على أن مجمع الفاتيكان الثاني كان يسير في اتجاه مضاد تمامًا لاتجاه مجمع الفاتيكان الأول، والذي يعني إمكانية صدور وثيقة بابوية مضادة.

أما في ما يتعلق بإعادة تقييم النص التوراتي، ألا يعني ذلك عدوانًا على هيمنة الكنيسة، ويفتح الباب لإصلاح ثانٍ؟

وإذا كانت الأوساط المحافظة أكثر داخل الإكليروس مضطربة، فإن الأصوليين رأوا في دعوة المجمع تحدّيًا مباشرًا.

إن عدم الرضا الكاثوليكي الذي شمل كل مستويات المؤمنين ورجال الكنيسة، قد تجسّد في شخصية المونسينيور مارسيل ليفيبري Monsignor M. Lefebvre، الذي أصبح أبرز الناطقين باسم التقليديين الجدد، وقد وجد دعمًا داخل المحيطين بالبابا أنفسهم. لا نستطيع القول بأن أنصار ليفبري أصوليون بالمعنى الحقيقي للكلمة، ولكنهم قريبون من الأصوليين، إذ يصرون على عدم الاستغناء عن التراث كمستودع لا يخطئ للعقيدة، وبذلك يفتحون جدلاً واسعًا مع قرارات المجمع[1].

إن ردود الأفعال على المجمع أوجدت -فضلاً عن ذلك- حركة أخرى أكثر حيوية وديناميكية، بدت في الفترة الأولى من تاريخها أكثر قربًا من أصولية ما وراء المحيط، وأصبحت مرادفًا للأصولية الكاثوليكية، وهي الحركة التي تمّ تأسيسها في إيطاليا في الستينيات على يد لويجي جوساني Luigi Giussani باسم إتحاد وحرية C L. وهذه الحركة تقتسم مع التيار البروتستانتي المحافظ ضرورة تعبئة الوجدان سواء ضدّ المدّ الإلحادي في المجتمع، وتلتقي معه سواء في بعض الأهداف السياسية (الحملة ضد الإجهاض، حماية الأسرة، التعليم الديني، وجود أقلّ للدولة في الاقتصاد وفي المجتمع)، أم فيما يتعلق بطريقة العيش Modus Operandi (تأسيس شبكة مدارس دينية، وجود في وسائل الإعلام ودور النشر، لجوء إلى تقنيات الاتصال).

ولكن التشابه يتوقف هنا، فالانتماء إلى الثقافة الكاثوليكية والأوربية قد وجه الإتحاد والحرية في اتجاه مختلف تمامًا عن اليمين الأمريكي، وحمايتها من السقوط في راديكالية فئوية.

وبعد الإعلان عن موت جوساني في فبراير ٢٠٠٥، علّق كبير أساقفة بولونيا مونسنيور كارافا Caraffa أنه مات معه شاهد كبير «أعطى من جديد المعنى الأصيل لمعجم المسيح».

---

[1] منذ عام ١٩٨٦ كانت الجمعية التي أسسها الأسقف المعارض باسم جمعية القديس بيوس العاشر بترسيم حوالي ٥٠٠ كاهن، وبعمل ست ندوات، وتشرف على حوالي ٥٠٠ كنيسة تقع في ٢٣ دولة، وتؤدي القداس باللغة اللاتينية (انظر: E. Pace, R. Guolo)

وأحدث مصادر قلق الأساقفة والقساوسة والمؤمنين التقليديين البسطاء، كان اعتذار يوحنا بولس الثاني على الملأ[1] عن أخطاء قديمة وخطايا، من اللاتسامح من جانب الكنيسة تجاه قضية جاليليو، وحتى معاداة السامية.

ألا يُعَدُّ هذا الاعتراف بالذنب مخاطرة بأن يكون سابقة وستتكرر في المستقبل للاعتذار عن مواقف تدافع عنها الكنيسة اليوم بلا هوادة؟[1]

لقد عاد التعصُّب الكاثوليكي، وفرض نفسه على الرأي العامِّ مع عرض فيلم «آلام المسيح» لميل جيبسون Mel Gibson.

وقد كان هدف إنتاج الفيلم، الذي تكلف جهدًا كبيرًا ونفقات طائلة، جدليًّا بالدرجة الأولى، وهو إنقاذ الرواية الإنجيلية حول القضية، وتخليص فيلم «يسوع الناصرة» مما تمّ اعتباره «تشوهات» ما قبل المجمع، والتي تَمّ عملها وفق ما هو صحيح من الناحية السياسية.

إن تصوير الساعات الاثنتي عشرة الأخيرة من حياة المسيح، من بستان الزيتون وحتى الموت على الصليب، كان دقيقًا لدرجة أنه استخدم فقط اللغة اللاتينية، أو الآرامية. وكان إنتاج الفيلم يهدف إلى التشبُّث بقوة بالمضمون التقليدي للعهد الجديد. وقد اعترضت التجمعات اليهودية على الفيلم. ولكن إذا نظرنا إلى الأمر جيدًا، سنجد أن أحداث الفيلم يتمّ عرضها بنفس الطريقة التي تحكى بها للأطفال في دروس التربية الدينية. ولا تختلف نبرة العرض السينمائي كثيرا عن عروض أخرى سابقة، وعن «العروش المقدسة» للجمعة المقدسة، التي تتابعت من جيل إلى جيل، وفي بلاد كثيرة من العالم، مثل العرض الشهير لفيلم «آلام المسيح» في مدينة[2] Oberammergau.

وقد أكدت ضربة المخرج والممثل الأمريكي على أن علامات استفهام قديمة كان من المعتقد أنها قد انتهت، عادت من جديد، بداية من السلطة المسئولة عن إدانة المسيح وحتى مظهره الجسدي.

مَن كان يتوقع أن تعود نظرية التطوُّر إلى الظهور من جديد في إيطاليا وتصبح محل جدل؟[3]

---

١ اانظر في الختام ج. راتسينجر، ب. فلوريس داركيه، هل الرب موجود؟، ملحق للعدد ٢٠٠٥/٢ من مجلة مايكرو ميجا ص ٢٧

[2] مدينة في مقاطعة بافييرا Baviera الألمانية (المترجم)

[1] أثار المرسوم التشريعي الصادر في ١٠ فبراير ٢٠٠٤ حول إصلاح المدارس، والذي يلغي من برامج التعليم أي إشارة إلى نظريات داروين حول الارتقاء، موجة من الاعتراض من جانب علماء مشهورين.

لقد ظلت النقطة الحرجة هي نفسها التي كانت في حقبة ظهور Higher Criticism: هل من الممكن تحقيق وتوثيق كتاب مقدس بنفس الطريقة التي يتمّ بها ذلك مع أي وثيقة أخرى من خلال إخضاعه لتحقيق تاريخي؟

إن من ينتقدون فيلم جيبسون على أنه غير صحيح تاريخيًّا، لم يفهموا أي شيء عن الأصولية. فلا يجب أن ننخدع بدقائق التفاصيل، التي قد تجعلنا نفكر في إعادة صياغة صارمة، وفي حقيقة الأمر، إن الأصوليين أو المتعصبين الذين يعتقدون أنهم «الأنقياء Puri» أيًّا كان معتقدهم- لا يهمُّهم كيف جرت الأحداث حقيقة، بل ما يهمهم هو الجوهر المقدس للأسطورة. فلو قال أحدنا لأحد الوثنيين اليونانيين أو الرومان: تعال معي نصعد جبل الأوليمب، وسأثبت لك أن جوبيتر غير موجود هناك.

لأجابنا ذلك الوثني: أنت لم تفهم شيئًا عن إلهي.

وهذا نفسه هو رد فعل المؤمن المعاصر على تأكيد رائد الفضاء الروسي جاجارين بعد عودته من مهمته الفضائية بأنه لم يقابل الإله.

وهكذا لا يهمُّ جيبسون الصلاحية التاريخية التي قد تثبت علميًّا، ولكن ما يصفه هو تصديق رواية الإنجيل للتُّراث، والحفاظ على الرسالة الروحية كما تمّ تناقلها.

وقد تمّ اقتباس حوار المسيح مع بيلاطس بالفيلم من إنجيل يوحنا: «فقال له بيلاطس مرة أخرى: هل أنت ملَك إذن؟ فأجابه يسوع: أنت تقول بأني ملِك. وأنا وُلدت أو جئت إلى العالم لأكون شاهدًا على الحقيقة».

فطرح بيلاطس سؤالاً أخيرًا ربما موجهًا إليه هو نفسه أكثر من كونه موجَّهًا إلى المتهم الذي أقامه: ولكن ما الحقيقة؟

وقد صرح جيبسون نفسه في مقابلة تيلفزيونية، إن الحقيقة التي يتطلع إليها وينشدها بعمله الفني، هي حقيقة اشتقاق الكلمة التي تَمّ التعبير عنها باليونانية «Aletheia» التي يعود جذرها إلى نهر Lethe، وهو نهر النسيان. إن الحقيقة لا تُثبِت صحَّة الأحداث ودقتها، بل الحقيقة هي شيء يجب ألا يُنسَى، «روحانية لا يمكن وصفها. ولم يتمَّ معايشتها». وهذا كان معنى تعليق البابا بعد حضوره عرض الفيلم: جرت الأحداث هكذا بالضبط.

ورغم الأمور الظاهرية، فإن الفيلم ما أريد له أن يكون ذا طبيعة وثائقية، بل على العكس هدفه إعادة تأكيد عدم المساس بما تمّ تناقله في Secula Seculorum.

في مواجهة من يُفتنون بالصرامة العلمية للأحداث، ويدققون في هذه التفاصيل التاريخية أو تلك، سنعيد طرح نفس السؤال الذي طرحته في نهاية القرن التاسع عشر بطلة الرواية التي ذكرناها Robert Elsemere: «ولكن إذا لم يكن ما تؤكده الأناجيل حول بيلاطس صحيحًا، بأنه غسل يديه من موضوع المسيح، فكيف يمكننا أن نكون على يقين من صحة ما يقولونه عن البعث؟».



الفصل الثاني عشر

حقائق القرآن

«دعوتنا دعوة أجمع مَا توصف به أنها (إسلامية)، ولهذه الكلمة معنى واسع غير ذلك المعنى الضيق الذي يفهمه الناس. فإنا نعتقد أن الإسلام معنى شامل ينتظم شؤون الحياة، ويفتي في كل شأن منها ويضع له نظاما مُحكَما دقيقًا، ولا يقف مكتوفًا أمام المشكلات الحيوية والنظم التي لاَ بُدَّ منها لإصلاح الناس. فَهِم بعض الناس خطأً أن الإسلام مقصور على ضروب من العبادات أو أوضاعٍ من الروحانية، وحصروا أنفسهم وأفهامهم في هذه الدوائر الضيقة من دوائر الفهم المحصور.

ولكنا نفهم الإسلام على غير هذا الوجه فهما فسيحًا واسعًا ينتظم شؤون الدنيا والآخرة، ولسنا ندّعي هذا ادّعاءً أو نتوسع فيه من أنفسنا، وإنما هو مَا فهمناه من كتاب الله وسيرة المسلمين الأولين».

حسن البنا

[الخطر الإسلامي – مواجهة لها وجهان – وحي محمد – حضارة جديدة من الهجرة – أسس الرسالة – طبيعة الله – عدم الاكتراث بأزمان التاريخ – القرآن تجسيد لكلمة الله (الوحي) – الأركان الخمسة – عالمية الدين والشريعة القرآنية]

الخطر الإسلامي

اختتم الجزء الأول من هذا الكتاب والمخصَّص للاتسامُح الدينيّ، بالدين الإسلامي، آخر الأديان السماوية الكبرى.

ولكن، ألم يكُن من الواجب أن نبدأ بالإسلام، نظرًا إلى أن المتطرفين الإسلاميين هم الذين يقتلون باسم الله؟

ها نحن ندخل في «الجدل الكبير» الذي احتل مكان الجدل الذي طالما غذى على مدار أربعين عاما في الغرب بين «الصقور» و«الحمائم»، وذلك في أعقاب نهاية الحرب الباردة (أي قبل أحداث برجيّ التجارة سبتمبر ٢٠٠١ بكثير)، كان الجدل قائما أو لا على التهديد السوفييتي، ويركز الآن على التهديد الإسلامي.

ومن ثم نجد في كل وسائل الإعلام، والكتب، والتحليلات السياسيّة، نفى الفكرة التي كانت قد جعلت الصهيونية بمثابة فزاعات، ثم بعد ذلك فزعت العالم من «الخطر الأصغر»، ثم في الختام من خطر الشيوعيّة الدولية، ثم نشأ «أدب الكراهية» الجديد الذي يرى الإسلام ليس إلاّ إيديولوجية شريرة «تعكس عداءً دائمًا تجاه بقية العالم» على حدّ قول أحد المقالات التي أنقل عنها مستشهدًا، والتي تجتهد من خلال قوة دفع جديدة، ووسائل جديدة في القيام «بحملة لاَ تهدأ منذ مَا يزيد على ألف سنة، لغزو سكان كوكب الأرض جميعهم وإجبارهم على اعتناق الإسلام»[1].

لا أحد ينكر أن هناك خطرًا قائما، كما كان يوجد هذا الخطر في حقبة الشيوعيّة السوفييتيّة، غير أنه يجب أن ننظر إلى هذا الخطر بموضوعيّة وفي إطار أبعاده الحقيقيّة. فالنقطة المحورية التي تنطلق منها موجة «الجدل الكبير» والتي تحدد منذ البداية مَن الصقر ومَن الحمامة، هي مَا إذا كان الحديث عن «الخطر الإسلامي» يجب أن نحصره فقط في التيّار الأكثر تشددًا، والمسيّس بقوة في العالم الإسلامي، أم يجب أن نتوسع فيه ليشمل الإسلام كله، بوصفه إطارًا ثقافيًا – دينيًّا يغذّى هذا النوع من التعصب.

إن الصور الذهنية للمسلمين لديهم والممزوجة بالخوف غير المبرر وعدم الثقة والتوجس من الآخر، لدرجة أنهم في أثناء فترة الحرب الباردة كانوا يصنعون من الحبة قبة ومن ثم ينعتون الأمة الإسلامية بأسرها بصفات شيطانية، ويؤكدون أن التطرف المتحفز المسلح ليس إلا رأس الحربة المتقدم لديانة تبدو عنيفة وعدوانية.

أما «الحمائم» فينضم إليهم طابور من الدارسين الذي كرسوا حياتهم للعالم العربي والإسلامي وأصبح لديهم معرفة كبيرة بالثقافة العربية الإسلامية ومن ثم قادهم هذا إلى تحليلات دقيقة وعميقة، وإلى بعض المخاوف، مقدمين إلى الجمهور العريض صورة تنزع إلى المثاليّة إلى حدّ كبير، فالأصولية، حسب رأيهم، وكذلك حواشيها، تبدو ظواهر شاذة ومنفصلة تمامًا عن القاعدة العريضة للمسلمين، ومن ثَم ستنحسر وتتوارى في المقام الأول داخل الديانة نفسها التي تنبثق منها.

---

[1] انظر بول فريجوس، الجهاد والغرب، كتب بروميتوسي، ١٩٩٧

وقد أصبح الجدل أكثر حدة في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ويوجد من بين الإيطاليين من يمثل طرفي النقيض، وهما كاتبان صحفيان شهيران: أوريانا فالاتشي Oriana Falalaci وتيتسيانو ترتساني Tiziano Terzani، وتمثل الأولى الصقور والأخر الحمائم.

فقد رأيت أوريانا وهى تعمل كصحفية (وقد كنت خلفها عام ١٩٧٦ وهى تجرى مقابلة صحفية شهيرة مع الجنرال نجوين نجوك لوان، قائد شرطة جنوب فيتنام السابعة والملقب بـ«جلاد سايجون»)، ولا أعتقد أنها يمكن أن توصف بالتسامُح، فالعدوانية تجرى في دمائها، وعندما تقتنع بشيء مَا، فإنها لاَ تلقى بالاً إلى الخلاف في وجهات النظر فقد أرسلت خطابًا من نيويورك إلى صحيفة الكورير دى لاسيرا، في أعقاب أحداث سبتمبر، تحول إلى كتاب فيما بعد. وقد تناولت في هذا الخطاب كل الموضوعات الرئيسيّة في أجندة الصقور، واستخدمت الأسلوب الاستفزازي لنزع أي هالة لقدسيّة الشهادة وإسقاطها عمن يفجرون أنفسهم، ولوصم ونقد الأصوليين الإسلاميين.

«يا إلهي! ألا تدركون أن أمثال أسامة بن لادن يعتقدون أنه مسموح لهم بقتلكم وقتل أطفالكم لأنكم تشربون الخمر والنبيذ، ولأنكم لاَ توفرون لحاكُم، ولا تلبسون الشادور، بل البرقع، ولأنكم تذهبون إلى المسرح والسينما، ولأنكم تستمعون إلى الموسيقى وتغنون الأغاني، ولأنكم ترقصون في صالات الديسكو، أو في بيوتكم، ولأنكم تشاهدون التلفاز، ولأنكم تلبسون الجيبات القصيرة، والبناطيل القصيرة، ولأنكم تكونون عرايا أو شبه عرايا على الشواطئ أو في حمامات السباحة، ولأنكم تمارسون الجنس عندما وحيثما ومع من يروق لكم»[١]

وإذا مَا أمعنا النظر في مَا قالته فالاتشي، فإنه يبدو جليًّا أن مَا قالته يعد بمثابة موجة، ليس فقط ضدّ المتطرفين، بل ضدّ العالم الإسلامي بأسره، وفق قالب نمطي مألوف لهذا النوع من الهجوم.

فمن وجهة نظرها لاَ يمثل أسامة بن لادن شخصًا متزمتًا، وأعماه التعصب اللامحدود، بل صورة شاملة تمثل إسلام القرن الحادي والعشرين. وتؤكد فالاتشى أن الإسلام يقوم بـ«حملة صليبيّة مقلوبة» وبـ«حرب مقدسة» ربما لاَ تهدف إلى السيطرة على أرضنا (ربما؟)، ولكن تهدف بالتأكيد إلى الهيمنة على نفوسنا، وإلى القضاء على حريتنا وحضارتنا[٢].

إن ازدراء «ديانة العصور الوسطى» وازدراء «البربر الذين بدلاً من أن يعملوا ويسهموا في تقدم البشريّة، يظلون منكفئين ومقعدة كل واحد منهم في الهواء يصلون

---

[١] أوريانا فالاتشي، الغضب والكبر، ريتسولي، ميلانو ٢٠٠١، ص ٧٩.
[٢] المرجع السابق ص ٧٨.

خمس مرات في اليوم» أصبح موضع فخر لكاتبته (يضايقني مجرد الحديث عن ثقافتين، ووصفهما على نفس المستوى كما لو كانا واقعين متوازيين).

إن محصلة حديث مثل هذا لن تكون إلا اللاتسامُح:

«... التعامل مع هؤلاء الناس مستحيل. النقاش معهم مستبعد والتعامل معهم بتسامح أو رحمة أو أمل هو انتحار، ومن يتصور عكس ذلك فهو واهم»[1].

أما تيتسيا نوترتساني فقد تعرفت عليه بصورة خاطفة منذ سنين عندما كان مراسلاً لمجلة «دير شبيجل»، وكان يتجول عبر المناطق الساخنة في آسيا، وكان يشبه آنذاك – في نظري– حتى في صفاته الجسمانية، أحد حكماء الهيمالايا الذين كان مبهورًا بهم للغاية، وكان رده غير المباشر على فالاتشى هو الآخر في صورة خطاب تحول هو الآخر إلى كتاب فيما بعد، وكان الخطاب يعج بألفاظ ونبرات «الحمائم»، فقد كتب ترتساني قائلاً: «يبدو لنا غريبًا للغاية أنه يوجد في العالم اليوم عدد متنامٍ من الأشخاص لا يتطلع إلى أن يكون مثلنا، ولا يستشرف أحلامنا، ولا يملك طموحاتنا ورغباتنا»، ويرى ترتساني أن مشكلة التطرف الإسلامي يجب وضعها في إطار مأساة حضارة كبيرة وقديمة –مثل الحضارة الإسلامية– تَمّ تهميشها على الدوام، وقهرها على يد الغرب، وهى تحاول أن تدافع عن هويتها أو إيجادها، متأرجحة بين التغريب تارة، والاحتماء بالتراث تارة أخرى.

إن الرسالة التي يطلقها من خلال كتابه والمتناقضة تمامًا مع رسالة فالاتشى، يمكن تلخيصها في جملة واحدة تحدد بإيجاز الطريق الذي يبدو له أنه أكثر منطقيّة ومن ثم يتعين السير فيه: «مساعدة المسلمين أنفسهم على عزل حواشي الأصولية بدلاً من جعلها عنيفة ووبائية، وعلى إعادة اكتشاف الجانب الأكثر روحية لإيمانهم»[2].

وفي هذا النزال عن بعد بين الاثنين، كانت الغلبة لرسالة الكره التي تبنتها فالاتشى، والتي انطلقت إلى أبعد من ذلك وقد تشجعت بالنجاح الذي لاقته، فحولت خطابها الأصلي أولاً إلى كتاب (دخل سريعًا إلى قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في العالم، وترجم إلى لغات عديدة وتم عرضه بشكل أنيق في كل مكتبات نيويورك)، ثم حولته بعد ذلك إلى ثلاثية تبلغ ذروتها في إعادة كتابة سفر الرؤيا وفناء العالم والذي يمثل فيه الإسلام صورة الحيوان. ولم يفت الناشر الذي عرف من أين تؤكل الكتف، أن يضع الكتاب في علبة أنيقة ثم وضعها تحت شجرة أعياد الميلاد في مناسبة الكريسماس.

---

[1] المرجع السابق ص ٧٩، ٨٥، ٩١

[2] تيتسيانو ترتساني، رسائل ضدّ الحرب، لونجايتري، ميلانو ٢٠٠٢، ص ٤٢، ٨٨.

هل تثير موجة استحسان الكتاب وقبوله الدهشة؟

بالتأكيد يعود جزء من الاحتفاء بهذا الكتاب إلى ملكات الكاتبة فالاتشى التي تعرف كيف تنقل للقارئ شحنتها العاطفية. غير أن جزءًا كبيرًا من استحسان هذا الكتاب يرجع إلى أن رسالته -شأنها شأن كل رسائل عدم التسامُح- تمسّ مجموعة دوافع كافية يمتزج فيها السخط على مظاهر رجعية وظلامية لثقافة لاَ تزال غريبة علينا، بالاستعلاء، لأننا مختلفون، وكذلك، وقبل كل شيء، بالضيق من هذا الاختلاف.

اختلاف يثير من جديد مخاوف قديمة نجدها مَا زالت موجودة في بعض الأغاني القديمة... (ويحي! وصل الأتراك إلى الساحل!) وفي بعض الأقوال الشعبيّة «يسب مثل الأتراك!»، ولكن أوربا سكتت عنها مؤقتًا طوال الحقبة التي تحول فيها العالم الإسلامي من أرض غزاة إلى أرض تتعرض للغزو، والآن يبدو أن هذا العالم يستيقظ من سبات طويل، وتستيقظ المخاوف كذلك.

مواجهة لها وجهان

كانت العلاقة بين المسيحيّة والإسلام، كما أسلفنا في معرض حديثنا عن الحروب الصليبيّة، ذات وجهين منذ بداياتها، فطالما أثارت الحضارة الجديدة على حدود العالم المسيحيّ الإعجاب ودعت إلى التبادل لأنها كانت متفوقة على أوربا، ليس فقط في التحضُّر، بل أيضًا في مجالات كثيرة للعلوم والتقنية، وذلك حتى مجيء الثورة الصناعيّة.

ومن الناحية الأخرى كان وجود قوة عسكرية، وسياسيّة، واقتصادية، يثير شعورًا بالتهديد، تزايد بعد مجيء العثمانيين، إذا لم تكُن موجات المد الإسلامي قد انحسرت مرة عند جبال البرانس غربًا، ومرة أخرى وبعد ألف سنة عند أبواب فيينا غربًا، فماذا كان سيحدث لأوربا المسيحيّة؟

إن الواقع التاريخي يخبرنا أنه لطالما كانت هناك تبادلات تجارية وثقافيّة ودبلوماسية بين العالمين أكثر من المعارك العسكرية. ويعتبر مؤرخون بارزون أن الصراع الأبدي بين المسلمين والنصارى حتى آخر قطرة دم ليس إلا «مثيولوجيا سياسيّة» أو خرافة سياسيّة.

فقد كتب فرانكو كارديني قائلاً: «لقد تباغض وتقاتل الفرنسيّون فيما بينهم في الحرب الدِّينيّة ثم في الحروب الثورية، وكذلك الحال بالنسبة للفرنسيّين والألمان على ضفة نهر

ألرابن، وكذلك الإسبان والإنجليز، للسيادة على المحيط الأطلنطي، أكثر من تباغض وتقاتل المسلمين والنصارى على مدار ألف سنة من المواجهة، بين القرنين الثامن والثامن عشر»[1].

غير أن الخلاف الدينيّ يمثل -على الصعيد النفسيّ- عامل انقسام يصعب تجاوزه، وغذّى الخوف والتوجس وضخّم إلى حدّ كبير في نفوس الأوربيّين أكثر من «الكافرين» تلك التداعيات السلبيّة التي تتكون تجاه الآخر المختلف، والتي تقاوم أي محاولة إيجابية.

وتلاحظ كارين أرمسترونج أن الإسلام ظل يمثل بالنسبة لأوربا المسيحيّة «ظل الذات» الذي كان يتيح تفريغ الكبت أمام القلق والشكوك الدفينة في أعماق الضمير حول المعتقدات والسلوكيات الخاصّة «بالصورة التي كان يعتقد الأوربيّون أنهم ليسوا عليها، وصورة كل مَا كان يخشى الأوربيّون أن يكونوا عليه».

وهناك ديانات أخرى كبيرة، كالبوذية، لم تكُن مرهوبة هكذا لأنها بعيدة، ولأنها كانت تعتبر بمثابة ديانات غير حقيقيّة ولكنها نظم فلسفية، أما الديانة اليهوديّة فقد تَمّ قبولها بوصفها الديانة الأم التي كانت تمثل الديانة المسيحيّة خطورة متطورة لها، أما ذنب الإسلام فكان أنه جاء بعد المسيحيّة، وأن الإسلام زعم -وهذا مالا يمكن احتماله- أنه تطوُر للمسيحيّة، كما كانت الديانة المسيحيّة تطورًا للديانة اليهوديّة.

إن نقد المسلمين لم يكُن موجهًا قط إلى السيد المسيح عليه السلام، ولكن كان موجهًا إلى الكنيسة المسيحيّة التي استولت على روما واستسلمت أمام الوثنية والشرك الإغريقي، فالإسلام كان يتمتع بقوة تجعله قادرًا على إحياء دين إبراهيم الخالص، وتبرئة دين الخليل إبراهيم من خيانة الوحي الذي أنزله الإله الواحد الحقّ، وقد بلغ الإسلام من القوّة بحيث لا يمكن وصمه بما توصم به الهرطقة والزندقة، غير أن الكنيسة قد تجاوزت حدود المعقول فاختارت الطريق الوحيد الذي كان سلوكه ممكنًا بالنسبة إليها، ألا وهو إنكار أن يكون هذا الوحي الثالث أي أساس أو عنصر إيجابي، وكان محمد مخادعًا، وواحدًا من مدعى الرؤيا المزيفين الذين استغلوا سذاجة الناس البسطاء، وقد كان ادعاء محمد بأنه جاء مكملاً لرسالة المسيح أكذوبة وتشبه السباب، حيث إن شخصيّة محمد، بوصفه رئيسًا لقبيلة كانت قد قامت بأعمال حربية دموية، مليئة بالتناقضات»[2]

وحتى الطريقة التي يتمّ بها تصوير هؤلاء «الأعداء» تميل إلى تجريد هؤلاء الأعداء من أي انتماء إلى معتقد ديني جدير بالاعتبار والاحترام، فقد أُطلق عليهم لوقت طويل

---

[1] فرانكو كارديني وجاد ليرنر، شهداء وقتلة، ريتسولى، ميلانو، ٢٠٠١، ص ٤٦.

[2] ك. أرمسترونج، هل كان حتميًّا؟ في كيف حدث ذلك؟ الإرهاب والحرب الجديدة، طباعة جيمس ف. هاى جر وجيديون روز، مجلس العلاقات الخارجية، ٢٠٠١، ص٥٣.

«السرانتشين» saraceni، وهو لفظ اشتقاقه غير مؤكد، وربما رجع إلى عصر ما قبل الإسلام الذي قد يشير إلى انتماء عرقي، وأطلق عليهم فيما بعد «الموريسك»، وهي كلمة نشأت في إسبانيا لتشير إلى قدوم الغزاة من المغرب، وفي النهاية أطلق عليهم «الأتراك» أو «التتار».

لقد امتلأت إشارات الكُتّاب الأوربيّين إلى الدين الإسلامي بالأكاذيب والافتراءات، مقصودة أحيانًا ولكنها ترجع إلى السطحية وإلى الجهل في أغلب الأحيان.

وفي «أنشودة رولان» يوصف محمد وأبولين وترفاجانت، وهما شيطانان، بأنهم «الثالوث الأسود المضاد»، ويحتوى «الكتاب المزيف لمحمد العربي»، الذي كتبه نيتشيتا البيزنطي، على معلومات غريبة، كتلك التي تقول إن القرآن يصور الله «مستديرًا كله» أو «كمعدن مسحوب»[1]

إن الرؤية المبسطة للإسلام بوصفه صورة مقلوبة ومشوهة للمسيحيّة ستدوم طويلاً.

فكما كان المسيح مؤسسًا ذا طبيعة إلهية للدين المسيحيّ، هكذا كان ينظر إلى محمد كمؤسس مقدس للدين الإسلامي. وكان يطلق على أتباع محمد «المحمديون»، وهو تعريف كان لاَ يزال شائعًا عندنا، على الرغم من أن المسلمين يعتبرون أن مفهوم تأليه النبي محمد هرطقة والمساجد كانت تعتبر شبيهة بكنائسنا، ويوم الجمعة نظير يوم الأحد، والعلماء نظراء القساوسة، وهكذا، مغذية بذلك وعلى الدوام شبهات جديدة، ومغالطات متبادلة[2].

وحتى اليوم ومع الانفجار الهائل في المعلومات ووسائل الاتصالات ومع كل الذي يحدث في تلك الأقاليم الإسلامية، فإن معرفتنا بالعالم الإسلامي تظل سطحية للغاية. وحتى الذين يتمتعون بقدر من المعرفة يدهشون لأن المسلمين يحتلون الدور الرئيسيّ أو يمثلون العنصر المحرك في أزمات دولية كثيرة، كأزمة البترول، والصراع العربي الإسرائيلي، والثورة الإيرانية، وغزو الكويت، والحروب الأهليَّة في البوسنة وكوسوفو، والتوترات داخل الإمبراطورية السوفييتيّة السابقة، وفي الصين، وفي كشمير، وفي أفغانستان على سبيل المثال لاَ الحصر. ولكن مَا يدعونا إلى الدهشة هو أننا أوليناا باستمرار اهتماما غير كاف لواقع وعالم يخص أكثر من مليار شخص، من السلاف حتى البربر، ومن العرب حتى الماليزيين، ومن الأتراك حتى الإندونيسيين، ومن الفرس حتى الباكستانيين.

---

[1] بنيامين ز. كيدار، الحرب الصليبية والمهمة Crociata e missione، يوفينس، ١٩٩١، صـ٣٦.
[2] برنارد لويس، Islam and the West، طباعة جامعة أوكسفورد، ١٩٩٣، صـ١٣٣

وقد كان Arnold Toynbee واحدا ممن تنبؤوا منذ الخمسينيات بأن الإسلام سيكون القوّة الكبرى الصاعدة التي سيتعين على حضارتنا مواجهتها قبل نهاية القرن. إلا أنه لزم مرور سنوات كثيرة ووقوع أحداث مدوية حتى ندرك أن المؤرخ الإنجليزي الكبير كان على حق.

إن علاقتنا -نحن الأوربيّين- بالإسلام، تظل رغم كل شيء مزدوجة كما كانت تقريبًا في وقت فتح القسطنطينية. فنحن نعلن من جانبٍ تشابهنا الثقافيّ مع الشعوب المسلمة بحوض البحر المتوسط، ولدينا علاقات قوية وعلى كل الأصعدة معهم، ونوفر فرص العمل للملايين منهم في بلادنا، ونحن مستعدون حتى لقبول انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوربيّ، وتركيا هي كابوس أوربا القديم. ومن الناحية الأخرى نثير باستمرار هذا الكابوس تحت عباءات جديدة ونجترّ دائمًا تلك الصور النمطية حول دين محمد.

كيف نستطيع الخروج من خضمّ الأحكام المسبقة والتناقضات، ونتجاوز بلا رجعة الفارق المزيف، إذا مَا كان يجب اعتبار دين القرآن المحرك الكبير، أو الضحية الكبيرة، للتطرف الإسلامي؟

إن معالجة هذه المشكلة في الختام ستتيح لنا العثور على كنز من المعلومات كمحصلة لما عرفناه أو اكتشفناه حتى هنا حول التطرف الدينيّ. فإذا مَا كان يثور سؤال في مواجهة بعض الجرائم التي تُرتكب باسم الله مفاده: «هل الإسلام هو دين الرحمة أم دين الجهاد؟»، فهناك حالات أخرى تبرر السؤال التالي: «هل الديانة اليهوديّة هي ديانة الوصية التي تقول: (لاَ تقتل) أم هي ديانة (العين بالعين والسن بالسن)؟ أو السؤال الذي يقول: (هل ديانة المسيح هي ديانة «أحب عدوك»، أم ديانة «محاكم التفتيش»)؟».

إن الجولة التي قطعناها في دروب اللا تسامح الدينيّ يجب أن نتعلم منها شيئًا على الأقل، وهو أننا لن نستطيع أبدًا إيجاد ردود شافية على شكوكنا حول ميل هذا الدين أو ذاك إلى التعصب، معتمدين فقط على المظاهر الشكلية وعلى النصوص المقدسة.

هل الإنجيل الذي يدعو بقوة إلى العفو وحب الآخرين، منع علماء اللاهوت من الاعتراض على استخدام القوّة في سبيل إعلاء مجد الرب «Od Majorem Dei Gloriam» أو منع القساوسة من مباركة المَدافع؟

وبالمثل أيضًا فأمام كل آية في القرآن تحث على الرحمة والشفقة، يمكن أن نذكر آيات أخرى تحث على إبادة أعداء الله، وفي مواجهة كل موضع يحض على الكرم والإخاء، يمكن أن نشير إلى مواضع أخرى للعنف والقسوة.

ومثلها مثل أي ديانة أخرى، أو أي إيديولوجيه، فالعقيدة الإسلامية مسؤولة عن إذكاء الاتجاهات الراديكالية، والأعمال الإجرامية، حتى وإن كان بصورة غير مباشرة وعن غير قصد.

ويتعين على كل واحد منا في مجال دقيق ومعقد هكذا أن يحاول أن يتحلى بالحد الأدنى من المعرفة حتى لاَ يقع فريسة للأحكام المسبقة المغلوطة دائمًا والتي ترتبط بتحقيق مآرب سياسيّة.

وفي مَا يخصني، لاَ أستطيع عمل شيء سوى أن أحيد القارئ وأسير في طريقي الذي حددت معالمه لأرى بوضوح أكثر هذا الدين الذي مدحه المادحون وقدح فيه القادحون، وأن أستخلص الفائدة من قراءاتي الكثيرة، ومن لقاءاتي مع خبراءَ وأهل ذكر لأسباب تتعلق بالعمل، وذلك حصاد أربع سنوات من إقامتي ببلد عربي.

وحي محمد

إن كون محمد أكثر قربًا إلينا منذ عدة قرون من مؤسسي ديانات أخرى كبيرة، ورغم توفر معلومات كثيرة عنه لدينا، فإن ذلك لاَ يعني أن ملامحه التاريخيّة محدودة (ملموسة) بوضوح. ولكن من يستطيع الاطلاع على سيرة دقيقة وتفصيلية لعالم كبير؟ إن الوجدان الشعبي قد جنح إلى تعظيم شخصه، وأضفى عليه أبعادًا أسطورية جمة.

والأمر ذاته ينطبق على المسيح، فتاريخ مولده غير مؤكد، والقليل الذي نعرفه عن فترة طفولته وشبابه يغلفه في هالة من الأساطير[١]

فمحمد لاَ يرى فيه أتباعه صفات إلهية، فهو فقط رسول، ونبي (بالمعنى العربي لكلمة رسول، أي مرسَل).

وفي واقع الأمر أن حياتهم لاَ تجعلنا نفكر أحيانًا في الأنبياء ولكن تدفعنا أكثر إلى التفكير في ملوك التوراة وفي رجال الله (الربانيين)، ولكن أيضًا في الرجال صانعي الأحداث الذين يكونون كرماء أحيانًا، وأحيانًا أخرى لاَ يكلّون ولا يتعبون، ولا يخلون من سمات الضعف البشريّ ولا يقاومون سحر النساء، ويجيدون فنون القتال، ودهاة في إدارة شؤون الدولة.

---

[١] من بين السير العديدة التي كتبها غربيون، واحدة تعد من أحدثها لكارين أرمسترونج، وقد ظهرت باللغة الإيطاليّة عام ٢٠٠٤ Maometto Vita Del Profeta، دار نشر ساجاتورة، ميلانو.

ويبدو من المقطوع به أن محمدا وُلد في مكة عام ٥٧. ميلادية تقريبا، وأنه نشأ في ظروف اقتصادية ليست غاية في الرخاء، ورباه جده ثم عمه، وهما ينتميان إلـى قبيلـة قريش القوية التي أسهم أعضاؤها –ومعظمهم يشتغلون بالتجارة– في جعل المدينة مركزا مزدهرا للتبادل التجاري. ولما ناهز العشرين من عمره عمل بالتجارة لدى أرملة غنيـة تزوجها في النهاية، وقد أتاح له التغيير في وضعه الاجتماعيّ وما تبعه من رفاهيـة أن يتفرغ للعزلة والتأملِ لفترات طويلة.

واللحظة الحاسمة التي حددت ملامح بعثته كانت في الوحي الذي هبط عليه في الليلة المباركة «ليلة القدر» من شهر رمضان سنة ٦١٠م والوحي القرآني يعد بمثابة تنزيـل، ومنحة من الله أنزلها على الناس كالمطر المبارك.

ويستحق الأمر أن نستشهد بأكثر الفقرات شهرة والمستوحاة مـن تجربـة التحنـث والعزلة لأنها ستعطينا فكرة سريعة عن أشكال الدراماتيكية الشعرية التي يـستلهم منهـا التراث القرآني الغنى والممتد.

وقد ذهب محمد الذي كان في قمة نضجه آنذاك مع أسرته إلى جبل حـراء ليقـوم بعزلة روحية. وقد جاء ذكر الحدث المعجز في سيرة ابن إسحاق (وهو أول كتاب عـن سيرة النبي) على لسان البطل ذاته...

وبعد أن استراح محمد قليلاً ظهر له الملَك مرة ثانية ونطق بالجملة التي تعد بدايـة بعثته والتي أصبحت بعد ذلك السورة رقم ٩٦ من القرآن الكريم «الآيات ١: ٥» وهـى أول سورة نزلت من القرآن الكريم: «اقْرأْ بِاسْمِ ربِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ».

«فنهضت –يستمر من تلقّى الوحي في الرواية– وقد ثبت في قلبي كما لو كان شيء حفر في هذا القلب، فخرجت من الغار، وعندما كنت في وسط الجبل سمعت صوتا يقول: [يا محمد إنك رسول الله وأنا جبريل]. ففتحت عينيّ ورأيت جبريل علـى هيئـة رجـل جالس يسد أفق السماء، فظللت ساكنا أرقب دون أن أتقدم خطوة أو أتأخر. وكلّما صرفت نظري عنه كنت أراه في الأفق حيثما وجهت نظري»[1].

..

[1] وفي مصادر أخرى يذكر كدليل على البعثة فقرة أخرى مستوحاة من القرآن الكريم وهى السورة رقم ٧٤ الآية الأولى التي تبدأ بقول الله: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ». انظر: أ. دى نولا: L'Islam، تينوس كومبتون، روما، ١٩٨٩، صـ٢٣.

حضارة جديدة من الهجرة

إن الدعوة التي أعقبت تلك الرؤى كانت مقصورة في البداية على دائرة صغيرة من الأقارب والأصدقاء. ولكن هذا الشكل الخفي للدعوة أثار ردّ فعل المجتمع المكي. فلم يستطع سادة المدنية أن يتفرجوا على بزوغ نجم نبي مدّعٍ يهدد الإجماع الدينيّ الذي كان بمثابة الفخر الكبير لملتقى طرق التجارة، ولرؤساء القبائل الذين يحملون ثقافات مختلفة، وأعراقا ومعتقدات شتّى. ولقد غذّى معارضة الدعوة الجديدة -فضلاً على التوجس العملي- الخوف من الانسلاخ والانفصال عن دين الآباء، الأمر الذي كان قد أثار من قبل مقاومة الشرك للتوحيد المسيحيّ.

ومما يؤكد هذا القول أن أفراد قبيلة محمد أنفسهم، وهى قبيلة قريش الذين كانوا يستمدون مكانتهم وقدرهم ليس فقط من الرواج الاقتصاديّ ولكن أيضًا من تقاليدهم، أصبحوا هم ألدّ أعداء محمد الرئيسيّين.

فبدءًا من عام ٦١٩ وبعد وفاة الزوجة، وعمه العجوز، اللذين كانا يمثلان بالنسبة إلى محمد سندًا ماديًّا ومعنويًّا قويًّا، ساءت العلاقات بين محمد والأوساط المؤثرة في مكة، ربما أيضًا بسبب انعدام الثقة الذي نجم عن اعتناق بعض الشخصيات ذات المكانة الكبيرة للدين الجديد، لدرجة أن محمدًا وجد نفسه في نهاية المطاف مضطرًا إلى الجلاء، ومن ثم هاجر مع أتباعه عام ٦٢٢ إلى الشمال، إلى مدينة يثرب، التي أصبحت من وقتها المدينة، ويطلق عليها مجازًا «مدينة النبي».

وهذه الهجرة -والهجرة لفظة تعنى «الهروب» و«الانفصال» معًا[١]- تُعتبر أهمّ أحداث التاريخ الإسلامي. وقد أعلن الخليفة الثاني عمر[٢] تأسيس عصر جديد انطلاقًا من حدث الهجرة.

وكما نلاحظ فإن المسلمين في العالم أجمع يؤرخون بهجرة محمد بدءًا من عام ٦٢٢م، كما يؤرخ النصارى بمولد المسيح. والهجرة تعتبر حدث الأحداث لأنها تمثل منعطفًا حاسما وبداية حقيقيّة لانطلاقة الدين الإسلامي الذي انطلق تتشكل معالمه بعد ذلك في مسار بطيء وشاق.

وانطلاقًا من المرحلة المدنية، لم يعد محمد فقط مرشدًا دينيًّا ملهما، بل كان أيضًا قاضيًا، ومشرِّعًا، وقائدًا عسكريًّا، وقد أظهر - وهو على رأس حركة صاعدة- شجاعة

---

[١] أ. دى نولا L'Islam، مصدر سابق، ص ٣١.

[٢] ورد على سبيل الخطأ في الكتاب أن عمر بن الخطاب هو الخليفة الأول (المترجم).

المقاتل، من خلال قيامه بعمليات حربية ضد أعدائه، كما أظهر أيضا مهارة الدبلوماسي في حل الظروف المعقدة، وتسوية النزاعات الداخلية والخارجية.

وقد برز من بين الأحداث الفاصلة حدثان على الصعيد العسكري والدبلوماسي: الانتصار في غزوة بدر عام ٦٢٤م، التي انتصر فيها على جيش مكي يفوق عدد المسلمين، وتوقيع صلح الحديبية عام ٦٢٨م، ذلك الصلح الذي فتح الطريق أمام فتح مكة بصورة سلمية عام ٦٣٠م.

وبعد موته بسنتين، لم يكُن محمد قد انتقل في خلال عشر سنوات من رئيس مجموعة من المتمردين، إلى قائد سياسيّ لوسط وغرب الجزيرة العربية، بل كان قد أرسى قواعد دين حقيقيّ، بل قواعد حضارة، «نظام حياة كامل» كما يقول أتباعه[1].

أسس الرسالة

إلى أي شيء يرجع هذا النجاح السريع والمدوي؟ يعود بلا شكّ إلى الخصال الشخصيّة للمؤسس، والكاريزما التي كان يتمتع بها، واستعداده للاتفاق، ولقدرته على اقتناص الفرص السانحة، وعلى التفاوض والاتفاق مع خصومه، سواء حول الأرضية السياسيّة أو حول المبادئ الدِّينيّة.

غير أن العقيدة التي نشرها لم تكُن لتستطيع أن تحتل جزءًا كبيرًا من العالم المعروف، وأن تستمر طويلاً، لولا أنها كانت تمتلك سمات خاصّة قادرة على أن تتسلل إلى حنايا الضمائر.

إن دعوة محمد بدأت -كما حدث مع دعوة المسيح- في فترة تاريخيّة ملائمة لقيام ثورة دينيّة.

إن بيئة القوافل والبدو (والأخيرة تعني بالضبط «العربي»)، التي كان يعيش فيها محمد، كانت تنفتح -من خلال التبادل التجاري والاتصالات مع مَا وراء الحدود- نحو روحانية جديدة، ونحو الفضائل الجديدة التي تقوم على فكرة الإله الواحد.

ومع ذلك فقد بدأ النزاع بين اليهود والنصارى، وبين الفرق النصرانية المتعددة بالنسبة للناس البسطاء والمخلصين، بمثابة أصداء بعيدة للانتقادات بين العلماء، وذوى النفوذ يصعب اتباعها.

---

[1] جون ر. هنلز، Le religioni viventi، المجلد الأول ص ١٤٦، ١٤٧.

ومن ثم كان من الضروري واللازم وجود رسالة مباشرة تركز أكثر على مـا هـو أساسيّ دون النظر إلى تلك الطلاسم واللوغاريتمات التي تجهد العقل، ولا تهز المشاعر. خلاصة القول أنها رسالة مفصلة بالمقاس لشعوب الصحراء.

لقد كان محمد وهو يعمق تجربته التحنثية، قد أظهر فهما عميقًا، وانفتاحًا ذهنيًا غير عادي، فقد كان لديه الوعي وهو يضع أسس الديانة الوليـدة علـى أركـان اليهوديّـة والنصرانية، بتضمينها عناصر تراثية تمثل جزءًا من الموروث الروحـي للنـاس فـي الجزيرة العربية، مثل تعظيم «الكعبة»، و«الحجر الأسود الأسطوري الـذي هـبط مـن السماء»، والإيمانِ بالجن التي تتغير أشكالها وتختفي مَا بين التلال والكثبان. وقد سـلك محمد طريقًا عميقًا للغاية، إذا أثبت أنه في تناغم مع الينابيع الروحية العميقة لأهله فـلا يمكن تجاهل الطبيعة في شبه الجزيرة العربية، ففي هذا الجزء من العالم، البعيـد عـن المدن الكبرى، والمعابد المنيفة حيث يقوم الكهنة بالطقوس المعقدة وهـم يرفلـون فـي الملابس الفاخرة، كان الشعور بالشيء المقدس و«المعجزة» في مواجهة مَا وراء الطبيعة يتفجران بتلقائيّة من السكون الذي يلفّ الصحراء، ومن تأمّل صفحة السماء التي تزينهـا النجوم.

وتحكى الأسطورة أن طفولة محمد كانت بين الخيام، يمرح في البادية مع أمه التـي تبنّته "حليمة"، وكان يتعين عليه فيما بعد بوصفه رئيسًا للقوافل أن يقضي الليالي الطوال حول نيران أماكن المبيت وهو يقطع المفاوز إلى مَا وراء حدود أرضه التي نشأ فيهـا، وأن يلتقي وجهًا لوجه بثقافات وأنماط حياة شعوب أخرى أكثر تطـورًا... فهـل كـان لمعرفته بالتعاليم المسيحيّة من خلال الأناجيل وتكريز بعض القساوسة السوريين الـذي يفوح برائحة الهرطقة، دور في الطريقة التي فسر بها الوحي الإلهي؟ من يعلم؟ لعل مَـا تعلمه يظهر إدراكه بأن سكان الواحات كانوا ممتلئين بنفس الإحساس الذي كـان لـدى الناس بالريف تجاه الكائنات غير المرئية التي تختفي في الظواهر الطبيعيّة.

إن أفراد القبائل البسطاء الذين كانوا يهرعون إلى سماعه لم يكونوا يعرفون معـدّل المحاصيل، واتجاهات الفيضانات، وإرهاصات زلزال، بل كانوا معتادين -ليس أقل من أهل الحقول، أو أهل البحار- على ملاحظة علامات الأرض وتأمُّل السماء ليهتدوا إلـى طريقهم وسط الرمالِ، ولاكتشاف واحة، ولحفر بئر. وقد كانوا كذلك يدركون كم هو مهم أن يحظوا، إن لم يكُن بدعم، فعلى الأقلِّ بحياد الكائنات الغامضة التي تتحكم في تـنفس الطبيعة، بدءًا من القمر إلى حركة النجوم، ومن وقت الإخصاب إلى طول فترة الحمل.

يمكننا أن نتخيل فقط بعض الدوافع التي أنعشت شحنة الرؤى لدى خـاتم الأنبيـاء، ولكن بعيدًا عن أي افتراض مفاده أن النسخة الأخيرة للتوحيد الذي كـان يـدعو إليـه

وبنشره هو تجاوز للديانتين الأخريين، النسخة «القطعية»، كما كان يقول، كانت تفجر بصورة واضحة الإلهام الشعري، وأسس الأسطورة mithos الخلابة.

طبيعة الله

من بين الأجزاء ذات الدلالة التي يمكن أن نعددها عن الدين الإسلامي، أن الإسلام على خلاف الديانتين السماويتين الأخريين لم يحدد تمامًا العلاقة مع «الفلسفة الأبدية»، وبالأخص طريقة التعامل حول اللا تسامح.

هذا الشق يضفي على التوحيد الصارم في القرآن مرونة غير متوقعة حول generic، الأمر الذي يجعله جذابًا للنفوس البسيطة في هذا العالم، تلك النفوس التي -مثلها مثل بدو الصحراء- لم تصل إلى فهم التراكيب اللاهوتية المعقدة وطبيعة الله المجردة والبعيدة، تمثل رابطًا أساسيًا بين الإسلام والقاسم المشترك للديانات الكبرى القديمة.

فالله ليس إلا الكلمة العربية لـ«رب»، الإله (ألاه باللغة الآرامية لغة المسيح)، الذي يطلق عليه مجازًا الرب «الواحد»، العظيم.

فالله هو إذن رب كل البشريّة، هو رب اليهود ورب النصارى، وهو مع ذلك يقترب أكثر من المفهوم الوثني للإله الواحد غير المعروف، والبعيد عن الأحداث الإنسانيّة[1]، أكثر من كونه يشبه يهوه أو أبانا الذي في السماء الواحد والثالوث، فالله هو المطلق، الواحد، باطن تمامًا، ولكنه ظاهر أيضًا، والله ليس كائنًا محضًا، ولكنه أيضًا اللامحدود، ولا يمكن أن يقال عنه شيء دون تحدد ماهيته المطلقة واللامتناهية، والتي تتجاوز أي تحديد[2].

ويهوه، على الرغم من كونه لاَ يُدرَك إلى حدّ أنه لاَ يستطيع حتى مجرد أن يُذكَر، على الرغم من أنه تحدث مباشرة إلى إبراهيم وإلى موسى، وإلى أنبياء كثيرين، فإنه ظهر على تابوت بني إسرائيل، وظهر في النهاية مع المسيح، في الإنسان بصورة غامضة وحميمة، فأصبح الابن وابن الإنسان.

أما الله فعلى العكس لم يتحدث مطلقًا إلى محمد، ولا إلى أي بشر. وإنما يفعل ذلك وسيط باسم الله ملكٌ، فإله المسلمين ليس هو الإله المتحكم لدى اليهود، وليس الأب المحبوب لدى النصارى، وإنما هو إرادة كونية مجردة يجب أن يخضع لها كل مخلوق.

---

[1] إعداد أفيند شارما، نيرى بوتسا، ١٩٩٣، ص ٦١٦. Religioni a Confronto

[2] المرجع السابق، ص ٧٠٤.

إن كلمة «إسلام» مشتقة من الفعل «أسلم» «استسلم»، «خضع»، الذي يحتوي على الجذر السامي «س ل م»، الذي يحوي بداخله فكرة الاستسلام، ولكن أيضًا السلام (ومنها يُشتق «سلام»).

والمسلمون هم أولئك الذين يستسلمون لإرادة الله، فما معنى «يستسلم»؟ معناه أن المؤمن وهو يعتنق الإسلام لا يكون لديه أي إمكانيّة في أن يناقش أو يؤثر على إرادة الله، والتعبير الذي يتردد كثيرًا على شفاه المسلم التقى هو «إن شاء الله» ومعناه «بإرادة الله».

والكلمة العربية التي تقترب من كلمة «الدِّين» هي كلمة «الدَّين»، وذلك حسب بعض علماء اللغة ومفسري القرآن، ومن ثم كلمة «الدِّين» تتضمن فكرة «الدَّين المستحق لله» الذي يرجع إليه الفضل ليس فقط في هذه الهبة أو تلك بل في كل شيء[١].

ولا شيء أكثر مغالطة من تسمية المسلمين بـ «المحمديون»، لأن محمدًا على الرغم ممَّا يتمتع به من قداسة في السيرة، فإنه يظل إنسانًا بسيطًا، يختلف كذلك عن الأنبياء الآخرين المذكورين في التوراة، لأنه لم يتكلم قط مع الله، ولكنه نقل ببساطة وأمانة، كلمة كلمة، مضمون الكتاب الذي قرأه عليه الملَك، ومن ثم سيكون ملائما أكثر وصفه «بالرسول» من وصفه «بالنبي»، لأنه يبدو أقل وجودًا أمام الله من الأنبياء التوراتيين.

ويُعتبر المسيح أيضًا من وجهة نظر الإسلام، مصلحًا كبيرًا ونبيًّا آخر من الأنبياء. ولا يمكن أن يكون غير ذلك لأنه من غير المعقول أن الواحد العظيم يمكن أن يتجسد في هيئة بشر، ومن ثم فمن غير المقبول بداهة من وجهة النظر هذه، لوغاريتم الثالوث.

إن الاقتراب من القاسم المشترك «للفلسفة الأبدية» واضح بجلاء في التيَّار الصوفي، وهذا يفسر لنا كيف دخلت العقيدة الإسلامية إلى آسيا من خلال الفرق الصوفية في أغلب الأحيان، ويمكن أن تكون هذه الفقرة الشعرية للشاعر الصوفي الكبير الرومي، قد كتبت بواسطة Plotino، أو Lucrezio، أو حكيم هندوسي أو زرادشتي.

«لست من الشرق، ولا من الغرب،
لست سماويًّا ولا أرضيًّا،
لست مخلوقًا من عناصر الطبيعة ولا من الأفلاك الدوارة،
لم آت من الهند ولا من الصين ولا من بلغاريا،
ولا من تبريز ولا من بلد العراق ولا من أرض خراسان.

---

١ المرجع السابق ص ٦٢٧

بعصمتي ليس لها بعصمة،
ومكاني ليس له مكان، لا أملك جسدا،
ولا نفسًا لأني أنا نفسي نفس النفوس،
إذ إنني تخليت عن الازدواجية،
فإنني أرى العالمين كعالم واحد إني أرى الواحد،
أبحث عنه، أعرفه، أناديه»[1].

عدم الاكتراث بأزمان التاريخ

وجه آخر من هذا التجربة الإلهية هو وجوده خارج السياق التاريخي، أي سمته الأساسيّة بأنه فوق أزمنة التاريخ، وهناك ملمح آخر وثني مناقض لـ«التاريخيّة» التي -كما رأينا- تمثل عنصرًا مميزًا للديانتين الإبراهيميتين الأخريين.

إن الحقيقة التي تحملها رسالة القرآن لاَ تقوم على حدث تاريخي محدد، ولا ترتبط بمجموعة عِرْقيّة خاصّة، ولكنها تتبلور بعيدًا عن الزمن وعن العالم.

إن هذا الوحي الإلهي الثالث هو خاتم سلسلة طويلة من النبوّات التي ترجع إلى آدم نفسه، ويستهدف توضيح «التأويلات المزيفة» للديانات السابقة من خلال صياغة الكلمة الأخيرة، لأجل ذلك يُعرف رسول الإسلام بخاتم الأنبياء.

وفضلاً عن كون رسالة الإسلام خاتمة بمعنى أنه لن يكون بعدها رسالات أخرى، فإنها تعد بمثابة عودة على الأصول أيضًا، فالإسلام هو أيضًا دين العودة إلى الأصول، فهو دين الفطرة والدين الحنيف[2]، فتبقى تبعًا لذلك الحاجة إلى خطة إنقاذ، ومشروع لتغيير العالم.

إن نظرة المسلم تختلف عن نظرة المسيحيّ، إذ إنها رؤية للإنسان الذي يسود العالم، المتجه نحو المستقبل والقادر على تغيير بيئته وظروفه، وهى رؤية تختلف عن رؤية الإنسان كقشة في يد الله. الله كل شيء والإنسان لاَ شيء أمام الله، فمن غير المنطقيّ أن نجعل أن الله يمكنه متابعة الأعمال البسيطة للبشر يوما بيوم.

ها هي إذن نقطة التقاء أخرى مع الشرق، فكرة وجود إله خارج الحيز الزمني، لاَ يجب على الإنسان أن يتجرأ على وضع كنهه داخل قوالب عقليّة ومبادئ ثابتة، تعني

---

[1] جلال الدين الرومي، الديوان الكبير في سيد حسين نصر، أديان في مواجهة، في جزء الإسلام، ص ٧٠٤
[2] ديانات في مواجهة، مرجع سابق ص ٥٧٨.

أيضا أن الاختيار الذي أكده القرآن لا ينصب بطريقة هذه كالحضارة الغربية على إشباع الرغبات، وعلى الرفاهية المادية.

نخلص من هذا كله إلى محصلة مهمة، هي أن المفهوم القرآني هو أكثر محافظة من المفهوم التوراتي، وبالتأكيد أكثر محافظة من المفهوم الإنجيلي.

فلو سألنا مسلما ملتزما متوسط الثقافة إذا كان حقيقة أن مفهوم الحياة على أساس مبادئ الإسلام قريبة من حياة الإنسان في العصر الوسيط، فهناك احتمال كبير أن يجيبنا بنعم. وسيذكر لنا أنه في تلك الحقبة، على الرغم من الصعوبات المادية، والعنف المستشري، كان الله لا يزال موجودًا وحيًّا في كل مناحي الحياة اليوميّة، وكذلك في أوربا المسيحيّة المنقسمة على نفسها، من يوم إلى يوم ومن ساعة إلى ساعة، بسبب اللاهوت الذي هو في خدمة الرب، كلهم كانوا يشعرون أنهم جزء من جماعة روحية أرحب من الدائرة الضيقة التي وُلدوا فيها، من ليون إلى أنطاكية، ومن أكويزجرانا Aquisgrana إلى وارسو؛ حياتهم اليوميّة تهيمن عليها أصوات الأجراس، كما هو الحال بالنسبة لصوت المؤذن الذي يوجّه يوم المؤمن من الخرطوم إلى طشقند، ومن مدينة قم إلى كوالالمبور، دون تمييز على أساس العنصر أو العرق، أو الانتماء السياسيّ. ويمثل النداء للصلاة أيضًا نداءً للقيم الحقيقيّة للبشر، مثل الخوف من الله، وقيمة الأسرة، وواجبات التضامن مع الآخر.

«ويتكلم الإسلام والمسيحيّة في القرون الوسطى نفس اللغة –على حدّ قول باحث شهير عن العالم الإسلامي– فعندما كان المسيحيّون والمسلمون ينعت بعضهم بعضًا بالكفر، كان كل طرف يفهم ماذا كان يعني الآخر، وكلاهما كانا يفهمان نفس الشيء»[1].

وإن نموذج المجتمع المثاليّ، واليوتوبيا في العالم الإسلامي –وهو مَا لاَ نغفله– لاَ يتمّ إسقاطه وتوجيهه، كما هو الحال عندنا، نحو المستقبل، ولكن نحو الماضي: إنه المجتمع البسيط والصالح أيام النبي محمد.

إن السيادة الإسلامية كان من نتيجتها تغليف الزمن في الأراضي التي فتحها المسلمون، بطريقة أكثر إعجازًا ممًّا فعله سائل اللافا في بومبيي Pompei، لأنه، في مَا يتعلق بالحمم البركانية، فإنها قد أتاحت لنا الفرصة لنلقي نظرة على بعض مظاهر حياة أجدادنا، الذين لولا ذلك لكانوا قد غرقوا في بئر النسيان، ولكان الأمر يتعلق بطبيعة ميتة ومتحجرة.

---

[1] ب. لويس، أوربا والإسلام، باري ١٩٩٥، ص ١٠، ١١، ذكره باولوبرانكا.

غير أن الغلاف الوافي والمحافظ الذي أوجده الإسلام يجعلنا نرجع بـالزمن حتـى الحقبة الهيلينية، أو إلى جو التوراة السحري مباشرة، ولكن عبر حقيقة وواقع متحرك، لا يزال حيًا، ويقدم لنا أنماط حياة كثيرة عن تلك الحياة التي كانت موجودة انذاك.

ففي كثير من البلدان الإسلامية، بحوض البحر الأبيض المتوسط، يمكننـا أن نجـد اثارًا قوية لتلك الحضارة التي يطلق عليها صديقي الأثري وبعاطفة كبيـرة «حـضارة الحمار»، فلم يصل هنا حركة الإصلاح، أو حركـة الإصـلاح المـضادة، ولا الثـورة الفرنسيّة، ولا الثورة الصناعيّة، فالناس تواصل ذهابها إلى الحمامات العامّـة، وصـنع الخبز في الأفران العامّة، وتأكل بيدها جبن العنزة، ولحم الضأن المشوي، وحلوى التين، واللوز، والعسل.

والسوق العربية -حيث كان الرجال لاَ يزالون يذهبون للشراء، بينما ينظر النساء في الحرملك خلف النوافذ ذات الستائر والمشربيات الخشبية، عما كان يجب أن تكون عليـه الأجواء في أسواق أثينا القديمة، أكثر ممَّا تنتجه لنا عمليّـة إعـادة إنـشاء stoa di Attalo الدقيقة، ولكن الباردة، على يد علماء الآثار الأمريكيّين.

وقد كانت روح التيَّار المحافظ في وقت مَا نتيجة وأصلا لفلـسفة الحيـاة، التـي لاَ تستطيع أن تقبل فكرة أن الله بوسعه أن يبارِك من لاَ يعيش في بساطة حقائقه، ولكن من يكدس الأموال ليحقق أقصى نجاح على هذه الأرض.

القرآن، تجسيد لكلمة الله (الوحي)

قلنا إن الإله الواحد في الإسلام -كما هو الحال في المفهوم الوثني والشرقي يتجلـى من خلال وسطاء. فيمكننا القول «وحي المسيح» لأنه كان هو نفسه ابن الله الذي أعطى لنا الوحي، وعلى العكس من ذلك من الصواب القول «الوحي إلى محمد» لأن النبي تلقاه ونشره. ولقد تلقى محمد رسالة الله، ليس مباشرة، ولكن من خلال كلمات الملَك، وتذهب الوساطة أبعد من ذلك، لأن الملَك (جبريل) لم يتلقَّ كلمة الله مباشرة ولكنه يملـي علـى النبي الوحي كنسخة لكتاب سماوي، فالعهد الإسلامي الأخير إذن هو شاشة عرض بـين الإنسان والله، أي وساطة من نوع خاصّ، ومن ثم يكتسب قداسة لاَ تتـوفر لأي نـص مقدس آخر.

فالعلاقة بين الله والناس لاَ تتخذ شكل الحوار أو التجسُّد، بل شكل كتـاب لاَ يمثـل تسجيلاً بسيطًا لرسالة غيبية، ولكن يمثل الطريقة الوحيدة لإثبات وجود الله الـذي يُعَـدّ

الشيء الوحيد الذي يفهمه العقل البشري. إنه ليس رواية، ولا يشرح شيئا، إنه كتاب هداية يصنع تعاليم ومفاهيم بطريقة أحادية، وسلطوية، ومن اتجاه واحد.

إن الوحي الإلهي في المفهوم الإسلامي لم ينقل ببساطة إلى الخلف في كتاب، بل هو الكتاب نفسه. إن الكتاب هو تجسيد الوحي، ولو وجد إنجيلي مسلم لبدأ صلاته هكذا: «في البدء كانت الكلمة الوحي والكلمة أصبحت كتابا».

فالقرآن (مشتق من القراءة بصوت مرتفع، أو من جمع كلمات مقدسة «قرن»)[1] هو المصدر العلوي لعقيدة المسلمين، الذي يدور حوله كل شيء، وهو التعبير الوحيد عن إله لاَ يمكن الإحاطة به.

وبما أن القرآن الكريم يحاكي «أم الكتاب»، فإنه الكتاب الكامل والذي يحتوى على اليقين المُطلَق حيث توجد فيه مبادئ وحقائق لاَ تقبل المناقشة وتعد بمثابة مسلَّمات لكل البشر.

والقرآن، مثل الله، خارج الزمن، إذ إنه لاَ يحتوى على قصة منطقيّة بها معلومات حول أصل العالم المخلوق، وترتيبه كذلك ليس على أساس زمني، فالسور «والآيات، كما هو واضح، لم يتمّ ترتيبها على أساس الوقت الذي نزلت فيه على النبي، ولكن على أساس طولها، وهذا دليل آخر على إغفال العنصر الزمني.

ولا عجب في أن كل مَا يتعلق بالقرآن شيء مقدس بالنسبة إلى المسلمين، بصورة أكبر مِمَّا يحدث بالنسبة إلى التوراة في مناطق الديانتين الأخريين.

ففي المقام الأول، تعاليمه مقدسة ولا تقبل المناقشة، فهي تنتقل من الميتافيزيقا إلى الأخلاق، ومن موضوعات كونية إلى أخرى قضائية، ونفسيّة، وتمثل بالنسبة إلى المؤمن وجودًا روحيًّا حيًّا ومحسوسًا، ونوعًا من الشبكة غير المرئية تدعم وتوجّه كل أوقات اليوم، وقد كتب أحد الكتاب الإسلاميين: «إن نفس المسلم مملوءة بالآيات، والتعبيرات المستوحاة من القرآن»[2].

وتمتد القداسة لتشمل الأصوات نفسها، والكلمات، والحروف التي كتب بها، وحتى الجلود والورق الذي كتبت عليه. والأمر ليس شركًا، ولكنه طريقة تواصل مع القرآن من خلال سلسلة من الأفعال المادية على خلفية فوق طبيعيّة تقتضيها طبيعة هذا الكتاب المعجز.

---

[1] دى نولا، الإسلام/ مرجع سبق، ص ٥٤

[2] سيد حسين نصر، أديان في مواجهة، مرجع سابق، ص ٢٠٢

وأصبح علم تجويد القران واحدا من الفنون التي لها قدسيتها وشحنتها العاطفية العميقة في عالم المؤمنين، من السعودية حتى ماليزيا. وقد قال الأب باتريك جافني المتخصص في الدراسات الإسلامية بجامعة نوتردام: «إن الاستماع إلى تلاوة هذه الكلمات، والتشبُّع بها من خلال الصلاة، يعنى الإحساس بوجود الله، بنفس الدرجة من الحميمية التي يشعر بها الكاثوليكيون عندما يستقبلون المسيح كخبز ونبيذ مقدس في أثناء القداس».

وهذه الطبيعة الخاصّة التي يحظى بها القرآن في نظر المسلمين –تلك الرؤية التي أسميتها «سحرية» إذا لم تثر هذه الكلمة بعض اللبس– تمثل في وقت مَا جسرًا وتفوُّقًا في مقابل ديانات «الفلسفة الأبدية». جسر، لأنه على غرار الديانات الوثنية، المفهوم الإسلامي يرى أن أي فكر في الله غير ملائم، وأن الحديث عن الله مستحيل، إن لم يكن فسقًا. لكنه تميز أيضًا بالنسبة إلى الديانات الوثنية، حيث إنه يمثل الدليل على أن الرب لاَ يغفل البشر تمامًا، ولكنه أراد أن يجمع صورًا مفهومة للعقل البشريّ في رسالة أمل وهداية لهذه الحياة وللحياة الآخرة.

الأركان الخمسة

نبع مباشرة من مفهوم المسلمين عن الله، ملمح آخر خاصّ للدين الإسلامي، ألا وهو سهولة وسلامة الطقوس، فالتعاليم، والطقوس التي يجب أن يقوم بها المسلم ليكون مسلما صالحًا، بسيطة للغاية.

فالإسلام يشتمل فقط على اثنين من الثوابت (المسلَّمات): التوحيد والوحي، أي نزول القرآن. ولكي يصبح المرء مسلما، يكفيه النطق بالشهادتين اللتين ينطق بهما المؤذن من فوق المآذن وهو ينادي للصلاة.

«لاَ إله إلا الله، محمد رسول الله».

هاتان الشهادتان تضمان الرسالة الدِّينيّة من الألف إلى الياء؛ أولاهما تجزم أن الله واحد، والثانية تحدد من تَلَقَّى الرسالة الخاتمة التي نزلت على النبي الذي اصطفاه الله. ولا يلزم شيء آخر لكي يصبح المرء مسلما.

ولكي يكون المسلم مسلمًا صالحًا تقيًّا، أي ملتزمًا بأوامر الإسلام، يكفيه بعد ذلك أن يتكيف مع بقية «أركان الإسلام الخمسة»، أي فضلاً عن الشهادتين، هناك أربعة أركان إلزامية: الصلوات المكتوبة وهى خمس في اليوم والليلة، وصوم رمضان، والحج إلى

مكة، والزكاة. فالصلاة الإسلامية، كما لاحظنا بشأن الاحتفالات الوثنية، والصلاة اليهوديّة، ليست حرة وتلقائيّة، ولكنها لها طقوسها المحددة، بمجموعة حركات وصيغ متعاقبة يترتب عليها اثار، وإن كان وجود الإمام مكونا ضروريًا. وفي هذه الحالة أيضًا يبدو أن الدين يساعد المؤمن على عدم طرح أسئلة، أكثر من استهدافه توفير الإجابات.

ويستتبع ذلك، مثلما هو الحال في اليهوديّة، دقة، وصرامة في الالتزام بالشعائر، أي أهمية كبرى بأداء الشعائر، التي يعد أوضح تعبير عنها بالنسبة إلينا نحن الغربيّين، حظر بعض الأطعمة بيد أنها في واقع الأمر تفتح الباب أمام سلسلة من الالتزامات بدءًا من الملبس وحتى التطهُّر، والتي تترك أثرها بوضوح على الحياة اليوميّة، وتمثل عبئًا، خصوصًا بالنسبة للنساء اللاتي يخضعن لعقوبة اجتماعيّة تزيد قسوتها في بعض الحالات، عن أي مرسوم لمحاكم التفتيش.

عالمية الدين والشريعة القرآنية

آخر وخامس خاصّية هي القيمة العالمية للرباط الدينيّ. فهي شيء أشمل وأكثر إلزاما، بما يدلّ على سموّ الجماعة على الفرد، أي أن العلاقة مع الله تكتسب معناها الكامل فقط عندما تتمّ من خلال سلوكيات يتمّ قبولها على المستوى الجماعي.

وأحد المفاهيم الأساسيّة في الإسلام هو مفهوم الأمّة، أي كل المسلمين الذين يشكّلون العالم الإسلامي، وتربطهم رابطة الأخوّة العامّة، وهو رباط العقدية، بعيدًا عن اختلافات اللغة، والجنس، والعرف. وهذا النوع من التضامن الدينيّ الذي مَا زال فاعلاً في مجمل المجتمع الدولي الحالي، بآثار لاَ يمكن إغفالها على الصعيد السياسيّ، والاقتصادي، والاجتماعيّ – هو من خواصّ الإسلام. وتلك الخاصّية غائبة تقريبًا في المعسكر المسيحيّ، ولها مظاهر مختلفة كثيرًا ومرتبطة بقوة بـ«العرقية الانتقالية» في الشتات اليهوديّ.

ولا تشير العالمية فقط إلى الحيز الجغرافي، ولكن تدل على ثقافة متكاملة، تدور حول العامل الدينيّ، دون تمييز فئوي بين مستويات السلوك[1].

ومهمّ لنا نحن الغربيّين أن نعي أنه في المفهوم الإسلامي لاَ يعد الدين شكلاً للفكر، والنشاط الروحي، إلى جانب أشكال أخرى، ولكنه الإطار العامّ الذي تدور بداخله أعمال وأنشطة، وأفكار.

---

[1] دي نويا، الإسلام، مرجع سابق، ص ٨٦.

لا توجد في هذا العالم مجالات عمل، وعلاقات إنسانيّة تنحلل من البعد الإلهي، بدءا من العلاقات الضيقة كالأسرة، والجوار، وتصاعديًا شيئا فشيئا إلى دوائر أوسع كالقبيلة، والدولة، حتى الأمة بأسرها.

لا يوجد في الاسلام تمييز بين مَا لله وما لقيصر. إذا كان قيصر قد تَمّ تأليهه فإننا هنا على الناحية المقابلة، فالله هو قيصر، وأي حاكم، إمبراطور أو سلطان أو خليفة، مَا هو إلا خليفته على الأرض. فلا معنى للحديث عن الفصل بين الدولة والكنيسة، لأنه لم توجد في أي عصر من التاريخ الإسلامي كنيسة.

فكل شيء يعود إلى الله، ومن ثم يجب أن ينضبط كل شيء بشرعه، والأوامر الأخلاقيّة التي جاءت من عنده.

هذه الرؤية المتمركزة على الألوهية مَا زالت تصبغ -في كل الدول الإسلامية- ليس فقط المجال السياسيّ، والاجتماعيّ، ولكن الاقتصاديّ، ومجال العلوم والفنون كذلك، ومحصلة ذلك هي سمو الشريعة، والشريعة مشتقة من الجذر «شارع»، أي الطريق الذي يجب أن يسلكه الرجال والنساء في هذه الحياة ليطيعوا أوامر الله. فالشريعة تحكم كل مجالات الوجود، والسلوك الإنساني، بطريقة أكثر إلزاما من الشريعة اليهوديّة.

وسيطول بنا المقام إذا مَا بحثنا كيف أن هذا المفهوم الرئيسيّ يتناول النشاط السياسيّ، والممارسة القضائية. وما يهمّ هنا أكثر هو أن ندرك أنه من وجهة النظر الإسلامية الصارمة، لاَ تفهم الشريعة كنظام من صنع الإنسان في سياق اجتماعيّ محدد، ولكن لها أصل إلهيٌّ ويجب أن تصبغ المجتمع. ويمكن للمسلم أن يظل حتى وإن لم يحترم قواعد الشريعة (كالمسيحيّ غير الملتزم، وغير الممارس لطقوس المسيحيّة، ورغم ذلك يظل مسيحيًّا)، ولكن المسلم الذي لاَ يعترف بأن الشريعة صالحة وناجعة لاَ يصير مسلما[1].

إن هذا المفهوم الإلهي للنظام القضائي يفتح الجدل حول العلمانيّة في النطاق الواسع للأمة لدرجة أنه يصعب علينا نحن أبناء عصر التنوير فهمه، ويجعل قضيّة «العلمانيّة» بمثابة هزة لها خطورتها الخاصّة.

وسنعود إلى هذه النقطة بعد قليل، عندما نتحدث عن الأصولية في الإسلام. ولكننا سنحاول أولا التحقق من وجود بعض البراهين في سياق التطوُّر التاريخي على اللا تسامح الذي وجدناه في النواة العقَديّة لهذا الدين مقارنة بديانتَي التوحيد الأخريين.

---

[1] المرجع السابق، ص ٩٦.

الفصل الثالث عشر

الأسلمة وتعدد الثقافات

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة البقرة الآية ١٣٦)

[الجهاد نضال ديني أم حرب لمجرد الحرب؟ – استعمار مستنير – انصهار العناصر في الفرن الآسيويّ – طريق أفريقيا إلى الإسلام – أهل الكتاب في حوض البحر المتوسط – انطلاق نحو المستقبل أم انغلاق على الماضي؟]

الجهاد نضال ديني أم حرب لمجرد الحرب؟

يجدر أن نلخّص في نقاط محددة أننا قد أكدنا حتى هذه النقطة أن تلك النقاط يمكن أن تساعدنا في المضي قدما داخل حقل ألغام. إن التقديم الإجمالي للدين الإسلامي في الفصل السابق يتيح لنا أن نقارن خطوطه المميزة مع تلك التي سردناها بخصوص الديانتين اليهوديّة والمسيحيّة. إن هذه المقارنة -ويبدو لي أنه من الصعب إنكار ذلك- تشير إلى أن الإسلام -على الأقلّ من الناحية النّظريّة- هو أسهل وأيسر الديانات السماوية الثلاث. فمن بين المعالم الخمسة الأساسيّة التي أشرت إليها يبرز الالتزام الصارم بالتعاليم والمحافظة عليها، وعنصر ثالث مشتق من المسيحيّة ألا وهو عالمية العلاقة الدّينيّة، وكل ذلك يؤدى إلى قدر من التعصب. ومع ذلك ولتخفيف حدة هذا التعصب نجد خاصيتين من خواص الديانة الخاتمة في عائلة ديانات التوحيد والتي استقتها من مَعين «الفلسفة الأبدية»: المسافة الشاسعة بين البشر والله، وعدم الاكتراث بأزمنة التاريخ. ويمكن أن نضيف إليهما بساطة وسهولة الشعائر.

وعلى خلاف المسيحيّة ليس في الإسلام حقيقة مطلقة أو نقطة عقديّة لا يمكن التخلّي عنها، ولا حدث تاريخي محدد مثل نزول ابن الله على الأرض وقيامته كدليل على ألوهيته. فإن شعائر الإسلام البسيطة التي تقوم على التجريد وعلى عدم خضوع الإله لسياق الزمن دون وجود لوغاريتمات معقدة، ودون التزام بطقوس تقبل كحزمة واحدة الأمر الذي تميزت به علاقة الكنيسة مع البيئة المحيطة والتي انبثقت عنها قاعدة مؤسسية صارمة قائمة على التسلسل الكهنوتي، حرب المتهرطقين، والرغبة الشديدة في جعل الآخرين يعتنقون الدين.

كل ذلك تَمّ تناوله على المستوى النظري، وحان الوقت لأن نجد بعض الملامح الملموسة على صعيد الواقع التاريخي. إن التاريخ -كما هو معلوم- ليس محكمة عادلة، ولكن على العكس -كما قلنا- تكثر التفسيرات والتأويلات والتطويع.

لقد استهللنا الجزء المخصَّص للإسلام بذكر كُتّاب غربيِّين معاصرين أكّدوا أن الإسلام دين توسُّعي يهدف دائمًا إلى فتح العالم. وهو نفس الشيء الذي يؤكّده «صقور» الإسلاميين من الضفة الأخرى، بشأن حضارتنا، الأمر الذي ربما أدّى إلى حرب صليبيّة لفرض هذه القيم -التي كانت مسيحيّة في السابق وأصبحت اليوم إلحادية- في بقية العالم.

كون الحضارة الغربيّة كانت -ولا تزال- غير توسُّعية فقط ولكنها أيضًا إقصائية، يبدو لي أن هناك قليلاً من الشكوك. ولكن هل من المستطاع أن نقول ذلك عن الحضارة الإسلامية؟

بالنسبة إلى الإسلام أيضًا لا يوجد ثمة شك أنه توسُّعي، ويكفي أن نفكر كيف أنه من نواة صغيرة في بلد على هامش الحضارة، وصل إلى أن يحتل جزءا كبيرًا من وسط الكرة الأرضية، من الصحراء الغربيّة وحتى جزر إندونيسيا. ويمثل الإسلام اليوم في أوربا الديانة الثانية، ويوشك في الولايات المتحدة أن يتجاوز الديانة اليهوديّة من الناحية العددية، واليوم يوجد من بين كل ستة أشخاص شخص مسلم.

ولكن هل الإسلام كان عقيدة إقصائية؟ فالاتجاه التوسُّعي والإقصاء ليسا نفس الشيء. فالتوسُّع، أي إقحام شعب وإدخاله في أرض شعب آخر، هو دائمًا عمل عدواني، ويوجد أشكال وأشكال للقيام بالعدوان، إذ يمكن ذبح شعب مستسلم، أو استعباده، أو إجباره على أن يتحول وأن يعتنق نموذج المنتصر، أو يقنع بأن يظل مهيمنًا عليه سياسيًّا، أو أن يستفيد منه اقتصاديًّا ويتركه يعيش في سلام مع آلهته وعاداته.

يؤكّد الكثيرون أن الفاتحين الذين كانوا يرفعون الهلال تصرفوا كمستعمرين، وقد تبنوا طرقًا غير مباشرة ومخادعة، فمثلاً عن طريق إيذاء وإساءة معاملة الشعوب بفرض الضرائب وبإقصاء من أصرّ على الاحتفاظ بدينه وثقافته الأصلية من الوظائف العامّة، وذلك بهدف الوصول إلى نفس نتيجة كل المستعمرين الآخرين.

ولكننا هنا يجب أن نستقي من المعيار البرجماتي الذي أشرنا إليه في الفصل الأول، لنقيِّم سوء بعض الأفعال وعدم سماحتها من خلال عواقبها الفعلية. وأذكر هنا أنه منذ بضع سنوات مضت كان فريد زكريا المحرِّر الشهير والصحفي البارز في «النيوزويك»، وفي قمة الجدل حول الخطر الإسلامي، كان يحاول أن يسكب الماء على النار من خلال حثّ الأغلبيّة الأمريكيّة المعتدلة على أن تعبّئ قوتها أيضًا أمام التطرف الموجود في بيتهم. غير أنه في الأسبوع الذي تلاه أجاب عليه أحد القراء: «يوجد فارق كبير بين مَن يكوّن جيوش أشباح من قاذفي القنابل الانتحاريين، ورقص في الشوارع عند سماع نبأ المذابح، ومَن يقتصر فقط على الخطب التليفزيونية»[1].

فإذا مَا تبنينا هذا المعيار لنحكم على سياسة المنتصرين المسلمين في الماضي يجب أن نؤكد على أن هناك فارقًا كبيرًا بين من يقتصر على فرض ضريبة على أتباع دين مخالف ومن يدمِّر أماكن عبادتهم ويجبرهم على اعتناق الدين الآخر تحت التهديد بالإبعاد أو القتل.

وسأحاول في الصفحات القادمة أن أظهر كيف أن الإسلام كان توسُّعيًّا تمامًا كما كان الغرب المسيحيّ كذلك على الأقلّ، غير أن الإسلام بفضل سهولة شعائره لم يكن إقصائيًّا.

إن الموضوع الرئيسيّ للصقور في وطننا ليثبت العكس هو الجهاد.

إن الهلال يمثل رمز الفزَّاعة بالنسبة لرجل الشارع الغربيّ الذي تَمّ إبدال المنجل والمطرقة به لتغذية هذا الخوف الكبير.

الجهاد أصبح اليوم لفظًا مألوفًا للغاية، غير أنه يساء استخدامه عندما يتم الحديث عن أمور تتعلق بالإسلام. فقليل منا يعرف مَا الهجرة أو مَا الذي يميز السُّنّة عن الشيعة. عند خوض امتحانات الانضمام إلى الكورسات التمهيدية للكاتب الدبلوماسي فاجأت بهذه الأسئلة شبابًا خريجًا في العلوم السياسيّة، غير أن جميعهم تقريبًا يبدو أنهم على قناعة أن كل مسلم صالح على استعداد للمشاركة في الحرب المقدسة لأن الموت في سبيل الله يضمن له دخول الجنة مع الحور.

---

[1] انظر «نيوز ويك» بتاريخ ٢١ أكتوبر و٢٨ أكتوبر ٢٠٠٢.

فالذنب ليس ذنبنا، فالإسلاميون كانوا هم الذين نشروا هذا القالب النمطي، وهم يتحدثون عن الجهاد أكثر ممّا نستخدم نحن بمناسبة وبغير مناسبة لفظة «حرب صليبيّة».

وبينما أنا أكتب فتّشت في كومة الجرائد على مكتبي لأجد دون صعوبة فقرات يجدر ذكرها. فعلى سبيل المثال المقابلة الصحفية التي نشرتها «نيويورك تايمز» في السابع والعشرين من يناير ٢٠٠٢ في نهاية سلسلة من المقالات حول الحرب في أفغانستان، مع واحد من المتطوعين الباكستانيين الذين عبروا الحدود لينضموا إلى جماعة طالبان، وكان صيدلانيًا اسمه حجاز خان حسين، وصف هكذا تجربته وهو في الخط الأول للقتال بضواحي كابول: «ذهبنا إلى الجهاد تملؤنا السعادة، وكم أود أن أخرج ثانية غدًا. فلو أن الله كان قد اختارني للشهادة، لكنت في الجنة أطعم العسل والعنب وأعانق العذارى الجميلات كما وعدنا القرآن. ولكن قدري أن أظل في كبد هذه الأرض»[1].

وكبرى المنظمات الفلسطينية المتطرفة تحمل إحداها اسم «الجهاد الإسلامي» البليغ، والأخرى «حماس»، وتختتم «الجهاد الإسلامي» بياناتها -مثل البيان الذي يدين انهيار الهدنة الأخيرة مع إسرائيل- بـ«الجهاد حتى النصر أو الشهادة»[2]. وتشير الصحفية النرويجية آسنة سيرستاد في كتابها الريبورتاج «بائع الكتب بكابول»، في معرض حديثها عن المدارس الأفغانية أيام حكم طالبان، كان التلاميذ بسنوات الدراسة الأولى يتعلمون حروف الأبجدية هكذا: ج جهاد- وهو غايتنا على الأرض، إسرائيل - عدونا، ك كلاشنكوف - سننصر، م مجاهدون - أبطالنا... »[3].

وتطلق كلمة مجاهد في العالم الإسلامي على المقاتل. وتعنى في الواقع الذي يشترك في الجهاد، أي «يقاتل في سبيل الله». وقد نسخ الأمريكيّون -وهم كبار مخترعي الأعجميات في المجال السياسيّ- كلمة تشير إلى اللجوء الدائم إلى مفهوم الحرب المقدسة من قبل الدعاية الأصولية فنحتوا كلمة «الجهادية» jihadism.

وقد حصّن علماء المذاهب الفقهية الإسلامية الكبار هذه التصويرات الفجة للجهاد مؤكدين على أن معنى الجهاد الذي تعرفه الأغلبيّة الصامتة والأمة، هو الجهاد الذي يتحدث القرآن عنه، يعني «الجهد» و«الصراع»، ومنه المعنى المجازي «الجهاد في سبيل الله»، وهو مفهوم أخلاقي، يعطينا فكرة كاملة عن مدى صعوبة أن نعيش يوما كمسلمين صالحين، بالضبط مثل صعوبة أن نعيش يوما كمسيحيّين صالحين، أو بالنسبة إلى هندوسي صعوبة أن يحقق هدفه كون الصراع مستمرً، خصوصًا مع أنفسهم. ومن ثم

---

[1] «نيويورك تاميز» ٢٧ يناير ٢٠٠٢ ص أ ١ – أ ١٥.
[2] «نيويورك تايمز» يوم ٢٢ أغسطس ٢٠٠٣، ص أ ١.
[3] آسنة سيرتاد، بائع كتب كابول، الترجمة الإيطاليّة، سونوينو، ميلانو ٢٠٠٣، ص ٧٦.

تصبح الحياة بهذا المعنى جهادا متواصلا، والدافع إلى الخلود بداخلنا يجب أن يساعدنا على كبح جماح الشهوات التي تربطنا بالأرض.

ولكن الأمر ليس بسيطا هكذا، فالقرآن في الحقيقة في حدّ ذاته لا يكفي لتبديد الشكوك، لأنه يحوى إشارات عديدة للقتال باسم الله، يمكن للبعض أن يفسرها بمعنى مجازيّ، بينما آخرون يفهمونها كدعوة إلى حرب حقيقيّة للدفاع عن العقيدة.

على سبيل المثال الآية ١٩.من سورة البقرة: ﴿قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وآخر الآية ١٩ من سورة الأنفال: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أو الآية رقم ٣٩ من سورة الأنفال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ولا تنسَ أن محمدًا كان واحدًا من الأنبياء المسلحين القلائل في التاريخ، كان زاهدًا متنسكًا، نعم، ولكنه كان أيضًا رجل سياسة، وقائدًا عسكريًّا، لم يتردد في تحقيق طموحاته بالقوّة من خلال شن الغارات، والقيام بالغزوات ضدّ خصومه. وينسب إليه واحد من أوائل الأحاديث قوله: «الجهاد الأصغر» بعد أول انتصار عسكري على أهل مكة عند بئر بدر، واصفًا به هذه الغزو الشهيرة (وهى في الحقيقة كانت معركة قصيرة سقط فيها بضع عشرات ولكن نتيجتها أنقذت مصير جماعة المسلمين التي كانت لاَ تزال ضعيفة)، وقد نعت محمد من ضحَّوا بأنفسهم في هذه الغزوة بـ«الشهداء»، وأدخل مشروعية، بل فضيلة، إشهار السيف «دفاعًا عن الإسلام وعن حدوده» إذا لزم الأمر. ومنذ ذلك الحين وجد «الجهاد الأصغر» -وهو النضال المسلح- مكانه إلى جوار فكرة «الجهاد الأكبر» -وهو النضال الروحي للمسلم ضدّ شهوات نفسه- وذلك للتبرير الأخلاقيّ لأي تمرُّد على حاكم ظالم (وهو مفهوم شعبي عند الشيعة خصوصًا)، وليوفر غطاء نبيلاً لبعض المبادرات السياسيّة والاجتماعيّة[1].

وكل واحد يمكن أن يدرك عند هذه النقطة كم هو صعب رسم الحدود التي يصبح فيها الانتقال من الجهاد «الأكبر» إلى الجهاد «الأصغر» مشروعًا، بل واجبًا، أي حمل السلاح في سبيل الله. إن هذه الإشكالية يمكن أن تقودنا إلى إشكالية أرحب، وهي حدود التسامُح: متى يمكن القول بأنه كفى ويتعين اللجوء إلى العنف؟ تبرز المشكلات الكبرى عندما يفتح الطريق أمام تفسير للحرب المقدسة من منظور أصولي مناهض للحداثة ومضاد للغرب. وسنخصص لهذا المشكلات الفصل التالي بأكمله. ولكنى سأقدم لذلك

---

[1] ديانات في مواجهة، مرجع سابق صـ٦٤١، وانظر كذلك أحمد راشد، الجهاد. مولد الإسلام الثائر في وسط آسيا، جامعة يال ٢٠٠٠.

بالحديث عما يردّده الأصوليون المتعصبون. إذا كان مشروعًا، بل واجبًا، حمل السلاح للدفاع عن الإسلام ضدّ خطر داهم، فلا يوجد أدعى لحمل السلاح من الآن لدفع التهديد عن دين الآباء من ذلك التهديد المميت والفتاك.

إن هذا التهديد يكمن في البربرية التي تعود إليها الثورة التكنولوجيّة التي بدأها وفجرها موجة التعذيب، والتي تعد بمثابة عودة إلى الجاهلية، وهي جهل الشرك في فترة ما قبل بعثة محمد. وفي وجود هذا الخطر الداهم، يجب أن يمتزج كل من الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر، ويقوّي أحدهما الآخر لتحقيق تعبئة للقدرات والطاقات على مستوى العالم. إنه موضوع له جاذبية خاصّة، سيما بين الشباب في مواقف الأزمات والتوتر الشديد.

نحن نميل إلى الانحياز إلى أن حرب العصابات في العراق ضدّ الغزاة الأجانب أو «الانتفاضة» الفلسطينية، هي حروب مقدسة أقرَّها النبي محمد، ومع ذلك لاَ توجد حرب مقدسة تبرر اللجوء إلى سلاح الإرهاب، ولا يجب أن نغفل أننا أمام ملمح ثوري صنعته قلة متطرفة. وما يجب أن نسأل أنفسنا عنه –وبذلك نرجع دائمًا إلى الجدل الكبير– هو: هل تفسير الجهاد هذا على خط اتصال مع أساس العقيدة الإسلامية؟ وإلى أي مدّى ينحاز إليه السواد الأعظم من المسلمين؟ وكم مرة في الماضي اكتسبت الحروب التي قام بها محمد وأتباعه القريبون والبعيدون خاصيّة الحرب المقدسة فعلاً؟

استعمار مستنير

إن توسُّعًا كالذي تَحقَّق على يد خلفاء النبي يجب أن يدفعنا إلى التفكير في سبب سرعته وامتداده. وهل من الممكن أن يكون هذا التوسُّع بعمل مجموعات متعصبة فرضت قواعدها الخاصّة بالقوّة؟

إن موجات الغزاة كانت تصل فجأة من أقل الأماكن توقُّعًا في كل حوض المتوسط، فالرومان كانوا يُرهِبون الجزيرة العربية فقط بصورة تقريبية، وكانوا يقيمون بها فقط لمعرفتهم بأنها بلاد الأثواب، والعطور، والأقمشة، والأحجار الكريمة، التي كان يجلبها التجار العرب أصلاً من الهند أو الصين. وقد حاول الرومان سادة العالم آنذاك السيطرة عليها على موجات، ولكنهم لم يفلحوا في غزو البدو الذين كانوا يتحركون على راحتهم وسط الكثبان الرملية، معتادين على طقس يُجهِد الجيوش المحمَّلة بالعتاد.

وبدأ فرسان الكثبان الرملية فجأة التدفق خارج حدودهم، وبدأ العصر الذي نسمِّيه بالعصر الوسيط.

وكانت الإمبراطورية الرومانية قد تهاوت قبل ذلك بقرنين من الزمان على يد موجات البدو الذين قدموا من الشمال، واستطاعت الكنيسة -التي خرجت منتصرة في معركة طويلة- أن تؤكد تأثيرها وسلطتها على الفاتحين الجدد، وكانت بمثابة عامل الاستقرار الرئيس، أما في مَا يتعلق بالإمبراطورية الشرقية فقد واصلت الدفاع عن الإرث الروماني ضدّ ضغط الخصم الكبير، أي الإمبراطورية الفارسية، وضد ضغط البدو الرُّحَّل، من خلال تطبيقه طريقة القياصرة المتعاقبين، بتوقيع اتفاقيات حسن الجوار حينا، والهجمات العسكرية المضادة حينا آخر.

وقد استُقبل ظهور نبي الجزيرة العربية في روما، وميلانو، وبيزنطة، ومدن أخرى كبرى، كواحدة من قصص القديسين الكثيرة والشائعة في تلك البقاع، كتلك التي كانت منذ قرون لأبولونيو دي تيانا.

وفي بدايات القرن السابع الميلادي لم تمثل شبه الجزيرة العربية للقادة السياسيّين ولا لرجال الكنيسة بالعالم المسيحيّ المستقبلة بهمومهم مصدر اهتمام، واستمرت تلك الأراضي كما كانت في الماضي، عبارة عن منطقة رمادية معزولة لاَ تمثل أي تهديد استراتيجي مثل مناطق ضروريّة أخرى كأرمينيا ومصر وسوريا. فمن كان يتخيل أن يخرج من صندوق الرمال هذا أكبر تحدٍّ تخشاه المسيحيّة؟!

كان يلزم وقت قبل أن يبدأ الوعي بأن هؤلاء الغزاة الجدد ليسوا كالآخرين، لأول وهلة لاَ يغيب التشابه بين تلك المجموعات البربرية التي نزلت من الغابات نحو الجنوب إلى قلب أوربا، والموجة الجديدة الصاعدة من بحر الرمال نحو الشمال، وكلتاهما كانت شعوبًا شابة يافعة تبحث عن مجال حيوي، قادتهم كانوا متشابهين من حيث الروح الحربية، والشرف، والخلو من الهواجس. وقد استفادت انتصاراتهم من أزمة القيم في المجتمعات المتقدمة، ومن تقطيع أوصال مكوِّنات وعناصر الدولة.

غير أن التشابه يقف هنا، فقبائل البربر ذات الأصول الجرمانية، والسلتية، التي استطاعت أن تتوِّج ملكًا منهم على الكابيتول بروما، كانوا حملة طاقات متدفقة، ولكن ليسوا حملة قيم جديدة. وكان علوٌّ نجمهم بسبب حرب الاستنزاف التي دفعتهم إليها شعوب في ظهرهم، حتى تطوعهم أنفسهم في صفوف الجيوش الرومانية، وقد كانوا يدركون أنهم موجودون ضمن حضارة تفوقهم، وكثير منهم كانوا خاضعين للعقيدة المسيحيّة التي كانت تبدو أكثر رقيًّا من طقوسهم التي تميل إلى عبادة الأرواح (الإرواحية).

ولكن على العكس من ذلك، فمن الواضح أن عدم هزيمة من يسمون أنفسهم «مسلمين» كانت ترجع -فضلاً عن قدراتهم الحربية- إلى الإخلاص لقضية مقدسة في

المقام الأول، فقد كان لديهم ثقة في حماية الله لهم، تلك الحماية التي ينسب إليها اليهود انتصارهم على الكنعانيين، والنصارى انتصار قسطنطين على ماسنتسيو Massenzio.

إن سكان المناطق الأولى التي تمّ فتحها، وهم ورثة الحضارة الهلينستية والذين كانوا يشعرون في الماضي أنهم أعلى روحيًا بالنسبة للفاتحين، أدركوا سريعًا أن الغزاة الجدد ليسوا مجموعات عرقيّة بسيطة تبحث عن مستعمرات جديدة، ولكنهم جماعة من المؤمنين يزوّدهم الإيمان بشحنة هائلة. وبعيدًا عن شعورهم بالفزع من الثراء المادي والثقافيّ للأراضي التي كانوا يحتلونها، فإنهم قد أثّروا بإخلاصهم الدينيّ حتى على الصفوة.

كان من الواضح فعلاً أن التحدّي القادم من شبه الجزيرة العربية لم يكن فقط سياسيًّا وعسكريًّا ولكنه كان إيديولوجيًّا. وأنّ زعْم أولئك المتعصبين بأن الله هاديهم كان يمثل نوعًا جديدًا من الهرطقة دون شكّ، هي هرطقة أكثر خطورة من أي هرطقة أخرى بالنسبة لعدد المؤمنين ولمعدّل النموّ، وللبعد العالمي الذي لأجله لاَ يجب اعتبار ذلك هرطقة بل دينًا حقيقيًّا. عند هذه النقطة يمكننا أن نتوقع أن يثبت الإسلام نفسه وجها لوجه وشيئا فشيئًا مع الديانات الكبرى الأخرى خصوصًا ديانة الصليب في المقام الأول، ويمضي في نفس المسار الذي سار فيه المسيحيّون من خلال القضاء المنظم على خصومهم الداخليين والخارجيين.

لماذا لم يكُن كذلك وبالطريقة التي كانت عليها المسيحيّة الأولى؟

ومع ذلك فإن الإسلام -ولا يجب أن ننسى ذلك- هو الآخر دين توحيد يقوم على الوحي، أي على اليقين المُطلَق من حقيقته، ومن ثم فإن الإسلام بعيد لسنوات ضوئية عن أي نوع من الانصهار مع الوثنية، ويغذيه حماس متدفق على مستوى العالم الإسلامي. والدين الإسلامي يعترف بميراثه للديانتين الأخريين، فهو يطلق على التوراة «الكتاب»، ومع ذلك فإنه لاَ يقبل الديانات الأخرى على قدر المساواة، فالوحي القرآني مثل الإنجيل والتوراة يقوم على القناعة الثابتة بأنه -وليس أي حقيقة أخرى- هو الوحي الحقّ الحقّ، والخاتم، وكما في عمل ليسنج ناثان الحكيم يمكن أن نتظاهر لحب السلام بأن الخواتم الثلاثة التي تركها الأب لأولاده الثلاثة عزيزة عليهم بنفس الدرجة، ولها نفس القيمة، ولكن في الحقيقة يوجد خاتم واحد حقيقيّ والآخران نسخة منه، والمسلمون يعتقدون أيضًا أن الخاتم الحقيقيّ في يدهم هم. ويجدر بنا أن نكرر أنه يوجد عنصر ترتكز عليه نقطة الخلاف الرئيسيّة، فبالنسبة إلى المسيحيّين إفساح المجال ولو لشيء يسير إلى ديانات أخرى قد يعني تهديد أساس العقيدة التي تقوم على لوغاريتمات وثوابت تعتبر أركانًا

ثابته. بينما لا يمثل ذلك مخاطرة بالنسبة إلى المسلمين لأن الإسلام ينطلق من بساطة في أساسه العقديّ.

إن غياب الركن الأساسيّ لليهوديّة (وهو اليقين بأن الله قد عهد برسالته إلى شعب وحيد) وغياب الركن الأساسيّ في المسيحيّة (وهو أن حامل الوحي له صفات إلهية)، كل ذلك يجعل من الإسلام أكثر مرونة وأكثر انفتاحًا على من هم خارجه.

ويميز أتباع محمد بين معسكرين كبيرين، دار الإسلام ودار الحرب، وهي دار غير المؤمنين. وإن الخطيئة الكبرى التي لاَ تغفر عند المسلمين هي عدم الإيمان بالله، أما بالنسبة إلى أولئك الذين لاَ يتمردون على الوحي الإلهي حتى وإن اقترفوا الآثام فإن الكتاب الذي نقله الملك إلى النبي تحت أيديهم لهدايتهم ولتصحيح أخطائهم دون تعقيدات كبيرة ولا شروط.

لم يكُن هناك حاجة إذن لإجبار الناس الذين فُتحت بلادهم على اعتناق الإسلام بالقوّة، أو حرق معابدهِم أو كتبهم أو إبعاد قساوستهم أو فلاسفتهم. فكل مَا حدث قبل النبي محمد كان مقبولاً تمامًا ولا يزلزل مَا كان النبي يدعو إليه. كان الأمر يتعلق فقط بخطوة أخرى إلى الأمام وهي قبول الوحي الخاتم، ذلك الوحي الذي يتمِّم ويختم الكتب السابقة.

نحن نتكلم بطبيعة الحال عن مبادئ لاَ يمكن ترجمتها دائمًا إلى سلوكيات فعلية متناسقة معها. فمن الواضح أنه عبر التمكين لها و«الاستعمار» الذي تلا ذلك لأراضٍ جديدة، لم يطبق المسلمون المسيطرون دائمًا قاعدة التسامُح.

ففي العهد المدني الذي تميز بالنضال المسلح، لم يتردد محمد شخصيًّا في تنفيذ مذبحة لأعدائه كما هو الحال بالنسبة إلى يهود بني قريظة، ومع ذلك منح العفو العامّ لأهل مكة بعد أن تأكد له الانتصار الحاسم، ذلك العفو الذي ترك بمقتضاه لكل شخص حرية الاعتقاد في الدين الذي يفضله. تبرز هنا مقارنة تلقائيّة مع تيودوزيو الذي احتفل بانتصار المسيحيّة بتجريم كل الطقوس التي كانت موجودة قبل ذلك، ومن خلال مجموعة من المراسيم التي تحث على الاضطهاد والإقصاء والتدمير. ويتفق كثير من المؤرخين على أن النجاح الأكبر للنبي كان يتمثل في قدرته على تهدئة النزاعات بين أتباعه ووضعه نهاية لثاراتهم، وهكذا بعد موته عام ٦٣٢ ميلادية أصبح من الممكن التوفيق الذي لم يكن ممكنا قبل ذلك بين القوّة التجارية للمدن وحيوية القبائل في الداخل، ووصل الأمر إلى تحقيق كيان سياسيّ واحد.

إن الخلفاء الأوائل الذين أعقبوا محمدًا بعد موته ورثوا التراث السياسيّ والروحي واستثمروا المعجزة التي تمثلت في ظهور تلك القبيلة العظمى للانتقال من الغارات المتفرقة إلى حملات الفتح الحقيقة.

وقد كان فتحًا إعجازيًّا بكل المقاييس، ففي غضون سنوات قليلة وفي عهد الخليفة الثاني عمر استطاعت الجيوش التي رفعت راية الهلال هزيمة أكبر قوتين على حدودها: الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية اللتين أنهكهما القتال المستمرّ بينهما. وقد فر البيزنطيون بعد معركة اليرموك سنة ٦٣٦، وفي العام التالي حدث نفس الشيء في المقاومة الفارسية في القادسية. فقد تهاوت مدينة تلو الأخرى من المدن التي كانت معروفة مثل أنطاكيا، والإسكندرية، وقرطاجنة، ودمشق، والقدس، والقاهرة، وأصفهان. واستطاع الفاتحون الجدد السيطرة خلال فترة وجيزة على مصر، وفلسطين، وسوريا، وبلاد الرافدين، ووصلوا إلى قلب إيران، وبذلك بلغ ملكهم أكثر مِمَّا وصل إليه الإسكندر الأسطوري.

وبالنسبة للنصارى فإن التمكين النهائي لتعاليم الإنجيل كان مصاحبًا لتمكين دينهم كدين رسمي وحيد للإمبراطورية الرومانية بعد أربعة قرون من موت مؤسسها، المسيح.

أما بالنسبة للمسلمين فإن التمكين لتعاليم القرآن على يد الخليفة الثالث عثمان كان مصاحَبًا بنفس القدر مع صعود دينهم كدين رسمي لإمبراطورية، غير أن ذلك لم يكُن بعد أربعمئة عام، ولكن بعد عشرين سنة من وفاة مؤسسه محمد. فلم يتمّ فتح الإمبراطورية من الداخل، ولكنه كان ميلادا جديدا حلّ محلّ أشياء سابقة.

ولكن تُرَى هل كان الاطمئنان الذي يرجع إلى هذه السيطرة السريعة هو الذي جعل الفاتحين الجدد أكثر تسامحا. الأمر الذي اقتفوا فيه أثر المؤسس في اللجوء إلى الأداة الدبلوماسية كلَّما سمحت الظروف بذلك. ويؤكد المؤرخ بيتر براون أن «العرب في أثناء العقدين الأولين لفتوحاتهم حصلوا بالمفاوضات على مَا لم يحصلوا عليه بالسيف. ففي عام ٦٣٨ عندما ذهب بطريرك القدس للقاء خصمه المنتصر، وجد نفسه أمام مجموعة صغيرة من الرجال على صهوات الجياد. لقد كانوا القادة المسلمين الذين أعلنوا أنهم جاؤوا إلى المدينة المقدسة كحجيج»[1].

وإذا كان حقيقة أن العمليات العسكرية لم تشكل مطلقًا باستثناء مقارنة بالسلب والاغتصاب والتعذيب الذي ميّز تلك الحقبة العنيفة، يبقى الأمر الذي يؤكد أن السياسة

[1] بيتر براون، la toge et la mitre , Thames and Hudson سنة ١٩٩٥ ص ١٨٤

الرسمية للفاتحين والتي تتعلق بسلام الاحتلال بعد النصر يستقى تقريبًا من تعاليم القرآن التي تمنع الإكراه في الدين[1].

وليس المقام هنا مقام التعمُّق في الأحداث المتشابكة للأسر التي كانت على مدار أكثر من ألف عام في قيادة الهيئات السياسيّة والإدارية التي نظمت من خلالها الحكم الإسلامي، فقد كانت فترة من الصراع، والتنافس، والخيانة، والمؤامرات والحروب الأهليَّة، والظلم، والمذابح، كما كان الحال لكثير من الممالك الأخرى عبر التاريخ، غير أنها كانت فترة إنجازات غير عادية في كثير من المجالات.

نفكّر فقط في الإسلام السياسيّ الماضي بمفردات إمبراطورية عربية ثم تركية عثمانية. غير أنه لاَ يجب أن يلتبس علينا الأمر ونظن أن العرب والمسلمين هما نفس الشيء. فعلى الرغم من أن الأماكن المقدسة بالجزيرة العربية ظلت دائمًا نقطة ارتكاز ومقصدا إجباريًّا للحج بالنسبة إلى المؤمنين من أركانِ المعمورة الأربعة، ورغم أن اللغة العربية هي لغة الشعائر، فإن العرب يمثلون أقل من خُمس المسلمين في العالم.

ففي فترة ازدهاره القصوى ارتكز الإسلام على الصعيد السياسيّ، ليس فقط على قوة عظمى واحدة، بل على قوى عظمى ثلاث. ففي القرن السادس عشر، أي على أعتاب تلك الحقبة التي تمثل بالنسبة إلينا العصر الحديث، والتي مثلت الخط الفاصل بين عالمنا وعالمهم – كانت هناك ثلاث إمبراطوريات عظمى تسيطر على المسرح العالمي تحت راية الهلال: الإمبراطورية العثمانية في آسيا الصغرى، الأناضول، العراق، سوريا، شمال إفريقيا، والإمبراطورية الصفوية في إيران، والإمبراطورية المغولية في شبة القارة الهنديّة.

ويوضحِ كارين أرمسترونج أن كل واحدة من هذه التكتلات السياسيّة كانت تعكس شكلاً مختلفا من الروحانية، أي ثلاثة تفسيرات لتراث محمد. فالإمبراطورية المغولية كانت تجسّد العقلانيّة الفلسفية المتسامحة والعالمية والمعروفة باسم «فلسفة». وإمبراطورية الشاه (الصفويون) كانت تحول التشيُّع الذي كان دين الصفوة آنذاك، إلى دين للدولة. أما الإمبراطورية العثمانية فقد بقيت سُنيّة وكانت ترتكز على تعاليم القرآن في المقام الأول.

[1] في هذا إشارة إلى الآية ٢٥٦ من سورة البقرة ((لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)) والآيتين ٩٩، ١٠٠ من سورة هود ((وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ))

غير أن هذا التطوُّر الاجتماعيّ والثقافيّ لهذه الصور الثلاث للإسلام هو الذي يمدّنا بالتأكيد الجازم عن الطابع التعدُّدي والمتسامح لهذا «الاستعمار» الخاصّ، لأن كل واحدة من هذه التجمعات تميزت بسمات خاصّة لا يمكن أن تتحقق دون اندماج متدرج ومتناغم مع التراث المحلي الأصلي.

انصهار العناصر في الفرن الآسيويّ

إن عمليّة أسْلَمة أقاليم واسعة من الكرة الأرضية قد جرت على أثر جيوش منتصرة فرضت نظمها، ومع ذلك بالمقارنة مع عمليّة الاستعمار الأوربيّ فإنه يبدو أن عمليّة الأسْلَمة هي أكثر احتراما للمعتقدات والثقافات الأصلية. فعلاقة الفاتحين المسلمين بأصحاب البلاد الأصليين اتخذت مراحل وأشكالاً متنوعة حسب كل بلد، وفق السياق التاريخي، وحسب ميول وطباع ذلك الرئيس أو ذاك، ولكن لم يحدث قط أن وصلت هذه العلاقة إلى الشطط الذي ميّز الاستعمار الغربيّ: الإكراه في الدين، إبادة المعارضين، نزع الثروات، تغيير التوازن الديموغرافي لصالح المستعمرين، انتهاءً بالإبادة. ولا يجب أن نغفل تلك الحقيقة التي أبرزها مؤرخون غربيون، وهى أنه خلال تقدُّم الفاتحين المسلمين لم نجد أي بعد عنصريّ يخالف فكرة الأمة.

فعلى خريطة الأديان في العالم في واحد من كتب أطلس المتخصصة[1]، يبرز للناظر مباشرة أن التركيز الأكبر للمسلمين، فضلاً عن شمال أفريقيا، يوجد في آسيا. ولا يفاجئنا أن الوحي القرآني الذي كان مهده في الجزيرة العربية والتي تُعتبر جزءًا من القارة الآسيويّة، قد اتجه ناحية الشرق. ومع ذلك فإنه بالنسبة إلينا نحن سكان حوض المتوسط يفاجئنا أن نكتشف أن أكبر بلد إسلامي من ناحية التعداد السكاني هو إندونيسيا، الذي يوجد على الناحية الأخرى من الكرة الأرضية بالنسبة إلى الشرق الأوسط، وأن بلادًا إسلامية أخرى آسيويّة مثل باكستان، وبانجلاديش، والهند، يزيد فيها عدد السكان المسلمين عن أي بلد عربي. وهناك كذلك في آسيا عدد من البلاد الأخرى ذات الثقل السياسيّ والثقافيّ والاقتصادي والتي تختلف فيما بينها، إلا أنها تتميز باعتناق عدد كبير من السكان فيها للإسلام: سريلانكا، أفغانستان، نيبال، ماليزيا، بروناي، جنوب الفلبين، بعض مناطق تايلاند، جزء من سنغافورة، جمهوريات مختلفة من الاتحاد السوفييتي سابقًا، وفي إقليم سينكيانج الصيني.

---

[1] انظر أطلس ٢٠٠٤ : العالم الدبلوماسي، دار النشر الايطاليّة مانيفستو»، ص ٩٠

وسواء أعجب كلامي أم لم يعجب، فإن القرآن لا التوراة ولا الإنجيل كان الطريق الذي من خلاله استطاع الفرس، والهنود، والماليزيون، وآخرون كثيرون، لقاء الله، رب الوحي التوحيدي. نعم، لا يمكن أن يُعتبر الدين منتجًا بسيطًا قابلاً للتصدير، ولا يمكن تحديد نقاط التغلب الدينيّ كما هو الحال بالنسبة إلى النشاط التجاري. ومع ذلك فإنه بالنسبة إلى الدين المسيحيّ فإن إخلاء الساحة بصورة واضحة لرسالة عالمية أخرى تعتبر تحديًا للمسيحيّة، يمثل إخفاقًا صعبًا لا يجب التقليل من شأنه.

لماذا يصل عدد المسلمين في آسيا إلى ملايين بينما يُعَدُّ المسيحيّون بالآلاف؟ هناك افتراض جذّاب إلى حدّ كبير وهو ذو طبيعة استراتيجية: فالمسيحيّة في توسُّعها المندفع تمّ وقفها على طول المحور الجغرافي للشرق بسبب أنها كانت شبيهة بالإمبراطورية الرومانية. ومن ثم فقط انتهت عند تماثلها مع حدود الرومانية، ومن ثم وجدت عائقًا سياسيًّا ونفسيًّا في احتلال مساحات جديدة[1].

ولقد كان اعتناق الكثيرين التلقائى للإسلام في حقيقة الأمر، وهو مَا حدث على أرض آسيا الصغرى وفي أفريقيا وفي صقلية وفي إسبانيا، حيث كانت المسيحيّة سيدة الموقف على مدى ستة قرون، كل ذلك يكذّب نَظريّة تقسيم مناطق النفوذ.

وكما يؤكد جوستاف لوبون، وهو خبير بالعالم الإسلامي، فإن هذه النَّظريّة لاَ تفسر لنا كيف أنه على أراضٍ لم يفرض العرب عليها سيطرتهم وفقط مرُّوا عليها مرورًا مثل شبه القارة الهنديّة، أمكنَ أن يكون هذا العدد الكبير من الذين اعتنقوا الإسلام بطريقة واضحة هكذا[2].

ويبدو لي هذا جديرًا بالتصفيق، بافتراض أن بين رسالة القرآن والشعوب التي اتصلت معها تشابهًا كبيرًا، فرسالة القرآن لطبيعتها الخاتمة قريبة أكثر من طبيعة «الفلسفة الأبدية»، ومن ثم كانت الصعوبات التي في طريقها أقل، مقارنة برسالة الإنجيل، لتطوي فلسفات، ومدارس فكرية، وطقوسًا، كانت تقابلها في طريقها.

وعلى الرغم من أن المؤسسة الإسلامية كانت تبدو ليست أقل معارضة من المؤسسة المسيحيّة للخبرات الإدماجية، كما كانت مؤسسة أكبر Akbar، إلا أن محاولات أخرى كثيرة للتواصل مع الطقوس المحلية تمت بنجاح كبير تحت راية التسامُح، فقد توقفت المحاولة الوحيدة التي قام بها الجانب الكاثوليكي للتواصل مع «الطقوس الصينيّة».

---

[1] جاني باجيت بوتسو، في مواجهة الإسلام، طباعة ماريتي، جنوة ٢٠٠١، ص ١١: ١٦

[2] جوستاف لوبون، حضارة العرب، عمل سبق ذكره، ص ٧٧

وعلى أي حال فإن انتشار الدين الإسلامي ناحية الشرق كان له أثر كبير، ويمكن مقارنته بانتشار البوذية قبل ذلك بقرون.

وقد كانت أول حملة كبيرة لأسلمة آسيا على أرض فارس، أكبر قوة معادية لروما وبيزنطة، ومن هنا نجد دليلاً قاطعًا على تسامح تلك الأسلَمة، فيمكننا أن نتحدث عن الإدماج أكثر من حديثنا عن احتلال أو اعتناق دين، وكان يجب أن تمر عدة قرون قبل أن يمتد دين الفاتحين إلى غالبيّة السكان. وعندما انتهت تلك العمليّة تركت آثارًا ثقافيّة متعددة صبغت بها الثقافة المحلية، وانتقلت إلى الطبقة المسيطرة. وقد أدَّى تمكين الشيعية تحت حكم الأسرة الصفوية إلى زيادة خصوصية ذلك التعايش الذي جعل من بلاد فارس موطنًا للثقافة الإسلامية الوليدة في العصر الكلاسيكي، والتي اتسعت شيئًا فشيئًا وامتدت إلى شعوب أخرى من أصل شبيه بالأصل الإيراني مثل الأكراد، والأفغان، والطاجيك، والأوزبك، والباكستانيين.

وتعد شبه الجزيرة الهنديّة المنطقة المهمة جدًّا بوصفها «إناء الخلط» بين الإسلام والثقافات المحلية، حيث بدأ الدين الجديد في التغلغل عبر فارس وأفغانستان، بفضل النشاط الدعوى للصوفيين الذين كان زهدهم ملائما لذلك العالم المتدين.

أما القفزة الكبرى في أسلَمة هذه الأراضي المترامية فقد كانت بدءًا من القرن الثاني عشر ومع غزو المغول الذي هزّ وغيّر أسس النظام العالمي المعروف لعدة قرون، وانساح في الأرض في اتجاه الجنوب الشرقي في اتجاه الصين، وإلى الغرب في اتجاه روسيا والسهول الخصبة بأوربا. هذه الشعوب من البدو الرُّحَّل كانت شبيهة بشعوب أخرى بدوية سبقتها، وكان لديها استعداد كبير لأن تتخلى عن معتقداتها الطبيعيّة وعن طقوسها التي تقوم على السحر لصالح الديانات الأفضل للشعوب التي كانوا يحتلونها. وفي داخل هذه الموزاييك الرائع الذي كان يكوِّن الإمبراطورية الهائلة التي أسّسها جنكيز خان، أظهرت التجمعات التي انقلبت على ثوابت الخلفاء وانصهرت مع التجمعات التركية، استعدادها لتلقّي الرسالة التي جاء بها الكتاب المقدس الذي أنزل على محمد، والذي كان يمكن أن يصدر عن «السماء الزرقاء الأبدية»، وهو الأساس الدينيّ لأجدادهم. فقد قام رؤساؤهم بإدماج دين القرآن مع قوانينهم وعاداتهم في الأراضي التي فتحوها حديثًا. وبطبيعة الحال لم تتم عمليّة الإدماج هذه دون ألم، كما هو الحال بالنسبة لأي شعب عندما يخضع للسيطرة الأجنبية. فإدماج العرب والأتراك والمغول على الأراضي الهنديّة تميز في البداية بتدمير المعابد، والمذابح، وكل أنواع الظلم تجاه الأماكن، غير أنه تمّ بالتدريج الوصول إلى طريقة للعيش تقوم على احترام الغزاة لعادات وطقوس أصحاب البلاد الأصليين الذين انتقلوا من وجهة نظر الفاتحين من تصنيفهم كوثنيين (كفار) إلى أهل كتاب (ذِمِّيِّين).

ففي شمال الهند نجد أن الوقت الفاصل لتمكين الإسلام حدث في القرن السادس عشر بتكوين إمبراطورية المغول على يد بابور حفيد تيمور لنك. فقد تأسست مملكته عام ١٥٢٦، أي بعد نحو سبعين عاما من حصار العثمانيين للقسطنطينية، وقد اعتُبرت هذه المملكة نموذجًا للإدارة الجيدة وللتعايش السلمي مع الشعوب الأصلية. ويُعتبر منعُ هذا الإمبراطور الإسلامي رجالَه عند حصارهم للعاصمة الجديدة للمملكة دلهي، من ذبح الأبقار، احتراما لمشاعر السكان المحليين، أمرًا له دلالته.

ويُعتبر حفيده الأكبر هو أكثر الحكام تسامحًا في هذه الأسرة، بل وأكثرهم استنارة في تاريخ الهند. فقد انتهج منهجًا سياسيًّا انفتاحيًّا نحو السكان الأصليين بمنحهم حكما ذاتيًّا أوسع، لدرجة أنه ترك لهم حكم أنفسهم، لاَ على أساس الشريعة الإسلامية، بل على أساس الشريعة الهندوسية، وكذلك ألغى الجزية التي كانت مفروضة على غير المسلمين.

ولكن المجال الذي تميز فيه أكبر بقوة كان المجال الثقافيّ الدينيّ، الذي كان يستمدّه باستمرار من مبدأ التسامُح العالمي، وذلك تحت تأثير مستشاره المقرب الفيلسوف أبو فضل الذي كان من المتيمين بأفلاطون. وقد ذهب هذا الإمبراطور المغولي الكبير إلى أبعد من ذلك، إلى تأسيس ديانة جديدة هي خليط من الإسلام والهندوسية والمسيحيّة، واليانية، والزرادشتية، تلك الديانة المعروفة بالدين الإلهي، والتي لاقت مقاومة شرسة واستمرّت فقط طوال فترة مملكته.

ولكن بطبيعة الحال لم تكُن الحقبة المغولية كلها زهورًا وورودًا، إذ إنها كانت مزيجًا من مراحل العيش السلمي، وكذلك فترات اللا تسامح. فالإمبراطور أوران ذيب على سبيل المثال كان صاحب نظام متزمت، وفرض على الجميع الالتزام الصارم بالإسلام، وهدم المعابد والرموز الهندوسية. ومن الواضح أن الهندوس المتطرفين في حملتهم المضادة للإسلام يشيرون إلى هذه الفترة من الظلامية ويظهرون أن التاريخ مخزن كبير يمكن أن ننهل منه لنصل إلى أهدافنا.

ولا أحد يستطيع أن ينكر –حتى أشد المتعصبين– آلاف الأدلة التي تُظهِر هذا التمازج والاندماج الثقافيّ بين الفاتحين وأصحاب الأرض الأصليين، الذي أعطى الحياة إنجازات في كل مجالات الاتصال بين البشر، من اللغة إلى الموسيقى، ومن الشعر إلى العمارة. وأكتفي هنا بذكر مثالين: تاج محل، وهو الأثر الرائع الذي يظهر في كل خطوطه انصهار روحيّ لعالمين. واللغة الجديدة التي وُلدت في أعقاب الاحتلال المغولي، ألا وهى اللغة الأوردية، التي أصبحت وسيلة مهمة للتعبير عن الفكر الإسلامي وعن الإحساس الهندي، وهى الآن واحدة من أهم اللغات الإسلامية التي تحتوى على

عناصر عربية في ترتيبها الهجائي، وفارسية في مفرداتها، وهندية في بنيتها الصرفية والنحوية[1].

وفي هذه الحقبة نفسها وعلى الناحية الأخرى من الكرة الأرضية وفي جزر «الهند الجديدة»، كان خلفاء الغزاة الإسبان يمارسون خليطًا من عدم الفهم والعداء تجاه «الوثنيين» الذين ينتمون إلى حضارات المايا، والإنكا، والأزتيك (سكان المكسيك قبل كولومبس)، وقد نقلوا محاكم التفتيش أيضًا إلى هذه الأماكن.

وعلى الصعيد الآخر السياسيّ والثقافيّ في القارة الآسيويّة نجد أنه في الصين العملاقة وصل المسلمون في حقبة مبكرة، سواء عن طريق البحر (كما هو حال العرب حتى قبل محمد) أو بالبر عبر طريق الحرير، ولكن لأعداد محدودة نسبيًّا. وعقب هذا التغلغل، وفي عصر تانج في القرن العاشر، تكون أول التجمعات الإسلامية خصوصًا على طول الشريط الساحلي وفي إقليم يونان. وفي هذه الحالة أيضًا أعطى الغزو المغولي دفعة قوية للوجود الإسلامي على الأراضي الصينيّة الحدودية، هو وجود ظل محدودًا مقارنة بمناطق أخرى، حتى وإن ظل في زيادة متدرجة حتى عصر منج. وشيئًا فشيئًا ظهرت صيغة أصلية للثقافة الإسلامية واحتوت أوجهًا كثيرة من الثقافة الصينيّة.

ومع قدوم أسرة شينج في القرن السابع عشر، وتحت مملكته، حدثت دفعة هائلة في اتجاه آسيا الوسطى، وهو وجود لحزام من الدول الإسلامية على الحدود الصينيّة، الأمر الذي أصبح مصدر قلق للنظام السياسيّ وفتح الباب أمام عمليات «تطهير عرقي» داخل الإمبراطورية، تهدف إلى القضاء على الجيوب الإسلامية. وهذه السياسة غذّت المشاعر المناهضة للإسلام حتى لدى الرأي العامّ الذي كان عنده ميل إلى ذلك، أو غير عابئ.

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبالتزامن مع احتلال حكومة بكين لإقليم تركستان الشرقية وتغيير اسمه إلى سينك يانج، حدثت ردود أفعال دفاعية عديدة من جانب المسلمين في كل أنحاء الصين، انتهت بحمامات دم وبالقضاء على مجتمعات إسلامية وليدة.

ومع ذلك توجد أقلِّيَّات إسلامية منحدرة من أصل تكرماني حتى اليوم، ليس فقط في سينك يانج حيث تظهر هذه الأقلِّيَّات حيوية دائمة على الصعيد الثقافيّ، بل كذلك في مقاطعات أخرى.

---

[1] أديان في مواجهة، سبق ذكره، ص ص ٦٦٦، ٦٦٧

طريق أفريقيا إلى الإسلام

إن انتشار القران في أفريقيا السوداء يرجع إلى عصر النبي عندما تمت أول هجرة لبعض أتباعه من مكة إلى الحبشة. وقد ارتكز الإسلام في بادئ الأمر في الشريط الساحلي الشرقي القريب وعلى طول طرق القوافل، وقد أدّى ذلك إلى تكوين جيوب مستقلة وأحيانا مؤثرة، كما الحال في زانز بار. وقد أدّى الاتصال بقبائل البانتو إلى ميلاد لغة جديدة للاتصال وهى السواحيلية.

وقد امتد التوسُّع في وقت متأخر بعد ذلك إلى أفريقيا الغربيّة بسبب صعوبة الاتصال عبر السافانا والغابات. وقد تطورت في مالي أهم مملكة تلتزم بتعاليم القرآن. وكانت تنبكتو مركزًا مزدهرًا لنشر الثقافة الإسلامية، وقد اتسع تدريجيّا تغلغل الإسلام إلى إقليم الهاوسا، ووصل إلى ذروته في القرن السابع عشر عشية الاستعمار الأوربيّ، وذلك بتكوين سلسلة من الدول الإسلامية التي التفت حول قيادات لها كاريزما في أفريقيا الغربيّة.

وفي اتجاه الجنوب في السودان وفي النوبا، وهى مهد حضارة قديمة احتضنت المسيحيّة، صادف التغلغل العربي وبعده العثماني مقاومة صلبة، ولكن في النهاية أصبحت هذه المنطقة إسلامية.

ويمكن أن نقول إجمالاً إن الإيمان بالقرآن في أفريقيا قد حدث بطريقة سلمية من خلال الاتصالات التجارية. غير أن هناك نقطة سوداء لا يمكن التقليل من شأنها، لأنها تشوّه هذه الصورة الايجابية للإسلام، ألا وهى العبوديّة التي كان التجار العرب أكبر القائمين عليها. وتفرض علينا الموضوعيّة التاريخيّة أن نذكر أن العرب لم يكونوا وحدهم تجار الرقيق، ولكن الاتجار بالبشر الذي كان يستفيد منه في المقام الأول المستعمرون الأوربيّون، كان يغذّيه الصراعات بين القبائل الأصلية نفسها، التي كانت على استعداد لبيع أسرى الحرب، والذين كانوا يجهّزونهم مقيَّدين وجاهزين للنقل لدى وصول التجار المهرِّبين. يبقى القول إن تجارة الرقيق على نطاق واسع قد بدأت من جانب المسلمين قبل بيع الرقيق عبر الأطلنطي في اتجاه أمريكا بقرون عديدة.

ويهمُّنا هنا أن نلاحظ أنه مثل مَا حدث في آسيا فإن اندماج القرآن في القارة السوداء، على الرغم من أنه كان دمويًّا وعنيفا في كثير من الحالات، يكشف عن قدرة هائلة على التصالح بين الانتماء الدينيّ والهوية العرقيّة، ويستوعب بسهولة الإرث الثقافيّ والدينيّ الذي كان موجودًا قبل ذلك. إن زعماء الدين الإسلامي في كل القارة الأفريقيّة قد كان لهم دور كبير في المقاومة ضدّ الإيديولوجية الشيعية، حتى بعد وصول الأوربيّين

في الحقبة الاستعمارية. وفي هذا الصدد كان للجمعيات الإسلامية أهمية كبيرة لتكييف تعاليم القران مع الحس الأفريقي.

واليوم في إفريقيا نجد نيجيريا، وهى دولة غير عربية، تسجل أعلى عدد سكان للمسلمين. ومن المهم في النهاية أن نؤكد هنا على أن مسلمي الولايات المتحدة يتكونون في نسبة كبيرة منهم أمريكيون من أصل أفريقيّ، والذين يحاولون إعادة اكتشاف جذورهم والذين يعتبرون -حتى وإن كان غير منطقي- أن قربهم من العقيدة الإسلامية يعد بمثابة وسيلة لأن يكونوا أوفياء لأصولهم، وأن يتخلصوا من ماضي العبوديّة الذي تظهر فيه الكاثوليكية والبروتستانتية المتزمتة كدين للآباء البيض.

أهل الكتاب في حوض البحر المتوسط

إن أفضل أرض لقبول إذا مَا كانت القوّة الإسلامية الجديدة الصاعدة قد استوحت حقيقة مبادئها من التعددية والتسامُح هي تلك الأرض الحدودية المتاخمة للديانتين الإبراهيميتين، التي وجد النظام السياسيّ والدينيّ الجديد نفسه وجهًا لوجه معها دون حواجز أو وسطاء.

كيف تصرف الفاتحون الإسلاميون وهم يستوطنون العواصم الكبرى للحضارة الإغريقيّة -الرومانية واليهوديّة- المسيحيّة؟

فقد استمرت مصر وسوريا حتى بعد الاحتلال العربي في الاحتفاظ بعلاقات حميمة مع كل العالم. وكان الحجيج المسيحيّون يستطيعون الذهاب من إيطاليا إلى القدس وهم أمنون. وفي إسبانيا كتب المفكرون اليهود أعمالاً باللغة العربية أكثر ممَّا كتبوه باللاتينية، وعندما انتهت سيادة المسلمين، تَمّ طرد التجمعات اليهوديّة من شبه الجزيرة الإسبانية، ووجدوا استقبالاً ودِّيًا في بلاد إسلامية مختلفة بعد طردهم. وهناك استطاع اليهود أن يحتفظوا بسماتهم الثقافيّة الخاصّة داخل البيئة المحلية، تَكوّن معها فرع من الشتات اليهوديّة السفرديم بخصائص تختلف تمامًا عن ذلك الفرع الذي تَكوّن وسط أوربا. إن الإسبان في جنوب شبه الجزيرة تحت الحكم الإسلامي أطلق عليهم «أشباه العرب»، لأنهم كانوا يريدون أن يكونوا مثل العرب. وقد كتب أحد الأساقفة في قرطبة في القرن الحادي عشر:

«كثير ممن هم على ديني يقرؤون آيات وحكايات عربية، ويدرسون عمل الفلاسفة وعلماء الإسلام، ليس بهدف دحضها، ولكن ببساطة ليتعلموا وليعبروا عن أنفسهم بلغتهم بصورة أكثر أناقة»[1].

فهناك واحد من فلاسفة الإسلام المشهورين ولد في هذه الحقبة وفي هذه المدينة وهو ابن أحد القضاة، إنه ابن رشد، الذي لا نعرف على وجه الدقة إذا مَا كان عربيًّا أم إسبانيًّا. فقد وصلت أعماله إلينا باللغة العبرية واللاتينية، وأثْرَت الفكر الأوربيّ مثلما أثرت الفكر الإسلامي[2]. إنه لحق القول إننا مدينون للعرب بإعادة اكتشاف أفلاطون وأرسطو ومؤلفين كثيرين آخرين. فلولا الأبحاث الدءوبة والترجمات وتعليقات مثقفيهم، ولولا إتاحة الفرصة للدارسين المسيحيّين للنسخ وللتعقيب على نصوص الأقدمين التي تمّ اكتشافها، لكان الجزء الأكبر من هذا التراث قد فقد. إن آخر آباء الكنيسة وأكبر عالم لاهوت في الجزء البيزنطي والذي تمّ انتخابه قديسًا باسم يوحنا الدمشقي، كان مسيحيًّا عربيًّا واسمه في الحقيقة يحيا ابن سرجون ابن منصور. وقد عمل كاتبًا في بلاط الخليفة وتحت حمايته، وقد استعمله الخليفة على الخزائن، وهو المنصب الذي كان يشغله جده في أثناء حكم هيراكليوس. دليل آخر على التسامُح الإسلامي في الأراضي التي احتلها في منطقة المتوسط نجده على الصعيد الإداري-القضائي، وذلك من خلال الوضع الخاصّ الذي أتاح للآخرين أن يحتفظوا بمعتقداتهم الدِّينيّة. فحسب الشريعة الإسلامية كان يتمتع كل أهل الكتاب بحماية خاصّة وبحقهم في اللجوء إلى قوانينهم.

فعند فتح أراضٍ جديدة كانت الشعوب الخاضعة تُخَيَّر بين اعتناق دين السادة الجدد، والاحتفاظ بدين الآباء. فإذا مَا اختاروا الأخيرة يستطيعون مواصلة حياتهم في هدوء وممارسة شعائرهم دون مشكلات، بل يضمن لهم حماية خاصّة لعلمائهم. ويطلب منهم في مقابل ذلك دفع ضريبة خاصّة بموجب عقد خاصٍّ هو عقد الذمة. فالذِّمِّيُّ هو غير المسلم الذي يستفيد بهذا الوضع. وأهل الكتاب، فضلاً عن دفعهم الجزية، كانوا يخضعون لبعض المحظورات، مثل حمل السلاح، ولكنهم كانوا يستطيعون القيام بأي عمل وممارسة شعائر دينهم، وصيانة أماكن عبادتهم، وإعادة بنائها في بعض الأحيان. وتتبع جماعة أهل الذمة رؤساءهم الدينيّين الذين كان لهم سلطة القضاء بينهم من الناحية المدنية، وكانوا يمارسون فض المنازعات والتحكيم بينهم، وكانوا يشرفون على تعليم الشباب ويختارون باستقلالية تامة مَا يتعلق بمعلميهم ونصوصهم، ومسار دراساتهم. ويتشابه مع حالتهم أولئك الأجانب الذين يقيمون على الأراضي الإسلامية بصورة مؤقتة، وهم المستأمنون، أي الذين يتمتعون بالأمان، ويستطيعون طلب مد إقامتهم ويصبحون

[1] بيتربراون La Toge et la mitre، عمل سبق ذكرة ص ١٨٦
[2] م. طالبي، الإسلام والحداثة، في الأصولية، الجزائر، طبعة الفجر، مارسيليا ١٩٩٦.

ذميين. وإجمالاً نقول إن هذه الجيوب غير المسلمة كانت تتمتع بحكم ذاتي واسع إلى حد أنهم كانوا يشكلون دويلة داخل الدولة، وعندما استولت القوى الأوربيّة على هذه الأراضي أرادت أن تكيف النظام لمصلحتها عن طريق فرض نظام «الامتيازات والإذعان» الذي كان يعطيهم الحقّ في تخلص مواطنيهم من النظام المحلي، وأن يمارسوا عليهم قوانينهم الخاصّة بهم[1].

ومرة أخرى تبرز مقارنة تلقائيّة غير متملقة مع العالم المسيحيّ. ففي العالم المسيحيّ لم يكن موجودًا وضع متميز للجيتوهات العبرية. أما في ما يتعلق بفكرة وجود مناطق حماية للمسلمين الذين بقوا على الأراضي التي تَمّ استردادها بعد إعادة تحرير إسبانيا، فإن ذلك ربما يبدو غير مفهوم، ليس فقط بالنسبة إلى الإسبان، ولكن بالنسبة إلى كل حاكم مسيحيّ آخر. فبعد سقوط غرناطة، تَمّ طرد مسلمي إسبانيا بلا هوادة وبلا احترام للآدمية. أما بالنسبة إلى اليهود فقد سُمح لهم بالبقاء فقط في حالة اعتناقهم الفوري للمسيحيّة، فضلاً عن مراقبتهم اللصيقة والدائمة للتأكد من أنهم لم يفعلوا ذلك لمجرد التعايش فقط.

ولا يبدو أن السلطات المسلمة عندها هذا النوع من المشكلات. فكثير من معتنقي الإسلام كانوا من ذوى المكانة المتواضعة، ولكنهم اعتنقوا دين الفاتحين بحماس، كما حدث في دول البلقان حيث كان يوجد أعضاء من جمعيات مسيحيّة مضطهدة بسبب الهرطقة، الذين استقبلوا الفاتحين الجدد كمحررين، وكثيرون آخرون اعتنقوا الدين بسبب المواءمات، ومن بينهم أسرى حرب ورهائن تَمّ القبض عليهم في غارات قرصنة، وكان قد أطلق عليهم من قبل المسيحيّين «المنبوذون». ولكن هؤلاء وأولئك قد تَمّ احتضانهم في عائلة القرآن الكبرى، دون سفسطات كثيرة. وقد احتل عدد من هؤلاء «المنبوذين» أماكن لها قدرها في الإمبراطورية[2]. وإجمالاً نقول إنه أيضًا في داخل الدائرة الإسلامية القريبة منا جدًّا كانت معاملة الأقليّات الدِّينيّة أفضل، وإن كان حدث استثناءات في سياقات أخرى (الأرمن والأكراد)، فإن ذلك يرجع إلى أسباب سياسيّة بالدرجة الأولى لا دينيّة[3].

وكما هو المصير المحتوم لكل بناء سياسيّ كبير بلغ الذروة في قوته، فقد بدأ الخط البياني للإمبراطورية العربية في الهبوط، وبلغ نهايته، وذلك بسبب سلسلة من العوامل

---

[1] برنارد لويس، الإسلام والغرب، طباعة جامعة أكسفورد، مرجع سابق ص ٤٧.

[2] بيتر براون La Toge et la mitre، مرجع سابق، صـ١٨٨. ومن بين الأمثلة العديدة مثل واحد ممن شاركوا من الجانب العثماني في معركة ليبانتو، وكان في قيادة الأسطول البحرى الجزائرى، وهو علي بيخين.

[3] في اسطنبول يوجد حتى الآن مقر الكنسية الأرثوذكسية. وفي العراق وإيران يمكن أن تشهد قداسًا مسيحيا بلغة الآرامية. وحتى في لبنان كان هناك نموذج للتعايش السلمى لمختلف العقائد والثقافات حتى تفجر الصراع في الشرق الأوسط في السبعينيات. أنظر أديان في مواجهة، مرجع سابق، ص ٧٠٧.

السلبية التي من بينها الانقسامات الداخلية والتي ورثها كما سنرى الأتراك والمغول. وهؤلاء هم بدو رُحّل آخرون سحرهم القرآن كما سحر الإنجيل البربر، فأخذوا قبسة من الخلفاء الكبار وأظهروا حماسا دينيا منقطع النظير. وقد وحّد الأتراك العثمانيون تحت سيطرتهم الأراضي المسيحيّة الأرثوذوكسية، كما فتح العرب الممالك القديمة لحضارات الشرق الأوسط، وأصبحوا بذلك أهم مكون للحضارة الإسلامية. وقد أسقطوا بطريقة قطعية القوّة الكبرى الأخرى التي ظلت تحرس التراث الروماني لمدة تجاوزت ألفي سنة، أي بيزنطة. فقد تمّ فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ وأصبحت بيزنطة عاصمة الدولة العثمانية، ذلك الفتح الذي يمثل أحد الأحداث الفاصلة في التاريخ، وقد كان ذلك تمهيدا لمرحلة التوسُّع الإسلامي الذي أقلق التوازنات السياسيّة العالمية.

وقد مثلت الإمبراطورية العثمانية التي امتدت من الجزائر حتى البلقان كابوسًا لقادة الكنائس الأوربيّة على مدى ردح من الزمن. فقد كانت فيينا على وشك السقوط في يد الأتراك مرتين (١٥٢٩ و١٦٨٥)، وقد كان الأتراك على وشك التوجه جنوبًا ليصلوا إلى نفس الهدف الذي حاول العرب الوصول إليه من ناحية الغرب عبر جبال البرانس قبل ألف عام. وقد أدَّى العداء بين العثمانيين والصفويين إلى مزيد من الانقسام داخل الأمة، وقد كان تأثير العربي التركي في الجزء الغربيّ من العالم الإسلامي، بينما كان التأثير الإيراني في الجزء الشرقي.

ولم يكُن الأتراك مثل العرب فقط، تجارًا بائعين أو قادة عسكريين، ولكنْ أظهروا كفاءات خارقة على المستوى التنظيمي والتشريعي في إدارة هذا الخليط الكبير من البشر، كما أنهم أظهروا احتراما كبيرًا للثقافات المحلية. ولكن سياستهم التوسُّعية كانت مختلفة عن سياسة خلفاء النبي، فقد كان اندماجهم مع حضارة السكان الأصليين أقل ديناميكية. وقد كانت عمليّة الانهيار سريعة، فشيئًا فشيئًا طغى الخوف من الجديد، وضرورة الدفاع عن أصل العقيدة ضدّ التهديدات الخارجية على أي هاجس آخر، وظهر معها ذلك الحزام الواقي الذي اقتطع من العالم الإسلامي من التيَّارات الفكرية المعاصرة، وأوصله إلى الركود والعزلة.

انطلاق نحو المستقبل أم انغلاق على الماضي؟!

نستطيع عند هذه النقطة أن نختم هذا العرض التاريخي الجغرافي بهذه الخاتمة الواضحة: إذا كنا نجد اليوم الإقصاء في المجتمعات الإسلامية قد حل محل الانفتاح

القديم نحو ثقافات أخرى، فإن مرجع ذلك ليس إلى ظهور نزعة توسُّعية، بل على العكس، إلى انطواء وانغلاق على النفس.

إن عقيدة القران قد تحللت هكذا من السياق الزمني لكنها ترتبط في الوقت نفسه بأسطورة الأصول، فهذه العقيدة كانت دائما محافظة بطبيعتها. وهذا الزخم المبدئي الذي أثار شهوة أبحاث ذهنية واستيعاب لملامح ثقافيّة أجنبية، قد حَيّد لوقت مَا هذا التيَّار المحافظ، ولكن عندما نفدت قوة الدفع من جانب من اعتنقوا الدين حديثًا، لم يمس منحنى الهبوط الجوانب السياسيّة فحسب، ولكنه امتد أيضًا ليشمل القدرة على استيعاب مَا هو جديد، وعندما كانت أوربا والولايات المتحدة وما نسميّه بالبلاد البيضاء التي أطلق عليها فيما بعد دول الغرب يحققون من خلال سلسلة من التوجهات الكبيرة (عصر النهضة، حركة الإصلاح، عصر التنوير، الثورة الصناعيّة، حركة تعظيم دور العلم) تغيُّرًا جذريًّا بالنتائج المادية والروحية التي نطلق عليها «الحداثة»، فإن الأمة الإسلامية في غالبيتها كانت فريسة للإمبريالية-الاستعماريّة، أي لاقت نفس مصير العالم الثالث، لأنها ظلت ثابتة لا تتحرك وقد مرت بها رياح أفكار جديدة.

وليس ذلك لأن هؤلاء الناس -أو على الأقلّ الطبقات المتميزة منهم- لم يدركوا كم من الأشياء يتغير أمام بيتهم. فداخل المجتمعات الإسلامية من الدار البيضاء وحتى جاكرتا كان الجدل حول التخلص من الحماية الأجنبية يتسع ليشمل كيفية التكيف مع واقع العلمانيّة والتحديث الذي بدأ في كل مكان في العالم. فقد كان هناك تشابه واضح مع مَا رأيناه يحدث في الهند في نفس الحقبة، ولكن هناك فارقًا كبيرًا: أنه في البلد الآسيويّ الوثني أدخل الدين كعنصر دعم للحركة الاستقلالية، بينما في البلاد الإسلامية ظل الدين في المكان الأولى كعنصر يضبط بطريقة محددة الاتجاه الذي يجب أن تأخذه النهضة السياسيّة الثقافيّة، وقد وضع في الصف الأول حتى قبل القوميين «أصحاب الإيمان النقي والقوي».

إن الأصولية الإسلامية التي نراها اليوم فقط كمحرك للتعصب والإرهاب كانت وستظل العنصر الرئيسيّ في خصومة إيديولوجية بدأت منذ بداية القرن الماضي بين مشروعين متعارضين يتواجهان ولكن دون أن يتفوق أحدهما على الآخر حتى الآن: أحد المشروعين متجه إلى المستقبل، والآخر متجه إلى الماضي بمعنى عمليّة إصلاح واستعادة مستحيلة للقواعد والقيم الأصلية. وسنحاول أن نحلل هذه الإشكالية الدراماتيكية عن قرب أكثر.

الفصل الرابع عشر

الأصولية الإسلامية

"... لو اعتبرنا أنه من المضحك أن يصف إنسان على سبيل المثال الشمس قائلاً: «هذا النجم قديم ورجعي ويجب أن يستبدل به نجم تقدمي» أو يؤكد: «إن الإنسان مخلوق قديم ورجعي ويجب أن يتم تغييره بإنسان آخر تقدمي وبصورة تجعل الأرض مكانا أفضل»، فسيكون من المضحك أكثر أن نستخدم هذا التعليق بالنسبة إلى القرآن الذي هو كلمة الله إلى الإنسان".

سيد قطب

[أصوليون وإسلاميون - المعالم الخمسة للاتجاهات الأصولية - دوافع اجتماعيّة اقتصادية وأفكار القوّة - (صحوة) ضخمة و(إصلاح) صامت - تقدم أم شريعة؟ - ثلاثية الثورة الثقافية الإسلامية - فكر سيد قطب - إشكالية المسلم الصالح.]

أصوليون وإسلاميون

يتعين علينا عند هذه النقطة أن يكون عندنا إدراك كبير للقضية وبالجدل الكبير حول «الخطر الإسلامي» الذي يبدو أن الرأي العام قد اتخذ موقفا بشأنه على أساس الإحساس الشعبي. أي أنه بسبب الموجة الإرهابية التي انطلقت اليوم باسم الله، ولا يمكن أن نلقى باللوم على الإسلام كله ولكن على ذلك التيَّار من «المتعصبين الخُلَّص» الذين يفسرون تعاليم القرآن بطريقة غير متسامحة.

ولكن حتى ذلك لاَ يفيد في إنهاء المسألة، فالجدل الكبير يصل ببساطة إلى مجال ضيّق: فمن ناحية يوجد أولئك الذين يقتنعون بأن الأصولية الإسلامية هي شكل منحرف من الأصولية الدِّينيّة، وعلى النقيض من ذلك يوجد أولئك الذين يعتقدون أن الأصولية

الإسلامية أيضا توضع إلى جوار أشكال الأصولية الأخرى وأن المتعصبين الذين يستوحون منها يخونون في الحقيقة روحها.

ويتساءل عديد من المثقفين المسلمين المعتدلين، خصوصًا أولئك الذين يتكاملون معنا في محيطنا الثقافيّ: لماذا يجب إنكار طابع الصحوة الروحية لبعض الحركات الأصولية في منطقة حضارة تأسست كلها على الدين وتضم أعلى نسبة من المؤمنين الملتزمين؟ ولماذا لا يحظى الإمام الخوميني بنفس الاحترام الذي يلقاه الحاخام كاهانا أو صاحب الغبطة ليفبري Lefevbre؟ ويضيف هؤلاء بقولهم: إذا كان يتم استخدام مفاهيم ورموز مقدسة بطريقة غير ملائمة، فإن ذلك ليس بذنب المذاهب الأصولية، ولكن الذنب يرجع إلى هذه القلة المتزمتة التي تفسرها بطريقة ملتوية، فالهلال إذن ضحية لهذه التحريفات مثله تمامًا مثل الصليب أو نجمة داود[1].

والكارثة أنٍ كلا الرأيين يبدو وجيهًا، ففي مقابل الرأي الذي يجعل الأصولية الإسلامية مرادفا للإرهاب، يكفي ملاحظة الواقع المعاصر: توجد بلاد مسلمة (تركيا والمغرب والأردن) انخرطت فيها أصولية تاريخيّة وإصلاحية في اللعبة السياسيّة مع احترام قواعدها. وعلى العكس من ذلك هناك مجموعات متطرفة تستخدم سلاح الرعب تحت راية الأصولية، وبعضها في الحقيقة له أهداف سياسيّة حقيقيّة دون أي خلفية دينيّة، وآخرون لهم نيَّات فوضوية عمياء فقط، ويمكن أن نشبههم بطائفة «الحشاشين»، وهم أتباع عجوز الجبل الذي ذكره ماركو بولو، الذين يلقون بأنفسهم ولا يبالون في مواجهة الصليبيين وقوات السلطان[2].

إن المسألة ليست بسيطة هكذا، فنحن في إيطاليا أيضًا في حقبة «سنوات الرصاص» كان يجب علينا مواجهة تحمل مسؤولية كل منظِّر للصراع المسلح، عندما تحدث عمليات عنف لسنا مسؤولين عنها. فهل الأمر يتعلق بالتأثير الذي تتمتع به بعض المذاهب خصوصًا على الشباب الذين يخضعون لعمليّة غسيل مخ في بعض المدارس القرآنية، ممَّا يجعلهم فريسة سهلة للتطرف[3]؟ فعندما نعلم أن شابًا فلسطينيًا عمره أربعة عشر عاما تَمّ توقيفه وهو متمنطق بحزام ناسف، وقيل له إذا مَا مات لأجل القضيّة المقدسة

---

[1] فرانسواه بيرجو، من أصولية على أخرى في الأصوليات، الجزائر، دار نشر الفجر، مارسيليا ١٩٩٦ صـ٣١، ٣٢.

[2] من بين الجماعات الإسلامية المتطرفة التي لها أغراض سياسية يمكن أن نذكر: التجمع الأصولى الجزائرى، مجموعة أبو النضال الفلسطينية وهى أصلا ماركسية، حزب الله اللبنانى، حزب الله التركى الذي شجعته المخابرات التركية ليواجه حزب العمال الكوردستانى، حركة الحزب الإسلامي الأفغانى التي مولتها باكستان والولايات المتحدة في فترة الاحتلال السيوفيتى.. إلخ (انظر ألوفييه روى، شجرة عائلة الأصولية الإسلامية، هاشت، ١٩٩٥، صفحة ٨١: ٨٥.

[3] حول هذه الإشكالية أنظر كارن أرمسترونج، الحرب من أجل الله، مرجع سابق؛ أنزو باتشه، لماذا تتزل الديانات الحرب؟، مرجع سابق؛ لويجى بونانته، الإرهاب الدولى، جونتى فلورانسا ٢٠٠١؛ استيوارت سيم، العالم الأصولى. عصر الظلام الجديد للوغاريتمات، دار كتب أيكونز، كامبرتج ٢٠٠٤؛ فرانكوا كارديني، جاد ليرنر، شهداء وقتلة، عصرنا الوسيط المعاصر، ريتسولى، ميلانو ٢٠٠١.

فإنه سيدخل الجنة مع اثنتين وسبعين من الحور، إذا ما علمنا ذلك يجب علينا أن نحاول البحث بتلقائيّة حول تسلسل المسؤوليات عن هذا الفكـر الخـاطئ. ولقـد أدّت الحملـة الصليبيّة الشائنة التي تمّ تجنيد الفتية فيها منذ قرون مضت إلى مقتل الآلاف من الصبية الذين كانوا أصغر سنًا من هذا الشاب الفلسطيني، فكيف لا نلقي باللائمة على الواعظين الكثر الذين كانوا يحثّون الناس الفقراء والجهلة المزوّدين بالعتـاد علـى الرحيـل إلـى الأرض المقدسة؟

إن الحقيقة هي أن الأصولية الإسلامية التي تمثل آخر محطة لنا فـي رحلتنـا فـي دروب اللا تسامح الدينيّ، قد خدعت الجميع. فقد أصبحت أهم حدث في القرن الواحـد والعشرين، وربما أشهر من ميلاد الصين، ومن ميلاد كيان الاتحـاد الأوربـيّ، ومـن العولمة الاقتصادية. وكيف يمكن أن تكون غير ذلك؟ ففي الوقت الذي كان فيـه تـأثير الدين في المجال السياسيّ يبدو ضيقًا ومحصورًا داخل حدود معينة، كانت هناك حركـة سياسيّة إيديولوجية قوية موجودة في منطقة يسكنها نحو سدس البشريّة تعلن عن «سلطان الله»، وتعلن اعترافها فقط بشريعة القرآن، وتعلن كذلك الحرب المقدسة. إن قوة وكثافـة هذه الظاهرة قد فاجأت الأوساط السياسيّة والثقافيّة في العالم أجمع، تلك الأوسـاط التـي تحاول التعمق في أسباب هذه الظاهرة، ولكن دون أن تفلح في الاتفاق حول طبيعتها. إن اللبس بدأ على المستوى الدلالي. فكلمات مثل «أصولية» و«تطـرُّف» بالإشـارة إلـى الإسلام تَمّ استخدامها بصفة عامّة من جانب غير المتخصصين كمرادفـات، وإن كـان الناشرون الإيطاليون أو الفرنسيّون يفضّلون اللفظة الأولى في حين يفـضل الناشـرون الأنجلوساكسون اللفظة الثانية. ولا توجد في اللغة العربية كلمة تدلّ بدقـة علـى لفظـة «أصولية». غير أن وسائل الإعلام المحلية ترجمتها بالطريقة التي تشير إلى التوجهـات السياسيّة التي تترتب عليها، فبعضهم يترجمها بلفظـة «التيَّـار المحـافظ» أو «التيَّـار التقليدي»، وآخرون يعبرون عنها بـ«التطرف الدينيّ».

وفي محاولة للفصل بين لفظ «إسلامي» والأصولية نفسها، وبين التطرف، تَمَّ إضافة مسمًّى ومعنى جديد لكلمة «إسلاميين». إن اللفظ الذي كان يـشير فـي الماضـي إلـى المتخصصين في شؤون العالم الإسلامي كـ«كالمستشرقين»، يُستخدم اليوم غالبًا للإشارة إلى طبقة من المتطرفين الدينيّين. فالإسلاميون اليوم هم أولئك الذين لا يتـرددون فـي اللجوء إلى النضال المسلح لتقويض، ليس فقط النظام الغربيّ، ولكن أيـضًا المؤسـسات السياسيّة الدِّينيّة لبلادهم.

إن محاولة تجنُّب تجريم الأصولية الإسلامية لها بعدان: البعد الـسيكولوجي الـذي يعمل داخل الحركات الأصولية الموجودة في العالم بهدف إظهـار أن هـذه الأصـولية

الإسلامية تنتمي إلى نفس العائلة، والبعد التاريخي الذي يستعرض تطور الأصولية في تاريخ الأمة وإبراز عمق واتساع قواعدها الإيديولوجية.

المعالم الخمسة للاتجاهات الأصولية

عندما توقفنا في المحطات السابقة لرحلتنا لنحلل ظاهرة الأصولية في الديانات الأخرى، أوضحنا أن الأصولية -بوصفها اتجاه كل دين للدفاع عن نواته العقديّة ضدّ ظروف يمكن أن تقطع أوصاله- ظاهرة عالمية ولها جذورها القديمة. إن الأصولية بمعناها الضيق حديثة بوصفها شكلاً من أشكال الدفاع الجديدة ضدّ تهديد جديد، وهي التهديد الأكثر جدية الذي يواجه الدين في كل التاريخ الإنساني: إنه التهديد الذي تفرضه الحداثة برؤيتها للعالم الذي يقوم على الإنسان لا على اليهود. ومن هذا المنطلق لترتيب الأفكار يتحدث بعض الدارسين عن ميلاد دين واحد قوى يمكن أن يؤدى إلى «معركة جديدة من أجل الله» تشمل الأرض من أقصاها إلى أقصاها ضدّ العلمانيّة وهيمنة التقنية، أي صحوة حقيقيّة لكل مَا هو مقدس على مستوى العالم[1].

إن غالبيّة علماء الاجتماع متفقون على تحديد معالم مشتركة بين كل الاتجاهات الأصولية. وقد قام بحث حديث بقسم الاجتماع بجامعة شيكاغو بدراسة شملت إحدى وعشرين حركة وتيَّارًا بخلفية أصولية موجودة اليوم: ستا مسيحيّة، ثماني إسلامية، خمسا عبرية، وثلاثا من جنوب شرق آسيا. وقد تمّ إلصاق وصف الأصولية ليس فقط بالإخوان المسلمين، والوهابيين بالسعودية، ويهود الحارديم بإسرائيل أو الاتحاد القومي للمتطوعين الهندوس، ولكن أيضًا الاتحاد والتحرير وهو تيار أنصار مونسينيور ليبفري والإنجيليون الأمريكان[2].

إن الخلفية السياسيّة التي ترتكز عليها هذه الحركات والتيَّارات واسعة ومتنوعة. فهي تضم مجموعات ثورية وصلت على الحكم ورؤساؤها كانوا، ولا يزالون، أعضاء في الحكومة (في إيران عام ١٩٧٩، وفي السودان عام ١٩٧٣، وفي تركيا وأفغانستان والهند عام ١٩٩٦، ومرة أخرى في الهند عامَي ١٩٩٨ و١٩٩٩) مرت عبر أحزاب وتجمعات

---

[1] لرؤية شاملة أكثر أنظر ماسيمو انتروفيني، الأصوليات، بيم ٢٠٠٤؛ انزو باتشه ور. جولو، الأصولية، مرجع سابق؛ أنزو باتشه في لماذا تترل الأديان المعركة؟، لاترسا، صـII x – x، الذي يشير إلى البحث الذي تَمّ بخصوص الحركات الأصولية. وللإلمام بالبعد النفسي أنظر م. أليتي، ج. روسي، الهاوية الدينية والتعددية والأصولية نشر المركز العلمى، تورينو ٢٠٠٤. ويرجع علماء النفس الأصولية إلى موقف نرجسى لمجموعة تدافع عن هويتها، التي سنتحدث عنها في معرض حديثنا عن اللاتسامح العرقى ولذلك يرون أن ظاهرة الأصولية لاَ تمثل خاصية لدين بعينه، بل هي سمة مميزة لكل الأديان».

[2] جبريل أ. الموند، ر. سكوت وإيمانويل سيفان، الدين القوى، جامعة شيكاغو، شيكاغو ولندن ٢٠٠٣.

سياسيه «لها ورنها» شاركت في انتخابات ديمقراطية وشكلت جزءا من تحالفات الأغلبية والمعارضة (في الأردن وإسرائيل ومصر والمغرب وباكستان وإيطاليا والولايات المتحدة)، ووصلت في النهاية إلى أقصى مدى لتشكيل مجموعات إجرامية مدفوعة نحو حرب العصابات أو الإرهاب (حماس، القاعدة، المتطرفون السيخ، التجمُّع الأصولي الجزائري، يهود تحت الأرض، المجموعات الثورية في الشيشان وداغستان، والمسيحيّون الأمريكيّون الراديكاليون الذين يُلقَى عليهم بمسؤولية الأحداث الأخيرة ضدّ النشطاء من السيدات وعن الهجمات ضدّ الأطباء المؤيدين للإجهاض).

وحسب مَا ذكرته هذه الدراسة فإن هذه المجموعات، بعيدًا عن أصولها الدِّينيّة والثقافيّة لها خمسة ملامح مشتركة: نقاء العقيدة، القيام على الصفوة، صرامة ممارسة الشعائر، طقوس الماضي، النزعة التبشيرية. أول هذه الملامح المشتركة يمكن أن نرجعه كما قلنا سلفا إلى الشعور بالكارثة والخوف من التهديد الذي يمثله تمرد الإنسان على الله، ومخالفة تعاليمه كما جاء في التوراة والإنجيل أو القرآن. ويصف الأصوليون أنفسهم بأسماء مثل «الناجون»، «المخلصون»، «الزيلوت Zeloti (أتباع حركة دينيّة يهوديّة متعصبة)» الذين لاَ يتركون شكًا في أنهم هم المسؤولون عن حفظ تعاليم الدين كنقطة ارتكاز إجبارية. وفي مقابلة أجراها صحفي في إسرائيل مع أحد المتزمتين طرح عليه هذا السؤال: «لماذا يختلف يهود الحارديم عن كل الآخرين؟»، فأجابه بقوله: «ولماذا يختلف الآخرون عنا؟».

إن الصفة المفضَّلة في مواجهة عصر العلوم الإنسانيّة العلماني هي «الغطرسة» بالنسبة إلى السُّنّة، والاستعلاء بالنسبة إلى الحارديم. إن اللغة التي يتحدث بها الراديكاليون هي لغة مانوية (تقوم على الصراع بين قوى الخير والشر): إن التراث يتمُّ تقديمه تحت الحصار، وإن مكانة هؤلاء الأصوليين مثل «النور الذي يبدد الظلمات»، وإن حزبهم هو «حزب الله الذي هو ضدّ حزب الشيطان الأكبر». ولقد تمَّ النظر إلى التهديد على صعيد الأفكار بوصفه «تلويثًا» يهدد الهوية الدِّينيّة على الصعيد الخاصّ والعام، ويُستخدم كأداة عميلة للدولة العلمانيّة، وهى العدو الأول المستبد المسلح بالعلم، وهى تمثل معبودًا جديدًا تمت عبادته بطريقة متهرطقة. ومن الواضح أنه، فضلاً عن تأثير العوامل المرتبطة بالوضع المحلي الخاصّ، فإن الهجوم على العلمانيّة يتنوع حسب اعتبار تلك الأخيرة بمثابة تطور داخل المجتمع، كما في أوربا أو الولايات المتحدة أو باعتبارها ذراعًا لقوى استعماريّة كما في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. وفي هذه الحالة الأخيرة يتمُّ تشبيه العلمانيّة بالتغريب. وقد تحدث ناثان بيرن بوم عمَا أسماه «حُمَّى التشبه بالآخرين»، خصوصًا من جانب مجموعة من اليهود (الماسكليم)، وقد اخترع الإيراني جلال أحمد لفظة مثل «الهوس بالغرب من جانب الصفوة المثقفة».

أما المعلم الثاني فهو الوعي بأنهم أقلية وأنهم معزولون، وهذا هو نفس شعور الجماعات القديمة، ومن ثم كانت محاولتهم تقويض تلك الحرية المزيفة في المجتمعات المسماة بالمتقدمة محاولة يائسة، ومع ذلك لا يجب عليهم التوقف عن إلقاء البذرة التي ستثمر لا محالة في إعادة المكان المركزي إلى الدين، ومن هنا نجد اللجوء إلى العزلة أمام عالم يعيش في ظلمات مَا قبل الوحي. ففي كتابات المتعصبين اليهود يعيش المؤمن في عزلة روحية وهو يعيش بين اليهود (على حدّ قول ناثان بيرن بوم). وفي كتابات الإسلاميين نجد أن المؤمنين بالاسم فقط يوصفون بأنهم «مسلمون جغرافيون»، وأن حالتهم أشبه بحالة الجاهلية، وهى شرك العرب فترة مَا قبل الإسلام (رشيد رضا). ونجد كذلك مفهوم «الوثنية الحديثة» يتردد كثيرًا عند الكتاب الأصوليين الكاثوليك. وفي النهاية نجد أن جيري فالويل، وهو نجم الإنجيليين، يرى أن الأصوليين هم «المنفيون المسيحيّون». لأجل هذا نجد أن نشاط أولئك «الأنقياء» موجه أكثر ضدّ إخوانهم «الفاترين»، و«الضالّين»، من نفس دينهم، أكثر من كونه موجّهًا إلى غير المؤمنين، وقد حدث ذلك في الصراعات للتمكين بين الكنائس الأصلية، حيث كان العنف موجّهًا إلى «المرتدين» في المقام الأول[1].

أما المعلم الثالث فهو الإصرار الذي يصل إلى حدّ الهوس تقريبًا على ممارسة الشعائر، فهو ذو سمة دفاعية أيضًا، فخطر الذوبان والموجة المادية يقتضيان يقظة دائمة أيضًا، وفوق كل شيء على صعيد صور ممارسة الشعائر، وصياغة سجلات الرموز الدِّينيّة. ومن هنا يمكن تحييد الظروف الخارجية التي تجعل من الصعب الالتزام بالتعاليم، ويلزم كذلك معاقبة أي نوع من التجاوزات، وإعادة تقييم استخدام الرموز الدِّينيّة. وعدم التشدُّد في موضوع الملبس[2]، فضلاً عن الاجتهاد في الحفاظ على لغة التراث حية –مثل اللاتينية، اللغة العربية الفصحى، اليدش Yiddish (لغة اليهود في ألمانيا من العصور الوسطى)– على الأقل في ممارسة الشعائر الدِّينيّة. وآخر مظاهر الحداثة، والتكنولوجيا يكمن في العولمة، التي تمّ انتقادها بصورة خاصّة، لأنها ضدّ التدين، فهي في الواقع، بإلغائها حدود الزمان والمكان، تحرر الناس من الالتزامات التقليدية، وتدمر

---

[1] كما ذكر سلفا فقد قتل غاندي على يدى أحد القوميين الهندوس، وقتل رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق رابين على يد ايجال عامير، وهو يهودى من حركة كاخ المتطرفة. وقد قتل الرئيس المصرى السادات في عام ١٩٨١ وصاح قاتله «قتلت الفرعون» لأنهم كانوا يعتبرونه كافرا؛ وقد قام المتعصب الكاثوليكى جون بمذبحة في عيادة بمسطون وهو كان ينتمى لحركة مناهضة للإجهاض إسمها operation Rescue. ونادى أسامة بن لادن في فتاواه بشن الحرب المقدسة ليس فقط ضدّ إسرائيل وضد الاستعمار الاقتصادى وضد العملاء ولكن قبل ذلك ضدّ القوى الخائنة داخل حدود الإسلام، أي ضدّ «المرتدين أمثال مبارك والعاهل السعودى » (الدين القوى)، مرجع سابق صـ٢٣٤ و٢٣٩.

[2] بالنسبة إلى الرجال المسلمين اللحية والجلباب، وبالنسبة إلى النساء الحجاب أو البرقع؛ وبالنسبة إلى السيخ الشعر الطويل والعمامة؛ وبالنسبة إلى القساوسة والرهبان الكاسوليك العباءة، وبالنسبة إلى الراهبات حلق الشعر والكوفية؛ وبالنسبة إلى المتزمتين اليهود العباءة السوداء وخصلات الشعر التي نتزل على الوجنات، وغطاء الرأس المستدير.

الثقافات، وتصل إلى درجة تسويق المنتجات الروحية (مطبخ الأطعمة الحلال المغلفة، الزواج التوافقي، مع نظام تأجير المعلم الدينيّ «rent a minister/ rabbi/priest»، إلخ).

تميل الجماعات الأصولية إذن إلى أن تجد لنفسها حيّزًا، سواء حول المعبد اليهوديّ، أو المسجد، أو الكنيسة، أو المعبد الهندوسي، أي تبني لنفسها جيتو. وتنمو الأُسَر وتتفاعل فيما بينها محمية بجدران حقيقيّة أو رمزية، بالزواج بين المجموعات، وبطرق التربية المستقلة المرتكزة على المدرسة الدِّينيّة. وغالبًا مَا يعتمد تكون روح الاندماج، والحماس الدعوى، على شخصيّة لها كاريزما، مثل الإمام، أو الحاخام، أو رجل الدين الهندي. إن رفض كل مَا هو خارج الجيوب هو نوع من إعادة التسلح الأخلاقيّ، والصحوة السياسيّة، ولا يتردد عند الضرورة في إدانة مجموعات مناهضة للعلمانيّة لنظام اقتصاد السوق الذي صاغته العولمة: الاستهلاك المجنون والجامح، تفكّك الأسرة، إضعاف روح الجماعة، الفساد البيروقرطي، وتلوث البيئة.

أما الملمح الرابع فهو الحنين إلى أصول الماضي، الماضي البعيد للمؤسِّس الأول الذي تَمّ البعد عنه، ويعد ذلك خطوة رمزية لاَ تاريخيّة. وهذه الخطوة تفرض أشكالاً متعددة من المحظورات والرقابة أيضًا في الفن والأدب، ويمكن أن تصل إلى الإدانة الكاملة للسينما والتليفزيون. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى التناقض الذي يقع فيه كثير من هذه الحركات (سواء هنديّة، أو إيرانية، أو إسرائيلية، أو أمريكيّة) عندما لاَ تتردد في اللجوء إلى وسائل فنية متقدمة (الخطب التليفزيونية، مكبرات الصوت، البريد الإلكتروني، الفيديو كاسيت) في دعايتها المحافظة، وينتهي بها الأمر هكذا وبطريقة واضحة إلى التشبع بشيء ليس بالقليل من تلك القيم «العلمانيّة» التي يحاربونها.

أما الملمح الخامس والأخير فهو الأبرز، وهو الذي يتبادر إلى ذهننا أولاً عندما نتكلم عن الأصولية، إنه الزعم بالقيام بمهمة إنقاذ في مجتمع يتهاوى ويسقط في الوثنية. وهذا الزعم الذي يستبعد أي حل وسط ويكتسب أبعادًا من الهوس والتعصب، واللجوء إلى العنف، والتضحية بالحياة الشخصيّة أو حياة الآخرين، لاَ تمثل مكوِّنات أساسيّة في هذا الأمر، ولكنها موجودة فقط تحت العباءة الراديكالية والتي غالبًا مَا تنكرها الحركات الأصلية، فالعدوانية مع ذلك غير ظاهرة فيها. وقد لاحظنا في الفصل السابق سوء استخدام الإسلاميين لكلمة «الجهاد». ولكن لغة العنف التي تصطبغ بكلمات حربية لاَ تغيب عند الحركات الأصولية الأخرى. فقد كان فاريل يوزع «جوازات سفر الصليبيين» ويعتبر التهديد بالحرب نوعًا من غضب الله على الأشرار، وهذه تعتبر سمة للتيار الدينيّ المحافظ في أمريكا. وأتباع الهندوسية، نذكره هنا أيضًا، منظمون في تشكيلات شبه عسكرية ويرفعون رمز «شوكة شيفا ذات الأصابع الثلاثة» التي يمكن استخدامها كسلاح

عند الضرورة. وهكذا رأينا أيضًا أن بعض المجموعات الإسرائيلية المتعصبة اتخذت سيف داود رمزًا لها.

والمسافة قصيرة بين التجريم النظري لأعداء الدين، والعمل الملموس لمنعهم من الإفساد، وغالبًا مَا يفرض هذا الانتقال إلى الممارسة العنيفة مسارًا أخلاقيًّا صعبًا وعقيدة صعبة تتجه إلى تحقيق نصر ساحق على الإحساس بنبذ ورفض القتل.

دوافع اجتماعيّة-اقتصادية وأفكار القوّة

إن التحليل الاجتماعيّ لاَ يترك ربما أي شك بخصوص أن الأصولية الإسلامية تشترك في نفس المعالم المميزة لها مع الأصوليات الأخرى، وهذا لاَ يستبعد أن تنقسم هذه الأصولية أيضًا بدورها إلى أجزاء متعددة. فكما أن الأصولية الكاثوليكية تختلف عن البروتستانتية، والأصولية الهندوسية تختلف عن اليابانية أو البوذية، فإن الأصوليات الإسلامية تظهِر اختلافات في مَا بينها تتطابق مع اختلافات الموزايك الكبير الذي يكوّن الأمة الإسلامية، والذي لاَ نستطيع أن نقول عنه إنه موزايك حقيقيّ، حيث إن الدول والشعوب التي من المفترض أن تشكل هذا الخليط، تختلف في مَا بينها من حيث الخصائص العِرْقِيّة-الثقافيّة، وكذلك من حيث التوجه السياسيّ. فمن تركيا وتونس وحتى باكستان وإندونيسيا نجد أن الحركات الأصولية المختلفة تتفاوت من حيث الثقل السياسيّ وتتجمع حول هذه المواقف التي أشرنا إليها سلفا، بخصوص الحركات في الأديان الأخرى، فهي تتأرجح مَا بين مواقف معتدلة نسبيًّا ومواقف أخرى ثورية.

ويتغير فعلها حسب الظروف، ويعبِّر عن نفسه أحيانًا من خلال الأنشطة السرية والعنيفة تارة، وتارة أخرى من خلال المشاركة في الانتخابات. وهذا أيضًا ملمح مرن، لأنه في بعض الحالات لانت عريكة بعض المجموعات المتطرفة واتخذت مواقف إصلاحية وتعاونت مع الحكومات، وعلى العكس من ذلك أيضًا اختارت بعض المجموعات المعتدلة نسبيًّا طريق العنف.

فلدينا الأصولية السياسيّة للإخوان المسلمين، التي يمكن أن نطلق عليها «أصولية تاريخيّة» تميزت بصراع طويل للوصول إلى السلطة يرجع إلى العقود الأولى من القرن العشرين، وهناك أصولية دولة السعودية التي بدأت من الأصول الوهابية الصارمة والتي توجد في ظروف من الرخاء النسبي والقوّة الاقتصادية، وهناك الأصولية في إيران بخلفيتها الشيعية التي وصلت إلى الحكم في أعقاب ثورة، وهي تمر بظروف اجتماعيّة واقتصادية غير مستقرة، وهناك الأصولية الجزائرية المقاتلة التي لاَ تنسى الماضي

الاستعماري القريب، والتي تعيش أزمة اقتصادية وبحن إلى دولة إسلامية غائبة، وهناك الأصولية القبلية في أفغانستان والتي تتميز بالنزاعات العرقية. ويمكن أن نعتبر أصولية العقيد القذافي في ليبيا نوعًا من الأصولية الساذجة ذات الخلفية القوميّة، على الرغم من أنها تمثل بالنسبة لكثير من العرب خروجًا عن القاعدة.

ولكي نضيف ملمحًا جديدًا لصورة غنية بالمتناقضات، يجدر القول إنه في فترة الحرب الباردة قاد العداء للعلمانيّة التيَّارات الإسلامية المتشددة، خصوصا في إفريقيا وآسيا إلى التكتل مع الجبهة المناهضة للشيوعيّة، وتلقّت دعما ملموسًا وتشجيعًا من جانب الأوساط الغربيّة، التي كانت تعبئ طاقاتها ضدّ الخطر الأصولي.

وهناك كثير ربما وجب قوله بشأن الغموض والتناقض الذي يميز النظام الثيوقراطي في المملكة العربية السعودية، فهي دولة بسبب كونها موالية وحليفة للولايات المتحدة، فمن الصعب اعتبارها أصولية، على الرغم من أن الحياة اليوميّة تحكمها تعاليم القرآن الصارمة، وحيث تتشابه مظاهر اللا تسامح في أحسن الأحوال مع تلك المظاهر التي عند المتشددين في إسرائيل، وفي أسوأ الأحوال مع مظاهر اللا تسامح عند طالبان.

إن هذه الصورة تبرر بالتأكيد كثرة الدراسات حول هذا الموضوع والتنوُّع الكبير، والتناقض في الآراء بشأنه[1]. فحسب رأى كثير من الكتاب، منهم عرب أيضًا، فإن الدوافع المبدئية للاعتراض قد تكون اجتماعيّة-اقتصادية، ولكي أذكر بعضها أقول: الفقر، البطالة، أزمة القيم والهوية، الإبعاد والإقصاء، سقوط الاشتراكية، تدني النظم التربوية، هزيمة عسكرية. ففي الجزائر على سبيل المثال لم يكُن الأصوليون ليتمتعوا بهذا التأييد الكبير من شعب يتكون في نسبة كبيرة منه من الشباب المعذبين الذين يبحثون عن وظيفة، لولا تسلط النظام الحاكم وفساده. ويرى طاهر بن جالون أن عجز وعدم أمانة جبهة التحرير الوطني، وهى حزب الاستقلال التاريخي، هو الذي أنتج الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

ويرى باحثون آخرون، على العكس، وعلى الرغم من عدم التقليل من شأن هذه العوامل، أن أفكار القوّة تقف وراء عدد من الحركات الراديكالية، وهو أمر لاَ يجب أن نضعه بسهولة في المرتبة الثانية. وقد كتب جيلزكيبل: «يرى المثقفون اليساريون سواء في العالم الإسلامي أو الغربيّ، أن هذه الحركات الأصولية كانت تمثل تعديلاً دينيًّا للفاشية، وبالنسبة لليبراليين بعثًا للتعصب في القرون الوسطى. وقد اكتشف اليساريون أن

---

[1] من بين الدراسات الكثيرة التي تَمّ نشرها حول الأصولية الإسلامية انظر ديليب هيرو، الأصولية الإسلامية، بالادين، لندن ١٩٨٨؛ جيلزكيبل، الجهات صعود وهبوط، كاروتشي ٢٠٠١ م. فيريرى وم. مينيو، الرعب يأتي من الإسلام، دار نشر أنطارس، بالرلمو ٢٠٠١.

هذه الحركات كانت تتمتع بقاعدة شعبية، فبعض الماركسيين القدامى والجدد تمنوا أن يجدوا في الإسلاميين هذا التجذر الشعبي الذي يفتقدونه، فراحوا يمتدحون فضائلهم الاجتماعيّة، وراحوا يبحثون عن حوار سياسيّ معهم، وأحيانا اعتنقوا أفكارهم. وفي الحقيقة كانت هذه الحركات تدعو إلى النظام الأخلاقيّ، وإلى طاعة الله وإلى عداوة الظالمين، وبالتالي بُغض الماديين الشيوعيين والاشتراكيين» [1].

«صحوة» ضخمة و«إصلاح» صامت

مَا الجذور التاريخيّة للأصولية في المنطقة الإسلامية؟

في هذا الصدد أيضًا تبرز المشكلة الأزلية حول كيفية التوفيق بين عدم المساس بالنص المقدس وتحديثه، تلك المشكلة التي وجدت حلولاً مماثلة لتلك التي وجدت بالنسبة إلى الديانتين الأخريين، ولكن بأشكال أقل دراماتيكية، فالقرآن يظل غيبًا، ولو اجتمعت الإنس والجن فلن يأتوا مثله، كما تشير سورة الإسراء، ولقد احتفظ محتوى المذاهب الإسلامية بكيانه على مدى ثلاثة قرون على الأقل وبطريقة لا تقل عن نظيره المسيحيّ، مع وجود نفس الآثار العديدة لعمل دءوب من الصياغة وحرق النسخ التي اعتبرت غير صحيحة. والقرآن شأنه شأن التوراة، فالقرآن تصحبه مجموعة من التراث الشفهي، وهى أقوال النبي، أي الأحاديث، والتي تَمَّ جمعها في مجلدات، وتتخذ حياة محمد كمثال، وتمثل نوعًا من الهداية والإرشاد للحياة اليوميّة. وقد تَمَّت إضافة السُنة بالتدريج إلى القرآن كمصدر تشريعي متكامل مع القرآن، وبقبول من العلماء. إن مشكلات تفسير النصوص تحتل مكانة بارزة لدى علماء الدين، ولكن التشابه النسبي للسُنة مع تعاليم القرآن، خففت من حدة الجدل حول التفسير، وأدَّت إلى تجنب حدة الحرب على الهرطقة. وبمرور الوقت ظهرت اتجاهات عديدة، وفرق، ومذاهب، ومدارس فكرية، وكذلك تيار صوفي قوي. ولكن من الصعب القول مَا التيَّارات المحافظة، وما التيَّارات التي تهدف إلى التغيير.

وقد حدث أول انشقاق كبير في الأمة بعد وفاه محمد مباشرة، فقد انقسمت الأمة إلى جذعين كبيرين: الشيعة والسنة، وقد حدث هذا الصدع لأسباب سياسيّة محضة، فقد تَمّ اختيار أبي بكر خليفة للنبي، وهو من قبيلة قريش، وكان من المقربين للنبي. وقد تَمّ الاعتراض السريع على هذه الخلافة بحجة أن الخليفة يجب أن يكون من أسرة محمد، أي صهره عَلِيّ، وهذا هو رأى المجموعة المعارضة التي سُمِّيَت شيعة علِي، أي حزب

[1] جيلز كيبل، الجهاد صعود وهبوط، مرجع سابق صـ١١.

عليٍ. وقد استعصى الانقسام على العلاج، ممّا أدى إلى أسباب أخرى للصدام وللحروب الداخلية. وإذا ما تأملنا في سبب الرفض سنجده ليس رفضا سياسيًا فحسب. فبالنسبة إلى الأغلبيّة التي تعلن أنها في صف السُّنة الحقيقيّة، وحامية لتراث النبي محمد الصحيح، فإن ميراث النبوة يجب أن يتوقف عند النبي، ويجب على خلفائه فقط أن يكونوا منفذين مخلصين لتراثه. أما بالنسبة إلى من اختاروا الخليفة من أسرة النبي ومن نفس الدم، فإن سلسلة النبوة لم تتوقف، بل هي مستمرّة حتى وإن كانت على مستوًى أدنى، وذلك من خلال سلسلة من الأئمة الذين يقومون بدور الوسطاء بالنسبة إلى جماعة المؤمنين. وحول هذه النقطة انقسم التيّار الشيعي بدوره إلى فرق شتى، أقوى هذه الفرق أخذ جانبًا يشبه انتظار مجيء المسيح، فهم يعتقدون أنه في سنة ٨٧٤ اختفى الإمام الثاني عشر، وهو من نسل عليٍّ، ودخل في «غيبة»، ومنذ ذلك الوقت ينتظرون عودة «الإمام الغائب»، كمسيح مخلّص.

إن أكبر احتفال شيعي هو الاحتفال باستشهاد الحسين، ابن علي الذي حاصره جيش الخليفة الأموي يزيد مع مجموعة من أتباعه المخلصين في سهل كربلاء، في يوم الثامن من مايو ٨٦١م (الموافق العاشر من المحرم عام ٦١ هـ)، وقد فضّل الحسين الشهادة على الاستسلام. ويتم إحياء شهر المحرم كل عام في الأقاليم الشيعية بنوع من الآلام التي تتجسد في طقوس شعبيّة من الدموع والدماء، والتي يقوم فيها الشيعة بجلد أنفسهم، ويعبِّرون عن آلامهم بالتضحية النبيلة من جانب رجل لم يتردد في تحدى النظام الظالم والمستبد، رغم يقينه أنه لاَ أمل له في النجاة. وتُعَدُّ هذه دعوة إلى الشهادة وإلى مقاومة الطغاة، وهذا يمثل تقليدًا شيعيًّا أصيلاً، ومصدر إلهام للتيّارات الراديكالية والأصولية في الإسلام. وبعد مقتل الخليفة الثالث عثمان على يد أنصار عليٍّ، ظهر من جديد موضوع يروق لمن يقومون بالتمرُّد المسلح (وهو نفسه الذي تَمّ توظيفه لاغتيال السادات)، والذي على أساسه يجوز الخروج على الحاكم الذي يخالف أوامر الله، ومن ثم لاَ يصير مسلما.

وبعد مرور ألف عام ظهرت أعراض مَا سُمِّي بعد ذلك بالأصولية الإسلامية. فمنذ نهاية القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر –وليس مصادفة أن تكون فترة غروب الإسلام وضعفه تتزامن مع أوربا صاحبة الإنجازات العلميّة والتوسُّع الاستعماريّ– بدأت تظهر في الأمة أشياء مشابهة لتلك التي كانت تحدث في مناطق أخرى متخلفة من العالم، مثل الصين على سبيل المثال، أو الهند، اللتين فاجأتهما بنفس الدرجة الثورة الصناعيّة والديمقراطيّة.

إن مشكلة داخلية في المقام الأول، وهى كيفية التكيف مع ضرورات التقدُّم التكنولوجي، قد تَمّ تصديرها إلى الخارج، وذلك بإلقاء المسؤولية عنها على إقحام قوى أجنبية. وقد كانت أولى حركات النهضة أو الصحوة لذلك لاَ تتحلى بالنقد الذاتي، ولكن

كانت تقوم على نبذ تأثير «الكفار»، ولم تنظر إلى هذا التأثير كنموذج يُحتذى، ولكن كقوة مدمرة. إن المقاومة ضدّ الحداثة وضد الاستعمار قد هزّت أولاً المناطق الخارجية التي تعرضت للدخل الأجنبي، ولكن على خلاف مناطق أخرى تحت سيطرة الاستعمار مثل الهند كان الطابع الدينيّ للصحوة يغلب على طابع التمرُّد العِرْقيّ القومي. ويتحدث المؤرخون عن «صحوة»[1]، ليبرزوا بُعدَها الروحي أكثر من البعد السياسيّ. فالأمر كان يتعلق بردّ فعل عاطفي انفعالي أكثر من كونه نضجًا إيديولوجيًّا، وبدافع محافظ أكثر من كونه مجددًا.

وقد كان قادة هذه «اليقظة» بعض الشخصيات التي لها كاريزما، والتي تعيد إلى الأذهان تقاليد قديمة عمرها آلاف السنين، وتقدم أنفسها بوصفها المهدي المنتظر الذي سيؤسس مملكة الأتقياء قبل يوم القيامة (وهي تشبه إلى حدّ مَا المقاومة المناهضة للعلمانيّة وللحداثة على يد رهبان اليهود المتصوفين)[2].

وكان يجب الوصول إلى القرن التاسع عشر حتى تجد الصحوة لنفسها طريقًا في العالم الإسلامي، وبخاصة في العالم العربي، وبطريقة أكثر نضجًا وبخلفية نقدية بنّاءة للذات. إن إدراك أن الحضارة التقنية والعلميّة التي وصلت إليها أوربا المسيحيّة كانت تمثل تحديًا، معناه أنها يجب استيعابها إذا كان هناك رغبة في الخروج من حالة التخلف الدائم والتبعية.

وقد تَمّ وصف هذه الطريقة الجديدة لمواجهة المشكلة، من خلال قبول المنافسة، لكلمة «الإصلاح». وكان دعاة هذا الإصلاح يعزمون على التحرك بحذر شديد وتدرج، محاولين إيجاد تسوية وحل وسط مع المبادئ الدِّينيّة دون زعزعة للأساس الدينيّ السائد. لقد كان الرافض الإصلاحي الرئيسيّ بقيادة واحد من المفكرين العظام في عصره، وهو جمال الدين الأفغاني، وسُمِّي هذا التيَّار بالسلفية لأنه كان يدعو إلى هدف رئيسيّ، وهو أن نحيِي مَا كان عليه السلف في الفترة الذهبية للخلفاء الأوائل، مع إبراز النية أو القصد في إدخال الحداثة تحت مظلة القرآن، وترجمة الإنجازات الأوربيّة بلغة إسلامية صرفة.

---

[1] باولو برانكا، المسلمون، دار نشر ميلينو، بولونيا ٢٠٠٢ ص ١٠٧، ١٠٨

[2] أحد هؤلاء الذين يرمزون إلى المسيح المنتظر والمخلص كان محمد أحمد عبد الله الذي حث الجماهير على الحرب المقدسة لتطهير العالم من الشرك، ومن احتلال الكافرين ومن التيَّارات الجديدة التي دمرت الإسلام الصحيح أما الزعيم الديني في مجال النهضة الذي استطاع تأسيس الحركة التي استمرت أكثر في نهاية القرن الثامن عشر فكان محمد عبد الوهاب الذي أسس التيار الأصولي المسمى بالوهابية، والذي قامت على أساسه دولة السعودية الثيروقراطية. إن فكرة المهدي لم تفقد بعض بريقها وجاذبيتها في قلوب الجماهير. فقد استوحت منها المقاومة ضدّ الفاشية في ليبيا، وحديثا وفي عام ١٩٧٩م سيطرت مجموعة من المتطرفين السعوديين على المسجد الحرام بمكة وكان يتزعمهم شخص كان يزعم أنه المهدي.

تقدُّم أم شريعة؟

بعد البحث الفعلي والدقيق تبيّن مدى صعوبة التوفيق بين رؤيتين، أي محاولة إدخال الحداثة دون أن نمسَّ البناء الدينيّ المتكامل. فمنذ أكثر من ستين عامًا مضت، كان توينبيه في مقاله الكلاسيكي «الحضارات في مقارنة» يتحدث عن إعادة صياغة حديثة داخل الإسلام لإزالة التناقض والتعارض بين المتزمتين الذين يرتكزون على ردود أفعال عتيقة ترفض التأثر بما هو أجنبي، و«المجددين» الذين هم على قناعة بأن السبيل الوحيد للنجاة هو التسلح بأسلحة الخصم.

فقد كانت هنالك قوى قوميّة وتقدُّمية من جانب، وقوى دينيّة على الجانب الآخر، وكانت دوافع القوى الأولى سياسيّة، بينما كانت القوى الدِّينيّة تحركها القناعة بأن الموجة الإلحادية المادية ترجع إلى التأثيرات الخارجية، وإن كان كلا النوعين من القوى يأمل في تشكيل جبهة موحدة لمواجهة الاستعمار كما حدث في الهند. وعلى الرغم ذلك فقد حدث في الهند في النهاية انفصام بين النشطاء القوميين والنشطاء الدينيّين عند نقطة العلمانيّة الحساسة. فلنتخيل في السياق الإسلامِي كيف تسير الأمور إذا كانت كل محاولة لإدخال مبادئ علمانيّة في الإدارة العامّة ستظلّل أركان العقيدة الثابتة.

وبعد حربين عالميتين، وبعد التغيرات الهائلة في خريطة العالم، ظلت هذه الإشكالية هي نفسها، فالحرب التي كانت في البداية ضدّ الإمبريالية والاستعمار أصبحت حربًا ضدّ الإمبريالية الجديدة والاستعمار الجديد، وإن ظلت الحرب الأصعب هي الحرب الداخلية بين من كانوا يريدون أن يتسلحوا بسلاح العدو بخلق إسلام جديد ديمقراطي، ومتقدم علميًّا على غرار النموذج الغربيّ، ومن ظل ثابتًا على مبدئه الذي يرتكز على أن الإسلام له نموذج واحد فقط هو القرآن.

ففي مصر حيث ولدت أول حركة أصولية، وهي «الإخوان المسلون»، كان هناك تجربة للتعاون الحقيقيّ بين الإسلاميين والقوميين. ففي الحقيقة كلاهما يستوحي من ماضي الخلافة المجيد من أجل صحوة سياسيّة واقتصادية واجتماعيّة، تعيد إلى العرب مكانهم اللائق بين الأمم، كما أن كليهما كان يظهر عدم قبوله وتوجُّسه من الليبراليّة ومن الديمقراطيّة ذات الطابع الغربيّ. وقد حاول عبد الناصر، وهو يعدِ لانقلاب ١٩٥٢ الذي قضى على الملكية في مصر، الاتصال بالإخوان المسلمين والمفكر الكبير الذي أصبح واحدًا من أكبر منظّري الأصولية سيد قطب. وكان الحديث يدور أيضًا عن إمكانيّة تعيين سيد قطب وزيرًا للتربية والتعليم في حكومة الثورة الجديدة. ولكن الفجوة التي كانت تفصل بين وجهات نظر التجديد الإسلامي أصبحت واضحة منذ بداية حكم عبد الناصر، فقد تَمّ اضطهاد الإخوان المسلمين وكذلك تَمّ سجن سيد قطب ثم إعدامه عام ١٩٦٦ م.

فقد أطلق الثوريون العرب على أنفسهم اشتراكيين وقوميين رأوا «أن إعادة الخلافة كانت تعني تغيير ما يلزم تغييره، وهو ما كان يعني بالنسبة إلى موسوليني إعادة مجد الإمبراطورية على تلال روما. وقد كان هدفهم الأساسيّ بوصفهم ضدّ الغرب، وضد الرأسمالية، هو أن يضعوا بلدهم على قدم المساواة مع دول أخرى أكثر تقدُّما من الناحية الاقتصادية ومن الناحية التكنولوجيّة. أما بالنسبة إلى الإسلاميين فإن وجود خلافة جديدة كان يعني العودة إلى ثيوقراطية تحكمها الشريعة بضوابط صارمة، كما هو الحال بالنسبة إلى أتباع المهدي الذين يقوم ردُّ فعلهم تجاه الغرب لاَ على أساس المنافسة بل على أَساس الرفض. فهم يرفضون، قبل كل شيء، غرور الحضارة الغربيّة، وإيمانها بسلطة العقل البشريّ الذي فتح الباب أمام مَا أسماه سيد قطب نفسه «طغيان التكنولوجيا على الحياة».

كما رأينا في السياق اليهوديّ، فقد زادت حدة مشكلة الشرق الأوسط تلك المشكلة التي، فضلاً عن تشجيعها للتضامن وإن كان شكليًّا داخل المعسكر العربي والإسلامي عموما، التي كانت بمثابة محرِّك للتيَّارات الأصولية التي كانت كامنة في كل الأمة، من صحراء موريتانيا وحتى إندونيسيا، محققًا قفزة نوعية للأصولية، وراديكالية أكثر لها. إن كثيرًا من علماء السياسة يربطون بين الأصولية الإسلامية المسلحة ونفس تاريخ ميلاد التعصب العسكري الإسرائيلي، ألا وهو هزيمة العرب في حرب {الأيام الستة} في يونيو ١٩٦٧. وبعد التدمير الكامل للقوات الجوية المصريّة واحتلال سيناء من جانب إسرائيل، تلقت {الاشتراكية العربية} التي كان يتزعمها عبد الناصر ضربة قاتلة. وقد لاقت اتهامات الإخوان المسلمين له {بالردة} مصداقيّة وصدًى كبيرًا. وقد كانت النتيجة الأكثر أهمية للهزيمة مناقضة لما كانت عليه في المعسكر اليهوديّ، فقد فسرها الإسلاميون على أنها آية على غضب الله، لأن العرب كانوا قد تركوا طريقه.

وفي إيران، الجناح الآخر من الأمة، وهو الجناح الشيعي حتى انفجار الراديكالية الإسلامية في الفترة مَا بين تاريخين يسبقان ويتبعان ببضع سنوات الصحوة الأصولية في المنطقة الجنوبية. فالتاريخ الأول كان عام ١٩٦٣، عندما خرج الإمام روح الله موساوي خوميني، وهو شخصيّة دينيّة لها قدرها، من عزلته في مدرسة القرآن بمدينة قم، معتقدًا أن الوقت قد حان للخروج، ووضع نفسه على رأس فرقة أو جماعة شيعية أخذت على عاتقها أن تضع نهاية لاستسلام المؤسسة الدِّينيّة، وأن تعارض وجهًا لوجه سياسة التغريب التي انتهجها الشاه رضا بهلوي. وكان أبوه، الضابط الانقلابي الذي تَمّ تتويجه عام ١٩٢٥، فضلاً عن سيره على نهج أتاتورك، بإلغاء حجاب السيدات، وبفرض ملابس أوربيّة وقبعة على الرجال، فقد أخضع المحاكم الشرعية لسلطان الدولة، وذهب إلى مَا هو أبعد من ذلك، فاستهدف حتى احتفال عاشوراء المقدس. وكان يبدو أن خلفه يريد الذهاب أكثر من هذا في عمليّة التغريب العلمانيّة المزدوجة، فقد دشن عمليّة إصلاح

زراعية سمّيت بـ«الثورة البيضاء»، التي أضرت بالملكيات الكنسيّة الكبيرة، وتبنى مشروعات حكومية أخرى تدميرية مثل منح حق التصويت للنساء، وإمكانيّة أن يُقسم النواب المنتخبون على كتب أخرى غير القرآن. وقد حاول فضلاً عن ذلك أن يبحث عن شرعية لملكه في الماضي المجيد في فترة مَا قبل الإسلام، أي في دولة فارس، في تحدٍّ صارخ للتراث الدينيّ والشعبي.

ففي شهر المحرَّم المقدَّس من هذه السنة هاجم الخوميني الحاكم بلا هوادة وشبهه بـ«الفاجر» يزيد، الذي اغتصب التراث الشيعي، ولم يتردد لأجل مآربه السياسيّة في التضحية بالبطل الحسين سبط النبي. فتم القبض الفوري على آية الله، ممَّا أشعل الثورة في جميع أنحاء إيران، وتسبب في عصيان استمر ستة أيام تَمّ قمعه بشدة وسالت فيه دماء كثيرة[1].

أما التاريخ الثاني فكان بعد ذلك بثماني سنوات، أي عام ١٩٧١، عندما اطمأن الشاه لمبادرته الاقتصادية وللدعم الغربيّ، ولإدارة العلاقات مع العلماء فقرَّر أن يحتفل بمرور ٢٥.. سنة على الملكية الفارسية، ودعا لذلك صفوة الأرستقراطية العالمية إلى احتفال كبير ببيرسيبولي العاصمة القديمة للأخومينيدي Achemenidi. وقد كان هدفه الأصلي هو إضفاء شرعية على الأسرة وتأكيد الزعم بأنها منحدرة من نسل سيروس الكبير، ولكن الأمر كان بالنسبة إلى الأغلبيّة الشيعية غير ذلك، ففي رأيهم أن إحياء الأزمنة السابقة على فتوحات الخلفاء الأوائل، يمثل أكبر تحدٍّ للهوية الإسلامية التي تقلصت وأصبحت – على حدّ قول جيلز كيبل – حادثًا عرَضيًّا في التاريخ.

وكان الخوميني الهرم هو من تلقى هذا التحدي مرة أخرى في منفاه، وانتقد بكلمات نارية المؤسسة الملكية، وأعلن ذلك على الملأ: «حسب مَا يورده الحديث فإن النبي أكد أن لقب ملك الملوك الذي يطلق على حكام إيران هو أكثر الألقاب التي يكرهها الله... والإسلام أصلاً ضدّ فكرة الملكية، فالنظام الملكي هو واحد من المظاهر الشائنة، والاستبدادية»[2].

وقد شهدت الفترة التالية التزاما، سواء من جانب الحكومة المصريّة أو الإيرانية، لمحاولة احتواء المد الأصولي المتصاعد، بمجموعة من المبادرات التصالحية تارة، وبالقمع العنيف تارة أخرى. وقد وصل التوتر إلى ذروته في إيران عام ١٩٧٩ بالثورة

---

[1] ديلب هيرو، الأصولية الإسلامية، مرجع سابق صـ١٥١، ١٥٢

[2] ديلب هيرو، الأصولية الإسلامية، مرجع سابق صـ١٦١. وبالاتساق مع هجومه على الملأ ضدّ الملكية نشرت مجموعة من دروس الخوميني بعنوان حكومة إسلامية: ولاية الفقيه. ولم يكُن أحد يتوقع أنه بعد ثماني سنوات سيحقق العجوز آية الله نموذج الدولة الإسلامية التي كان يحلم بها في كتاباته، من خلال تفجيره بنجاح لأول وأكبر ثورة إسلامية حديثة، والتي ليس لها نظير في الجانب السني.

الخومينية، وبطرد الشاه، وقد أعلن اية الله في أول أبريل من العام نفسه أن هـذا «أول أيام حكومة الله». أما في مصر فقد بلغت الأزمة ذروتها بعد ذلك بسنوات ثلاث، أي في عام ١٩٨١[1]، باغتيال السادات، بعد أن تخلى عن سياسة التسويات مع المتشددين، وتبنى سياسة القبضة الحديدية، وقام بحملة اعتقالات ضخمة، وبإقصاء مجموعة مـن ضـباط الجيش (تطهير الجيش)، وبزيادة الرقابة الشديدة على المساجد.

لقد اقتصرتُ هنا على ذكر المثلين الصارخين والبارزين. ونجد تطورات مماثلة في كثير من الدول الأخرى من الجزائر وحتى أفغانستان، بصورة لاَ تقل تعقيدًا ولا أهميـة، وسيطول بنا المقاوم إذا مَا أردنا وصفها، حتى ولو بصورة إجمالية. ولكن مَا يهمُّنا هنـا أكثرِ من التطوُّرات التاريخيّة المنفردة، هو أن نلتقط الخيط الذي يربط بينها، سواء أكان نبيلاً، أم عدوانيًّا شريرًا.

ثلاثية الثورة الثقافيّة الإسلامية

يوجد عدد كبير من رجال الفكر والعمل –بدءا من مؤسس {الإخوان المسلمين} حسن البنا، ومن منظّرها الرئيسيّ محمد الغزالي– يمكنهم أن يتطلعوا إلى الشرف الـشائن لأن يكونوا الآباء المثاليين للأصولية الإسلامية الحديثة. ولكنني سأقتصر هنا على ذكر ثلاثة بارزين جاءوا من أكبر ثلاث مناطق من العـالم الإسـلامي: الباكـستاني المـودودي، والإيراني الخوميني، والمصري قطب. فهؤلاء هم ثلاث شخصيات أساسيّة يمثلون ثلاثة اتجاهات، ولهم تأثيرات متقاطعة على تلك التي ستكون فيما بعد الحركات الإسلامية، وما زالت أعمالهم أكثر الأعمال المقروءة من أقصى الأمة الإسلامية إلى أقـصاها، وتُبـاع نسخها وتوزَّع بالملايين، وإن كان أحيانًا بطريقة سرية.

فالمفكر الأول يمثل تجسيدًا معتدلا نسبيًّا للأصولية ذات الطابع السُّنِّي؛ ويجسد الثاني الثورة ذات الطابع الشيعي، أما الثالث فيمثل راديكالية الأصولية، ومصدر إلهام أساسـيّا للحركة الإسلامية الثورية. أصول المودودي ترجع إلى شبه القارة الهنديّة، هذا الجـزء من العالم الإسلامي حيث يظهر بقوة الضغط الخارجي، لأن السكان أغلبيتهم ينتمون إلى دين آخر، وتحت السيادة الاستعماريّة لقوة أجنبية. واللغة التي يعبر بها عن نفـسه هـي الأردية، التي تشهد على اندماج الثقافة الإسلامية مع البيئة المحلية، وترمز فـي الوقـت ذاته إلى الهوية الوطنية للشعب الباكستاني في مقابـل الهويـة الهندوسـية. وسـيعيش

[1] جاء على سبيل الخطأ في الكتاب المترجم أن اغتيال السادات كان عام ١٩٨٢، فصوبت التاريخ أثناء الترجمة إلى ١٩٨١ (المترجم).

المودودي بالكامل مأساة الانقسام، وميلاد باكستان، وبعد ذلك بنجلاديش. ومن ثم فليس غريبا أن يكون هو أول من تصدى بقوة للمشكلة التي نجمت عن ظهور القوميّة في المنطقة الإسلامية، وما تلاها من تكوين دول سياسيّة «لا دينيّة»، ففي كتابه الأول «الجهاد في الإسلام» الذي كتبه عام ١٩٢٨، أي في نفس السنة التي أسّس فيها البنا جماعة الإخوان المسلمين[1] في مصر، يُدين غموض «القوميّة الإسلامية»، كما هاجم اليهود المتعصبون الصهيونية.

إن من يسمون أنفسهم «وطنيين» لاَ يريدون في الحقيقة «دولة إسلامية»، ولكن «دولة للمسلمين»، بالضبط مثل الصهاينة الذين كانوا لاَ يريدون «دولة عبرية»، ولكن «دولة لليهود». ولا يتردد المودودي في وصف القوميّة بـ«الكفر»، لفظ يفوق في فداحته الكفر الذي اخترعته أوربا. وهو يحدد - على العكس - مَا يجب أن تكون عليه أسس وقواعد الدولة الإسلامية الحقيقيّة. والأَسْلَمة يمكن أن تكون فقط، تلك التي تأتى «من الأعلى»، والسيادة يجب أن تتم ممارستها، لاَ باسم الشعب، ولكن باسم الله، من خلال تطبيق شرع الله فقط. والجهاد - التي تعتبر الأركان الخمسة للإسلام تمهيدًا له - يجب أن يتجه في المقام الأول ضدّ مخلوقات الله التي اغتصبت سلطانه. ولتحقيق هذا الغرض يلزم تعبئة «طليعة الثورة الإسلامية»، وهنا يبدو واضحا الدعوة إلى نموذج لينين. غير أن الإيديولوجي الباكستاني ليس تدميريًّا تمرُّديًّا، فعلى الرغم من أنه يهاجم وجهًا لوجه العلمانيين القوميين، ومؤسسة العلماء الدِّينيّة، ولكنه يهدف إلى ثورة ليست اجتماعيّة- اقتصادية، ولكن ثقافيّة، دون أن يستبعد إمكانيّة التوصل إلى تسوية سياسيّة. فعلى الرغم من أنه أسس منذ ١٩٤١ الجماعة الإسلامية، على غرار جماعة الإخوان المسلمين، فإن رسالته ستظل محصورة في بعض الطبقات المثقفة، دون أن تفلح في التأثير في العامّة[2].

وفي القطب التاريخي الكبير الآخر، حيث تأثرت الحضارة الإسلامية، من خلال اتصالها بثقافة أخرى كبيرة، وهى الفارسية، وحيث تمركز التيَّار الشيعي، انطلق ردّ الفعل الدفاعي ضدّ الخطر، كما رأينا، ليس بسبب الاحتلال المباشر، ولكن بسبب اندفاع النظام الحاكم المزدوج نحو الماضي الوثني البعيد، ونحو المستقبل القريب ذي السمة التغريبية المتسارعة. والخوميني -الذي رأيناه يتصرف على الساحة السياسيّة كالعدو رقم واحد للنظام الملكي- يحتل مكانة بارزة أيضًا في تاريخ الأفكار، لأنه قاد للمرة الأولى الوحيدة الأصولية إلى الحكم بثورة، ولكنها ثورة تتميز بعنصر جديد، وتمثل خطًّا فاصلا أيضًا بالنسبة إلى التراث الشيعي، والتي تعتبر مع ذلك ممكنة فقط في هذا العالم.

---

[1] ورد على سبيل الخطأ أن الإمام البنا أسس جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٠، فصوبت تاريخ السنة عند الترجمة (المترجم).
[2] جيلز كيبل، الجهاد صعود وغروب، مرجع سبق ذكره، صـ٣٣-٣٦

انتهى المثقفون الإسلاميون ذوو المرجعية السنية جميعهم إلى الصدام مع المؤسسة الدّينيّة (التي يمثلها طبقة العلماء والمدارس القرانية المرموقة)، والتي اعتبروها مهادنة للسلطة السياسيّة، ومحتكرة لتفسير النصوص الأساسيّة. والعجوز اية الله نفسه عضو في هيئة علماء الدين، وكان ينتخب -على العكس- السلطة الدّينيّة، التي كانت تمثل قيادة البلد، ولكن كان يصل إلى ذلك بطريقة غير تقليدية، ومفاجئة لمعلم ديني. ولم يكن يتردد في اقتباس أفكار المفكر «اليساري» على شريعتي، الذي كان يستوحي من مفاهيم تَشبَّع بها في أثناء فترة تكوينية بباريس، واتصاله بأشخاص مثل سارتر، جوفارا، فرانزفانون. وكان شريعتي يهدم في كتاباته منطق «التلذذ بالألم» القديم، وكذلك التأمل الشيعي، الذي كان يعبر عن إدانة مغلقة فقط للسلطة التي يعتبرها ظالمة، ولكنه بعد ذلك يستسلم لها على هذه الأرض، في انتظار عودة المهدي، والثواب الأخروي.

وبإعطاء الخوميني لهذا الرأي بضمان مكانته السامقة، كان يحقق عمليّة سياسيّة عبقرية لم تكن ممكنة للمنظّرين الأصوليين في البلاد الأخرى: اتفاق في المواقف التقليدية والمناهضة للحداثة من جانب رجال الدين الذين يمثلهم، مع مواقف الشباب الذين يستوحون من الماركسية، ومن التعاطف مع العالم الثالث، بتوسعه قاعدة القبول لدى الطبقات المثقفة والحضرية[1]. إن المفهوم الثوري الخوميني كان يميز الاتجاه الذي يحصر الإسلام في مجرد ممارسة الشعائر التعبدية (ويرجع ذلك أيضًا إلى تأثير الغرب الإمبريالي). فالإسلام كان يجب أن يكون أولا شريعة إلهية، يتم ترجمتها على أرض الواقع من خلال ممارسة دولة. وكتب الخوميني: «إنها ضرورة منطقيّة أن تتحمل حكومة مَا واجب تطبيق قواعد الإسلام بشكل صارم ودقيق»، دولة إسلامية بحق يجب أن يحكمها بحق حاكم مسلم. وبسبب غياب الإمام الذي اختفى منذ أحد عشر قرنًا، يصبح الفقيه الحجة هو أفضل من يقوم بهذا الواجب، والذي يعاونه على المستويات التنفيذية، والتشريعية، والقضائية، فقهاء القانون الذين يحيطون بعلم الشريعة، وبإتقان[2].

كم كان بودّي أن أسترسل مع ثورة ١٩٧٩ بإيران وما ترتب عليها من شكل خاصّ من أشكال الثيوقراطية، وهو «ولاية الفقيه»، حتى فشلها، غير أن الحديث سيطول بنا كثيرًا، ويكفى أن نلاحظ كيف أن مكانة الخوميني هي المكانة الأصولية الأكثر راديكالية في القطب الشيعي حتى الآن.

أما في الجانب السُّنِّي فإن نقطة الارتكاز للأصولية النشطة يمثلها فكر سيد قطب، حتى وإن كان من الصعب قراءة أعماله في كثير من البلاد الإسلامية، لأنها محظورة

---

[1] المرجع السابق، ص ٣٦-٤٢

[2] ديليب هيرو، الأصولية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٦٢

من قبل السلطات. أشهر أعمال هذا المفكر الذي وُلد في صعيد مصر، وأمضى سنتين في الولايات المتحدة، يحمل عنوانا ملائما للغاية: «معالم في الطريق»[1].

من بين المؤثرات التي تركت بصمتها على الفكر الأصولي كتابات سيد قطب، ومن هنا نعرف السبب الذي من أجله تُلقِي أطراف كثيرة باللوم على الأصولية الإسلامية بوصفها تحمل شحنة مثاليّة تتخطى مجرد الاعتراض السياسيّ.

إن الأمر لاَ يتعلق في الواقع بدعاية مدمرة مَجَّانًا، ولكن برؤية متعصبة طويلة النفس، تجعل من هذه الدعاية مصدر خطر، لأنها تتحول من خلال الكلمات النبوية والمؤثرة، إلى تحريض على العنف، وأعلى هذه النبرات هي نقد الحضارة الحديثة، التي تعيد نسخ كثير من موضوعات فلسفة القرن العشرين، والتي يكمن أصلها في بعدها اللاهوتي، الذي هو إسلامي صرف.

فكر سيد قطب

يؤكد هذا الفيلسوف أن الرواج الاقتصاديّ، والتقدُّم العلميّ -على الرغم من أنهما جديران بالإعجاب في حدّ ذاتهما- جلبا الثراء لاَ السعادة للجنس البشريّ، وسبب هذا الشقاء هو الخطأ الفادح الذي وقعت فيه الحضارة الغربيّة عندما اقتبست من اليونانيين عبادة العقل وتقديسه.

إن رسالة الحب التي جاء بها نبي كبير كالمسيح، فقدت رونقها، وحلّت الثنائية الإغريقيّة محلّها، أي حدث الطلاق و«الانفصام» بين العالم الروحي والعالم المادي. وقد شجعت الكنيسة هذا الانحراف عن النواة الأصلية، بتركها لتعاليم موسى، التي كانت تتناول وتنظم مظاهر الحياة الإنسانيّة، وبتجميدها لها من خلال لوغاريتمات أو سلسلة من المبادئ «غير العقليّة»، صعبة الفهم، والتصديق. ولب فكر سيد قطب هو أن الغرب يمر بأزمة قيم جاءت كنتيجة لألفَي سنة من التراث اللاهوتي الذي ابتعد عن تعاليم المؤسس، وانتهى بقبول فكرة أن الدين يجب أن ينحصر في زاوية، بينما تتحكم السلطة العلمانيّة في كل مظاهر الحياة الاجتماعيّة المهمة.

وهذا يجعل المسلمين يشعرون بالإهانة أكثر، لأنهم لم يكونوا أصلاً هدفًا لهذا التهميش والتغريب، وإنما عانوا منه كانعكاس. هناك نقطة مهمة لهذا البناء الإيديولوجي والفكري، وهي الإصرار من جانب قطب على أن الصراع بين الغرب والإسلام صراع

[1] يمثل «في ظلال القرآن» «الذي ألفه في السجن، أضخم أعماله، ويعبر عن فكره كاملاً.

ديني. وإن وصف هذه المعركة التي هي في جانب الله أو ضدّ الله كصراع سياسيّ واقتصادي أو عسكري، يعنى المغالطة والتعتيم لتبرير وصف المسلمين الذين يُصرُّون على الحديث عن الدين «بالرجعيين» أو «المتعصبين»، في الوقت الذي سلك فيه المسيحيّون والصهاينة طريق الضلال وفصلوا الدين عن السياسة وعن الحياة اليوميّة، وقادوا العالم كله إلى ذلك الشقاء الروحي والأخلاقيّ. هكذا يؤكد قطب بكلمات واضحة، ويرى هذا المفكر من منظوره أن الإسلام يكتسب أبعادًا عالمية، وشريعة القرآن تصبح المدينة الفاضلة وخطة الإنقاذ الوحيدة لكل البشريّة، وأنها البديل العظيم الذي لم تُوجِدْه الشيوعيّة ولا الماوية (نظريّات ماوتسي تونج). مَا الإسلام «الحقيقيّ» في رأى سيد قطب؟ إنه ليس بالتأكيد إسلام تركيا أتاتورك، أو إسلام دول أخرى نظامها مشابه، حيث تمّ استبدال المؤسسات العلمانيّة بمؤسسات الخلافة. فهناك يوجد إسلام «جزئي»، ويسود نظام «جاهلي»، أي عودة إلى عصر الجاهلية قبل نزول القرآن. إن المسلمين الذين يستسلمون لنظام كهذا هم مسلمون مزيفون ويجب معاملتهم بوصفهم أعداء داخليين، وحلفاء الأعداء الخارجيين من الصليبيين والصهاينة. إن الإسلام الحقيقيّ هو فقط الذي تسود فيه الشريعة، أي قانون الله. إن الإسلام يبدو ضعيفًا وفي فترة انحطاط، في الظاهر فقط، وفي هذه المرحلة التاريخيّة. ولكن في الواقع ارتباط الإسلام بإرادة الله يوفر له قاعدة صلبة وحقيقيّة تجعله يستعصي على الهزيمة. إن المؤمنين المخلصين، حتى وإن كانوا قلة، يجب عليهم أن يشكلوا «طليعة» لقتال المسلمين «المنافقين»، ولاستعادة الخلافة، وللعمل على إحياء ونشر الثقافة الإسلامية في العالم على خطى محمد. وركيزة هذه اليوتوبيا هي الشريعة، التي تعتبر بمثابة نظام شامل وعالمي. إن الشريعة الإسلامية تعني بالنسبة إلى قطب التحرير، لأنه بمقتضى هذه الشريعة لن يكون هناك شخص مضطر إلى أن يطيع أوامر من صنع البشر، ولأن يفعل مَا يقوله الحكام، حتى وإن كانوا منتخبين بطريقة حرة. ففي ظل الخلافة المنشودة سيتحرر كل إنسان من عبوديته للآخرين، ولن يكون هناك أبدًا مجتمع من السادة الذين يأمرون والعبيد الذين يطيعون، ولكنْ مجتمع ينعم فيه كل فرد بكرامة متساوية مع الآخرين، ويسوده عدل وحرية، الجانب الإنساني والجانب الإلهي. إن الأوامر التي حددها الله هي وحدها الكفيلة بتحرير الإنسان من المذاهب المضللة، ومن الانفصام الحالي. إن نقد قطب ليس فقط على صعيد التحليل الفلسفي، ولكن يتميز بنبرات حماسية لمحرض سياسيّ، وبأحاديث عنيفة طالت، فضلاً عن المسيحيّين، اليهودَ أيضًا (الذين وُصفوا بنفس الصفات الشائعة في الدعاية المناهضة للصهيونية، منحطّون، بخلاء، مستكبرون، دائمًا يدبرون المؤامرات)، فضلاً عن وصفه بنبرات أصولية هؤلاء المسلمين الذين سمحوا أن ينتقل التيَّار الانفصامي للعالم الحديث إلى الإسلام «بالخونة». ويبدو تحفظه الشديد في أفكاره المتعلقة بتحرير النساء، فهو يعتبر أن ذلك «ابتعاد عن الدور الطبيعيّ الذي حدده الله وهو تربية وتنشئة

النسل»، ويعتبر هذه الأفكار من صنع الإمبريالية الأوربيّة، و«امتدادا للحروب الصليبيّة»، أو تلك الأفكار التي تتعلق بمشروعية وجدوى الحدود[1].

إن الأمر يتعلق -كما رأينا وكما أدركنا بسهولة من خلال هذا العرض المجمل- بمشروع مستحيل وثوري، وقابل لأن يؤدِّي إلى ثيوقراطية متسلطة لاَ تختلف كثيرًا عن نظم القرن العشرين الاستبدادية. ومع ذلك فهي رسالة تسحر الألباب، سواء بسبب شخصيّة كاتبها الذي دفع حياته ثمنا لأفكاره (فقد رفض عرضًا من أصدقائه باللجوء إلى ليبيا أو العراق، واختار الشهادة) أو بسبب الحيوية والحماس الدافق الذي قُدِّمَت به، وهى رسالة غنية بالأفكار بعيدة النظر، وبأفكار تحث على العنف، وبنداءات للتضامن.

وحتى الجزء الذي هو محلٌ نقاش من أعماله والذي يفتح الباب أمام اتهامات بالتعصب، أي الجزء الذي يحثُ على تكريس الحياة لله، يجعل الإنسان يفكر في نبل المشاعر. إن الشهادة لم يختَرْها قطب بطريقة آلية كوسيلة لدخول جنة الحور، ولكنه فهم الشهادة من منظور يمكن أن نطلق عليه علمانيًّا وحديثًا (يجعلنا نفكر في الدفاع عن سقراط أو في الخطاب المشهور لماو بعنوان «خدمة الشعب»).

«الحياة والموت -هكذا يكتب قطب- لاَ يتمُّ الحكم عليهما على أساس معايير فيزيقية، فالحياة تتميز بالنشاط والنمو، بينما الموت هو حالة من فقدان الوظيفة الكامل، ومن الكسل والخمول. إن موت أولئك الذين يُقتَلون في سبيل الله يعطى قوة دفعٍ للقضية التي تستمر في البقاء نَضِرة وحيّة بدمائهم. ويبقى أثرهم على من بعدهم طويلاً، ولذلك بعد موتهم يظلون قوة دافعة تشكل حياة مجتمعاتهم، وتهديهم إلى الطريق. وبهذا المعنى يُعتبر موت هؤلاء الشهداء الذين ضحَّوا بحياتهم في سبيل الله محركًا دائمًا في الحياة اليوميّة... ولا يوجد أي معنًى حقيقيّ للفناء في موتهم لأنهم يستمرون في الحياة»[2].

إشكالية المسلم الصالح

إن البحث الاجتماعيّ المقارن والتحليل التاريخي، يجب أن يحملا، حتى أشدّ المعارضين، على الاعتراف بأن الأصولية الإسلامية أيضًا لها نواة إيديولوجية وشحنة أخلاقية، مقارنة بحركات أصولية أخرى، ويبدو أنها مدفوعة للدفاع عن حضارة قديمة

[1] هناك من يتهم سيد قطب بالمسؤولية الكبيرة عن بعض الأفكار المتعصبة ويعرفونه «بفيلسوف الرعب الإسلامي». أنظر مقال بول برمان، فليسوف القاعدة، كيف اخترع إسلامى مصرى الجهاد الإرهابى من زنزانته، في «مجلة نيويورك تايمز مجازين»، ٢٢ مارس ٢٠٠٣، وهذا المقال يوجد في بداية كتاب نشر أخيرًا برعاية نورتون بعنوان الفزع والليبرالية.

[2] يبدو أن رؤية من هذا النوع تصالح مَا بين مفهومي الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر لأنها تجمع بين فكرة النضال المسلح وبين فكرة الارتقاء بالمسار الروحى. انظر بول برمان، فيلسوف القاعدة، مرجع سابق صـ٦٦

تتهاوى قواعدها تحت ضغط تغيُّر كبير. وبمقارنة بصور الصحوة الدّينيّة في عصرنا هذا التعصب اليهوديّ، الأصولية الأمريكيّة البروتستنتية، التعصب الكاثوليكي، الأصولية العرقيّة الدّينيّة للهندوس - التي توجد بينها نقاط مشتركة كثيرة، فإن الأصولية الإسلامية مع ذلك تتميز بخاصيتين ترجعان إلى التكامل والاندماج مع البيئة التي توجد فيها. إن الأصولية الإسلامية تبدو وكأنها أشد أنواع الأصولية عدوانية.

وذلك لاَ يتناقض مع كل مَا حاولنا أن نبرهن عليه في الفصلين السابقين، وهو أن الإسلام ليس ديناً عدوانيًّا وعنيفاً في حدّ ذاته، ولكنه نتيجة مباشرة لإشكالية أن كل مسلم صالح من المثقف وحتى الفلاح الأُمِّيِّ يجد نفسه مضطرًّا اليوم إلى المواجهة، وهو على أعتاب الألفية الثالثة، كما كان منذ قرن مضى في فترة التغيرات الإصلاحية: كيف يدخل بقوة في العالم الجديد دون أن يتخلى عن ثوابته السياسيّة والاجتماعيّة الثيوقراطية في المقام الأول. والخطوة الحرجة التي يجب عليهم أن نقوم بها هي الفصل التام بين مجال المقدس وغير المقدس، بين الدين والسياسة، وهي خطوة لاَ تتمُّ فجأة وطفرة من خلال استفتاء أو آلية دستورية أخرى. إن دراماتيكية الاختيار تجعل من الصعب الوصول إلى حلول جزئية كتلك التي تَبنَّاها القوميُّون الهندوس، ومن وقَّعوا بيان نياجرا فالس Niagara Falls، أو أتباع المونسنيور ليبرفي Lefebrve، الذين يقتصرون فقط على إدانة مظاهر التغريب التي تؤثر على الروح وعلى ممارسة الدين التقليدي، ويقبلون المظاهر الأخرى.

إن التغريب بوصفه تبنيًا لوسائل وأدوات التطوُّر الاقتصاد والتقني، يعتبر حاجة مُلحّة في نظر مئات الملايين من المسلمين، وهناك كلمات تُـردَّد كثيـرًا فـي الإعلام الإسلامي مثل «ركود» و«بعث»[1]. ولكن تطبيق ذلك على الصعيد الاجتماعيّ والاقتصادي اصطدم بزعم سياسيّ بتبني الحداثة ووضعها في إطار إسلامي. فهل هذا معقول؟ هل يتصور وجود مجتمع قرآن يتخلى عن سمو شريعة الله على شريعة البشر؟ أم هل من الممكن وجود مجتمع متقدم علميًّا وفي الوقت نفسه يقوم على أُسُس ثيوقراطية؟ يجيب المعتدلون بنعم مؤكدين أنه يمكن للإسلام أن يحذو حذو المسيحيّة ويتبنى أشكالاً من الديمقراطيّة البرلمانية، ويحتفظ بدرجة عالية من الالتزام الدينيّ. غير أن المتعصبين الأصوليين يجيبون بالنفي، وأن «التساهل» (وهو اللفظ الذي استخدمه تيونبيه) ليس فيه مخاطرة فقط، بل هو مستحيل: إن العمود الفقري لشريعة القرآن لاَ يسمح بمساومات وأنصاف حلول من هذا النوع، والتنازل عن الشريعة أو إفسادها سيؤدِّي حتما إلى انهيار كل الأركان الأخرى.

---

[1] انظر باولو برانكا، المسلمون، مرجع سابق، انزو باتشه، الأصوليات، مرجع سابق

إن هذا الجزء الهائل من العالم حيث يتكلم مئات الملايين من الرجال والنساء لغات مختلفة ولهم عادات مختلفة ولون بشرة مختلف، ومع ذلك يصلون نفس الصلاة وهم يتجهون إلى مكة، لم يعشْ أربعة قرون من الآلام التي عاشها عالمنا ليصل على العقليّة «العلمانيّة»، فهم لم يعرفوا عصر النهضة، وحركة الإصلاح، وعصر التنوير، والثورة الصناعيّة، وعصر التقنية، ومن ثم لم يستطيعوا استيعاب الإنجازات الثورية ولو عاطفيًّا، فعندما يطالب الغزالي وقطب وكثيرون آخرون بدولة إسلامية حقيقة يسود فيها شرع الله كركن سادس، وتعطى معنى لكل مظاهر الحياة العامّة والخاصّة[1]، فإن هذا يبدو أمرًا مستحيلاً وغير مفهوم لمسامعنا، ولكنه ليس غريبًا على مسامع قطاعات كبيرة من الأمة الإسلامية[2].

فاضطهاد المتهرطقين ومطاردة الساحرات الشريرات ظهرت وعاشت طويلاً لأنها كانت مشهورة في الحث الشعبي. ويمكن أن نقول نفس الشيء بالنسبة لعادات في أوجها بالهند كنظام الاستعباد بسبب الدين ونظام المجموعات المنغلقة على نفسها. إن المحاكم في الإسلام مخصَّصة لقمع الرذيلة ولتشجيع الفضيلة، أما العقوبات المنصوص عليها في الشريعة الإسلامية، مثل رجم الزاني المُحصَن، وقطع يد السارق، وضرب الرجل الحليق، والمرأة «المتبرجة»، لا يمكن أن تظل ثابتة إذا لم تكن متناغمة مع مشاعر السلف التي لا تزال موجودة على كل المستويات.

ويبدو لنا أنه من غير المعقول أن الأسئلة المتعلقة بالذات الإلهية لا تزال لها نفس الأهمية، مثل ما كان عليه الأمر منذ ألف سنة في كل العالم المعروف آنذاك. إن سلطان شريعة الله، الذي تجاوزناه نحن، هو أمر أساسيّ بالنسبة إلى المسلمين الملتزمين، وكذلك بالنسبة إلى أولئك الذين يرفضون نهج الأصوليين. فيبدو لهم من غير المفهوم كيف نستطيع -نحن الغربيّين- أن نعيش حياتنا بعيدًا عن المفاهيم الإلهية. إن «المسلم الصالح» هو محافظ، مخلص لتقاليده، ويصلي خمس مرات في اليوم، ويؤدى الزكاة، ويصوم رمضان، ويدَّخر طيلة عمره ليؤدِّي فريضة الحج إلى مكة، يعتقد أنه من المسلّمات -كما كان يؤمن الإيطالي أو الألماني في العصور الوسطى- أن الدولة هي دولة الله، وأن الجيش هو جيش الله، وأن الأعداء هم أعداء الله في المقام الأول.

---

[1] يعتبر محمد الغزالى الشريعة كمفهوم أساسى في كتابه «الطريق من هنا «الذي يرجع إلى عام ١٩٤٨ وهناك من هو أشد تطرفا من سيد قطب، إنه عبد السلام فرج الذي أثار ضجة في العالم العربي من خلال اثنين من مؤلفاته «الفريضة الغائبة «و«الركن المنسى» ويدعو فيهما إلى ثورة دائمة ويدعو إلى الجهاد للإحياء الدولة الإسلامية. ويركز على الشريعة لوصفها الركن السادس للإسلام.

[2] في مصر عام ١٩٨٠ لم يكُن فقط الإخوان المسلمون، ولكن أيضا ممثلو المؤسسة الدينية وعلى رأسهم جامعة الأزهر المرموقة، كل أولئك مارسوا ضغوطًا لتعديل الدستور الذي ينص على أن الشريعة ليست إلا «مصدر رئيسى للتشريع» ليكون النص «المصدر الرئيسى للتشريع » (مناظرة حول تطبيق الشريعة، ملف العالم الإسلامي لدى جمعية أنيللى، ١٩٩٣ صـ٤)

إن هذه الشعوب ظلت لا تراوح مكانها الذي كانت فيه منذ أربعة قرون، وظلوا أسارى رؤية منغلقة للعالم، تلك التي تخلصنا منها بالخير أو بالشر، لنسلك الطريق نحو ما نسمّيه بالحداثة.

وماذا يفيد الاعتراض على أن مَا كان يصلح في زمن محمد لاَ يمكن تطبيقه اليوم؟ إن القول إن المسلمين مَا زالوا يعيشون في القرون الوسطى -وقد أوضحت ذلك وأكرره- يمكن أن يُعتبر مجاملة لاَ سبابا. ففي تلك الحقبة التي لاَ تمثل بالنسبة إليهم «عصور ظلام»، نعم، حدثت في تلك الحقبة مواجهات بين القطبين الدينيَّين، الإسلام والمسيحيّة، وتحاربوا، ولكن احترم كل معسكر الآخر. ثم حدث أمر لاَ يمكن تصديقه، فأحد القطبين، وهى المسيحيّة، تَمّ استبداله بشيء لاَ علاقة له بالله. فالمسلمون التقليديون جدًا هم من يبدون سخطهم، وألمهم على حذف لفظة «مسيحيّة» من قاموس المفردات الحالي، لأن ذلك يُخلّ بتوازن قديم، ويضع هويتهم في مخاطرة، ومن ثم يعتبر ذلك على الأقل تفسيرًا جيدًا لسبب عدوانية الأصولية الإسلامية، ولماذا هي أكثر شعبيّة عن الأصولية المسيحيّة. فعندما يحشد الأصوليون المسيحيّون أنفسهم ضدّ الحداثة، فهم يتحركون ضدّ التيَّار، لأن الكنيسة نفسها قبلت بفكرة الديمقراطيّة الليبراليّة، وبتحول العالم بفضل سلطة العلم. أما الأصوليون الإسلاميون فعلى عكس ذلك يتحركون مع التيَّار. فالأصوليون المسيحيّون نادرًا مَا يشكلون غلوًّا، بل غالبًا استثناءً، أما الإسلاميون فيمثلون غالبًا إفراطا، ونادرًا مَا يمثلون استثناءً.

ولذلك يصبح من اليسير فهم السبب الذي من أجله يتمُّ تصوير الولايات المتحدة - وهى البلد الذي يكرِّس نفسه أكثر من كل بلاد العالم للبحث عن السعادة على الأرض، كما يذكر دستور المستقبل- لعموم المسلمين من جانب الدعاية الأصولية، ليس فقط كقوة إمبريالية واستعماريّة جديدة، ولكن بصفتها في تناقض كامل مع الإسلام، وبوصفها تجسيدًا للشيطان. والتوتّر الذي يتجه لإيجاد نقطة اتحاد جديدة من قطر إلى إسطنبول، ومن جاكرتا إلى مرسيليا، يجد له متنفسًا سهلاً في رؤية خادعة لإسلام «تقي وصلب»، إسلام المعارضة الذي يعبِّر عن نفسه من خلال سلسلة من السلوكيات النمطية، كالحجاب، واللحية، وتحريم الموسيقى والغناء، وفي حالات التطرف من خلال القنابل. ولحسن الحظ، فإن المتطرفين لاَ يجدون صلة واقعية مع عامّة الناس، بمعنى التعبئة السياسيّة الحقيقيّة. فكثير من المسلمين، خصوصًا الشباب، يدركون أنه لاَ يمكن العودة إلى عصر «الخلفاء الراشدين» الذهبي، ولكن يجب أن نلجأ إلى مصدر قوة التقاليد الإسلامية، وهو مرونتها وسماحتها -وكما يلاحظ جيلز كيبل- التي سمحت، في أيام

العظمة، من بغداد إلى إندونيسيا، بانصهار مكونات الحضارة المسيحيّة، والحضارة اليونانية المتوسطية في بوتقة واحدة أصيلة[1].

فعلى هؤلاء ينعقد الأمل في إيجاد حل للمعضلة، ومن ثم فهم يتعرضون لهجمات المتطرفين الإسلاميين، الذين يجدون حلفاء أوفياء لهم في دارنا، ويمثلون صورة مطابقة لهم، ومقتنعون هم أيضًا بأن كل شيء يمكن أن يُحَلّ بالقوّة، وأنهم لن يتخلّوا عن قناعتهم حتى بعد نزول المسيح على الأرض مرة أخرى. إن التصدي لهؤلاء وأولئك، ومساعدة الأغلبيّة المعتدلة في العالم الإسلامي للبحث عن طريق ذاتي للتطور المدني، فضلاً عن الاقتصاديّ، يمكن أن يوفر لنا ميزة إضافية لتقييم أنفسنا بروح نقدية لمميزات وعيوب نموذجنا الحضاريّ. ومع تمنياتي أن تفسح العقليّة «المتعصبة»، التي تتحصن بماضٍ أسطوري عتيق، الطريق للعقليّة «المنفتحة»، يجب أن نظل على وعي بالتضحيات والمخاطر التي ينطوي عليها هذا الخيار، وقياس حجم المشكلات التي سيجرُّها الدخول إلى مستقبل أقل خداعا «تميزه الصبغة الغربيّة»، على هذه الثقافات التي يصل عمرها إلى آلاف السنين.

[1] جيلز كيبل، الجهاد صعود وغروب، مرجع سابق صـ٤٢٣، وانظر أيضا فرانكو كارديني وجاد ليرنر، شهداء وقتلة، مرجع سابق.



الجزء الثاني

اللاتسامح الثقافي

اليقين المستمد من الآباء



الحارس

(كان مبتلاً بالماء، ومغطى بالطين، وكان يؤلمه الجوع، والبرد، كما كان بعيدًا عن وطنه بمقدار خمسة آلاف سنة ضوئية.

شمس أجنبية كانت ترسل بضوء بارد وسماوي اللون، وكانت الجاذبية ضعف الجاذبية التي كان معتادًا عليها، كان يبدو عليه التعب عند كل حركة.

ولكن بعد عشرات الآلاف من السنين لم يتغير ركن الحرب هذا، فقد كان مريحًا بالنسبة إلى رجال سلاح الجو بمراكبهم الفضائية، وأسلحتهم المتطورة السوبر، ولكن عندما وصل الأمر إلى نقطة حاسمة، كان الدور على الجنود فوق الأرض، أي المشاة، أن يحتلوا المواقع ويحتفظوا بها بدمائهم شبرًا شبرًا، مثل هذا الكوكب اللعين التابع لنجم لم يسمعوا عنه من قبل إلا عندما نزلوا عليه، وصارت الآن أرضًا مقدسة فقط لأن العدو وصل إليها. العدو، وهو الجنس الذكي الوحيد في المجرة... قساة، مقزِّزون، ووحوش ضارية، حدث أول اتصال وسط المجرة بعد استعمار بطيء وشاقٌ لبضعة آلاف من الكواكب، وكانت الحرب، فورًا، وكانوا هم أول من بدأ، بإطلاق النار دون أدنى محاولة للوصول إلى اتفاق أو حلٍ سلميّ.

كان يتعين عليه القتال بالأسنان والأظافر من كوكب إلى كوكب. كان مبتلاً بالماء، ومغطًى بالطين، وكان يؤلمه الجوع، والبرد، وكان اليومٍ عاصفًا، تهب فيه ريح عاتية تؤذي عينيه. ولكن الأعداء كانوا يحاولون التسلُّل، وكان كل موقع متقدم حيويًّا جدًّا.

كان على أهبة الاستعداد، والبندقية جاهزة. كان بعيدًا عن وطنه بمقدار خمسة آلاف سنة ضوئية ليقاتل في عالم أجنبي، ويتساءل إذا مَا كان سينجو بعمره ويعود إلى وطنه أم لاَ.

عندئذ رأى أحدهم يزحف نحوه. صوَّب وفتح النار، وصدر عن العدو صوت غريب، مرعب، يصدر عنهم جميعًا، ثم لم يتحرك بعد. سبب الصوت، ورؤية الجثة، رعشة وقُشَعْريرة له. كثيرون كانوا قد اعتادوا على ذلك بمرور الوقت، ولم يعيروه اهتماما، ولكنه كان غير ذلك، كانت مخلوقات مقزِّزة، لها فقط ذراعان، وقدمان، وتلك البشرة ذات اللون الأبيض المقززة، ودون تجاعيد).

فردريك براون، موسوعة الخيال العلميّ



الفصل الخامس عشر

الخوف من الأجنبي

«... كل إنسان يطلق اسم «بربرية» على مَا لاَ يدخل في عاداته، ويبدو في الواقع أننا لاَ نمتلك نقطة ارتكاز أخرى للحقيقة والمنطق، غير أفكارنا، والتقاليد التي نحن عليها، التي يكمن فيها الدين الكامل، والحكومة الكاملة، والاستخدام الأمثل والدقيق لكل شيء».

ميشيل دي مونتين

[هل يمكن قتل أي شخص لأنه مختلف؟ - من على صواب، هوبز أم روسو؟ - أنا والآخر - الرغبة في إثبات الذات والهوية - مركزية الأنا الجماعيّة - عدوان على هويتنا الرمزية - «الآخرون» كائنات ذات إنسانيّة محدودة - «الغرباء» وغزو الأجسام الغريبة.]

هل يمكن قتل أي شخص لأنه مختلف؟

لاَ يغيب بالتأكيد عن القارئ عدم التناسق بين أجزاء هذا الكتاب المختلفة، فالجزء الأول، الّذي خصصناه للاتسامُح الدينيّ يحتل وحده ثلثي الكتاب. وهذا كان خيارًا إجباريًّا بالسنين. السبب الأول يرجع إلى أن الدوافع الدّينيّة مَا زالت مستمرّة في سيطرتها على السلوكيات العنيفة والتي تتسم بالتفرقة للإنسانيّة ضدّ الإنسان.

والسبب الثاني يرجع إلى أن الدين -فضلاً عن قوته الكامنة فيه- أصبح على مدى آلاف السنين عباءة فضفاضة، وملائمة، وتزيد على الحد، لأن الدين أثبت أنه أكثر فاعلية لإدخال، وتقويةّ سلوكيات محدودة. ومن ثم ظهرت صراعات لبست عباءة الدين في الظاهر، ولكن كان لها فقط من الدين اسمه.

والذي ظهر لنا بالبراهين وبحثنا للديانات الوثنية القديمة والمعاصرة، أن كثيرًا من هذه الصراعات كانت ذات طبيعة سياسيّة واجتماعيّة محضة. وفي ما يتعلق بكبرى الديانات التي تؤمن بالله الواحد، نجد أن الموقف أكثر تعقيدًا، ولكن نظرًا لقصص الإقصاء، والعنف، يزداد الشكّ في أن هذه الديانات وقعت في مأساة بسبب سيطرة المكون السياسيّ عليها.

وكثير ممَّا استعرضناه حتى الآن على الصعيد الدينيّ، يوفر لنا وسيلة لتفسير عدائنا، ليس فقط لمن يصلِّي بطريقة تختلف عن طريقتنا، ولكن أيضًا لمن يتكلم لغة لم نفهمها، ولمن له لون بشرة مختلف عنا، ومن يتبع قواعد ودرجات كهنوتية لاَ نقبلها، ومن له طريقة مختلفة في الزيّ، ومن يأكل بطريقة غريبة.

وإذا كان من بيننا من هم ذوو إيمان صادق، ومقتنعون بأنه، على الرغم من كل شيء، فإن السلوك البشريّ يحتوي على دافع عيني قوى يأتي من الأعلى (ومن الخارج)، هذا الدافع الذي يبرر التصرفات المتشددة، فهناك أيضًا مفكرون كثيرون أحرار يعتقدون -على العكس- أن التسامُح يعود إلى دوافع داخل الطبيعة البشريّة، وأن الدين نفسه ليس إلا كيان تَمّ اختراعه لتقديس هذه الدوافع، ولجعل بعض المحرَّمات والأوامر أكثر إقناعًا.

وهذا يفيد -دون شكٍّ- في الوصول إلى فهم أفضل للمشكلات التي يهمُّنا هنا أن نواصل بحثها من زاوية مختلفة، بعيدًا عن البعد الميتافيزيقيّ، وباعتبار العامل الدينيّ صنوًا لأي عامل ثقافيّ آخر. وبعبارة أخرى، فلنتصرف «كما لو كان الله غير موجود» حسب التعبير الكلاسيكي لتيَّار العقلانيّة العلمانيّة (وهكذا كان يقول أوجود جروتسيو، وهو يؤسس لأول نظام حديث لحق البشريّة).

طرحنا في الجزء الأول هذا السؤال: «هل يمكن أن نقتل باسم الإله؟»، وسنحاول في الجزء الثاني أن نجيب على سؤال ثانٍ لاَ يقل صعوبة عن الأول، وهو: «كيف يمكن قتل شخص مَا فقط لأنه مختلف عنا؟».

في السؤال الأول، الذي يقحم الخالق في المسألة، رغم أن الخالق هو العدل المطلق، والخير المطلق، فقد حاولت أن أعطى إجابة منطقيّة، وإن كانت أقل إقناعًا في رأى كثيرين.

فطبقًا لأوامر وإرادة الله، من يؤمن يجب عليه أن يطيع دون مناقشة. فإذا كان إبراهيم قد استسلم لله بذبح ولده الأكبر مثل الكبش دون أن يعترض ولو بكلمة، لأن يهوه قد أمر بذلك، فكيف يتردد إذا مَا أمره الله بذبح أعدائه؟

بل إن الثواب الأخروي يعطي دفعة للتضحية حتى بالحياة من أجل قضية مقدسة. ويمكن ملاحظة أن من يؤمن بقوة، لا يضيره أن يستبدل بسنوات عمره المليء بالمعاناة على هذه الأرض، سعادة أبديّة، ولكن في الحالة الثانية، وهي حالة الصدام مع الآخر على هذه الأرض، نتساءل: مَا المنطق الذي يمكن أن يدفع إلى هذا النوع من الحرب المقدسة والتضحية بالنفس؟

ومن المؤكد أن منظومة القيم والمعتقدات والعادات، التي نسميها «ثقافة»، قد تعني بالنسبة لنا شيئًا مَا له قيمة أكثر جذبًا من الأشياء المادية. ولكي نحافظ على هذا التراث غير المرئي الذي يجعلنا متميزين، فنحن مستعدون لدفع مقابل باهظ للغاية. ولكن الأمر يتعلق دائمًا بخير يهدف إلى رفاهيتنا وسعادتنا على الأرض، ومن ثم لاَ يجب أن يبرر هذا الثمن الفادح لحياتنا، أو حياة الآخرين.

إذن مَا هذا الشيء الذي يعطي لكلمة «ثقافة» نفس القوّة التي يتمتع بها التعصب الدينيّ، لدرجة تجعلنا نهزم غريزة الحياة أو تجعلنا نتحول إلى قتله؟

إذا كانت شعوب بكاملها تقوم –باسم الشيء الذي يعطيهم هويتهم المشتركة– بعمليات انتقامية دموية لاَ نهاية لها، وإذا كانت هذه العمليات الثأرية تصل إلى حدّ ارتكاب أعمال وحشية ضدّ الجيران الذين يعيشون معهم على مدى سنوات جنبًا إلى جنب، وإذا كانوا لاَ يترددون في تقديم حياتهم، وحياة المحببين إليهم، فإن هذه العلاقات المثاليّة مع الثقافة يجب أن تمثل نوعًا من اليقين المُطلَق الذي لاَ يقاوم، والذي يقف على قدم المساواة مع اليقين الذي يأتي من الله.

ويمكننا الحديث كذلك في هذه الحالة عن بُعدَين يرتبطان فيما بينهما، الأول هو البعد «الرأسي» الذي ينهل من الحالة النفسيّة، والثاني وهو البعد «الأفقي» الذي ينهل من الخير الاجتماعيّ.

مَن على صواب، هوبز أم روسو؟

وفق هذه الرؤية غير الدِّينيّة الجديدة، تتجه «الرأسمالية»، ليس نحو السماء، ولكن تنزل إلى الأسفل، في اتجاه أعماق الضمير الفرديّ والجماعي، ولكي نلج موضوعات كتلك، يجب حتما أن نغزو عالم النفس، وعالم الاجتماع، كما غزونا من قبل مجال تخصُّص الفيلسوف، وعالم اللاهوت.

إن من يدرسون الطبيعة البشرية كثيرا ما سألوا أنفسهم، كيف يقتل الإنسان وهو الحيوان الوحيد (باستثناء نادر في الفئران وبعض الحشرات مثل النحل والنمل)- وبانتظام بني جنسه، وأحيانا كثيرة دون مبرر واضح.

إن الجدل الذي يدور حول المؤثرات التي تحكم التطوُّر الإنساني -الوراثة أم البيئة- يستمرُّ وبمفردات جديدة، ولكن يبقى كما هو.

ما الإنسان في كيانه الأكثر عمقًا؟ هل هو الإنسان الذئب، عند هوبز السفاح؟ يميل إلى هذا الرأي من بين علماء الأنثروبولوجي المعاصرين جيمس لوفلوك، الذي يرى أن الإنسان قد يكون «سفاحًا قبليًا»، كتبت غريزة الصراع في جيناته الوراثيّة مع ولادته «كمفترس وليد»، أم هو حسب روسو «المفترس الطيب»، الذي صار عنيفًا بالتدريج بسبب تأثير المجتمع المدمر؟

يرى ديزموند موريس D. Morris، أن الإنسان «قرد عارٍ» تجبره فقط تحديات البيئة على أن يتحول من آكل للعشب، إلى آكل لحم (سفَّاح)، وقد تحول الإنسان شيئًا فشيئًا من ساكن قمم الأشجار، وجامع للطعام، إلى إنسان آخر، نزل في غابات السافانا، وصار قنّاصًا، وراعيًا ثم مزارعًا في النهاية. وقد وجد نفسه مضطرًّا دائمًا إلى أن يتنازع الصيد، والقطيع، والحقل المعد للزراعة، ثم فسّر القصة التوراتية لقابيل وهابيل، وهي أول جريمة قتل، على أنها رمز للصراع بين سكان الحضر والبدو الرُّحّل، على أعتاب الثورة الزراعية. وحسب طريقتهم في تناول الموضوع يتحدث الخبراء عن «نرجسية أصلية وثانوية»، وعن دافع حياتيٍّ، وعن دافع للموت، أو ينتقلون بالبحث إلى المستوى البيولوجي، عن طريق اكتشاف ملمح وراثيّ موجود في الحامض النووي للإنسان، وفي إفرازات الهرمونات، وفي الخلايا العصبية، وفي التطوُّر العقليّ. إن الأدلة التاريخيّة، وملاحظاتنا اليوميّة، تظهر لنا على أي حال أن الإنسان، على الرغم من التحولات التي مرت به طوال عمليّة التحضُّر، لم يفقد ردّ فعله الأول المشترك بين كل الحيوانات، وهو التوجس والعداء، عندما يلتقي مع من يعتبره «مختلفًا»، وينظر إليه على أنه «خطر» يتهدده، بل إن ردّ فعل الإنسان الذي يرجع إلى الغريزة يبدو أن العقل يقوِّيه.

إن «الجين الأناني» الذي يفرض على كل كائن حي الأمر بأن يضمن حياته ونوعه، اكتسب في الجنس البشريّ تطورات أكثر تعقيدًا. وقد جعلَتْ نصوص علم النفس الأمرين الأساسيّين عند مواجهة الخطر، مألوفَين لنا، والإنسان يشترك في هذين الأمرين مع كل الحيوانات: هاجِمْ أو اهرُبْ. إن سلاح الإنسان العاقل الأول هو العقل، الذي منح الإنسان أمنًا أكثر (فعلمه أيضًا أن الاتجاه قوة)، ولكن خلق لديه أيضًا مخاطر خيالية. إن الإنسان المتحضر قد قلَّل كثيرًا من حجم مخاطر البيئة، ولكنه اخترع في عقله أعداءً أكثر

خطورة، وذلك بتجاوزه حدود واقعه الداني (جسده)، وبدخوله في مواجهة مع سلسلة من الأدوار، والصور، أي الرموز المجردة.

أنا والآخر

يبرز هنا -كما هو الحال بالنسبة إلى الدين- عاملان، هما الإحساس بالذات، والتخوُّف من الموت. إن الإحساس بالذات يقود إلى تأكيد الهوية. وتكوين «الآنا» يمكن أن يتحقق فقط من خلال مواجهة «الآخر».

إن أول اكتشاف للمولود هو تأكُّده أن أمَّه شيء مختلف عنه، فهو لم يعُد بعد في أحشائها، «هي» ليست «أنا»، ولكنها تمثل واقعًا «خارجيًّا» يجب اكتشافه، والتعامل معه باهتمام شديد.

إن الفلاسفة في عصر مَا قبل سقراط كانوا قد أدركوا أهمية ذلك الكيان الموجود «خارج الذات»، واكتشاف العالم الخارجي، وقد كان ذلك أيضًا مقدمة لكل بحث حول مَا هو إلهي: أستطيع القول «أنا» فقط إذا مَا استطعت أن أقول في نفس الوقت «أنت».

وقبل كونه مشكلة، فـ«الآخر» هو عبارة عن طريقتنا لقراءة الواقع، والجمادات حولنا، والكائنات الحية الأخرى، وفي النهاية قراءتنا للكائنات الإنسانية التي تشبهنا في وقت، وتختلف عنا في وقت آخر، وهي الكائنات التي تقلقنا أكثر من غيرها.

فـ«الآخر» إذن -ربما حتى قبل الله- هو المشكلة الأساسيّة، وتحديد العلامات الفاصلة للإدراك، وأساس إدراك الذات. إنه المفتاح الذي من خلاله يكتشف الفرد ذاته، ثم عالم الأشياء، وفي النهاية العالم غير المرئي.

أنا -ليس أنا- الله

ولكن هذا الأمر لاَ يصير مشكلة، لأنه كان الآخر، لاَ غنًى عنه لصياغة هويتنا، فذلك لاَ يكون إلا من خلال إخضاعها لمناقشة. فأنت تمثل الآَخر بالنسبة إليّ، وأنا أمثل الآخر بالنسبة إليك.

إن زعمنا بتأكيد الذات هو أمر غريزي وبشرى، يتقابل مع وجود شخص آخر يتحدانا، وله نفس الزعم. هذا الوجود ينتهي، بالتالي، إلى النظر إليه، بوصفه أيضًا عائقًا، أو تهديدًا لهويتنا ولقيمتنا، فمن خلال رفض الآخر نستطيع تأكيد مركزيتنا في هذا العالم، وتغذية الشعور الجازم بأن كل شيء يتوقف علينا، ويدور حولنا.

الرغبة في إثبات الذات والهوية

منذ فجر الفلسفة اليونانية ومرورا بدروب الفكر الغربيّ، لم تغبْ شحنة العدوانية العميقة الكامنة في الرغبة في الاعتراف بالذات، وفي تأكيد الهوية، على الرغم من أن التعبير عن هاتين الرغبتين يختلف من فكر إلى آخر.

فقد كان أفلاطون يعطى دورًا محوريًّا للتيموس Thymos، أي قوة الشعور الممزوج بالشجاعة والانفعال، والذي يثير الغضب، والتقييم الذاتي، وبالتالي الرغبة في الاعتراف بنا لها جانب غامض يقود إلى العنف، وإلى الشر، ويمكن إن يتحول إلى سخط وخجل عندما لا نكون على قدر المكانة التي يضعنا فيها، وينتظرها منا. وقد ميز الفيلسوف الكبير بين الرغبة في أن يعترف بنا الآخرون كنظراء لهم، والرغبة في أن يتمَّ الاعتراف بنا بوصفنا فوق الآخرين.

وقد أبرز مكيافيللي كيف أن الطموح إلى المجد، الذي تقوِّيه الفضيلة، يمكن أن يقود إلى الاستبداد، وإلى استبعاد أناس آخرين.

أما هوبز فيرى أن السلوك العدواني يرجع إلى الغرور والكبر، ويحدد كَانْتْ ثلاثية للتيموس (قوة الإحساس): الرغبة في التملك، الرغبة في السيطرة الرغبة في الشرف. ويتحدث عن «الدابة ذات الوجنات الحمراء» للإشارة إلى هذا الجزء من الشخصيّة الذي هو مصدر الكبر، والغضب، والخجل، ولا يمكن أن نرجعه إلى العقل. وقد درس بول ريكور بعمق ازدواجية هذا الشعور مشيرًا إلى أن في العقلانيّة التي يصاحبها احتمالات متزايدة للانحراف تقدما» [1].

ويظل روسو الفيلسوف الذي ترك في عصره أعظم الأثر في هذا الخصوص، وأثار ردود فعل كبيرة، فقد تحدَّى في الحقيقة البحث الذي أيده عصر العلوم الإنسانيّة، والذي يؤكد على أن الثقافة والعلم هما أساس أي تقدم للجنس البشريّ، ووجد الشجاعة ليقول عكس ذلك –في أوج إعلاء شأن العقل– وهو تأكيده على أن الثقافة والعلم قلبا الطبيعة النبيلة والنقية لـ«الوحش الطيب».

وفي المجمل يعلو صوت الدراسة التي مفادها أن إدراك الذات، الذي هو في المقام الأول حب لا حدود له للصورة الذاتية، ونرجسية صرفة، على حدّ قول الفلاسفة البلغاء، يمكن أن يصور دائمًا الآخر، المختلف عنه، على أنه خصم.

---

[1] حاك روليه، الدين والسياسة، مرجع سابق، ص ٢٣٩-٢٤٢.

ويتدخل هنا العنصر الثاني، وهو غريزة البقاء، أي الخوف من الموت، فالطفل في بدايات تفاعله مع الواقع الخارجي يدرك أنه لا يستطيع المقاومة طويلاً من خلال تحصّنه في «الأنا»، بل لعبة موازين القوى تجعله يلجأ إلى القريبين منه ليساعدوه على العيش: الأم في المقام الأول، ثم الأب، ثم أفراد اخرين في العائلة، وشيئًا فشيئًا الأساتذة، ثم أصدقاء العمل، ثم أفراد القبيلة، والقرية، والمدينة، والأُمّة، في دوائر متشابكة، وكلّما اتسعت آفاقه وزادت، اتسعت حاجاته.

ويدرك الطفل مبكرًا أن بعض الأهداف تتحقق بشكلٍ أفضل، من خلال الاتحاد مع آخرين مشابهين له. ويكتشف عندئذ قيمة الصداقة. فالشابُّ بتكامله مع مجموعته، يتعلم من الكبير، ويقر بأهمية السلطة والتقليد، وينمو لديه العرفان بالجميل، والولاء نحو من يوفرون له الأمن، والهداية المادية والأخلاقيّة (المعنوية)، فكل واحد يستغل هكذا تجارب الآخرين وخبراتهم، والجميع يتبنّون في عمل الأشياء الطريقة التي ثبتت فاعليتها، وإذا مَا سُئلوا عن سبب تصرفهم بطريقة مَا، يجيبون بأن أجدادهم وقومهم كانوا هكذا دائمًا.

إن الإنسان، حتى منذ خطواته الأولى داخل البيئة الصعبة التي تحيط به، يكتشف أنه حيوان اجتماعيّ بالضرورة، ويتميز بأنه حيوان تابع. ولكن بطريقة خاصّة به، ومختلفة عن طريقة الحشرات الاجتماعيّة، أو الحيوانات التي تعيش داخل القطيع. فعقلانيته، وقدرته على التعبير من خلال اللغة، وإثبات ذاته بالأخص، وإدراكه بحتمية الموت، كل ذلك يجعل نرجسية الفرديّة تتحول إلى نرجسية جماعيّة. فكل الدوافع التي وصفناها على المستوى الفرديّ، تنتقل وتتعاظم على المستوى الجماعي، ومن ثم تتشكل هوية المجموعة التي تحتوى هوية الفرد وتضاعفها.

إن الإدراك الذاتي يؤدِّي إلى إن تكون اجتماعيّة الإنسان بمثابة شيء أكبر من غريزة تابعة مقلدة ذات طبيعة بيولوجيّة. فالإنسان يصبح «شخصًا»، أي «فردًا انخرط في جماعة» (على حدّ تعبير سانت إوكسبيري) لاَ على أساس آليات ميكانيكية تحددها الجينات (كما حدث بالنسبة إلى النمل أو الذئاب)، بل على أساس عمليّة معقدة تتمّ باستمرار، فالإنسان من خلال انتمائه إلى مجتمع به أفراد آخرون، يشعر بالحماية في المقام الأول، ثم بقيمته ثانيًا، ولكنه يرى أيضًا في المقام الثالث إمكانيّة أن يقهر الموت، بأن يبقى في ذاكرة الجماعة التي ينتسب إليها. وها نحن نقترب إذن من هذا الشيء الغامض الذي كنا نبحث عنه، وهذا الشيء الذي يجعلنا نتجاوز روح البقاء. وإن ظهور هذا الشيء يمثّل انتقال التجمُّع البدائي إلى مجال أكثر تقدُّما من التطوُّر الإنساني.

وينشأ اللا تسامح عندما يلزم إظهار العداء للمجموعات الأخرى، لتقوية التضامن داخل المجموعة الخاصّة. وقد يسبق أحدهما الآخر، فمناصرة من هو مثلنا، وعداوة من

هو ليس مثلنا، ينفاعلان في دائرة مفرغة. أولم نكن قد أبدينا هذه الملاحظة كما تذكرون - في حالة أعضاء الجماعة الدّينيّة في مقابل أنصار العقائد الأخرى؟

وتنشأ هكذا صورة مختلفة لـ«التديُّن» بعيدًا عن أي خلفية دينيّة ومقدسة، بل علاقة لا تقوم على ما هو إلهي، بل تقوم على عوامل أقل قوة: رابطة الدم، القيم، الخبرات... إنها علاقة تستمد قوتها الدائمة وبقاءها بسبب إقامة شبكة أمان فحسب، بل كذلك بهدف ضمان الخلود.

مركزية الأنا الجماعيّة

وهكذا فإن شعور الإنسان بالانتساب إلى مجموعة أوسع من البشر، يقوّي هوية الفرد العضو فيها، ويزداد ويتضاعف أيضًا ردُّ الفعل الدفاعي للمجموعة ضدّ من هو «آخر» بالنسبة إلى المجموعة نفسها.

فلو أنكم قلتم لصديق إنه حسَّاس للغاية أو منحاز إلى الرجال ضدّ السيدات، لفسرها ربما بالمعنى الحسن. ولكن إذا قلتم لواحد من صقلية إنه حساس للغاية (خجول) «مثل» كل أبناء صقلية، أو إذا كان إسبانيًّا، وقلتم له إنه منحاز إلى الرجال ضدّ السيدات مثل «كل الإسبان»، فيمكنكم أن تقسموا على أنه سيفسرها بالمعنى السيئ، ويشعر بأنه يجب أن يدافع عن بني جلدته.

فلو كان صحيحا -كما أشرنا سلفًا- أن مركزية أو أولويّة «الأنا» الفرديّة، تتأكد من خلال رفض «الآخر»، فإن ذلك ينطبق أكثر على مركزية «الأنا الجماعيّة» لكل مجموعة إنسانيّة.

إن تاريخ النوع الإنساني كله يتميز بالصراع بين «مركزيات» مختلفة، تعتبر كل واحدة منها نفسها نقطة الارتكاز «الوحيدة» والحقيقيّة ضدّ الآخر الذي يمكن أن يمثل تهديدا كبيرا للأمن والهوية.

وقد تَمّ تحديد الزمان والمكان حول هذه المركزية، وبالتالي حول اليقين المُطلَق لقيمتها وفاعليتها.

فقد حددت الجغرافيا مناطق تأثير المجموعة، بينما احتفى التاريخ بسيطرة المجموعة على البيئة وباستعلائها.

فبعيدًا عن الزمان الذي شهد تحرر الأمم «الحقيقية»، ما زال الآخرون هم من يتكلمون لغة غير مفهومة، ومن يتبعون قوانين وعادات غريبة، ومن يعبدون آلهة مرعبة أو مضحكة، ومن يلبسون ملابس غريبة، ومن يأكلون أطعمة تثير المعدة.

واللغة، وهي أعظم إنجازات الإنسان التي يميزه عن الحيوان، لم تكُن فقط وسيلة الاتصال التي لاَ غنى عنها، والتي تتيح لكل شخص أن يتواصل مع الآخرين في الصور الذهنية، وفي نقل الخبرات، ومن ثم في تقوية العلاقات داخل المجموعة، ولكنها أيضًا تمثل اختلافًا عن المجموعات الأخرى، فهي كانت تمثل خطًّا حيويًّا للأرض، يجعل من الممكن تحديد دائرة لها احترامها، حتى وإن لم يكُن لهذه المجموعة مكان إقامة ثابت. ويقول كانتي: «إننا لاَ نتكلم لغة مَا، ولكننا نسكن فيها».

ومثلما قلنا، وبصورة لاَ تختلف عما رأيناه يحدث بالنسبة إلى الدين، فإن منظومة المعتقدات، والقيم الخاصّة ترتفع إلى منظومة متميزة وعالمية من المعتقدات والقيم المطلقة، والخير الشخصي يتلاقى مع خير كل البشريّة. وكل مَا هو غريب على هذه المنظومة يجب تحقيره، ويجب وضعه خارج الدائرة الإنسانيّة.

عدوان على هويتنا الرمزية

لَم نقُل مطلقًا إن التضامن مع المجموعة يجب أن يتحول إلى شعور بالاستعلاء، يؤدِّي إلى اعتبار الأجانب دائمًا أعداء ألداء. فعلى الصعيد النظري لاَ شيء يمنع أن يتسع مجال التضامن حتى يحقق أُخُوّة سكان المعمورة جميعًا. والتاريخ غني بالنماذج، سواء على صعيد العظماء الذين لم ينحازوا إلى خير المجموعة الاجتماعيّة الصغيرة، بل لصالح الإنسان، أو على صعيد الثقافات التي حققت بنجاحٍ اندماجًا أثمر إثراءً متبادَلاً.

بل إنه حتى في أعقاب حرب مَا، نجد كثيرًا أن المنهزم يستقبل بترحاب ثقافة المنتصر، بل على العكس من ذلك نجد أن الشعب المنتصر قد انهزم أمام ثقافة الشعب المغلوب، مثلما حدث بالنسبة للرومان أمام الإغريق، وللبربر أمام الرومان، وإلى المغول أمام الصينيين.

وسنرى بعد ذلك وبشكل أفضل كيف أنه عند الممارسة تصطدم العلاقة بين الثقافات -آجلا أو عاجلا- بحدود ثابتة، ففي أغلب الأحيان تتم هذه العلاقة، لاَ بسببٍ الاختيار الحر، ولكن بسبب الإكراه والإجبار، وتكون هذه العلاقة في البداية على الأقلّ كلها معاناة ولا تتسم بالود والسلام. ويتسم الاتصال بين «الأشخاص المختلفين» بالصدام، أكثر من

اتسامه بالتلاقي، فلمجرد شيء بسيط جدًا يكون من لا يشبهنا، أو من يشبهنا فقط في أجزاء، موضع كرهنا، ومن ثم تسحق هويته، ونريد أن نمحوه من وجه الأرض. وتفسير هذا الموقف الانغلاقي لا يرجع إلى عامل واحد بالتأكيد، ولكن أحد العوامل يبدو محوريًا بلا شك: الخوف.

بوسعنا أن نحتقر «الآخر» أو نرفضه لأسباب لاَ حصر لها، ولكن لو أبغضناه إلى درجة الرغبة في تدميره، فإن سبب ذلك هو أننا نخشاه ونرهبه، أكثر من تشدُّقنا بدونيته وعدم جدارته. وتعجُّ العلوم الاجتماعيّة بمفردات غير صحيحة وعفا عليها الزمن.

ويشير لفظ حديث ومركزيٌّ إلى هذا النوع من اللا تسامح، إنه: «الخوف من الأجنبي» (xenophobia)، والذي يتكون من كلمتين يونانيتين: xenos أي أجنبي، وfobia أي خوف. في الوقت الذي نجد فيه الجذر مختلفًا في تركيبات مثيلة (كره النساء، كره مَا هو جديد، كره الاندماج) فنجد الجذر هو misos، لا يعود إلى الكره، بل إلى الـ«خوف».

خوف من أي شيء؟

دائمًا وأبدًا خوف من الموت. وعندما يتعلق الأمر بموت مجموعة فإنه لاَ يعتبر موتًا جسديًّا، بل فقدا للهوية.

إن الخوف من الأجنبي هو خوف من فقدان الهوية في المقام الأول، حيث لاَ يستغني الفرد عن المجموعة التي يعتبرها دعامة لهويته العاجزة. إن من ينظر إلى العالم نظرة مختلفة، نراه عنصرا خطرا، ومن ثم يثير الخوف لأنه قد يقدح في إيماننا بوجهة نظرنا، أو يدخل في روعنا أنها، فضلاً عن كونها ليست الوحيدة، قد لاَ تكون صحيحة وحقيقيّة.

من أجل هذا، فإن أي تنازل، أو أدنى قدر من التسامُح نحو معتقداته وتصرفاته، ينطوي على مخاطرة بتدمير قناعاتنا وعاداتنا.

والآخرون «المختلفون» يجب معاملتهم بأقصى درجات التشدُّد، لأنه، مهما كانت نيَّاتهم، فإنهم يمثلون تهديدًا لنا، لمجرد أنهم موجودون.

والتشابه مع التشدُّد الدينيّ أكثر من واضح، إذا مَا وضعنا في الاعتبار أن الدفاع المستميت عن الهوية الجماعيّة -التي رُفعت إلى درجة الثوابت، من خلال تهميش المختلف- لاَ يتجه فقط نحو الغريب (الأجنبي) في مواجهة المجموعات الأخرى، بل أيضًا داخل نفس المجموعة، في مواجهة غير المتشابهين معنا، الذين يجب معاملتهم بوصفهم مضللين خطرين.

إنه التفسير العلماني للهرطقة.

إن من لا يحترم قواعد وتقاليد المجتمع الذي ينتمي إليه، يمثل عدوا لهذا المجتمع، وخطرا عليه، ويجب عليه إما أن يتواءم مع مجتمعه، وإما أن يطرد منه. من هنا كانت الحاجة إلى «كبش فداء» تكون له وظيفة أن يخلص (يحرر) –من خلال التضحية- الصلاحية الكاملة للشعور بالانتماء، ويعيد تقويم الانحرافات في مسار التقاليد والطقوس الجماعيّة.

الآخرون كائنات ذات إنسانيّة محدودة

إذا كنا بحكم الضرورة، لاَ نستطيع استبعاد «الآخرين» تمامًا من العالم، فإن صراع القُوَى يفرض الازدراء بهم، وإظهار زيفهم، وضآلة قدر تراثهم الثقافيّ.

إن الاعتراف بأن «الآخرين» –وهم من لاَ يمثلون جزءًا من جماعتنا- يمكن أن يكونوا أفضل، أو أسوأ، منا، وإن الانفتاح نحو احتمالية أن يكون في معتقدات وسلوكيات الآخرين ولو ذرة من الحقيقة –وهو لُبُّ التسامُح- يثيران القلق وعدم الاستقرار، ويؤدِّيان إلى سحب البساط من تحت أقدامنا. لذلك، ولكي نشعر بالأمان، يجب علينا أن نعظم ونقوي يقيننا في ثقافة آبائنا، هذا من جانب، ومن جانب آخر، تقوية عدائنا لأولئك الذين ينكرون ثقافتنا، لأن لديهم ثقافتهم المختلفة.

والوسيلة الأقوى والأكيدة في هذه العمليّة التي تهدف إلى التقليل من شأن الآخرين، هي إنكار أن لهم إنسانيّة كاملة.

ويلفت ليفي شتروس L. Strauss الانتباه إلى إن مفهوم «إنسانيّة» حديث للغاية، ولم يحظَ بقبول عالمي حتى الآن.

فما زالت شعوب تستخدم كلمة «إنسان» فقط حتى الآن للإشارة إلى من ينتمون إلى نفس القبيلة، وهؤلاء يصفون أنفسهم بأنهم «الأخيار»، «الأفذاذ»، «العباقرة»، بينما لاَ يعتبرون المجموعات الأخرى الأجنبية على نفس الدرجة من الصفات الإنسانيّة، ويتم وصفهم بصفات تحقيرية[1]. «الآخرون» «الغرباء»، هم الأجانب extra (نفس جذر كلمة غريب) و(من هم خارج fora) مجموعتنا، ومن ثم يصفهم خيال المجموعة بأوصاف مرعبة، وغير مألوفة.

[1] انظر ليفي شتراوس، سباق التاريخ، جاليمار، باريس ١٩٨٧.

إن الأهوال التي لاقاها أوديسيوس والمروية في الأوديسّا، ومغامرات الملاّحين المزارعين Agronauti، تتميز بمقابلة كائنات أسطورية، بسبب أن مجال الأهوال والمغامرات يظل محصورًا في منطقة تبعد قليلاً عن منطقة البحر المتوسط.

إن الأساطير التي تتحدث عن مؤسسي أثينا القديمة، تتحدث عن قتال أبطال المدينة ضدّ المعتدين الذين كانوا على هيئة أنصاف رجال وأنصاف نساء، في إشارة رمزية إلى القنطاروسي (كائن أسطوري نصفه على شكل إنسان ونصفه الآخر على شكل حصان) والنساء المقاتلات Amazzoni.

ويعتبر أمرا ذا دلالة أنه على الرغم من أنه تَمّ عمل صداقات أو علاقات جنسية مع بعضهم، فإن ذلك كان ينتهي –عاجلاً أو أجلاً– إلى صراع.

وفي الكلمات اليونانية القديمة نجد أن غير اليونانيين جميعهم كانوا «برابرة»، أي أناسًا يتميزون بطريقة غامضة في التعبير بهمهمات غير مفهومة: «بْلا بْلا بْلا bla, bla, bla».

وقمة البربرية تتجسد في الشعوب التي «لم تسكن المدن»، أي من لاَ يعرفون في السياسة، أي في إدارة المدن، ومن ثم لم يكن لديهم قوانين.

ولأجل هذا نجد أن كلمة «حضارة» في اللغة اللاتينية مشتقة من «حضر».

أما بعض الأساطير الهنديّة بشمال أمريكا فهي أكثر أدبًا، وهى تعبِّر عن شعورها بالتميُّز والاستعلاء. فمانيتو Manitu (إله الهنود بأمريكا الشمالية) خلق الإنسان أيضًا من طين، ولكنه لم يقتصر على تصويره، ولكن أراد أيضًا إحراق هذا الطين.

وفي المحاولة الأولى أخرجها من الفرن قبل موعدها، فخرج الوجه الشاحب، فأحرق الطين مدة أطول، فخرجت كربونية اللون، فكان الزنوج، وفي النهاية نجح في إيجاد درجة الطهي الصحيحة، فولد الإنسان كما يجب أن يولد، أي الهنود الحمر (سكان أمريكا الشمالية الأصليين).

رأينا في الفصل الذي تَمّ تخصيصه لاستعمار وتنصير الأراضي الجديدة التي اكتشفها الأوربيّون، كيف أن الأجانب كان ينظر إليهم بوصفهم كائنات ليست مكتملة الإنسانيّة، وأقل تحضرًا منا، ومن ثم أدنى منزلة، واستمرت هذه الرؤية على الرغم من العقليّة الحديثة. ولم يفلح في القضاء على هذه الرؤية الانفتاح العقليّ كمشاهير المثقفين، ولا روح الإحسان للمبشرين النصارى.

وبعد ذلك بقرون انتقلت هذه الصورة السلبية للشعوب التي كانت تنتمي إلى حضارات ما قبل كولومبس، والتي وضعها المبشرون أنفسهم، وبنفس الهواجس، مع بعض التعبيرات البسيطة مع الاستعمار إلى إفريقيا. وفي مرحلة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وفترة الإعلاء من شأن العلم، وجنة الاشتراكية، سادت أيضًا في خيال الجماعة قوالب نمطية مثل «أصحاب الأرض الأصليون»، الذين يتربصون بين الأعشاب، والحلقة في أنفهم، ويراقبون الوعاء الذي يسلقون فيه المكتشف التعِس.

والرسوم والحكايات من هذا النوع، كانت شعبيّة ومشهورة في أيام الطفولة، وكانت سلسلة روايات إيد خار رايس بورج، التي لم تكُن عُرضت آنذاك على الشاشة، تُعلِي من شأن البطل الجديد، طرزان، وهو شخصيّة رمزية للعقليّة العنصريّة على غرار نموذج كيبلنج (الكاتب الإنجليزي) الذي كان شائعا آنذاك، وهو ابن أحد اللوردات البريطانيّين، على الرغم من أن القردة أرضعته، استطاع أن يصبح سيد الغابة، كما كان الماوجلي Mawgli الذي أرضعته الذئاب.

وحتى اليوم في مناخ العولمة يجد رواد الصالونات الفكرية في كبريات العواصم الغربيّة صعوبة في قبول أولئك الغرباء على قدم المساواة، أولئك المختلفين عنا في لون البشرة الذين يفلحون في عبور الحواجز غير المرئية والذين استطاعوا بسبب تميُّزهم أن يدخلوا ضمن الفئات السياسيّة الحكومية والدولية. ويمكن أن ينطبق على هؤلاء المفكرين المعاصرين الطرفة الساخرة للكاتب مونتسكيو الذي يصف في كتابه «رسائل فارسية» بدِقّة ردّ فعل مواطني «باريس الصالحة» في القرن الثامن عشر وقد وجدوا أنفسهم وجها لوجه مع أمير جاء من إسطنبول (آ، آ، هل السيد فارسي؟ إنه لشيء عجيب! فكيف يمكن أن يكون الإنسان فارسيًّا؟).

«الغرباء» وغزو الكائنات الغريبة

إن الخوف من مواجهة الآخر، ونسله، والتوجس منه، لم تقلّ حدته على مدى آلاف السنين، مع تطور الإنسان في الثراء والسيطرة على البيئة.

ومع إلغاء المسافات، فالخوف من الشيوعيّة من جانب القوّة العظمى في العالم، وصل إلى حدّ الهيستريا الجماعيّة، والتوجس من أي إمكانيّة للحوار، الأمر الذي اعتبر مستمرًّا من الناحية الفعلية. ويظهر هذا الخوف من ناحية أخرى مضادة، في الدعاية ضدّ الامبريالية وضدّ سياسة السوفييت ونظرية الزعيم الصيني ماوتسي تونج. وقد انعكس من هذه المخاوف تأثير الخيال العلميّ في المستقبل، وهو عدم الثقة في من له طبيعة غير

طبيعتنا، والذي يكون فقط شريرا وخطيرا. فكل فيلم يحكي عن «مقابلات عن قريب» مع كائنات فضائية طيبة، مستعدة للتعايش مع سكان الأرض في حضارتهم العليا (رغم استقبالهم في بادئ الأمر بعداء وتوجُّس) يقابله عشرة أفلام أخرى تصور على العكس هؤلاء الغرباء على أنهم غزاة منافقون جاءوا من عوالم أخرى، ويعتبر ذا دلالة كبيرة على أن هؤلاء الغزاة القادمين من الفضاء يقومون بهذا الغزو حرفيًّا، وهم يمتصون هوية سكان الأرض، عن طريق إدخال عقولهم في أجسام النساء.

موضوع آخر نجده مشوِّقًا في فيلم من هذه النوعية (مرتبط بالهوس الأمريكيّ بالمؤامرة) ألا وهو الاستقبال الودّي المبدئي من جانب سكان الأرض لأولئك الذين قدموا من الفضاء، يخونون فيا بعد تلك الثقة! ويظهرون وجههم المرعب، ورغبتهم في إبادة الجنس البشريّ.

إن الخوف والتوجُّس لاَ يمثلان سمة الأكثر ضعفًا فقط، كالأقلِّيَّات المحاطة بكيانات أكثر قوة، وبصورة أشد لدى من يتميزون بالتعالي.

لماذا، على الرغم من أنهم أقوياء، يشعرون أنهم مهددون، وبحاجة إلى تحقير من يختلف عنهم؟

نترك الكلمة هنا لواحد من المحللين النفسيين، وهو الفرنسيّ دانييل سيلبوني الذي يقدم لنا –في مقال له بعنوان «كره بسبب الهوية»– نوعًا من المنولوج، أو الحوار الداخلي، لواحد من أصحاب المبادئ في عصرنا الحالي، أو الجزء الذي نسكنه من العالم (نفترض أنه برجوازي من فرنسا أو من إيطاليا، أو من وسط غرب أمريكا)، ذلك الرجل الذي لم يستطع تحمل الأجانب، سودًا، يهودًا، عربًا، مكسيكيين، لاَ يهم. إن دوافعه الكامنة في نفسه ظهرت، بلسان حاله الداخلي الذي يؤدى به إلى الاعتراف بأن أولئك الذين يسميهم «جنسًا أدنى»، يمثلون في الحقيقة بالنسبة إليه شيئًا أعلى بصورة غامضة، يملؤه بالقلق لأنه يهدده بالتفوق عليه.

«هل تمزحون؟ أي شيء أسمى وأعلى لدى هؤلاء الأفارقة وهؤلاء المغاربة الذين يغزوننا؟ نعم، لديهم جذور، وعادات، وتقاليد... لهم هوية، ولا يحتاجون إلى رفضك لأجل هذه الهوية. فلهم هويتهم، وكفى. بينما أنت (يقصد نفسه وهو يتحدث إليها) تحتاج إلى رفضهم لتحلم بهويتك. وفضلاً عن ذلك هم يستطيعون ببساطة تركها، والعودة إليها وقتما يريدون. يتركونها جانبًا ليعيشوا شيئًا آخر، ويأتون ليقتسموا مجالك، ويعيشوا "لاهويتك"، وأنت ستذهب عندهم كسائح، وتشعر بالحنين إلى روابط القبيلة، وإلى الهوية

التي لا تسلكها، أي هويتهم، والتي يمكن أن يتخلوا عنها في كل لحظة إنها لهم، إلى حد ما، ومن ثم يذهبون للعيش في أي مكان آخر»[1].

إنه تحليل ينكأ الجرح بعمق، إذ توجد هوة سحيقة بين أولئك الذين يظلون حبيسي إطارات اعتبروها بروازًا لكيانهم، لأنهم إذا مَا تخلوا عنها فقد لاَ يشعرون بالأمان، وأولئك الذين يعتبرون هذا الإطار (القالَب) طبيعيًّا وتلقائيًّا، يمكنهم الخروج منه والدخول إليه من جديد، وأن يغيروه إذا مَا أرادوا.

وعندما تكون القناعة الذاتية –سواء أكانت عقيدة دينيّة أم طريقة حياة أم قناعة سياسيّة– حقيقية وعميقة، وليست دعامة هشة وبسيطة للهوية، فلن يشعر الإنسان بحاجته إلى القضاء على خصمه.

إن الكره والرغبة في القضاء على مَا هو مختلف، يظهران – وأكرر ذلك– عندما يستطيع هذا الآخر أن يُظهِر ضعفَ وضحالة يقيننا المزعوم.

هناك مَا يجب التفكير فيه، ففي المرة القادمة التي نشعر فيها برفضنا لأنماط حياة نحتقرها، والتي ننعت فيها مجتمعات وجامعات بأوصاف مرسلة مثل «متخلفون»، و«بدائيون»... فلنجرب طرح هذا السؤال المستفز على أنفسنا: أَليس ممن الممكن، ولو في جزء يسير، أن يكون حنيننا إلى عالم يرحل عنا، وأصبح حقًّا في طي النسيان؟

---

[1] د. سيلبوني، العنصرية كره بسبب الهوية، طباعة كريستيان بورجو ١٩٩٧.



الفصل السادس عشر

حرب الثقافات

" شعب
ضعه في السلاسل
اتركه عاريًا
كمم فمه
فهو لاَ يزال حرًّا.
انتزع منه العمل
وجواز السفر
والمائدة التي يأكل عليها
والسرير الذي ينام عليه
هو لاَ يزال غنيًّا.
فشعب،
يصير فقيرًا ومسترَقًّا،
عندما يسرقون لغته
التي ورثها عن الآباء
عندئذ يضيع إلى الأبد[1]"

إيناتسيو بوتيتا

[معاني «الثقافة» الثلاثة - مجموعتنا ومجموعة الآخرين - عدو بالمقاس - اليقين المُطلَق في كلمة الآباء - لاَ تسامح التراث - أهي نهاية تاريخ أم صدام حضارات؟ - اندماج في مواجهة العودة إلى الأصول]

[1] هي أبيات لشاعر العامية الصقلي الكبير، ذكرها في تقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية، التي شكلها أمين عام اليونسكو، والأمين العام للأمم المتحدة عام ١٩٩٢.

معاني الثقافة الثلاثة

إن المعتقدات والتقاليد التي نتقاسمها مع أولئك القريبين منا، الذين نشعر أننا مرتبطون بهم من خلال أواصر دم قوية، أو بمصالح، والذين نعتبرهم لذلك «نظراءنا»، تمدنا بأول وأوثق فلتر نرى من خلاله العالم، ونصوغ العموميات الأكيدة في مواجهة كل أولئك الذين يملكون وجهة نظر مختلفة.

إن مصفاة المعتقدات، والتقاليد، والقيم المشتركة، تشكل نسيج هذا الاختراع البشريّ المذهل الذي نسميه ثقافة.

فالثقافة إذن هي العامل الذي يطفو على السطح كُلَّما تكلمنا عن اللا تسامح، فأول أمر يستحق أن يوضع في عين الاعتبار، هو أن الشعار الشائع في الحملات التربوية التعليمية، حول هذا الموضوع، أي الترياق الفعَّال ضدّ حُمَّى الخوف من الأجنبي، وهو الثقافة، شيء يحتاج إلى برهان. فليس من المؤكد أن أسوأ غير المتسامحين هم الجهلاء، ولا ارتفاع المستوى الثقافيّ هو ما يلزم لحملنا على تقدير الاختلافات والفروق.

وسنرى إلى أي مدى تؤكد ملاحظات علماء الأنثروبولوجيّ (علم الأجناس) وعلماء الاجتماع على المستوى الجماعي ملاحظات علم النفس التي ذكرناها. ففي المقام الأول من المهم أن نذكر أن كلمة «ثقافة» التي نستخدمها بمناسبة وبغير مناسبة كديكور، ليس لها معنى واحد، بل ثلاثة معان متصلة فيما بينها، ويتميز بعضها عن بعض، ويمكن أن تسبب لنا بعض اللَّبْس. إن الثقافة في المقام الأول هي مسارنا التربوي نحو النضج الفرديّ، وهذا المعنى يتلاقى مع جذور الاشتقاق لأصل الكلمة، والذي يعني «زرع»، كما أوضح ذلك سيسرون Ciceron. وهذا هو معنى بعض التعبيرات مثل «شخص واسع الثقافة» أو «مستوى ثقافيّ متوسط للشباب العاملين».

وتعني في المقام الثاني مجموعة الأعمال التي أثمرها العقل البشريّ، والنفس البشريّة، مثل الأهرامات، ومركز روكفلر، ونَظريّة فيثاغورث، ونَظريّة النسبية، والكوميديا الإلهية، وروايات بورج. إننا نشير إلى «ثقافة القرن الواحد والعشرين»، ونقول على سبيل المثال إن المجلس البريطانيّ British Council، أو معهد جوته، من المؤسسات ذات «النشاط الثقافيّ».

وهناك معنى ثالث أكثر عمومية وفي نفس الوقت أكثر فنية، فعلماء الأنثروبولوجيّ وعلماء الاجتماع يعنون بالثقافة مجموعة المظاهر المميزة لمجتمع إنساني، وطريقة عيشهم بعيدًا عن تقييم القيم. فعندنا «ثقافة آخر العصر الحجري» و«ثقافة الغجر»، و«ثقافة منطقة جبال الإنديز». وهذه الدرجات الثلاث ليست متباينة بطريقة كبيرة، بل

هي متراكمة إلى حدّ ما. ولكن لا تقدم لنا واحدة من هذه الثلاث علاجًا ناجعًا ضد اللاتسامح. فهي يمكن أن تؤدّي بنا إلى اتحاد روحي، أو على العكس إلى انغلاق نرجسي على أنفسنا.

وعلى صعيد المبادئ، كما يحدث بالنسبة إلى الدين، فإن الثقافة الراقية هي الشكل النقي للنفس البشريّة، ويجب أن تكون واحدًا من المصادر الأكيدة وعالية القيمة لتجاوز الحواجز بين المختلفين. ولكنها ليست هكذا دائمًا، أما في مَا يتعلق باكتشافنا الشخصي لأشياء جديدة، فالثقافة قد تؤدِّي بنا إلى توسيع آفاقنا، ومن ثم إلى انفتاح أكبر نحو الآخر. ولكنها ليست هكذا دائمًا. ولكن بالمعنى الثالث، وهو المعنى الأنثروبولجي للثقافة، وهو مجموع العادات والقيم والتقاليد لتنظيم اجتماعيّ معين، أو بمعنيٍ آخر «المجموعة المتكاملة أو المشتركة لأنماط التفكير والسلوك، التي تَمّ تناقلها جيلاً بعد جيل»[1]، هو الذي تكتشف فيه، لاَ قدرًا كبيرًا من التفاهم والتضامن، ولكن هذا الرفض القاطع للآخر الممزوج بالخوف، وهو مَا بيناه في الفصل السابق.

مجموعتنا ومجموعة الآخرين

النظام الطبيعيّ يتميز بحالة دائمة من الصراع، ولذلك لاَ يتردد في الحديث عن «حرب بين أضداد». قد قال ذلك من قبل هرقليط Eraclitio، ويؤكده علماء الطبيعة، الذين يتحدثون عن المادة، واللامادة، وعلماء البيولوجي، الذين اكتشفوا كيف أنه في داخل هذا الكيان المذهل، الذي هو جسدنا، يوجد عدد لاَ حدود له من الخلايا، يؤدِّي مهام استطلاع، وتحذير ضدّ الدخلاء باستمرار، ليس فقط ضدّ الأجسام الغريبة، ولكنْ خلايا جسمنا إذا مَا تَمّ اعتبارها «خلايا منحرفة»، ويعتقد كثير من علماء العلوم الإنسانيّة، على الرغم من عدم اتفاقهم جميعًا، أن انتظام الإنسان في مجتمعٍ مَا، يولِّد شكلاً من الصراع الدائم، من خلال تقوية نوازع الخوف الكامنة من الأجنبي![2]

وقد تحدث الكاتب الكبير سومنير sumner، بأسلوبه الواضح الخالي من اللبس، عن الصراع الموروث بين ذلك الذي، يمكن أن نطلق عليه «مجموعة [نحن]» (مجموعتنا)، و«مجموعة [أولئك]» الذين هم خارجنا (مجموعة الآخرين).

نلمح هنا صورة «الدوائر المتداخلة» التي أشرنا إليها في الفصل السابقِ في معرض حديثنا عن وجهة نظر عالم النفس، فمجموعة الـ«نحن» ليست نظاما منغلقًا، وتنمو

[1] أولف هاينز، الاختلاف الثقافي، دار نشر مولوينو، بولونيا ٢٠٠١، ص ٧
[2] المرجع السابق، ص ١٦

تدريجيًا في دوائر أوسع. ولكنها ترى أن ضعف العلاقات التي تحافظ على ترابطها أمر حتمي، كلّما ابتعدت عن النواة الأصلية التي يحافظ عليها علاقة أقوى، وهى رابطة الدم، والمشاعر. وفي نهاية الأمر تبقى فقط العلاقة الأضعف، وهى علاقة العيش المتبادل، التي تؤدّي إلى صور من التعاون الشكلي، من خلال التحالفات، أو التجارة، وعندما نصل إلى اللحظة التي يتوقف فيها التعايش المشترك، فإن المصالح لاَ تتلاقى، بل تتعارض، ويتحول التعاون إلى منافسة، ثم في النهاية إلى صراع[1].

فالحرب -وهى ظاهرة كونية وأمر له قداسته- «هي عمل إنساني وذعر لاَ إنساني» و«حقل كبير للوحشية والقوّة»، وهى صاحبة دور البطولة في كتب التاريخ، التي تعجّ بأسماء المحاربين الكبار وتواريخ الحروب الشهيرة. وآثار الميادين العامّة شيدت على الأكثر تكريما لرجال نجحوا في قيادة المجازر بمهارة، وبالبرود الذي يتحلى به لاعبو الشطرنج. وقد تفرعت عن الحرب اختراعات مهمة كثيرة، وهناك كثير من النظم المتخصصة معنيّة بالحرب، مثل الاستراتيجية «نظريّة الألعاب» و«إدارة الأزمات».

بل لقد بيَّنها فرع من علم الاجتماع قائم بذاته، مشهور باسم البوليمولوجي Polemologia (علم المدن). ولا يتردد علماء هذا العلم المشهورون في التأكيد على أن الحرب تمثل وضعًا طبيعيًّا في العلاقات الإنسانيّة، وفي ذات الوقت نوعًا من «المرض العقلى»[2]. وقد ذكر أحد رواد هذا العلم، وهو كوينسي رايت Quincy Wright، أربعة دوافع أساسيّة، مشتركة بين كل أنواع الحيوانات الأكثر تطورًا، تؤدّي إلى العنف بين المجموعات المنظمة، أي إلى الحرب: الطعام، والأرض، والجنس، واللعب[3]. فعلاقة الطعام بالأرض هي أول أسباب الحروب، وأحيانًا كذلك الحروب الأهليَّة. ويكون للحرب في هذا الإطار دور في تخفيف الضغط الديموجرافي، إلى حدّ أن عالم بوليمولوجي مشهورًا، وهو الفرنسي جاستون بوتول، يعرِّف الحرب بأنها «قتل مولود مؤجل». ولكن اللعب (العامل الرابع) هو أكثر العوامل التي تثير الروح العدائية في الإنسان، أكثر من قلة الطعام، وأكثر من غريزة التكاثر. وتحت هذا العامل يلزم إعادة بحث وفهم، ليس فقط صور الجنوح إلى إفراغ الطاقة (كما نلاحظ في المناوشات، وسباق الجرى، والميل إلى الاكتشاف)، بل كذلك بحث روح المغامرة، وكذلك المكوِّنات الثقافيّة. وتبرز أهمية هذا العامل شيئًا فشيئًا، كلَّما أصبحت المظاهر الثقافيّة أكثر ثراءً وأكثر تشابكًا. وبالتالي يمكن أن يحدث قتال حتى وإن لم يكن هناك جوع، وعندما بينوا أن للجميع مجالاً. ولا يبدو أن زيادة المواد تساعد على التعايش بصورة آلية، بل ينشأ عنها ظاهرة مضادة، أي تغري

---

[1] ويليلام جراهام سومنير، folkways، دار نشر Mentor، هاربر وكوكيتر، ١٩٩٤.

[2] أنظر فرانكو فورنارى، ظاهرة الحرب، في نيكول يانجرو، الحرب الحديثة كمرض الحضارة، موندادورى، ميلانو ٢٠٠٢، صـــ١٢٢، ويرى المحلل أن النفى جيمى هليمان أن «الحرب طبيعية؛ ومن ثم موجودة دائما، وستظل موجودة، بعيد عن تدخلنا «

[3] كوينسى رايت، دراسة الحرب، مرجع سابق، طبعة جامعة شيكاغوا شيكا نمو وكنون ١٩٤٢، ١٩٦٥.

بالتعطش للغزو. فجنكيز خان ربما كان مندفعًا بسبب طمع التجمعات البدوية التي كان ينتمي إليها، إلى مروج الجنوب الخصبة. غير أن ذلك لم يكن مطلقًا هو دافع الإسكندر الأكبر، ولا نابليون، ولا هتلر، لإذلال وسلب عدد كبير من الشعوب. ونرى أن الكاتب سومنير نفسه يذهب إلى مَا هو أبعد من ذلك في هذا الصدد، فيؤكد أن الجوع هو فقط وليس بالتأكيد أهم أسباب الصراع. وإن بعض المشاعر لها أهمية كبرى في هذا الخصوص، مثل الكبر، والغضب، والحب، والغرور، والخوف، التي أشار إليها الفلاسفة، بداية من أفلاطون، بوصفها دوافع مسيطرة. وللمشاعر أهميتها أيضًا لدى الحيوانات، وربما تؤثر بطريقة مَا زلنا لاَ نجعل تقييمها على الوجه الأكمل، والتي تفوق أحيانا غريزة البقاء، والتزاوج، والدفاع عن الأرض. ولكن لاَ نجد اللعب مسيطرًا في أي كائن حي مثلما هو مسيطر في الإنسان، الذي يمكن أن يحول هذا اللعب إلى شيء جادّ وتراجيديّ بطريقة مرعبة.

وكما هو معلوم، فإن علماء الأنثروبولوجيّ لديهم أرضيتهم الخصبة، ومعاملهم الفنية، لتأكيد افتراضاتهم حول الطبيعة الإنسانيّة، ألا وهى أرضية الحضارات البدائيّة التي لاَ تزال موجودة.

وتؤكد دراسة هذه المجتمعات بوضوح افتراض معدّل كبير للصراعات، لاَ يبرِّر حاجات مادية موضوعيّة. ففي غينيا الجديدة، وفي كل الجزر المجاورة لها، على سبيل المثال، استطاع المراقب من الخارج أن يسجِّل صراعات داخلية متكررة، لحد أنها تظهر كما لو كانت محفورة في الإرث الثقافيّ للقبائل المختلفة، ولا يمكن أن نرجعها إلى أسباب حقيقيّة للصراع. وفي بعض الجزر، كما في جزيرة دوبو Dobu الماليزية، ثبت أن القرى كانت في تجمعات على شكل «وحدات حربية» بالمعنى الحقيقيّ للكلمة، تسيطر على مساحة محددة من الأرض لمنع دخول القبائل الغريبة إليها[1].

وفي مجتمعات أخرى، على نفس المستوى من التطوُّر، كتلك الموجودة في إفريقيا، لوحظت بعض حالات الحروب الدورية ذات الطابع الرمزي، والمتعلقة ببعض الطقوس، لمجرد إظهار القوّة، وإعلان الاستقلال. ويمكننا أن نؤكد بشكل قطعي أن الصراع بين المجموعات الإنسانيّة، سواء أكان على شكل حرب فعلية أم على شكل ثارات قَبَلِيّة أم صراعات نقابية، لاَ يفرضه دائمًا تعارض المصالح أو تعارض الأهداف، وإنما ينبع غالبًا من ضرورة داخل المجموعة نفسها.

---

[1] أنجلو فوزاري، المغامرة الانسانية، SEAM، روما ٢٠٠٠ ص ١٣

فهناك شعوب وأمم تستخدم السياسة ليس فقط لحماية مصالحها، بل أيضا لتأكيد هويتها. وقد كتب صمويل هنتنجتون: «نعرف من نكون، فقط، عندما نعرف ضدّ من نكون».

عدوٌّ على المقاس (تفصيل)

هذا العامل النفسيّ، الذي يعطي للأمر بعدًا ثقافيًا، يتمُّ استثماره من جانب الرؤساء في المقام الأول، لتقوية التماسك الداخلي. فعندما تبدأ بعض المشكلات الداخلية في الظهور، وتلوح في الأفق علامات السخط، ويُخشَى من العصيان والتمرُّد، فإن الدواء الشافي يكمن في التخويف من تهديد يأتي من الخارج. وكُلَّما تَمّ تجسيد وتضخيم التهديد بفن وحرفية، دخل اللا تسامح الحقيقيّ في اللعبة، وتدخل فوبيا الخوف من الأجنبي الساحة، ويتم المبالغة في هذه الفوبيا كلّما بدت الحاجة إلى الدفاع والنجاة واهية ومشكوكا فيها.

فقد أجاد مَن بيده دفّة الأمور استغلال هذه التهديدات المشكوك فيها: «التهديد الفارسي» بالنسبة إلى اليونانيين القدماء، و«خطر أهل قرطاجنة» بالنسبة إلى الرومان القدماء، و«الخطر التركي» بالنسبة إلى أوربا في عصر النهضة، وشيئًا فشيئًا «الخطر الأصفر»، و«الخطر الأحمر»، «والخطر الإسلامي»...

ولدعوة الشعب ليؤدِّي ضريبة الدم، ولإقناعه بأن «الموت من أجل الوطن شرف ومجد»، ولإعطاء مبرر قوي للحرب، يلزم رسم صورة بشعة للعدو قدر الإمكان. فالاستعداد للحرب عند القدماء كان يبدأ بإبراز مشروعيتها، التي تؤكدها الطقوس التي تتساوى مع اتهام يوجه إلى العدو.

هكذا كانت طقوس الأعياد الرومانية، التي كانت تشبه صراعًا Lite Contstatio حقيقيًا. فالكون كله، آلهة، ونباتات، وحيوانات، وبشرًا، كان يُدعَى ليكون شاهدًا على أن العدو علي خطأ، أي شرير، وكان الجزء الأخير من الطقوس يكمن في كسر غصن من نبات العُناب، وعندما كان يتم كسره يصطبغ باللون الأحمر، ويتمُّ قذفه نحو أرض العدو (رمز لإلقاء اللوم والذنب عليه) بالصيغة المقدسة: «إذا كان لجوئي إلى السلاح غير صحيح، فدعائي على نفسي أن لاَ أرى وطني ثانية».

وفي ندوة بهارفارد حول موضوع «حل النزاع»، بدأ أحد المشاركين حديثه بهذه القصة: «سأل أحد المكتشفين عجوزًا بقبيلة إفريقيّة عن الخير والشر من وجهة نظره،

فأجابه بقوله: إذا هاجمت قبيلتى القبيلة المعادية وسبت نساءها، وأنعامها، فهذا عمل خير، أما إذا هاجمت القبيلة المعادية قبيلتنا، وسبت نساءنا وأنعامنا، فهذا عمل شرير».

وعلّنا بعد أن نضحك بما فيه الكفاية، نفكر في الأمر بعض الشيء. ألا نجد نفس هذه الطريقة في رؤية الأشياء على مدى التاريخ الإنساني كله، وأيضًا في تاريخنا المجيد «الغربيّ»، على حساب تحسين النظام الاجتماعيّ، وأنماط السلوك، العدو دائمًا على خطأ؛ كل مَا يفعله بنا بغيض وممقوت، وكل مَا نفعله نحن به مقدس.

فالأنظمة الدكتاتورية هي أنظمة عسكرية، وتجعل من كره العدو، ومن ثم من الخصال الحربية، شغلها الشاغل وأساس شعبيتها، فبالنسبة إلى هتلر، لم يكُن فقط اليهود أو الغجر، ولكن أيضًا السلاف، بالتالي الروس كانوا «تحت مستوى البشر»، يجب قهرهم دون هوادة. وفور بدء «عمليّة برباروسا» التي تخرق تحالف ريبنتروب- مولوتوف، التي كانت تجعل من الاتحاد السوفييتي «العدو البلشفى»، أسرع الفوهرر بإعلان أن هذه الشعوب كان يمكن أن تُستعبد، أو يتم استئصالها دون رحمة.

ولم تبتعد الفاشية الأكثر «إنسانيّة» عن هذه القاعدة، ففي أثناء الحرب العالمية الثانية كنت أدرس في المدرسة الابتدائية بروما (بدأت كابن للذئبة التي أرضعت ريمو، ورومولو مؤسسي روما حسب الأسطورة، وترقيت في المؤسسة الفاشية Balilla). وما زلت أذكر الرسوم الملونة في كراساتي التي كانت تخصص لهذا «العميل الإنجليزي» أو ذاك (على سبيل المثال الأدميرال نيلسون الذي كان يعلق الوطنيين بنابولي على أعواد المشانق)، وتحت هذه الرسومات كتبت واحدة من العبارات «التاريخيّة» لبينيتو موسوليني وبحروف جميلة: «لاَ يمكن خوض الحرب دون كره العدو». ويصف إيتالو كالفينو، الذي يكبرني بنحو عشر سنوات، تجربته كطليعي في مدينة منتونة Mentone في تلك الفترة، وهى مدينة تقع في مَا وراء الحدود، في أرض كان يطلق عليها قبل ذلك «الشقيقة اللاتينية»، والآن هي واحدة من الأعداء الجدد: «يا أولاد -يقول الضابط للشباب الذين ينتشرون عبر المدينة المهجورة التي تمّ غزوها فور إعلان الحرب، والتي تمّ نهبها من قبل من قبل القوات الفاشية- لاَ يجب أن ننسى، أن هذه مدينة مفتوحة، وأننا المنتصرون. فكل مَا هو موجود ملك لنا، ولا أحد يستطيع أن يقول لنا شيئًا»[1]!

أما حكومات البلاد الحرة والديمقراطيّة، فلها وسائل أقلّ وحشية، وأكثر نعومة وتطورًا، ولكن هذه الحكومات لاَ تتردد هي الأخرى في وصف أي موقف متفاهم جدًّا

---

[1] إيتالو كالفينو، طليعى (عضو تنظيم الشباب الفاشستى) في منتوبه، في حكايات ايطاليّة في القرن العشرين، موندادورى، ميلانو ١٩٩٤، ص ١٢٨٧

تجاه «العدو » بأنه ضدّ الوطن، والذي ينسحب شيئًا فشيئًا على أي شخص لا يتقاسم معنا أسس طريقتنا في الحياة Way of life.

إن مسؤولية التعذيب في العراق، على يد العسكريين الأمريكان والبريطانيّين (كي أذكر فقط أوضح مثال في التاريخ الحديث) يمكنِ أن نرجعها تقريبًا إلى أعلى درجة في سلم القيادة، ولكن تعود في جزء منها على الأقل إلى الدعاية التي تهدف إلى تبشيع صورة الخصم، وتصويره على أنه شيطان، ومن ثم فلا يكفي فقط سجنه، بل إن التعذيب يصبح وسيلة مقدسة، مثل محاكم التفتيش تمامًا.

ولاختراع وتضخيم تهديد العدو بصورة ملائمة، وتعبئة الجماهير ضده عند النقطة الصحيحة، أي النقطة التي لاَ يكون فيها أي تردُّد في التضحية بالحياة، وانتهاك حرمة «لاَ تقتل»، فلا يكفى أن يكون لدى القادة كاريزما وأدوات دعاية ومهارة في تزييف المعلومات فحسب، بل يلزم أن يكون هناك شحنة إيديولوجية هائلة تستطيع أن تجعل الأوامر العسكرية بمثابة أوامر إلهية، أي يلزم أن يكون هناك دائمًا يقين مطلق.

اليقين المُطلَق لكلمة الآباء

أي يقين مطلق يمكن أن يوجد بعيدًا عن أي أمر إلهي غيبي؟ عالم الاجتماع الذي يعتمد على الملاحظة المبنية على الخبرة، يتوصل إلى نتائج مشابهة لتلك التي توصل إليها الفيلسوف، أي أنه يوجد في كل مجتمع إنساني مصدر للحقيقة الدافعة، التي لاَ تناقَش، والتي لاَ تقلّ قوتها عن قوة كلمة الله نفسها: إنها كلمة الآباء، أي التراث. فالتراث كان دائمًا منذ زمن بمثابة مفهوم مقدَّس خالد "صوت الشعوب هو صوت الآلهة". وبالنسبة إلى الرومان فإن المصلحة العامّة Res Pubblica كانت تقوم على تقديس الماضي، أي سلطة الآباء، وعبادة الآلهة. وينطبق نفس الشيء على الكونفوشية، التي بتقديسها للتراث، خلقت لقرونٍ صورًا ذهنية، وسلوكيات محددة لدى مئات الملايين من الصينيين. وقد شعرت كذلك الديانات الكبرى التي نزلت من عند الله للحاجة إلى تكامل النص المقدس مع مصادر أخرى مستوحاة من التراث، الذي تَمّ تقديسه، لاَ جمعه فحسب. فلازم التلمود التوراة، ولازمت السُّنّة والحديث القرآن، وأصبحت الكنيسة هي مستودع التراث، على جانب العهدين القديم والجديد.

وكُلَّما تَمّ الإعلاء من قدر التراث وتعظيمه، كان بمثابة ضرورة أساسيّة لكل مجتمع. فلكي تحافظ كل مجموعة على تماسكها، لاَ بُدَّ لها من شيئين: أولاً التوافق حول أسس مَا نسميه «عالمنا»، الذي لاَ يتكون فقط من الحيز الفيزيقي، بل أيضًا من خليط من

القناعات، والعادات، والتوافقات التي تصحبنا من المهد إلى اللحد، والتي تربطنا بالأرض، وتمنحنا «الإحساس بالمكان». وثانيًا أن استمرار هذه الأسس عبر الزمان يجعل الهوية عرضة للضياع[1]. فالتراث يمثل بالنسبة للمجموعة مَا تمثله الذاكرة بالنسبة للفرد، وهو ترياق ضدّ الخوف من الموت، ويمنح المجموعة نوعًا من الخلود. وقد عرّف كثير من الفلاسفة التراث بأنه «الخلود الوحيد الممكن على الأرض». فقد أكد أفلاطون في «الوليمة» Simposio أن الإنسان يبحث عن علاج للموت، ليس فقط موت الجسد من خلال إنجاب الأولاد، بل أيضًا موت النفس من خلال الذكرى التي يتم نقلها إلى الأجيال اللاحقة.

فهناك نوع من اليقين المُطلَق يرتكز على النقل من الأب إلى ابنه، ويعتمد في الواقع على منطق مغلوط شائع، كبعض الأدلة على وجود الله، فالأب يؤكد لأولاده وهو على فراش الموت وصيته بعدم خيانة بعض التصرفات أبدًا، لأن هذه السلوكيات هي الحق، ولو سأله أولاده عن سبب كونها حقًّا، أجاب: «لأنها كانت دائمًا سلوكيات الآباء والأجداد». نعم، هو ليس تفكيرًا منطقيًّا، ولكن ليس لأجل هذا يعتبر اليقين المشتق منها أقل قوة، وأقل صرامة. فما الذي يجعلنا مطمئنين، وفي الوقت نفسه ملزمين بعمل وكان الآباء، والأجداد، وأجداد الأجداد، ومن علاهم، يفعلونه منذ أجيال لاَ حصر لها. إن السير مع التيَّار يساعدنا على أن نقوم بخياراتنا دون خوف من الخطأ، ونشعر بأن نظراءنا يتفقون معنا، وبأن السلف يباركوننا.

والعادات، وهى نتيجة انتقاء تدريجيّ لخبرة جماعيّة متحللة من الزمن، خلقت بذلك «أخلاقيات» المجموعة، فهناك فقط طريقة واحدة صحيحة للإمساك بالصيد، ولاختيار زوجة، وللعناية بالمظهر، ولعلاج الأمراض، ولتكريم الأرواح، وللولادة، وللسير إلى المعركة، وللمشاركة في اجتماع، أو جمعية، وهكذا في كل حالات التفاعل الاجتماعيّ، والمشاركة المجتمعية الأخرى.

وفيكو Vico نفسه، رغم أنه صارم ودقيق في تحليلاته، يُقِرُّ بأن بعض القناعات المتوارَثة «يجب أن يكون وراءها أسباب عامّة حقيقيّة، من بداية مولدها، وحتى احتفاظها بشكلها من جانب شعوب بأكملها، وعلى مدى ردح كبير من الزمن».

---

[1] جويادى كريستوفرو، الهوية والثقافة، طبعة studivm، روما ١٩٩٣.

لا تسامح التراث

نجد أنفسنا إذن أمام نوع من العقيدة الأرضية، التي يمكن أن تكون مصدر إلهام لأعمال بطولية خارقة، مثل مقاومة ومناعة المدن الحارة Termopoli، وتخلق أقوى معلم وسمة لكل مجتمع. ويؤكد كورنار لورينز أن «أي عبقري لا يمكنه وحده اختراع منظومة قواعد ومحظورات اجتماعيّة تضارع وحدة تلك الموجودة في التراث الثقافيّ».

ولأجل هذا بالتحديد، يمكن أن يتحول التراث إلى نوع من اللا تسامح، الذي لاَ تقل حدته عن التعصب الدينيّ. فإن الإعلاء من قدر التراث ينتهي بتبرير الأحكام المسبقة، والخزعبلات التي يتم تجسيدها كحقائق طواها الزمن، ودُفنت في اللاشعور الجماعي. فعادات المجموعة Folksways (التراث الشعبي) التي تَمّ اختراعها لتسهيل الحياة الجماعيّة، اشتد عودها وأصبحت لاَ تقبل المساس بها. وعموم الناس الخائفين من المجهول والمحافظين بغريزتهم، يميلون إلى إضفاء قيمة رمزية على الحكمة المتراكمة عبر الأزمان.

أما الصفوة، الذين ليس لديهم اهتمامات لتغيير العادات والمؤسسات التي يستمدون منها أساس سلطانهم، فيعرفون جيدًا كيف يؤثرون في الجماهير باستخدام خصائص التراث والرموز، والصور، والرايات، والأناشيد، في الاحتفاليات، ويلجؤون بشكل كبير إلى ذاكرة التاريخ البدائيّة التي يتمّ استغلالها بفن وحرفية[١].

فمرات كثيرة أثارت قصيدة، أو صورة بطل، أو جملة بسيطة، أو بعض وصايا الآباء ثورات، أو قلبت موازين حرب من الحروب، «فعندما يرفرف العلم، فإن شعورنا الجميل يكونٍ في صوت قرع الطبول» هكذا يعلمنا قول شعبي مأثور.

وطرق الآباء والأجداد، التي يرضعها الأطفال مع لبن الأمهات، وتنتقل من الأب في ساعة الاحتضار إلى ولده، تؤثّر في طباع شعب مَا بطريقة، وتشكل طبيعة ثانية يستحيل التخلّي عنها، كما يستحيل على الواحد منا أن ينسلخ من جلده. ومثال واضح للعيان على ذلك، هو مَا يتعلق ببعض الممارسات المزرية لوضع الأنثى في بقاع كثيرة من العالم. فالختان، لاَ يزال يمثل حتى الآن جرحًا غائرًا للملايين من البنات الصغيرات، والذي يؤيِّده في حالات كثيرة النساء أنفسهن، خصوصًا العجائز ذوات النفوذ، اللاتي يعارضن بشدة أي اتجاه لإلغاء هذه العادة[٢].

---

[١] سومنير، مرجع سابق، صـ٥٤، ٥٥

[٢] هو ختان الإناث عن طريق تضييق الأجزاء التناسلية والمهبل عند الأنثى، ويشتهر به بعض الأفارقة وغيرهم (المترجم)

غير أن أمثلة على الهجوم على التقاليد (التراث) على غير أساس يمكن أن نجدها في مجالات كثيرة متنوعة. ففي عصر النهضة، وعلى الرغم من ظهور العقليّة العلميّة الجديدة، فإن استقراء الطالع (العرافة والكهانة) عاش ولم يندثر، لأنه كان يتعلق بسلطة الأقدمين، الذين كانوا يعاد اكتشافهم وتقديرهم في تلك الفترة[1].

ونجد بعض المحاولات من كل نوع تتجه إلى معارضة دكتاتورية التراث، وإلى إعادة الثقافة دورًا تحرُّريًّا واستقلاليًّا، وبذلك نجد هذا الصدام في ثوب جديد، بين المدافعين عن النواة الأصلية لليقين، ودعاة التجديد الذين تحدثنا عنهم، تحت عباءة الأصولية. فمنذ وقت طويل قامت التيَّارات الفكرية، التي تعارض أي شكل من أشكال الثوابت التي لاَ تنافَس، وتناضل من أجل تغيير «المبادئ المقدسة» بحروب التراث، وضد تحويل الفلكلور الشعبي إلى حقائق مطلقة، ومجرى التاريخ حتى يومنا هذا، ولكن بمواجهات بين لمدافعين عن التراث، ومن يشوّهونه[2].

إن العودة إلى الماضي كعقيدة، نظر إليه معارضو الإصلاح الفوضويون، والشباب الثائر، ومجموعة المارقين، والتشكيلات الديمقراطيّة اليسارية، كعقبة كؤود أمام التقدُّم، وضد التحديث، وضد العولمة.

وقد اعتبر أولئك أن مبدأ «هكذا كان ولذلك من الصواب أن يكون، ويجب أن يستمر» بمثابة دافع على استمرار الظلم، وعدم المساواة.

ولذلك كان الهدف الأول للثورات هو القضاء على الجذور، وعلى كل مَا يمثل عنصر تميز أو تفوُّق على أساس المولد، والنسل (الأصل)، والبداية من نقطة الصفر.

فقد غيرت الثورة الفرنسيّة أيضًا أسماء شهور التقويم، وأراد تيَّار المستقبلية (ضدّ التقاليد) الذي أسسه مارينتي Marinetti إغلاق كل المتاحف، والحركة الطلابية عام ١٩٦٨ وهي تهاجم الاستبداد والتوسُّع في الحريات، كانت تستهدف في الأساس التراث، لأنه من خلال «قتل الأب» يتحقق الهدف في تأسيس أشكال للتنظيم الاجتماعيّ بعيدة تمامًا عن القوالب الجامدة.

ويرى ماوتس تونج أن نفس أي شعب كانت صفحة بيضاء، كان يتعين نقش مفاهيم ملهمة غير معروفة عليها، ويتم تجديدها باستمرار في عمليّة هدم وإعادة بناء لاَ تتوقف. وكانت نَظرِيّة ماو تهدف إلى أن تفرض نفسها كواحدة من أكثر الحركات الراديكالية لثورة دائمة ضدّ التراث.

---

[1] سوميز، مرجع سابق، ص ٣٦

[2] إن مراحل هذه المعركة المتصاعدة، أبرزها فعال مارنشيللو فيتسياني، من الأب للإبن، مدح التراث، لاترتسا، بارتي ٢٠٠١.

وليس مصادفة أن آخر مراحل الثورة الثقافيّة اتخذت كونفوشيوس هدفًا وغرضًا، وهو كاهن التراث الأعظم. ومع ذلك فهذه الثورة الراديكالية لم تقض على اللا تسامح، ولا على الحقائق المطلقة، إنما قامت فقط بتغيير النظرة إلى الأعداء الذين يجب بغضهم، ونوع الحرب التي يجب خوضها، من خلال إحلال إيديولوجية الحزب محل تراث كونفوشيوس، الذي لم يستطع الربان الكبير ماو أن ينفصل عنه، كما يبدو ذلك في كثرة إشاراته التاريخيّة، وفي أسلوب شِعره ونثره، بل وفي كتابته كأحد كبار دولة الصين. وأسوق هنا مثالاً واحدًا، وهو إحدى الفقرات الشهيرة بأحاديث المرشد الأكبر ماو، والموضوعة في برواز رائع بالمباني العامّة، والموجودة في الكتاب الأحمر الذي كانت يلوح بها الجيش الأحمر وهو يدك أسوار بكين، وينزع الرسوم من المعابد البوذية بمدينة ناكينو Nachino، هذه الفقرة التي تمتلئ بالاستلهام، والعودة إلى التقاليد المقدسة للصين التي عمرها آلاف السنين.

«كل الناس حتما يموتون، ولكن الموت لاَ يعنى نفس الشيء لكل الناس»، فعالِم التاريخ القديم تزوما شين كان يقول: «على الرغم من أن الموت يداهم كل الناس بلا تمييز، فإنه يمكن أن يكون أثقل من جبل تاي Tai، أو أخف من ريشة. فالموت من أجل الشعب أثقل من جبل تاي، أما العمل من أجل الفاشيين، والموت من أجل المستغلين والظالمين، أخف من ريشة»[1].

وها نحن نجد أنفسنا مرة أخرى مطالبين بإعادة النظر في معلومات. نعتبرها مسلَّمات. ويأتي في خاطرنا تلقائيًّا «اللا تسامح» الذي تغذيه العدوانية، شيئًا متوارثًا و«بربريًّا»، يربط بالطبيعة الحيوانية للإنسان، وبالصراع المبدئي من أجل البقاء، وهذا يتناقض مع التسامُح، الذي يأتي كثمرة للحضارة المتقدمة، والذي يجب نقله، وفهمه، والحفاظ عليه، من خلال التربية، والاستخدام الدائم للعقل.

ومع ذلك، وإذا مَا كانت هذه المعلومة حقيقيّة، فإن المفاجأة الكبرى تكمن في أن النقيض ليس حقيقيًّا، فإن اللا تسامح أيضًا يدخل في مرحلة متقدمة نسبيا من تطور الحضارة التي فيها تترك العدوانية البسيطة المكان لشيء أكثر تعقيدًا. ونجد هنا أن العلوم التي تهتم بالمجتمعات الإنسانيّة تعطي قيمة للملاحظة العميقة التي أشرنا إليها في التمهيد، أي أننا أمام شعور أو موقف معقد للغاية، ولا يمكن أن نرجعه فقط إلى العدوانية والميل إلى العنف، ولكنه -على مَا يبدو- يرتبط بالمؤسسات الاجتماعيّة، والسياق الاجتماعيّ، أي أنه تسيطر عليه الكلمة، والفئات المسيطرة أكثر من الغرائز البدائيّة.

---

[1] ماوتسي تونج، خطاب خدمة الشعب (٨ سبتمر ١٩٤٤). وجبل تاى يوجد في مقاطعة شان دونج، وهو واحد من الجبال المقدسة بالصين، ومهد أقدم التقاليد، وكان قبلة العائلات الملكية للحج وللاحتفال بالتقاء السماء والأرض، بداية من أسرة كين Qin (221 – 206 ق. م)، أي منذ الإمبراطورية الأولى.

إن صراع المصالح التافه في الأصل يمكن أن يتمّ تضخيمه وتقديسه وتحويله إلى نزاع حول قيم عليا، وإلى قتال حول المبادئ إلى اخر قطرة دماء.

نهاية تاريخ أم صدام حضارات؟

في القرن الواحد والعشرين يبدو للوهلة الأولى أن صراع الثقافات لاَ يختلف كثيرًا عن صراعات القرن العشرين. فكل النزعات القوميّة والعرقية تقريبًا والتي كانت سببًا أساسيًا في حربين عالميتين، ظهرت من جديد مع سقوط حائط برلين كما لو كان ذاب عنها الجليد فجأة.

ولكن غياب «ميزان القوى» الذي كانت تفرضه المواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، لاَ يمكن أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء ببساطة. فإلى أي مدًى أدَّى ظهور قوة عظمى واحدة، لصاحب نموذج منتصر للمنظور الاقتصاديّ والمدني، إلى تغيير الإطار العامّ الكامل للعلاقات الدولية، فهناك اثنان من المنشغلين بالسياسة، كلاهما أمريكيّان، اكتسبا شهرة عالية من خلال افتراضين متناقضين في هذا الخصوص.

فرانسيس فوكوياما مقتنع بأن الإطار العامّ تغير بطريقة راديكالية، لدرجة أنه يكتب الحديث عن «نهاية التاريخ»[١].

وهذه ليست فكرة، حيث إن آرنولد ج. توينبيه يذكر أنه بالنسبة إلى الطبقة الوسطى في إنجلترا في فترة حكم الملكة فيكتوريا، وفي أوج القوّة العسكرية والاقتصادية والعلميّة، فإن التاريخ يُعتبر «قد انتهى»[٢].

ففي السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية، والتي كانت حرجة بالنسبة لمصير أوربا، عقد الكسندر كوجيف، وهو تلميذ جاسبر، ندوة فلسفية في باريس (شارك فيها جورج باتي ورايموند آرون وموريس ميرلونتي) حول «نهاية التاريخ». وكان يعتقد أن هذه الحرب ستكون آخر الحروب مثلما كان الحال مع الحرب العالمية الأولى.

وبالتلاقي ليس فقط مع كوجيف، ولكن مع هيجل وماركس، الذين أكدوا في نظريّاتهم أن تطور المجتمعات لاَ بُدَّ أن يكون له نهاية عند بلوغ الهدف الأعلى (وهو المجتمع الليبرالي بالنسبة إلى هيجل، والمجتمع الشيوعي بالنسبة إلى ماركس)، يؤكد فوكوياما أننا وصلنا إلى (الشكل النهائي للحكم البشريّ)، وإلى (النقطة النهائية من التطوُّرات

---

[١] فرانسيس فوكوياما، في نهاية التاريخ والانسان الأخير، طباعة آفون Avon، نيويورك ١٩٩٣.
[٢] آرنولد ج. توينبيه، حضارات في مقارنة، مرجع سابق، صـ٢٧

الإيديولوجية للإنسانيّة)، من خلال شيوع النموذج الأفضل الذي يمكن أن يصل إليه مجتمع إنساني، وهو النموذج الديمقراطي، ونموذج السوق الحرة، وهو نموذج يمكن توجيه النقد إليه في مَا يتعلق بتطبيقه الفعلي، لاَ فيمَا يتعلق بركنيه الأساسيّين: الحرية والمساواة. ولأجل هذا، وعلى الرغم من كل أوجه الاختلاف والتعارض، فقد لقي قبولاً واسعًا على كل المستويات. إن طريق الإنسانيّة نحو تعايش يكون فيه خير الجميع وخير العالم، أمر مقبول، وسيصل إلى مرحلته النهائية.

أما صموئيل هنتينجتون فيعتقد -على العكس من ذلك- أن زعم حضارة أن بقدورها فرض نموذجها على الحضارات الأخرى، أمر غير مؤكد ولا يقوم على دليل بأنه النموذج الكامل. وهذا النموذج لاَ يمكن فرضه دون أن يقابل مقاومات صلبة ولهما وجاهتها.

ويتوقع هنتينجتون لذلك أن يتميز المستقبل القريب بصدام الحضارات الكبيرة الموجودة حاليًّا على الأرض، وعلى الصعيد الثقافيّ. ولا يستبعد أن يكون هناك «بعث ثقافيّ» لقارة آسيا، ولكنه يضع الثقافات الصينيّة واليابانية والبوذية في مستوًى أعلى من الثقافات الأخرى، ويرى أن هذه الثقافات، مثلها مثل الثقافة الإسلامية، ستكون قادرة على التصدِّي لتحدِّي الحضارة الغربيّة، وأن تثبت تفوُّقها عليها.

ولكنه يضع الثقافات الهندوسية والإفريقيّة والأمريكيّة اللاتينية، في مستوى أدنى، ويرى أنها أيضًا (تستطيع أن تثبت طابعها المميز، ولكنها مترددة ومهتزة في إظهار تفوقها بالنسبة إلى الغرب).

وحسب رأى البروفيسور هارفارد الذي أشرنا إليه سلفا، فنحن على أعتاب عمليّة يسميها هو «إعادة الحفاظ على أصول جيل ثان»، أي المناداة التقدُّمية من جانب مجتمعات غير غربية للعودة إلى قيم ونماذج أصلية، فالعودة إلى الأصول يمكن أن تتحقق بفضل التحرر الاقتصاديّ والسياسيّ لهذا المجتمع. وهكذا فإن «توزيع الثقافات في العالم يعكس توزيع اقتسام السلطة»[1]. وقد يؤدِّي الحسّ التاريخي والسياسيّ بنا إلى تأييد هذا الافتراض الثاني، الذي لاَ يحمل جديدًا. فالتاريخ البشريّ -في الواقع- كان دائمًا عبارة عن اتفاق وصدام بين الحضارات، وفي النهاية تَحوَّل الصدام إلى امتزاج، تركت فيه الحضارة المغلوبة عسكريًّا وثقافيًا أثرها وبصمتها على المنتصرين. وأسوق مثالاً صارخًا في هذا الجزء من عالمنا، وهو الغزو الدوري الكبير (اليوناني القديم) Dorica، في حقبة مَا قبل هوميروس، فأصبح لدى الغزاة الذين قَدمُوا من الشمال عقليّة سكان اليونان الأصليين، لأنهم كانوا مزوَّدين بأسلحة من الحديد، كانت تتكسر عليها الحراب

[1] صموئيل هنتينجتون، صدام الحضارات، سيمون، شوستر نيويورك ١٩٩٦، ص ٩١ ، ٩٢

والسيوف البرونزية. وقد بدأت بهم صفحة جديدة من التاريخ الهندو أوربيّ، التي يميزها امتزاج الثقافات والمعتقدات. وأدخل المنتصرون الدوريون dori الهتهم السماوية، ولكنهم قتلوا بدورهم الهة أصحاب الأرض الأصليين من الأيونيين Ioni، تلك الآلهة التي ترتبط بالأرض وبعالم الموتى. ونتج عن ذلك مجمع الآلهة pantheon الجديد الذي نعرفه، وازدهار أفكار لا نظير له.

وقد تميز مسار الجنس البشريّ بظهور ثقافة مسيطرة، وبتفوق هذه الثقافة في كل العالم المحيط، أي أنحاء المعمورة في ذلك الوقت.

وقد استطاع الإنجيل تثبيت أقدامه في وقته على مستوى العالم، بسبب أن الاتصالات بين أجزاء العالم من أقصاه إلى أقصاه كانت متاحة بسبب سيطرة قوة واحدة، وبسبب وجود لغة عالمية، هي اليونانية.

فلا يجب فهم الثقافات كقوالب جامدة، ومحددة للوحة موازييك (فسيفساء)، ولكن كشيء مرن في امتزاج مستمرّ واتحاد. فلا نعرف كيف أو لماذا تتغير ثقافة مَا وتتطور، ولا يمكن أن تكون هذه الميول موجودة، وتحدد تفوق حضارة مَا وثباتها مقارنة بالحضارات الأخرى، والثقافات الأخرى. ويمكننا الحديث عن معالم ثقافيّة منتصرة، أكثر من حديثنا عن ثقافات المنتصرة لمن يمتلكها ميزات كبيرة وتمهد الطريق أمام التفوق والتميز، ونراها فقط تغرب عند وصول ثقافات تمتلك أدوات ووسائل أكثر فاعلية وتأثيرًا. ويضرب توماس سويل Thomas Sowell المثل بالأرقام العربية، التي ثبت أنها أكثر فائدة من الأرقام الرومانية، وتفوقت عليها وأصبحت تلك الأخيرة فصلاً تاريخيًّا[1].

أما السيناريو الذي ساقه هنتينجتون فله قيمة أكيدة من وجهة النظر الجيوسياسيّة، فمن المتوقع أن يلاقي ادّعاء قوة مسيطرة تفرض نموذجها الحضاريّ، مقاومات، خصوصًا من جانب بعض البلاد الكبيرة الصاعدة مثل الصين في المقام الأول، ولا تستبعد منافسة شديدة من جانب أوربا. ولم يقل أحد إن هذا التعارض قد يتخذ أشكالاً عنيفة، فقد يتواصل من جديد البحث عن التوازن متعدد الأقطاب، الذي لاح بالأفق في مرحلة الثنائي غير العادي نيكسون - كيسنجر.

إن دراسة فوكوياما الأكثر راديكالية جرت على صعيد مختلف، وهو الصعيد الفلسفي والمستقبلي ولنفكر جيدًا في هذا الصدد، هناك تعرفنا عليه، وقلب موازين قواعد سياسة الأمر الواقع Realpolitik المعتادة.

---

[1] توماس سويل، سباق وثقافة، نشر Basic Books هاربركوليترز، ١٩٩٤، ص ٥

عن أي شيء يتحدث؟ من الواضح أننا نتحدث عن هذه الظاهرة أو تلك العمليّة التي فرضت نفسها على النظام الدولي، والتي اعتدناها، ونسميها «العولمة».

وسيسيل مداد الأقلام كالأنهار لإظهار خصائص هذه العولمة وآثارها على الصعيد السياسيّ والاقتصادي والاجتماعيّ. ومما سيجعلنا نتحدث عن «نهاية التاريخ»، السرعة والتوسُّع اللذان يتمتع بهما هذا النموذج الأكثر إقناعًا، والذي تجسده الحضارة الأقوى، ذلك النموذج الذي ينتشر في أرجاء المعمورة، التي تشمل -للمرة الأولى- الكرة الأرضية بأسرها، دون استثناء أي جزء من أجزائها. وقد لا نكون مبالغين إذا مَا أكدنا أنه يجرى الإعداد لواحدة من كبرى الثورات التي غيرت مسار التاريخ الذي لاَ يقاس بالقرون بل بآلاف السنين. وها هي من جديد ثورة المعلومات التي يمكن أن تقلب «مكوّنات» مجتمعنا رأسًا على عقب. فقد ميّز اختراع الكتابة الثورة الزراعية، التي قادت إلى البطريركية، وإلى نشأة المدن، وإلى الذاكرة التاريخيّة، وإلى تكدُّس ونقل المعارف من جيل إلى آخر. وقد ميز اختراع الطباعة الثورة الصناعيّة، وأدت إلى شيوع المعارف، وإلى إنهاء الأنظمة السلطوية الكبيرة. واختراع الراديو والتلفاز ميز الثورة التكنولوجيّة، وأدت إلى اتساع المعلومات على المستوى الكوني.

فما التأثير الأكيد للحاسب الآلي و«شبكة» المعلومات التي تطوّق وتلفُّ الكرة الأرضية بكاملها، مثل «مجالنا» (noosfera) للكاتب تلار دو شاردين Theilhard de Chardin؟ كثيرون يعتقدون أن الثقافة الغربيّة -التي لم تعد كالماضي عالمية في ظاهرها، بل «عالمية» بالمعنى الحقيقيّ للكلمة للمرة الأولى- صارت «ثقافة حقيقيّة»، مثل المسيحيّة التي هي الديانة «الحقيقيّة». إن ثقافة التحديث، والتقدُّم العالمية، هي ممارسة ونتاج العقل، وهى -على حدّ تعبير إدوارد تيلور- «السيرة الذاتية الأساسيّة للإنسانيّة»، وهى الأمل الحقيقيّ الأول في التحرر من الحاجة، وفي السعادة على الأرض، وربما يوما مَا، الأمل في الخلود. ولذلك نجد على هذا المفتاح الذهبي الذي سيفتح أبواب التنمية المستدامة والسريعة أقام المناطق المتخلفة على الكرة الأرضية. فهل نشهد عودة في ثوب جديد للإيمان بالتقدُّم، الذي ساد الاعتقاد بأنه مضى إلى حال سبيله بعد إحباط «القرن القصير»؟ فليس مصادفة أن تقود العولمة نفس الدولة التي اخترعت المعلوماتية، والنموذج الواحد، حيث تسيطر فلسفة أنه إذا وُجد نموذج محدد كنتيجة لوسائل وأدوات متقنة، فلاَ بُدَّ أن يكون جيدًا، وجديرًا بأن يزيد وينتشر في كل مكان.

وأمام دين التقدُّم الوليد، يكون للعرقيات، والثقافات، وحتى للأمم، سمات مزيفة شبيهة بمعتقدات وثنية، أو متهرطقة، ويتمّ التقليل من شأنها بوصفها اختراعات غير عقلانيّة ومصطنعة.

إن العلاقة الحميمة بين منظومات [illegible] بعينها، وأرض واحدة، وثقافة واحدة، تفقد قيمتها أكثر وأكثر.

فمن الطبيعيّ إذن أن يقف بالمرصاد لهذه الرؤية التي تعتبر حقيقة مطلقة هؤلاء الذين يرون في هذا التطوُّر أكبر مؤامرة تستهدف الهوية الثقافيّة، وأكبر عمليّة إدماج ستؤدّي إلى تدمير حتمي لثقافات ذات مستوى أدنى.

ألسنا إذن في نهاية التاريخ؟ بل ربما في نسخة جديدة على مستوى الكون من الصدام الذي يجرى منذ آلاف السنين بين القديم والجديد، بين التراث والتجديد، بين العالمي والخاص، بين من يُعلِي من شأن «التقدُّم» ومن هو على قناعة بأن سرّ السعادة الإنسانيّة يجب أن نبحث عنه في مكان آخر. إن الأمر يتعلق -على كل حال- بتصدُّع أصاب العالم بأسرة، فمقاومة التغريب، أو الأَمْرَكة، تتمّ داخل كل حضارة، بما أن وجودها مهدد. وقد تأخذ مظهر حرب عصابات، أكثر من شكل حرب حقيقيّة بالمعنى المعروف.

فمن جانب يطل برأسه من جديد الصراع الأزلي بين من يملك ومن لاَ يملك، مع الأغنياء الذين يطالبون بمساحة دخول واسعة إلى بيوت الزبائن، ولكنهم بعد ذلك يرفعون جسورهم عندما يطلب أولئك التبادل والمعاملة بالمثل.

وهناك وجهات نظر تعتمد على الخيال العلميّ وتتحدث عن عالم يعمل في جانب منه «بدو رُحَّل» جدد، لاَ يرتحلون على ظهر الإبل، بل على متن الطائرات النفاثة، ويتحدثون لغة دولية، ومسلحون، ليس بالأقواس والسهام، ولكن بأجهزة الكمبيوتر. ويوجد على الناحية الأخرى مترفون جدد، دائمًا منغلقون على أنفسهم داخل شرنقة مريحة، لاَ يحتاجون إلى الابتعاد عنها، ويستطيعون العمل والتزود بأي شيء، والاتصال مع الخارج دون الخروج من بيوتهم[1].

فهما رؤيتان لاَ تتصارعان بالضرورة، لأن كل واحد يمكنه أن ينحاز إلى هذا الجزء أو إلى الجزء الآخر، على أساس مَا يفضله، وما يتلاءم معه.

فالخطوط الفاصلة بين المعسكرات المتناقضة تثير اللبس إلى حدّ كبير، فليس من المؤكد أن تكون الأفكار المستوردة من أولئك الذين يريدون «عولمة» العالم، بمثابة أدوات تجديد وتحوُّل، ولا أن تكون -على العكس- أدوات ركود وجمود يترتّبان على رأى من يريدون إنقاذ الواقع الموجود. فنحن نشهد قلبًا للأدوار بالنسبة إلى النزاعات التي حدثت في الماضي دفاعًا عن عالم المعاني الخاصّ. فالمعسكرات التي كانت مناهضة منذ عقود لدكتاتورية التراث، انضمت الآن إلى حركة «رفض العولمة»

[1] انظر جاك آتالي، الرجل الرحالة، فايارد ١٩٩٣.

Noglobal. فالعولمة تعني في نظر أتباع الأديان وجها من وجوه المادية، وبالنسبة إلى أنصار البيئة الاعتذار إلى الطبيعة، والاخرين أيضا تدميرًا للأجداد ولروح الأماكن، ومن ثم وُجد خليط من الآراء ضدّ العدو المشترك، الشيطان الجديد، الذي يرمى إلى توحيد قارى للعالم تحت راية السوق الحرة والتكنولوجيا. وقد تظل النقطة الوحيدة الثابتة في هذا الخليط من التناقضات، هي أن عمليّة العولمة لاَ يمكن أن تتوقف أبدًا، وأن فرص كبح جماح مغول الهدم هذا ضئيلة للغاية.

إن المقاومة العنيفة من جانب أصولية رفض العولمة، ترفض الردّة التكنولوجيّة حزمة واحدة، متحصنة على مواقع غابات فالدين [١].

ولكن أولئك الذين لديهم شجاعة الاستغناء عن الكمبيوتر والتلفاز والتليفون المحمول، مثل بعض المجتمعات Amish (بالولايات المتحدة) الذين يرفضون السيارات والضوء الكهربي، ليس لديهم خيار آخر إلا العزلة داخل «جيوب» فقيرة، ومحميات معزولة لاَ تختلف كثيرًا عن جيوب الهنود الحمر، أو عن مساكن غير المتكيفين مع البيئة في عالم جديد «Brave new word»، ولكي يُبرِز برنار لويس عمق مَا وصلت إليه موجة التعذيب، يسوق مثلاً لرجل في مقهى قديم ببغداد، يجلس هذا الرجل إلى منضدة مع أصدقائه، ويناقش مساوئ الحضارة الغربيّة، وكيف كان يتصرف أجداده، الذين يسير على دربهم، فيدخن النارجيلة (الشيشة)، ويتناول القهوة العربية الفاتحة المركزة، التي يسكبها الجرسون من فم الكنكة النحاسية في الفنجان الصغير بفن ومهارة. ولكنه قد يرتدى الملابس على الطريقة الأوربيّة، ويشاهد في التلفاز فقط البرامج الأجنبية، وكذلك الجريدة التي يقرؤها والتبغ الذي يدخنه مَا هي إلا منتجات تَمّ استيرادها من الغرب. ولو فكر في الأمر مليًّا، فإنه لن يستطيع في بيته الاستغناء عن الثلاجة، وأجهزة التكييف، وهي ماركات أمريكيّة أو أوربيّة. وبالتأكيد الآلات والمعدات التي يستخدمها في عمله، سواء أكان عسكريًّا، أم موظفا حكوميا، هي صناعة غربية[٢].

ويذكّرنا ذلك الأمر بما قيل بشأن بعض المتشددين الذين يستخدمون الفيديو كاسيت لتسجيل الأحاديث ضدّ الحضارة التكنولوجيّة، أو يستخدمون الكمبيوتر لكتابة وتسطير قوائم أسماء «الملحدين الماديين» الذين يجب استئصال شأفتهم.

---

[١] Walden هو أشهر عمل كتبه هزى دافيد تورو في ١٨٥٤ على أساس تجربته في العزلة الرائعة في غابات فالدن بوند في ماسوشوست. واصبح الكتاب نوعا من إعلان ضدّ حضارة وثقافة الاستهلاك، وأعطى نموذجا لكثير من مجتمعات الهيز (ضدّ التقاليد)، ولمحبى الحياة المتصلة بالطبيعة النقية غير الملوثة (Walden 2). بعض الدارسين أعطى لهذا النوع الجديد من الأصولية الثقافية اسم «التغريب»، ليشير إلى انه يشبه الغرب الذي أخرج إلى الوجود مجتمع الآلات، المستهلك، الكوني ولكن دون جذور، وبالتالي «دون روح»

[٢] ب. ليفى ستروس، الشرق الأوسط، ودنفيلد وفكلسون ١٩٩٥، وصورة العربي راقت لصحيفة (اكونومست)، فأعادت صياغتها على شكل فعال بعنوان، رجل بمقهى بغداد.

اندماج في مواجهة العودة إلى الأصول

نظرًا إلى أننا أردنا في هذا المقام أن نوسع حديثنا حول أهمية وتأثير الثقافة في التفاعل بين الجماعات البشريّة، يجدر بنا إلقاء نظرة على الإشكالية التي أثارتها العولمة بالطريقة المجردة قدر الإمكان. فمن وجهة نظر مماثلة تحاول أن تبتعد عن أي ملامح جدليّة وأي اعتبارات سياسيّة، تتلخص الإشكالية في: هل من الخير أم المصيبة أن يقف العالم صفًا واحدًا متجانسًا، وأن تترك العولمة آثارها العميقة مثل كمبريسور دوّار يثقب الثقافات؟

إن المتحمسين للعولمة ليسوا جميعًا عبيدًا شرهين للمنفعة كما يصوِّرهم من يحطّون من شأن العولمة، فكثيرون منهم مقتنعون بحسن نية أن التنازل عن الثقافات «الدنيا» هو ثمن معقول يجب دفعه في مقابل المساواة والديمقراطيّة ورفاهية الجميع. فهم يعتقدون أن اندماج العالم بأسره في ثقافة واحدة كبرى «عليا» (هكذا مثلما فعلت الثقافات المختلفة المحلية في البلاد المنفصلة، واجتمعت على ثقافة قوميّة) سيحرك -لاَ محالة- سلسلة من التوابع والنتائج الإيجابية، ويتيح الفرصة الذهبية التي ستحقق أخيرًا «الحريات الأربع» الشهيرة لروزفلت: حرية الكلمة، التحرر من الحاجة، حرية العقيدة، التحرر من الخوف. ولقد كان الرئيس كلينتون صادقًا في ندوة بولونيا حول «الطريق الثالث» التي شارك فيها منذ عدة سنوات مع زعماء «تقدميين» آخرين، عندما أكد أن إدخال التجارة الإلكترونية هو الدواء الشافي لدول إفريقيا، كما فتح فرصًا ذهبية للاقتصاد الأمريكيّ.

لماذا القلق من اختفاء نحو نصف اللغات الدارجة التي يتكلمها العالم، والبالغ عددها قرابة سبعة آلاف لهجة اليوم، بنهاية هذا القرن[1]؟ ألم يكن برج بابل عقابًا إلهيًّا ربما؟ فالمصائب كلها بدأت عندما حدث هذا الهرج والمزج في اللغات بدلاً من أن نتكلم جميعًا بنفس الطريقة، فاللغة الإنجليزية اليوم هي لغة تواصل تؤدِّي وظيفتها بإتقان[2]، فلماذا إذن نحرص على حياة لغة السلتيين Celti أو الباسك على سبيل الافتراض؟ ألا يكفي أن نسجلها بطريقة جيدة على الكمبيوتر لنحتفظ بذكراها؟ ينطبق نفس الشيء على بعض أغاني القبائل، أو المنتجات الداخلية، التي هي عبارة عن سفسطة هواة، والتي يمكن الاحتفاظ بها بفضل الإعجازات ثلاثية الأبعاد، وبطريقة أكثر فاعلية من الاحتفاظ بها في المتاحف.

---

[1] دانيل نتيل وسوزان رومان، أصوات الصمت، كاروتش ٢٠٠١. ويتوقع الجند البريطاني دافيد جرادول، إختفاء ٩٠% من لهجات العالم بنهاية هذا القرن

[2] اللغة السلتية: هي اللغة الدارجة بأسكتلندا، وحاليا في سبيلها إلى الانقراض (المترجم)

ويقول لسان حال أبناء عالم العولمة صراحة تقريبا: أتشكون وتتألمون لأنه عاجلا أم اجلا، سيتكلم كل من على ظهر الأرض نفس اللغة، ويأكلون نفس الأطعمة، ويرتدون نفس الملابس، ويرون نفس البرامج التليفزيونية؟ أتفضلون إذن أن يستمر موت الناس من الجوع، وأن يظلوا بلا مأوى، ولا يعرفوا القراءة والكتابة؟

ووفق هذه الرؤية يتطابق موقف المناهضين للعولمة Noglobal مع الأصوليين الدينيّين ويشككون في أصلها العميق، أي أن الرفاهية المادية هي أهم شيء يعول عليه.

ولا يجب أن نأخذ بسطحية الأسئلة التي يطرحونها: هل نحن متأكدون فعلاً من أن النموذج المنتصر الحالي هو الأكمل وهو النهائي؟

وهل إذا كان كذلك، يستحق أن نضحي من أجله بتنوع الثقافات، التي طورتها شعوب الأرض على مدى سيرها البطيء والشاق لعمارة الكوكب (كوكب الأرض)، في تكيف مستمرّ وعبقري مع الظروف التي صادفتها في طريقها؟

كيف نستطيع الحزم بأن بقاء أو عدم بقاء الثقافات الدنيا، مثل بقاء أو عدم بعض الأنواع البيولوجيّة المنقرضة، لن يؤثر، ولو قليلاً، على التوازن الفسيولوجي للإنسان الحديث؟ هل يمكن أن تكون علاقة الإنسان بالأرض محدودة ولا تبالي بالعواقب غير المتوقعة؟

ويحذِّر دائمًا من هم ضدّ العولمة من أنه يجب علينا أن ننتبه جيدًا حتى لاَ نهدم بسهولة وطيش، مَا لاَ يمكن أبدًا إعادة بنائه.

وللتأكيد أكثر على هذا الأمر، نشير إلى اعتبار عامّ، حتى وإن بدا سطحيًّا، ولكننا نادرا ما نتوقف عنده. إنه عدم ثبات واستقرار الإنجازات الإنسانيّة، فكثيرًا مَا يتمُّ نسيان أن الثقافات، بل حضارات الأرض الكبرى، لاَ تمثِّل أشياء تَمّ اكتسابها دفعة واحدة، ولكنها يمكن أن تختفي وتضمحلّ دون أن تترك أثرًا.

ليس فقط حضارات الماضي الكبرى، بل حضارتنا أيضًا. فلو حدثت كارثة كونية وأصابتنا نحن أيضًا (ونحن على وشك أن نتسبَّب فيها بأيدينا) فكم جزء من التكنولوجيا ومن العلم ومن الفنون يمكن أن يبقى على قيد الحياة؟ فمن المحتمل جدًّا أن لاَ يبقى من المخترعات المستجدة الكثيرة سوى البقايا، أو الذكرى، وإذا اختفى معها أولئك الذين يعلمون «كيف نصنعها»، فقد تحتاج إلى إعادة اختراع، حتى بعض الطرق البدائيّة في الإنتاج وفي إعداد الطعام. ولكي أسوق مثالاً واحدًا من تلك الأمثلة الكثيرة، أذكر منطقة القبائل بالجزائر، حيث تعيش واحدة من أقدم العرقيّات على ظهر الأرض، وكانت مشهورة بصناعة الحُلِي، والعقود اليدوية. ونظرًا إلى أن النظام الجزائري كان يتبنى

سياسة اقتصادية سوفييتية تقوم على الصناعة الثقيلة، وكان ذلك على حساب أي نشاط سياحي يدوى، فقد انقرض على مدى جيل في تلك المنطقة من يستطيعون إحياء مثل هذا التراث النبيل.

وقد واجه عالم الأنثروبولوجيّ السويدي أولف هانرز Ulf Hannerz هذا الموضوع كعالم، وسرد على الأقل سبع نقاط (أسباب) للدفاع عن هذا التنوُّع الثقافيّ: يجب الحفاظ على هذا التنوُّع كأثر للإبداع الإنساني؛ ويدخل في إطار تقرير المصير لشعب مَا، ييسّر التكيف مع المصادر البيئية المحدودة، يلطف علاقات التبعية الاقتصادية والسياسيّة، وهى قيمة جمالية تمنع من الخمول الثقافيّ، وهى مستودع للمعارف حول الطرق المختلفة لعمل الأشياء[1].

وأرى، وأنا لست عالما، أنها مسألة عزيزة، وحسَّاسة، أكثر من كونها موضوعات منطقيّة دقيقة. يحزنني ويؤسفني أن أرى شجرة قرو عمرها خمسمائة عام تسقط. ويؤلمني اختفاء السنونو (عصافير الجنة) من سماء روما، وأشعر بالقلق وأنا أقرأ عن تدمير بعض الآثار المهمة، أو سرقة عمل فني. ويحزن قلبي كثيرًا بسبب أنه يموت في كل يوم -مع أنواع بيولوجيّة كثيرة- عادات واحتفالات ومهارات يدوية وعطور نفاذة وأذواق... ومع اختفاء كل لغة، تختفي قصائد وأغانٍ ورقصات وأطعمة وصلوات جامعة وطريقة احتفالات وطريقة إعداد موائد...

وما يزعجني أكثر هو أن إعلان الموت النهائي لهذه الأشياء هو -قبل كل شيء- اختفاء تذوق هذه الأشياء. وهكذا تنشأ الأجيال الشابة على جهل مجرد بعض الأشياء الجميلة، التي لاَ يفتقدونها، وهكذا تعلن انقراضا لأولئك الذين يستطيعون إيجادها، وهم من يسميهم اليابانيون «الكنوز الحية».

إن إهمال «عالم المعاني» الخاصّ بنا، هو الخطر الأول المميت لثقافة مَا، ومع كل ثقافة تموت، تذبل البشريّة، وتفقد جزءًا من هذا الدافع الذي شجع «الإنسان العاقل» ليصبح إنسان اليوم. هل انقراض الثقافات أقل إيلامًا من انقراض الحيتان البيضاء، أو الذئاب أو النمور؟

وماذا نقول بعد ذلك عن تلك اللغة التي تعلمناها من الأم، مع خطواتنا الأولى، والإنسان يستمر في أحلامه وفي معاناته بهذه اللغة حتى لو تعلم أخرى جديدة؟

لاَ يمكن بالتأكيد الدفاع بكل مَا نملك عن «طرق الأجداد» عندما نتبين أن هذه الطرق يمكن أن نطبقها على ضوء الاكتشافات الجديدة، أولا لأنها تتعارض مع المُثُل

---

[1] أولف هانرز، التنوع الثقافى، مرجع سابق، صـ٤٧

العُليا للحرية والمساواة. وليس مقبولا أبدًا من ناحية أخرى أن نحقر من شأن «طرق الاباء» ونصفها بأنها طرق مسدودة أو عقبات في طريق التقدّم.

فلا يوجد أي ساحر يمكن أن يعيد إلينا بطريقة إعجازية الأشياء التي توشك على الانقراض، كما هو الحال في أسطورة الساحر المبتدئ. إن الساحر الذي استطاع أن يحرك العمليّة، وهو الغرب في هذه الحالة، يمكنه فقط أن يخفف من حدة بعض الآثار المدمرة، شريطة أن يتخلص من موقفه الذي يتسم بالأمان المفرط.

وأكرر مرة أخرى أنه من الضروريّ أن يعرف كلا الطرفين كيف يستمع إلى الآخر ويتحاور معه، وكيف يتخذ موقفًا يتميز بالانفتاح والتواضع.

إن المؤيدين المتعصبين للتنوع، يجب عليهم بالتأكيد أن يدركوا أن شيئًا مَا قد تغير دون رجعة، فكل ثقافة يجب أن تستسلم للتغير أمام القوى الروحية والمادية الجديدة التي تسري في كوكبنا، ويمكنها فقط أن تستهدف التأثير في هذه العمليّة بصورة ستترك علاقة بارزة وبشكل يعطي الحياة لتنوُّع من نوع جديد، لاَ يتعارض هذا التنوُّع مع العولمة الكونية، ولكنه يستمد منها.

أما مؤيدو «النموذج الفريد للعولمة» فيجب عليهم بدورهم أن يكونوا مستعدين للانصهار الثقافيّ، ويجب عليهم أن يقبلوا فكرة أن نموذج ليس هو الكامل النهائي، وأنه لاَ يوجد طريق وحيد للتقدم، كما أنه لاَ يوجد طريق وحيد للحقيقة.

ولكن فقط عندما يعرف التوسُّع التكنولوجي كيف يستخلص الثمرة من اتصاله مع الواقع المحلي الذي يصادفه في طريقه، وعندما يستطيع التقدُّم التكنولوجي أن يدخل في مقارنة تعددية، تأخذ بعين الاعتبار الخيارات المتعددة، عندئذ لن يتم تشبيه الحداثة بثقافة خاصّة سائدة منقرضة، مثل عمليّة التحضير الأخير المقرونة بالقوّة، ولكن سيكون التجديد (الحداثة)، فهذه نوعية عالمية، تستطيع أن تحوى في طياتها سواء التعبير أو الاستمرار على قدم المساواة، وتستطيع أن تغير العالم دون أن تفقده هويته.

«لاَ توجد، ولن توجد أبدًا –هكذا يؤكد كلود ليفي شتراوس Claude Levy-Strauss– حضارة عالمية بالمعنى المطلق الذي يُستخدم اللفظ لأجله، لأن الحضارة تظهر وتبرز في الواقع، ويمكن في مزيج من الثقافات التي تحتوى على أكبر من التنوُّع. إن حضارة عالمية تمثل في تحليل أخير لاَ أكثر من ائتلاف ثقافات ذات إبعاد عالمية، كل ثقافة منها لها هويتها الأصلية»[1].

---

[1] في، اختلافنا الخلاق، تقرير اللجنة العالمية حول الثقافة والتنمية، ايجوبريم ١٩٩٥.

الفصل السابع عشر

اللاتسامح العرقيّ

«لماذا تقتلوني مستغلين تفوقكم؟ فأنا لست مسلحًا. كيف؟! ألا تسكنون على الضفة الأخرى للنهر؟ صديقي، لو أنكم كنتم تسكنون ضفتنا، فأنا قاتل، وسيكون من الظلم قتلكم بهذه الطريقة، ولكن لأنكم تسكنون على الشاطئ الآخر، فأنا شجاع، وكل مَا أفعله عادل».

بليز باسكال Blaise Pascal

[في أحد مقاهي المقاطعة - واحد، لاَ أحد، ومئة ألف- عِرْقيّة وأمة- القومية المتعصبة والانحياز إلى العِرْقيّة - السلم العِرْقِيّ - التطهير العِرْقِيّ.]

في أحد مقاهي المقاطعة

فلنتخيل ذلك المقهى الذي كان يوجد بميدان مدينة مَا بالمقاطعة الإيطاليّة (في الشمال، أو في الجنوب، ويمكن أن تكون بلجيكية، أو إسبانية، أو ألمانيّة). ثلاثة أصدقاء يتمتعون بقضاء يوم جميل، جالسين إلى منضدة حديدية على الأرضية الرخامية بالمقهى القديم في مواجهة الكاتدرائية، هؤلاء الأصدقاء الثلاثة ليسوا شبابا، وليسوا شيوخا، لاَ هم بالفقراء، ولا هم بالأغنياء، فهؤلاء السادة الثلاثة لهم مظهر البرجوازيين التقليديين، لا أدرى، أحدهما مهندس إنشائي، والثاني تاجر، والثالث موظف بمجلس البلدية، وكانوا يتناقشون حول موضوع الساعة،وهو القانون الجديد لتقنين الهجرة غير الشرعية. فقال أكثرهم شبابا ذو المظهر البوهيمي في نهاية حديث قد بدأ: «في الواقع، هؤلاء القادمون من خارج الاتحاد الأوربيّ يساعدوننا على الخروج من عزلتنا، والتخلي عن الانغلاق. فأنا على سبيل المثال لم أسافر قط إلى الخارج، ولا أهتم بالأشياء الغريبة. وقبل أن تصل هنا عندنا تلك العائلة التونسية التي فتحت هذا المطعم، واسمه، عموما أنتم تعرفونه،

هناك بعد التقاطع... لم أكن قط قد ذقت الكوسكوس، ولكن لم أكن أعرف عنه شيئا. وهناك كذلك أشياء كثيرة أخرى أود أن أكتشفها. فأين تضعون إذن الصلوات التي يؤدّيها العمال بموقع برنوتسي في كل الأيام المقدسة (من أين هم؟ سنغاليون، موريتانيون؟ من يدري؟)، يا لها من قوة! ويا لها من طاقة! أسمعت أنهم يصلّون خمس مرات في اليوم في الصباح، وبعد الظهر، وفي المساء... وإذا مَا فاتتهم صلاة، يقضونها بعد ذلك. أما نحن فنذهب فقط إلى القدّاس في عيد الميلاد، ومع ذلك، عجبا! فقد تركوا فيّ أثرًا، وتولدت لديّ الرغبة في أن أوثق معلوماتي عنهم.

ولم أكن أعرف قبل حرب العراق أن بين المسلمين سُنّة وشيعة. مثل الاختلاف عندنا بين الكاثوليكي والبروتستانتي، ولقد بدأت كذلك في قراءة كتاب في الشعر العربي، جارٍ طباعته الآن في طبعة اقتصادية. هو بالتأكيد ليس كشعرنا، ولكن يبدو لي أنه شعر يستحق – مثل موسيقاهم – على الرغم من أنه يجدر الاستماع إليها. وتلك المغنية الجزائرية التي لاَ أذكر اسمها– قنبلة.

ثم صمت برهة شارد الذهن، ثم واصل حديثه: خلاصة القول أن وجود هؤلاء الناس الذين يختلفون عنا، يمكن أن يقدم مكاسب للجميع، كما حدث كذلك في الماضي. ولا يجب أن ننسى في هذا الخصوص مهاجرينا، الذين خرجوا خارج الحدود. وكان يجب عليهم أن يغيروا أسماءهم ليذوبوا في المجتمعات الجديدة بصورة أفضل، ومع ذلك تركوا أثرا أينما كانوا، وها أنا ذا».

فقاطعه بنبرة عدوانية حادة أكبر الثلاثة سنًّا، وكان ممتلئ الجسم، ولونه يدل على تعاطيه الخمر بكثرة، وحرك سيجارته التي لم يكُن أشعلها بعد كما لو كانت عصا قائد أوركسترا: «ولكن من فضلك يا جان لوقا! هل يبدو لك كما تقولون أنتم يا دعاة المحبة والتعايش «إثراءً ثقافيًا» ذلك الطعام الماسخ المسمَّى بالكوسكوس؟ إنه يشبِه شوربة الرَّدّة (نخالة الدقيق)، التي كانوا يقدمونها لنا في المدرسة الابتدائية، والتي لم يكُن يقوى أحد على أخذ ملعقتين منها! وهم يأكلونه كذلك باللبن المتخثر (الرائب). يا له من قرف جميل!

ويرفع صوته أكثر، وفي غمرة انفعاله كاد يسقط الكوب: إننا نفقد هويتنا الأصلية، ولا نتخلى عن الانغلاق كما تزعم! نحن نضيع!

بوسعنا أنْ نذهب لنتذوق بهدوءٍ، الأطباق الغربيّة أو الصينيّة في بلادها، خصوصا وأن الرحلة لاَ تتكلف كثيرًا.

لو استمر الأمر هكذا عزيزي المواطن العالمي المثقف الذي لم تسافر فهل تعرف النهاية؟ قل له أنت أيضا يا جوزيف، أرجوك! سينتهي الأمر، مع وجود هؤلاء الأجانب، بأن نلقي بتراثنا الجميل إلى الجحيم، ليس فقط المطبخ -وهو مهم إلى حدّ معين- ولكن كل تراثنا الجميل الذي تركه لنا أجدادنا، وأجداد أجدادنا، والذي يعطي مدننا رونقها الحالي. ثم في ختام الأمر نتجرأ على أن نقول ذلك، على الأقل في مَا بيننا هنا، يا للهول! مَا شأني بأن أعرف أكثر عن محمد؟ أليس من الأفضل أن نهتم بأشياء أخرى؟ إننا نخاطر أيضًا بأن ننسى ذلك النزر اليسير من التعاليم الدِّينيّة المسيحيّة التي تعلمناها. الأشياء الغريبّة؟ ويحي... إن الروايات الأجنبية نقرؤها بتذوق، من ينكر ذلك؟ ومن لاَ يروقه أن يحلم ببلاد وأناس بعيدين وغرباء؟ ولكن إذا كانوا بعيدين عنا بمسافة معينة، لاَ على ناصية بيوتنا. كان من السهل أن نهيم بأشياء غريبة، ونحلم أحلامًا رومانسية، عندما لاَ يكون هناك مخاطرة بشيء. فأسرار الغابة السوداء... أكاذيب! أكاذيب جميلة وحلوة. وحتى سالجاري لم يبرح بيته، ولم ير القراصنة، ولا حتى ماليزيا على الخريطة.

وتوقف هذا الرجل ذو البطن عن الكلام ليفرغ في جوفه مَا تبقى في كوبه من النبيذ الأبيض. وأشعل السيجارة أخيرًا، وأخرج ملء فيه من الدخان مرتين، ثم واصل حديثه: ولكن هل نريد مساعدة هؤلاء الناس حقيقة؟ هل نريد حقًا مد يد العون إليهم، ولا نقدم إليهم الإحسان فقط؟ فلنساعدهم على المكث في بلادهم، حيث يمكنهم أن يكونوا سعداء. إثراء ثقافيّ؟ أي إثراء ثقافيّ هذا؟! إنه تلوث ثقافيّ ليس أكثر يا أصدقائي، تلوث لاَ يقل تقريبًا عن تلوث أكسيد الكربون. إنه غزو غوغائي، أو هو ليس فقط توافد هلاهيل (قطع قماش)، بل توافد مفاهيم غريبة، ولنقل أيضًا، بدائيّة، إلى عالمنا. واعجباه! هل نريد قول ذلك بصراحة ووضوح أم لاَ؟ إن عالمنا الصغير بأهل المقاطعة، له طبيعة حياة نفخر ونزهو بها، ولا نستبدل أي نوعية حياة أخرى على ظهر الأرض بها. هل ترك مهاجرونا أثرًا؟ أتحدى. إن المهاجرين الأوربيّين كانوا يأتون من مناطق ذات ثقافة امتدت آلاف السنين، وهاجروا لتنمية أراضٍ كانت بكرًا. ففي أستراليا والبرازيل أقام الإيطاليون والألمان شركات زراعية، ومصانع رائدة. ولكن ماذا عند أولئك «الباعة الجائلين» ليعلموه لنا؟ طهي الموز؟

ويسقط رماد السيجارة من شدة الانفعال على قميصه، ويأخذ نفسًا طويلاً من السيجارة: يجب أن يكون لدينا الشجاعة أعزائي لنوقفهم على الحدود، ونعيدهم جميعًا إلى بلادهم، وذلك لمصلحتهم. لأن كل هؤلاء البؤساء، وأقول لكم الحقيقة، لاَ يكسبون حتى ذاتهم، عندما يجدون أنفسهم وقد تَمّ اقتلاعهم من جذورهم، وقُذف بهم في أرض غريبة، بدلا من أن يبذلوا جهودهم لتحسين البيئة التي وُلدوا فيها.

وكان ثالثهم الذي لم يتكلم بعد، يستمع بشيء من الأسف، ويبتسم ابتسامة ساخرة على هجوم صديقه، بينما كان يقرب منه طفاية السجائر. كان يرتدي ملابس أنيقة، وعطره فواح، وحذاؤه يتلألأ. ويبدو أنه كان يهتم بالمظاهر، ويأتي بحركات رجل اجتماعيّ.

وها هو في النهاية يتدخل في الحوار قائلاً: يجب أن أقول عزيزي نيقولا...

وراح يسكب للجميع النبيذ المثلج من القنينة الموضوعة وسط المنضدة مواصلاً: إنك تحدثت بشكل جيد للغاية. فلن أتشعب في موضوعات أخرى، ولن أضيف إلى مَا قلتم مستخدما الألفاظ الرصينة، فمن الناحية النّظريّة يروقني أن أنضم إلى فكرة الإسهام الثقافيّ الذي جاءنا من أصدقائنا الأفارقة، أو الآسيويّين، أو البلقان. وأود أن أقترح -كما فعل جان لوقا- الإثراء المشترك. ولكن إذا نظرنا إلى الجوانب العمليّة من المشكلة، لاَ أستطيع أن أعتبر رأيك صوابًا.

والتفت ناحية جان لوقا: عفوًا جان لوقا، أنا أقول ذلك على مضض، يمكنني بكل سرور الاستغناء عن هذا الالتقاء الذي يدفع إلى مزيد من الانفتاح الذهني. إن هؤلاء الناس يغيرون بسرعة خصائص عالمنا الصغير القديم، لاَ إلى الأفضل بكل تأكيد. وسيكون رائعًا إذا استطعنا أن نختار نحن هذا الإسهام الثقافيّ الخارجي الذي نتغنى به على طريقتنا نحن، بدلاً من أن يداهمنا على حين غرة.

ويتوقف هنيهة ليرتشف رشفة نبيذ، ثم يستأنف حديثه بنبرة من يريد الظهور بمظهر الرجل الحكيم المتعقل: ولكنْ هناك سؤال حرج وحيد: هل نستطيع الاستغناء عن هؤلاء الناس أم لاَ؟ والإجابة نعرفها جميعًا أيها السادة، وهي لاَ. لاَ نستطيع أن نستغني عنهم. أنهم يريحوننا، ويقومون بأعمال لاَ نستطيع نحن ولا أبناؤنا القيام بها، نعم، بالتأكيد لاَ نستطيع أن نستقبلهم ونستوعبهم جميعًا. فالحل لاَ يمكن أن يكون ذلك الخروج أو النزوح غير المحسوب، من الجنوب نحو الشمال. ولذلك علينا أن نقنن هذه التدفقات، وأن نحدد حصتها وضوابطها، وأن نقف المهاجرين غير الشرعيين، وأن نقوم بعمليّة فرز للمهاجرين الجدد، ولنتأكد -كما يفعل الأمريكيّون مثلاً- من أن المهاجرين يستوعبون سريعًا ويتعلمون كل مَا يلزم تعلمه بخصوص طريقتنا في الحياة، وأنهم يفهمون ويتكلمون لغتنا، وأنهم يحترمون قوانين بلدنا. وبعد ذلك -وهذا لصالح الجميع- فلهم أن يصلُّوا بطريقتهم وأن يتكلموا في مَا بينهم كما يريدون، شريطة أن لاَ يسببوا لنا أقل إزعاج ممكن، وأن يربّوا أولادهم على أن يكونوا مواطنين صالحين بالدولة التي تستضيفهم، وأن لاَ يقوموا بشيء من شأنه أن يقوّض نظام حياتنا».

إن مناقشة من هذا النوع في أحد بارات المقاطعة، يمكن أن تستمر لساعات، وأن ينضم إليها متحدثون جدد واراء جديدة. ولكن كل الاراء المتعارضة ستنتهي إلى ثلاثة خطوط عريضة معلومة لدينا، والتي أردت أن أبرزها من خلال المواقف النمطية لهؤلاء الأصدقاء الثلاثة الخياليين بالمقهى القديم: التضامن من ناحية، والرفض من الناحية الأخرى، ورأى بين الرأيين هو التسامُح القائم على المواءمة.

ولحسن الحظ، ففي بلدنا وبلاد أخرى قريبة منا، انحصرت مشكلة اللا تسامح العرقيّ -على خطورتها- في قبول أو عدم قبول المهاجرين الجدد على قدم المساواة المطلقة، وفي الاعتراف أو عدم الاعتراف بإسهامهم الثقافيّ، بيد أنه في أغلب البلاد الأخرى، وبعضها على عتبة بيتنا، اتخذت المشكلة أبعادًا خطيرة، تمثلت في صدام ثقافات مأساوي، ومجازر جماعيّة، واغتصاب، وحرائق، وسلب، وكل الفظائع الدموية التي تفرزها حرب.

واحد، لاَ أحد، ومئة ألف

ولكن إلى أي مدى يختلف عنا هؤلاء «الآخرون»؟ والسؤال هو واحد من تلك الأسئلة (قابلنا منها أسئلة كثيرة في ثنايا هذا الكتاب) التي تضعني في حرج شديد، لأن مجرد طرحه يُعَدّ نوعا من الافتراض. إن الأمر لاَ يتعلق ببحث موضوع الطبيعة البشريّة، لاَ من قريب ولا من بعيد، وهو الموضوع الذي ركز عليه صفوة المفكرين عبر القرون. ومع ذلك لاَ أعرف كم مرة ألَحّ على هذا السؤال في أثناء عملي اليومي في بلاد بعيدة، وأظن أن كثيرين منكم قد ألَحّ عليهم هذا السؤال في مواقف عديدة.

وقد واتتني فرصة فريدة لأعمق هذا الموضوع وأنا موجود في الصين، التي مثلت لي، على الرغم من اعتيادي الأسفار، مزيجًا من ثلاث حقائق بعيدة جدًّا عن عالمنا: واقع الشرق، وواقع الدول النامية، وواقع الاستبداد ماركة ماوتسي تونج.

ففي أعقاب إعادة فتح سفارتنا في بكين بداية السبعينيات، وصلت أول مجموعة صغيرة من المبعوثين الإيطاليين، الذي أتوا لإتقان اللغة الصينيّة. وكانوا شبابا وفتيات يتمتعون بالذكاء والحماس، وقد برعوا الآن كمتخصصين في اللغة الصينيّة، يكتبون أو يعملون لدى شركات تعمل بالتجارة مع الصين. وفي إحدى الأمسيات في منزلي جرى الحوار حول مَا إذا كان الصينيون يمتلكون ذات القدرات العقليّة التي نتمتع بها، وما إذا كانوا يفكرون ويتصرفون مثلنا، أم لاَ.

وكان يبدو لي أننا نتقاسم معهم القدرات الأساسيّة (كما ذكرها كانت) التي تميز كياننا البشريّ، وطريق دخولنا إلى عالم المعرفة، فنحن -بني البشر- بغض النظر عن مكان مولدنا، أو أجدادنا، نريد الوصول إلى فهم العالم من حولنا، نحب، نتألم، نكره، نهتم بمن هم أعزاء علينا، لدينا أحلامنا وتطلعاتنا، ولدينا قيم عليا، ولدينا ضغائن ساذجة. ويتمّ التعبير عن المشاعر والآراء بطرق مختلفة عن التراث والبيئة، وقدرتنا على التواصل، واندماجنا مع الآخرين، في زيادة استعدادنا لفهم قواعد وقيم وقناعات الشخص الآخر. ومع ذلك تظهر في دروب السلوك الإنساني الخافية، بعض النقاط الثابتة، هي نفسها دائمًا: الحب، الحسد، التعطش للسلطة، التي تجعل شكسبير أيضًا معاصرًا لأحد الصينيين، والتي جعلت حكايات لوشون Luxun -على سبيل المثال- تؤثر فيّ مثل حكايات بيرانديللو. فقد أسهمت السنوات الخمس التي قضيتها في هذا البلد، في تقوية مَا أعتبره إحساسا أكثر من قناعة، يقوم لاَ على حيثيات علميّة، بل على الغريزة. إحساس تؤكده التجربة اليوميّة المليئة بالأدلة «الإنسانيّة» الصغيرة، والكبيرة.

كانت أزمنة عصيبة، في آخر مرحلة الثورة الثقافيّة، ثم «مجموعة الأربعة»، عندما وصفت ناتالي نوتومب، وهى الآن واحدة من أشهر الكاتبات باللغة الفرنسيّة، حياتنا بالحي (الجيتو) الدبلوماسي آنذاك في سان لي تون، من خلال إعادة رؤية هذه الحياة بشكل إعجازي، بنفس أعينها عندما كانت طفلة.

كنا نقطن شقتين متجاورتين، وبينما كانت تلعب مع أولادي في فناء التجمع السكني، كنت أنا ووالدها، الذي كان مستشار سفارة بلجيكا، نقضي الساعات الطوال في الحديث عن انطباعاتنا حول القليل الذي نفلح في التقاطه من الواقع المحيط بنا. فقد كانت الصلابة الشرقية تتلاقى مع التعنت الذي يميز نظاما شيوعيًّا راديكاليًّا يتوجس بصفة خاصّة من أي شكل من أشكال «التلوث الفكري»، وقد كنا متبوعين ومراقبين أينما ذهبنا، فلكي نزور المكانين أو الثلاثة أماكن الوحيدة المسموح بزيارتها خارج المدينة (سور الصين العظيم ومقابر مينج)، كان يجب علينا أن نستخرج تصريحًا خاصًّا، وكانت هناك دراجة بخارية تراقب سيارتنا من مسافة. ولقد كان محظورًا على الشعب التعامل مع أي أجنبي أو الاتصال به.

ولقد كان «مكتب الخدمات» المسؤول عن توريد الخدم للدبلوماسيين يرسل إلينا أشخاصًا ينتقيهم بعناية، لاَ على أساس مهارتهم في العمل، بل على أساس ولائهم التامّ للحزب.

ومع ذلك فقد أتيحت لي فرص عديدة للتعارف والودّ مع هؤلاء الناس. فلم يفلح التضييق ولا قهر التفكير الحر، في أن يفل فيهم التعامل الراقي والثقافة المفطورين عليها.

ما زلت أذكر بحب كبير،الطاهي الذي كان يبلغ من العمر سبعين عاما «المستر شي shi» (كما كانوا يسمونه أولئك الذين لا تروقهم قواعد النظام الحاكم، الذي ألغى لقب «السيد»)، فكلَّما كان يتم استعداؤه لحضور اجتماع الحزب المعتاد لمن يخدمون داخل المجمع السكنى، كان يرجوني أن أوقع له أنني أحتاجه معي لإعداد غداء رسمي. فقد كان يذكرني بوالدي، عندما كان يذهب إلى مقر الحزب الفاشي ليبرر غيابه عن الاجتماع، ويأخذني معه ربما ليخفف من تبعات المسألة بلمسة عائلية. وأذكر طبيب العيون بمستشفى «لاَ للإمبريالية»، فقد عالج لي الكلب سرًّا، ولقد تألمت بسببه كثيرًا، لأنه تَمّ نقله على الفور دون أن يستطيع الاتصال بي. وماذا أقول عن المربيتين اللتين قامتا على أمر بيتي، وأسرتي الصغيرة بحب وحنان؟ ولا أنسى واحدًا من المشاهد الصارخة، إذ صرخت طفلتي البالغة من العمر أربع سنوات باللغة الصينيّة: «كفى نقدًا لكونفشيوس! كفى نقدا للين بياو!». قالت ذلك وهى تجلس أمام التلفاز الذي كان ينضح لساعات وساعات بشعارات سياسيّة. وكانت المربيتان تضحكان وتداعبان ابنتي وتقبلانها، ولسان حالهما يقول: «بوركت يا صغيرتي، فإنك تصرخين بما نود أن نصرخ به نحن».

وأذكر كذلك كم كان شغف أستاذي في اللغة الصينيّة بقراءة الكتب «المدمرة» التي كنت أعيرها له: «مزرعة الحيوانات» لجورج أورويل، التي أعادها إلَيَّ وهو خائف، وقد أخرجها من داخل سترته الزرقاء، ومن يدري كم من الأيدي تداولت هذه الرواية! وكم كانت مؤثرة الطريقة المهذبة في التعامل من جانب عدد من أصحاب الحوانيت والحرف، وبالتأكيد لاَ يرجع سبب هذا الظرف إلى المكاسب الهزيلة التي يحصلون عليها من الساسة.

وفي تلك الأزمنة، لم تكُن المساعدة التي نتلقاها في الحي الدبلوماسي كافية، وكان يلزم اللجوء إلى مساعدة خارجية، وكان يجب أن تعلن عن جنسيتك، وتقدَّم لك الخدمات على أساس قواعد صارمة. لإصلاح إطار درَّاجة –على سبيل المثال– يلزم ساعة إذا كنت ألبانيًّا (وألبانيا كانت في ذلك الوقت المثال الناصع للدولة الصغيرة الصديقة التي صوتت لصالح الثورة)، أما إذا كنت إيطاليًّا أو فرنسيًّا فكان يلزم يومان، أما إذا كنت روسيًّا (والروس كانوا الخصوم الكبار آنذاك) فعليك أن تنتظر أسبوعا على الأقل. فعندما كنت أحمل دراجتي لأصلحها بفناء ليس بعيدًا عن الجيتو الذي كنت أقيم فيه، كان أفراد الأسرة ينهضون جميعًا بأدب جم لدى وصولي، ويقطعون إعداد طعام العشاء، وكنت

أصرّح بأنني ألباني، وعلى الفور تقدم لي الخدمة، مع غمزة عين «على طريقة أهل نابولي»، على هذه الكذبة البريئة، ولكنها بالنسبة إليهم لا تخلو من المغامرة.

وماذا نقول عن معنى المزاح؟ إن قول طُرفة لصيني يُعتبر متعة حقيقيّة، لدرجة أنهم كانوا ينفجرون من الضحك. ولقد حكت لي صحفية صديقة، استطاعت بعد مصاعب جمة وبعد حراسة مشددة عليها أن تدخل إلى دار سينما متواضعة كانت تعرض نفس العمل ذي الخلفية السياسيّة، الذي ظهرت فيه فجأة صورة دنج زياو بنج Deng Xiao Ping الذي أُقصِيَ واختفى من مسرح الأحداث، حكت لي أن موجة من السخرية سرت بين الجمهور، وحتى لو كانت تتقن اللغة الصينيّة مَا كان بوسعها أن تلتقط تلك التعليقات التي كان يهمي بها الجمهور بحذر وبصوت خافض، وقالت لي: أقسم أن إحساسهم كان تقريبًا مثل «آريكو الصغير Ariecco» (المهرج الصغير).

ويبدو لي على أي حال إمكانيّة إقامة علاقة مع نوع من «الأجانب»، وإن كان من الممكن الشعور بإحساس مماثل من التشابه في مواقف لاَ تشجع كثيرًا على التواصل الإنساني، فأعتقد أن هناك شواهد أقوى يمكن أن يقدمها لك كل أولئك -ومنهم بعض زملائي- الذين تزوجوا بصينيات، أو الصينيون الكثر الذين يعملون بإيطاليا، وأتقنوا اللغة الإيطاليّة. ولكني أدركت أني منعزل تمامًا على موقفي. فكل الآخرين -وكان هناك أيضًا بعض الزملاء، ومترجم السفارة الذي كان قد عمل بتدريس الفلسفة بجامعة هونج كونج- كانوا مقتنعين أن للصينيين قدرات ذهنية تعمل بطريقة مختلفة تمامًا عن طريقتنا. فقد قال السكرتير الأول للسفارة، الذي أصبح بعد سنوات سفيرًا لإيطاليا في هذا البلد: «كيف تفكر أن يكون لك علاقة كاملة مع أناس يعملون تمامًا عكس مَا نقوم به، أناس يعتقدون أن الكذب أكثر أدبًا من أن ترفض، أناس يضحكون خصوصًا إذا كانوا في مأزق، ويزيلون قشر التفاح من اليسار إلى اليمين، ويشعلون الثقاب من أسفل إلى أعلى؟».

إن أفكارنا من الواضح أنها كانت تسير في خطين متوازيين دون أن تتلاقى، ففي رأي ضيوفي أن الصينيين، وشعوبًا أخرى ذات ثقافات مثيلة، يمتلكون منظومة مفاهيم وإدراكات تختلف عن منظومتنا، وهذا أمر يصرون على تأكيده. الارتياح والحب يمكن أن يبنيا جسرًا بشكل استثنائي، ولكنه جسر هش لاَ يدوم طويلاً، ويظل دائمًا إعجازيًّا واستثنائيًّا. أما أنا، فرغم قناعتي بأن نماذجنا الميتافيزيقيّة وموضوعاتنا لاَ تبدو متطابقة مع منظومات التفكير الشرقية (وقد تكلمت في الفصل الثالث عن بعدين مختلفين)، فقد كنت أظن أن رؤية تأخذ في عين الاعتبار الكيان الإنساني في مُجمَله، وتقّدر بالتالي المجال العقليّ والسلوكي بطريقة غير منعزلة ولكن بالتوازي مع المجال العِرْقيّ ومجال المشاعر- يمكن أن تكون نقطة التقاء مشتركة لا يكون نتيجتها لاَ تجنب التنافر الكامل

فحسب، بل يمكن أن تمثل نقطة ارتكاز لحوار دائم. والموضوع في رأيي عموما لا يغلق أبدًا. ولكن بعد ذلك عدت أسأل نفسي مرات كثيرة: هل يوجد نقطة التقاء دنيا مشتركة بين جميع البشر، يمكن أن تعظم الاختلافات العرقيّة والثقافيّة؟ أو: هل يمثل كل تجمع بشري كبير عالما في ذاته مختلفا ومنفصلاً عن كل العوالم الأخرى؟ ولماذا تختلف شعوب الأرض فيما بينها هكذا «وفي أي شيء؟»؟ وهل الخصائص التي تميز بعضهم عن بعض سطحية فقط، كطريقة الملبس والأكل، أم تعكس خصائص طبائعهم؟ ولماذا هناك شعوب غنية وقوية، وشعوب أخرى فقيرة ومتخلفة؟

وقد كرس صفوة الخبراء في فروع المعرفة أنفسهم للرد على هذه الأسئلة، وغيرها، وعلى الرغم من أنه تَمّ نشر أعمال تركت صدًى كبيرًا، ويمكن أن نعتبرها علامات فاصلة في معرفة النوع الإنساني، إلا أننا لم نفلح في إيجاد إجابات شافية تمامًا، لأنه في أصل هذه الأسئلة يوجد مباشرة سر تقدُّم الإنسانيّة، وسر ازدهار وأفول نجم الحضارات، وثراء الأمم، وهو واحد من الأسرار الكثيرة الكبيرة في الحياة. ففي أوليات القرن الماضي، وفي كتابه الشهير «غروب شمس الغرب»، قدم أوزوالد شبيجلر قراءات تاريخيّة عبقرية للمستقبل، ونظريّة رائعة حول قانون الطبيعيّة الافتراضي، الذي ينظم ميلاد وتطور... وغروب الحضارات، دون أن يعطي شرحًا حقيقيًّا حول هذا القانون. ويتسع النقاش أكثر حول مَا إذا كانت طبائع شعب مَا، مثل طبائع الفرد، فطرية أو مكتسبة، وإذا مَا كانت القدرات والمواهب وراثيّة أو لاَ. وتلعب البيئة دورًا محدَّدًا بكل تأكيد. ولكن لماذا لم تتطور الحضارات الموازية لحضارات وادي النيل، ووادي دجلة والفرات، وفي أودية نهر الأردن ونهر الراين الكبير Rio Grande؟ ولماذا لم يكن لحضارة جبال الإنديز «الدوبلير» أو النظير الإفريقيّ على مرتفعات كينيا[1]؟

إن القوالب النمطية والأحكام المسبقة، هي -بلا شك- أسوأ مصدر لسوء الفهم واللا تسامح، على الرغم من أن هناك قوالب نمطية تؤثر في الإنسان كثيرًا. إن القول بأن الإيطاليين مهندسون معماريون مهرة، والاسكتلنديون رواد العلوم الطبية، والألمان عسكريون عظماء، والأيرلنديون ساسة أذكياء (دهاة سياسيّون)، يبدو أنه يتأكد كلّما اتسعت وجهة النظر عبر الزمان والمكان، فالروس لاَ يزالون يخشون بعث العسكرية الألمانيّة من جديد، ويُعتقد أن هذا الخوف عموما هو انعكاس للحرب العالمية الثانية، غير أن هذا الشعور بالخوف تاريخه طويل، حيث يرجع إلى مَا قبل ألكسندر نفسكي. فقد كانت الأقلّيّة الألمانيّة نحو واحد في المئة من سكان روسيا، تزوِّد القيادة العليا الروسية في عهد روسيا القيصرية بأربعين في المئة من الكوادر، مثلما كان هناك قادة جرمان

[1] أنظر ارنولد ج. توينبيه، حضارات في مقارنة، بومبياني، ميلانو ١٩٤٩، صـ١٤-١٦

بارزون في القيادة العليا للجيوش الرومانية[1]. وقد نشأت بعض الملامح الثقافية التي تمّ نقلها من جيل إلى جيل. وقد قال لي أستاذ بجامعة أثينا إن عادة اليونانيين في رفع الذقن عند قولهم «لا»، قد نجد لها توثيقا في قصائد هوميروس.

ومن جانب آخر، من المعلوم أن مسيرة الإنسان التصاعدية هي نتاج التقاء واندماج مستمرّين للثقافات، ولا يوجد معمل يمكن أن نراقب ونعيش من خلاله «مردود» ثقافة واحدة منعزلة عن كل الثقافات الأخرى، ونغفل التفاعلات والتلاقي والتبادل المشترك (التأثير والتأثر).

إن الإغراء بالانطلاق من خصائص خارجية مثل لون البشرة، أو طريقة التزيُّن، لنصل إلى المعالم الأخلاقيّة والقدرات الذهنية، كان دائمًا قويًّا. وهنا يبدو أن القوالب النمطية ستنتصر، وأن قلة ترى أن هناك حاجة إلى التدقيق بصرامة وموضوعيّة في المعلومات المتاحة لدينا، لكي نقرر إذا مَا كانت الاختلافات التي ننسبها إلى المجتمع الغريب عنا –خصوصا تلك التي تثير قلقنا– حقيقيّة أم خيالية. ولكي أؤكد على صعوبة اقتلاع جذور بعض الأحكام المسبقة، نتأمل قولاً شائعا كهذا: «إن الاسكتلنديين هم مضرب المثل في الشحِّ». «ولكن يجب أن تعترف أن السيد ماك جريجور هو أكثر مَن قابلناهم سخاءً وكرما»، «هذا يعنى أنه ليس اسكتلنديا حقيقيًّا».

ولا يكون عندنا غالبًا أفكار واضحة حتى عن الموقع التاريخي والجغرافي للمجتمع الذي نستهدفه في الحديث. نتحدث بعمق –على سبيل المثال– عن مزايا وعيوب «الهنود» أو «البرازيليين» كما كنا خبراء بهذه المجتمعات، دون أن ندرك صعوبة التجانس الثقافيّ والفيزيقي لسكان أشباه القارات المترامية الأطراف تلك. وقد صار من الموضة اليوم وضع بادج «عِرْق» مكان بادج «عنصر»، وهذا غير صحيح من الناحية السياسيّة، حيث كان لها في وقت مَا ملامح اجتماعيّة أكثر منها بيولوجيّة، وكان يتم تطبيقها بسلاسة وسهولة دون تمييز كبير («العنصر الإيطالي» «الألماني»؟ يا له من عنصر رائع! وهكذا). فكلمة «عرقي» عندنا، ليس لها بَعْدُ أحكامٌ مُطلَقة غير قابلة للنقاش. «الخدم الفلبينيون؟ عفوًا، إنهم لا يؤتمنون وخائنون، وطماعون؟ والبيروفيون (مواطنو بيرو) أفضل منهم»، «المغاربة؟ عدم الثقة بهم أفضل!»، «الألبان؟ كلهم لصوص». وموقف كهذا لا يقتصر فقط على «السادة» تجاه الوافدين الجدد، بل تتسع دائرته لتشمل من هم «من نفس العِرْقيّة»، ولقد ذهبتُ لأودِّع صديقًا لي قبل سفره، ووجدت زوجته تسأل خادمتها، وهى من مولدافيا، إذا كانت تعرف اثنين من الشباب لمساعدتها في نقل أثاث المنزل، وأضافت: «ولكن أوصيك أن يكونا أهل ثقة».

---

[1] توماس سول، سباق وثقافة race and culture، مرجع سابق، صـ٣

فأجابت الخادمة على الفور: «لا تقلقي سيدتي، فمواطنو مولدافيا لا يسرقون، إنما مواطنو رومانيا هم من يفعلون ذلك».

عِرْقيّة وأُمّة

إن «اللا تسامح العِرْقيّ» هو موضوع الساعة، خصوصًا على صعيد العلاقات الخارجية، ويبدو أننا اكتشفناه فقط في السنوات الأخيرة، وسنتحدث عنه كظاهرة مميزة لتاريخنا المعاصر. إنه يتعلق في الواقع بمظهر آخر من المظاهر الغامضة والخافية في العلاقات الإنسانيّة الموجودة دائمًا التي أثرت فيها المدينة -كما نعرف- ليس فقط من حيث طريقة المشاهدة والتعامل مع الطبيعة، ولكن من حيث مشاهدة العلاقات الاجتماعيّة وإدارتها. وقد أعطى اللا تسامح العِرْقيّ للأمر أبعادًا جديدة تمامًا، كما أوجد لفظين لم يكونا معروفين قبل ذلك قط: «التسامُح» و«العنصريّة»، وأعطى دلالات جيدة لمفردات أخرى مثل «ديمقراطيّة» و«مساواة»، اللتين كان لهما قبل ذلك معانٍ مختلفة، كما أعاد صياغة كلمتين كان لهما معنى محايد قبل ذلك: «عِرْقيّة» و«أمـة»، فأصبحتا ذواتَي دلالات مقدسة، ومن أجلهما يمكن أن نَقتل أو نُقتل، ونقترف أفظع الأفعال.

وكلمتا «عِرْقيّة» و«أمة» كانتا في الأصل نفس الكلمة في لغتين مختلفتين، ومن ثم كانت تحلّ إحداهما محل الأخرى. فالكلمة اليونانية «ta ethna» (العِرْقيّة) كانت تشير عبر قرونٍ إلى البشر الكثيرين الذين كانوا يشكِّلون قديما التجمعات السياسيّة الكبيرة في هذا الجزء من عالمنا.

وكانت هذه الكلمة تترجم في اللاتينية على «Gentes» (ولذلك يعتبر اليهود الآخرين بالنسبة إليهم «أمميين» «Gentili»)، وقد كانت المشكلة الأولى التي واجهت الإمبراطورية الرومانية، كما واجهت إمبراطورية بابل أو فارس التي مثلت تحدّيًا كبيرًا للحكام، هي كيفية تحقيق التعايش السلمي بين شعوب متنوعة -العِرْقيّات أو الأمم- تفرق بينها اختلافات كثيرة، ومن المقطوع به أن هذه الشعوب لم يحبّ بعضها بعضًا، فظروف الوجود تحت حكم واحد، والخضوع لنفس القوانين -إما بسبب التعايش، وإما في أعقاب هزائم عسكرية- لم تقتلع ولو قليلاً من تلك المشاعر المتوارثة عن الأجداد التي وصفناها حتى الآن، والتي على أساسها كل «أناس» يعتبرون القريبين منهم ولو على مسافة بضعة كيلومترات، أدنى منزلة، وحبَّذا لو تَمّ اجتنابهم، أو أنهم ليسوا كاملي الإنسانيّة. إن فقرة باسكال التي استشهدتُ بها في بداية الفصل لم تكن آنذاك مجازًا، بل كانت واقعًا يوميًّا.

إن كلمة «خصم» تأتى من اللاتينية «Rivales»، أي ذلك الذي يسكن الضفة الأخرى للنهر.

ومن بين الوثائق التي جاءتنا حول هذه الأزمان البعيدة، ومألوفة لدينا، الأناجيل، التي تعطينا فكرة جيّدة عن الوضع الذي كان يفترض أن يكون موجودًا في واحد من المقاطعات النائية من الإمبراطورية الرومانية. فعلى تلك الرقعة البسيطة من الأرض، فلسطين، التي كان يحكمها الرومان، كان اليهوديّ يعتبر التواصل مع «السامرائيين» فضيحة وعارًا، حتى ولو كانوا على مسافة بضعة كيلومترات، لدرجة أن العهد القديم لاَ يتردد في وصف من يعيشون في نابلس sichem بـ«الشعب الضالّ» (Siracide 5., 25, 26).

وتسأل السامرية التي يلقاها المسيح عند البئر: «كيف تطلب منى أن تشرب، وأنت يهوديّ وأنا امرأة سامرية؟ لأن اليهود لاَ يعاملون السامريين» (إنجيل يوحنا، الإصحاح الرابع).

وكانت مواقف شبيهة من عدم التلاقي والتواصل بين الناس موجودة في أقاليم أخرى من الإمبراطورية الرومانية، وفي إمبراطوريات أخرى.

وعلى الرغم من ذلك لم تكُن هناك مشكلة «عِرْقيّة» حقيقيّة، بالمعنى الذي نفهمه اليوم. كما لم يكُن هناك إعلاء لمفهوم حق كل فرد على المستوى الجماعي، وكذلك لم يكن مفهومُ حقّ كل هوية ثقافيّة على حدة موجودًا. فقد كان وجود هذه الاختلافات البارزة بين المكوِّنات ذات الوحدة السياسيّة أمرًا عاديًّا لاَ يتطلب صياغات نَظريّة كثيرة. فالموضوع كان يتم التعامل معه بطريقة براجماتية، وبشيء من التسامُح، مع محاولة إيجاد الحد الأدنى من الاندماج والتلاقي حول بعض الثوابت والقواسم المشتركة، مثل احترام القوانين، واحترام السلطات الإمبراطورية، ودفع الضرائب، فضلاً عن تحقيق لاَ مركزية واسعة، وكذلك مع ترك حرية إتباع الأعراف والتقاليد لكل «عِرْقيّة». ولقد حدثت في تلك الحقبة مجازر أو إبعاد جماعي لشعوب بكاملها في حالة التمرُّد. ومع ذلك فقد ساد التوازن لحقب طويلة، على أساس براجماتي صرف للتفاعل المشترك بين السلطة المركزية والأماكن والأقاليم النائية (الحدودية)، ولقد كان أعظم إنجازات الإمبراطوريات الكبرى الفسيفسائية (التي تتكون من مزيج من البشر)، هو القدرة على التوفيق والوساطة بين «المختلفين»، وعلى حفظ السلام، ومنع وصول العداوات بين المجموعات إلى حدّ النزاعات المفتوحة.

وفي مطلع مَا نسميِّه بالعصر الحديث، صار الشعور العِرْقيّ يتسم بالغموض واللبس، بسبب اختلاطه بالعنصر الدينيّ. إن أول مثال على «التطهير العِرْقيّ» نجده في عام ١٤٩٢م على وجه التحديد، وهو نفس تاريخ اكتشاف أمريكا، الذي يعتبره كثير من

المؤرخين بداية العصر الحديث. ففي تلك السنة لم يكن هدف ممولي مغامرة كولومبوس وهما حاكما إسبانيا الكاثوليكيان فرديناند وايزابيلا، وكانا على رأس القوّة العظمى المسيطرة انذاك - هو مجرد إرسال سفن راهنا على نجاحها.

ولكن مشروعهما الرئيسيّ كان تتويج توحيد المملكة الذي تمّ بزواجهما، من خلال إعادة فتح «Riconquista» وتحرير كل التراب الإسباني، ثم «إعادة تطهيره» من العرب الذين كانوا يعيشون عليه، وكذلك من اليهود.

وظهر جليًّا معيار الاندماج الثقافيّ، ولكن العملية كانت تتم - كما رأينا - تحت شعار الصليب، وكان بطلها محكمة التفتيش المقدسة وبعد قرنين حدثت حروب دموية للاندماج، شهدت فظائع مؤلمة، وكان يُنظَر إليها كحروب دينيّة.

وفي نفس الوقت، وعلى صعيد العلم، أدّى الحماس الجديد للدراسة والتحليل والتصنيف الجديد، ليس فقط للأنواع البيولوجيّة، ولكن للمجتمعات البشريّة كذلك، إلى قلب مفهوم «عرْقيّة» رأسًا على عقب، فأصبح يعنى الوحدة المميزة للعائلة الإنسانيّة الكبيرة، بدلاً من القبيلة، الأمر الذي دعم بصورة ملموسة المفهوم العلميّ الآخر الذي ثبّت أقدامه آنذاك، وهو المفهوم الأنثروبولوجيّ «للثقافة»، وقد نشأ فرعان جديدان للأنثروبولوجيّ هما علم الإثنولوجي[1]، وعلم الإتنوجرافي[2].

ومن هذا الملمح الموضوعي، نشأ مفهوم كان يوجد أصلاً في العصور القديمة (فقد ذكرت في الفصل التاسع الـ«Theoi Etnarchoi» المقربين من الإمبراطور جوليانوس)، وكان له حظ كبير من خلال سيادة المُثل العُلْيا الرومانية في الحياة العامّة. فإذا كانت الثقافة تمثل روح الناس، فإن العرْقيّة تمثل الجسد، وكل منهما يتأثر بالآخر، ويسهمان في إعطاء الهوية للناس أنفسهم، بدءًا من اللغة، وحتى الذاكرة التاريخيّة[٣].

أما كلمة «أمة» فقد تَمّتْ إعادة صياغتها تقريبًا في هذه الفترة لتغطي واقعًا أكثر اتساعًا، وهو «الروح الثقافيّة» للدول المستقلة حديثًا، التي أُطلِقَ عليها دول «قوميّة»، وأطلق على المجتمع الذي يتكون فيها «دوليّ». وعرْقيّة وأمة لا يتعارضان مطلقًا، بل هما متشابهان. فالأمة كانت فقط إطار الهوية الأكثر ثراءً من مجموع المكوّنات الثقافيّة المتنوعة البسيطة، بإضافة شيء بالنسبة إلى العِرْقِيّة، لكنه من نفس طبيعتها.

---

[1] هو علم دراسة الأجناس البشرية، وخصائصها، وعلاقتها الاجتماعية (المترجم).

[2] هو فرع من الإثنولوجى يعنى بوصف شعوب الأرض، وتقاليدهم الثقافية، والإجتماعية (المترجم).

[3] جدير بالذكر ان كلمة «عرقى» تمّ استخدامها للمرة الأولى بهذا المعنى عام ١٨٨٦ على يد فاشيردى لابوج V. de Lapouge فى كتابة «المجموعات الاجتماعية «les selections sociales».

فلا شيء يمنع أن تتكون دولة أمة من عرقيات متعددة، كالدول الإمبراطورية في العالم القديم، وفي العصور الوسطى. ولقد كانت دول جديدة كثيرة متعددة الأعراق في واقع الأمر.

فالقوميّة والعِرْقِيّة كانا مع ذلك ودائما مفهومَين، فيهما الكثير من المرونة، داخل حدود متغيرة. ولا يدهشنا أن ينتهي الأمر على أرض الواقع إلى الصدام بين عِرْقِيّة وأُمّة، إذا مَا وضعنا في الاعتبار الشحنة العاطفية، والمنافسة والصراع الذي يميز -كما شاهدنا- العلاقات بين المجتمعات. فهل يمكن أن تعيش أكثر من روح في جسد واحد، أو تعيش روح واحدة في أكثر من جسد؟

إن العرقيات الصغرى الموجودة داخل دولة ما، لا تقنع بوضع ثانوي، بل تطمح إلى أن ترتفع إلى درجة دولة، أمة في ذاتها، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن العرقية القوية تطمح إلى أن تكون هي الروح القومية الوحيدة، دون منازع.

وفي نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، كانت الفكرة القومية لدى اليعقوبيين والرومانسيين الأوائل ممزوجة ببعد عالَميّ وتضامني. ويرى يوهان جوتفريد فون هردر Johann Gottfried von Herder أن كل الأمم يجب أن تُسهِم في النفع العامّ، وتطور على قدم المساواة لغاتها وثقافاتها. ولكن في نهاية القرن التاسع عشر بدأت الأمور تتغير إلى النقيض، فالأمة تتزود باستمرار بمفاهيم فلسفية، ووجدانية، إلى أن تصبح شيئًا يتجاوز الصيغة السياسية والقضائية: إنها فكرة، قوة غنية تقريبًا بإسقاطات دينية لها قدسيتها.

القومية المتعصبة والانحياز إلى العرقية

متى بدأ يبرز "مبدأ الجنسية" كمبدأ نظام، وبدأت تترسخ إيديولوجية متفجرة أطلق عليها "النزعة القومية"؟ يبدو أن السيدة دو شتال de stael هي أول من استخدم هذه الكلمة عام ١٨١٠. ولكن ما فائدة أن يحدِّد المؤرخون أم لا تاريخ ميلاد الكلمة؟ إن تغيير معنى كلمة أمَّة إلى معنى عدواني هو ظاهرة حديثة: حدث ذلك تقريبًا بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين، مع تنامي النزعات لضمِّ الأجزاء المتفرقة إلى الوطن الأم، التي أدَّت إلى انفجار بقايا موزاييك الإمبراطوريات من الداخل، ومع التوسع الاستعماري.

إن القومية تعني في المقام الأول رفع الدولة-الأُمَّة فوق كل الدول الأخرى. والأناشيد الوطنية في كثير من بلاد العالم هي على الأكثر مارشات عسكرية تتغنى بتفرُّد الوطن، وبالتضحية، وبالمجد، وبدماء الشهداء، حول هذه الفكرة. فالنشيد الوطني الألماني يبدأ بالجملة الشهيرة "ألمانيا فوق كل شيء". ونشيدنا الوطني يدعو النصر إلى يطأطئ

الرأس لإيطاليا، لأن الله خلقه "عبدًا لروما"، والنشيد البرتغالي يحتوى على النداء: "إلى السلاح، إلى السلاح، فوق الأرض، وفوق البحر، إلى السلاح، إلى السلاح، قاتلوا من أجل الوطن...". والنشيد الوطني البلجيكي يبدأ هكذا: "أقسم بالدم الذي يسيل من أجلك يا وطني..."، والنشيد الجزائري أيضا: "أقسم أن أموت حتى تعيش الجزائر...". ويمكن أن نستمر في ذكر أمثلة منتقاة بصورة عشوائية. ويَعتبر الميثاق القوميُّ كلمتَي "الوطن" و"الأمة" مترادفتين. ولذلك فالوطن ليس ببساطة هو المكان الحبيب الذي نولَد فيه، والموطن الأمُّ للسلالة، ولكن الوطن هو ملاذ "الروح" الذي يعرف كل شعب كيف يمتلكه، والذي يجب أن يزرعه، ويقسم له بالولاء غير المشروط. والشعب القوميُّ يعتقد أنه صاحب مهمة نشر الحضارة، بينما يعتبر الشعب الأضعف واجبه هو التحرر من الخضوع لقوة أخرى من خلال عدم الاعتراف بها، ومحاربتها دون هوادة. وتتقاطع القومية مع الإمبريالية، ومع الاستعمار. وهناك تحذيرات من هذا الخلط المشوّه وغير المنطقي بين الوطنية، والقومية. فغاندي -على سبيل المثال- على الرغم من نضاله ليجعل من الهند أُمَّة مستقلَّة، كان يتحدى الغوغائية، ويستقي من المُثُل العُليا للرومانسيين العالميين، بهذه الكلمات الشجاعة:

"إن وطنيتي ليست إقصائية، بل تحتوى الجميع. وإني لأرفض تلك الوطنية التي تحاول إثبات نفسها على حساب بؤس الأمم الأخرى... لا أريد الحرية للهند إذا كانت تعني فناء إنجلترا، واختفاء الإنجليز. ولذلك فإن حبي للقومية، أو فكرتي عن القومية، هي أن ينعم بلدي بالحرية، وإذا كان ضروريًّا يمكن أن يموت بلدي بكامله حتى يعيش الجنس البشرى".

ولم يكُن ذلك هو الشعور الذي أشعل الحماس في العالم كله، كالنار في الهشيم، فالإنجليزي فرانسيس جالتون Francis Galton، والألماني آرنست هيكيل Ernst Hichel، يستوحيان من قواعد التمييز العنصري ونظرية داروين الاجتماعية للترويج لفكرة أن العلاقات بين الأمم ليست إلاّ صراعًا حتى آخر قطرة دماء من أجل البقاء. هناك دارسون، وصحفيون، ومعلمون بالمدارس، كانوا يمدُّون يد العون إلى مجموعات السلطة، وإلى رجال السياسة في بلدان متعددة، ويسخِّرون مهارتهم وقلمهم لصياغة "الطابع القومي" الذي يقوم على استعلاء الثقافة الذاتية الغنية بالهبات الثمينة والفريدة، التي لا يمتلكها أي شعب آخر. وقد اتسم الحماس القوميُّ بهذه الراديكالية لدرجة أن لفظًا جديدًا قد تَمَّ نحته لهذا الغرض وهو "القومية المتعصبة" sciovinismo[1]. برز الامتزاج العرقي على السطح كهدف أصيل للدولة القومية، فإذا أردنا أن نجعل من الدولة أمة

---

[1] هذه الكلمة أصلها chauvinisme في اللغة الفرنسية، وقد تم نحتها على اسم نيقولا شوفان N. Chauvin، أحد جنود نابليون الذي تطوع بالجيش وعمره ١٨ سنة، وجرح ١٧ مرة، وتم تكريمه على يد الإمبراطور، وكان موضع جدل في فرنسا في ما بين مؤتمر فيينا وثورة ١٨٣٠.

حقيقية، يجب أن تكون كل العرقيات الصغيرة الموجودة داخل حدودها تابعة للعرقية المسيطرة، أو يتمّ القضاء عليها من خلال الامتزاج أو الإبعاد. إن الأمّة هي الأسرة الكبيرة، التي تعتبر أي عرقيات مختلفة داخلها بمثابة عناصر دخيلة لا تنتمي إليها. هذه العناصر الدخيلة كانت تنحدر حتميًّا إلى درجة "أقليات". والأقليات بدورها لم يكن لديها خيار آخر، إذا ما أرادت تجنب الانتحار من خلال الذوبان، سوى الهجوم المضادّ من خلال المطالبة بخصائصهم الثمينة والفريدة. ومن هنا نشأت الحلقة المفرغة من اللاتسامح المتبادَل.

فإلى جانب اللاتسامح "المرتكز على اللاهوت" والذي يأتي من اليقين المطلَق في أوامر الله، والذي يتطلب إخلاصًا، وطاعة تامَّة، برز نوع جديد من اللاتسامح "المرتكز على العرقية"، والذي يقوم على يقين مطلَق مماثل، يفرض كذلك إخلاصًا، وطاعة لا تقل عن النوع الأول. فالحروب التي حدثت باسم التطهير العرقي أصبحت "حروب الدفاع عن النفس" الجديدة للحداثة العلمانية، بمبشريها، وبالتعذيب الذي ميَّزها، وبمحارقها، أصبحت لا تقلّ وحشية عن تلك الحروب التي حدثت باسم نقاء العقيدة.

السلَّم العرقي

كان ترتيب الأفكار هذا يتطلب حتمًا ترتيب الأمم، وعلى القمَّة يكون بطبيعة الحال تلك الأمم التي تظنُّ أنها صاحبة الإرث العرقي الأنقى، أو التاريخ الثريّ بالانتصارات والإنجازات. مفكر عملاق مثل هيجل Hegel جعل من هذا المفهوم النقطة المركزية في تفسيره العجيب للثورة التاريخية، وبرفعه القومية إلى مرتبة روح العالم. غير أن وجهات نظر أخرى سطحية وأكثر فظاظة كان لها أثر كبير على جمهور كان يحب الاستماع إلى ما هو متناغم مع نوازعه السرية الكامنة. فمنذ منتصف القرن التاسع عشر، تضاعفت النظريات التي غيّرت وسائل، ومفردات العلوم البيولوجية، وغالبًا ما كنت تحاول بحسن نية أن تعطي تفسيرًا لأسباب نجاح بعض الشعوب في صراعها من أجل البقاء مقارنة بشعوب أُخر. فالأمر كان في الواقع يتعلق على الأكثر بأحكام مسبَقة، وبأحاسيس متوارَثة، ولكن في النهاية خرج نوع من السلّم المتدرج "للنقاء" مستوحًى ليس فقط من الأجناس البيولوجية الكبرى التي تتمايز من خلال لون البشرة، ولكن يمتدُّ كذلك داخل نفس الجنس السيد، العنصر الأبيض، الذي يخصِّص له الحديقة الأعلى من السلَّم، كحق طبيعي له. وقد أُخذ بعين الاعتبار كذلك العائلات اللغوية، التي انقسمت بدورها إلى مجموعات فرعية: الجرمان، السلتيين، السلاف، وهكذا. فالأيرلنديون فخورون بأصولهم السلتية في صراعهم من أجل التحرُّر من نير البريطانيين، ولكن مؤرخ كامبردج شارل

كنجسلي Kinsgsley يرى أنهم كانوا نوعًا من "الشامبانزى"، أثبتوا دونية العنصر السلتي مقارنة بالأنجلوساكسونيين، وأنهم لا يمتازون إلا بكونهم تحت حكم صاحبة الجلالة.

وقد ذهب مؤرخ أكسفورد الشهير إدوارد فريمان Edward Freeman إلى أبعد من ذلك، إذا أكد أن إنجلترا استطاعت أن تتبوأ مكانه القوة العالمية الأولى بفضل أصولها الأنجلوساكسونية، أي الألمانية أصلاً، التي نجحت في الحفاظ على نقائها. وفي فرنسا ذابت دماء الأنجلو والساكسونيين في الدماء السلتية، بينما حصد الأمانَ السكانُ السلتيون الأصليون بالجزر البريطانية، وأبعدوهم إلى كورنوفاليا Cornovaglia، وبلاد الغال، وأيرلندا، وقد لاقى فريمان، الذي نشر نظريته بداية من عام ١٨٦٠، وألف كتابًا للأطفال، نجاحًا كبيرًا في سلسلة محاضراته بالولايات المتحدة عام ١٨٨٢، والتي أكد فيها أن الألمان، والإنجليز، والأمريكان، كانوا شعبا واحدا انتقل من بيته الأصلي ألمانيا إلى بيته الثانى إنجلترا، ثم إلى بيته الثالث بأمريكا، وأن ما فعله الأمريكان بالهنود "من خلال عزلهم"، كان استمرارًا طبيعيًّا لِمَا فعله أجدادهم بالسلتيين.

ولم يُخفِ تيودور روزفلت إعجابه بهذه الآراء، خصوصًا بمن يؤكد أن رواد أستراليا ونيوزيلندا، وهم يُخلُون الساحة من السُّكان الأصليين الذي صادفوهم في طريقهم -لم يكن ذلك إلا مواصلة لعملية نشر الحضارة التي بدأتها بريطانيا العظمى في أمريكا، والتي تُوِّجت بالنمو غير العادي للولايات المتحدة. ويصل المؤرِّخ الأمريكي "جون فيسك John Fiske"، في مؤتمر بالمؤسسة الملكية بلندن Royal Institution، إلى أبعد من ذلك من حيث منطقيَّة هذه الطريقة في التفكير، فيقول: "كان يجب أن تستمر عملية الجنس الإنجليزي عندما استعمر أمريكا الشمالية، حتى يصير كل بلد على وجه الأرض ليس له حضارة قديمة، إنجليزيًّا في لغته، وفي تقاليده، وفي أعرافه السياسية، وفي النهاية أيضا في دماء شعبه"[1].

وكان هناك في تلك الآونة عدد من الشخصيات البارزة، التي كانت تحاول تخفيف حدَّة مثل هذا الآراء، فما قالوه إن اختلافات بين الشعوب المختلفة تتوقف على سلسلة من العوامل التاريخية، أي البيئية والاقتصادية والسياسية، لا على عناصر غيبية، ولا على الدم، وقالوا إن الألمان في أصولهم كانوا خليطًا من الشعوب التي كانت لا تختلف كثيرًا عن بدو "بدائيين" آخرين، وإن الشعوب البيضاء كانت نتيجة خليط مكونات عرقية، ولا يستطيع شعب منها أن يدَّعي لنفسه أنه منحدر من شجرة نقية. ولكن هذه التفنيدات وغيرها والتي تقوم على حماس علمي، أو على المعنى الحسن، ما كانت لتخرج عن دائرة المتخصصين، ولم تَلْقَ قبولاً واسعًا. ولم يتحرك مؤيدو العرقيات الأكثر تمييزًا لتقويض هذا المنطق المزيَّف، بل وقعوا في مصيدة التسلسل العرقي، وراحوا يتحركون

---

[1] س. لندكفيست Lindqvist ، المختلفون، عمل سابق، صـ١٣٢-١٣٦.

داخل هذا المنطق المغلوط القائم على وجود تسلسل للنقاء العرقي - فموضعوا سلمهم الصحيح الذي راجعوه جيدا، وفصلوه على مقاسهم، ويدّعون فيه بدورهم أنهم هم الأعلى في هذا السلّم الذي لا يجب أن يكون على قمته الجرمان، ولا الساكسونيون، ولا الإسكندنافيون، بل الفرنسيون، والسلتيون والسلاف. فإلى جانب سيادة العنصر الجرماني، تم إبرز سيادة العنصر السلافي.

ولا يزال "السلَّم العرقي" موجودًا في الضمير الجماعي للأمريكيين، على الرغم من أنه تحت السطح. فقليلون فقط يجدون الشجاعة للاعتراض على أن أعلى الحديقة مخصّص للبروتستانت البيض الأنجلوساكسونيين "WASP" وفي أثناء وجودي بأستراليا، أوائل الستينيات، كان هناك نزوح لمهاجرينا أسبق من تلك الهجرة التي تَمَّت في النصف الأول من القرن العشرين إلى العالم الجديد. وكان موظفو المصالح الحكومية والمنظمات المعنيَّة بمساعدة المهاجرين -مثل مجلس الجار الطيب "Good Neighbour council"- يعملون على أساس هذا السلَّم غير المرئي، وهو كان يقيم قطاعًا عريضًا من الجماهير: على قمة السلَّم مَن هم من أصول إنجليزية، وبعدهم يجد أصحاب الدماء المنحدرة من "الشمال الأوربي" مكانًا لهم، الألمان أولاً، ثم الهولنديون، وشيئًا فشيئًا الإسكندنافيون، فالبولنديون، وأيضًا سكان ليتوانا، وأستونيا. وفي سفح السلَّم وأسفله توجد مجموعة كبيرة من الإيطاليين، والأسبان، واليونانيين، مكدَّسين في درجة واحدة هي درجة: "سكان جنوب أوربا".

إن عادات تلك الشريحة الأخيرة، التي تشمل أفرادًا قليلين "والمقبولة دوليًّا"، كانت موضوع اكتشافات مذهلة، كذلك الاكتشاف الذي أوردَته صحيفة يومية بملبورن، من أن بعض المطاعم على طريقة أهل نابولي في منطقة "إيطاليا المصغرة" Little Italy، تقدِّم أخطبوط البحر بالشوربة، وهو خبر مفزع، جدير بأن يُنشر كعنوان في الصفحة الأولى: "الإيطاليون يأكلون الأخطبوط في كارلتون!". ونحن في إيطاليا عندنا حتى اليوم هذا السلَّم العرقي الذي تنادي به الرابطة (رابطة الشمال)، على الرغم من عدم وضوح تسلسله، نزولاً من الشمال إلى الجنوب (سكان روما أعلى قليلاً من سكان نابولي، ولكن هؤلاء قبل أو بعد البوليزي (أهل بوليا Puglie)، حراس النقاء العرقي. ومن يدري إذا كان حراس السهل البادانى على دراية من أن السلتيين عنصر أدنى بالنسبة للأنجلوساكسونيين!).

التطهير العرقي

إن لفظة "التطهير العرقي" ظهرت في مايو ١٩٩٢ في أثناء المرحلة الأولى لحرب البوسنة.

إن المتخصصين، يميزون في المعنى بين "التطهير العرقي" و"الإبادة" (وهو لفظة جديدة استخدمت للمرة الأولى على ما يبدو من قبل رافيل ليمكن Refel Lemkin في أثناء الحرب العالمية الثانية بخصوص ضحايا النازية). وكما ينصُّ القانون الجنائي الداخلي، فإن الفرق في المعنى يكمن في قصد الفعل، فالتطهير العرقي يهدف إلى طرد شعب بكامله من أرض ما، أمَّا الإبادة فتعني القضاء عليه. وفي الواقع يحدث لبس بين الكلمتين ("إبادة" و"تطهير عرقي")، لأنه في النهاية، كما حدث مع النازية، عندما تعذَّر الإبعاد الجماعي لتحرير الأرض من "غير المرغوب فيهم"، تم اللجوء إلى القتل الجماعي، وإن كان الإبعاد لم يخلُ من العنف، ومن الطريقة غير الإنسانية، لدرجة أنه أصبح بمثابة إلغاء جسدي للمجموعة التي يراد التخلص منها[١].

وأسوأ حالات التطهير العرقي-الإبادة كانت المحرقة النازية Shoah، التي تظلُّ دائما حالة فريدة، سنتحدث عنها على حدة.

وللأسف، بعد نصف قرن حدثت صورة أخرى ملعونة ومرفوضة للكره على أساس الانتقاء والاصطفاء، وهو من إفرازات الحداثة: اغتصاب دولة في يوغسلافيا السابقة. فالاغتصابات، والاعتداءات الجنسية، التي تُعَدُّ من أقصى الإهانات التي يمكن أن يتعرض لها السكان المدنيون في كل حرب، حدثت تقريبا في كل عمليات التطهير العرقي. ولكن لم يحدث في أي من الصراعات العرقية العديدة التي شهدها القرن العشرون أن اتخذ الاغتصاب شكل عملية منظمة مثلما حدث في منطقة البلقان، تلك العملية التي قررها ببرودٍ رؤساء دول، كانت تهدف إلى القضاء على هوية الآخر، واجتثاث وجوده من جذوره. ولقد أدان تقرير هلسنكي حول البوسنة الهدف السياسي لهذا النوع من "تخطيط الاغتصاب": وهو إجبار العائلات على الهرب وعدم العودة أبدًا. وحسب ما ورد في التقرير كان يتمُّ اغتصاب النساء بصورة جماعية، وسبُّهن من المغتصبين الذين كانوا يصرحون بأن نيتهم هي تركهن حوامل حتى يتركوا لهن ذكرى لا تُمحَى عن الاغتصاب. والحمل كان في الواقع له هدف فظيع، وهو تلويث أبديّ لنقاء العرق الملعون. وكانت النساء الحوامل يُترَكن في السجون لإجبارهن على إكمال مدة الحمل حتى يلدن "القوميين الصرب الصغار"[٢].

وقد تأكدت هذه الفظائع بشهادة الشهود أمام محكمة الجنايات الدولية في لاهاي، التي كشفت عن أشياء أخرى مرعبة، إذ كان يتمُّ سجن النساء، وبعضهن كُنَّ لا يتجاوزن

---

[١] نورمان م. نايمارك، سياسة الكره، طباعة لا ترتسا، روما-باري ٢٠٠٢، صـ٦.

[٢] القوميون الصرب كانوا رجال حرب عصابات البلقان الذين كانوا يقاتلون العثمانيين في القرن التاسع عشر. وبعد إقامة دولة يوغسلافيا، عُرِف القوميون الصرب بهذا الاسم، وتجمعوا في عصابات ما بين عامَي ١٩٤١ و١٩٤٥ لقتال الألمان والإيطاليين.وكانوا مناوئين لأنصار تيتو، وانتهى بهم الأمر إلى التعاون مع النازيين – الفاشيين. وبعد الحرب الثانية غذّوا القومية الصربية، وشاركوا في الحرب الأهلية ضد الكروات في يوغسلافيا والتي اندلعت عام ١٩٩١.

الثانية عشرة من العمر، في "بيوت اغتصاب"، منتشرة في كل المدن، حيث كُنّ يتعرضن لكل أنواع التعذيب والإهانة على يد العسكريين والمتطوعين الصرب.

ومن أشد مظاهر هذا العنف قسوة، أنه - مثل أعمال إجرامية أخرى ترتكبها القوات المحتلة، كالقتل، والأعمال الانتقامية، وحرق المنازل والممتلكات- كان يتمُّ على يد مَن كانوا يسكنون وجهًا لوجه في نفس القرية، أو نفس البلدة، كما لو كان الأمر يتعلق بتصفية حسابات قديمة، الأمر الذي يقول الكثيرَ حول الدوافع العميقة لهذه العمليات[1].

وحسب رأى المراقبين المنصفين وغير المتهَمين، فإن الكروات على الرغم من أنهم تلوّثوا بجرائم مماثلة، لم يصلوا إلى دناءة وخسَّة تصرفات الصرب. فإن الصرب والكروات تقاسموا نفس برنامج التطهير العرقي "المضادّ للتاريخ" و"المضادّ للتقاليد"، والذي يتعلق باقتلاع المسلمين من أرضهم، فقد اتفق على ذات الهدف الخصمان الكرواتي فرانيو تودجمان، والصربي سلوبودان ميلوسوفيتش. ولا يعنينا هنا أن نحدِّد مدى الوحشية، بل يعنينا أن نسجِّل كيف أن التباغض بين العرقيات يمكن أن يؤدي إلى فظائع لا إنسانية لا تقلّ عن تلك الفظائع التي نجمت عن التباغض بين الأديان.

إن "التطهير العرقي" أنهى بطريقة مأساوية قرنًا يملؤه التباغض بين الثقافات، والتي أسهمت فيه الحداثة بشكل كبير، وأعطته ثلاث سمات لم تكن معروفة في النزاعات القَبَليَّة: العقلانية الباردة، والبعد الإيديولوجي، والراديكالية المتعصبة.

إن الاغتصاب "العرقي"، وأفران الغاز كانا وسيلتين للاتسامح الذي ميّز "المدنية الراقية"، وأطماع الدولة العصرية.

إن الأمر لا يتعلق بفعل متهور ارتكبه بطريقة انفعالية أحد الجنود الذين يشعرون في جوِّ الحرب الملتهب أنه في حلٍ من أي التزام، وإنما يتعلق بالتحلّل تمامًا من أي سلوك متحضر، ويعتقدون كما كان يقول الضابط الفاشستي للشاب كالفينو، أن كل ما هو موجود على الأرض المفتوحة فهو لهم "ولا يوجد أحد يستطيع أن يفعل معنا شيئًا". فهذا الجندي بعد أن يعود إلى وطنه، وإلى نفسه، ويستأنف حياته الطبيعية كمواطن صالح، يندم ويخجل من كل ما فعله. أما جندي العصر الحديث المتأخر، المعروف بتقدمه ونظامه وميكنته، بدءًا من عضو المخابرات السرية، وحتى أفراد الميليشيات شبه العسكرية الصربية أو الكرواتية، فإنه يقوم بالتعذيب والاغتصاب طاعةً لأوامر عُليَا، تمثل جزءًا من خطة مدروسة لإفناء "الآخر" براديكالية يمكن أن تمتدَّ حتى الأجيال اللاحقة. ويشعر هذا الجندي الذي تَصرَّف في حالة الضرورة لطاعة الأوامر التي تلقَّاها، بأنه في حلٍ من أي مسؤولية ومن أي وخزة ضمير.

---

[1] نورمان م. نايمارك، مرجع سابق، صـ١٩٦-١٩٨.

"ففي حالات عدوان أحد الشعوب على شعب آخر قبل العصر الحديث، كان الشعب الذي يتمُ العدوان عليه يمكن أن يستسلم، أو يُؤسر أو يرتدُّ عن دينه، أو يدفع الجزية، أو يتحد مع المعتدين. أما التطهير العرقي الذي تقوده إيديولوجية التطرُّف القومي، والسلطة العسكرية والتكنولوجية للدولة العصرية، فنادرًا ما يعفو، أو يستثني، أو يتـــرك فرصـــة للنجاة"[1].

[1] المرجع السابق، ص ٢٢٣.



الفصل الثامن عشر

معاداة السامية

وأصل الآن إلى مشكلة اليهود. يجب أن يكون هناك رد فعل جاه الشفقة التي في غير موضعها تجاه اليهودي المسكين. ماذا جنى ذلك اليهودي؟ وما الخطأ الذي اقترفه؟ فهم يعيشون هنا منذ ثلاثة قرون أو خمسة قرون وربما عشرة قرون.

في ظل هذه الأنظمة لا يمكن التحدث عن المشكلة بشكل عام ولكن تنحصر المشكلة في هذه المحاور: اليهود هم الشعب الأكثر عنصرية في العالم.

ومن المدهش معرفة كيفية الحفاظ على نقاء السلالات البشرية عبر القرون حيث يتم خلط الدين بالجانب العرقي والجانب العرقي بالدين، لأنه شعب لا يقبل التكيف مع الآخرين ولأنهم كما يؤكدون وكما ورد في جريدتهم الإيطالية التي تحمل عنوان "إسرائيل "أنهم سلالة الأنبياء والكهنة... إنهم شعب من الكهنة (ضحكات تعلو بين الجماهير)، والآن يوجد بيننا وبينهم إختلافات يستحيل تسويتها..."

من خطاب موسوليني أمام المجلس القومي للحزب الفاشي

في ٢٥ أكتوبر ١٩٣٨

[قصة قديمة: اليهود لا يريدون التعايش – إتهام مسيحيي لليهود: إنهم قتلوا الرب – حكم مسبق منذ العصور الوسطى: إنهم شغوفون بجمع المال – من التهميش إلى التحرر – من المسألة العبرية إلى معاداة السامية الحديثة – صفقة درفوس وبروتوكولات حكماء صهيون – من كفاحي إلى غرف الغاز – تجربة ميلجرام – تفرد المحرقة]

قصة قديمة: اليهود لا يريدون التعايش

إن معاداة السامية جديرة أن تستقل بنفسها في مقام يدور حول اللاتسامح لأن لها سماتها الخاصة بها التي تميزها عن مختلف صور بغض الأجنبي أو التعصب العنصري أو الديني وكانت نتيجتها إبادة جماعية غير مسبوقة في تاريخ الإنسانيةوذلك لطبيعتها وبشاعتها.

ومصطلح معاداة السامية هو مصطلح مستحدث في اللغة شأنه شأن لفظ الأصولية ويستخدم للتعبر عن ظاهرة ليست حديثة ولكنها ذات أصول وجذور قديمة ومن ثم وحسبما يرى بعض الدارسين فقد إكتسب أبعاداً ومحاور جديدة في العصر الحديث ولهذا فهو يختلف عن معاداة العبرانية أو معاداة اليهودية، ولكن المشاعر والسلوكيات المعبرة عن معاداة السامية ليست بجديدة ولكنها تتراجع بمرور الوقت.

ولكننا نجد أحكاماً سلبية في الأدب اللاتيني على اليهود وأُرجعها إلى اعتبارات سياسية لأن المقاطعات التي يسكنها اليهود كانت الأكثر تمرداً في الإمبراطورية الرومانية أو لأن اليهود كانوا يشتغلون بالحرف اليدوية وفي التجارة الصغيرة ولذلك كانوا أحياناً يتعرضون لصدام مع الطبقة الأرستقراطية المالكة للأرض الزراعية.

وبدأ سبب آخر يلوح في الأفق وهو الذي يتعلّق بمصطلح العزلة كما أطلق عليه مفكروا تلك الحقبة الذين كانوا يتحدثون اليونانية، والذي يعني رفض اليهود الإندماج والاختلاط مع أي شعب آخر وتمسكهم المبالغ فيه والشديد بعاداتهم. وقد أشار العديد من المؤرخين والفلاسفة مثل تاتسيتو Tacito ، بلينيو Plinio ، جيوفانيله Giovenale، كوينتيليانو Quintiliano، سنيكا Seneca إلى أنّ الاختلاف القيمي لهذا الشعب قد دفعه إلى إزدراء المقدسات الموروثة، الأمر الذي كان يعد سبباً لتقويض مؤسسات المجتمع. ولكن ذلك كله لا ينفي تمتع الجماعات اليهودية بالحرية الثقافية الكاملة وأيضاً بعض المميزات الأخرى مثل حقهم بالإحتفال بأعياد السبت وكذلك التحاكم الى قضاتهم.

ولكن الوضع تغير تماماً عندما أصبحت المسيحية في وضع مواجهة مع اليهودية، واستطاع التفسير المسيحي للعهد القديم أن يوكل للديانة المسيحية مهمة قيادة الإنسانية جمعاء.

وأن ينفي عن المسيحيين التهمة التي ألصقت بهم سلفاً بأنهم إنحراف متهرطق عن اليهودية وهكذا أصبح المسيحيون أنفسهم هم من يتهمون اليهود بالمتهرطقين.

اتهام مسيحي لليهود: إنهم قتلوا الرب

الاتهام الأكثر خطورة الذي ظل ملتصقاً بالشعب اليهودي على مدى ألفي عام هو تهمة "قتل الرب "وبقدر انتشاره وتوارثه بقدر كونه غير منطقي وغير مبرر تاريخياً (وعلى الرغم من عدم وجود أي دلائل تاريخيه فإن هذا الاتهام انتشر وتوارثته الأجيال): كانت سلطة الكنيسة الأم ترى أن اليهود هم الذين يجب أن يحملوا على عاتقهم كلية الخطيئة الكبرى الخاصة بيسوع وذلك ينفي عن الرومانيين مسئولية تلك الخطيئة وترى في ذلك خطوة سياسية بارعة. وكانت تلك الكنيسة تبذل قصارى جهدها في أن تكون لها مكانة وقدر بين سلطات الدولة مقارنة بالشعب اليهودي الأصلي.

وليس مصادفة أن يكون المحرّض الأول والرئيسي في هذا التوجه المناهض لليهودية هو بولس Paolo والذي نعرفه اليوم بمؤسس المسيحية وهو مواطن روماني وكان من قبل مدافعاً قوياً عن الإلحاد والشرك.

ويجدر الذكر بأن ذلك المعتنق للمسيحية كان يهدف إلى نشر ذلك الدين الجديد على نطاق واسع وقد أدّى به ذلك (مثله مثل الذي سيحدث مع النبي محمد) إلى قبول ما يطلق عليه حلول وسط مع مراكز السلطة وإلى نقل محور تجنيد أتباع جدد في إتجاه الأمميين وذلك في تحدي لبطرس Pietro وشخصيات أخرى بالكنيسة الناشئة والوليدة.

وبمنظور مماثل فإن الإبتعاد عن العبرية المتزمتة كان له نفس أهمية تجنب وجود حلول وسط مع الكفر وإدانة الهرطقة، ففي كتب الرسل كان اليهود يعرفون بأنهم "القتلة والخونة "، وفي "الخطاب إلى اليهود " تم وصفهم بأنه الشعب الذي "رجم الرسل وعذبهم وقتلهم بحد السيف ".

فبداية من عام ٧. بعد الميلاد أي بداية من الشتات اليهودي فإن كلاً من اليهودية والمسيحية أصبحتا تسيران في طريق مختلف وأصبح الإتجاه المسيحي المعادي للسامية أكثر شراسة وربما يطول بنا المقام إذا ذكرنا فقط آباء الكنيسة والكتّاب المعادين لليهود مثل ترتوليانو Tertulliano مروراً بأوجستينو Agostino، وإيزودورو دي سيفيليا Isidoro de Siviglia.

ويجدر بالذكر أيضاً إتهامات جريجوريو دي نيسا Gregorio di Nissa وهو أحد علماء اللاهوت البارزين والذي كان يرى اليهود قتلة الرب والأنبياء وأعداء الرب الذي يكرهونه ويزدرون كشرائعه، فهم أبناء الشيطان كما أنهم سلالة فاسدة ومخطئة وسلالة

الفريسيين، أعداء الشرق والأمانة وأتباع الشيطان وكل هذه التعبيرات التي استخدمها ثم تداولها في الأدب المسيحي في تلك الفترة [١].

أما مواعظ جيوفاني كريسوستمو Giovani Crisostomo بعنوان Adversus Tudaeus فيقول فيها: "اليهود يشكلون جمعات منحرفة ومجموعة غوغاء من النساء الساقطات. فالمسيحيون يفضلون الموت بدلاً من أن يتوجهوا لطبيب يهودي، ويجب عليهم الإبتعاد عن اليهود وتجنبهم مثلما يفرون من الطاعون والكوارث التي تعصف بالبشر ".

ويرى هذا الرجل الكنسي الشهير أنهم لا يجب أن يكونوا أبداً شعبا له أرض، أما أوجستينو فيرى أنه لم يكن من الصواب إهلاك اليهود لأنهم كانوا سيشكلون الدليل الحي لصدق المسيحية [٢] بسبب المصير الأبدي الذي يلاقونه وهو أنهم يهيمون في الأرض بلا وطن.

وليس من الملائم هنا العودة لما سبق أن ذكرناه في الفصل الحادي عشر عن أعمال العنف الصادرة عن المسيحيين وتحريض الأساقفة وكذلك أعمال العنف والصدام ضد المعابد اليهودية والممتلكات التي يمتلكها اليهود في مدن البحر المتوسط الكبرى حيث كانوا يعيشون لقرون عديدة بسلام جنباً إلى جنب مع الهيلينيين. ولممارسة مثل هذه الأفعال كان يلزم موافقة السلطات فبداية من عصر قسطنطين أصبح التحالف بين الكنيسة وسلطة الإمبراطورية الرومانية قوياً وصلبا وبدأت القوانين العنصرية الأولى التي كانت تفرض على اليهود نظاماً خاصاً وتضييقاً كبيراً في حياتهم الخاصة والعامة.

ويجب الإشارة هنا إلى التطابق المثير بين القوانين الأولى المعادية للعبرية وتلك التي تم تطبيقها وفرضها عبر القرون، في أسبانيا أبان محاكم التفتيش ثم في أوج فترات معاداة السامية وكذلك من قبل النظم النازية والفاشية.

شهدت الفترة ما بين عام ٣,٦ الذي إنعقد فيه إجتماع القساوسة في الفيرا Alvira وما بين مجمع بازل الذي إنعقد عام ١٤٣٤ سلسلة من التصديقات كان لها أبعاد خطيرة مثل منع اليهود من تقلد المناصب العامة والأكاديمية والإحتفاظ بخدم مسيحيين والزواج بمسيحيين وعمل أي دعاية دينيه أو إنشاء أي معابد يهودية والإقامة خارج الأحياء المخصصة لهم مروراً بإجراءات بسيطة ولكن مهينة مثل حمل شارات على ملابسهم لتمييزهم عن الآخرين (مجمع لاتيرانا Laterana عام ١٢١٥) وكذلك منعهم من التواجد في الشارع أثناء أسبوع الآلام المقدس.

---

[١] كارل هينز ديسختر K. Heinz Deschner، التاريخ الإجرامي للمسيحية، أريلي، ميلانو ٢٠٠٠، ص ١١٨

[٢] المرجع السابق ص ١٢١، ١٢٤

ومنذ ذلك الوقت تضاعفت وتزايدت القصص المتعلقة "بخيانة اليهودي "ويعتبر الفن التشكيلي المسيحي ثريا بأعمال تشير لهذا الموضوع، ويكفي تذكر الصورة المنسوجة على القماش الشهيرة لباولو أونتشيليو Paolo Uccillo والتي تصور أسرة يهودية تقلي قربانا مقدسا .

وقد قدمت الحملات الصليبية الأولى "فرصة ذهبية "لليهود أثناء رحلتها إلى الأرض المقدسة حيث أزهقت روح الكثيرين منهم وسلبت ممتلكاتهم. وهكذا بدأ اتجاه متنامي يعتبر الجماعات اليهودية من الطبقات الدنيا داخل البلاد التي كانت تستضيفهم للعيش بها وكانوا يعزلون عن باقي الشعب.

حكم مسبق منذ العصور الوسطى: إنهم شغوفون بجمع المال

كانت الأنشطة الإقتصادية المتاحة لليهود تنحصر في التجارة والإقراض وكانت في باديء الأمر أنشطة محتقرة ومهمّشة داخل النظام الزراعي والإقطاعي، ولكن نظرا لتغير الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية فإن ذلك أدى إلى جعل هذه الأنشطة الإقتصادية الأكثر ربحا وأسهم كل هذا في زيادة ضغينة وحقد المجتمع لليهود.

وقد ثبت وترسخ بذلك حكم مسبق ثان تجاه اليهود والذي إستمر حتى الآن ويتعلق هذا الرأي باتهام جميع اليهود دون إستثناء بالشره لجمع المال: ولهذا أصبحت كلمة "عبري "هي المرادف للبخيل والمرابي.

وكسائر كل الأحكام المسبقة، فإنه يتعين لتكذيبه اللجوء إلى المنطق والإشارة إلى بعض الأوضاع التاريخية ويمكن أن نجزم أن اليهود لم يلجئوا إلى التجارة والإقراض عن طريق الرهن لميلهم أو لحبهم لذلك ولكن لأنها كانت الأنشطة الوحيدة المتاحة لهم، ويمكن وصف ذلك بالحلقة المفرغة ؛ فالفلاحون كانوا يعتمدون على اليهود لإقراضهم المبالغ الصغيرة إنتظارا لجني المحصول، أما النبلاء فكان فرض ضرائب على اليهود أيسر لهم من أن يحصّلوها من الفلاحين مباشرة وكانت هذه الضرائب سببا في زيادة فوائد قروض الفلاحين.

ونتيجة لذلك فإن الفلاحين كانوا يحملون الأحقاد لليهود أكثر من النبلاء، وقد كان النبلاء الإقطاعيون في حاجة دائمة إلى القروض حتى يستطيعوا إستيراد البضائع ذات القيمة من الشرق وكذلك إرسال الحملات العسكرية، وحتى تتيسر لهم الأمور كان اليهود يحتفظون لأنفسهم بحق الإحتكار في المجالات التجارية والمصرفية.

ويجدر الذكر بأنه بعد الألفية الأولى استطاعت المجالس البلدية تقويض النظام الموجود سلفا وذلك بخلق افاق إجتماعية واقتصادية جديدة وكذلك فتح طرق جديدة للتجارة، وهكذا أصبح اليهود كبش الفداء لتطلعات الطبقات الإجتماعية الجديدة وكذلك للمطالب الإجتماعية للجماهير.

وفي هذه الفترة بدأت أولى مظاهر العنف ضد اليهود وتكمن في التمرد ضد النظام الإقطاعي والذي كان اليهود أحد أهم دعائمه، ويلوح في الأفق أيضا العامل الديني والذي قلب رأساً على عقب عناصر تلك القضية فأضفى على معادات العبرية إتجاهاً يباركه الرب ومن ثم فهي أفعال تتمتع بالحصانة، وبالرغم من التدخلات المعتدلة للبابا فإن بعض المصالحة المادية والمعتقدات السابقة أدّت إلى حالات من الإضطهاد والتعسف ضد اليهود[1]، ولم يختلف ذلك كثيراً عما كان يحدث تجاه المشعوذين، فمثلهم مثل هؤلاء المشعوذين كان اليهود يلاقون مصير الحرق أو القتل الجماعي بتهمة تدنيس المقدسات مثل القرابين المقدسة أو تسميم آبار المياه.

من التهميش إلى التحرر

ساعد عصر النهضة على وجود عقلية دينية أكثر تفتحاً وكان ذلك ينعكس بقدر محدود على العلاقة بالجماعات اليهودية لأن ظهور فكرة وجود أمة حدث بعض مفاهيم التمييز والتوجس القديمة وتشكل الجماعات اليهودية مجموعات عرقية ودينية مرتبطة ببعضها البعض بغض النظر عن حدود الدول، ولا تستطيع تلك الجماعات التوقف عن إثارة الشكوك والقلق فهم يشكلون عناصر تهدد الإستقرار ومناهضة للنظام الجديد الناجم عن إنهيار النظام الإقطاعي. وقد كان للدولة الحديثة إتجاه عدواني تم تنفيذه بشكل مأساوي فيما عرف بسياسة "نقاء الدم "التي تم ذكرها أكثر من مرّة وعن طريقها قام الحكام الأسبان بداية من عام ١٤٩٢ بالحفاظ على وحدة المملكة.

وكان اليهود، الذين حققوا تحت الحكم الإسلامي ازدهارا ثقافيا كبيرا وحققوا فيما بعد حدود مضيق جبل طارق أكبر مظاهر الترف والإزدهار الذي شهدته تلك الحقبة، قد واجهوا فيما بعد مصير الإبعاد والرفض مثلهم مثل مسلمي الأندلس.

ونتيجة لذلك ظهر في الأفق ما يطلق عليه إعتناق اليهود والمسلمين للمسيحية ذلك الإعتناق الذي اضطّر إليه كثير من اليهود لتجنب النفي. وبدلاً من أن تساعد هذه الحالة

---

[1] روبرتو بيبرنو R. Piperno: معاداة السامية الحديثة، كابيللي، بولونيا، ١٩٦٤، ص ٢١

المهينة من الخضوع في تيسير بعض الأمور الخاصة بحياة اليهود فإنها فجرت مشكلة جديدة وخلقت حلقة مفرغة ومشينة.

فمن ناحية كان اليهود يحاولون الحد من رفضهم الديانة المسيحية على الصعيد الرسمي (مثلما كان يفعل كثير من المسيحيين المنفيين أثناء حكم دقلديانوس واضطهاده لهم) وبسبب اصطدامهم بالأحكام الصارمة لمحاكم التفتيش فإنهم كانوا يضطرون لممارسة شعائرهم الدينية سراً ، ومن ناحية أخرى كان هذا الإزدواج يزيد من إزدراء الكاثوليكيين الحقيقيين لهم والذين كانوا يظهرون تعاطفاً ضئيلاً مع هؤلاء المعتنقين للمسيحية ولذلك أطلقوا عليهم فيما بعد (الخنازير الأوغاد)، وكانوا يعتبرون أنه من الأمجاد كشف النقاب عن حالات إعتناق الدين سواء كانت حقيقية أو مزعومة.

في عام ١٥٥٥ أعاد البابا بولس الرابع بمرسومه "Cum nimis absurdum" إلى الأذهان الإجراءات التي تم فرضها ضد اليهود في أسوأ فترات العصور الوسطى: التكدس في الأحياء المخصصة لهم "جيتو"، إلزامهم بحمل شارات مميزة عن باقي الشعب، حصرهم في الإقراض أو بيع وشراء الأشياء القديمة، منعهم من دراسة التلمود وكذلك منعهم من التردد على نساء مسيحيات.

وتقدم لنا رواية "تاجر البندقية "لشكسبير صورة مأساوية لحالة اليهود في واحد من أكثر المجتمعات تقدماً في تلك الحقبة. وكانت الجماعات اليهودية في فينيسيا وليفورنو وفيرارا وكذلك في العديد من المدن الأخرى قد ساهمت في إزدهار العلوم الإنسانية عن طريق فتح أكاديميات إعداد الحاخامات وكذلك الإنتاج الأدبي الغزير ولكن كل ذلك لم يسهم في تغيير الموقف تجاه اليهود [٤].

وساهم عصر التنوير بأفكاره الثورية الخاصة بالمساواة في الحقوق وحرية المعرفة في حدوث إنفراجه في الأفق الضيق الذي كان يعيش فيه يهود أوروبا. وتحت ضغط الاتجاهات التقدمية، التي وجّه اللوم إليها بسبب وجود جزء من الشعب في حالة عزلة عن باقي أفراد الشعب، بدأت في بعض الدول العديد من الإجراءات التشريعية التي تسعى لتحرير اليهود. فبعد العديد من قرون التفرقة تم السماح لليهود ببعض الحقوق التي نعتبرها اليوم حقوقا طبيعية: فهم يستطيعون أخيرا الاحتفاظ بالأملاك العقارية والأراضي، الالتحاق بالجيش والعمل في المكاتب العامة وكذلك أن يكون لهم علاقات بنساء مسيحيات بالإضافة إلى التردد على أي فندق أو مكان عام.

---

[٤] جادي لوزاتو فوجيرا Gadi Luzzatto Voghera، معاداة السامية، فيلترينللي، ميلانو ١٩٩٤ ص ١٧.

وعلى أي حال فإن هذا التقدم الإيجابي يعكس أمرين متضادين خطيرين. الأمر الأول والأكثر وضوحا يتمثل في كون الإجراءات التحررية كانت تفرض من قبل عليّة القوم (السلطة) وكانت تواجه صعوبات بالغة في أن تجد لها مكانا داخل مجتمع مبني على الأحكام السابقة ضد اليهود منذ وقت طويل ولذلك كان هذا المجتمع يتردد في تطبيق هذه الإجراءات التحررية في الحياة اليومية. وكرد فعل لذلك أسرع اليهود المحررون من ذلك التهميش، والذين بدوا كتيّار جارف لا يمكن التحكم فيه بأي سد، بالحصول على مزايا كثيرة مستفيدين من النظم التحررية الجديدة، فقاموا بامتلاك الأملاك العينية بالإضافة للعديد من المميزات الأخرى، وقد ساهم رد الفعل هذا في زيادة التردد في إستيعاب اليهود في المجتمع مثلهم مثل باقي المواطنين ولكنه أعاد إلى الأذهان أيضا فكرة "تآمر البلوطوقراطيين" (اليهود الأثرياء) لكي يحصلوا على السلطة عن طريق السيطرة على مصادر المال والأملاك وخاصة الأرض والتي تعد أكبر الأملاك القومية. أما الأمر الثاني وهو الأكثر تعقيدا ودقة فيكمن في ظهور خلاف داخل الأوساط اليهودية: خلاف داخل الأوساط اليهودية: خلاف بين تأكيد حقوق لا يمكن التخلي عنها للإنسان اليهودي في كونه مواطنا وبين حماية هوية هذه الجماعة العرقية.

وقد بدا تحرر هذه الفئة من "المهمشين" في مظاهر نشأة عالم جديد لا يتأثر بأفكار رجال الدين أو مجتمعات منغلقة الفكر.

وقد حاولت فرنسا التي كانت غارقة في آثار الثورة أن تأخذ دور الريادة في المساواة بين اليهود وباقي أفراد الشعب ولكنها كانت أيضا الأقل إستعدادا في الإعتراف بهم كجماعة ذات طابع خاص لأن ذلك ينافي مبدأ المساواة. وهكذا انتهى توجه الجمعية الوطنية، والتي كانت تعترف باليهودي كمواطن وليس كعضو في جماعة، ليبرز مفهوم الانتماء والذي سبق أن رأينا كم هو هام ومحوري للكيان اليهودي ؟ وكان هذا يعني بالنسبة للمتشددين اتهام بطيء ولكن قاسي "الموت الجميل لهوية الجماعة "ولذلك كان غير مقبول. وينقسم يهود أوروبا إلى اتجاهين، الأول "إصلاحي " والذي يجعل الاتجاه العبري الجديد متلائم مع الصور الجيدة للتعايش الحضاري بدون أي حلول وسط. والاتجاه الثاني اتجاه أرثوذكسي حديث والذي كان يحاول الإحتفاظ بإتباع الشعائر الدينية والثقافية التقليدية موائما إياها قدر المستطاع مع الوضع الجديد لليهودي كمواطن بمعنى الكلمة (أنظر ما سبق ذكره في الفصل السادس عن العلمانية العبرية). وهكذا فقد ظهرت المسألة العبرية الحديثة والتي يمكن أن تعد النتيجة المباشرة للتحرر.

في الوقت الذي حصل فيه اليهودي على الحرية بعد حالة التهميش والقهر التي استمرت لآلاف السنين واستطاع أن يحقق مع سائر أفراد المجتمع القفزة الكبرى من حالة الخضوع لأمير أو لسيد أو لأحد النبلاء إلى حالة مواطن ينتمي لدولة، وتظهر

أسامه بصورة جلية أكثر من الماضي مشكلة علاقته شديدة الخصوصية مع من يـــدينون ديانات أخرى. وقد أصبحت هذه العلاقة العائق الرئيسي فـــي ســـبيل إندماجـــــه غيـــر المشروط في الهيكل الإجتماعـــي الذي بدا مستعداً لاستيعابه دون تحفظات.

والجدير بالذكر أنه قد إنشغل واهتم بهذه المشكلة العديد من الشخصيات البارزة فـــي الفكر السياسي والإجتماعي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مثل: نيتـــشة، وفيبـــر Weber، وبرودون Proudhon، وماركس (والذي بدأ في خطاب له عام ١٨٤٤ حول ذلك الموضوع مؤازراً لليهود بطبيعتهم الخاصة).

وفي النهاية عاد في الحلقـــات الفكريـــة الحديث عن رؤيـــة تاتشيتو وسينيكا حـــول الأميكسيا Amixia ويقصد بها الاقتناع أي أن اليهود لن يستطيعوا قبول أن يكونوا جـــزءا منفصـــلا ومهمشا وأن اختلافهم الذي لا يمكن إغفاله ربما سينتقل من الجانب الديني إلى الجانب الإقتصـــادي وربما أيضاً السياسي مشكلاً تماسك وخصوصيـــة في السلوكيات مع نسيج المجتمع. (٥)

من المسألة العبرية إلى معاداة السامية الحديثة

تعد معاداة السامية التطور الأخير للمسألة العبرية مع إضافة مظهر علمي زائف ذي طابع عنصري.

فكيف يمكن لنا تعريف مصطلح معاداة السامية ؟ تأويل وتفـــسير حـــديث للإتجـــاه المعادي للعبرية والذي بدأ في الظهور في العصور الوسطى ولكن مقارنة بها فإن معاداة السامية تمثل طفرة كمية وكيفية بعدما اكتسبت في الحقبة المعاصرة طابعاً سياسيا ثريـــا بالعديد من الأمور الجدلية والتي تبدو في ظاهرها منطقية والتي لم تكن موجودة من قبل.

وقد بدأ الإتجاه القوي المعادي لليهود في الظهور مرة أخرى بوضوح شديد في نهاية القرن الثامن عشر، ففي عام ١٨٧٩ ظهر مصطلح معاداة السامية للمرة الأولى وكـــان ذلك في مقال للصحفي من مدينة هامبورج فيلهلم مار Wilhelm Marr بصحيفة أمبروجـــو وكان يحمل عنوان "انتصار اليهودية على الألمانية". ويعد تصنيف اليهود كعرق في حد ذاته صورة شرسة للفلسفة الوضعية المسيطرة في تلك الفترة.

وفي ظلّ حماس وشغف تلك الفترة بالمنهج العلمي والذي إمتدّ قدر المستطاع حتـــى وصل إلى أبحاث عن الإنسان والمجتمع، استمرت العديد من القواعد حديثة العهد مثـــل

(٥) المرجع السابق ص ٢٥

اللغة المقارنة وعلم دراسة الأجناس البشرية في الاهتمام بنظريات رائعة ولكن ذات أساس علمي ضعيف، وطبقا لتلك النظريات يعود أصل لغات الحضارة الغربية إلى فصيلتين مختلفتين، الهند أوروبية أو السامية وهؤلاء بدورهم يعودون الى فصيلتين مختلفتين أخريين.

وقد أنجذب العديد من العلماء البارزين وكان من بينهم بعض اليهود إلى هذه النظريات الزائفة علمياً والخاصة بالإكتشاف "الجديد والكبير والمزعوم حول إختلاف الأجناس البشرية.

وفي ايطاليا نشرت شخصية في قدر تشيزارى لومبروزو Cesare Lambroso عام ١٨٩٤ دراسة كان يرى فيها بقناعة شديدة إمكانية إثبات وجود إختلاف بين الجماعتين وكذلك وجود تشابه وتجانس عرقي بين اليهود جميعاً، وقد أثبت ذلك عن طريق حساب حجم جمجمة اليهود الساميين والآريين المسيحيين.

وتعد النظرية السابق ذكرها واحدة من هزليات التاريخ حيث صنفت الشعوب العبرية والعربية ضمن الجنس السامي واستناداً لتلك النظرية يمكن تصنيف الإتجاهات العنصرية الحالية تجاه الهجرات المغربية إلى أوروبا كدرب من معاداة السامية.

وعلى أي حال كان العاملان العرقي والوطني يشتركان معاً بشكل خطير في إعادة المشاعر المعادية لليهودية وعاد اليهود ليصبحوا كبش الفداء لكل الإضطرابات الناتجة عن أعمال الشغب التي ظهرت في تلك الفترة.

وبدون إغفال الجانب الديني الذي إستطاع تحقيق إتفاق وتفاهم خفي مع الإتجاه العقلاني الجديد، فإن اليهود كانوا يتورطون من حين لآخر في مشاكل مالية وعمليات تجسس وانقلابات وكذلك كان يشتبه فيهم بأنهم يشكلون شرذمة تارة مع الماسونيين وتارة أخرى مع الليبراليين وتارة مع الفوضويين.

والسبب في هذا التناقض العميق هو نفسه ذلك السبب الذي بدأ منذ أكثر من ألف عام ولكن التغير الوحيد الذي طرأ هو أن التغير في الإطار الفكري والسياسي للمجتمع الأوروبي أضفى على ذلك السبب أهمية وخطورة جديدة.

الأمر يتعلق بسبب يمكن أن نلاحظه في كل شكل من أشكال الظلم والتعسف الثقافي والعرقي، فذلك الازدراء الذي يبديه اليوم أبناء الطبقة الوسطى المحافظون والذين ينتمون لمنطقة "البوPo" السفلي (السهل الباداني) تجاه إقحام مهاجرين من العالم الثالث لعالمهم الصغير له جذور مشابهة لازدراء أبناء الطبقة الوسطى أثناء الحكم الفاشي تجاه النجاح الإقتصادي والإجتماعي الذي كان يعيشه التجار العبريون في مدنهم.

وما أقلق اليهود ولا يزال يقلقهم أكثر من أي شيء اخر هو هويتهم العرقية والدينية التي نجحوا في الحفاظ عليها على الرغم من إندماجهم الفعال في نسيج أوطانهم والذي لا يمكن إغفاله.

وحيث إنهم يشكلون دائماً جماعات فكرية خاصة داخل أكثر المجتمعات توسعا والتي يتقاسمون مع أفرادها المواطنة، فإن اليهود كانوا يعتبرون "جماعة غريبة "تم الحكم عليها مسبقاً لأنها تشكل هيكلاً تنظيمياً لدولة قومية حديثة.

في الفترة ما بين القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر إرتقى شعور عدم الثقة في الجماعات اليهودية والسبب الذي يكمن وراء ذلك هو ذلك الإحساس اللاعقلاني والعاطفي والذي أفرز إتجاهات مثل سيادة الجنس الألماني والجنس السلافي الأمر الذي خلق ضربا من التوحد بين المواطن وأرضه ونوع من المساواة الطبيعية بين مختلف أعضاء المجتمع الواحد. ويجدر بالذكر هنا ملاحظة روبرتو بيبرنو Roberto Piperno: "هذه الخلفية النفسية المتوارثة ليست بغريبة على الخضوع الذي يبديه جزء كبير من العالم أمام الجنون النازي المعادي لليهود ".(٦)

صفقة دريفوس وبروتوكولات حكماء صهيون

الحقبة المثيرة للشك تتميز بمظاهر عنيفة خاصة بالضجر والقلق ضد السامية، ففي روسيا كانت الحركات المناهضة لليهود – والتي تعرف بالبوجرام pogrom والتي بدأت عام ١٨٨١ بالتواطؤ الحكومي بحجة أن اليهود كانوا سيشتركون في إغتيال القيصر اليكسندر قد تتابعت حتى إنتهت بثورة ١٩١٧، ففضيحة قناة بنما التي تورط فيها العديد من رجال المال اليهود ساهمت في وضوح فكرة توريط اليهود في عملية "التهويد الدولية ". وفي فرنسا خلقت صفقة دريفوس تناقضاً عميقا في الرأي العام وجعلت لسنوات عديدة من القضية اليهودية سبباً في انشقاق وخلاف متوهج. فقد أوضحت من جديد قدرة التهميش التي يمكن أن يمارسها "كره مماثل"على قوى سياسية مختلفة فيما بينها والتي يمكن أن تكون على خلاف على أصعدة أخرى. فجميع أصحاب الأفكار الرجعية في فرنسا تحالفوا لجعل مسألة الفرد دريفوس المتهم بالتجسس لصالح الألمان والإيطاليين مثلا يقتدى به. وعلى الرغم من عدم وجود أدلة واضحة ضده ولكنها كانت كوصمة عار في جبين الديانة العبرية، فالأحكام المسبقة بسبب جزء من الأوامر العسكرية العليا وكذلك الضغوط السياسية المجحفة كان لها أفضل أثر على إجحام اليهود وعلى التدخل الحماسي

---

(٦) ج. بيبرنو، معاداة السامية المعاصر، المرجع السابق، ص ٣٣.

لمفكرين ذوي شأن وقدر معتنقين لفكر ايميليوزولا ولذلك فإن العسكري البائس تمت إدانته واستطاع أن يتجنب ذلك المصير فقط بسبب العفو الذي منحه إياه رئيس الجمهورية.

ويجدر بنا الحديث عن واقعة حدثت في نفس تلك السنوات ويستحيل تصديقها ولكنها تؤكد كيف أن كره كهذا لا يحتاج لوقائع ولكن فقط لحجج، إنه ظهور بروتوكولات حكماء صهيون والتي صادفت للأسف انتشارا واسعاً وظهرت استناداً إلى نظرية "التآمر الدولي ".

فقد ظهرت هذه الوثيقة مستندة إلى أصول صحيحة على أساس مرسوم فرنسي قديم معادي لبونابرت من جهاز المخابرات الخاص بقيصر روسيا المعروف بأوكرانا بهدف التقليل من قدر الجماعات اليهودية وخلق أرض ملائمة لاضطهادهم. وتم نشره للمرة الأولى عام ١٩٠٣ في جريدة سنامجه Snamja المحرضة للحركات الروسية المناهضة لليهود.

ويشير هذا المستند السري المزعوم بوضوح، بالإضافة لكونه خطة لغزو العالم، إلى الخطوات التاريخية المفترضة والتي سيسلكها اليهود على مر القرون لإحكام قبضتهم على الجنس البشري لتحقيق ذلك الهدف، وإعادة استخدام كل الأحكام المسبقة والخرافات القديمة التي كانت قد ميّزت في الماضي نظرية التآمر.

وقد أضفى ذلك النص الفريد والغريب على طبقة الصفوة التي كانت وراء تلك المناورة أغراضا عنيفة وشرسة، كل واحد منها كان أكثر وضوحا من الآخر: "سنشكل بقوة حكومة مركزية حتى نضمن لأنفسنا السيطرة على القوى الإجتماعية وعن طريق قوانين جديدة سننظم الحياة السياسية للرعية كما لو كانوا قطع كثيرة لماكينة واحدة، تلك القوانين ستحدد تدريجيا كل الإمتيازات والحريات التي يمنحها السادة. وبهذه الطريقة ستتطور نواتنا السرية وتصبح استبدادا قادرا وقوي قادرة على طرد السادة المعارضين في أي وقت وأي مكان"(٧).

فالزور والزيف سيكون واضحا لكل شخص حتى إذا كان عن طريق تحليل تاريخي سطحي للأمور ولكن لا يوجد أي مساحة قليلة لغض الطرف لمن لا يريد أن يرى الحقيقة.

الأمر يتعلق بأن الكشف عن هذه البروتوكولات اخترق بابا مفتوحا ولم يفعل شيئا آخر غير تأكيد فكرة كانت تتردد دائماً وبطريقة ملحّة ومفصّلة منذ أكثر من نصف قرن:

---

(٧) البروتوكول الرابع في ج. بيرنو، معاداة السامية المعاصرة، المرجع السابق، ص ١٧٠، ١٦٨

إنه "الخطر الدولي " الذي تشكله اليهودية. ولكن بعض ردود الأفعال والدفاع عن النفس الذي قامت به الجماعات اليهودية مثل إنشاء بعض الجمعيات والمشروع الصهيوني الخاص بإنشاء دولة عبرية إنتهت بتقوية ذلك البحث في إطار حلقة مفرغة من الشر.

وفي مقال مطول نشر عام ١٨٩. أكّدت مجلة "الحضارة الكاثوليكية" وهي تتبع اليسوعيين أن: "السبب الرئيسي الآخر الذي جعل التنظيم اليهودي شديد الخطورة داخل الدول المسيحية وكذلك ضاعف من النفور منهم داخل تلك البلاد هو العقيدة المشعوذة الناجمة عن التلمود والتي تنص على أن الإسرائيليين لا يشكلون بمفردهم العرق الأرقى للجنس البشري الذي يتكون من أجناس وأعراق أقل نقاء منهم والتي تتنافس معهم في حقهم في السيطرة على العالم والذي سيستطيعون في يوم ما الحصول عليه مستندين إلى قانون إلهي. انطلاقا من هذا الإعتقاد الجنوني تمت السيطرة على اليهودية من قبل الجميع، بل يمكن القول أنه سيشكل الحقيقة المطلقة الرئيسية التي يطلقون عليها ديانتهم. ولهذا فإن اليهود يهبون أنفسهم لخدمة حقوق المساواة لكي يسيطروا على المحاكم، الجيش والبرلمان وكذلك مجالس الوزراء، كما أنهم إنتهى بهم الأمر بأن يسودوا ويسيطروا على المدارس. ولكن العمل المميز الذي ضاعف من القدرة والقوة اليهودية الحديثة بمساعدة الجماعات الماسونية هو التحالف الإسرائيلي الدولي الذي أسس في باريس على يد كريميو Cremieux وامتدّ ليشمل العالم كلّه ليمنح الجماعات اليهودية المختلفة والمشتتة في مختلف أرجاء العالم القوة التي يتمتع بها كيان إسرائيل بأكمله "[٨].

وكانت أفكار مشابهة لتلك الأفكار تعبر عمّن كان يعتبر لفترة طويلة واضع نظرية سيطرة وهيمنة الجنس الآري، إنه هوستن ستيوارت شامبير لاين وهو ألماني من أصل إنجليزي (صهر فاجنر Wagner وشديد الإعجاب بأفكار جوبينو Gobineau). ويجدر بنا هنا ذكر هذا الإستشهاد القصير من أحد أهم أعماله والذي نشر عام ١٨٩٩ (دستور القرن التاسع عشر Die Grundlagen des XIX jahrunderts)، فبداية القرن الحادي والعشرين تدخل في إطار الكمال كما قلنا في الفصول السابقة فيما يتعلق بالأحكام المسبقة العرقية: "اليهود هم الجماعة الإنسانية الوحيدة التي فرضت على نفسها هذا القانون الرئيسي: نقاء العرق، وهكذا فهي تمتلك خصائص وسمات خاصة.

وبدون شك فإن اليهود عندما يزداد عددهم في دولة أجنبيه، يعتقدون بأنه قد جاءت اللحظة الملائمة لكي يحققوا الوعود التهديدية لتنبؤاتهم ويستعدون لتدمير الأمم بسبب إدراكهم الكامل لحقيقة العالم (ألا يمكن مقارنتهم بحشد من الجراد في زمن موسى؟).

---

[٨] المرجع السابق ص ٩٨، ١٢٠، ١٢٢

ويبدو أن فكرة الأمة اليهودية تتحول إلى فعل قوي، ربما لأن في هذه الحالة الأمـة توجد فقط كفكرة ولم توجد أبدا منذ بداية اليهودية "أمة"بالمعنى المتعارف عليه، ولكنهـا كانت فقط مجرد فكرة أو أمل"[٩].

وفي جو كهذا، ويقصد به هنا أنه بعد الحرب العالمية الأولى لم تساهم فـي تهدئـة الوضع، لم يكن مدهشا أن "البروتوكولات "لاقت نجاحا مدوياً. ففي ألمانيا نشرت عـام ١٩١٩ وفي إيطاليا عام ١٩٢١ وسببت صدمة كبرى بعد الحرب وكذلك كانت نتيجتهـا المرارة والحقد. وقد تم استغلال ذلك "الإلهام" مؤخراً من قبل الدعاية للنازية والفاشـية اللتين لم يكونا ليتركا فرصة كهذه.

الجانب الأكثر قلقا وإحباطا في ذلك الأمر هو أنه على الرغم من أن الحقيقة الزائفة لذلك الكتاب الرديء ظهرت بوضوح إلا أنه استمر في الظهور وتمّت الإستفادة منه من قبل الأوساط المعادية للسامية حتى بعد الحرب العالمية الثانيـة معطيـاً إشـارة البـدء لتفسيرات جديدة لمفهوم "المؤامرة" و"اليهودية العالمية" المعروفة بالتـدويل والـصهيونية وذلك يؤكد أن أي تحالف مالي يهودي لا يتم مع الماسـونية ولكـن مـع الإمبرياليـة الأمريكية.

وفيما يتعلق بالجانب الديني فإنه لم يظهر تقريبا في معاداة السامية المعاصـرة (إلاّ عندما يراد التأكيد على انتقام الرب الموجود في التوراة – ولهذا السبب فقد ذكرته فـي الجزء المخصص لتسامح الثقافات وليس في الجزء الأول المخصص بتسامح العقائـد – ومن ناحية أخرى فإنّ الكنيسة الكاثوليكية إتخذت موقفا مؤازرا للمعرفة المتبادلة ومؤيداً لاحترام العقيدتين بأداء دراسات مشتركة حول التوراة وكذلك ما يمكن أن يطلـق عليـه "حوار أخوي "عن طريق الإعلان الذي صدق عليه مجلس الفاتيكان الثاني.

وقد عرف يوحنا بولس الثاني معاداة السامية بأنها "خطيئة كبرى ضد الإنسانية"[١٠]، مردداً بذلك الكلمات التي ذكرها بيوس الحادي عشر عام ١٩٣٨. كما نادى يوحنا بولس الثاني أيضاً في زيارته التاريخية للمعبد اليهودي في روما اليهود بقوله "إخوة كبار فـي العقيدة". ويبدو أن الفكر المسيحي الخاص بـ "قتل الرب" حفظت في الأرشيف من قبـل الهيئات الكنسية حتى لو أن الموافقات المقننة التي سمح بها لفـيلم ميـل جيبـسون "آلام المسيح" أكدت أن تلك الفكرة يصعب أن تموت وأنها ستظل حيّة في ضمير الكثيرين من المعتنقين للمسيحية وكذلك في الأوساط الكهنوتية. وقد فقد المظهـر العرقـي الخـاص

---

[٩] المرجع السابق ص ١٤٥، ١٤٦، ١٥٥

[١٠] عبور عتبة الأمل ص ١١٠ مقابلة مع فيكتور ميسوري، مندادوري، ميلانو ١٩٩٤

بمعاداة السامية قونه وذلك في إقتران واضح بتطور الاتجاه العلمي فيما يتعلق بمشكلات الأجناس البشرية. فعلى الرغم من ذلك، فلماذا إذا لم تختفي معاداة السامية؟

وتتلاشى هنا أصوات كانت شديدة القوة في الماضي والتي يمكن أن تصبح اليوم مبهمة وغامضة ونذكر على سبيل المثال واحدا من أكثر الكتاب شهرة وهو الكاتب الصحفي الفرنسي إدوارد درومونت المعادي للسامية والمنتمي للقرن الثامن عشر ولم يغفل عن الكتابة عن أشياء من هذا القبيل.

"السمات الرئيسية التي يمكن أن نتعرف من خلالها على اليهودي هي أنفه الشهيرة المعقوفة، عيناه الغامزتان، أسنانه المغلقة، أذنه الكبيرة، أظافره المربعة بدلا من أن تأخذ مظهر ثمرة اللوز، جذعه طويل، قدمه مفرطحة وركبتاه مستديرتان، الكعب بارز للخارج بشكل غير مألوف، اليد ناعمة من الرياء والخيانة ويوجد لديه ذراع أقصر من الآخر. [١١]. ولكن ذلك لا ينفي أن السينما والمسرح وفن صنع الأيقونات وكذلك الصحافة الهزلية لم تتوقف عن إظهار نماذج كاريكاتورية "لليهودي ". وكذلك فإن المبالغة في التحدث عن بعض السمات الإيجابية للشعب اليهودي أخفى بطريقة ماكرة نية مواجهة أي مخاطر أو تجاوزات من قبل أشخاص يهدفون للسيطرة على التجنيد داخل أي فئة من النسيج الاجتماعي.

وتظهر في الأفق الموضوعات المتعلقة بمعاداة السامية المعاصرة بصورة كبيرة على الصعيد الاجتماعي الاقتصادي والسياسي والتي تم التعبير عنها بأسلوب واقعي "وموثق"ضخم من العناصر الموجودة بالفعل، وقد استطاع أن يجد بذلك بعض المصداقية لدى الرأي العام الذي كانت متوفرة لديه المعلومات بصورة تقريبية فقط.

فاليهود حققوا ثراء على حساب الدول التي كانوا يقيمون بها مسيطرين بذلك على أجهزة الإعلام – ويعد هذا الموضوع الرئيسي الذي ترتكز عليه أي دعاية لهم – وتواجدوا بذلك في المجتمع بصورة مبالغ فيها في المواقع المحورية في الحياة السياسية والمالية مشكلين بذلك شبكة متنامية ومتوافقة من المصالح التي يمكن لها أن تؤثر بقوة على إتجاهات الحكومات كما في الولايات المتحدة التي أصبحت سياستها الخارجية أسيرة في أيدي الأقلية اليهودية التي تتمتع بدور حاسم في الانتخابات الرئاسية.

وربما نجد تفسيراً لبقاء معاداة السامية أيضا في العصر الحالي، على الرغم مما حدث من نصف قرن ماضي ولا يزال حتى الآن، في الولع والشغف الذي يثيره

---

[١١] ج. لوتساتو فوجيرا، معاداة السامية، مرجع سابق، ص ٤٧ أيضا ج. بيبرنو معاداة السامية ص ٨٢ ذكر جزءا من خطاب درومونت ومن بين ما أكده فيه "السامي ليست لديه أية قدره إبداعية وعلى العكس فإن الآري يخترع ولم يخترع السامي حتى أصغر الإختراعات فهو قادر فقط على استغلال وتنظيم وتينفيذ إختراعات الآري المبدع الخلاق ويحتفظ بالعائد والفائدة لنفسه.

الموضوعات السابق ذكرها سلفا والتي تكشف الجانب الأكثر حساسية للانفعالات الجماعية. ودائما وأبدا نجد أنفسنا أمام خوف "جماعتنا" من جماعة أخرى معروفة بالدخيل والتي على الرغم من كونها تنشر الترابط والتوافق ولكننا لن ننجح في تحقيق المساواة معها أبدا .

فبالرغم من كل شيء فإن اليهود لا يزالون ماهرين ومؤثرين، فقد نجحوا في خلق دولة قوية وفعّالة لدرجة تجعل الأمر مرهقاً لرؤيتهم كضحايا أو كمحتاجين للحماية.

ولكن على العكس فبينما هم يثيرون الخوف والحقد والغضب لأنهم لديهم عقيدة مؤكّدة ولا يشوبها شكوك، ثقافة ذات تقاليد راسخة، شعور بالانتماء يتجاوز حدود المكان والزمان وهذا يجعلهم خلاّقين ومبدعين وكذلك قادرين على مواجهة أي صعوبات وأن يتميّزوا داخل المناخ الذي يتواجدون ويتعايشون فيه أيّاً كانت درجة عداوته ومناهضته لهم، فعلى العكس من ذلك يظل الكثيرون منّا غير مدركين للثقافة الذاتية وإذا ما أجبروا على الإبتعاد لا يترددون كثيراً في التكيف والذوبان ونسيان أصولهم أو حتى في تغيير أسمائهم.

من "كفاحي" إلى غرف الغاز

على أي حال فإن معاداة السامية لا يمكن أن تكون مثلما كانت في وقت سابق على الرغم من صعوبة إختفائها نهائياً ، ويجدر بنا هنا ذكر حدث كبير ومخيف وكارثي وقع في القرن العشرين وغير في كل العالم ليس فقط إدراك واستيعاب "المسألة العبرية "ولكنه إنعكس أيضاً بصورة عامة على العواقب اللامنطقية التي قد تؤدي إليها الأحكام المسبقة عن اليهود والتي إرتقت لمرتبة المسلمات.

ولهذا فإن دعاة الكراهية يحاولون التقليل من شأن ذلك الحدث بل ويحاولون أيضاً نفي صحته التاريخية. وقد أطلق على هذا الحدث المرعب لفترة طويلة "الهولوكوست" وهو مصطلح أدخله في اللغة الكاتب إيلي فيسيل "Elie Wiesel"– واحد من الناجين من أوشفيتس Auswchvitz – واستخدم بشكل واسع ولكنه يبدو مبهما وغير واضح حيث إنه كان في الماضي يشير إلى "تضحية كاملة" أي تقديم مجموعة من الضحايا كقرابين إلى الله لطلب المنّ والإحسان منه. واليوم يفضل إستخدام المصطلح اليهودي وثيق الصلة بذلك الموضوع "shoa" وهو مشتق من "عيسو Isaia (١١، ٤٧)" والذي يعني "إبادة، كارثة ".

ولم يفلح مصطلح "الإبادة "في إعطاء المعنى الكامل والتام لذلك الحدث الذي إقترفه لسنوات عديدة النظام النازي الألماني والذي أدّى إلى مقتل حوالي ٦ مليون يهودي أي ما يعادل ثلث يهود العالم. وربما يكون أكثر تعبيرا المصطلح الذي وصف به النازيون تلك العملية وهو مصطلح "الحل القاطع "الذي يهدف لإزالة اليهود من على وجه الأرض. ربما كان الألمان سينجحون في ذلك إذا انتصروا في الحرب العالمية، وفي النهاية لم يكن ليتبقى من اليهود حتى الذكرى التي كان سيمحو كل أثر لها التاريخ الذي كان سيكتبه المنتصرون، كما يفعل مرتكب الجريمة الكاملة.

ولا يمكن أن تتوقف إتجاهات خصبة من الشهادات، التحليلات، الأعمال الأدبية والمسرحية والسينمائية والفنية تتعلق بموضوع ذي ثقل وأهمية مثل هذا الموضوع، ومن الصواب التذكر الدائم والمستمر لمثل ذلك الحدث لأن تجاهله ليس دائماً بحث عن التحرر من ألم الإحساس بالذنب أمام ضخامة هذه الجريمة، ولكن يمكن أن يصبح مناورة عن سوء قصد لمن يريد أن يمحي الماضي لكي يتبرأ من شيء لا يمكن تبرئته منه، أن يمحي من الذاكرة واقعة يجب أن تبقى وتظل كإنذار للأجيال القادمة عن الفساد الذي يمكن أن تصل إليه طبيعة الإنسان المتحضر.

وإذا ما وضعنا في الاعتبار هذا الموضوع الذي أعيد عرضه على الرأي العام فإنني سيقتصر عرضي له فقط على المظاهر وثيقة الصلة بطريقة معالجتنا له.

ويشير كتاب "كفاحي Mein Kampf "– وهو العمل الأول الذي يعرض فيه هتلر مذهبه السياسي والإجتماعي – إلى هيمنة وسيطرة ألمانيا على العالم والتي تعتبر الأمة القائدة له يظهر فيه أيضاً الكراهية التي يكنها لليهود كنتيجة منطقية. فبعد أن استعادت قوتها وأهميتها، لاقت الموضوعات المتعلقة بمعاداة السامية ضربة قوية ومفاجئة من قبل حملات الدعاية للنازية، وكانت هذه الموضوعات وثيقة الصلة بالتقاليد القومية الألمانية الي يعتز بها أغلبية الشعب الألماني ومنها: نظرية "التآمر من قبل اليهودية الدولية والتي يسير في فلك تأثيرها أيضاً الثورة البلشيفية ونظرية فولكسجايست Volksgeist أي "روح الشعب "والتي لا يمكن أن تتقبل عناصر من شأنها أن تلوّث نقاء الأمة الألمانية فالكل يؤدي في النهاية إلى الأسطورة التي ترى الشعب الألماني "شعب السادة "المنوط به، بوصفه جنسا آريّا، سيادة كل الأجناس الأخرى الأقل نقاءاً أو الدنيا مثل الزنوج والسلافيين الذين سيكونون عبيداً للألمان.

ولكن، وكما هو الحال غالبا فيما يتعلق بأفكار الخياليين المختلين، فإن مهمة الرايخ الألماني التي أعلنها الفوهرر بصراحة شديدة في خطبه كانت أكثر إتساعاً من مجرد هيمنة قومية بسيطة ولكنها كانت مهمة ذات طابع عالمي تهدف إلى "الحفاظ على إنسانية

سامية وتطويرها عن طريق حفظ وزيادة العناصر الأكثر نبلا " وكذلك "تفويض قدرة العناصر الفاسدة جسديا وروحيا على النشأة والتواجد بهدف تحرير الإنسانية من كارثة هائلة ".

ويرى هتلر أن عملية السيطرة العنيفة والشرسة لشعب أكثر قوة على شعوب أخرى أكثر ضعفاً يعتبر ضرباً من ضروب قانون الطبيعة مثل "التهام القط للفأر ".

عندما دخل الفوهرر الألماني الحرب كشف من نبراته المعبرة عن كونه "أداة خاصة بالرب". إذ استطاع قذف زهرة الأمة الألمانية في وهج الحرب، دون أن يشعر بأدنى درجة من الألم على الدماء الألمانية التي أريقت، ويؤكد أيضا "لدي كل الحق في إبادة ملايين الكائنات التي تنتمي لجنس أدنى والتي تتضاعف كالديدان".

وبمجرد استيلائه على السلطة، أطلق نظام هتلر إشارة البدء لسياسته المعادية لليهود التي زادت حدتها في غضون السنوات الست – منذ ١٩٣٣ حتى ١٩٣٩ أي حتى بداية الحرب – ولمراحل متعددة لدرجة الحيلولة المتزايدة لليهود دون أي حق لهم حتى وصل الأمر لمرحلة التصفية الجسدية لهم. ويمكن القول بأن هذه المرحلة الأخيرة قد إكتملت على أكمل وجه في وقت لاحق وذلك بعد تأمل عملية طرد اليهود في أعداد كبيرة إلى بعض المناطق المركزية الكبرى مثل جزيرة مدغشقر [١٢]. فسياسة الحلف الفاشي كانت تؤازرها حزمة من قوانين التمييز والتي لا يمكن التقليل من درجة خطورتها على الرغم من أن موقف السلطات الإيطالية التي فرضت تطبيق إجراءات إضطهادية قد ظهر في بعض الحالات أقل حدّة وأكثر إنسانية من مثيلتها في ألمانيا.

وبعد تجربة أنواع وأشكال مختلفة ومتعددة من إبادة المسجونين، بداية من الكتائب الخاصة بتنفيذ حكم الإعدام مرورا بالعربات المجهزة لتكون غرف غاز، وصل مشروع "الحل النهائي" لذروته بعد دخول مصانع الموت طور التنفيذ في أماكن خاصة للإبادة تم إنشاؤها في مختلف أرجاء أوروبا.

وتبقى بعض الأسماء مثل أوشفيتس Auschwitz وبخنفالد Buchenwald وداخاو Dachauy وبلسن Belsen وبرجن Bergen وتربلينكا Treblinka ومايدانك Majdanek وبلتزيك Belzec وشيلمنو Chelmno وسوبيبور Sobibor ماوتهاوزين Mauthausen وأيضا سان سابا San Sabba في إيطاليا كوصمة عار لا تمحى في تاريخ أوروبا متفوقين بذلك على أي مثال آخر في تاريخها الثري بالقسوة واللاإنسانية.

---

[١٢] أنظر، من بين الدراسات النقدية المتعددة عن موضوع، دراسة Annah Arendt تفاهة الشر، إيلشمان في بيت المقدس، فيلتر بنيللي، ميلانو ٢٠٠١.

تجربة ميلجرام

أكثر ما يصدم في عملية الإبادة التي إرتكبها نظام هتلر هو الطابع الـذي اكتسبته كعملية إبادة ضخمة ورسمية تم التخطيط لكافة تفاصيلها ونفذت بدم بارد بالدقة الألمانية المعهودة. ويمكن اعتبارها بأنها عملية حديثة بمعنى الكلمة نظمت بأسلوب حديث يمكن وصفه بالكفاءة الشديدة وبوعي كامل. كما أنها نفذت بوسائل تقنية حديثة وأديرت من قبل شخصيات بارزة من بينهم علماء وأطباء ينتمون لواحدة من أكثر دول العالم تقدماً في المجالين الثقافي والتقني ويعيشون بين أفراد شعب يزهو ويفتخر بمستوى راق من التعليم المتحضر ولم يظهر هذا الشعب أدنى إهتمام بالمأساة الهائلة التي يقوم بها النظام الألماني على بعد خطوات قليلة من منازلهم المرفهة التي تنتمي للطبقة الوسطى.

ولا يتورط في تلك الجريمة هوس وجنون حزب مستبد ولا إنصياع الشعب الألماني له فحسب ولكن أيضاً حالة الرقي الأخلاقي التي وصل إليها إنسان القـرن العـشرين المتحضـر وتعد هذه الجريمة، مثلها مثل ما حدث في هيروشيما، دليلاً قاطعـاً علـى فشل التقدم المادي في التخلص من القسوة المتوارثة تجّاه من يعيشون معنا، بـل علـى العكس أساءت إليها مضيفة عليها صور من الانحراف الفكري والتي لا يمكن أن تقترفها الحيوانات بمختلف أنواعها، ولذلك فإنه من الخطأ وصفها "بالبهيمية – أو بالوحشية ".

وقد أعطت المحرقة إشارة البدء للعديد من المناقشات الجدلية ذات الطابع التـاريخي والديني وأيضاً الطابع الفلسفي الذي يتعلق بمسؤوليتنا الجماعية تجاه ما حـدث ولهـذا الطابع الفلسفي أهمية خاصة في تحليل حالة اللاتسامح لأنه يؤدي بنا بطريقة فظّة وعنيفة إلى العودة إلى المشكلة الأولى الخاصة بميل الإنسان للعنف.

في الفترة ما بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٦٣ قام عالم النفس الأمريكي ستانلي ميلجـرام Stanley Milgram بتجربة ذات علاقة وثيقة بالموضوع الذي نناقشه وأصبحت فيما بعـد مثالاً هاماً لعلم النفس التجريبي، ومن المعروف أن الذريعة الرئيسية التي قدمها زعماء المخـابرات الـذين أدينـوا فـي نـورمبرج Nuremberg *(*) هـي بيفيلسنوتـستاند Befehlsnotstand أو "حالة الضرورة بسبب أوامر مفروضة والتـي ارتقـت لمنـزلة الضرورة القانونية.

فمن ليس على دراية كاملة بالقانون يعرف أو يمكن أن يدرك أن مـن يرتكـب أي خرق للقانون أو أي تصرف يتسم بالعنف بـسبب وجـوده تحـت ضـغط الحاجـة أو

(*) هي المدينة التي تمت فيها محاكمة النازيين (المترجم).

الضرورة، على سبيل المثال الأم التي تحطم زجاج الصيدلية أو تسرق الدواء بسبب مرض ابنها الخطير، يمكن أن يحصل على حكم مخفف.

وقد دافع منفذوا عمليات القتل الجماعية في معسكرات تجمع اليهود عن أنفسهم بأنهم كعسكريين لم يكن لديهم خيار آخر وأنهم في حالة رفضهم تنفيذ الأوامر سيخضعون للمحاكمة العسكرية ويواجهون شبح الإعدام رميا بالرصاص. ولكن هل يمكن أن تصل المخاطرة لهذا الحد ؟ وهل من الصواب أن يتورط الإنسان في جريمة قتل فقط خوفا من تعرض حياته للخطر ؟.

فقد بنى ميلجرام تجربته على أساس تحليل سلوك أشخاص عاديين مستوى ثقافتهم متوسط يخضعون لاستجواب خاص بالإنصياع لأوامر سلطة معينة، ونظمت هذه التجربة على مدى زمني طويل وبكفاءة علمية في جامعة بالي المرموقة.

أما طلاّب المجموعة الأولى فقد كانوا على دراية سرية بهدف التجربة وقيل لهم أنه في كل مرة يعجزون فيها عن الإجابة على الأسئلة الموجهة لهم أو يرفضوا الإجابة فإنهم سيتعرضون للصعق بالشحنات الكهربائية. ولكن هذه الشحنات في حقيقتها غير حقيقية لأن الأجهزة التي تطلقها لا تعمل وفي نفس الوقت كان عليهم إظهار حالة من التألم الزائف ولكنه مقنع قدر المستطاع لمن يراه.

وتم تسليم الأجهزة الكهربائية الزائفة المحاطة بمجموعة من الروافع إلى متطوعي الفريق الثاني دون إخبارهم بأنها لا تعمل وتم تكليفهم بمهمة معاقبة زملائهم بشحنات كهربائية متزايدة بعد كل إجابة خاطئة وذلك بأوامر من المشرفين على التجربة. وكان يتم إعلامهم بأن زيادة الشحنات الكهربائية عن حد معين يمكن أن يسبب ضررا بالصحة أو يعرض حياتهم للخطر.

أما عن نتائج التجربة فكانت غير متوقعة ومزعجة فأكثر من ٦٠% من الطلاب الذين وجهت إليهم التعليمات بمواصلة التجربة أكملوها طبقا لأوامر "مشرفيهم "المتعجلين، حتى وصلوا لأقصى مستوى من الشحنات الكهربائية على الرغم من مظاهر المعاناة والإحتضار التي تبدو على زملائهم مع العلم أن إستخدام الرافعة الأخيرة سيودي بحياتهم.

ومن النتائج الأكثر إزعاجا وإثارة للقلق في هذه التجرة هي أنها كشفت أن الإنسان البشوش الدمث الخلق إذا تعرّض لبعض الظروف المعينة وإذا إنخرط في آلة بيروقراطية خالية من أي شروط أخلاقية وأساسها إحترام الأوامر والسلطة ربما سيتورط في جريمة قتل. حتى نحن الذين نعيش في أكثر الفترات تقدما في تاريخ مجتمع

التكنولوجيا المتقدم يمكن أن نجد أنفسنا في وضع الإنصات لأوامر غير أخلاقية تصدر عن دولة متسلطة.

ويندهش الكثيرون اليوم من أن الحلم الذي كان يهذي به هتلر لم يتم إستيعابه بكامل حجمه منذ البداية من قبل المستشارية الألمانية ومن جانب شريحة واسعة ممن يشكلون الرأي العام الأوربي والأمريكي ولا حتى وكما يبدو من قبل الكنيسة. ولكن بعض الموضوعات التي أثارها ذلك المبيض النمساوي السابق ذو المظهر البالي والذي يتميز بقدرة كبيرة على إيهام الجماهير استطاعت أن تلمس أوتار القلوب وتتوافق مع كل الحديث والوعود التي كانت شريحة كبيرة من الشعوب الأوروبية وخاصة التي إنهزمت في الحرب العالمية الأولى تريد أن تسمعها، ليس فقط في ألمانيا ولكن في كل أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وكل الهيئات الكنسية الكاثولكية وغير الكاثوليكية.

"والحقيقة الجديدة التي تكشفها المحرقة والتي يمكن أن نستشفها من مرتكبيها – كما كتب زيجمونت باومان Zygmunt Bauman – هي أنه ليس من الممكن أن يحدث لنا شيء مماثل ولكن فكرة أننا نحن أنفسنا يمكن أن نقوم به "[١٣].

تلك الاعتبارات، البعيدة كل البعد عن تبرئة المسئولين المباشرين عن تلك الإبادة، يجب أن تكون بمثابة تحذير لنا جميعاً بأنه لا يكفي أننا لا نحمل أي أحكام مسبقة معادية للسامية لكي نتبرأ من تلك القضية كما أنه يجب أن نتيقظ لخطر أن عمليات الإبادة لمجموعات من البشر بسبب هويتهم الثقافية الخاصة يمكن أن يتكرر بأي صورة، ذلك الخطر الموجود بصورة دائمة.

تفرد المحرقة

تجدر الإشارة إلى أن الإتجاه الداعي إلى ضرورة عدم تقليل الإهتمام بالمأساة التي إستمرت لأكثر من نصف قرن مضى في قلب أوروبا وكذلك الحفاظ على وعي الأجيال بها تم التأكيد على أهميته من قبل العديد من المؤرخين (من بينهم بعض الدارسين حسني النية وليس لديهم أفكار مسبقة معادية لليهود) والذين يهدفون أيضا إلى التقليل من شأن المحرقة shoa.

ذلك الاتجاه، الذي يمكن أن يطلق عليه "اتجاه داعي لتعديل ومراجعة مذاهب وأفكار متوارثة – إتجاه تحديثي "(الموجود بشكل خاص في ألمانيا لأن أساسه الشعور بالقلق

---

[١٣] ذكره ج. لوتساتو فوجيرا، معاداة السامية، مرجع سابق ص ٥٧ – ٦٠

والانشغال بشأن تحميل الشعب الألماني ذنب "الخطيئة الجماعية"، يستمر في إطار تاريخ المذبحة التي إقترفها النظام النازي ضد اليهود ومساواتها بسائر المذابح التي تعرّضت لها شعوب أخرى مثل الأرمن على أيدي الأتراك، وكمبوديا أيام حكم بولبوتPolpot، وأوغندا أثناء حكم عيدي أمين Idi Amin وخاصة العمليات التي حدثت في روسيا أثناء فترة حكم ستالين. فالمحرقة لن تكون، طبقاً لتفسيرهم، المذبحة الوحيدة أو الأسوأ في هذا القرن.

ويوجد اتجاه ثان يمكن أن نطلق عليه "اتجاه رافض ومعارض" امتد وانتشر وسعى إلى أظهار أن إبادة ستة ملايين يهودي في معسكرات تجمعاتهم ليست حقيقية وأن غرف الغاز لم تستخدم لقتل البشر ويرى كذلك أن القصة بأكملها يمكن أن تعتبر ضربا من ضروب المبالغة التي قامت بها الدعاية لليهودية.

وعلى الرغم من صعوبة تصديق ذلك التوجه ولكنه وجد صدى لدى العديد من المؤرخين ذوي القدر وكذلك لدي العامة حتى لو كان مستواهم الثقافي متواضعا. ومن بين التكهنات التي ظهرت بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر على نيويورك إحتمال أن تكون المخابرات الإسرائيلية هي المدبرة والمخططة لتلك الهجمات ولذلك حذّرت اليهود من الذهاب لمركز التجارة العالمي ذلك الصباح، وذلك يعد تأكيداً آخر بأن شبح الكراهية والأحكام المسبقة ينجح أكثر من أي وقت مضى في إعادة صياغة رواياته المخيفة.

فربما تدخل هذه المواقف التي تم إتخاذها في إطار عملية تحوّل وتغيّر المواقف تجاه تلك الجريمة والتي بدأت تتضح وتتأكد، ولكن يمكن القول أيضاً بأنه بسبب هذا الإصرار على أن المحرقة عمل فريد في التاريخ وعلى ضخامة تلك الجريمة فإن الأمر لا يتعلق بمسألة أكاديمية بحته، ولكنها تتعلق بالجانب الأخلاقي أكثر من الجانب التاريخي فالمحرقة يمكن إعتبارها واحدة من قائمة طويلة من لصور المبالغة في العنف المتطرف التي تلجأ إليها جماعة من البشر دفاعاً عن نقاء هويتها.

وعلى أي حال فإن هذا الحدث لا يمكن تشبيهه بسائر المذابح الكبرى وجرائم الإبادة التي حدثت في العصر الحديث لأسباب عرقية، ليس فقط لأبعادها المختلفة (حدث ذلك بعدما كشفته محاكمات نوريمبرج بإدخال مصطلح "الإبادة "في اللغة المعاصرة) ولكن بسبب طبيعتها الخاصة. فهي حالة قهر فريدة يتعرض لها شعب بأكمله على أساس أيديولوجية علمانية، حالة قهر فريدة قامت بها حضارة، أي الحضارة الأوروبية، تسعى لمحو أي أثر لجزء هام من تراثها الثقافي. وفي النهاية فإنها تمثل أيضاً حالة فريدة

لدولة حديثة بني نظامها الرسمي والعسكري على أساس إبادة جماعية مع تورط الشعب أيضا في ذلك.

وقد لخّص المؤرخ النمساوي راؤول هيلبرج في عمله العظيم الذي يتحدث عن "تدمير يهود أوروبا "بأسلوب واضح كيف أن الهولوكوست (المحرقة) تمثل النتيجة المنطقية للعنة متزايدة بدأت منذ قرن ونصف:

"منذ البداية قال المبشرون المسيحيون لليهود: لن تستطيعوا العيش معنا كيهود بينما قال لهم الزعماء العلمانيون الذين تبعوهم وبالأخص أثناء الحقبة الأولى للعصور الوسطى: "لن تستطيعوا العيش معنا "أما النازيون فقد أصدروا أوامرهم قائلين: "لن تستطيعوا العيشِ أكثر من ذلك "فكانت المراحل الثلاثة كالتالي: أولا التغيير الجبري للديانة، ثم ثانياً بدأتَ عملية إنشاء الأحياء المخصصة لليهود أو نفيهم ثم في النهاية الحل النهائي، أي الموت"[١٤]. إذا تغلغل عبث وسخف ذلك التطور الشرير بعنف في الضمائر، يمكن الوصول إلى النقطة الهامّة واللازمة لتغيير حقيقي وليس زائف لنظرتنا تجاه "أي كراهية مماثلة ".

---

[١٤] ذكره باولو كوللو، فرديناندو ساسي، معجم اللاتسامح، بومبياني، ١٩٩٥، ص ١٠١



الجزء الثالث

اللاتسامح السياسي

اليقين المستمد من القائد



«إن القوّة لا تستطيع السيطرة على معتقدات البشر، ولا أن تغرس معتقدات جديدة في نفوسهم، ويمكن أن يفعل ذلك الذوق والصداقة والمعاملة الرقيقة. وبالفعل فإن الكثير من الناس الذين تمنعهم المشاغل أو الكسل من فحصها، يقبلون الكثير من آرائها، حتى في أمر الدين، بناء على الثقة في الآخرين، ولكنهم لا يأخذونها أبدًا من أحد لا يعرفون عنه يقينا المعرفة والصدق، والآن من المستحيل أن يعترفوا بهذه الأشياء في مَن يضطهدهم.

ولكن الناس الذين يتمتعون بروح البحث، على الرغم من أنهم لا يقبلون أفكار شخص آخر للذوق الذي يظهره هذا الأخير، فإنهم مع ذلك أكثر استعدادًا للاقتناع، وهم أكثر استعدادًا لبحث الأسباب التي يمكن أن تقنعهم باعتناق رأي ذلك الذي يشعرون بأنهم مجبرون على حبه.

وبما أن القوّة طريقة خطأ لإبعاد المخالفين عن قناعاتهم، في حين أنكم وأنتم تقودونهم لمعتقدكم، تربطونهم بصورة ثابتة بالدولة، فإن القوّة لن تنجح كثيرًا في كسب صداقة أولئك الذين يحتفظون بصورة قاطعة بقناعتهم ويصرون على رأي مخالف لرأيكم، ومن يختلف عنكم فقط في رأي يكون منفصلاً عنكم فقط بمسافة واحدة، ولكن إن عاملتموه بصورة سيئة بسبب مَا يعتقد أنه صواب، فإنه يصبح عندئذ عدوًّا كاملاً لكم: في المرة الأول مجرد انفصال، وفي الثانية مشاجرة. وليس هذا هو كل الضرر الذي سيحدثه التشدُّد بيننا، نظرًا إلى الوضع الحالي للأشياء، لأن القوّة والمعاملة السيئة لن تزيد العداء فحسب، ولكن أيضًا عدد الأعداء. وبالفعل فإن المتعصبين، إذا نظرنا إليهم جميعًا معًا، وعلى الرغم من أنهم كثيرون، وقد يكونون أكثر عددا من الأصدقاء المحبين لديانة الدولة، فإنهم مع ذلك متشرذمين إلى أحزاب مختلفة، وبينهم نفس المسافة التي تفصلهم عنكم، إن لم تبعدوهم أكثر بالمعاملة السيئة التي يتلقونها، لأن معتقداتهم البسيطة غير متناسبة فيما بينها بقدر مَا هي كذلك مع معتقد كنيسة إنجلترا. وأناس متفرقون على هذا النحو يصبحون أكثر أمنًا بالتسامُح، لأنهم مع بقائهم تحت حكمكم في أفضل حالٍ يمكن أن يأملوا فيه، لا يُحتمل أن يجتمعوا لاختيار شخص آخر، لا يمكن أن يكونوا واثقين من أنهم سيلقون منه معاملة طيبة هكذا. ولكن إن اضطهدتموهم، فإنكم تجمعونهم جميعًا في حزب واحد مع مصلحة وحيدة ضدكم، وتدفعونهم إلى التخلص من نير العبوديّة ومحاولة المغامرة بحكومة جديدة...».

جون لوك، مقالة حول التسامُح



الفصل التاسع عشر

ميلاد فكرة التسامح

«إذا تعين على أن أتخيل مدينة فاضلة ديمقراطيّة، فإنني أتخيل موقفًا يستطيع فيه مرشح للبرلمان أن يأمل في جذب الأصوات بأن يروي في جولاته أنه اكتشف أنه ارتكب في العام الماضي واحدًا وثلاثين خطأ، وأنه نجح في أن يصلح منها ثلاثة عشر بالكاد، بينما اكتشف خصمه سبعة وعشرين منها، على الرغم من أنه صحح منها ثلاثة عشر هو الآخر. ولسنا بحاجة إلى أن نضيف أن هـذه أيضًا مدينة فاضلة للتسامُح».

كارل بوبر

[قوة ثلاث أفكار تغير العالم - الديمقراطيّة القديمة والديمقراطيّة الحديثة - مخاض المبادئ السياسيّة الجديدة - تسامح لوك وبايـل وفـولتير - مساحة متزايدة للمبعدين - حضارة الشكّ]

قوة ثلاث أفكار تغير العالم

لماذا نخصص جزءًا منفصلاً لعدم التسامُح السياسيّ؟ وبعد أن اجتزنـا المـرحلتين الأوليين من رحلتنا في مجالات عدم التسامُح، في البداية من الزاوية الدِّينيّة وبعد ذلك من الزاوية الثقافيّة، هل من المناسب أن نبدأ الرحلة من جديد مرة أخرى من زاوية ثالثـة، وهي الزاوية السياسيّة؟ للوهلة الأولى قد تكون الإجابة: «لا، إن هذا من غير المناسب فعلا، حيث إن الزاوية السياسيّة كانت موجودة طوال الوقت». لقد دخلت السياسة بصورة طاغية في كل المعالجة التي تمت حتى الآن، ولم يكن من الممكن إبقاؤها فـي الخـارج حتى لو أردنا، لا عند الحديث عن الدين ولا عند الحديث عن الثقافة. لسبب بسيط، وهو أن عدم التسامُح وهو ظاهرة مميزة للإنسان من حيث إنه حيوان اجتماعيّ، مغمور دائمًا في مَا يسميه مكيافيللي «الواقع الفعلي»، وعلى الرغم من أننـا يمكـن أن نـستعرض

مجالات الفلسفة والعلم، تارة بذكر الله، وتارة باستبعاده للتنقيب في النفس الجماعيّة، عندما نتحدث عن العلاقات بين البشر، عن خصوماتهم وعن طرق مواجهتها وإمكانيات وحدود الحوار بين المختلفين، فيجب علينا بالضرورة أن نعود إلى صعيد السياسة، أي مجال الممكن والخيارات الواقعية.

وبالتالي فإن هذا الجزء الثالث لاَ يستأنف بحث اللاتسامُح في مجمله كما في الجزأين السابقين من الكتاب، ولكنه يقتصر على تسليط الاهتمام على جزء محدود من الظاهرة. بمعنى آخر، على ذلك السياق المكاني-الزماني المحدد تمامًا، وهو الغرب، في مَا يُسَمَّى بالعصر الحديث، الذي أصبح فيه التسامُح واللاتسامُح موضع إدراك من نوع خاص، واتخذا ملامح سياسيّة خاصّة بذاتها.

ولا ننسى بالفعل أنه قبل تلك اللحظة منذ أبعد الحقب القديمة وطوال العصر الوسيط، لم يكن من الممكن تقديمٍ وصف سياسيّي دقيق لمفهومين اثنين، لأن السياسة والدين لم يكونا منفصلين، كانا شيئًا واحدًا، ولا يزالان كذلك في العالم الإسلامي، وجزئيًّا في العالم الشرقي، حيث الدين دين اجتماعيّ بالدرجة الأولى. والتسامُح كهدف سياسيّ، وبالتالي عدم التسامُح كقصور سياسيّ، يتطلب علاجًا، ظهرا على مسرح الأحداث متزامنين وكنتيجة لهذا الفصل، الذي حدث في أوربا، في عصر حديث نسبيًّا، بداية من القرن السابع عشر. أي عندما فهم بعض المفكرين الكبار التنظيم الاجتماعيّ بطريقة جديدة جذريًّا، على أساس سيادة سياسيّة متحررة من أي قهر واضطهاد من النوع الدينيّ.

وقد أطلق مثل هذا المفهوم ثورات، بالمعنى الحرفي للكلمة، مع كثير من المتاريس وتبادل إطلاق النار، ولكنه أطلق بصفة خاصّة ثورة في الطريقة التي نظر بها الإنسان حتى ذلك الحين إلى علاقاته مع السلطة. ومن الاحتجاج على مبدأ الحقّ الإلهي انتقل الإنسان إلى الاحتجاج على طلاقة التقاليد والعادات، ليقدم مضمونًا جديدًا لمفهوم القانون الطبيعيّ نفسه. وقد وُلدَت الحداثة، ومعها التسامُح في نهاية المطاف كتصنيف غربيّ بحت. وهو إنجاز صعب، رسم قطيعة مهمة، سواء مع الرؤية اللاهوتية لعالَم ينظمه قانون الله، أو مع الرؤية القديمة لعالم ينظمه قانون الأجداد.

ومفهوم التسامُح، من حيث هو مصطلح جديد وُلد مع الحداثة، لاَ يمكن ألاَ يكون مرتبطًا ارتباطًا وثيقا بالأفكار الثلاث الكبرى التي تمثل دعائم مهمة مماثلة للحداثة، وهي الأفكار الثلاث التي وُلدت في أوربا وفي العالم الجديد منذ مَا يزيد قليلاً على ثلاثة قرون: أفكار حرية الضمير (وبالتالي الفصل بينٍ دائرة المقدس ودائرة الدنيوي)، والمساواة (وبالتالي حقوق الإنسان)، وحماية الأقليّات.

وهذا لا يعني بالطبع أنه قبل ذلك الحين لم يكُن هناك تسامح أو فكرة كرامة الإنسان أو حماية الضعفاء. لقد رأينا أن هذا غير حقيقيّ. فتعاليم «الخبراء الكبار»، بوذا وزرادشت وسقراط والمسيح وكثيرين آخرين، تجد دعما في مختلف البلدان في كتابات غزيرة مستلهمة من موضوعات التضامن وقيمة الإنسان.

ومع ذلك فإنه من الناحية السياسيّة كان التسامُح قبل عصر الحداثة شيئًا مختلفًا، كما كانت فكرة الديمقراطيّة مختلفة، حتى إن ألفاظ الاستبداد والحكم المطلق والحكم الفرديّ، لم تكُن لها في ذلك الحين ذلك الملمح السلبيّ الذي نعطيه لها اليوم، مع تشبيهها بالطغيان والدكتاتورية والقمع.

ويمكن أن نؤكد مباشرة أن الاستبداد كان العنصر الرئيسيّ في مَا يسميه علماء الاجتماع «الضرورات الوظيفية»، كأساس لتطور الحضارات.

وفي الجزء المخصَّص للتسامُح الثقافيّ رأينا كيف أن هذا الأخير (أي الالتصاق الحديديّ بالتقاليد) مَثَّل، منذ زمن بعيد لا نذكره، طريقة للتخلص من الخوف من الموت الفرديّ بتعويضه بيقين بقاء الجماعة على قيد الحياة. ومن نفس المنظور غير الميتافيزيقيّ والاجتماعيّ أصبح الدين الرابطة الأولى التي تقدِّس وتقوِّي التقاليد، وذلك أيضًا بهدف الاستمرار في تلاحم الجماعة.

وفي أبسط المجتمعات البدائيّة كان يمكن أن تكفي بعض القواعد البدائيّة لدعم هذا الاندفاع الأساسيّ للتجمع بلا حدود: الروح التعاونية، والمشاركة في الخيرات الأساسيّة للبقاء، والزواج الذي يُنظَر إليه على أنه تحالف بين عائلات أكثر مِنْ مجرَّد أفراد وسلسلة كاملة من «الرموز المقدسة والمحرَّمات».

ولكن بالتدريج، ومع تعقُّد المجتمع وتضاعف الاحتياجات الجماعيّة كانت الهياكل الأبوية تظهر دائمًا أقلّ ملاءمة لتأمين التلاحم واستمرارية الترابط الاجتماعيّ. وهكذا ولدت الحاجة الوظيفية لسلطة قهريّة.

وظهرت بمزيد من القوّة شخصيّة القائد كمصدر مستقل للثقة. وكان يُنظَر إلى سلطة القائد من قبل أعضاء الجماعة والقبيلة والدولة، كمرجعية ضروريّة، وكانت تعتبر ثمينة جدًّا لتحقيق هدف الحفاظ على النظام والسلام الداخلي، بحيث يتعين دعمها وتقديسها بالتظاهر بإضفاء التكليف الإلهي عليها.

ومن المحتمل جدًّا أن الزعيم في الحقبة القديمة كان شخصيّة ورمزية في الغالب، والأول بين أقرانه، وكان يتوسط بين المطالب المختلفة للجماعة، مستمدًّا سلطته من المكانة والسن المتقدمة، ومع تعقيد التنظيم السياسيّ-الاجتماعيّ شيئًا فشيئًا كان يصبح

أكثر فأكثر شخصية سلطوية ومركزًا للنظام بأسره، الذي كان لا بدّ لسلطته أن تقوم وتقوى يوما بعد يوم اعتمادًا على دعامتين، كانت كل منهما تدعم الأخرى بالتبادل: الدين، والتقاليد. وكان يحدث بالتدريج قلب للنظام الأوّليّ للمجتمعات البدائيّة: بينما كان الزعيم في البداية في خدمة المجتمع، كان المجتمع الآن في خدمة الزعيم.

وفي التمثيل الكلاسيكي لأرسطو كانت أشكال الحكم -كما هو معروف- ثلاثة: الملكية (الحكم الذي يمارسه شخص واحد)، والأرستقراطية (الحكم الذي تمارسه جماعة صغيرة)، والجمهورية (الحكم الذي تمارسه الأغلبيّة). وإذا فسدت السلطة، ولم تخدم في النهاية المصلحة العامّة بل المصلحة المقصورة على شخص واحد، أو جماعة صغيرة أو الجماهير، فإن هذه الأشكال كانت تنحدر إلى الطغيان، وحكم القلّة والديمقراطيّة. ولكن الزعيم، المعين على أي حال، كان دائمًا حائزًا على الثقة في إدارة الأمن العامّ، وهو الوحيد المؤهّل لتقرير مَا هو خير وما هو شر للتابعين له. وقد كان يتمتع بسلطات واسعة لحماية الممتلكات العامّة واحتكار استخدام القوّة: سلطة سَنّ القوانين، وسلطة إدارة العدالة، وبالتالي العقاب، بالموت أيضًا، لأيّ انحراف عن النظام، وأخيرًا سلطة إعلان الحرب.

وفي المجتمع السابق للعصر الحديث -وهو مجتمع «مغلق» يتسم بالاستبداد والجمود، لأنه كان موجَّهًا نحو هدف أوّليّ هو خلود الجماعة -لم يكُن من الممكن الكلام، كما رأينا، عن مناخ عامّ من عدم التسامُح. وبصفة عامّة كان هناك اعتبار واجب للاختلافات والاحتياجات الخاصّة لمختلف الجماعات المكونة للمجتمع، وإن كان ذلك مع تحديدات في الحركة وحذر شديد إزاء أي شكل من أشكال الشقاق. وكانوا يحاولون في حدود المستطاع تلبية الاحتياجات، وليس فقط الماديـة، للجماهير. وكان ملوك الإمبراطوريات الكبرى في بلاد مَا وراء النهرين يستمدُّون شرعية سلطاتهم من كونهم يتمتعون بفضائل أخلاقية إلهيّة، والعدالة في المقام الأول. وحامورابي، في مقدمة القانون الشهير الذي يحمل اسمه -وهو من أقدم القوانين في التاريخ- يحدِّد بوضوح بين واجباته: «تشجيع رخاء الشعب... وتغليب العدالة في البلاد، لتدمير الشرير والسيِّئ، حتى لا يستطيع القوي قهر الضعيف». وهناك العديد من النصوص المصريّة القديمة التي تدين الملك الذي أظهر عدم حساسيته لحقوق المُعدَمين ولم ينظر بعين الاعتبار إلى اليتيم والأرملة والمريض. وأنبياء العهد القديم يصرخون ضدّ الملوك الذين لم يستطيعوا ضمان الحقّ والعدل[١].

[١] جاك روليه، Religion et Politique، مرجع سبق ذكره، ص ص ٣٥ – ٣٧.

ولكن فكرة أن الفرد أو الجماعة يمكنهم التعبير بحرية وإلى اخر مدى عن خصوصياتهم، كانت فكرة غريبة تمامًا عن العقليّة السائدة. وسواء بالنسبة إلى الحكام أو المحكومين، كانت الأولويات القصوى هي الوفاق الاجتماعيّ -وبالتالي التعايش السلمي بين مختلف مكوّنات المجتمع- وقدرة الزعيم على مواجهة الاحتياجات الجماعيّة.

وكانت فكرة المساواة مستبعَدة في دائرة أخلاقية مبهمة، وبالتالي غير معروفة عمليًّا في الدائرة السياسيّة.

وكان وجود أثرياء وفقراء وضعفاء وأقوياء وقامعين ومقموعين يُعتبر أمرًا حتميًّا، وجزءًا من نظام الطبيعة، وكان أمرًا من أمور الحياة، حزينًا وظالما وملعونًا، كما نريد، ولكن كان التمرُّد عليه لاَ يُجدِي، بل سيجلب أثرا عكسيًّا. ويلجأ توينبي إلى صورة «التمتع بالوكالة» لأنه لم يكُن ممكنًا بالنسبة إلى الجميع أن تكون لديهم الإمكانيّة للعيش في قصور جميلة وأن يأكلوا في أوعية من ذهب، وأن يرتدوا ملابس فاخرة، وكان عامّة الشعب Popolino يُفرِحون لأن الزعيم أو كبير الكهنة كان بوسعه الحصول على أفضل مَا كان يمكن أن تقدمه حضارة متقدمة لقلّة منهم. وكان الناس يفرحون بالعروض الكبرى حيث كانت تستعرض مظاهر الفخامة والسلطة، لشعورهم على الأقل بأنهم جزء من هذا المجد.

وفي أي نظام سياسيّ كانت هناك ثلاث فئات كبيرة من الأشخاص الذين كانوا يتعرضون للتمييز سياسيًّا، ولم يكُن يُنظَر إليهم على أنهم مواطنون، على الرغم من أنهم يمثلون الغالبيّة العظمى من الشعب، وعلى الرغم من أنهم يُسهِمون بصورة واضحة جدًّا في الرخاء المشترك: النساء والأجانب والعبيد. وبخاصة العادة التي ننفر منها جميعًا، وهي العبوديّة، كانت تعتبر عنصرًا لاَ يمكن التخلّي عنه في نظام اقتصاديّ-اجتماعيّ لم يكن من الممكن أن يظل على قيد الحياة دون مساعدة عمل العبيد، الذي كان يقوم بالدور الذي تقوم به الآلات اليوم. وأيضًا من الناحية البشريّة البحتة في نفس الوقت كان وضع العبيد يعتبر نتيجة حتمية لأي هزيمة عسكرية. وكان الوقوع أسرى في الحرب، أحياء ومع وسائل إعاشة مضمونة، يمثل الشر الأدنى بالقياس إلى الموت في المعركة أو القتل في بعض غارات النهب.

وكان للنساء، علاوة على وضعهن القانونيّ المتَّسِم بالدونية والتبعية للأب أو الزوج، تعليم محدود، مع بعض الاستثناءات في الطبقات الراقية، وكُنَّ محصورات في المنزل، ويُستخدمن في الأعمال المنزلية، وكُنَّ يخرجن فقط في مناسبة الأعياد الدِّينيّة والجنازات. وإلى حدّ مَا كان وضع الإماء أفضل، حيث كان بوسعهن الخروج لأداء وظائفهن ونساء البلاط، اللائي كان بوسعهن الحصول على تعليم راقٍ، مثل فتيات الجيشا Geishe الحاليّة.

والرأي القائل بأنهن «اعتدن هذا»، راضيات بحالهن في تلك الحقبة، غير صحيح. وكانت صرخة الألم التي نجدها بالفعل في ميديا Medea التي كتبها أوربيدس تقول: «يقولون إننا نحيا حياة بلا مخاطر في المنزل، في حين أنهم يقاتلون بالرماح، ولكن هذا رأي خاطئ، فأنا أفضّل الذهاب ثلاث مرات إلى المعركة عن الولادة مرة واحدة».

ولم يكُن أي أحد، ولا حتى القديسون والأنبياء، ولا حتى أكثر الكتّاب استنارة، الذين كانوا يُظهرون أنهم حريصون على قضيّة الضعفاء والمقموعين، يأخذ موقفا واضحًا ضدّ هذا الوضع للأمور، معتبرًا إياه أمرًا من أمور الحياة، مثل الفيلسوف الذي كان يشكر الآلهة لأنه وُلد يونانيًّا لاَ بربريًّا، وحرًّا لاَ عبدًا، ورجلاً لاَ امرأة. وماذا يُجدي توجيه اللعنات ضدّ المصير السيئ الذي يلازمنا منذ صرخة الميلاد؟ كان من غير الحكمة التفكير في التمرُّد على نظام مستتبّ منذ آلاف السنين، وتخيُّل أن بوسعنا زعزعته.

وحقيقيٌّ أن المسيحيّة جاءت بالفكرة المدوية بأن جميع البشر، من الأثرياء والفقراء، والسادة والعبيد، هم جميعًا أبناء الله ومتساوون أمام الله، وكانت قد حسّنت إلى حدّ مَا من وضع المرأة. ولكن السيد المسيح قال أيضًا إن «مملكتي ليست هذه الأرض»، ولم يرَ مفسرو كلماته الاعتماد على هذه العبارة لتجنب أي موقف محرج كان يمكن أن يغيِّر الوضع الراهن. والسياسة -كما قلنا- كان لها ثقلها بشروطها القاسية، ولهذا فعندما بدأ الناس مع تطوُّر الأزمان في الدعوة إلى التطبيق العملي للمبدأ المسيحيّ في المساواة، كانت القيادات Le Gerarchie الكَنَسِيّة قد تحالفت مع القيادات العلمانيّة باقتسام المشاغل في هذا الأمر، وصنعت تكتُّلاً معها. وفي مَا يتعلق بمشكلة تبرير استعباد سكان الأراضي الجديدة المكتشَفة، فقد رأت الكنيسة مساندة الحل الأكثر حكمة: إنكار صفة البشر كاملي الأهليَّة على هذه الشعوب. وهي عمليّة ترشيد أُعيدَ استخدامها، في كل مرة كان الأمر فيها يتعلق بتبرير ادّعاءات بسيطرة جماعة على أخرى، كما سنرى في حديثنا عن النصرية.

الديمقراطيّة القديمة والديمقراطيّة الحديثة

وهذا الغياب لمفهوم المساواة، جعل أيضًا فكرة الديمقراطيّة في الماضي مختلفة جدًّا عن ديمقراطيّة اليوم.

ولنأخذ -كحالة نموذجية- أثينا، التي تُعتبر مهد الديمقراطيّة. كان هناك اختلاف كبير بالقياس إلى ديمقراطيّة الدول الديمقراطيّة الحاليّة يكمن في الوضع الفعليّ لهذه العاصمة الإمبراطورية في القرن الخامس قبل الميلاد، والتي كانت تسودها -كما يعبِّر عن ذلك

فينلي بسعادة «ديمقراطية وجها لوجه». أي أن الأمر كان يتعلق بنظام سياسيّ يعمل في بيئة محدودة، وممكنة فقط في السياق المحدود لمدينة–دولة يعرف فيها الجميع بعضهم بعضا، وقد اضطُرّ النظام بالفعل إلى التخلي عنها، عندما انتقل المحور الاستراتيجي إلى مقدونيا، وفتحت غزوات الإسكندر مشكلات في الإدارة لمجموعة سياسيّة تتسم بتعقيد لم يعرفه العالَم الإغريقي.

ولكن لم يكُن هذا الفارق هو المهمّ والذي يعنينا هنا.

ولا شكّ في حقيقة أن الديمقراطيّة البرلمانية الحاليّة تستمدُّ من ديمقراطيّة اليونان الكلاسيكية أساسها الأول والأقوى. فقد ورثت منها مبدأين مهمين: «حكم الشعب، ومن أجل الشعب»، بقرارات تتخذ بالأغلبيّة من قبل مجلس يمثل جميع المواطنين، والمبدأ القائل بأن الحكام يجب أن يُسألوا عن أعمالهم. وفي نظام أثينا بريكليس كانت بعض المناصب انتقائية، وأخرى بالقرعة، وغالبًا مَا كانت تخضع للتناوب، بحيث يستطيع أكبر عدد من المواطنين القيام بدور في إدارة الشأن العام. وقد كان هذا شأن الجميع لأنه لم يكن من الممكن لأي أحد الانسحاب من واجباته المدنية[1]. وعلاوة على ذلك فإن السياسيِّين الذين كانوا يبتعدون عن الخط الذي كانت الأغلبيّة تعتبره صحيحًا كانوا يدفعون شخصيًّا على الفور الثمن، بالنفي أو بعقوبات جسيمة أخرى. وحتى إذا كان لا يزال لاَ يوجد توازن حقيقيّ للسلطات، فإنه كان هناك مع ذلك نظام للتوازن بين مختلف السلطات ونظام قضائي انتقائي يستطيع أن يضمن معاملة عادلة لكل مواطن.

ولكن في مثل هذا النظام لم يكُن لفكرة المساواة ولفكرة حماية الأقلِّيَّات مكان، وهما الفكرتان الكبيرتان اللتان تجعلان من الديمقراطيّة الحاليّة التجسيد السياسيّ للتسامُح.

وغَنِيٌّ عن القول أن هذا هو الذي يصنع كل الفرق.

وكان يمكن للأفكار– القوّة أن تتفتح فقط مع رسوخ عقليّة جديدة لاَ تضفي على الشخصيّة الإنسانيّة قيمة جديدة فحسب، ولكنها تستطيع أن تترجمها إلى عمل فعليّ. ولم يكُن هذا تغييرا يمكن أن يحدث بين عشية وضحاها.

كيف ومتى وصلنا إلى هذا؟

[1] كان الناخبون يدفعون للتصويت بمعنى الكلمة، مع سلسلة من التدابير التي كانت تحدد أولئك الذين لم يلتزموا بواجباتهم الإنتخابية، التي كان من بينها حبل مدهون بالطلاء الأحمر، وكان الخدم يتقدمون به وكان يعلم ظهر المترددين والمتأخرين في المجالس، مما يعرضهم للتوبيخ العام.

كانت المسيرة التي أدت إلى نضج الميراث اليوناني الروماني، واليهوديّ المسيحيّ، ممّا أضفى ملامح جديدة على حضارتنا، طويلة ومؤلمة، وتستحق منا أن نتذكر بعض أهم المراحل.

مخاض المبادئ السياسيّة الجديدة

أحدثت نظريّات وحدس مفكرين مثل بيكون وكوبرنيكو ونيوتن وديكارت وسبينوزا، ثورة في المفاهيم السائدة حتى الآن حول طبيعة الكون وآليات العقل. وسنرى في الجزء الأخير بعض نتائجها على صعيد الأفكار. ولكننا نرى في نفس الوقت إلى أي حدّ قلبت علاقة المواطن بالسلطة.

وكان الهجوم على مبدأ السلطة الذي كان قد بسط سيطرته حتى ذلك الحين بلا منازع في جميع المجالات، كان يترجَم على الفور من الناحية السياسيّة إلى تغيير قواعد شرعية الحكام.

وكانت هذه الشرعية تنتقل من سلطة الحقّ الإلهي وقدسيّة التقاليد إلى مسؤولية الفرد العاقل العضو في مجتمع من المتساوين.

وها هو إذن المصدر الأول لعدم التسامُح ذي الطبيعة السياسيّة يتعرض للهجوم إذن من جذوره: الثقة المطلقة المستمَدة من الزعيم. وبدأت تتغلغل الفكرة القائلة بأنه لم تعد السلطة التي تساء إدارتها ولكن السلطة في حدّ ذاتها هي التي يمكن أن تكون شيئًا سلبيًّا. ومع الإصلاح، كان يتأكد المبدأ القائل بأن كل روح منفردة مفكرة كان يمكن أن تنهل من مصدر الكتابات المقدسة وتقترب من الله دون حاجة إلى هياكل مستبدّة للوساطة. وبدأ يتجسد المفهوم القائل بأن نسبة السلطة للدولة كانت شرًّا ضروريًّا كان على الناس اتباعه، لاحتياجات التعايش، من خلال «عقد اجتماعيّ».

وجاء غليان هذه المفاهيم الجديدة، التي لم يُعَبَّر عنها قط من قبل باقتناع شديد، ولم يكن لها قط أثر مدمر جدًّا على الهياكل التقليدية، ولم تظهر بالطبع كلها مرة واحدة، ولم تقوَ دون معارضات في مسار مستقيم، ولكنها كانت تأتي إلى النور من خلال حمل عسير يتسم بتقلصات وفترات توقف دموية.

كانت تلك فترات النهضة والتنوير وأعمال عبقرية على مستوى قد لاَ يصل إليه أحد أبدًا، ولكن أيضًا أعمال عنف أهليَّة ومصادمات مسلحة امتدت واتسعت بصورة لم يشهدها أحد قط من قبل.

وبعد بضع سنوات بالكاد بعد أن كتب إرازمو كتابه "مديح الجنون Elogio alla pazzia" وماكيافيللي "الأمير Il Principe"، وتوماس مور "المدينة الفاضلة Utopia"، قام لوثر في عام ١٥١٧ المصيري بتعليق أرائه الشهيرة على بوابة كنيسة ويتنبرج وبدأ أخطر انشقاق داخل المسيحيّة وموسما جديدا طويلا للغاية من الدماء باسم الله، ولكنه بدأ أيضًا تطورًا سياسيًّا على جانب هائل من الأهمية.

وحتى إذا كانت المجتمعات التي يحكمها حكام انضمُّوا إلى «الاحتجاج»، كان لاَ بُدّ أن تبدو قامعة مثل المجتمعات الأخرى، وحتى إذا كان اعتناق الكاثوليكية في إنجلترا لم يكُن أقل صعوبة من أن تكون بيوريتانيا[1] في فرنسا لويس الرابع عشر، فإنه على صعيد الأفكار كان الإصلاح، مع ثورته ضدّ دوغماتية وشكلية الرتب الكَنَسيّة يُسهِم في إضعاف مبدأ السلطة وفي جعل دور الفرد والعقل الحر محوريًّا أكثر فأكثر. وكان الاحتجاج يكتسب هكذا أيضًا طابع التمرُّد السياسيّ ضدّ مركب البابوية- الإمبراطورية، وأصبح أخطر ردّة، وبالذات بعد أن بدا أن الكفاح الطويل ضدّ هرطقة العصور الوسطى قد انتهى بالانتصار.

وقد اختتمت الحرب بين المعسكرين الكاثوليكي والبروتستانتي، والتي كانت تسمى «حرب الثلاثين عاما»، وهي من أطول الحروب وأكثرها دموية بين الحروب التي عانت منها الأرض الأوربيّة، في عام ١٦٤٨ بمعاهدات وستفاليا. وقد رسمت منعطفًا تاريخيًّا عظيما: مَقْدِم أوربا جديدة، ونظاما عالميًّا ليحلّ محلّ الهيكل الهرمي السابق نظام جديد من العلاقات المتساوية بين الدول الممثلة للشعوب.

وفي ميدان الحرية الدِّينيّة بقي الموقف راكدًا، وكان الذي خرج في تلك اللحظة وقد اكتسب قوة إضافية هو معيار التجانس العِرْقِيّ والدينيّ داخل كل وحدة حكومية محددة، وهو مَا ألهم سياسة الملوك الإسبان ضدّ المسلمين واليهود، قبل ذلك بقرن ونصف، في فترة إعادة الغزو.

ولضمان السلام والتوازن بين القوى تقررت تسوية تَعَيَّن على المواطنين بموجبها في دولة معينة اعتناق ديانة أميرهم (وهو المبدأ الشهير كل أقليم له ديانة واحدة: « Cuius region, ejus et religio»)، مع العلم بأن هذا كانت ستكون له عواقب بالغة الشدّة على الصعيد الإنساني، مِمَّا سيؤدِّي إلى نزوح شعوب بأسرها وتحولات قسرية عن الدين بالجملة.

---

١ البوريتانية: حركة دينية ظهرت في انجلترا ما بين القرنين ١٦، ١٧ ومن داخل الكالفينية، وكانت تطالب بالالتزام الأخلاقي الصارم واحترام الدوجماوات (المترجم)

وفي كل دولة أوربية كان يتكرر موقف الاضطهاد والقمع من خلال الحملات ضد المرتدّين واليهود.

وكانت الاستراحة الوحيدة السعيدة تتمثل في مرسوم نانتس الذي أراده هنري الرابع في عام ١٥٩٨، والذي كان يحدد قواعد التعايش بين العقيدتين، لضمان السلام الدينيّ، وللمرة الأولى كان يفصل المواطنة القوميّة عن التوافق الدينيّ. ولكنها كانت هجرة دائمًا، وطريقة للعيش.

وبعد مَا يزيد على ثمانين عاما بعد ذلك، كان التأكيد الجديد بسلام وستفاليا لمبدأ «ملك، ديانة» وميوله الشخصيّة المركزية قد دفعت الملك الشمس لإلغاء المرسوم في عام ١٦٨٥.

وكان هذا الإجراء الخطير، الذي كان الفرنسيّون يشيرون إليه على أنه الإلغاء « La Révocation»، يندرج في سياسة محددة لاجتثاث جذور البروتستانتية في فرنسا وكان يمثل خطوة هائلة إلى الوراء لدولة وضعت نفسها في طليعة مسيرة التحرر الحضاريّ.

ومنذ ذلك الحين ازدادت حدة الإجراءات وتعددت ضدّ البروتستانت، الذين كان ينفذ ضدهم نظام معروف بصورة محزنة: المنع من ممارسة عدد متزايد من المهن، وانتزاع الأطفال من الوالدين لتربيتهم في بيئة كاثوليكية، وأعمال عنف على أيدي العسكريين العنيفين المعروفين باسم الدراجونيين Dragonnades" سيئي السمعة، وتدمير أماكن العبادة، وعند حدّ معين كان هناك حتى منع البروتستانت من ترك المملكة.

وفي مناخ سياسيّ يزداد ثقلاً كهذا كان يتعارض مخططان: من ناحية كان هناك «مبرر الدولة» غير المتسامحة أكثر من أي وقت مضى تجاه أي شكل من أشكال الشقاق، ومن الناحية الأخرى كان هناك مفهوم ثوري للعلاقة بين الدولة والمواطن، سيجد تعبيرًا عن نفسه من خلال انتفاضات جماهيرية ونشر وثائق تمثل محاضر التأسيس للديمقراطيّة الليبراليّة الحديثة: الموسوعة Enciclopédie، والدستور الأمريكيّ، وإعلان حقوق الإنسان والمواطن.

وقد أسهم الكثيرون من المفكرين اللامعين في تلك الحقبة المضطربة، علاوة على الذين سبق ذكرهم، في تغيير العقليّة، وهو مَا نتج عنه في النهاية المفهوم الذي يرجع أصله إلى كانت، والمتعلق بـ«الإنسان العالمي»، الذي يتمتع بحقوقه كفرد، وأيضًا كعضو في المجتمع. ومن بين الكثيرين الذين يمكن أن نذكرهم، علاوة على أحدب روتردام، سأكتفي بذكر ألبودين، وهو رجل قانون لامع، وهو صاحب الحديث الخيالي حول الدين الذي حدث في فينسيا بين كاثوليكيّ ولوثريّ وكالفينيّ ويهوديّ ومسلم وربوبيّ

وملحد، وهو مؤلف بسبق "ناثان الحكيم" Nathan II Saggio الذي كتبه ليسينج. وكيف ننكر إسهامات هيوم ومونتسكيو؟

وهناك ثلاثة من المثقفين بصفة خاصّة يُعتبرون آباء الفكرة السياسيّة للتسامُح، التي خصّص كل منهم لها كتابًا محدَّدًا: لوك، وبايل، وفولتير.

تسامح لوك وبايل وفولتير

نشر بيير بايل، وهو منفيّ في هولندا، تحت اسم مستعار، كتابه: تعليق فلسفي على كلمات يسوع المسيح Commentaire Philosophique sur ces paroles de Jesus Christ , Contrains les d'entrer في عام ١٦٨٦، بعد عام بالكاد بعد الإلغاء سيِّئ السمعة لمرسوم نانتس.

وقد نشر لوك، الذي لجأ هو أيضًا إلى الأرض الهولندية (دون أن يقبل مسؤوليته عن ذلك صراحة، من باب الحذر) باللغة اللاتينية، تقريبًا في نفس الفترة، كتابه رسالة التسامح Epistola de Tolerantia[١]. وكانت مواقفهما، الحذرة، ولكن الشجاعة دائمًا، مصوغة بطريقة غير مبهمة في مناخ من التدين المتكلف الذي عاد مع السلام الدينيّ المفروض بالقوّة، وكانت تهدف بالذات إلى ذلك التغير في التصور الذي أشرت إليه أكثر من مرة على أنه جوهر موقف التسامُح الحقيقيّ، والذي وصفه معلّق كبير لبايل، وهو ميشيل دو سيرتو، بتعبير موفق: «تغيير المعقول»[٢].

ويظهر النصّان، المستمَدّان من تجارب تاريخيّة مختلفة، مختلفَين فيما بينهما أيضًا في التركيب وفي الأهداف.

كان نص لوك، الذي يعتبر شهادة ميلاد للفصل بين الدولة والكنيسة، أشبه بمانيفستو لتحرر التقاليد الإنجليزية، وكان يسعى لتحقيق غاية سياسيّة غالبًا ومحدودة إلى حدّ مَا.

وبالنسبة إلى الفيلسوف الإنجليزي تكمن نواة التسامُح أساسًا في التمييز الدقيق بين المجتمع المدني والمجتمع الدينيّ.

ونقطة الانطلاق الأساسيّة لتعايش سلميّ في رأيه هي قبول المعيار القائل بأن الدولة هي مؤسسة يرجع أصلها إلى عقد اجتماعيّ أبرمه الناس «ليوفروا ويحفظوا وينمُّوا مَا هو في مصلحتهم من وجهة النظر الاجتماعية والسياسيّة». والمصالح الاجتماعيّة

---

[١] ظهرت الترجمة الإنجليزية لكتاب Lettera sulla tolleranza، التي قام بها بوبل في لندن في نفس العام. وقد سبقه كتاب Saggio sulla tolleranza (الذي أخذ منه الإستشهاد الموجود في بداية الجزء الثالث) ومسودة.

[٢] مقدمة لبيير بايل، De la Tolerance، مطابع بوكيت، باريس ١٩٩٢، ص ١٧

والسياسية كما يوضح هي «الحياة والحرية والصحة والرخاء المادي وملكية تلك الممتلكات الخارجية، مثل المال والأرض والمنزل والأثاث، ومثل هذه الأشياء». ويجب أن يمارس القضاء الحكومي بالتالي فقط في هذا المجال. فالقاضي لا يجب أن تكون له أي علاقة مع الأمور الروحية والعناية بالأرواح.

والكنيسة، بدورها، بوصفها مؤسسة تطوعية، يجب أن تُعنَى فقط بـ«تنظيم العبادة العامّة وحياة الناس طبقًا لقواعد الفضيلة والشفقة»، ولكي تعمل على احترام قوانينها لاَ يمكن أن تلجأ إلى القوّة، ولكن فقط إلى «الحضّ والتحذير والنصائح»، والعقوبة الوحيدة المسموحة لها هي العزل[1].

أي أن الدولة والكنيسة ليس لإحداهما الحقّ في التدخل في شؤون الأخرى، لأن الكنيسة -كما يؤكد لوك- «شيء مختلف تمامًا ومنفصل عن الدولة. وحدود كل منهما ثابتة ولا يمكن تخريكها. ومن يخلط هذين المجتمعين يخلط بين السماء والأرض، وهما أبعد الأشياء وأكثرها تناقضًا فيمَا بينهما».

وستصبح مثل هذه الآراء فيما بعد أقوالاً شائعة تقريبًا في هذا الجزء من العالم الذي نعيش فيه. ولكن في العصر الذي كان يكتب فيه الفيلسوف، كانت تبدو لغالبيّة الناس فاضحة، إن لم تكن مهرطقة، واليوم أيضًا في سياقات ثقافيّة ودينيّة مختلفة، مثل سياقات التشدُّد الإسلامي واليهوديّ، تبدو صعبة التصور. ومن هنا الأهمية التي تنسب إلى هذا الكتاب الصغير، الذي يظل حجر زاوية نحو الهدف الذي يشير إليه كاتبه نفسه: إدخال التعقل في نظام المجتمع المدني.

ولكن لوك يتوقف هنا، فمفهومه يظل عند الحد الأدنى ودون الثقافة[2]. ويظل ابن عصره عندما يؤكد أن التسامُح يجد حدودًا دقيقة في الاحتياج إلى الحفاظ على المجتمع، ويؤكد أيضًا أنه لاَ يمكن أن يمتدّ إلى فئات تعرِّض هذا الحفاظ للخطر. وفي نفس الوقت يساند حظر الكاثوليك، الخونة المحتملين لطاعتهم لأمير آخر، أي البابا، والملحدين الذين لاَ يعترفون بأي مبدأ مقدس، فلا يستطيعون القيام بأي قسَم، وبالتالي إبرام العقد الاجتماعيّ.

ولكن بايل يضع نصب عينيه هدفًا أكثر جرأة وطموحًا بكثير: التأكيد ليس على مجرد التسامُح السياسيّ، ولكن أيضًا على أوسع تسامح ممكن، وهو التسامُح القائم على حرية الضمير.

---

[1] موريس كرانستون، John Locke e il caso in difesa della tolleranza، من كتاب Saggi sulla tolleranza، من إعداد س. ميندوس ود. إدواردز، دار نشر الساجاتوري، ميلانو ١٩٩٠، ص ١٤٦

[2] مقدمة كارلو أ. فيانو لـLettera sulla Tolleranza، تاليف لوك، دار نشر لاترتسا، باري ١٩٩٤، ص ١١

وقد رأينا في تناولنا لتسامح الكنيسة المسيحيّة، أن هذه لم تكن تسمح بالخطأ في مجال الإيمان، لأن ترك شخص حرًّا في أن يخطئ سينطوي على موت روحه. والمهرطق لا يرتكب جريمة في إلحاق الضرر بالمقدسات فحسب، ولكنه يخاطر بتعرضه للّعنة الأبدية. وبالتالي لاَ بُدَّ أن نحمي ذلك الشخص من نفسه، أو كل المجتمع بأسره من عدواه على حدّ سواء. ويترتب على ذلك أن التسامُح هو تساهُل مذنب، سواء من الناحية الدِّينيّة أو من ناحية الأمن العامّ، والقهر تجاه من يخطئ، أي عدم التسامُح، هو في نفس الوقت مقدَّس، أي يريده الله، وإجباريّ، أي أنه واجب مدنيّ.

ولا نحتاج إلى بصيرة خاصّة لكي ندرك أن هذا التصور (الذي أوضحنا أهميته من الناحية الدِّينيّة بإسهاب عند تناول عدم التسامُح المسيحيّ)، كانت له أيضًا أهمية سياسيّة هائلة، لم يجرؤ أحد عليٍ التشكيك فيها عند تلك اللحظة منذ مَا يزيد على ألف عام. كانت مثل هذه النَّظريّة، التي تعتبر منطقيّة وطبيعيّة، هي التي جعلت من الممكن «التطهير العِرقِيّ» الذي قاده الملوك الإسبان الكاثوليك للغاية، ومذابح الألبيجيين والهوغونوتيين، وإدانة جوردانو برونو وجاليليو. وأيضًا، في الوقت الذي كان يكتب فيه بايل ولوك وسبينوزا، كانت تلك النَّظريّة تبرِّر أي شكل من أشكال عدم التسامُح باسم السلام الاجتماعيّ، وكانت تجد في نفس الوقت موافقة قطاعات عريضة من الشعب. وكان بوسع لويس الرابع عشر أن يؤكد بحسن نيّة أن سياسته الدِّينيّة القمعية كانت مستلهَمة من الحرص على «أن يعيد إلى الدولة هدوأها وإلى السلطة حقوقها». وكان بايل يظهر أنه مُدرِك تمامًا لأنه يسير عكس التيَّار، مع خطورة جسيمة عندما كان يكتب، في ملحق كتابه تعليق فلسفي Commentaire Philosophique: «إن من يتكلم بشيء من القوّة لصالح التسامُح، كما فعلت أنا، يُنظر إليه تقريبًا على أنه مهرطق، حتى بين البروتستانت»[1] وكان القديس أجوستينو هو المرجعية الرئيسيّة التي كان ينطلق منها سواء الكاثوليك أو البروتستانت لإعطاء أساس، ليس فقط لاهوتيا، ولكن أيضًا قانونيًّا، لنَظريّة «الإجبار العادل». ولم يكُن أسقف إيبونا، كما نذكر، في جدله ضدّ الـDonatisti استخدام القوّة، مؤكدًا في أحد خطاباته أن «هناك اضطهاد ظالم هو الذي يقوم به البقاء ضدّ كنيسة المسيح، واضطهاد عادل هو الذي تقوم به كنائس المسيح ضد البقاء». ودعما للاضطهاد المقدس بالتحديد يذكر أجوستينو في خطاب آخر شهير حكاية حفل الزفاف في إنجيل لوقا (١٤-٢٣): «ويقول السيد للخادم: سر في الشوارع والحقول وأجبرهم على الدخول حتى يمتلئ بيتي».

ومن هنا عنوان كتاب بايل، الذي يبيِّن كيف أنه كان يقصد الذهاب مباشرة إلى قلب المشكلة، بمواجهتها من جذورها.

---

[1] مقدمة جان-ميشيل جروس لـCommentaire Philosophique لمؤلفه بايل، المرجع المذكور ص ١٧.

وبمنطق بسيط ولكن بفاعليّة قصوى، ينحدر الدوس في جدل لاهوتي، ويؤكد أنه لا أهمية «لما نجتهد من أجله»، ولكن الاجتهاد في حد ذاته. ومع رفضه للتفسير الحرفي لكلمات السيد المسيح، يضع المثقف الفرنسيّ السبب العملي كمرشد لا يخطئ، مقتفيًا بذلك أثر سبينوزا، وسابقا لكانت. وكل شيء يجب أن يمر خلال منخل هذا الضوء الطبيعيّ». وفي نفس الوقت يجب أن يجد الدين نفسه حدًّا في احترام القواعد الأخلاقيّة، وهي الوحيدة التي تستطيع ضمان التعايش.

وقد كتب يقول إن الالتزام بالمعنى الحرفي للكتابات المقدسة يدفع الإنسان إلى «ارتكاب أعمال يحرمها علينا النور الطبيعيّ، وتعاليم الوصايا العشر Decalogo وأخلاقيات الإنجيل، ولاَ بُدَّ أن نقتنع بأننا نعطيها معنى زائفا، وبدلاً من الوحي الإلهي نطرح على الشعوب رؤيتنا وأهواءنا وأحكامنا المسبقة»[1].

وقد قلب بايل آراء القديس أجوستينو تمامًا، بعد أن تبنتها المسيحيّة المتشددة، مدافعًا عن حقوق الضمير المخطئ؛ من يخطئ بنية حسنة ويصر على قناعاته لأنه يعتقد أنها عادلة، له الحقّ في احترام صدقه هذا.

بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك، مؤكدًا أن المخطئ يصبح مذنبًا بالذات عندما يستسلم للقهر لاَ عندما يقاوم.

ومن الأمور الأساسيّة فصل الـ Quod Creditur (مَا نؤمن به) عن الـ Fides Qua Creditor (الدين الذي على أساسه نؤمن). بمعنى أصح، في مجال الإيمان تكون النوعية الأخلاقيّة للإرادة هي التي تقرر قيمتها وتؤسس الاحترام الواجب لها.

وهو يوضح قائلاً: «من المستحيل في الحالة التي نوجَد فيها أن نعرف بالتأكيد أن الحقيقة التي تبدو لنا كذلك –وأنا أتحدث عن الحقائق الخاصّة للدين لاَ عن خصائص الأرقام أو عن المبادئ الميتافيزيقيّة، أو عن براهين علم الهندسة– هي الحقيقة المطلقة...»[2].

وبالتالي فإن بايل، أكثر من لوك، يمكن أن يُعتبر هو الذي بدأ تلك الأزمة في الفكر الأوربيّ الذي سيؤدّي إلى التأكيد على المبدأ السياسيّ لحرية الدين والرأي والكلمة.

فمعه يولد برنامج سياسيّ للتسامُح كما نفهمه اليوم، وهو مَا قمنا بتحديده خلال معالجتنا هذه.

---

[1] المرجع السابق ذكره، ص ٨٦. Commentaire Philosophique

[2] نفس المرجع السابق، ص ٣٣٦

وهو تسامُح يقوم على احترام الآخر، ليس فقط عن اقتناع، ولكن وبالأخصّ على أساس أننا قادرون على مثل هذا الاقتناع.

وتسامُح بايل هو التسامُح الحقيقيّ والأكثر صعوبة، لأنه يحرص على الاحترام إلى أقصى درجات الغرابة عند الآخر.

ويعلق جان ميشيل جروس في مقدمته للتعليق Commentaire قائلاً: «إنه يظهر كآخر موقف معقول في اللحظة التي نرفض فيها في الآخر مَا هو شخصيٌّ فيه، في اللحظة التي لم يعد يبدو لنا فيها واحدًا مثلنا، بسبب مَا يصرح به أو يعتقده. والتسامُح يفرض على احترام الآخر، ليس على أساس أنني أتعرف على نفسي فيه، ولكن على الرغم ممّا يصرح به أو يعتقده، وهو مَا يفصله جذريًّا عني»[1].

وبعد ذلك بقرن تقريبًا، عندما كان فولتير يكتب كتابه وثيقة حول التسامح Traité Sur la Tolerance في عام ١٧٦٣، كانت أفكار بايل ولوك قد فقدت كثيرًا من ملامحها الهدامة، وكانت تتمتع آنذاك بنوع من المصداقيّة، ولكنّ التسامُح في الواقع كان بعيدًا تمامًا عن أن يصبح قاعدة للتعايش السياسيّ. وكتاب فولتير مستلهَم من هاتين السابقتين اللامعتين، ويتفق تمامًا مع المفهوم القائل بأنه لاَ بُدَّ أن يسمح لكل مواطن «بألاَ يتصرف إلا بعقله وأن يعتقد فقط بما يمليه عليه هذا العقل، سواء أكان مستنيرًا أم جاهلاً».

ولكن هدفه واقعي، فهو لاَ يتوجه إلى جمهور من المثقفين، ولكنه يهدف إلى تعبئة الرأي العامّ لصالح أبرياء مضطهدين بسبب انتمائهم الدينيّ.

وفي الحقبة التي كان يكتب فيها، وعلى الرغم من أن لويس الرابع عشر كان قد مات، فإن السجون كانت ممتلئة باليانيين، وإزاء البروتستانت الذين تحولوا عن ديانتهم بالقوّة كان يسود فرنسا نفس مناخ الارتياب الذي وصفناه بخصوص اليهود والمسلمين الأندلسيين في إسبانيا. كانت أزمنة يمكن أن يُعتقل فيها شاب لأنه لم ينزع القبعة عند مرور الموكب الذي يضمّ صورة السيد المسيح مصلوبا.

وفي عام ١٧٦١، اتُّهم جان كالاس، وهو تاجر أقمشة مسالم في تولوز، بأنه قتل ابنه لأنه كان على وشك اعتناق الكاثوليكية. وقد اعتقلت العائلة كلها، جان والزوجة وابن آخر وصديق لهم كان ضيفًا عليهم، كمشاركين في المؤامرة الكالفينية المزعومة. وعلى الرغم من نقص الأدلّة فقد تغلبت الأحكام المسبقة للمحققين وعداء الشعب للبروتستانت. وقد أمكن بصعوبة منع إعدام المجموعة كلها، ولكن جان كالاس لم يتمكن من النجاة بنفسه، فشنق وأُضرمت النيران في جثمانه.

---

[1] جروس، مقدمة للـCommentaire Philospphique، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦.

وقد اهتم فولتير بالحالة وقاد حملة عنيدة، سواء بكتابه الذي أرسله إلى كثير من الحكام الأوربيين، أو بسلسلة من المداخلات الشخصيّة في بلاط فيرساي، وتمكن في عام ١٧٦٥ من الحصول على ردّ اعتبار كالاس. ولم يكن ذلك العمل خاليا تمامًا من العواقب لأنه أسهم في وضع نهاية لعمليات الإعدام بلا محاكمة، ولكن التشريع الساري جرى تعديله فقط في عام ١٧٨٧ عندما قرر لويس الرابع عشر إصدار مرسوم التسامُح، الذي تجاوزته الثورة بعد ذلك بعامين، وإعلان حقوق الإنسان، الذي كان يؤكد بصورة مهيبة في المادة الحادية عشرة أن «حرية نشر الأفكار والآراء هي من أغلى حقوق الإنسان».

مساحة متزايدة للمستبعَدين

وبعد ذكر مصادره التاريخيّة نعود إلى التعمُّق في مفهوم الديمقراطيّة الحديثة بوصفه تعبيرًا سياسيًّا للتسامُح. وقوته الكبيرة في هذا الاتجاه تكمن بصفة خاصّة في أنه -كما أوضح الكثيرون من المفكرين المعاصرين من كيلسين إلى بوبر- لاَ يريد أن يكون طريقة لإيجاد الحقيقة. بل إنه يستبعد بالتعريف القضايا المتعلقة بالحقيقي والزائف، ويهرب عن عمد من أي تأكيد قاطع للحقيقة. أي أنه لاَ يقوم على التأكد من الطبيعة الحقيقيّة أو الصحيحة لهذا الخيار أو ذاك، ولكن على احترامِ الخيارات التي تقوم بها الأغلبيّة. والتوازن القادم يمكن أن ينقلب وتصبح الأغلبيّة أَقلّيّة، ممَّا يترتب عليه قلب الخيارات والتوجُّهات.

والديمقراطيّة أيضًا -بالضبط مثل التسامُح- هي وسيلة وحل وسط لتحقيق «أقصى خير لأكبر عدد ممكن».

وإذا كان جوهر التسامُح هو ثقافة الاحترام تجاه من له رأي غير رأينا، فإن الديمقراطيّة هي تجسيد التسامُح على الصعيد السياسيّ لأنها تقوم على احترام المعارضات. وجوهرها هو التأكيد على رغبة مجموعة من المواطنين على مجموعات أخرى، في لعبة منظمة، دون عنف، ولا حتى العنف المعنوي.

والديمقراطيّة هي تعاقُب من القيم المتصارعة التي تتوازن وتتسابق دون أن تدَّعي أبدا التفرُّد والطلاقة. ويترتب على ذلك كنتيجة خاصّية أخرى للأنظمة الديمقراطيّة، وهي الحصن الحقيقيّ ضدّ أيِ إغراء بالثقة المطلقة التي تُستمدُّ من الزعيم: أن قواعدها للتعايش ليست أبدا شيئًا مقدسًا مفروضًا من أعلى، ولكن يمكن التباحث والاتفاق حولها. وأصحاب السلطة، المؤقتون دائمًا وفي تناوب محتمل في أي نظام ديمقراطي، ليسوا أبدًا

فوق القانون «Legibus Solutus»، ولكن على المدنيين تماما يستدعون دائما ليسألوا عن عملهم وبخاصة عن احترام قواعد اللعب.

ولكن يجدر بنا أن نكرر هنا، أن القفزة النوعية بالنسبة إلى الديمقراطيّة في الأصل تحققت قبل كل شيء من خلال المجال الممنوح بصورة متزايدة «للمستبعدين»، مع جعل المعارضات والأقليّات أبطال لعبة من التناقضات. وفي مرحلة أولى كان هناك صوت فقط لمطالب دوائر صغيرة داخلية مميزة، ثم بدأت تقوى شيئًا فشيئًا فئات أكبر من المهمشين، حتى أُلغيَ الرِّقّ، وأُلغي شرط الميراث، وتم الاعتراف بالمساواة بين الرجال والنساء ومنح الأجانب المقيمين بصورة ثابتة إمكانيّة التقدُّم للحصول على الجنسية، ووصلنا إلى الاستفتاء العامّ والغاية الهامّة وهي المساواة أمام القانون بين كل أفراد المجتمع في الدولة، دون أي استثناء.

ومن المهم أن نضع نصب أعيننا التعبير المحدد «أمام القانون»، فالمساواة لاَ يمكن أن تُفهم بالمعنى الحرفي، ولا يمكن أن تكون مساواة فعلية ولكن قانونية فقط. كما يوضح بوبيو أن معاملة جميع الناس كما لو أنه لاَ توجد بينهم فوارق، عندما توضح الأدلة أن كل فرد هو كون مصغّر مختلف عن أي فرد آخر، قد ينتهي إلى نوع آخر من الظلم. والمساواة الحقيقيّة هي مساواة في المعاملة تضع في الحسبان الاختلافات بين الناس.

ومن الواضح -وهذا هو الأساس في بناء التسامُح الديمقراطي كله- أن احترام قواعد اللعب يسري على كل الأطراف حتى بالنسبة إلى المعارضة. وينطبق هنا المعيار الواقعي الذي أشرنا إليه منذ البداية ونحن نتحدث عن حدود التسامُح: حتى تبدو المعارضة جديرة بحرية التعبير والمناورة التي تتمتع بها داخل النظام، لاَ يجب أن تهدف إلى قلب النظام نفسه بصورة جذرية، مع الاستبدال بمجموعة القواعد كلها. يمكنها أن تسعى فقط لتغييرها ربما، مع إدخال قواعد تعتبرها أفضل، ودائما داخل نفس الإطار المرجعي.

حضارة الشكّ

والنموذج الذي نتحدث عنه ليس كاملاً ولا يدَّعي الكمال. ونحن نعلم جيدًا كم كان هدفًا لانتقادات كثيرة، حتى في هذه المرحلة الانتصارية للنظام. والانتقاد رقم واحد، المتكرر، يستهدف الترابط الهزيل بين التطبيق والمبادئ. فكثيرًا مَا يبدو النموذج وقد سيطرت عليه الداروينية الاجتماعيّة وينتهي إلى زيادة الفجوة بين الأثرياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء. ولاَ بُدَّ من نشاط طويل وصبور من الوساطة والتسوية لجعل

التعايش ممكنا بين عمودي النظام أنفسهما: الحرية والمساواة، حيث يكونان عند الجذور سائلين ومتصارعين فيما بينهما، لأن حرية غير مشروطة قد تولد عدم المساواة، وعدم المساواة المطلقة قد تنتهي بفقدان الحرية. وعلى الرغم من هذا، كما كان يلاحظ بالفعل توكفيل وجون ستيوارت ميل والدستوريون الأمريكيّون الأوائل، لم تتمكن أحرص الآليات في التوازنات والضمانات، من إبعاد خطر «طغيان الأغلبيّة» أو «الاستبداد الانتقائي» تمامًا.

ومع ذلك فإن النموذج الديمقراطي لديه مقومات كافية لكي يقدم نفسه على أنه أفضل نموذج ممكن في الحالة الراهنة. وتظل طريقته في تصوُّر إدارة الشأن العامِّ الأكثر واقعية. وفي هذا التصور ليست مهمة السياسة تحقيق المدن الفاضلة العظيمة، وأن تجعلنا سعداء وأن تكشف لنا الحقيقة، وتغير الطبيعة البشريّة وتحل مرة واحدة الصراعات الطبقية. وبصورة واقعية أكثر تجتهد فقط للتوافق مع واقع يومي ليس صافيًا دائمًا ومتغييرٌ باستمرار، واستنباط تسويات مستمرّة بين المطالب المتنافرة والإبحار على مرأى من مملكة الممكن.

والجانب السياسيّ للحداثة يترجم بالفعل هذه الرؤية الواقعية إلى صيغ قانونية–دستورية، انطلاقًا من «الصبغة الدنيوية»، أي التأكيد على الـSaeculum، بناءً على النظام الدينيّ، وانفراط عقد مبدأ السلطة. وقد سمح مثل هذا التصور بازدهار المجتمع «المفتوح»، الذي لم يكن يعرفه عالم القرون الوسطى، وميلاد التسامُح.

وفوق كل هذا، كان المحفز الرئيسيّ الذي كان يستطيع الربط بين التسامُح والديمقراطيّة هو ذلك العنصر الرئيسيّ الذي أشرت إليه منذ السطور الأولى من هذا العمل على أنه شرط أساسيّ لثقافة احترام رئيسيّة: الشكّ، والنقيض لأي دوجماتية.

ويؤكد أستاذ الفلسفة الإيراني قائلاً: «إن مَا صنع عظمة الغرب، وهي حقيقة يجد غير الغربيّين صعوبة في فهمها، هو العمل البطولي المتمثل في أنهم أعادوا دائمًا مناقشة أعظم منجزاتهم، حتى تلك التي تحققت بثمن باهظ من التضحيات الكبيرة والجهود التي لاَ تتوقف»[1].

وقد أرسى الرواد الثلاثة الذين تحدثنا عنهم قبل ذلك، في أعمالهم المنشورة مع محاذير لاَ نهاية لها وأحيانًا في السرّ وبين آلاف المصاعب، الأسس الأولى لعمليّة لم تصل بعد إلى نهايتها وتتقدم وسط جدل مستمرّ، من خلال المحاولات والأخطاء، مدفوعة بقناعات عميقة ولكن ليس بتأكيدات لاَ تتغير. وقد أعاد هيجل مناقشة الثورة الفرنسيّة،

---

[1] درويش شايجان، L'idéologie en tant que point de rencontre entre deux mondes، في Science et coscience، طبعة كولوك دو كورديو، المخزون والثقافة، ١٩٨٠، ص ٤٦٩.

وقام ماركس بإعادة مناقشة هيجل، وعارض الكاثوليك مبادئ الليبراليّة. وكثير من الأبنية المستبدّة التي شيّدت باسم الله والتقاليد، وأزيلت باسم العقل، أعيد بناؤها تحت راية العقل، ممّا أدّى إلى ظهور مذاهب شموليّة كانت تذلّ كرامة الإنسان كما لم يفعل من قبل أي طاغية في الماضي. وفي نفس المجال الديمقراطي، كان مبدأ المساواة، الذي تأكد بقوة في مختلف الدساتير وإعلانات البرامج ونفذته التشريعات الليبراليّة والاستفتاء العامّ، كان يجري تحييده من قِبَل الممارسات العدوانية والأنانية للرأسمالية والاستعمار، المدعومين بدورهما بتصريحات علميّة زائفة حول الاختلافات البيولوجيّة والثقافيّة بين مختلف السلالات البشريّة. ولا تزال المسلّمات العرْقيّة والسياسيّة لحضارتنا موضع نقاش متكرر يقوم على أساس سلسلة من الموضوعات الواقعية، من الهندسة الوراثيّة إلى معاملة المهاجرين، التي تؤثر على الأجيال القادمة، ولكن لاَ يوجد بشأنها أي خيار أو حل يتسم بالحقيقة والعصمة من الزلل.

ولا عجب في أننا فخورون بمنجزاتنا وأنها تمارس جاذبية هائلة في أركان الأرض الأربعة. ليس فقط المنتجات ولكن أيضًا الأفكار «الغربيّة» التي تجري الآن بسرعة بطول دوائر العولمة التي لاَ يصعب بالطبع تصديرها. ولم تستطع أي ديانة أن تظهر دعما لامتدادها العديد من المعجزات بقدر مَا استطاعت ديانة النزعة الاستهلاكية والحرية، والتطوُّر التكنولوجي والحضاريّ. ولم تظهر قط من قبل توقعات الكرامة والرخاء للجميع في متناول الأيدي على هذا النحو، ولم يعُد يُعهَد بها إلى مخططات حالمة، ولكن لمخططات عمليّة تفصيلية. وبالتالي فإنه من المفهوم أننا بعد أن تشجعنا بعد هذا النجاح وهذا التأييد، نعتقد أن نموذجنا في التطوُّر الاقتصاديّ والحضاريّ مناسب لكل العالم، ونحن مقتنعون بأن تبنيه العامّ هو في المصلحة العامّة ويمكن أن يؤدِّي إلى قفزة نوعية للإنسانيّة جمعاء.

ولكن لكي يتمكن نموذجنا هذا من الرسوخ ومد جذوره في سياق اجتماعيّ-سياسيّ غريب عنه، فإن من الضروريّ أن نمنح «الآخرين» فترة معقولة للاستعداد والتخطيط لاستيعاب أفكاره الرائدة، التي يجب أن يتحملها الآخرون كما تحملناها نحن، ولا يجب أن تكون هبة ولكن إنجازًا. وكلّما كانت نتيجة لعمليّة من المحاولات والأخطاء واختيار حرّ ومتدبر من جانب المعنيين وغير مفروضة من الخارج، بالسلطة، حققت هدفها المجدد. وأي خط مختلف للسلوك سيكون أخطر تناقضٍ وأخطر خيانة للمبادئ التي نفخر بها، ممَّا سيؤثر بصورة جسيمة في مصداقيتها ومكانتها، ممَّا يعطي هكذا أخطر إذكاء لحرب الثقافات.



الفصل العشرون

قضية الأقليات

كُلّما كانت الأَقلّيّة محدودة، كان التناغم مهدَّدًا بأن يحلّ محلَّه وابور الـزلط.
وكُلّما كانت هذه الأقلّيّة مختلفة عن الأغلبيّة، تعرضت لخطر عدم احترامها.
هذا هو الواقع غالبًا، الواقع الوحشي بين الجماعات والأفراد.

العيش أو الموت معا،
الأب دومينيك بير، ١٩٦٩

[خمسة آلاف برميل بارود متناثرة في العالم - مَا معنـى «أَقَلّيّـة»؟ - عمليات الهجـرة والانـدماج «النـاعم» - زوال الاسـتعمار و«بنـاء القوميات» - الانتقالات الجماعيّة]

خمسة آلاف برميل بارود متناثرة في العالم

احترام قواعد اللعب، واندماج المستبعدين، وتقدير الاختلافـات، والانفتـاح علـى الحوار، وإفساح المجال للشكّ. خطوات كثيرة إلى الأمام بالتأكيد، من أجل نوعية أفضل دائمًا من الحياة المشتركة، قفزات حقيقيّة فعلاً من التحضُّر. ولكن كم من هذه المبـادئ الجميلة، التي تتردد أصواتها الجميلة في الخطب الانتخابية وفي المنابر الدولية تُتـرجَم إلى ممارسة عمليّة في الحكم العامّ؟ إن الخلافات بين الثقافات، التي تتواصل مـن الأب إلى الابن، والتي تُقحِم الله وروح الأجداد والطبيعة البشريّة، يمكن أن تُواجَه فقط بعمـل صبور من إعادة التربية على المدى الطويل، الذي يمر بأجيال كاملة. ونادرًا مَا يحـدث أن يجد أحد هذه الخلافات حلاً سريعا بصورة معقولة بفضل بعض الصيغ السياسيّة، أو القوانين أو المعاهدات العبقرية.

إن ميلاد الدولة الحديثة لم يحل فحسب ولكنه زاد من حدة أكبر همّ عند الحكام فـي كل العصور، وهو كيف يعملون على تعايش أناس من ثقافات مختلفة على نفس الأرض.

أما فيما يتعلق بعد ذلك بـ«العولمة»، فهي في الحقيقة تعبر حاليا حياتنا اليومية بسرعة، ولكن الوعود أو التهديدات، حسب وجهات النظر المختلفة، التي نتوقعها منها، لم تجد بعدُ الوقت لكي تتحقق على أرض الواقع. وكما أوضحت عند تناول المشكلة في حدودها العامّة، فإنه يبدو طبيعيًا في نفس الوقت، وبحكم أنها عمليّة تسعى لإذابة الفوارق، أنها تثير انزعاجا وارتيابا، وبالتالي ردود فعل سلبية بصورة قوية، وبالذات في نظر كل تلك الكيانات المحلية التي تمد جذورها بقوة في الأرض، أو في التقاليد، وهي دائمًا في حالة تأهّب ضدّ أي هجوم على هويتها.

والدليل على ذلك أن «قضيّة الأقلِّيَّات» و«إدارة الأزمات» التي تصاحبها أحيانًا فتزيد من خطورتها، تظل أكثر من أي وقتٍ مضى على مسرح المشهد الدولي، بل إنها اكتسبت أهمية متزايدة، حتى إنها يمكن أن تُعتبر الموضوع السياسيّ بامتياز في القرن الواحد والعشرين.

ويقدَّر أن مَا يتراوح بين عشرة وعشرين في المئة من سكان الأرض ينتمون إلى «الأقلِّيَّات»، وعدد هذه الأقلِّيَّات يقدر بما يزيد على خمسة آلاف[1]. خمسة آلاف برميل من البارود منتشرة في كل العالم. أو بالأحرى خمسة آلاف بركان، وبعضها خامد فقط في الظاهر، والآخر في حالة فوران كامل.

وهذا يعني أن هناك دولة من كل ثلاث دول على وجه الأرض تعاني من مشكلات خطيرة في التعايش داخلها، مع بدايات الألفية الثالثة.

وتقدر الأمم المتحدة أن مَا يقرب من تسعمائة مليون شخص سقطوا ضحايا لبعض أشكال التمييز. كم عدد الانتفاضات، والأزمات الداخلية، وأعمال الإرهاب، وأعمال حرب العصابات التي يمكن أن نرجعها إلى مطالب جماعة عرْقيّة معينة ترى أن حقوقها داستها الأقدام؟ وتقوم مختلف الحوليات السياسيّة أو تقارير المنظمات الدولية بين الحين والآخر بنشر قائمة طويلة منها، ولاَ بُدَّ من تحديثها باستمرار. وتجتذب مشكلات الأقلِّيَّات العناوين الرئيسيّة في نشرات الأخبار التليفزيونية والصحف اليوميّة عندما تتمخض فقط عن عن انفجارات من العنف، ولكنها مشكلات دائمة تسمِّم يوما بعد يوم حياة شعوب بأسرها، في حالة تأهُّب باستمرار. ولا يوجد أي مجتمع، أبيض أو أسود، علماني أو ديني، صناعي أو زراعي، محصنٍ من المشكلات العرْقيّة. وحتى في إيطاليا كانت قضيّة إقليم ألتو أديجي Alto Adigi قد وصلت إلى نقاط قصوى وأثرت على سياسة الأمة بأسرها، بعد أن لقيت تشجيعًا من المناخ الأوربيّ الجديد. وقد أصبحت مألوفة بصورة محزنة

---

1) انظر التقرير السنوي الأخير لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية، المنشور في يوليو ٢٠٠٤. وانظر ايضا أطلس « Le monde diplomatique» 2004، وأخيرا Conflitti e aree di crisi nel mondo، المعهد الجغرافي دي أجوستينو، نوفارا ٢٠٠٥.

الأقاليمْ التي يعيش فيها الباسك والأكراد والأيرلنديون والشيشان بسبب أحــداث العنــف المتكررة التي تجتاحها، ولكن تصاعد «عنف الهوية» في بلدان أخرى كثيرة من العــالم مع أو دون مكون ديني، يتمخض عن أعمال إرهابية وانتقام وأعمال حرب عصابات أو حرب عرقيّة حقيقيّة. وتقدر هذه الصراعات بما يقرب من خمسين في المتوسط في سنة معيّنة، ولا تخلو منها أي قارة، كما تشير القائمة الطويلة من الأحدث في مناطق الأزمات المفتوحة: البوسنة والهرسك، وكوسوفو، وإثيوبيا، والــصومال، والــصحراء الغربيّــة والسودان وأنجولا وبوروندي وسريلانكا وكمبوديا وتيمور الشرقية وكمبوديــا، وبيــرو، وكشمير. وفي بعض البلدان، كما في كندا وبلجيكا وقبرص، تبدو الخصومات العِرقيّــة أقل مأساوية، ولكنها ليست أقل حدة من حيث إنها مبعث قلق لحكومات هذه الدول.

والمذبحة العِرقيّة الكبيرة بضربات المناجل بين الأَقَلّيّة من قبائل التوتسي والأغلبيّــة من قبائل الهوتو في رواندا راح ضحيتها في ثلاثة شهور تقريبًا، من ٦ أبريل إلــى ١٠ يوليو ١٩٩٤، ٩٣٧٠٠٠ ضحية مؤكدة، ولكنها كانت واحدة من مذابح عديدة تمت وسط عدم الاكتراث العامّ، كدليل للمرة الواحدة بعد الألف على عجز الأمم المتحدة. وقليلــون جدا هم الذين كانوا يعرفون أين توجد دارفور أو سمعوا عنها من قبل، قبل أن تعلن الأمم المتحدة أو منظمة Human Rights Watch، في السنة العاشرة من الصراع العِرقِيّ، أن عدد ضحايا ذلك الإقليم المنكوب شمال غرب السودان كان قد ارتفع إلى ١٨٠٠٠٠ والعديــد من المآسي الأخرى «الصغرى» نأتي أيضًا لمعرفتها مــصادفة، مــن خــلال بعــض المحررين الباحثين عن الإثارة. ومن بين الأمثلة الكثيرة البُشمان[1]، وهي واحدة من أقدم الجماعات العِرقيّة في إفريقيا، أجبرتها حكومة بتسوانا على الانتقــال الإجبــاري مــن مناطقها على أطراف صحراء كالاهاري. ومن يهمه مصير بضع مئات من «البدائيين»؟ ولكن الأمر غالبًا مَا يتعلق بحكمٍ بالإعدام على جيوب «Enclaves» تمتلك حكمــة قديمــة يُكنسون كنباتات نادرة غريبة انتزعت بوحشية.

وبالإضافة إلى «اللاجئين» -الذين يحاولون بمئات الآلاف أن ينجوا بأنفــسهم مــن الصراعات الدموية أو من انتهاك حقوق الإنسان بعبور الحدود فقط لكي يجدوا أنفــسهم مرة أخرى يُساء استقبالهم ويُسمح لهم بالعيش بصعوبة من قبَل أناس أغراب، لاَ يملكون سد جوعهم- هناك أهمية متزايدة تكتسبها مشكلة الأشخاص الذين يجبرون أيــضًا علــى الهروب من بيوتهم لينجوا بحياتهم ولكنهم لاَ يستطيعون حتى إيجاد المأوى في بلد آخــر ويهيمون دون أي وسائل للإعاشة داخل بلدهم، الذي لاَ يستطيعون فيه حتــى الحــصول على الحد الأدنى من الحماية. وقد تزايد عدد هؤلاء المنكوبين (حيث يقدر عــددهم فــي العالم بما لاَ يقل عن خمسة وعشرين مليونــًا، وهــم فــي تزايــد مــستمرّ) حتــى إن

[1] البشمان هو أحد أفراد شعب من القناصين المترحلين في أفريقيّة الجنوبية. (المترجم).

البير و قر اطية الدولية ألصقت بهم وصفا خاصًا بهم: فهـم الــ IDP (Internally Displaced Persons)، و هي أحدث طائفة من المستبعدين و اليائسين.

ما معنى «أقَلِّيّة»؟

قد يبدو هذا سخيفًا نظرًا إلى أهمية المشكلة، ولكننا لم نجد بعدُ تعريفًا لكلمة «أقلّيّة» يناسب الجميع.

هناك نقطة لاَ خلاف عليها، وهي أن اللفظ لاَ يجب خلطه باللفظ الذي يـشير إلــى الطرف الذي يجد نفسه «في أقلِّيّة»، أي في وضع مجحف في لعبة السلطة. وأيٍ زعـيم حصيف يحاول دائمًا الاحتفاظ بالسلطة بأكبر عدد ممكن من الأصوات، محاولاً استخدام القوّة فقط كملاذ أخير وأن يُسكت أصواتًا بالإقناع، باسم اللياقة والمـصالح المـشتركة. وأصوات الأَقَلِّيّة هذه تصل إلى أقصى قدرة على التعبيـر فـي النظـام الـديمقراطي. والديمقراطيّة، كما رأينا، يمكن أن تعتبر نفسها التجسيد السياسيّ للتسامُح، لأنها تقوم على المبدأ القائل بأن أي خيار محدَّد يتم ليس لأنه الأصحُّ والأحقّ، ولكن لأنه يُعتبر في تلـك اللحظة المحدَّدة الأنسب والأصلح في نظر العدد الأكبر من أفراد المجتمـع. وجـوهره يكمن بالضبط في الجدل بين الأغلبيّة والأَقَلِّيّة. والمنشقون، إذا «خسروا»، أي إذا اتضح عند إحصاء الأصوات أنهم «أقلِّيّة»، فإنهم يعلمون مقدَّما أنهم يجب أن يقبلوا قرارات من حصل على العدد الأكبر من الأصوات.

وفي هذه الحالة تصبح الأَقَلِّيّة جزءًا لاَ يمكن التخلِّي عنه من النظام، وهي توجد، في الحقيقة، في منزلة أدنى، ولكنها أدنى من الناحية المادية المؤقتة، ويمكن أن تـصحَّح أو تنقلب في كل مرة يتغير فيها الإطار السياسيّ. وإذا كانت الأقلِّيَّات -وفي هـذا المعنـى الخاصّ «كأصوات للمعارضة»- لاَ يجري التسامُح معها ولا يمكنها التعبير عن نفـسها بحرية، فإننا لاَ يمكن أن نتحدث عن ديمقراطيّة حقيقيّة.

وهذه الأقلِّيَّات الناتجة عن الإحصاء الانتخابي هي بالطبع شيء مُـبهَم ومتـأرجح، وهي متناثرة على امتداد النسيج الاجتماعيّ كله. ولكن الأقلِّيَّات التي نتحدث عنهـا هنـا شيء مختلف تمامًا، وهي مكوِّنات محدودة ومنفصلة في مجتمع معين، وبالتـالي إن لـم تكن بالفعل جسدًا غريبًا، فإنها بالتأكيد جماعة يمكن تعريفها على أنها «خارج النظـام»، أي أن لها سمات مختلفة عن تلك التي تُعتبر سائدة ومميزة داخل المجتمع موضع النظر.

وفي هذه الحالة أيضا، لم يقل أحد إن وضع الأقليّة، القانونيّ لا الفعليّ فحسب، هو بالضرورة شيء سلبيّ. والتمييز والفصل يمكن أن يكون نتيجة اختيار حرّ، نحافظ عليه بكبرياء وبتركيز مستمرّ؛ لننظر مثلا إلى المورمونيين[1] أو الأميش «Amish» في الولايات المتحدة. ولكن غالبا ما يؤدّي الموقف الفعلي للدونية إزاء الجماعة الأكبر والأقوى إلى ردّ فعل من الدفاع والكراهية من جانب الجماعة المنفصلة، وهذا الموقف يخلق بدوره شكوكًا وردود فعل مضادة من جانب الأغلبيّة.

ولكن «قضيّة أَقلِّيّة» حقيقيّة عندما يُفهم موقف الدونية على أنه خطير بصورة خاصّة ويتجه إلى أن يصبح مستمرًّا ولا رجعة فيه. وتصبح كلمة «أقَلّيّة» بالتالي مرادفًا لجماعة مهمَّشة، لا تشارك في الحياة وفي خيرات المجتمع مئة بالمئة، وتصبح هدفًا لمظاهر مميزة من عدم التسامُح. وموقف من هذا القبيل، حتى إذا كان متكررًا بالطبع في الأنظمة الاستبدادية، يمكن أن يحدث في أي نظام سياسيّ، حتى في أكثر النظم استنارة.

والمعاملة المخصَّصة لهذه الأقلّيّة أو تلك تختلف تبعًا لطبيعة الأَقَلِّيّة نفسها، ولكن أيضًا تبعًا لكيفية وضع هذه الأخيرة إزاء المجتمع المضيف. وموقف الجماعة التي تعتبر نفسها مالكة للنظام يكون أقلّ تسامحًا بقدر ما ينظر إلى الجماعة المهمشة على أنها منحرفة عن النظام نفسه. ومن البديهي أن فكرة الطبيعيّة وعدم الطبيعيّة نفسها مُختلَف عليها. وتبعًا للتوجهات السائدة في الجبهة السياسيّة التي تمسك بزمام السلطة، يمكن للتهميش أن يقتصر على بعض الفئات التي تعتبر تقليديًّا «غير طبيعيّة»، مثل المثليِّين أو مدمني المخدرات، أو تمتد إلى تلك الفئات التي لا تلبِّي مئة بالمئة المعدَّلات القياسية التي تُعتبر مثاليّة، مثل المهاجرين، والمُعدَمين، والمُسنين، والمرضى، وبخاصة الميئوس من شفائهم. وفي العديد من المجتمعات القديمة، كما في أسبرطة وروما القديمة، كان يتمّ القضاء على الأطفال الذين يُولَدون بتشوُّهات. ومجتمعات حديثة مستبدّة، مثل المجتمع النازي، مستلهما إملاءات علم الجينات، لم تكن تلقي بالمعوقين من فوق صخرة، ولكنها كانت تستخدم طرقًا أكثر علميّة. ولا تزال هناك حتى الآن أشكال أخرى مقنّعة، وفي الولايات المتحدة (وهي أيضًا من أكثر الدول تقدُّما من حيث التسهيلات العمليّة للمعوَّقين) يقوم الجانب الأكثر تحفظًا بين الناخبين، الأوفياء للأسطورة الأمريكيّة المميزة والقائمة على الفرص الكبرى لاقتصاد السوق، بمعاقبة الفقراء، وحتى المرضى، حتى إن كانوا بالطبع يحترسون جيِّدًا من إعلان ذلك صراحة، على أساس أن ذنبهم هو أنهم لم يعرفوا انتهاز تلك الفرص وأصبحوا بالتالي عناصر إزعاج في نظام يزدهر بالمنافسة[٢].

[1] المورموني هو عضو في طائفة دينية أمريكية أنشاها جوزيف سمث عام ١٨٣٠ وقد اباحت تعدد الزوجات فترة ثم حظرته.
[2] الأطلس «Le monde diplomatique» 2004 يذكر قدحا رمزيا للزعيم الجمهوري نيوتون جينجريتش ضدّ «الرؤية التشاؤمية التي تمجد البكائين والخاسرين، الغيورين من نجاحات الآخرين». وهذا هو نوع العقليّة السائدة في البيئة الأمريكية حيث «من يوقع على الشيكات هو الذي يسن القوانين» وهو ما ولد ارتيابا واسعا من إجراءات الرعاية الإجتماعية، التي يعتقد أنها تأتي=

ولا يمكن لهذه الفئات وغيرها من «المستبعدين» أن تعتبر نفسها أقلّيات بالمعنى المحدود للكلمة، حيث إنها لا تمتلك بصفة عامّة ملامح وهوية محددة منة بالمنة. ولا يمكن أن تشبّه حتى بالأقلّيات تلك التقسيمات الرأسيّة داخل مجتمع معيّن والمكوّنة من الطبقات أو الجماعات المختلفة.

وفي جوهر الأمر، على صعيد عدم التسامُح على نطاق واسع، نجد أن الأقلّيّات العرْقيّة هي الأقليّات المميَّزة التي نشير إليها غالبًا بهذا الاسم والتي تثير اليوم بالفعل المواقف التي يمكن أن تكون متفجرة والمشار إليها في بداية هذا الفصل.

عمليات الهجرة والاندماج «الناعم»

كان ظهور الدول القوميّة، الذي حوّل مشكلة العلاقات بين الجماعات العِرْقيّة إلى صدام بين الثقافات، وبالتالي بين «أرواح» الشعوب المختلفة، قد أطلق العنان لقرنين من التوترات والثورات وحروب الاستقلال. وبداية من نهاية القرن التاسع عشر كانت المشكلة قد اكتسبت بعدًا جديدًا في أعقاب ثلاثة تطورات كبيرة:

- الهجرات الأوربيّة تجاه الأمريكتين والمحيط الهادي.
- نهاية الاستعمار.
- تعديل الحدود في أعقاب الحربين العالميتين.

وقد أدّت هذه التطوُّرات الثلاثة إلى انتقالات مكثفة للشعوب، وأحدثت في الدول المعنيّة ردود فعل متباينة، مرتبطة بالظروف المحدَّدة والنظام السياسيّ الخاصّ.

وفي حالة الهجرات كان وقع الاختلاط السكاني تدريجيًّا و«ناعما» في مُجمَله. وكان طبيعيًّا في نهاية المطاف أن يكون سلوك سلطات الاستقبال تجاه القادمين الجدد متسامحًا على الأقل، إن لم يكن وُدِّيًّا جدًّا، حيث كانت الدول المضيفة قد شجعت هؤلاء القادمين، بل نظّمتهم، لأنهم يلبُّون احتياجات اقتصادية محددة عندهم.

ولكن في هذه الحالة أيضًا كان قَبول عدد هائل من «المختلفين» في الحياة اليوميّة لأمم لاَ تزال في مرحلة التكوين، وبالتالي البحث عن هويتها، كان يثير حيرة ومقاومات وغضبًا على جميع مستويات المواطنة. وقد كانت تُطرح باستمرارٍ للمناقشة إمكانيّة منح

=لتزييف آلية انتقاء الأنسب. وقد أدّى هذا في عام ١٩٩٦ (مع تصويت الأغلبية الجمهورية في الكونجرس ولكن تحت الإدارة الديمقراطية لكلينتون) لإلغاء المعونة الإتحادية للفقراء التي أرادها روزفلت في عام ١٩٣٥ (ص ١٠٣).

هؤلاء «الدخلاء» المساواة في المعاملة مع المواطنين الآخرين، والمساواة المطلقة في الحقوق. وكانت العقليّة المستلهمة من «السلم العرقيّ»، الذي وصفته في الفصل الثامن عشر تترجم إلى مبادرات سياسيّة تمييزيّة ملموسة. وفي نهاية القرن التاسع عشر أثار وصول جماعات غفيرة من المهاجرين الصينيين انتفاضات شعبيّة والمطالبة بتشريع مقيّد انتهي في النهاية بوقف تصريحات الإقامة للقادمين الجدد من الجنس الأصفر. وإزاء المهاجرين الأوربيّين -الأيرلنديين والإيطاليين والبولنديين والألمان- كان العداء والارتياب أقلَّ حدة، ولكن في هذه الحالات أيضًا كان الدخول المستمرّ والمكثف لعناصر غريبة ملحوظًا في كل الدول الشابة، المستوردة للأيدي العاملة (الولايات المتحدة وكندا وأستراليا والأرجنتين والبرازيل)، كشرٍّ لاَ بُدَّ منه؛ بالنسبة إلى الطبقات المتواضعة كان تنافسًا على الوظائف، وبالنسبة إلى الطبقات العليا كان مصدرًا للتلوث الثقافيّ. أي أنها كانت ظاهرة أبعد مَا تكون عن الاتجاه إلى التحويل العميق للمجتمعات المعنيّة، وكان من المنتظَر -على العكس من ذلك- أن تُمتصَّ بأسرع مَا يمكن وبأقل ضرر ممكن. وحتى في حالات الانفتاح الأكبر نحو الآخر، كان الهدف المعلن تقريبًا هو إذن الاندماج في الثقافة السائدة.

أي أنه كان تسامحًا سطحيًّا ومؤقتًا، أدركه على الفور القادمون الجدد، الذين كان موقفهم التلقائيّ دفاعيًّا في الغالب، وهو موقف التلوُّن بالبيئة بقدر الإمكان أو التحصن في الأحياء المغلقة. وإلى جانب المدن التي على غرار الحي الصيني «Chinatown» كانت تبرز في المراكز الكبرى مناطق على مثل إيطاليا الصغيرة «Little Italy»، وكانت تُزرع «المجتمعات الكريمة».

وكانت أغاني المهاجرين في الغالب أغاني ألم للوطن المفقود، ولكنها كانت أيضًا تعبِّر عن خيبة الألم والاحتجاج على صدمة الوصول العنيفة والانغلاق الذي وجده المهاجرون على الصعيد الإنساني في الوطن الجديد.

وقد اتخذت الدول الأصلية للمهاجرين في الغالب موقفًا اتسم بعدم الاكتراث والقبول الجوهري بسياسة اندماج رعاياها السابقين في الأوطان التي تبنتهم، حتى إن كان مجيء أنظمة قوميّة قد أحدث على فترات نوبات تحرُّرية وحْدَوِيّة ومحاولات استعادة لجماعات المواطنين في الخارج.

وفي الولايات المتحدة، وهي أهم دولة للهجرة، لجأ الناس إلى النموذج الأمريكي المميَّز، وهو نموذج «بوتقة الانصهار»، فكل المكوِّنات العِرْقيّة المختلفة ستنصهر إن آجلاً أم عاجلاً في الحرارة البيضاء لذلك اللهب الكبير المتمثّل في الحلم الأمريكيّ، في «بوتقة» واحدة كبيرة، مع تحقيق نوع من الثقافة العليا القوميّة، كما تتحقق من الآلات

المنفردة لأركسترا سيمفوني واحد، وهي أكبر من مجموع الأصوات المنفردة. ومؤخرا فقط أدرك الناس عدم ملاءمة هذا النموذج وبدؤوا في اتخاذ معيار متعدد الثقافات أكثر واقعية، مع إعطاء مساحة أكبر للمكوّنات العرْقيّة المنفردة وبخاصة أهم مكوّن وهو المكون الإسباني (الذي أصبح الآن «الأقلّيّة» الأهمّ، مع ما يزيد على ٣٥ مليون نسمة في عام ٢٠٠٠، وأصبح أكبر -ولو بقدر ضئيل- من نفس الأقلّيّة الزنجية) ممّا سهّل انتشار الإسبانية، التي تتجه إلى أن تصبح بالفعل اللغة الثانية. ونحن بعيدون على أي حال عن أي نموذج لدولة متعددة العناصر كالفسيفساء، لا تكون لها افتراضات مسبقة. ويمكن القول -كما يوضح فالتسر- إننا نعود تدريجيًّا إلى النموذج العزيز على تيودور روزفلت، وهو نموذج الـ «Hyphenated Americans»، أي «الأمريكيّين بشرطة»، فهم ليسوا أمريكيّين ببساطة، ولكنهم «أنجلو-أمريكيّون»، و«إيطاليون-أمريكيّون»، و«يهود-أمريكيّون»، و«إفريقيّون-أمريكيّون».

زوال الاستعمار و«بناء القوميات»

كان ظهور أنظمة جديدة في أعقاب نهاية الأنظمة الاستعماريّة والتوقيع على معاهدات السلام أمرًا مختلفًا تمامًا. وفي غالبيّة الحالات كانت المعاملة المخصَّصة للجماعات العِرْقيّة التي وجدت نفسها في أقلِّيَّات غير ناعمة تمامًا. ولم ينطفئ حتى الآن ردّ الفعل المتسلسل من عمليات الانتقام والصراعات التي نجمت عن ذلك.

وفي آسيا وفي إفريقيا كان أكبر امتزاج للشعوب يتحقق في إطار زوال الاستعمار، أي عندما نهضت تقريبًا كل الشعوب الخاضعة لسيطرة هذه القوّة أو تلك من القوى العظمى للاستقلال وأصبحت بدورها «أُمَمًا».

وفي عصر الاستعمار كانت القوى العظمى قد اقتسمت مكتسباتها بناء على اعتبارات مجرَّدة للفائدة الاقتصادية والاستراتيجية، دون النظر كثيرًا إلى التقسيم العِرْقيّ للسكان الأصليين الخاضعين. وقد ترتبت على ذلك صراعات عشوائية جعلت فجأة أعضاء في نفس الجماعة العِرْقيّة أو حتى من نفس القبيلة، مواطنين في «أمم» مختلفة. وحول حدود إفريقيّة كانت تتعرض بصورة غريبة لانحراف مفاجئ، كان الموظفون في المكتب الاستعماريّ البريطانيّ يمزحون، مؤكدين أن الوزير الذي تمّ رسمه على الورق في ذلك العهد تعرض... لنوبة من الزغطة.

وفي لحظة توقف السيطرة الاستعمارية، كانت الشعوب التي لم يكن يربط بينها شيء وكانت مُجبرة بإرادة غريبة عنها على اعتبار نفسها جزءًا من نفس الكيان السياسيّ الإداري، كانت تطمح الآن إلى الانفصال عنه.

ولكن إذا كانت الاتحادات قبل ذلك قد تَمَّت بسلاسة وسطحية، فإن نفس الشيء كان يحدث الآن من خلال الميول الانفصالية. وكانت المرحلة الاستعماريّة قد انتهت حتما بفرض نماذجها الثقافيّة بالتأثير على الأمور المؤكدة القديمة دون أن تتمكن الأمور الجديدة من مدّ جذورها. وحتى عمليّة «إعادة التربية» حسنة النية لهذه الشعوب على الاستقلال لم يكن من الممكن أن تفعل سوى اقتباس نفس الأنظمة، دون التمكّن حتى هذه المرة من الدخول إطلاقًا في العقليّات المحلية.

ولم تكن القوى الاستعماريّة السابقة، في تنفيذها لانسحابها، قادرة على إيجاد حلول جديدة، وبدلاً من السعي لتجاوز تلك الإيديولوجية القوميّة التي جلبت لها هي نفسها العديد من الويلات، فإنها لم تجد أفضل من ترتيب عمليّة إزالة الاستعمار تحت راية «بناء أُمّة» مصطنع. ونفس هذه الكلمة «بناء القوميّة» كانت ستوقظ كبار آباء القوميّة في القرن التاسع عشر في قبورهم، مقتنعين بأن الروح العميقة لأي شعب لا يمكن اختراعها، وبخاصة وأن هذا كان النموذج الذي تَربَّت عليهاالأجيال الإفريقيّة بعد الحرب، والتي كان عليها أن تتعلم أن تصبح وأن تشعر بأنها «كينيّة»، أو «نيجيريّة»، وهكذا، شئنا هذا أم أبينا، وسواء أأدركوا أم لا مدى عدم ملاءمة هذا لوقائعهم الخاصّة. وفي نهاية المطاف، كانت حدود الدول الجديدة في القارة السوداء مرسومة بسرعة نسبيًّا على الحدود التي كانت موجودة من قبل، مع الأخذ في الاعتبار أساسًا التقسيمات التي تمت في حينه من قبل القوى الغازية المتنافسة فيما بينها، لا الخصائص العرقيّة-الثقافيّة للشعوب التي شملتها العمليّة. وكان هناك ما يكفي لخلق جراثيم الخصومة والصراعات بلا هوادة.

أما فيمَا يتعلق بالدول الآسيويّة التي استعادت استقلالها، فإنها كانت تنطلق من مواقف مواتية، حيث إن حدودها في حالات عديدة كانت تقوم على حدود سابقة تاريخيّة موجودة قبل السيطرة الاستعماريّة، وبالتالي فإنها أقل عشوائية. ولكن الكثافة العدديّة الهائلة للسكان وتنوعهم الثقافيّ كان يخلق في نفس الوقت مشكلات عمليّة في التعايش والتكيُّف بين المراكز المختلفة المنطلقة أخيرًا على الساحة السياسيّة بدور مستقلّ لها. وقد اعتُبر وجود دولة هنديّة معجزة من قِبَل الآباء المؤسسين، ولا تزال كذلك اليوم في نظر طبقتها الحاكمة، ونفس الشيء يمكن أن يقال بالنسبة إلى الدول الأخرى في المنطقة، التي نلمس في داخلها التوترات بين الثقافات.

ونصل إلى ذروة المأساة المرتبطة بالخلافات العرْقيّة في نفس الوقت في المناطق القريبة من قلب أوربا بالذات، مع انتقال السكان الذي تقرر بموجب المعاهدات الكثيرة التي سجّلت نهاية الحربين العالميتين.

ومن الناحية النّظريّة كانت هذه المعاهدات تقوم على نفس منطق معاهدات وستفاليا التي كانت -كما رأينا- تفتتح النظام العالمي الجديد القائم على الدول-الأممية، مع اختلاف واحد، وهو أن معيار التمييز آنذاك -وهو الانتماء الدينيّ- استُبدل به الآن المعيار الجديد وهو الانتماء العِرْقِيّ. ولكن المنطق الأساسيّ كان هو نفسه وفي الظاهر لم يكن به أي عيب. كان الناس يقولون في نهاية القرن السابع عشر: «نظرا إلى أن الكاثوليك والبروتستانت هم مثل الكلاب والقطط، فلماذا نصر على أن نجعلهم يعيشون معًا؟ وإذا كانت هناك دولة كاثوليكية في معظمها، ونريد أن تقضي على المصدر الأول لتعكير الوفاق فيها، فإن أفضل شيء هو إرسال جميع البروتستانت إلى دولة بروتستانتية وأخذ الكاثوليك الذين يرحلون عن هذه الأخيرة». وصبرًا إذا كان آلاف البروتستانت الكالفنيين الفرنسيّين يُلقَى بهم في إنجلترا مع آلاف المشكلات في العمل واللغة والعقليّة، وكان هذا هو أقلّ ثمن يجب أن يُدفَع من أجل السلام الاجتماعيّ، الذي كان يمكن الوصول إليه فقط من خلال تجانس السكان.

وقد استُخدم نفس المنطق بعد ذلك بقرنين، إلا أن التجانس الذي كان لاَ بُدَّ من الوصول إليه كان الآن من الناحية العِرْقيّة غالبًا لاَ الدِّينيّة. ألم تعُد تركيا واليونان بعد جزءًا من إمبراطورية من الفسيفساء ولكن أمما حديثة؟ ومن الطبيعيّ أن الكيانين العِرْقيَّين لاَ يستطيعان التعايش في النظام الجديد. فما العمل إذن؟ الحل بسيط: نأخذ كل اليونانيين من آسيا الصغرى ونقوم بترحيلهم -سواء أرادوا هذا أم أبوا- إلى اليونان، عند إخوتهم المواطنين، وننقل أتراك تراتشا Tracia إلى الأناضول. في حالة اليونان لاَ نزال اليوم نلحظ عواقب هذا المخطط، الذي ابتدعه الساسة على مائدة المباحثات بعد حرب جنونية أعقبتها هزيمة عسكرية.

وفي جميع الحالات التي نُفِّذ فيها هذا المخطَّط، كانت مأساة الجماعات التي اقتُلعت من جذورها والتلف الذي حدث في بلدان الاستقبال من موجة القادمين الجدد هائلة. وكانت الكارثة الكبرى بسبب الإجراءات، غير الإنسانيّة غالبًا لعمليات الانتقال نفسها، والتي كانت تنتهي في بعض الحالات، كما في حالة الأرمن، بمذبحة حقيقيّة. ولكن مَن كان يعبأ بمصائر هؤلاء المنبوذين؟ وإذا لم يَبيدوا طوال طريق المنفى، فإنهم سيُذبحون عاجلاً أو آجلا في قراهم أنفسها.

وانتقال السكان يمثل في نفس الوقت ذروة ردّ الفعل «العنيف» على الاختلاف العرقيّ-الثقافيّ.

ماذا يعني بالفعل اللجوء إلى إجراء من هذا القبيل؟ يعني أن الاندماج نفسه لم يعد الحل المقبول. والجماعة الأقوى ترفض أي إمكانيّة لدخول الجماعة «الغريبة» في نسيجها الاجتماعيّ، ولذا فإن الحل الوحيد هو طردها، العنيف تقريبًا. وهذا للأسف، على الرغم من كل شيء، الضرر الأخفّ دائمًا، لأنه إذا لم يكن حتى من الممكن تحقيق هذه العمليّة، فإنه قد لا يبقى إذن سوى التصفية الجسدية لغير المرغوبين، وهي عمليّة جذرية لدرجة أنها تمحوهم حتى من ذكرى ثقافتهم. والخطوط الفاصلة بين التجانس و«النقاء العرقيّ»، والترحيل والمذبحة، تختلط هكذا وتصبُّ في أمر واحد تقشعرُّ له الأبدان: «المختلفون» هم أجسام غريبة، وبالتالي ضارّة، وبالتالي لا بُدَّ من طردهم حتى يبقى الجسد سليما.

ولكي نفهم بصورة أفضل دوافع العداء للأجانب في المناطق الأوربيّة أو المجاورة لأوربا حيث لا يزال التوتر العِرْقِيّ حادًّا، قد يكون من المفيد أن نتذكر بالتفصيل على الأقل بعض عمليات الإبعاد القهرية التي حدثت في أثناء حرب البلقان والحرب العالمية الأولى، والتي أدَّت إلى الاختفاء الكامل تقريبًا لبعض الأقليات المجيدة.

- مأساة الأرمن ومذبحتهم الشهيرة بصورة محزنة في عام ١٩١٥، والتي تقول بعض المصادر إنها ربما راح ضحيتها مَا يزيد على مليون شخص.

- طرد مليون ونصف من اليونانيين من الأناضول، كنتيجة للحرب اليونانية التركية عام ١٩٢١-١٩٢٢.

- الإبعاد القسري للشيشانيين-الأنجوش من قبَل الروس في القوقاز.

- طرد الألمان من بولندا ومن تشيكوسلوفاكيا في نهاية الحرب العالمية الثانية.

وقد كانت هذه المآسي موضوعًا لأعمال أدبية ومسرحية وسينمائية، ولكنَّ تحليلاً مقارنًا لهذا النوع قد يعني المرور مرة أخرى بكل تاريخ أوربا في النصف الأول من القرن العشرين والابتعاد عن موضوعنا.

ومن المحزن أن نستنتج كيف أن البشاعة التي لحقت بالأقلِّيَّات لم تنفع كدرس لتغيير العقليّة، ففي وسط أوربا -على سبيل المثال- شرع ضحايا السياسة النازية الجنونية على الفور، بمجرد انقلاب الموقف، في سياسة انتقام تقوم على نفس مقدِّمات تفوُّقهم و«نقائهم»، مع إدخال ألفاظ لا تقل انحرافًا، مثل «تنقية الألمانيّة» و«فرض الصبغة البولنديّة». وفي نهاية المطاف يمكن أن نعتبر الأشكال التي اتخذها اضطهاد الأقلِّيَّات،

على صعيد واسع جدًا وبتنظيم ثابت وبارد، منتجا ثانويا سلبيا اخر للحداثة، وميزة خاصّة بالدولة الحديثة. وإذا قبلنا بهذا الافتراض، فإنه يبدو إذن من المنطقيّ أن الظاهرة تتخذ بالتدريج شكلها الأكثر حدة في هذه المرحلة التي يصفها بعض علماء الاجتماع بأنها «الحداثة المتأخرة» أو «مَا بعد الحداثة». أي مرحلة العولمة وتفتيت أساليب الحياة، والنزعة الاستهلاكية الزائدة، وأزمة الدول القوميّة. وهي مرحلة تصل فيها إيديولوجية الدولة، التي تحاول تحويل المجتمع إلى جسد منظم و«صحّيٍّ»، إلى ذروتها القصوى.

وقد كتب نورمان نايمارك Naimark يقول: «إن الدولة الحديثة تحصي وتحس وتقيس وتزن وتجانس وتصنف، وتعيد تحديد الحدود الجغرافيّة وتفرض تنظيمات للمناطق. وتراقب وتتحكم أيضًا في شعبها، وتتدخل في الحياة العائلية وتحدد سياسات المواليد، ووسائل الإعلام تغرس القيم الخاصّة بنخبة الحكومة. والحداثة العالية لاَ تعير حقوق الأقليات والاختلافات اللغوية والتنمية غير المتماثلة والزراعة والحرف التقليدية اهتمامًا كبيرًا، ولكنها تُلِحُّ في تحديد الجماعات العِرْقيّة وفي تحديد الفارق والاختلاف بهدف حظره»[1].

*

وختاما نستطيع أن نؤكّد على أن العصر الحديث أدّى إلى انقلاب في الإدارة السياسيّة للأقليَّات. في الماضي البعيد كانت تؤخذ في الاعتبار بصفة خاصّة القوّة التخريبية لجماعة مَا. وكانت تتخذ إجراءات شديدة فقط عندما كان يُعتقد أن الناس تجاوزوا حدّ الخطر، كما في حالة القَمْع العنيف لثورة اليهود في فلسطين في عهد تيباريوس. ولكن الناس كانوا يفضّلون بصفة عامّة اتخاذ مواقف متسامحة. وكل غازٍ استطاع أن يترك آثاره (التي لاَ تزال مقروءة اليوم) دون أن يسوي كل شيء بالأرض أو يوحِّد كل الأراضي. وكانت القاعدة تتمثل في التداخل الوثيق للجماعات العرْقيّة والدِّينيّة، المتوازية أحيانا والمتراكبة أحيانًا أخرى، وبالتالي في تعايشها معًا. وكما يوضح فالتسر Walzer جيدًا، فإن التوازن كان يتحقق بصفة خاصّة على حساب الأفراد، الذين كانوا يُحصَرون بقدر الإمكان داخل الجماعة التي ينتمون إليها.

والتأكيد على فكرة الأمة جعل من الصعب التعايش بين مختلف المجتمعات، وأكد تمامًا الموقف المذكور أعلاه، والدولة الديمقراطيّة الحديثة تميل إلى حماية الفرد في حد ذاته، ولكنها تنتهي بأن تضع في المرتبة الثانية حقوق الأقلية. وهناك مَا هو أسوأ من

---

[1] نورمان م. نايمارك، سياسة الكره La politica dell'odio، مرجع سابق، ص ١١

ذلك: أن الاهتمام، الجدير بالثناء في حد ذاته، بحماية الإنسان المجرّد كما يصوره أمانويل كانت، لم يكن دائمًا صادقا، وفي حالات كثيرة اتضح أنه ذريعة للتملص من عبء حماية الهوية الخاصّة بإحدى الأقليّات.

وهذا التعارض بين التسامُح إزاء الفرد والتسامُح إزاء الجماعة يتعين أن يصبح أشدّ قوة مع العولمة، على الأقل من الناحية النظريّة والمنطقيّة.

والخلاف بين الفكرة التنويريّة للإنسان المواطن في العالم وفكرة القرن التاسع عشر عن الإنسان المؤلف من الدم-الأرض-الذاكرة، يمكن أن يتكرر على شكل خلاف بين حرية الانتقال لرؤوس الأموال-الممتلكات-الأشخاص-الأفكار من ناحية، ونزعة حمائية باسم الاختلافات من الناحية الأخرى.

مَا قلناه في الصفحات السابقة حول المأساة الهائلة للأقليَّات واللاجئين، يؤكد لنا أنه إذا كانت الأرض بالنسبة لبعض الأقوياء قد فتحت لهم أبوابها بكل فرصها اللانهائية، فإن العالم بالنسبة لملايين وملايين من الأشخاص أصبحت مكانا مُغلقًا، حيث يهيمون من مكان إلى آخر كما في بحيرة أفيرنو Averno[1] عند القدماء. كما يعلق أحد المعلقين السياسيّين في مرحلة مَا بعد جورباتشوف قائلاً: «لقد انهارت الأسوار التي كانت تمنع الناس من الخروج، ولكنهم يبنون أسوارًا أخرى تمنع الناس من الدخول».

---

[1] بحيرة في إقليم كامبانيا، كان يعتبرها القدماء مدخل الآخرة.



الجزء الرابع

اللاتسامح المذهبي

اليقين المطلق المستمد من العقل

لدي حلم

I have a dream

ولهذا، يا أصدقائي، أقول لكم، إنكم حتى ولـو تَعـيَّن علـيكم مواجهـة مصاعب اليوم والغد، فإن أمامي دائمًا حلما، وهو حلم يمدُّ جذوره بعمـق في الحلم الأمريكيّ، وأن هذه الأمة ستنهض في يوم من الأيام على قدميها وستعيش حتى النهاية معنى قناعاتها. ونحن نعتقد أن هذه الحقيقة بديهية، أن كل البشر خُلقوا متساوين.

إن عندي حلما، أن أبناء أولئك الذين كانوا عبيدًا في وقت مـن الأوقـات وأولئك الذين كانوا يمتلكون العبيد، سيستطيعون الجلوس معًا في يوم من الأيام على مائدة الأخوّة فوق تلال جورجيا الحمراء.

إن عندي حلما، بأنه في يوم من الأيام، حتى ولاية الميسيـسيبي، وهـي ولاية مليئة بالغطرسة والظلم، مليئة بالغطرسة والقمع، ستتحول إلى واحة من الحرية والعدالة.

إن عندي حلما بأن أبنائي الأربعة الصغار سيعيشون في يوم من الأيام في أُمّة لن يحكم عليهم فيها من خلال لون بشرتهم، ولكن من خلال صـفات شخصيتهم. إن عندي حلما!

إن عندي حلما، بأننا في يوم من الأيام سنرتقي بكل واد، وسيتواضع كـل تل وكل جبل، والأماكن الوعرة سـتمهَّد، والأمـاكن الملتويـة سـتعدل وسيظهر مجد الربِّ وكل الكائنات الحية ستراه معًا. هذا هو أملنا، وهـذا هو الإيمان الذي أتجه به نحو الجنوب.

وبهذا الإيمان سنستطيع أن ننتزع من جبل اليأس حجرًا من الأمل، وبهذا الإيمان سنستطيع أن نحول الخلافات الحادّة في أمتنا إلى إلى سيمفونية في غاية الجمال من الإخاء.

وبهذا الإيمان سنستطيع العمل معًا، وأن نصلِّي معًا، وأن نكافح معًا، وأن نذهب معًا إلى السجن، وأن ندافع معًا عن الحرية، ونحن نعلم أننا سنكون أحرارًا في يوم من الأيام. وهذا سيكون اليوم الذي سيستطيع أن يغني فيه كل أبناء الله بمعانٍ جديدة: بلادي، يا أرض الحرية الحلوة أغني لك، أيتها الأرض التي مات فيها آبائي، يا أرض كبرياء الحجيج. وسـوف يتـردد

صوت الحرية من كل سفوح الجبال، وإذا كانت أمريكا تريد أن تكون أمة كبيرة فإننا نأمل أن يتحقق هذا.

فليتردد إذن صوت الحرية من الجبال القوية في ولاية نيويورك.

ليتردد صوت الحرية في جبال ألّيجني الشاهقة في بنسلفانيا.

ليتردد صوت الحرية في جبال كولورادو الصخرية التي يكسوها الجليد.

ليتردد صوت الحرية من منحدرات كاليفورنيا العذبة.

ولكن ليس هذا فحسب.

ليتردد صوت الحرية من جبل ستون في جورجيا.

ليتردد صوت الحرية من جبل لوك أوت في ولاية تنيسي. ليتردد صوت الحرية من كل جبل وتل صغير في الميسيسيبي. وليتردد صوت الحرية من كل منحدر، وعندما نترك الحرية ليتردد صوتها، عندما نسمح لها بأن يتردد صوتها من كل قرية ومن كل حيٍّ ومن كل ولاية ومن كل مدينة، فإننا نسرع أيضًا للوصول إلى ذلك اليوم الذي سيستطيع فيه جميع أبناء الله، من السود والبيض واليهود وغير اليهود والكاثوليك والبروتستانت، ضم أيديهم والغناء بكلمات الأنشودة الزنجية القديمة: «أحرار في النهاية، أحرار في النهاية؛ شكرا لله القدير، نحن أحرار في النهاية».

مارتن لوثر كنج الابن
من خطاب ألقاه عند النصب التذكاري لأبراهام لنكولن
واشنطن، ٢٨ أغسطس ١٩٦٣

الفصل الواحد والعشرون

دكتاتورية العقل

في البدء خلق الله السماء
والأرض، وبعد ذلك في يومه
المحدَّد وضع المصابيح في السماء
وفي اليوم السابع استراح.
بعد مليارات السنين وضع الإنسان،
الذي خُلق على صورته وشبهه،
دون أن يستريح أبدًا، بذكائه
العلماني، ودون خوف، في السماء الهادئة
في ليلة من ليالي أكتوبر
وضع مصابيح أخرى مماثلة
لتلك التي كانت تدور منذ خلق العالم. آمين.

سلفاتوري كوازيمودو

[العقلانيّة - ظهور «العقل الغربيّ» - سُكْر بروميثيه - الغطرسة العلميّة التكنولوجيّة - التسامُح بين الدوجماتية والتشكيك]

العقلانيّة

والمرحلة الأخيرة من رحلتنا مخصَّصة للشكل الأخير (الأخير من الناحية المنطقيّة والأخير من ناحية التسلسل الزمني)، من اللا تسامح، وهو اللا تسامح بالمعنى الحديث تحديدًا، والذي يستمدُّ يقينه المطلق من أبعد مصدر يمكن أن نتخيله: الإيمان بالعقل.

لماذا هو الأبعد احتمالاً؟ لأن العقل، للوهلة الأولى، وغريزيًا، يبدو لنا أنه لا يتماشى مع رفض الحوار. وقد كان العقل منذ الأزل مفهوما دائما، ليس فقط من ناحيــة القــدرة العقليّة، ولكن أيضًا كمرادف للحكمة والاعتدال والانفتاح، وخلاصة النزاهــة ورفــض الأحكام المسبقة. ومن التعاليم الأولى لآبائنا، والتي أصبحت الآن من الأقوال الــشائعة، هو أن العقل يجب أن يكون مستشارنا الأفضل وملهم الآراء والــسلوكيات الــصحيحة. عندما تسير الأمور بسلاسة فإننا نتحدث عن «حل معقول» أو عن «شخص معقــول»، ولكن عندما يفلت الموقف من أيدينا نقول «إن شخصا مَا فقد عقله».

والاعتدال وحكم الأهواء أمور أساسيّة أيضًا بالنسبة إلى الشرقيين، ولكن هذا يعنــي بالنسبة إليهم الانفصال عن أنفسهم، وهو مَا يصلون إليه فقط بأن ينهلوا مــن الأعمــاق اللاواعية لنفوسهم، دون استخدام الأعمال المُجهدة للعقل دون توقّف، ولكن مع تحييدها. وهذا بالضبط عكس تناولنا، المرتكز كلّه -على العكس من ذلك- من الرواقيين اللاتــين حتى الجنتلمان الإنجليزي مضرب الأمثال، على السيطرة على النفس، وعلى أن يكــون الإنسان «Compos Sui»، وهي غاية يمكن تحقيقها فقط بمساعدة العقل المفكر، مع تغليــب العقل على القلب. هل تذكرون الصورة الشهيرة لأفلاطون، لقائد العربة، الروح المدركَة بالعقل، التي تحاول أن تكبح جماح الحصان الأبيض والحصان الأسود، الروح الغاضبة والروح الشهوانية؟

ويضيف مؤسس الأكاديمية إلى العقلانيّة الأخلاقيّة لأستاذه سقراط، الذي كان يــرى أنه لكي يتصرف الإنسان بصورة صحيحة لاَ بُدَّ أن يعرف معنــى الخيــر والعقلانيّــة السياسية: الاستخدام الحصيف للعقل كقاعدة ذهبية للحكم السليم. وهي قاعدة فسَّرها هــو من الناحية الأرستقراطية، بمعنى أن الفلاسفة فقط، أساتذة العقلانيّة، هم الذين يستطيعون إدارة الشأن العامِّ، ولكنها كان يمكن أن تلهم أيضًا ذلك المفهوم الديمقراطي الذي سيؤدِّي في النهاية إلى الإستفتاء العامِّ، الذي يستطيع جميع البشر بموجبه، مــن حيــث كــونهم كائنات مفكرة، أن يُسهِموا في خيارات المصلحة المشتركة. ونجد أن هذه القاعدة يــشير إليها بالفعل في منتصف القرن السابع عشر أحدُ الأعلام المميزين -من بين الكثيــرين- للعقلانيّة العلمانيّة، هو سافينيان سيرانو دو بيرجيراك، فعلى الرغم مــن اعترافــه بــأن «الفلاسفة لاَ يقتنعون إلا بالعقل»، فقد كان يؤكد مع ذلك أنه «لاَ سلطة العالم ولا ســلطة الأغلبيّة لها مصداقيّة أكبر من رأي المُزارع عندما يكون تفكيره صحيحًا»[1].

والخاصيِّة المميزة التي تجعل العقل أفضل محفز للتسامُح يمكن الوثوق به، هي أنه وُلد كتوأم للشكِّ. وهو صمام الأمان الداخلي لنا الذي يدفعنا إلى التفكير قبل العمل، مــع

[1] سيرانو دو بيرجيراك، L'autre monde ou les états et empire de la Lune، الترجمة الإيطاليّة، L'altro mondo، دار نشر الأسد الأخضر، تورينو ١٩٩٩، ص ٦٨.

تخفيف كل اندفاع للعنف. «إن العقل يجعلنا جميعا جبناء. والألوان الطبيعيّة المزدهـرة لكل عمل نفكر فيه يهدر دمها عند التدبُّر الشاحب للتفكير...». هكذا يقـول هاملـت ولا يقرر القتل لكي ينتقم لموت أبيه. ألا يضع القانون كأول عنصر مخفف للجريمة «عـدم القدرة على الإدراك والإرادة»؟

لقد كان بالفعل كبار الفلاسفة اليونانيين الذين نعتبرهم مؤسـسي النمـوذج الحـالي لحضارتنا، هم الذين جعلوا من العقل، والعلم المشتق منه، أداة رائعة لإلقاء الضوء على العالم المحيط بهم اعتمادًا على الشكّ بالذات، وهو المميز للاثنين، أي بالعودة باسـتمرار لمناقشة جميع الأفكار التي كانت تعتبر حتى تلك اللحظة أساسًا غير قابل للنقاش للواقـع المرئي وغير المرئي، وبالتالي لا يمكن المساس بها. ويرى جادامر Gadamer أن فضولهم هذا وتعطّشهم للمعرفة وروح الملاحظة المترتبة على ذلك وحب الرياضيات، يمكـن أن يكون راجعًا إلى الاحتياجات العمليّة لشعب من البحّارة. ولكن حضارات أخرى عظيمـة أيضًا كانت قد طورت أساليب معقّدة للبحث في الطبيعة، وبخاصة فـي مجـال ملاحـة الفضاء وعلم الزراعة وأصالة المفكرين اليونانيين، يجب أن نبحث عنها بالأحرى فـي أنهم اكتشفوا الفلسفة كتحدٍّ للمحرَّمات الراسخة عبر القرون، كنهوض للفكر المستقل الذي لم يعُد يَقْنَع بنَظريّة نشأة الكون القائمة على الأساطير، ولكنه يريد أن «يوجد لنفسه سببًا» لوجود الأشياء اعتمادًا فقط على عملياته العقليّة، وواضعًا العقـل Logos فـي مواجهـة الأسطورة Mithos. وفي حديثنا عن عدم تسامح الوثنيين ذكرنا حجم الشجاعة التي كانـت ضروريّة، في المجتمع المحدود في تلك الأزمنة، حيث كانت المكانة الشخصيّة والاعتبار من جانب الجيران مسألة حياة أو موت، لأولئك الذين كانوا يتجاسرون على التقدُّم بأفكار فاضحة، كأن يقولون مثلاً إن الشمس التي تمنحنا الضياء والحياة ليست إلهًـا، ولكنهـا مجرد نجم مزوَّد بشكل معيَّن من الطاقة، أو إن الأرض ليست مسطحة ولكنها كرويـة، وهرطقات أخرى من هذا القبيل. وقد دفع الكثيرون، بـالنفي أو حتـى بحيـاتهم، ثمنـا لجرأتهم هذه.

وليست لدينا عناصر وثائقية كافية للتأكيد على أن اليونانيين كانوا وحدهم أول مـن تَصوَّر العالم على أنه سلسلة من التساؤلات الكبيرة استدعي الإنسان للردّ عليها، ولكـن هذا بالتأكيد كان توجُّههم الأول، الذي سعوا لتحقيقه بصدق وشغف.

ظهور «العقل الغربيّ»

والحديث عن المرتبة السيادية للعقل والعلم في الرؤية «الغربيّة يعود بنا مرة أخرى إلى مفهوم الحداثة الذي أشرنا إليه كثيرًا من قبل في هذه المعالجة. ولكن مَا هذه الحداثة في نهاية المطاف؟ كلمة أخرى مزدوجة المعنى. أن يكون الإنسان حديثًا هو مجاملة للجانب الأكبر منا لاَ بالنسبة إلى الجميع. والذين عندهم تحفظات في هذا الشأن ليسوا هم فقط الظلاميين أو الرجعيين تمامًا. ومن الزعماء الذين أذكرهم بمزيد من الحب سفير إيطاليا في أيرلندا، باولو كانالي. كان سكرتيرًا سابقًا لدي جاسبري، وكان متحررًا من الأحقاد القوميّة والمحليّة، وعلى جانب كبير من الثقافة والانفتاح العقليّ، وكان واحدًا من السفراء القلائل للغاية الذين عُيِّنوا في منصب سياسيّ عقب الحرب مباشرة. وعلى الرغم من قيامه بنشاط مميز في التمثيل السياسيّ في مقر لوكان هاوس الرائع، في ضواحي دبلن، فقد خصص لنفسه، كعضو من الدرجة الثالثة في الرهبنة الفرنشسكانية، غرفة صغيرة مؤثّثة فقط بسرير متواضع، وخريطة للعالم وتمثال للمسيح المصلوب. وعندما تَعيَّن عليه أن يكتب «مذكرات التأهيل» الخاصّة بي (وقد كان يفعل ذلك في حضوري، على الرغم من التعليمات التي تنصُّ فقط على أن يراها صاحب الشأن فيما بعد)، كان على وشك أن يكتب تحت بند «نوعية الخدمة» «موظف حديث»، ثم فكّر في الأمر قليلاً، وسمعته يهمهم قائلاً: «من الأفضل عدم استخدام هذا اللفظ»، وكتب: «موظف مؤهَّل وكفء».

والحداثة يمكن أن تعني أشياء كثيرة. وكان اللفظ شائعا بصفة خاصّة بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين، واتخذ ملامح سياسيّة وثقافيّة محدَّدة. ويبدو أنه عاد اليوم إلى مجده بمفهومه الأوسع، لكي يشير، بصورة مبهمة تقريبًا –وقد رأينا ذلك في الجزء السياسيّ– إلى تلك العمليّة بالغة الاتساع التي تندرج فيها، سواء التطوُّرات الاجتماعيّة الاقتصادية في الغالب (مثل الثورة العلميّة والثورة الصناعيّة)، أو التغييرات في المجال القانونيّ والأخلاقيّ (مثل حقوق الإنسان، والحفاظ على التراث الثقافيّ والطبيعيّ، وحماية المهمَّشين). إنها قفزة حضاريّة، وهي الانتقال من تاريخ البشريّة كلها وكان مصدر ونقطة إشعاعها «الحضارة الأوربيّة»، وبعد ذلك، بعد مَا يزيد على نصف قرن بقليل، «الحضارة الغربيّة». وبعض الكتّاب المعاصرين يصفون بالذات عمليّة التحديث على أنها «ظهور العقل الغربيّ». وجدير بالذكر الحماس الذي يصف به لنا واحد منهم، وهو رتشارد تارناس، ظهور الرؤية «الحديثة» للعالم:

«وهكذا بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، شهد الغرب ظهور كائن بشري مزوَّد بوعي واستقلال جديد متطلع إلى استكشاف العالم، وواثق من أحكامه، ومتشكك في

الأفكار المتشددة، ومتمرد على السلطات، ومسؤول عن معتقداته وأعماله، وعاشق للماضي الكلاسيكي، ولكنه وفيٌّ لمستقبل أعظم، وفخور بإنسانيته، وعلى وعي بأن الطبيعة ميّزته، وهو على علم تامٍّ بقدراته الفنية كمبدع فردي، واثق من قدرته الذهنية على الفهم والسيطرة على الطبيعة وفي مُجمَل حياته أقل اعتمادًا على إله قدير»[١].

وقد كان هذا في نهاية المطاف أحد الأمثلة التي تلاقت فيها الظروف المواتية التي تحدث فقط مرة واحدة في التاريخ. وقد ترتب على ذلك وعي مختلف نوعيًّا عن وعي الماضي، بالقدرات البشريّة، وردّ فعل متسلسل من الأفكار والإبداعات والمبادرات التي كانت تحدث ازدهارا، لم يسجَّل قط من قبل، في الفنون والأدب وفي جميع ميادين العلوم الإنسانيّة، وعلى الصعيد السياسيّ مثلت إدانة للنظام الأرستقراطي-الإقطاعي. وولدت نَظرِيّة جديدة لنشأة الكون وثقة في المستقبل كانت تعني القطيعة النهائية مع الجبرية والحتمية في العصور الوسطى. وبعد ذلك أدَّى الادِّعاء بالقدرة على معرفة وشرح كل شيء بنور العقل في النهاية، إلى خلق سلسلة كاملة من «العلوم الإنسانيّة»، بما في ذلك «علم النفس». وفي المرحلة القصوى من الثورة الفرنسيّة -وهي ابنة المذهب التنويري- أدَّى الحماس إلى تدمير كل مَا كان له علاقة بالنظام القديم Ancien Regime، وإقامة «عالم جديد»، إلى هدم كبرى كنائس فرنسا وتماثيل القديسين والملوك وعبادة الإله العقل. وقد كان هذا يعطي على الفور، ماديًّا، المعنى الكامل لما كان يحدث. فالإنسان «الحديث» لم يعد يحتفل الآن بقدرته العقليّة كهبة من الله، ولكن كصفة بشريّة أصيلة ومقصورة على الإنسان. ولم يعد يُنظر إلى العقل على أنه نابع من كائن أعلى أراد أن يعكس صورته في مخلوقه المفضل، ولكن ضربة حظ Jackpot جينية لا تتكرر، جاءت في نهاية عمليّة طويلة للغاية بسلالة القرود التي تلتهم كل شيء وهي ماهرة بصفة خاصّة في البقاء على قيد الحياة حتى قمة سلمها البيولوجي. وقد انتشى الإنسان العاقل بالقدرة التراكمية التي ينهلها من عقل أكثر تطورًا من عقل أي حيوان آخر، ويتمتع بقدرات لم تستكشف بعد، لدرجة أنه، بعد أن اكتشف الله كدليل جديد على وحدانيته في الخلق، يشعر الآن بأنه قوي بما فيه الكفاية لإنكاره.

بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك، فهو لاَ يعتقد فقط أن بوسعه الاستغناء عن الله، الذي اعتبره من اختراع عقله، ولكنه يقنع نفسه بأنه سيكون هو إلهًا، يستطيع ليس فقط تحويل المادة ولكن خلقها، واستكشاف الكون بأسره، وأن يهزم الموت أيضًا[٢].

---

[١] ريتشارد تارناس ، ولع العقل الغربي، The passion of the western mind، بالانتين بوكس، نيويورك ١٩٩١، ص ٢٨٢.

[٢] خوزيه أورتيجا إي جاسيه، الإنسان والناس، L'uomo e la gente، دار نشر أرماندو إديتوري، روما ٢٠٠١، ص ٤٣.

سُكْر بروميثيوس

ويبدو أن الأساطير القديمة قد توقعت هذا التطوُّر الأقصى وتحذر الجميع من خطيئة الكبرياء.

وأقدم النصوص المقدسة في الديانات الشرقية مستلهمة من فكرة أن الإنسان يجب أن يدرك وهم الأنا التي يجب أن يتحرر منها بعمليّة روحية شاقة ودورة من عمليات إعادة التجسيد، لكي يلتقي من جديد في النهاية بالطاقة الكونية التي تصهر وتلغي كل شيء. ولا يوجد أدنى أثر للكبرياء ولا إشارة للقدرة على كل شيء عند العقل المفكر في تعليمات مبررها المشترك هو التحذير من أن الحالة البشريّة هي كل مَا يمكن أن نتخيله من عدم الثبات والهشاشة والخداع والتفاهة، وتصلح للجميع أسطورة جيلجاميش، الذي تاه في البحث العقيم عن الخلود.

ولكن حتى بالنسبة إلى اليونانيين، على الرغم من خبرتهم باللغة، فإن العجرفة - وهي غياب الإحساس بالحدود، وكسر التوازن والتناغم بين مكونات الكون- كانت خطيئة جسيمة، وتحديًا مباشرا للآلهة.

وقد وصمها دون مواربة سِولون وإزيودو وبيندارو والعديد من الأساتذة العظام الآخرين، واصفين إياها بأنها تغذي الاستبداد والغطرسة، ومصدرٍ فقط للعمى والجنون والكارثة. وقد كتب إسخيلوس في كتابه الفرس «I Persiani» قائلاً: «إن الصفاقة عندما تزدهر تُنضِج سنبلة من الدمار وتحصد منها حصادًا من البكاء»[1].

وبروميثيوس، الذي أذنب بسرقة النار من أولمب ليهديها إلى البشر، يكبل في الأغلال في صخرة ويلتهم نسر كبده دون توقف. وأسطورة باندور هي استمرار ودعم لهذه الرسالة الشفافة، فقد أصبحت «جرة باندور» قولا شائعا، ولكن قليلون هم الذين يعرفون قصتها التعليمية، التي تستحق أن نذكرها. فقد كان زيوس قد غضب لأنه مقتنع بأن النار في أيدي البشر ستطلق العنان لسلسلة من الاختراعات والاكتشافات، ولن تؤدِّي إلى سعادتهم، لأن الفضول والجشع البشريّ الذي لاَ يشبع لن يعوقه شيء، وسيقع في تجاوزات من كل نوع، وستنجم عنها مصائب كثيرة. وللبرهنة على افتراضه يخلق ملك الآلهة المرأة مزودًا إياها بكل جاذبية ممكنة، ويرسلها في العالم كإثارة حية، ويعهد إليها بجرّة غامضة مغلقة بإحكام كفخ خصيصًا لشقيق بروميثه، إبيميته، الذي اختير هدفًا لإغرائها. ويترك هذا الأخير نفسه ليهزمه سحر باندور، والفضول أيضًا، على الرغم من كل نداءات الحذر. وهكذا فإن جرة باندور، كما كانت تريد أن تبرهن، تفتح، لتقلب على

[1] ذكره ماريو كابانا في كتابه نهر الطغيان، Il fiume della prepotenza، ريتسولي، ميلانو ١٩٩٦، ص ٥٤.

العالم كل أنواع الشرور. والقصة الرمزية لا يمكن أن تكون أكثر صراحة ضدّ الهوس البشريّ في البحث في الأمور المحرمة. وكذلك تتضمن أسطورة بسيشه -التي عوقبت لأنها لم تقاوم الفضول لرؤية وجه محبوبها المقدس- التحذير المماثل من الرغبة في معرفة الأسرار الكبرى بأي ثمن، وإلقاء الضوء على مساحات من الواقع مقدَّر لها أن تظل دائمًا محجوبة عن العقل البشريّ. وأسكليبيوس، تخترقه الصاعقة الإلهية، لأنه أصبح ماهرًا جدًّا في فنه الطبي إلى درجة بعث الموتى.

وقد رأينا، عند الحديث عن الوحدانية المسيحيّة، أن الخطيئة الأولى والكبرى للإنسان في نظر التوراة كانت هي التكبُّر، وأن الواجب الأول للمسيح كان تحريره من هذه الخطيئة وتهذيب الادّعاء البشريّ بالاستقلال التامّ مع احترام الإرادة والأمر الإلهي. ولنعد لحظة إلى هذه الخطيئة الكبرى، الخطيئة بامتياز، ليس فقط خطيئة العصيان ولكن التكبُّر التي تَصِمُ الرجل الأول والمرأة الأولى، عقب الخلق مباشرة، واستمر هذا في نسلهما، وسنحاول أن نلتقط النتائج الرئيسيّة في هذا الأمر. فحوَّاء تذكر الثعبان الذي يحضُّها على أكل ثمرة الشجرة وسط جنة عدن، بتحريم الله: «لاَ يجب أن تأكلوا منها ولا يجب أن تمسُّوها وإلا ستموتان». ولكن الثعبان يرد بقوله: «لن تموتا إطلاقًا! بل ستصبحان مثل الله، لأنكما ستعرفان الخير والشر» (سفر التكوين ٣، ١-٦). وبالتالي عندما تقضم حواء التفاحة وتقدم منها لآدم، لم يكن الاثنان مندفعين فقط بالفضول البريء ولا حتى بالمعاناة الناضجة في الرغبة في التمييز بين الخير والشر، ولكنهما كانا فريسة لنفس الإغواء الذي أدي إلى سقوط إبليس: أن يصبحا مثل الله، وألاَ يعتمدا على أحد، وأن يصبحا نورا لنفسيهما. ويطردهما الله لتمردهما، ولكنه يريد أيضًا بعد أن جعل منهما مخلوقين مميزين يستطيعان الاختيار، أن يشعرا بكل ثقل وحدود اختيارهما لهذا الاستقلال. وسيتعين على الزوجين البشريّين الأولين ونسلهما أن يلحظوا بأنفسهم أنهم يستطيعون معرفة الخير والشر وممارسة اختيارهم الحر بالمعنى الإيجابي أو السلبيّ، ولكنهم لاَ يستطيعون امتلاك المعرفة الكاملة والسيطرة المطلقة على السلسلة التي لا تنتهي من الأحداث التي يبدؤونها بأعمالهم. إن الله وحده هو الذي يمتلك المعرفة المطلقة، وهو فقط الذي يستطيع أن يعرف مَا الخير الحقيقيّ وما الشر الحقيقيّ. وادِّعاء غير ذلك قد يعني قلب نظام الكون الذي يمسك به الله وحده. وأذكر هنا أيضًا أن الإدانة العامّة للتكبر من جانب جميع الأديان تمتد من المجال المقدس الضيق إلى المجال السياسيّ- الاجتماعيّ، الذي هو أيضًا في نفس الوقت، كما رأينا، مقدَّس وقائم على احترام السلطة والتسلسل الهرمي Gerarchia (وهذا اللفظ الأخير عنصره الأول في اليونانية هو Ieròs، ويعني «مقدس»). وفي المفهوم المقدس للقصائد الفيداوية Vedici، مثل قصائد هوميروس، كان التكبُّر إهانة أيضًا للآلهة، من حيث إنه انتهاك للحدود المرتبطة بالحالة البشريّة التي يحكمها القدر Dharma والمصير Moira. وعلى أساس هذا المفهوم العظيم الذي تَواصَل

عبر الاف السنين في أركان الأرض الأربعه، لا يمكن الإفلات دون عقاب من المصير الكوني، غير الشخصي والمحتوم، الذي يخص كل كيان في الطبيعة بنصيبه، المحدد منذ الأزل وإلى الأبد. وأي محاولة لتغيير الوضع الراهن محكوم عليها في نفس الوقت بأنها تجاوُز للحدود فوق الطبيعيّة التي لا يجوز تجاوزها. والمبدأ ينطبق تمامًا سواء على الإنسان الذي يعصي أوامر الآلهة، والشخص الذي ينتمي إلى مرتبة أدنى ويريد تجاوز دوره بتقديم ذرائع مختلفة. وعوليس الذي تجاسر على عبور أعمدة هرقل قُدر له أن يتوه في اللاشيء، وألاَ يعود مثل كولومبس محمَّلاً بالمجد والثروات. ولكن هناك أيضًا ترسيتي Tersite، الجندي البسيط الذي يتجاسر في أثناء حصار طروادة على الاحتجاج بموضوعات قوية ضدّ غطرسة الرؤساء، ولا يقوم الملك عوليس فقط بإلزامه مكانه بضربات الصولجان على ظهره، ولكن الأمر الأهم هو أنه يقابَل بتهكم رفاقه، ويصفه الراوي بأنه معتوه، وغير لطيف أيضًا جسمانيًّا.

والأخلاقيّات المسيحيّة، والأكثر منها الإسلامية المتعلقة «بالخضوع»، تؤكد –على الرغم من العديد التصريحات المخالفة– على هذا التبجيل للوضع الراهن، من احترام الأقوياء إلى قبول العبوديّة. فكل إنسان هو مَا أراده الله أن يكون، ويجب عليه أن يقتصر على أداء دوره جيدًا على هذه الأرض.

وها هو يتحقق الآن، كما قدمت في الجزء السياسيّ، تطور لم نسمع به من قبل، وفي منطقة محدودة من الأرض وفي مسافة زمنية قصيرة نسبيًّا، يقلب الإنسان تمامًا هذا المفهوم القديم الذي يرجع إلى الماضي السحيق، لكي يحمل عن جدارة مسمى «الإنسان الجديد». وهذا «الإنسان الجديد لديه الجرأة لكي يرفض أي فكرة للخضوع للمصير وللسلطة، فهو، بعيدًا عن الشعور بأي خوف، يفخر بأنه أمام حدود تقدِّم له فقط الحافز لتجاوزها لجسارته وروح المغامرة عنده. وتطلّعه إلى تغيير وتحسين العالم يقلب بطبيعته كل وضع راهن، ويجعله صانعًا لمصيره بالكامل، وتجعله يحتجُّ على القيادات الكَنَسيّة، وعبوديّة الأرض، والملكيّة بالحق الإلهي، ومزايا النبلاء والضرائب، وحتى السلطة الأبوية، ممَّا فتح الطريق أمام تحرُّر المرأة.

وفي الخيال الجمعي للعالم الحديث لم يعد بروميثه رمزًا للكبرياء التي يعاقَب عليها، ولكنه على العكس من ذلك يُحتفى به في العديد من الأعمال الأدبية والمسرحية كرمز للجرأة التي يقدر عليها الجنس البشريّ. ويضع جوته على لسان بطله بروميثه ذمًا لزيوس، وهو يحمل نفس نبرة الذمِّ الذي يضعه ميلتون على لسان لوسيفورس "الشيطان Lucifero":

«أنا أكرّمك؟ لماذا؟
هل خففت أبدًا من الامي
عندما كنت مصابا؟
هل مسحت أبدًا دموعي
عندما كنت أتألم؟
إن الزمن القدير
والمصير الأبدي،
اللذين يملكانني ويملكانك
لم يخلقاني على هيئة إنسان

هل ربما كنت تتخيل
أن بوسعك كراهية الحياة،
والهروب إلى الصحراء،
لأن كل أحلامي المزدهرة في الطفولة
لم تتحقق

إنني هنا أخلق بشرًا
على صورتي وشبهي،
سلالة تشبهني،
خُلقت للألم والبكاء،
والمتعة والمرح
وعدم الاكتراث بك،
مثلي!».

الغطرسة العلميّة-التكنولوجيّة

لم يعد الدافع الذي يغذّي هذه الغطرسة من النوع الجديد مذموما كلعنة، ولكنه يُعرض كوسام استحقاق، وهو مرة أخرى ودائما العقل، الذي يمجد إلى أقصى درجة. والاستخدام المنهجي والمحسّن للعقل المنتصر يسمى علِما. وبفضل العلم يمكن التحرر من كل القيود، ويصبح الكون كله متاحًا، مثل قانون اكتشفنا مفتاحه. ونظام العقل البشريّ ينعكس في نظام الكون، وفي نفس الوقت فإن التحليل العقليّ، على الرغم من أنه يتم

بصرامة واحترام لمعايير منهجيّة محدّدة، يمكن أن يؤدّي إلى الوعي التامّ بالعالم التجريبيّ وتحوّله.

ويصبح العلم مصدر النبوءات والمعجزات والوعود بالتحرر والسعادة، ويقدم الان ادّعاءه بالحقيقة المطلقة في تنافس مع الديانات، ومع التكنولوجيا كخادمة له، يجعل من التجاوز البراجماتي للحدود أحد أهدافه الصريحة.

وقد كتب ليون باتيستا ألبرتي، الذي كان من أبرز ممثلي عصر النهضة، يقول: «إن البشر، إن أرادوا يمكن أن يفعلوا كل شيء».

وقد قدم بيكون شرحًا لكيفية تحقيق ذلك: كان لاَ بُدَّ من اكتشاف قوانين الطبيعة والامتثال لها، وعندها يمكن أن نكون على علم بكل شيء وقادرين على كل شيء.

وفي بدايات القرن التاسع عشر حققت رواية كتبتها فتاة في التاسعة عشرة من عمرها، تدعَى ماري شيلي، نجاحًا فوريًّا، قُدر له أن يدومٍ طويلاً، وهذا له مغزاه. إنها قصة عالم يحاول خلق رجل من أعضاء جثة فيخلق وحشًا. وليس مصادفة أن هذا العمل، الذي يُعزَى نجاحه إلى الموضوع أكثر من المزايا الأدبية، يحمل في الطبعة الأولى عام ١٨١٨ عنوان: فرانكيشتاين أو بروميثيوس العصري Frankestein or the modern Prometheus. وجرأة الرجل في تسخير الطبيعة، لها الآن اسم، وهو الأسطورة المحورية للديانة العلمانيّة في الأزمنة الحديثة: التقدُّم. والتقدُّم يمكن أن نغفر له إنتاج بعض أمثال فرانكنشتاين في كل جيل، لأن العباقرة الذين يخلقون معجزات حقيقيّة أكثر عددًا.

والآن أصبحت أسطورة التقدُّم غير المحدود، الذي تغذيه المعجزات العلميّة- التكنولوجيّة المتزايدة زيادة مضطردة، وهي أكثر إدهاشا من معجزات السحرة في العصر القديم، أصبحت تميز كل أوجه الوجود، والسياسة أيضًا بالتالي، قدمت دعما قويًّا للنظريّات التي تجعل من الدولة الهيئة الأولى التي تشكل حياة الإنسان في المجتمع.

وتتوّج الثورة الصناعيّة العمليّة، وتدعم العلاقة بين العلم والسلطة، وتؤدِّي إلى مَا يسمِّيه أ.فون هايك "روح التقنيات المتعددة". «l'ésprit polytéchnicien».

وبالطبع لم تكُن فكرتا التقدُّم والقوّة الأخرى التي تقوم عليها -قدرة العقل على كل شيء- تسيطران دون اعتراض على مسرح الأحداث، وكانتا موضع احتجاج متزايد في العقود الأخيرة من نفس هذا القرن. ولم يكن الأمر يتعلق فقط بردِّ الفعل المدروس للتيّارات الدِّينيّة المضادّة للحداثة، ولكن بانتقاد داخل الثقافة العلمانيّة نفسها، التي كانت تجتاح كل الثقافة «البرجوازية»، علاوة على الدوغماتية العلميّة للوضعيّة. وكان هناك

مفكرون كثيرون، يبرز بينهم نيتشه كعملاق، وقد أسهموا في عمليّة هدم التعاليم الجديدة للحداثة، منكرين إمكانيّة المعرفة التامّة للواقع، وناقشوا من جديد مبدأ السببيّة وصحة القوانين العلميّة ذاتها، التي اعتبرت تصنيفاتٍ عقليّة بناها الإنسان وخالية من أي دليل حقيقيّ في طبيعة الأشياء.

ومع ذلك -وهذا استنتاج حزين له أهمية خاصّة في حديث حول الأثواب التي استخدمها مرة بعد مرة عبر الزمان أعداء الحوار- فإن هذا النقد لم ينجح في منع النصف الأول من القرن العشرين من أن يكون مميزا بشدة بسيطرة التكنولوجيا ودكتاتورية العقل في جميع المجالات، وقد أدَّت هذه السيطرة بدورها إلى الأشكال الأشد خطورة من اللا تسامح وقهر الإنسان للإنسان والتي لم يسبق لها مثيل في التاريخ.

وهذه الصورة الأخيرة، والتمجيد الحقيقيّ للغطرسة، اتخذ صورًا عديدة ومظاهر ملموسة في المجال الفلسفي البحت، وفي المجال الاجتماعيّ-الاقتصاديّ، وفي المجال السياسيّ، وأيضًا في مجال علم النفس الفرديّ.

فمن ناحية أدَّى سقوط الحقائق والقيم التي قدمها الإيمان الدينيّ والاكتئاب واضطراب الأعصاب الناجمان عنه إلى زيادة أخرى في النزعة الفرديّة، في النظام المزدوج لتمجيد الفرد المؤهل بصفة خاصّة إزاء مَا يعتبر القطيع من أمثاله، أو المعاناة بسبب حالة وحدة الإنسان، وعدم قدرته على التواصل مع البشر الآخرين، وأن يضع نفسه في علاقة مع المجتمع. وقد نتج عن هذا أحيانًا رفض غير تقليدي لقواعد وعادات المجتمع القائم. ولكن من ناحية أخرى حاول الشوق إلى المثل العليا التي تنادي بالمساواة في القرن الماضي، والالتزام الاجتماعيّ والسياسيّ، والثقة في تحوُّل المجتمع، أن يجدوا متنفَّسًا وبديلاً عن المعتقد الدينيّ، من خلال إيديولوجيات أخرى، قائمة على حقائق توهمنا أنها كانت علميّة.

وقد تمخضت هذه المعاناة عن تفاقم عبادة العنف، سواء الجماعي (الحرب كتأكيد للأمة)، أو السياسيّ (الدكتاتورية)، أو الفرديّ (السوبرمان الذي يفرض نفسه على الأخلاق والقوانين العامّة).

ويتحول العلم، من طريقة مجردة للبحث تتفرع إلى العديد من العلوم المقسمة تبعًا لطرق إنتاج المعرفة والراسخة في التاريخ، إلى تجريد دوجماتيا، ونوعًا من الثيولوجيا القمعية الجديدة، وهي أيضًا، أسوة بأي ديانة، ترتبط بالسلطة، وتخلط المعرفة بالحقيقة، وتدخل بعدوانية في السياسة. ويولد العلم المسيحيّ الذي يؤدِّي إلى سلسلة من الحروب الصليبيّة مع مجموعة كاملة من النتائج الاجتماعيّة، بدءًا من النتائج المدمرة لليوجينيا[1]

[1] أي تحسين سلالة الجنس البشري (المترجم)

إلى تفسيرات التحليل النفسيّ الشاذة على أساس الفوبيا الجنسية في أمريكا بروتستانتية، ممّا أطلق العنان لحملات من نوع جديد. وفي الفصول التالية سنبحث شكلين مميزين من اللا تسامح قائمين على الحاجة إلى أن نجد في العقل -وبالتالي في العلم- حقائق مؤكدة تستطيع أن تحل محل تلك التي تغيب برفض الحقيقة الدّينيّة.

والشكل الأول من اللا تسامح القائم على العقل هو لاتسامُح الأنظمة الشموليّة، المستمدة من إيديولوجيات مع ادّعاء العقليّة أو حتى العلميّة، ولكنها أصبحت ديانات حقيقيّة علمانيّة.

والشكل الثاني من اللا تسامح القائم على العقل هو لاتسامُح العنصريّة، الذي توهم بحسن نيّة غالبًا أنه وجد في لون البشرة أو في شكل الجمجمة سرَّ التميز أو الانحطاط للجماعات البشريّة، ولكنه غالبًا مَا بحث في قياسات علميّة مزعومة ذريعة للتحايل على مبدأ المساواة والاستمرار في عمليات التمييز والقهر.

التسامُح بين الدوجماتية والتشكيك

يقول تورين: «إن الحداثة لاَ تقوم على مبدأ واحد ولا حتى على التدمير البسيط للعقبات التي تعترض حكم العقل، وهي مكونة من الحوار بين العقل والفرد [...]. وفي هذا القرن عرفنا سواء دكتاتورية العقل أو الانحرافات الشموليّة للفرد، فهل ستستطيع صورتا الحداثة اللتان تقاتلتا أو تجاهل كل منهما الآخر، التواصل في النهاية وتعلُّم التعايش معًا[1]؟ وبداية من النصف الثاني من القرن العشرين، بعد حربين عالميتين والمحرقة، وبعد توازن الرعب في الحرب الباردة، وبعد الأزمات البترولية والإنذارات البيئية، تعرضت فكرة «التقدُّم» ربما لأخطر ضربة، سواء على صعيد الأخلاقيّات أو على صعيد العلوم والاقتصاد والسياسة.

ونلحظ بالتدريج أكثر فأكثر، ليس فقط أن هذا التقدُّم لاَ يمتلك القوّة التي نسبت إليه، وهي ليست عامّة ولا تسير على خط مستقيم، ولكن أيضًا أن الإيمان المطلق بقوة العقل والعلم والتكنولوجيا يمكن أن يؤدِّي إلى أضرار لاَ علاج لها على مستوى العالم، وتغيير الطبيعة البشريّة بعمق في اتجاه التدهور. وقدرة الإنسان على السيطرة على بيئته بصورة لم تكن تخطر على البال من قبل، لم تعد تجعله سعيدًا ولا تساعده على حل أي من

---

[2] انظر أ. تورين، نقد الحداثة، Critica della modernità، دار نشر الساجاتوري، ميلانو ١٩٩٣.

مشكلاته الوجودية الأربع الكبرى، الخوف من الموت والوحدة والمسؤولية (أي استخدام الحرية) ومعنى الحياة.

ماذا بقي من الرؤية المتفائلة عندما كنت طفلاً، عندما كان يشار إلى عام ألفين على أنه غاية كل حلم، حيث كان كل شيء ممكنًا، من هزيمة الأمراض إلى رحلات الفضاء؟ وبدلاً من العالم المسحور لفلاش جوردون، ترسم الأفلام المستقبلية الحاليّة في الغالب عالَما مصنوعًا من المدن الكبرى التي لاَ يمكن تنفس هوائها، وتجتاحها النفايات، وتدمرها حرب العصابات أو الكوارث البيئية. ولا أحد يصور آلاف الأطفال الذين يستمرون كل يوم في الموت من الجوع، ومن بين المثقفين المعاصرين الذين أسهموا في إزالة الافتتان بالعقل ورؤية عالم منظم بدقة وتوقع الساعة، يتجه كارل بوبر مباشرة إلى قلب الحقائق الرائعة لعصر التنوير بفكرة «التزييف» التي أصبحت شهيرة الآن. ويؤكد الفيلسوف في جوهر الأمر أن النظريّات العلميّة حول العالم هي مجرد افتراضات للعقل البشريّ، وليست أكثر من افتراضات، ولا يمكن أن نبرهن على أن هذه النظريّات حقيقيّة، فيمكننا فقط «تزييفها»، أي يمكن اكتشاف أنها زائفة، واستبدال نظريّات أخرى تبدو معقولة أكثر، بها، إلا إذا اعتبرناها بدورها قديمة أو تحسنت بدحض جديد واعتبار نَظريّة مَا حقيقيّة، حتى بعد أن تظهر حقائق تدحضها أو ثبت أنه لاَ يمكن التحقق منها لن يجدي شيئًا، بل يمكن أن يكون ضارًّا. وعبارة «Ipse Dixit» (هو الذي يقول) المنطبقة على أفلاطون وأرسطو وهيجل وماركس، تسببت في جانب كبير من البشائع وأعمال العنف الدكتاتورية في التاريخ. وقد كان هناك قبله فيلسوف كبير آخر، هو تشارلز ساندرز بيرس، دافع عن مفهوم «إمكانيّة خطأ» المعرفة، مؤكدا أن هناك ثلاثة أشياء «لاَ يمكننا أبدًا أن نأمل في الوصول إليها بالتفكير: اليقين المُطلَق والدقة المُطلَقة والعالمية المطلقة»[1].

والعلماء أنفسهم اليوم في نفس الوقت هم أول من أظهر وعيه بعدم ثبات حدسهم. مَن على حق؟ ألبرت أينشتاين عندما يؤكد أن «الله لاَ يلعب بزهر الطاولة»، أم ستيفن هوكينج الذي يؤكد على العكس من ذلك مقتفيا أثر هايزنبرج أن «الله ليس فقط يلعب بزهر الطاولة ولكنه يفعل ذلك معصوب العينين ويقذفه حيث لاَ يمكن أن نراه»؟ والقضيّة لم يُفصَل فيها بعد. ولكن هذا لاَ يهم كثيرًا، فنَظريّة النسبية ونَظريّة الكمّ تجاوزتا فيزياء نيوتون، كما تجاوزت النّظريّة الكوبرنيكية النّظريّة البطلمية، محدثة ثورة شاملة في رؤيتنا للكون. ومن المدهش أن نظريّات الفيزيائيين اليوم تقترب من الأوصاف الشرقية،

[1] مذكور عند جوليو جوريللو، لا حرية للعلمانية في أي كنيسة، Di nessuna Chiesa La libertà del laico، رفائيللو كورتينا، ٢٠٠٥، ص ٢٨.

وبخاصة النّظريّة الطاوية، للواقع[1]: مكوّنات كل ما هو متناه في الصغر، والتي تبدو لنا في نفس الوقت كجزيئات للمادة وكموجات للطاقة، ودور الملاحظ الذي يحدد طبيعة الواقع المدرك، والتوازن بين المادة وضد المادة، والمكان والزمان كانعكاسات لحالة الوعي، وعقل كل إنسان كجزء من الطاقة الكونية.

وقد تطلب الأمر أكثر من قرنين حتى تدخل ثورة كوبرنيكوس وجاليليو في وعي الجماهير، حتى تصبح في متناول الجميع.

ولكن حتى الآن، في بعض القرى النائية بين الثلوج والسهول أو الغابات هناك من يستمر في الاعتقاد أن الشمس -لاَ الأرض- هي التي تقوم بدورتها اليوميّة في السماء. كم من السنين سيلزمنا حتى يقبل الجميع فكرة أن متانة المادة التي نراها ونلمسها هي مجرد وهم لحواسّنا، وأن الفاس التي نمسك بها في أيدينا والتي تسخن بجهودنا هي دوامة من القوى التي لاَ يمكن سبر أغوارها وهي في حركة دائبة؟

ومن المؤكد في نفس الوقت أن الإيمان الإعجازي عند العامّة من الناس لن يتأثر كثيرًا بسهولة، وكل تفكير نقدي حول عدم ثبات ونسبية الإنجازات العقليّة ومساوئ العدوان المكثف على العالم الطبيعيّ ستبقى ميزة لأقلّيّة من الناس. والتحريف الجاري في المسلمات نفسها لما يسمى «العلوم الدقيقة»، لاَ يفهمه غالبيّة الناس. وقد يُفهم بالمعنى العكسي كدليل على كيفية نجاح العلم في تجديد مناهجه لكي ينتج دائمًا معجزات جديدة.

وأمام الشكّ، الذي هو يقين بالنسبة إلى كثيرين، في أن الإنسان يفسد أكثر ممّا يُصلح في بيئته، فإن الديانات -جميع الديانات- يمكن أن تمارس مرة أخرى دورًا حاسمًا، وتقف إلى جانب الفلاسفة في بناء حدود وعلاجات ناجعة. وفي مَا يشبه تقسيم الواجبات، حيث يحاول الفيلسوف -كما رأينا- إزالة الحقائق الأرضية التي تغذّي تمجيد العقل، يمكن لرجل الدين أن يُدخل بدوره رؤية «غير عقلانيّة»، في اتجاه الرُّوحانيات، والسموّ والقيم غير المادية، وخصوصًا الديانات التوحيدية الثلاث، التي لها -كما رأينا- عدو مشترك، هو الإلحاد، يمكن أن تجد أرضًا خصبة في الاتفاق بالذات على الكفاح ضدّ المذهب المادي ومذهب المتعة القائمين على دكتاتورية التكنولوجيا.

ولكن بالنسبة إلى ممثلي هذه الديانات التوحيدية، القائمة على حقائق لاَ يسمح بالتشكيك فيها، تظل العلاقة بين الفلاسفة وأساقفة العقل الذين يشككون في كل حقيقة، علاقة جدليَّة، بل إنها تزداد حدة باستمرار. وهي كذلك إلى أقصى درجة، بالنسبة إلى الديانة المؤسسة إلى أقصى درجة على العقيدة، وهي الديانة المسيحيّة.

---

[1] من بين الأعمال الشعبية حول هذا الموضوع أشير إلى عملين لقيا أوسع انتشار: فريتيوف كابرا، طاو علوم الفيزياء The tao of Phisics، فونتانا/ كوليتز وجاري زوكاف، The dancing Wu Li Masters، ويليام مورو وشركاه، ١٩٧٩.

والكنيسة اليوم تقف في الخط الأول في التحذير، كما فعل بندكت السادس عشر منذ بداية بابويته، ضدّ «وثنية التقدُّم»، وضد الرؤية المادية والنفعية للتاريخ. ولكن فاعلية هذه التدخلات تفسد من التناقض السياسي المرتبط بموقف المذهب المسيحيّ فيما يتعلق بالعلاقات بين الإيمان والدين، وهي مشكلة لاَ تزال في الألفية الثالثة أكثر حيوية وحساسية ممَّا كانت عليه في الألفية الأولى.

والرأي الذي قدمته في الجزء المتعلق باللا تسامح المسيحيّ، الذي يرى الاختيار المبدأي للـ Logos (العقل) بدلا من الـ Mithos (الأسطورة) سيجعل من الكنيسة مَا يشبه الساحر المبتدئ، ممَّا سيطلق عمليّة أدَّت، في تسلسل منطقي حتمي، إلى سوء استخدام ووثنية العقل، يكذبه بالطبع كبار القيادات الكنسيّة. وقد ألقى يوحنا بولس الثاني نفسه بكل المسؤولية في هذا التطوُّر الشاذ لحدة الفكر التنويري. ولكن التناقض الأساسيّ لم يُحَل لهذا السبب.

كيف يمكن أن نطالب بتفوُّق العالَم الآخر، ونذكر أن الإنسان يتعين عليه السعي إلى غاية روحية تفوق المتاع الخادع لهذا العالم، والإعلان عن السعادة، كما قال السيد المسيح للقديس تومازو، «لأولئك الذين لاَ يرون ومع ذلك يؤمنون»، وفي نفس الوقت الاستمرار في تقديس تلك الآلة البشريّة البحتة التي لا تعترف بالمقدسات وهي العقل؟

كيف يمكن أن نشيد الحواجز، كما فعل سيلابو، ضدّ عقل يقف كمقياس أخير للوصول إلى الحقيقة، والاحتجاج على التحليل العلميّ للنصوص المقدسة، وانتقاد إزالة الفكر النقدي للقيم والنظم الراسخة، والمطالبة في نفس الوقت باستخدام آلة العقل أيضًا لإلقاء الضوء على الألغاز التي يقدَّر لها أن تبقى كذلك إلى الأبد، وترشيد مَا هو غير راشد، وشرح مَا لاَ يمكن شرحه؟

ومن المفارقات، حتى حول الموضوع السياسيّ والحديث البحث الخاصّ بحقوق الإنسان التي لاَ يمكن انتهاكها، أنه بينما يفهم العلماني هذه الأخيرة على أنها حقوق مدنية و«ثمرة صراعات بالغة الشدّة، وتضحيات لأجيال وأجيال، وهي لاَ تتفق كثيرًا مع طبيعة الإنسان الذي عاش يدوسها لآلاف السنين»، فإن رجل الدين الكاثوليكي لاَ يساوره شكٌّ حول أساسها الأخير: «الخلق، وصدورها عن عقل، عن logos»[1].

وهناك أيضًا عدد غير قليل بين المؤمنين يعتقدون -كما أكَّد القديس أُجوستينو نفسه في نفس الوقت- أن الإيمان هو فوق كل شيء «إيمان بالأشياء التي لاَ تُرى»، أو -كما يعبِّر كيركجارد- أن أقصى مَا يمكن أن يصل إليه الإنسان هو «أن يفهم أنه لاَ يمكن أن

[1] انظر النقاش بين الكاردينال جوزيف راتزينجر وباولو فلوريس داركيه في: هل الرب موجود؟ Dio esiste؟ ملحق العدد ٢/ ٢٠٠٥ من مجلة «Micromega»، ص ٣٥ وص ٤٠.

بفهم». وهناك من يتساءل: «إن استطعنا، لو كانت عندنا أسس عقليّة للتأكيد على أن إيماننا هو الوحيد الحقيقيّ، فهل هذا الإيمان سيكون إيمانا[1]؟ والله موجود بالنسبة إلى كثيرين، وهو ضروريّ لأن العلم والفلسفة، أي العقل البشريّ، لا يستطيعان تقديم إجابات للأسئلة الوجودية الكبيرة، وهي الأسئلة الوحيدة التي لها أهميتها. والعلم يقدّم فقط إجابات جزئية، والفلسفة تستطيع فقط صياغة الأسئلة.

وهل يمكننا أن نبدأ حوارًا جادًّا مع ممثلي الديانات الأخرى، مدَّعين أننا نُظهِر براهين عقلانيّة، وإثباتات علميّة -كما يحدث بالنسبة إلى النظريّات الرياضيّة- تهدف إلى إثبات حقيقة إيماننا، وكذلك عدم صحّة إيمانهم؟ ومع ذلك فإن الثيولوجيا المسيحيّة لم تتأثر بأي تعديل بالقياس إلى تصوُّر أجوستينو وأنسلمو، الذي عمَّقه الفكر التومازي[2]، وطوَّره النقد البروتستانتي، الذي يرى أن العقل السليم لاَ يمكن أن يقول لنا أشياء مختلفة عن الدين. والمنشور البابوي: الإيمان والعقل Fides et ratio، الذي نشره يوحنا بولس الثاني في عام ١٩٩٨، يؤكد بصورة لاَ لبس فيها على أن «الحقيقة التي تأتينا من الوحي هي في نفس الوقت حقيقة يجب أن نفهمها في ضوء العقل». وترفض أي فكرة للفصل بين دائرة الأمور المادية التي هي من اختصاص العلم، ودائرة الميتافيزيقا، التي يعجز العلم عن البحث فيها. وهؤلاء المفكرون الذين يوصَفون وصفًا له مغزاه بأنهم مفكرو «مَا بعد الحداثة» (وبينهم عدد غير قليل من العلماء) الذين أدخلوا مفهوم «العقلانيّة الضعيفة» فعادوا إلى نظريّة «الحقيقة المزدوجة»»، التي اقترحها أرسطو، وهي التي يمكن التحقُّق منها بالعلم ولا يمكن إثباتها بالدين، لم يلقوا موافقة حراس القوانين.

وهذا التقديس المسيحيّ المستمرّ للعقل هو من أخطر التناقضات، لأنه يعني ربطه باليقين المُطلَق، ونزع طابعه الرئيسيّ منه كأداة نقدية مستمرّة، وإعادته بالضبط إلى الغطرسة التي نحاول التخلص منها. وهو موقف لاَ يمكن أن لاَ يؤدِّي كنتيجة حتمية إلى إدانة النسبيّة، التي أصبحت في نفس الوقت الكابوس الحالي للكنيسة الكاثوليكية.

وهذه الإدانة تساوي ببساطة بين النسبية والتشكيك والعدمية، والتأكيد على أنه لاَ يمكن الوصول إلى حقيقة واحدة لاَ شكّ فيها، وأن العديد من الآراء يمكن أن تكون حقيقيّة -كما يقول الدوجماتيون- ويعادل ذلك اعتبارها كلها زائفة. وعلى الصعيد الأخلاقيّ علاوة على ذلك، نرى أن التأكيد على أن العديد من المفاهيم الأخلاقيّة كلها نبيلة بصورة متساوية، وأن كلاً منها يعادل الآخر، يقيم «تعددية للقيم» يستنكرها الجميع. ولكن كما لاَ يدع المثقفون العلمانيون البارزون في إيطاليا أيضًا فرصة لتوضيح ذلك،

---

[1] داريو أنتيسيري، النسبية والعدمية والفردية، Relativismo, nichilismo, individualismo، الناشر روبيتينو، ٢٠٠٥، ص ٣٥

[2] الفكر الفلسفي واللاهوتي لتوماس الأكويني وأتباعه (المترجم)

وهم الذين أراد البعض تسميتهم بالـ«النسبيين»، فإنهم لا يؤكدون إطلاقًا، كما يفعل العدميون، أنه لا توجد أي حقيقة، ولا يوجد أي معنى في الحياة وفي الكون، فهم يقتصرون على التأكيد على أن الحقيقة والقيم ليست مطلقة، ولكنها متغيرة في المكان والزمان. ولا يستبعدون أن تكون هناك حقيقة واحدة مطلقة، ولكنهم يعتقدون -مثل بلوتينو وسيماكو والإمبراطور جوليانو- أنها لا يمكن إدراكها بالعقل البشريّ، وعلى أي حال هناك طرق ودرجات متعددة لمحاولة الوصول إليها.

ومن التضليل أن نقول إن الثقافة العلمانيّة خالية من الإيمان لأنها لا ترجع مصدره إلى كيان معيَّن أو تعليم يفوق الحواسَّ. فالعلماني المنكر أيضًا للعقائد يؤمن ببعض القيم، إلا أنه على وعي دائم بأن اختياره للقيم لا يمكن أن يدعمه معيار عقلاني موضوعي، ممَّا يسمح له بأن يؤكد دون احتمال للشكِّ أن هذه القيمة أو تلك التي يؤمن بها، هي الأخيرة والنهائية، والصالحة للجميع.

وينتمي نوربرتو بوبيو بلا شكّ إلى طائفة الفلاسفة العلمانيين الذين يعتقدون أن بين التعصب (وهو الموقف الذي يرى أن مذهبًا واحدًا هو الحقيقيّ) والتشكيك (وهو الموقف الذي يرى أنه لا يوجد أي مذهب حقيقيّ) مكانًا للموقف الذي يرى أن المذاهب الحقيقيّة يمكن أن تكون عديدة. ومع ذلك فإنه يعطينا درسًا عظيما، عندما لا ينتقد -على الرغم من اقتناعه هذا- ولا حتى يُدين أولئك الذين يخالفونه في الرأي، والذين يظلون بصورة قاطعة مرتبطين بحقائقهم ويَصِمُون المقاربة النسبية. ويقتصر على الإشارة إلى أن التقيُّد الحديدي بالقناعات الشخصيّة لا ينفي موقفا براجماتيًّا من التسامُح، يظلُّ دائمًا ممكنا وعمليًّا.

وفي كتابه المستنير مدح التسامح Elogio della mitezza يحدد اقتراحه هذا في أربعة موضوعات محدَّدة:

الموضوع الأول يتعلق بمن هو واثق من أن القوّة التوسُّعيّة للحقيقة ستنتصر في النهاية وستبدِّد سحب الخطأ. فما الهدف إذن من منع الخطأ بالاضطهاد؟

والموضوع الثاني يناسب من يعتقد على العكس من ذلك أن الحقيقة لا يقدر لها أن تتجاوز الخطأ إلا بصعوبة وبخطورة. ولكن بتخلِّيه عن تغليبها بالقوّة يبرهن أيضًا، علاوة على استعداده الطيب تجاه ذكاء محدثه، على ثقة أكبر في أفكاره.

والموضوع الثالث يصلح لمن لا يتوهم بأن الحقيقة مقدَّر لها أن تنتصر على الخطأ، لا بقانون العناية الإلهية في التاريخ (الرأي الأول) ولا بسبب الشدّة الأكبر لقوته الإقناعية (الرأي الثاني)، وبالتالي فإنه يعتقد أن الخطأ مقدَّر له أن يبقى بجوار الحقيقة. ولكنه يقبل

هذا الخطأ باسم احترام شخص الاخرين، متبعًا حكمة أخلاقية يمكن التعبير عنها هكذا: «تصرف تبعًا لضمير وتصرف بحيث لا تدفع الأخرين إلى التصرف ضدّ ضميرهم».

والموضوع الرابع في النهاية هو موضوع التسامُح على أنه أخف الضررين، وبالتالي فإنه يوحي بموقف عملي، ذي طبيعة نفعية. إن كنت أنا الأقوى، فإن قبول الخطأ يعني عملاً ماكرا، والاضطهاد يؤدِّي إلى الفضيحة ويسهم في نشر الخطأ. وإن كنت أنا الأضعف فإن تحمل الخطأ يُعَدُّ من قبيل الحذر، فإن تمردت سأسحق وستتبدد البذرة الصغيرة. وإن كنا متعادلين، فإن مبدأ التبادلية يدخل في اللعبة ويصبح التسامُح عملاً من أعمال العدالة بين الأشخاص، ففي اللحظة التي أنسب فيها إلى نفسي الحقّ في اضطهاد الآخرين، فإنني دون قصد أنسب إلى الآخرين الحقّ في اضطهادي. اليوم لك وغدًا لي[1].

وهذا الدرس الذي لا يقارَن حول الإدارة العقلانيّة للتسامُح، يبدو لي أنسب طريقة لاختتام مرحلتنا على أرض العقل الوعرة، والمليئة بالتناقضات والشراك، بعد أن أصبح العقل، أكثر من أي وقت مضى، سيد زماننا، على الرغم من كل شيء.

والعقل يقوم بتوحيد العالم بالتدريج، ولكن ليس بالمعنى الذي يرجوه فلاسفة التنوير، بل فقط على الصعيد المادي. فهل سينجح رجال القرن الواحد والعشرين في أن «يتغلبوا» على الكراهيات والدوافع المدمِّرة والميول الانفصالية؟ إن الانقسام بين العامّ والخاصّ يتداخل مرة أخرى في أعماقه مع الانقسام بين العقل والشعور، بين العلم والحركة الإنسانيّة وبين الإيمان والعقل. ويبدو أن الأجيال الجديدة قد فقدت حماسة البحث عن طريقة جديدة للتفكير ميزت عام ثمانية وستين الذي أصبح الآن منسيًّا. وبقدر مَا تبدو لنا آفاق العالم المادي في متناول أيدينا، يصبح بعيدًا ذلك «الضمير الكوني» الذي كان يتوق إليه ويليام بليك ويعتز به ماركيوز.

وقد كتب أرنولد توينبي يقول: «لقد حقّق الإنسان نجاحًا برَّاقًا كمكتشف لـ«أسرار» المادة، وفشل بصورة بائسة أمام أسرار الروح، فكانت مأساة الحياة البشريّة الكبرى على الأرض أن حدث هذا الخلل المذهل في التوازن بين منجزات الإنسان في الدائرة الروحية ومنجزاته في الدائرة المادية، لأن الجانب الروحي من الحياة البشريّة له أهمية أكبر بكثير لرخاء الإنسان (وأيضًا لرخائه المادي في نهاية المطاف) من سيطرته على الطبيعة غير البشريّة».

---

[1] نوربرتو بوبيو، Elogio della mitezza، لينيا دومبرا، ميلانو ١٩٩٤، ص ص ٥٦-٦٦.

ولكنه ظل متفائلاً في الواقع. وقد كان يفترض وهو يكتب عام ١٩٤٧ أن المؤرخين القادمين، حتى بعد فترة قصيرة نسبيًا، كما كان يمكن عام ٢,٤٧، سيعتبرون الحدث المهيمن في زمانهم هو الصدام بين المجتمع الغربيّ وكل المجتمعات الأخرى، وهو صدام قوي نافذ جدًا لدرجة أنه سيقلب تمامًا كل حياة ضحاياه، ممَّا سيؤثر على تصرفاتهم ومشاعرهم ومعتقداتهم. ولكن على مسافة زمنية أطول بكثير، ليست فقط أكثر من قرن ولكن من ألف عام، سيتمكن المؤرخون في عام ٣,٤٧ من تقييم الآثار المضادة التي سيُحدثها الضحايا في المعتدين عليهم، عندما يحقنون في الحضارة الغربيّة عناصر من الحضارات الأخرى، من المسيحيّة الأرثوذكسية والإسلام والهندوسية والشرق الأقصى، حتى تحويلها بصورة تجعل من الصعب التعرف عليها. وبمجرد أن يعقب الإشعاعَ الإشعاعُ المضادّ، لن يتحدث الناس بعد ذلك عن الضحايا والمعتدين، ولكن عن تجربة وحيدة كبرى للإنسانيّة.

«في ذلك الوقت ربما بدا توحيد الإنسانيّة أحد الشروط الأساسيّة للحياة البشريّة – ليس إلا جزءًا من نظام الطبيعة– وقد يحتاجون إلى بعض الجهد في التخيُّل لتذكر المحدودية البانورامية لرواد الحضارة في أثناء ستة آلاف عام تقريبًا من وجودها».

وأنا شخصيًّا أجد أن رؤية هذا المثقف الأوربيّ الذي سحرني كثيرًا وأنا صبي، لاَ تزال معاصرة وليست مريحة فقط ولكنها أكثر إدراكًا في رؤيتها البعيدة للأحداث من المستقبليين وراء المحيط، الذين تتحدث عنهم الموضة حاليًّا.

ويختتم توينبي حديثه قائلاً: «ومؤرخو عام ٥,٤٧. إنني افترِض أن مؤرخي تلك الحقبة سيقولون إن أهمية هذه الوحدة الاجتماعيّة للإنسانيّة لم يكن يتعين البحث عنها في مجال التقنية والاقتصاد، ولا في مجال الحرب والسياسة، ولكن في مجال الدين»(١).

ولكن أي دين؟ قد لاَ يكون من الجرأة الزائدة أن نأمل على المدى الطويل في أرضية مشتركة للاتفاق، ليس فقط بين مختلف الديانات، ولكن أيضًا بين المؤمنين وغير المؤمنين يمكن أن توجد في التخلِّي عن كل ادِّعاء مطلق بامتلاك الحقيقة، وبالتالي في «عمل مشترك»، ليس باسم العقل وبالتالي غطرسة الحقيقة –السلطة– ولكن باسمِ قيمة «مكتملة»، وأولويّة الأخوّة، وحب الجار، وهي بعد ذلك أول وأصدق قيمة بشر بها الإنجيل(٢).

---

[1] أرنولد ج. توينبي، Civiltà al paragone، المذكور ص ص ٣٠١– ٣٠٥.
[2] انظر باولو فلورس داركيه، Ateismo e verità، في Dio esiste ؟ المذكور ص ١١١



الفصل الثاني والعشرون

الأنظمة الشمولية

«إنني أحاول أن أتخيل الاستبداد الحديث، وأرى جمعًا غفيرًا لاَ حدود له من الكائنات المتشابهة والمتساوية التي تدور حول نفسها للحصول على ملذات صغيرة ومسكينة تهنأ بها أرواحها... وفوق هذا الجمع الغفير، أرى ارتفاع قوة حامية هائلة تهتمّ فقط بضمان السعادة لرعيتها والسهر على مصائرهم. وهي قوة مطلقة ودقيقة ومنهجيّة وحكيمة، ولطيفة أيضًا. وهي قد تشبه السلطة الأبوية إذا كان هدفها إعداد الرجال للرجولة. ولكن على العكس من ذلك، لاَ تحاول سوى إبقائهم في طفولة دائمة. وهي تعمل عن طيب خاطر لسعادة المواطنين، ولكنها تريد أن تكون الفاعل الوحيد في ذلك والحكم الوحيد.

وهي تدبر أمنهم، واحتياجاتهم، وتسهل مسرّاتهم، وتدير شؤونهم، وصناعاتهم، وتنظم خلافاتهم، وتقسم مواريثهم: ألا تنتزع منهم أيضًا ربما القوّة على العيش والتفكير؟».

ألكسيس دو توكفيل (١٨٠٥ - ١٨٥٩)

[حركات تعصب بدون إله - المعايير الستة للنظام الشمولي - الفاشية - النازية - الشيوعيّة السوفييتيّة - «العدو المستهدف».]

حركات التعصب بدون إله

إن حركات التعصب، وهي الحركات البارزة الكبرى في القرن العشرين، يمكن أن تدخل هي الأخرى بالكامل في صورة الحداثة المتباينة.

ولكن ألم نقل للتوّ إن ظاهرة الحداثة الثورية هي الديمقراطيّة البرلمانية؟ حتى من هم أصغر سنا والذين لا يعبؤون كثيرًا بالسياسة، يعلمون على العكس من ذلك- أن أي نظام شمولي هو بالضبط عكس هذا. كيف يمكن أن نؤكد إذن أن كلتا الرؤيتين السياسيّتين تنتميان بصورة واضحة إلى العالم الحديث؟

كل شيء يكمن في مَا نعنيه بكلمة شموليّة.

إن الشموليّة كما ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين لاَ تتعارض فقط مع الأنظمة الديمقراطيّة، ولكنها تبتعد أيضًا عما يُسَمَّى بالأنظمة المستبدة، على الرغم من اشتراكها مع هذه الأخيرة في نقاط عديدة. ليس فقط في العصور القديمة والوسطى ولكن أيضًا في الماضي القريب، وأيضًا في زماننا توجد مجتمعات منظمة سياسيًّا على أسس أوليجاركية، أي تركيز السلطات في أيدي شخص واحد أو دائرة ضيقة من الأشخاص؛ وغالبًا بتصور «نظامي»، أي يهدف إلى تنظيم الكيان الاجتماعيّ في هيئة واحدة لخدمة هدف مشترك. وكل هذا مع انعكاسات بالطبع على حريات الرعية، الخاضعين لسلسلة من الإجراءات المقيدة. ومع ذلك فإننا قد لاَ نصف هذه المجتمعات بالشموليّة.

فما هو إذن الشيء الغامض المؤثر الذي يمثل شموليّة القرن العشرين عن استبداد كل العصور الأخرى ويجعل منها طائفة محدَّدة -وهي أيضًا حديثة- من اللا تسامح؟

إن هذا الشيء الغامض يهمنا هنا بصورة خاصّة لأنه يرتبط بالذات باللا تسامح: فالشموليّة هي نتيجة سلسلة من العوامل تنتج كلها نوعا من اللا تسامح لم يسجل في السابق.

ولبحث هذا التسامُح من النوع الجديد، الذي يبرر مرحلة خاصّة في رحلتنا بين أعداء الحوار، سنتوقف بصفة خاصّة على تلك التي تعتبر التجسيدات الثلاثة الكبرى للشموليّة: الفاشية والنازية والشيوعيّة السوفييتيّة. والأنظمة الشموليّة الأخرى، تكرر تقريبًا مع بعض المتغيرات وبدرجات مختلفة، الأنماط غير المتسامحة في الأنظمة المذكورة سلفًا.

والفاشية هي أصل الفكرة الشموليّة، وقد قدمت النموذج للعديد من الدكتاتوريات الأخرى، سواء من ناحية الهيكل المذهبي أو من ناحية درجة اللا تسامح، وهي تُعتبر عموما شكلاً أكثر اعتدالاً ومرونة من الشموليّة، وقد تكون أيضًا أكثر خطرًا في بعض جوانبها، من حيث إنها زاحفة وموجودة في كل مكان، ولكنها بالتأكيد أقل وحشية وقطعية.

والنازية والشيوعيّة يقفان عند القطبين النقيضين من المنظور السياسيّ. ويرى كثير من الدارسين أنه لا يصحّ وضعهما على نفس المستوى، حيث إنهما مختلفان تمامًا فيما بينهما، ليس فقط من حيث الأساليب والأهداف بقدر اختلاف موقعهما على الصعيد الأخلاقيّ. وهناك شخصيّة كبيرة في هذا الموضوع ولا يشتبه بالطبع في تعاطفه مع الشيوعيّة، وهو جورج هـ. سابين، الذي لا يتردد في التأكيد على أن «من المؤكد أن الشيوعيّة توضع على مستوى أعلى بكثير، سواء من الناحية الأخلاقيّة أو الثقافيّة، أو القوميّة الاشتراكية»[1].

ولا يعنينا في هذا الصدد الدخول في مشكلة بهذا الحجم والحساسية. ومن الناحية التي تهمنا هنا، تظل حيّة صورة تشرشل الذي قارن في خطابه الشهير في فولتون بين المذهبين والقطب الشمالي والقطب الجنوبي: فهما متناقضان، وهذا حقيقيّ، ولكنهما مغلفان بنفس قبة الجليد الكئيبة.

والتأكيد الذي ذكرته في الفصل السابق، والذي يرى أن الشموليّة قد تكون شكلاً من دكتاتورية العقل، يمكن الاعتراض عليه بأن طابع اليوطوبيا أو المدينة الفاضلة ذات العمق العلميّ قد يُنسب إلى الماركسية اللينينية لا إلى الفاشية والنازية، لأن هذين الأخيرين يبدو أنهما يتميزان باللاعقلانيّة وتحركهما دوافع هوائية، بنوع من المحاكاة. ولكنهما أيضًا يقدمان ادّعاءً بالعلميّة، وبالتالي فإنهما يحتكمان في المقام الأول إلى العقل، وبالذات في ذلك المجال الذي يبدو لي أنه يمثل العنصر الرئيسيّ والمؤهل لأي نظام شمولي: الممارسة المتشددة والمتغلغلة في كل مكان لعدم التسامُح، المستخدم كنظام مبرمج، ومنفذ بأساليب صارمة وفعالة. وليس فقط السوفييت ولكن أيضًا موسوليني وهتلر وآخرون من مقلديهم، شعروا بسحر إدارة الشأن العامّ المنظم عقلانيًّا من خلال نخبة تستطيع أن تعرف بصورة أفضل من المعنيين المباشرين، المتأثرين بالانفعالات والأنانية، مَهما كانت الاحتياجات الفعلية للجماهير. وسلوك الحرب العالمية وسلوك تلك الحرب الثانية الموازية الموجّهة لإبادة اليهود، والسيطرة الفعلية على حياة الرعية، كانت كلها أنشطة يديرها القادة النازيون طبقا لمعايير التكنولوجيا الحديثة التي لا تخطئ. وعلاوة على ذلك، فإن الأسطورة الأساسيّة للفاشية والنازية، كانت أسطورة فاوست وبرويمثه، والسوبرمان والأمة السوبر، المؤهلة للسيطرة على العناصر الأدنى من البشريّة وتحقيق الهدف النهائي للتاريخ بظهور إنسان جديد. وهي أسطورة حرفت وزادت من حدة المسار الفلسفي الذي سار عليه طوال القرن السابق عمالقة مثل سوريل

---

[1] جورج هـ. سابين، تاريخ النظرية السياسية، A History of Political Theory، جورج ج. هاراب وشركاه، لندن ١٩٦١، ص ٩٢٣

ونيتشه وهيجل واستغل فكرهم، ولكنه استلهم بناءه من المسلمات القوميّة و«الحديثة» المميزة.

المعايير الستة للنظام الشمولي

المقارنة التقريبية الأولى بين المذهبين الكبيرين السالف ذكرهما في القرن العشرين تسمح بتحديد الملامح المشتركة التالية:

- كلاهما كان ردّ فعل للتحلل الأخلاقيّ الذي أعقب الحرب وصعوبة التكيف مع المجتمع الصناعي.

- كانتا من الدكتاتوريات التي تحتقر إجراءات التشاور والتباحث المميزة للديمقراطيّة البرلمانية.

- اعتمدتا على الحزب الواحد وعلى جهاز قمعي.

- خلقا نخبة تكونت تلقائيًّا للقيام بمهمة قيادة الجماهير، أيضًا بالقوّة، نحو أهداف تحسين المجتمع الإنساني بأسره.

- في القطاع الاقتصاديّ قامتا بمحو التمييز الليبرالي بين مناطق الاختصاص الخاصّ ومناطق السيطرة العامّة.

وقد طور كل منهما في النهاية فلسفة دوجماتية، معلنين، أحدهما باسم الجنس الآري، والآخر باسم البروليتاريا، «حقيقة» قابلة لإنتاج قواعد جديدة للفن والأدب والعلم والدين[١].

ويؤكد غالبيّة علماء الاجتماع وخبراء السياسة هذه الصورة بعد تحليل صارم لمختلف الأنظمة المستبدة الموجودة على المسرح السياسيّ في القرن الماضي، ويتفقون على تحديد ستة معايير كشروط ضروريّة وكافية حتى يمكن أن تحدث شموليّة حقيقيّة[٢]. مذهب، وحزب واحد، وبوليس للإرهاب، واحتكار لوسائل الإعلام، وسيطرة على القوات المسلحة، واقتصاد مركزي.

---

[١] نفس المرجع السابق، ص ٩٢٣.

[٢] كلود بولين، الشمولية، Le totalitarisme، المطبعة الجامعية الفرنسية، باريس ١٩٨٢، ص ١٣

وحول هذه النقاط الست بُنيت سلسلة كاملة من الافتراضات التي تهدف إلى تفسير كيفية ظهور الشموليّة في المرحلة الأخيرة من الحداثة وكيف أنها تمثل ظاهرة فريدة وطبيعيّة في الحداثة. هناك من يركز حديثه على الجوانب التقنية والإمكانيات الجديدة في الاتصال والقمع الجماهيري، التي ربما قدمت ببساطة للطغاة أدوات السيطرة التي لم تكن تخطر على بال أحد من قبل. وهناك على العكس من ذلك من يرى أهمية الجانب الاقتصادي ويعتقد أن الأبعاد التي اتخذتها الدول الصناعيّة الحديثة قد جعلت من الحتمي وجود درجة عالية من التخطيط وبالتالي سيطرة مستبدة، تركز دائمًا في يدها مزيدًا من السلطات.

ولكن الغالبيّة يرون أن العنصر الرئيسيّ هو الإيديولوجية. ويرى جوليان فرويند أن الشموليّة هي –فوق كل شيء– «إيديولوجية في خدمة إرادة القوّة عند جماعة معينة». ويرى هيرمان راوشنيج أن الأمر يتعلق بثورة جماهيرية، راديكالية وعدمية، ضدّ الليبراليّة. ويعتقد حنا أرنت H. Arendt، على هذا المسار، أن التنظيم الشمولي قد قدم للجماهير التائهة بعد الحرب العالمية الأولى وقد أصبحوا بلا مرجعيات أخلاقية ونفسيّة، «وسيلة لوصف أنفسهم وتحديد هويتهم»، من خلال الطاعة–الخضوع الشامل كهدف في حدّ ذاته، ممَّا أدّى هكذا إلى «هذيان جماعي» انتهى بجنون مدمر. وربما نشأت هكذا ديانة جديدة دنيوية، وهي «الديمقراطيّة الشموليّة»، وهي «هيمنة الأفكار»، أي الفكر اليوطوبي الذي يمتلك احتكار العنف»[١].

والزعيم الشمولي، في جوهر الأمر، بخلاف الطاغية المشغول فقط بالحفاظ على السلطة، يستخدم السلطة لتحقيق فكرة تمجده.

ولدعم الاقتناع بأن المفتاح الرئيسيّ للسلوك الشمولي هو الإيديولوجية، يجدر بنا أن ننظر بصفة خاصّة إلى رأي عامٍّ مستلهم من الحس السليم: أن عصا الإرهاب وجزرة النظام والتقدُّم الاقتصاديّ قد لاَ تكفيان لتضمنا طويلاً وفاقًا جماهيريًّا واسعًا جدًّا، إن لم يتدخل فوق كل هذا الدافع التوحيدي القوي المتمثل في فكرة عظيمة، تستطيع أن تهز أعمق الأوتار في المشاعر الجماعيّة.

ولنبحث الآن بالتفصيل الفاشية والقوميّة الاشتراكية والشيوعيّة السوفييتيّة، لاَ لرسم تاريخها ولفحص جوهرها، ولكن فقط للتحقق من النقطة المحورية في موضوعنا، أي قوتها البالغة من اللا تسامح الإيديولوجي.

---

[١] يرى أن الشمولية ربما نشأت عن «موقف يسعى للكمال الزائد» فيمَا يتعلق بالقيم الليبرالية للفردية في القرن السابع عشر، لينتهي بتحويل المثل الأعلى الديمقراطي الزائد للسيادة الشعبية إلى نظام قسري بصورة شديدة، وإلى «مسيحية نافدة الصبر».

الفاشية

يبدو أن موسوليني كان أول من استخدم لفظ «الشموليّة»، وكابن زمانه، على الرغم من أصله الشعبي وميوله الاشتراكية، كان هو أيضًا متأثرا بشدة بالأفكار السائدة للقوميّة، والرغبة في القوّة وسلطة الدولة. ومنذ بدايات عمله السياسيّ كان منزعجا ممَّا يعتبره الشر الرئيسيّ في إيطاليا: غياب الوحدة. وقد واصل أفكار سوريل حول إمكانيّة تحويل الفرد من خلال تمجيد مثل أعلى، وقد حدد هذا المثل الأعلى في الأمة، التي كان يجب بالتالي تقويتها إلى أقصى حدّ لتتغلب على الاتجاهات الانفصالية التي كانت تمنع بلاده من تحقيق نفس التطوُّر في كيانات حكومية أخرى أقدم تكوينا. ويعتبر جورج سابين الرأي التالي الذي صرح به موسوليني في خطاب له في نابولي في ١٩٢٢، مرددًا لصدى سوريل بالضبط، للتعبير عن إيمانه بالنظام الجديد «الشامل» الذي كان ينوي بناءه:

«لقد خلقنا أسطورتنا، والأسطورة إيمان وحب، ومن الضروريّ أن تكون واقعا، وهي واقع لأنها أمل وإيمان وشجاعة. وأسطورتنا هي الأمة، وأسطورتنا هي عظمة الأمة»(١).

وقد ارتبط الاحتياج إلى الوحدة و«القوميّة الغامضة» وعبادة الدولة في تداخل وثيق. ولم يكن موسوليني يفهم الأمة خارج الدولة، وكلَّما كانت الأمة ضعيفة، تعيَّن أن تكون الدولة قوية. حيث كتب يقول: «ليست الأمة هي التي تلد الدولة، فهذا مفهوم طبيعي قديم. إن الدولة هي التي تخلق الأمة وتعطي للشعب الواعي بوحدته المعنوية إرادة، وبالتالي وجودًا واقعيًّا».

وقال أيضًا: «كل شيء موجود في الدولة، ولا شيء إنساني وروحي موجود وله قيمة خارج الدولة. وبهذا المعنى فإن الفاشية شموليّة، والدولة الفاشية، خلاصة ووحدة كل القيم، تفسر وتطور وتضفي السلطة على كل جوانب الحياة لأي شعب»(٢).

ويرى «الدوتشي» أن ميلاد إيطاليا كان لاَ بُدَّ أن يمر من خلال إعادة التأكيد على أولويّة الكل على الجزء وبالتحديد أولويّة الدولة على الفرد، وبالتالي، في نهاية المطاف، من خلال مطالبة الدولة بالسيادة الكاملة تجاه الفرد. وكان مُنَظِّر النظام جوفاني جنتيلي يدفع هذا الافتراض إلى أقصى حدّ، جاعلاً من «الدولة الأخلاقيّة» البؤرة التي يدور حولها الدين والحقيقة والفكر. وهكذا، انطلاقًا من بعض النقاط الثابتة، وباتباع انفعالات

---

1) جورج هـ. سابين، A History of Political Theory، مرجع سابق، ص ٨٩٥.
2) المرجع السابق ص ٨٩٩.

اللحظة في بادي الأمور وغريزة تلبية احتياجات الجماهير، كان النظام يبني نفسه شيئا فشيئا وكان يتزود بطبقته التحتيّة المذهبيّة. ولم يكُن هناك في المذهبيّة الفاشية، أي رؤية مثاليّة لمجتمع مستقبلي ولكن كانت هناك بالأحرى الدعوة لأساطير الماضي لتمجيد الكفاح وروح التضحية والبطولة، أي القيم التي كان يعتقد أن الإيطاليين قد فقدوها لأنهم فسدوا من مذهب المتعة و«الروح البرجوازية». ولم يكُن هناك قط مذهب كامل ومتماسك، ولكن كان هناك بالأحرى مزيج من الأفكار السياسيّة والفلسفية المختلفة، وخلية من التناقضات»، كما كان يقول أومبرتو إيكو. وقد كتب يقول: إن كلمة «الفاشية» تتفق مع كل شيء لأنه من الممكن القضاء على جانب أو أكثر من النظام الفاشي، ويمكن التعرف عليه دائمًا على أنه فاشي. انزعوا الإمبريالية من الفاشية وستحصلون على فرانكو أو سالازار، وانزعوا الاستعمار وستحصلون على الفاشية البلقانية. وأضيفوا إلى الفاشية الإيطاليّة مضادًا للرأسمالية الراديكالية (التي لم تسحر قَطّ موسوليني) وستحصلون على إزرا باوند E. Pound. وأضيفوا عبادة الميثولوجيا السلتية وصوفية الجرال Graal (الغريب تمامًا عن الفاشية الرسمية) وستحصلون على واحد من أكثر المعلمين الفاشيين احترامًا، وهو جوليوس إيفولا [1].

ويعلق سابين بدوره بخفة ظل قائلاً إنه في مَا يتعلق بالمخطط السياسيّ فقد وصل موسوليني إلى أقرب مَا يمكن من «تحقيق حلم أي سياسيّ في أن يكون قادرًا على أن يَعدَ بكل شيء للجميع». فقد قدم نفسه على أنه بطل المثاليّة المتناقضة مع المادية الماركسية، وكعدو لليبراليّة أنانية وغير وطنية يسيطر عليها الأثرياء، كما لو كان وفيًّا للخير العامّ والإخلاص والنظام، في تناقض مع المُثُل «البرجوازية» مثل الحرية والمساواة والسعادة. وتتفرع من هذا المنظور كنتائج بديهية إدانة النزعة الدولية، كمرادف للجبن وانعدام الشرف، والديمقراطيّة البرلمانية التي وصمت بأنها تافهة وضعيفة ومضمحلة[2].

وهل كان النظام الفاشي شموليًا حقًّا، وخصوصًا بمعنى تفرُّد وانفراد قسوته القمعية؟

لقد كان بالطبع يستجيب للمعايير التي حددها الساسة، ولكن البعض منهم اتخذ موقفًا ناعمًا أو على الأقل كانت لهم ملامح أقل وضوحًا من أنظمة أخرى مماثلة.

وربما الطابع الذي قد يترك مجالاً أقل للشّكّ هو طابع الحزب الواحد الموجود في كل مكان، والذي كان يحظر آليًا التعددية وحرية الرأي. وكان الحزب منذ البداية خاضعًا للدونتشي، وأصبح الآلة المعقدة التي كانت تضمن نقل إرادته لكل أجهزة الدولة.

---

[1] أمبرتو إيكو، الفاشية الخالدة، Il fascismo eterno, Cinque scritti morali، ميلانو ١٩٩٧.
[2] جورج هـ. سابين، A History of Political Theory، مرجع سابق، ص ٨٨٦.

ولكن سيطرة الحكومة على النشاط الاقتصادي، على الرغم من بقائها متماشية مع التصور المضادّ لليبراليّة، لم تكن منفّذة بطريقة حادّة ومتغلغلة في كل مكان. وقد أخذت شكل الجمعيات التي كان يتعين أن تخلق، طبقًا لكلمات موسوليني نفسها، وحدة جديدة، متجاوزة أيضًا الاشتراكية، علاوة على الليبراليّة». وقد اقتصر نظام الجمعيات في نفس الوقت على الاختراق الفاشي للمنظمات النقابية وزيادة الأعمال العامّة، وإعادة هيكلة الصناعة القوميّة حول بعض الاتحادات الاحتكارية الكبرى. ولكنها لم تهدف إلى إضفاء الصبغة السياسيّة المنظمة على كل النشاط الاقتصاديّ. فكانت بالأحرى «عمليّة تخطيط مرنة».

والإرهاب؟ هذا العنصر المميز –والأهم– في كل نظام شمولي، كان للأسف موجودًا، ويقوم هو أيضًا، مثل كل الأنظمة الشموليّة الأخرى، على الوشاية السياسيّة والشرطة الخاصّة، في تصعيد بدءًا من زيت الخروع والعصا إلى الاغتيال السياسيّ. ولكن على الأقل في الحياة اليوميّة للمواطن العادي لم تكن عمليات التفتيش والرقابة ثقيلة ربما، وملموسة مثل تلك التي وجدتها في بعض الدول الواقعة وراء الستار الحديدي. ومن بين ذكرياتي المبهمة كطفل في العهد الفاشي، لا أذكر جوًّا قمعيًّا جدًّا، حتى إن انطبع في ذاكرتي، خلال النزهات المسائية مع والدي عبر روما في الربيع أننا عندما كنا نصل إلى فيلا تورلونيا، التي لا تبعد عن منزلنا، لم يكن يفته قط أن يهمس في إذني قائلاً: «الآن نحن قريبون من منزل الدوتشي؛ تذكر ألا تسألني عنه. بل إن من الأفضل ألا نتكلم ما دمنا قريبَين منه». وممارسة الإرهاب الحقيقيّ لم يكن لها قط أبعاد وأشكال القسوة المفرطة الموجودة في أنظمة أخرى. ويرى كلود بولين أن الإرهاب الفاشي «كان حدثًا أكثر منه مبدأ، ونتاج الشر الإنساني أكثر منه نتيجة مقصودة من النظام»، وقد زاد من حدته التعاون مع النازية والتبعية المتزايدة لها. ويرى الخبير السياسيّ الفرنسيّ أيضًا أنه «على الرغم من أنه كان واثقًا من نفسه ويضيق ذرعًا بالانتقادات، وعلى الرغم من أنه اتخذ قرارات خاطئة، فإن موسوليني لم يعتبر نفسه قط غاية ولكن أداة دائمًا في خدمة عظمة وقوة الأمة، الأكبر كثيرًا من شخصه». وهذا الحكم يتفق عليه باحثون آخرون. ويؤكد إيكو بدوره قائلاً: «لقد كانت الفاشية دكتاتورية بالتأكيد، ولكنها لم تكن شموليّة بالكامل، ليس بسبب وداعتها ولكن بسبب الضعف الفلسفي لإيديولوجيتها».

وعلى الرغم من أوجه القصور في الهيكل النظري، فإن هذه الدكتاتورية كانت لها إذن خاصّية كانت تجعل منها مذهبًا أصيلاً، مختلفًا عن الأوتوقراطيات الماضية، ولكن ليس الشموليّة بامتياز، فقد كانت تنقصها إرادة إخضاع المحكومين للمصالح الخاصّة بالمستبدّ.

النازية

على الرغم من أنها لم تصف نفسها قط بأنها شموليّة، فإن الحركة القوميّة الاشتراكية يمكن أن تكون -علي العكسِ من ذلك- التشدُّدَ الأقصى للشموليّة. وأي تلخيص للظاهرة يمكن أن يكون تبسيطاً مُخلاً، فلا يزال المؤرخون يطرحون على أنفسهم أسئلة حول جوانبها العديدة التي تبدأ من المذهب السياسيّ وحتى السيطرة على الاقتصاد. ولكن ما يهمُّنا هنا هو أن نوضح كيف خلقت هذه الظاهرة على أعلى درجة في الشعب الألماني، وهو شعب على مستوى تعليمي وثقافيّ من أعلى المستويات في العالم، تلك الغطرسة المميزة للعلمانيّة الملحدة التي تحدثنا عنها كثيرًا، وهي غطرسة انتشرت من شخص واحد إلى أمة بأسرها، في تصعيد شرير، أدَّى إلى تشجيع استبداد يعد من أشد أنواع الاستبداد تصلُّبًا وقسوة في التاريخ، وليلطخ نفسه بجريمة ضدّ الإنسانيّة لم يسبق لها مثيل.

كيف أمكن الوصول إلى هذا الحد؟ لقد كانت هناك نفس الدوافع -الفلسفية والاقتصادية والسياسيّة والانفعاليّة- التي كانت قد وصلت إلى نقطة القطيعة بعد الهزيمة العسكرية، وأدت إلى مجيء الفاشية أو عملت كمحفز لبعض العوامل الإضافية؟

ويمكن أن تكون الكارثة الاقتصادية، والرغبة في الانتقام ونظريّات نيتشه عن السوبرمان ونظريّات هيجل عن الدولة والاكتشافات العلميّة الجديدة الزائفة المزعومة حول الأجناس وحول التطوُّر البيولوجي والاجتماعيّ، يمكن أن تكون قد أثرت بالطبع في النفسيّة الألمانيّة بصورة أوضح بكثير ممَّا كانت عليه في السياق اللاتيني. فالألمان -كما هو معروف- تميزوا دائمًا بالقياس إلى الإيطاليين بميلهم الواضح إلى الانضباط، والصرامة العقليّة والجماعيّة وعبادة التسلسل الوظيفي. وبعض المؤرخين، وبخاصة كيسرلينج Kayserling، يذهبون إلى مَا هو أبعد من ذلك، عندما يتحدثون عن «غياب الشعور الفطري بضرورة التوقف عند حدّ معين». وخلال فترة حكم جوليلمو كانت «الروح البروسية» مرادفة للنزعة العسكرية، ولكن أيضًا لاحترام السلطة، والقانون والنظام والشعور بالواجب، وهي صفات كانت تثير في حكام نصف أوربا حسدًا ممتزجًا بالقلق. وهناك مسرحية ساخرة من الثلاثينيات، عُرضت بعد ذلك على شاشة السينما، وهي مسرحية الكابتن كوبنيك Il Capitano di Koepenick تترجم جيدًا المناخ في تلك الفترة. وهي قصة حوذي في أحد أحياء برلين، ارتدى خلسة الزي العسكري لضابط برتبة نقيب، ونجح في تولي قيادة إحدى الفرق ليجد طاعة سريعة في كل مكان، لأنه لم يكن هناك أي أحد يجرؤ على الاعتراض على العلامات الخارجية للسلطة، حتى استحوذ في

النهاية على خزانة المجلس المحلي[1]. وهي حادثة كان من الصعب أن تقع أحداثها في إيطاليا أو في فرنسا أو حتى في إنجلترا.

وعلى الرغم من هذا يبقى من الصعب تفسير كيف استطاع مجتمع متقدم و«متحضر» جدًا مثل المجتمع الألماني في القرن العشرين أن يقبل نظاما سياسيًا ليس له مثيل ولا حتى في تجاوزات الطغاة والملوك الشرقيين أو الأفارقة، الذين اعتادوا أشكالاً من التوقير الذليل بنبرة مقدسة. وبالفعل فإن الصفة «هتلريّ» التي كانت غالبًا تنسب إلى النظام المذكور، صحيحة تمامًا، لأنها كانت تدور بالكامل وبصورة أكبر بكثير ممَّا في الفاشية، حول الشخصيّة الكاريزمية للفوهرير Führer. وبخلاف الأنظمة المستبدة الأخرى التي يكون فيها الزعيم على قمة هرم من القيادات تقوم بدور الوسيط لدى الجماهير، كانت كل القيادات هنا خاضعة تمامًا للزعيم، وظلت مائعة بما فيه الكفاية بحيث يمكنه احتواؤها في أي لحظة.

وقد مثَّل الحزب الواحد أيضًا في هذه الحالة العنصر الأساسيّ للنظام. وكان من المهم أن يُظهِر سلطته من خلال المظاهرات الهائلة التي كانت تدار بطريقة مسرحية طبقًا للمشاهد الفاجنرية، التي كان فيها كجزء لاَ يتجزأ، الجماعاتُ العسكرية التي تسير بخطوة الإوزة وفرق الأولاد والبنات بالزي العسكري وهم يرفعون جدارا من الأعلام التي تحمل الصليب المعقوف، أو جماهير المواطنين الهاذية، كما كان الأساقفة المشرفون على الاحتفالات الدِّينيّة وجمع المؤمنين العابدين جزءًا لاَ يتجزأ من الاحتفالات المقدسة القديمة. وكانت طقوس الحزب مليئة بالخطابة التي قد تبدو اليوم مثيرة للضحك، ولكنها كان لها في تلك الحقبة ملامح مشؤومة، وممتزجة بعبارات ذات تأثير كبير، مثل عبارة زعيم الشباب القومي الاشتراكي بالدور فون شيراك Baldur von Schirach، الذي وصف واجبه بأنه «بناء مذبح كبير في قلب كل ألماني من أجل ألمانيا».

وقد كتب بولين يقول: «نحن هنا أمام شيء أكبر من مجرد احتكار السلطة من جانب حزب واحد Ein Land, ein Volk;, ein Führer. والشموليّة الحقيقيّة تبدأ عندما يصبح من غير الممكن التمييز بين الفرد والذي يعتبر نفسه تجسيدًا لوحدتها»[2].

وفيمَا يتعلق بالإيديولوجية فإن العديد من الدارسين يقولون إنها لم تكُن بناءً منطقيًّا ومتماسكًا، وبطريقة لم تكن تختلف عن تلك الفاشية، وتهدف إلى الإقناع بالمنطق أو

[1] مسرحية كارل زوكماير، التي انتجت في عام ١٩٣١، كان هذا نفس العام الذي تحولت فيه إلى فيلم، أعادته هوليود مرتين، في عام ١٩٤١ وفي عام ١٩٥٧.

[2] كلود بولين، Le totalitarisme، المذكور، ص ٦٨. وللقيام ببحث غير سياسي ولكن نفسي، انظر رون روزنباوام، التعريف بهتلر: البحث عن جذوره الشريرة Explaining Hitler: The Search for the Origins of His Evil، راندام هاوس، نيويورك ١٩٩٨.

بتقديم رؤية للعالم تؤدّي إلى الحصول على مزيد من التأييد أيضا خارج البيئة الألمانيّة، ولكنها كانت تمسُّ بصفة خاصّة أوتارًا حسّاسة، مثل النزعة الانتقامية أو الحنين إلى العظمة الألمانيّة، لإثارة أهواء قوية في الجماهير من خلال رسائل بسيطة ومباشرة، وفي كثير من الأحيان على شكل شعارات. ومع ذلك، وبخلاف موسوليني، كان هتلر يدَّعي تقديم أساس كان يفترض أنه علمي، لبعض هواجسه المفضّلة، ويعطيها شكل مفهومٍ عقلانيّ في الظاهر.

وكما هو معروف، فإن الهاجس المحوري للـFührer، الذي أدرك منذ بداية ظهوره في السياسة، أنِ له قوة إغراء كبيرة على الجماهير، هو هاجس العنصريّة. والعنصريّة -كما سنرى- ترضِي بدرجة كبيرة تلك الحاجة إلى الهوية التي رأينا كيف كانت مهمة جدًّا في كل جماعة. والشعب الألماني الذي كانت فيه تلك الحاجة حادة جدًّا بعد ذل الهزيمة، كان يجد نفسه الآن دون توقع، مسرورا بصفة الجنس الأعلى، بل الجنس المجسد للإنسانيّة الحقيقيّة الوحيدة. وقد كانت هناك بالتالي في البرنامج النازي الهتلري الخبيث الشيطاني المميز للطاغية الذي يعرف مَا يلزم للتأثير على أتباعه. وهو خبث كان يلجأ إلى أحطِّ الغرائز، ولم يكُن يجعل من المؤمنين بهذه العقيدة المجنونة والعنيفة مجرد خاضعين، بل شركاء متواطئين، كان يقترح عليهم القائد الأعلى أن يستغلوا معه باقي الإنسانيّة[1].

ومثل هذه الإيديولوجيا التي كانت تميز بين الإنسانيّة الحقيقيّة والإنسانيّة التحتيّة، كانت تستبعد بداية أي إمكانيّة لأن تصبح عالمية حقًّا. وعلاوة على ذلك، وبما أنها كانت تنطوي على كفاح من أجل التفوُّق على باقي الجنس البشريّ بأسره، وهي تهدف إلى أن تجعل من الشعب الألماني الشعب المختار في ديانة علمانيّة (و هو كفاح مطلق بالتالي وبلا هوادة)، فإن هذه الإيديولوجية كانت تفرض النظر من جديد إلى العدو كعدو مطلق، وعدو غادر، وموجود في كل مكان، ولا يُرى، وقوي، ولم يكُن من الممكن أبدًا تخفيف حالة التأهب ضده، وكان لاَ بُدَّ ليس فقط من تحييده بل والقضاء عليه. ومن هنا ظهرت الحاجة إلى الإرهاب وإلى شرطة متخصصة لإدارته بطريقة لاَ تخطئ فنيًّا. وكان الجستابو والشرطة السرية يقومان بالفعل بتنظيم حقيقيّ للإرهاب، طبقًا للمعايير الصارمة لمنظمة «حديثة»، ناجحة بصورة تامة.

[1] كلود بولين، Le totalitarisme، مرجع سابق، ص ص ٧٢-٧٣.

الشيوعيّة السوفييتية

إن محاولة تلخيص وتبسيط الشيوعيّة تعد أيضا أكثر صعوبة، لأن الأمر هنا، وبخلاف النازية، يتعلق بإيديولوجية كان لها تأثير كبير في العديد من البلدان، بما في ذلك بلادنا، ولم تكن هدفا لنفس الإدانة القاطعة والنهائية، بل لا تزال مستمرّة في ممارسة بعض النفوذ. والتحليل التالي لا يتعلق في نفس الوقت بالنواة المذهبية الأصلية –والتي يجب أن نقوم بشأنها وبحق بالتمييز اللفظي أيضًا، بين الفكر «الماركسي»، الذي يرجع مباشرة إلى كارل ماركس والفكر «الماركسي»، المشتقّ من التفسيرات والتطبيقات التالية لكتابات ماركس وإنجلز– ولكن بأهم تطبيق سياسيّ لها، وهو الذي انبثق من ثورة أكتوبر ومن إنشاء النظام السوفييتي.

وهناك اتفاق واسع إلى حدّ كبير بين دارسي مختلف الاتجاهات حول النقطة التي تؤكد أنه من بين مختلف «ماركات» الشيوعيّة، تعد الشيوعيّة من الماركة السوفييتيّة، كما تحددت في عمل حكومة لينين وستالين، كانت هي التي تتفق أكثر من غيرها مع الوصف الكلاسيكي للشموليّة، من حيث إنها الأكثر مطابقة لجميع الشروط الستة المشار إليها عاليه كخصائص مميزة للظاهرة. وقد احتجّ السوفييت أنفسهم طويلاً على هذه النقطة وكذبوها مباشرة، مؤكدين أن نظامهم في «الديمقراطيّة المركزيّة» كان يمثل أكثر التطبيقات تقدمًا وأصالة للروح الديمقراطيّة، في مجتمع بلا طبقات، وبالتالي يقوم على المساواة التامّة. ومع ذلك فإن الأنباء الأولى التي تكشفت في عام ١٩٥٦ حول «التقرير السري» لخروشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي حول جرائم ستالين، أحدثت أزمة داخل حركات الدولية الشيوعيّة نفسها، وكشفت كيف أن الديمقراطيّة السوفييت في الواقع كانت زيفًا وكانت تخفي احتكار السلطة من جانب قلّة حاكمة مستغلّة ومتميزة. وكان هناك من كتب عن «انهيار الكنيسة السوفييتيّة». على أي حال، وحتى إذا كانت المتطلبات الدعائية للحرب الباردة قد منعت طويلاً إجراء بحث دقيق ونزيه، فإنه لم تكن قط هناك شكوك حول حقيقة أن:

- الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي كان المحتكر للسلطة السياسيّة (وقد وصفه جيلاس وسولجنتسين بأنه طبقة جديدة أو جماعة مميزة).

- كل المجتمع المدني كان تحت السيطرة الوثيقة للدولة والإيديولوجية الرسمية، مع حظر تغيير العمل أو الإقامة أو الذهاب إلى الخارج دون تصريح على أي مواطن.

- وسائل الاتصال كانت في خدمة السلطات، مع إغلاق مصادر المعلومات القادمة من الخارج والخاضعة للرقابة لدرجة منع اتصالات المواطنين بالأجانب أيضًا.

- إدارة الاقتصاد كانت موضوعة على أساس التخطيط المركزي، الذي يشار إليه أيضًا كنموذج للدول التابعة والمتعاطفة، مع الالتزام بالمبدأ الماركسي في الملكية الجماعيّة لوسائل الإنتاج.

- وأخيرًا كان لينين وبريجنيف وربما آخرون، يحمون النظام، في الداخل وكذلك نحو الخارج، بشبكة بوليسيّة لاَ ترحم، وعاملة ليس فقط بالوشاية المنظمة والتفتيش الدقيق، ولكن أيضًا بأساليب قمعية علّى نطاق واسع، مثل عمليات التطهير، ومعسكرات الإبعاد والمستشفيات النفسيّة للمنشقّين.

وكان الجانب المتعلق بتوزيع السلطة بين القيادات الشموليّة في النظام محفوفًا أكثر بالمشكلات. وفي فترة تجاوزات ستالين أيضًا، يؤكد العديد من الخبراء أنه لاَ يمكن الحديث عن تركيز السلطات في يد شخص واحد ولا في أيدي الحزب بالكامل. وسيظهر تواطؤ الجماهير أيضًا مع زعمائها مع انتشار الرشوة وجو الريبة والتعصب المذهبي، على جميع المستويات، حتى إن الشعب الروسي لم يعد شعبًا من العبيد فحسب، ولكنه «جيش هائل من الزعماء، أو بمعنى أصحّ من الزعماء الصغار، تمارس فيه الأغلبيّة، التي كانت تتزايد بلا توقف، عنفها على أقلّيّة تضيق أكثر فأكثر»[1]. وقد سجل سولجنتسين Solzenicyo في كتابه: أرخبيل الجولاج Arcipelago Gulag كيف أن عمل الشرطة ساعد عليه مجموع الشعب المستعدّ دائمًا أن يرى المذنب في مَن يُعتقل لأنه –ببساطة– كان يُعتقل، وأن يتعاون في إلقاء القبض عليه.

وهذا مَا يؤكّد مَا قيل، ليس فقط فيمَا يتعلق بالشعب الألماني، ولكن أيضًا في مَا يتعلق بمحاكم التفتيش ومطاردة الساحرات حول الأثر الضار الذي تمارسه السيطرة على النفوس من جانب الاستبداد الشمولي وأساليبه «العلميّة» في غسيل المخ، على الجماهير وعلى نفسيّة الإنسان العادي، ممَّا يوقظ ويزيد من حدة كل الغرائز الوضيعة اعتمادًا بصفة خاصّة على الانفعال القديم والمستبدّ بالإنسان: الخوف. والوشاية وعبارة «أمسك ناشر العدوى»، هي نتيجة لتلقين حزبيّ يهدف إلى تقديم من هو خارج النظام على أنه عدو، وبالتالي الرعب من أن يصاب الإنسان بالعدوى من الشخص المنحرف، أو أن يعتبر كذلك، وهو الأسوأ. والعلاج الأمثل هو بالتالي أن يُظهِر الإنسان نشاطه وأن يكون في الصف الأول في مظاهرات الوفاء والإبلاغ عن المرتدِّين. وفي رؤية أكثر تشاؤمًا، يمكن أن نضيف أن السيطرة الشموليّة، الممتدة والمتغلغلة في الإنتاج الاقتصاديّ، وعلى كل مستويات الحياة اليوميّة، تهبط بالمستوى وتخلق غريزة غير صحية من التنافس والبقاء على قيد الحياة، وبالتالي فإن «روسيًّا في السجن هو شخص

---

[1] كلود بولين، Le totalitarisme، مرجع سابق، ص ٨١.

أقل في طابور الخبز». ومن لديه الشجاعة لكي يقول صراحة ما لا يجرؤ الآخرون حتى على التفكير فيه، يتلوث في النهاية بخطيئة لا تغتفر: أنه يجعلنا نشعر بأننا جبناء.

وبصفة عامّة يمكن أن نؤكد الرأي الذي ذكرناه في البداية، وهو أن الطغيان السوفييتي الممارَس لِمَا يزيد على سبعين عامًا على الشعب السوفييتي، كان مختلفًا في جوانب عديدة عن الطغيان الفاشي والنازي، على الرغم من أنه انتهى بقهر الأرواح، وهو مَا أثَّر بصورة أعمق من الدكتاتوريات الأخرى، ليس فقط للمدة التي استغرقها، ولكن أيضًا لقوة الإيديولوجية وكثافة التلقين الحزبي.

ولكن الانهيار الحتمي للنظام يؤكد أيضًا أنه لاَ العقلانيّة و«العلميّة» الأكبر للإيديولوجية، ولا المدة الأطول والكثافة المنظمة للدعاية، ولا على الأقلِّ اتساع التأييد في الظاهر، حقق أدنى نجاح فيما كانِ يعد الهدف الرئيسيّ، إن لم يكُن الوحيد، للاستيلاء على السلطة الشموليّة: الطموحِ الخلاّق، المشبع بالغطرسة لتحسين الطبيعة الإنسانيّة وخلق إنسان جديد لتحقيق الجنة على الأرض.

«العدو المستهدف»

هذه النظرة السريعة إلى الأشكال الواقعيّة الرئيسيّة للشموليّة هدفها إلقاء الضوء بصفة خاصّة على طابعها في عدم تسامح العقل، وهو التعبير المتشدد الأخير في غطرسة بروميثه.

وإذا كنا قد عرّفنا الديمقراطيّة الليبراليّة بأنها التجسيد السياسيّ لعدم التسامُح، فإن الشموليّة إذن هي على الطرف الآخر التجسيد السياسيّ الأخير لعدم التسامُح. وهي تتعارض بالفعل معارضة تامة مع الليبراليّة، خصمها المعلن. وبينما تقوم هذه الأخيرة على مفهوم حرية الفرد وتعظم الاختلافات إلى أقصى حدّ، مع تقليص دور الدولة لأقصى حدّ، فإن الشموليّة تفعل العكس بالضبط. مع التأكيد إلى أقصى حدّ على دور الدولة، مع سحق الفرد ليصبح جزءًا بسيطًا في خدمة الكل. ومعيار التوجُّه في العمل السياسيّ ليس مَا تريد الأغلبيّة عمله ولكن مَا يصحُّ عمله استجابةً لرؤية مثاليّة للخير الجماعي. وأقصى خير لم يعد هو مَا يستجيب لتوقعات «أكبر عدد»، ولكنه محدَّد من قبل الزعماء على أساس هياكل مذهبية مجردة. ونفس الشيء يمكن أن يقال فيمَا يتعلق بالكيانات الثقافيّة الأصغر التي يجب أن تندمج مع النموذج السائد داخل الدولة-الأمة، وهي الإطار الوحيد الذي يستحقّ الحماية والتعظيم.

وضد المفهوم المميز للديمقراطيّة الليبراليّة لمجتمع في بحث دائب عن الوسطية والتوازن بين العناصر السائلة التي يمكن أن تكون متخاصمة وفي تنافس بينها- تضع الشموليّة مجتمعًا متجانسًا، مكوّنًا من روح واحدة وإرادة واحدة ودين واحد، وهو الدين الذي منحته له الدولة وتجسيدها وهو الزعيم الذي يجب أن يكون منزهًا عن الخطأ، لكي يقوم بدوره كمبدع خلاّق.

ولكن إن اقتصرت الشموليّة على مجابهة الليبراليّة والمركزية القوميّة، فإنها قد تمثل فقط تشدُّدًا للنزعة المطلقة، التي قد تختلف عنها، لا كميًّا ولكن بدرجة أكبر من التشدُّد.

ولكن الشموليّة تذهب إلى أبعد من ذلك بكثير، فهي غير متسامحة بالتعريف. وهي بالفعل لاَ تجعل من عدم التسامُح مجرد سلوك فعلي أو على الأكثر ضروريّ، ولكن اختيارًا متعمدًا، مُدرَجًا بالكامل في الهيكل الإيديولوجي.

«والتسامُح هو عدم الفاشية، كما كتب كاتب وناقد نسيناه الآن، هو بيترو بانكراتسي Pietro Pancrazi، في كتاب جميل عن الموضوع كُتب في عام ١٩٤٦، فأي فاشي متسامح يبدو مباشرة تناقضًا لفظيًّا!».

ولا يعني هذا أن الرفض الصريح للتسامُح يمكن أن يُعتبر في حدّ ذاته خطيئة كبرى في هذه الأنظمة. والتسامُح الذي وُلد مع فكرة حقوق الإنسان، كان قد بدأ في الحقيقة في الترنح قبل مجيء القوميّة والفاشية. وفي العقود الأولى من القرن العشرين كان بالفعل لفظا تحقيريًّا بصورة مبهمة: فنحن نسامح النساء البغايا كما كان يقال، لا إخواننا أو أصدقاءنا. وكانت الأنظمة الدكتاتورية تجد تشجيعًا لأنه كانت هناك ضمائر متزايدة باستمرار منجذبة في ذلك الوقت إلى أسطورة القوّة، وهي بالطبع أسطورة لاَ تتماشى مع تلك الحيلة المؤقتة التي تقوم على التسوية، وهي التسامُح، وكان تعاطف هؤلاء «الأقوياء» مع المواقف المتشددة، فهؤلاء نعم يطابقون في طيبتهم الرجال الحقيقيين، لأن الطبيعة نفسها هي التي تفرض تحيُّزًا إلى جانب أو إلى آخر ولا تعرف التسويات[1]. لم يكُن يلزم إذن أن نكون شموليين لاحتقار الشعب الوديع الذي لاَ يمكنه أن يتجرأ ولا يستطيع أن يكره، لكي يعلِن إعجابه بنيتشه، وكارليل، ودانونتسيو، وليصقل المثل الأعلى للبطل والسوبرمان. لم يكُن إذن تمجيد اللا تسامح هو الذي جعل من الشموليّة ظاهرة فريدة في عصرنا، فقد كانت الطبيعة والممارسة الخاصّة لعدم تسامحها.

ولم يتخيل أحد قط، لاَ في التقاليد المستبدة اليونانية-الرومانية ولا في التقاليد الآسيويّة، علاقة تبعية من الأجزاء للكل، لاَ تتضمن عنصر التبادلية. بمعنى آخر، إذا

[1] انظر ماريا لاورا لانتسيللو، Tolleranza، مرجع سابق، ص ١٢٦.

كان حقيقيًا أن الفرد في خدمة المجتمع، فلم يكُن أحد يشك إطلاقًا في العكس، أي أن المجتمع في خدمة الفرد. ولكن المجتمع والحزب والدولة في العقيدة الشموليّة هي الكل، والغاية الوحيدة لكل أعمال الفرد، والذي يجب أن يتفانى فيه. والفرد هو لا شيء دون الجماعة التي يجد نفسه فيها والتي تمنحه قيمته، أقلّ من الجندي في الجيش، وأقلّ من الترس البسيط في الآلة، فهو «جزء مشاعره ونبضاته هي مشاعر ونبض الجسد الكامل»[1]. ولكن إن قبلنا بهذه المقدمة، فسيترتب عليها أنه كالمجند غير المنضبط في الفصيلة المدربة جيدًا، والحجر الصغير في الآلة، والفيروس المميت في الجسد السليم، فإن المتمرد والمنحرف وحتى مجرد المخالف للشكليات لاَ يمكن أن يجدوا أدنى تهاون. وفي الدولة الشموليّة، يجب أن يُطردوا أو يُدمَّروا بلا رحمة.

والديمقراطيّة -كما أوضح هذا جيدًا دارس أمريكيّ معاصر هو وولتر ف. ميرفي- لاَ تتسامح فحسب مع المُعارِضين، ولكنها تحتاج إليهم من أجل التوظيف الصحيح لآلياتها ولأهدافها.

والأنظمة الشموليّة، التي «يعرف» زعماؤها مَا «الخير» المشترك، تضيق ذرعًا بأي نوع من المعارضين، فأيًّا كانت رايتهم الخاصّة، من اليمين، أو اليسار، فإنهم يذهبون إلى أبعد من أي استبداد، محققين قفزة نوعية في رفضهم للانحراف. وهم لاَ يحاربون الأعداء الحقيقيين والواقعيين فحسب، ولكن أيضًا المزعومين، المفترَضين والمحتمَلين، وهم الذين لاَ يعرفون حتى أنهم أعداء، ولكنهم كذلك بسبب وجودهم نفسه. ولذا فإن إرهاب الشموليّة مختلف عن القهر الذي يقوم به الطغيان، فالطغيان يهدف إلى وضع المعارضة في حالة لاَ تضر فيها. والنظام الشمولي يستبعد حتى فكرة أن تكون هناك معارضة أصلاً. وكلمة «شمولي» هي صفة تعني في حدّ ذاتها الانضمام غير المشروط، والامتلاك الكامل، للضمائر أيضًا.

وقد وضعتُ عنوانًا لأحد الفصول حول اللا تسامح الدينيّ هو «الشموليّة باسم المسيح»، لإعطاء المعنى الكامل لكيفية اختلاف المسيحيّين عن الوثنيين في معاملة المعارضين. وفي الديانات الوثنية كان عمل شكليّ بحت يكفي لانضمام المؤمن، والتضحية «لإرضاء الإمبراطور». وكانت المسيحيّة تريد أن يهب المؤمن نفسه كلية، حتى أعماق نفسه، «روحًا وجسدًا»، وكانت تتحرى، بالتعذيب أيضًا، صدق المنضمِّين وحقيقة اعتناقهم للدين الجديد.

والعقيدة الشموليّة تحتاج بدورها إلى إيديولوجية وإلى أعيُن آرجوس Argo المئة، وفريق من القتلة المتعصبين. وفي الديانة العلمانيّة الجديدة لاَ يقنع الإنسان بالسلطة

---

[1] كلود بولين، Le totalitarisme مرجع سابق، ص ١٢

المجردة، ولكنه يريد أن يهب له شعب المؤمنين حياته كلها حتى النهاية، ولهذا فإنه يرفع الوشاية إلى مستوى الواجب الوطني، ويجعل الكذب والخيانة من مكوّنات الحياة اليومية. وبما أنه يفهم الوجود على أنه حرب دائمة، فإنه يعادل الوداعة والنزعة السلمية بالتواطؤ مع العدو.

وحول هذا العنصر المميز يقع اللا تسامح المقدس والمندفع، حتى التضحية البشريّة، في أي بحث حول المزايا والعيوب، وحول التشابه والاختلافات في مختلف الأنظمة الاستبدادية في القرن الذي انتهى لتوه، وحول مَا إذا كانت كلها أو بعضها يمكن أن يُعتبر شموليًّا حقًّا. وكل الأنظمة التي استهدفت غزو الروح تعادل إذن في طابعها المغلق كديانات من دون الله، ولا تهم كثيرًا مطامحها الأخلاقيّة الحقيقيّة أو المزعومة. والشيوعيّة السوفييتيّة لاَ تقارَن -وهذا حقيقيّ- بالنازية. ولكن تبقى حقيقة أنه إذا كان هتلر قد رفع إلى مستوى العدو المستهدف كلّ أجنبيّ، بما في ذلك أيضًا اليهوديّ المولود في برلين، فإن زعماء الكريملين كانوا قد ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فبعد ستالين كانوا قد رفعوا إلى مستوى العدو المستهدف أيضًا أي شخص يمكن أن يشتبه في انشقاقه، حتى جاره. وقد سيطر نفس المعيار في الصين الماوية، وهي المنشقّة الكبرى الصافية داخل العقيدة الشيوعيّة.

فهل يمكن أن نقول إننا قد تركنا أي إغراء بالشموليّة وراء ظهورنا؟ بالمعنى الذي أعطيناه سالفًا لهذا اللفظ، بالطبع نعم. ومن المستبعد جدًّا ظهور نفس المواقف التي أدَّت إلى معسكرات الاعتقال النازية أو الستالينية مرة أخرى. ولكن إذا مددنا صفة الشموليّة لتشمل أيضًا تلك الاتجاهات، مثل الفاشية، غير الموجهة بالضرورة للإبادة ولكن التي تؤدِّي إلى خضوع جماعي إيديولوجي ومخترق لأي استبداد من الطراز القديم، فإننا قد نعطي الحقّ لأومبرتو إيكو، الذي يؤكد في كتاب له منذ عدة سنوات أنه توجد «فاشية أبدية أزلية»، وهي الـ«Ur-Fascismo» لا تزال حية حتى الآن، وهي وديعة وغامضة، ومنتشرة في جميع طبقات المجتمع، وتستسلم لإغواء استبداد من النوع الإقناعي، وتَصِم بالخيانة أي شخص يكون على خلاف مع مَا هو سائد، وتُظهِر نفاد صبر إزاء المواقف النقدية من جانب الدوائر الثقافيّة، وأخيرًا الخوف من الاختلافات. وقد كتب إيكو يقول: «في مستقبلنا تُرتسم حركة شعبيّة نوعية، ولذا فإن الرد الانفعالي لجماعة منتقاة من المواطنين يمكن أن يقدَّم ويُقبَل كصوت للشعب»، ويختتم حديثه قائلاً: إن الـ«Ur-Fascismo» يمكن أن تعود مرة أخرى في ثوب بريء، وواجبنا هو نزع القناع عنها والإشارة بإصبع الاتهام إلى أي من أشكالها الجديدة، كل يوم، وفي كل جزء من العالم.



الفصل الثالث والعشرون

عنصرية بلا جنس

يا له من موقف محرج لو عاد المسيح كله أسود.
هناك العديد من الكنائس التي يمكن التعبد فيها في الولايات المتحدة،
ويُمنع السود من دخولها رغم قداستها.
حيث لاَ يقام قداس الدين
ولكن قداس الجنس.
حاولوا قول ذلك
وربما تُصلبون.

لانجستون هاجز
شاعر «هارلم رينيسانس» ١٩٠٢-١٩٦٧

[أصول علميّة زائفة للحداثة - نشأة فكرة الجنس - من دي جوبينو إلى حاصل الذكاء - «المنحنى الجرسي» - الأجناس ليس لها وجود - عِلم بالمقاس - هل مات حقًّا التمييز العنصريّ؟]

أصول علميّة زائفة للحداثة

سوف نتناول العنصريّة في النهاية، في الجزء المتعلق بالتعصُّب العقليّ، لأنه يمثل المرحلة الأخيرة لنمو الفكر غير المتسامح.

لقد اخترت عدم اتباع الاتجاه السائد في مختلف الندوات والمؤتمرات حول هذا الموضوع حيث تقترن معاداة الأجانب بالعنصريّة، باعتبار هذه الأخيرة شكلاً من أشكال كره الأجانب، وذلك لأن العنصريّة، رغم اكتسابها في الغالب خصائص كره الأجانب، هي شيء مختلف.

ولا يدهشنا على الإطلاق أن الذين لا يحبون الأجانب، ومنذ زمن بعيد، يميلون إلى استهداف أولئك الذين يظهرون اختلافا بيّنا، مثلاً في لون الجلد. ومن البديهي أنه إذا كان الاختلاف يخيفنا، فإنه كلّما زاد الاختلاف، كبرت معه الريبة. وتلك الأمور التي كان يمكن اعتبارها في الأصل دوافع موضوعيّة صحيحة (مثل خشية انعكاس الاختلافات الجينية على حياة السلالة) بقيت تدريجيًّا كخوف أو مجرد وقاية. لدى الإيطالي انطباع بالتفاهم بديهيًّا مع مواطن من جنوب إفريقيا Afrikaan بشكل أفضل من مواطن إفريقيّ أسود Bantu لمجرد أنه أكثر تشبهًا به، حتى إن كان الواقع يثبت العكس.

من جهة أخرى فإن الموروث الثقافيّ يميل إلى تركيز تعاطفه أو نفوره حول أشكال معينة، تختلف من ثقافة إلى أخرى، ولكنها تظل قوية وعميقة داخل سياق ثقافيّ محدد. وهكذا ففي ثقافتنا عادةً مَا يقترن الأسود بالطبقة الدنيا، وبشيء من السلبيّة والتهديد. «الرجل الأسود» كائن شرير يخيف الأطفال، وعادة مَا يُرسم الشيطان بوجه غامق، أما الآلهة والملائكة فتتمثّل –على العكس– بطول القامة واللون الأشقر، وغالبًا بعيون زرقاء. لقد أثار رسم على الحاسوب يفترض إعادة بناء الشكل الذي كان عليه وجه السيد المسيح، ليس المسيح الزاهد بشعره الطويل المتجعّد ولحيته الشقراء وعينيه الزرقاوين الذي تتميز به الأيقونات المقدسة، ولكن بوجه أسمر، وشعر أسود مع سمات شرق أوسطية واضحة تمامًا، وهو أمر لاَ يدهشنا إذا حكّمنا المنطق. من ناحية أخرى، فإن النظر إلى الأمور من تلك الزاوية إذا كان يساعد على إحياء بعض مشاعر كره الأجانب، فإنه يظل في حيِّز الفلكلور ولا يمثل بالضرورة سببًا للتهميش.

لاَ توجد في الآداب القديمة مبالغات تتعلق بالعنصريّة. علي بعض اللوحات المصريّة القديمة نجد صورًا لشخصيات يختلف فيها لون الجلد دون أن تستنتج منها أية دلالات معيَّنة. ويظهر احتمال كون بعض الأباطرة الرومان من السود بشكل تلقائيّ في الأخبار ولكنه لاَ يسجَّل على أنه حدث بارز. القديس أجوستينو كان قد وُلد في شمال إفريقيا، ولكن من ذا الذي اهتم بلون جلده؟ في عصر أقرب إلى عصرنا، نجد أن عطيل الأسود جاء كأداة درامية تهدف إلى إبراز شغف واندفاع الشخصيّة لا أكثر.

وفي الإنجيل –كما هو معروف– نجد تمييزا من نوع عنصري بشكل مبهم، وذلك عندما تمّ نسبة الأجناس البشريّة الثلاثة إلى أبناء نوح: سام وحام ويافث (هذا الأخير أبو الشعوب الآرية، التي سُمِّيت أيضًا الأجناس «اليافثية»). خلال العصور الوسطى عاد التمييز ليتخذ منحًى سياسيًّا واجتماعيًّا: حام جاءت منه سلالة العبيد، ومن سام سلالة الكهنة، ومن يافث سلالة الأسياد.

أما التعبير العنصريّ الذي نعرفه اليوم فهو شيء اخر تمامًا، وهو من الظواهر الحديثة مثله مثل الظواهر الأخرى التي تدّعي النهج العلميّ.

إن خوف الإنسان من الآخر أخذ يلتجئ إلى العلم، بعد أن كان يبحث عن حججه في الأوامر الإلهية أو الأعراف المتوارثة.

في القرن التاسع عشر أصبح الجنس والبيئة الحجة الرئيسيّة التي يعطيها «علماء المجتمع» لتفسير غموض الاختلاف الثقافيّ بين مختلف المجتمعات البشريّة القائمة.

ولا يمكن تجاهل الاختلاف النوعي بين التعصب الدينيّ والعِرْقيّ من جهة، والتعصب العنصريّ من جهة أخرى. في الحالات الثلاث نجد أن كره الآخر المختلف يستتر وراء تأكيد مُطلَق، بينما نجده في الحالتين الأولى والثانية عبارة عن دفعات يمكن وصفها بغير المعقولة أو الانفعاليّة، والعنصريّة ترتكز على أساس «علميّ»، وبالتالي فهي تقابل الإحساس بالذنب بأكثر الحجج الموضوعيّة والعقلانيّة التي يمكن إدراكها، وهو يمثل مضادًّا فيه كل صفات البحوث المعمليّة ضدّ فيروس المساواة غير التمييزيّة التي أصبحت لاَ تريح العديد من الناس.

يقول العنصريّ: «ماذا بيدي لو أن الله أراد تقسيم البشر إلى مجموعات مختلفة تتمتع كل منها بمستوى فكريٍ معيَّن؟ لقد أثبت لنا الخبراء أن السود والبوليسينيين أو الهندوس أقل ذكاءً منّا، لذلك ظلّوا عند مرحلة بدائيّة، في حين أننا تقدمنا كثيرًا. كيف يمكنني إذن قبولهم على قدم المساواة؟». يتضح من هذا الجدل ذلك الإحساس المنطقيُّ بالامتنان الذي تتميز به معاداة الأجانب، وشعور أنصارها بأنهم فئة بشريَّة «أعلى».

وعليه فالعنصريّة لاَ تعني الاكتفاء بالتأكيد على أن الجنس البشريّ يمكن تقسيمه إلى مجموعات من السلالات لها صفات وسمات جسدية مختلفة، وهذا يعني افتراض أن يكون بين تلك السلالات تسلسل هرميّ للذكاء، محدَّد مسبقًا جينيًّا، وبالتالي ثابت على الدوام.

وتجدر الإشارة هنا مرة أخرى إلى أن مَا نطلق عليه جوهر العنصريّة هو بمثابة الاقتناع، عن حسن نيَّة، بأن مختلف الأجناس البشريّة قد طوّرت حضارات متقدمة، لا على أساس ظروف تاريخيّة معيَّنة، ولكن بسبب تركيب نفسي جسمانيّ معيَّن.

وأيّ توجُّه يريد أن يعطي للعنصريّة أي تفسير آخر، يمكن أن يوصف بالضلال.

ولا يمكن أن نَصفَ بالعنصريّ ذلك الشخص الذي يفكر في شعب مثل شعب مالي على اعتبار أنه في مُجملَه أكثر جهلاً وقذارة وكسلاً، وأكثر ضعفًا وتعرُّضًا للمرض، من شعب الدانمرك، وأن اختبارات ترتكز على حاصل الذكاء قد تعطي في المتوسط

للدانمركيين نقاطًا أعلى من الماليين، لأن غذاء الماليين أقل جودة ونظرًا وفهم المعيشية أسوأ ويفتقرون إلى الحافز.

وليس عنصريًا بالضرورة من يفكر في أن دول إفريقيا السوداء هي على مستوى من التحضُّر أكثر تخلفًا مما هو في الدول الأوربيّة، ويمكن اعتباره سطحيًا أفكاره مُقوْلبة.

العنصريّ هو ذلك الذي يعتبر هذا الموقف غير قابل للتغيير، لأنه ليس وليد البيئة، ولكن أمر وراثيّ بحت. العنصريّ هو الذي يؤكد عدم نفوره من «الملوَّنين» ولكن يؤكد أنه يعلم دون أدنى شكّ أن الأسود تتأصل في مخه «قدرة على الأداء» تختلف عن قدرة الأبيض، وبالتالي أيًّا كان مَا يفعله، ومهما تحسنت بيئته وتربيته، فإنه لن يتمكن أبدًا وبأي حال من الوصول إلى نفس حاصل الذكاء، تمامًا مثل ذكاء الخيل الذي هو أدنى من ذكاء الكلب.

وهكذا فإن هذا الأسلوب في التفكير، بل هذا الوثوق الذي لاَ يُعَدُّ هذه المرة موقفًا عقَديًّا، ولكنه يدّعي أنه «مُثبَت علميًّا»- لاَ يمكن إلاّ يُطبَّق بالقياس المنطقيّ أيضًا على «متوحشي» الغابة، كما يُطبَّق على مواطنين في مجتمع متقدِّم مثل السود الأمريكيّين، الذين ينظر إليهم العنصريّ كمجموعة أدنى من البيض، رغم انقضاء مئتَي عام من الإدماج العنصريّ الجزئيّ في «البوتقة» الأمريكيّة، ورغم الاستثناءات الضخمة التي عادةً مَا تُعتبر مجرَّد تأكيد للقاعدة.

كيف أمكن الوصول إلى مثل هذا التأكيد؟

نشأة فكرة الجنس

في علم الأحياء تعزّز الآن معيار تصنيف الكائنات الحيَّة إلى أنواع، وقد أصبح هذا التصنيف أداة مفيدة في مجال دراسة عالم الحيوان والنبات. وفيمَا يتعلق بالإنسان، وبعد التأكيد المطلَق بأن الجنس البشريّ كله ينتمي إلى نوع واحد، فإن كل المحاولات المتكررة للقيام بتقسيمات أخرى قد أثارت دومًا الشكوك والتناقضات.

إن كلمة Razza (جنس) - التي تتدرج من اللاتينية Ratio بمعنى «الدرجة أو الرتبة» وبذلك ترتبط بمفهوم التصنيف لأشكال الحياة المتعددة على سطح الأرض- ظهرت مع القرن الرابع عشر في إطار تربية الحيوانات، ثم امتدت لتشمل البشر، ولكن بمعنى

مجازيّ، للدلالة على سلالة «صريحة النسب» للعائلات الكبرى. لذلك كان «جنس» النبلاء يلقّب بـ«ذوي الدم الأزرق».

ومع عصر التنوير، في أوج العلوم الفيزيائية والطبيعيّة، بدأت دراسة الإنسان أيضًا من زاوية بيولوجيّة بحتة، وبمنهجيّة أكثر صرامة؛ فلم يستطع الجنس البشريّ أن يُحجَب عن المناهج البحثيّة الجديدة، التي ترتكز في معظمها على التصنيف الدقيق لكل جانب من جوانب الطبيعة. فقد لجأ كل من لينيو وبوفون إلى مفهوم الجنس كمعيار ترتيبيّ أيضًا للجنس البشريّ.

كان لينيو يقسم نوع Homo Sapiens (الإنسان بوصفه نوعًا بيولوجيًّا) إلى ستة أجناس: [متوحش، وأمريكيّ، وأوربيّ، وإفريقيّ، وآسيويّ، و... مسِيخ]. وكان بوفون يفسّر أسباب «تنوُّع» الجنس البشريّ على أنه انحلال تدريجيّ كلَّما ابتعدت الشعوب عن المناطق المعتدلة؛ في هذه المناطق يوجد إذن النموذج المثاليّ الذي ترجع إليه كل التنوُّعات الأخرى «المتدنية» الخاصّة باللون والجمال.

إن مثل هذا التناول يأتي مناسبًا تمامًا لمخطِّطي السياسات الاستعماريّة، الذين تخلصوا الآن من التأثير الدينيّ الذي كان يبرّر أول اختراق للعالم الجديد من جانب البيض. وهكذا استطاع مفهوم الزعامة الأوربيّة أن يطغى على تيار التنصير، وذلك بدفعة أكثر مصداقيّة وموضوعيّة وعقلانيّة. كانت الشعوب البدائيّة توضع في مرتبة طفولة الإنسانيّة، أما الشعوب الأوربيّة فقد كانت تمثل مرتبة الرشد. وكان هذا التمثيل يُرضِي الجميع، سواء المؤمنون أو غير المؤمنين، لأنه لم يكُن يفنّد، بل يجعل حجج اللاهوتيين الإسبانيين أكثر إقناعًا، وهم الذين كانوا قد فتحوا الطريق أمام غزو القارّة الأمريكيّة قبل مَا يربو على قرن من الزمان.

وأيضًا فولتير المعروف بعدائه لأعراف الكنيسة، كان يؤمن بوجود اختلاف في درجات الذكاء بين شعوب الأرض، وأن الأوربيّين يحتلّون القمَّة و«المتوحِّشين» عند درجة يبلغ تدنِّيها حدَّ اعتبارهم جنسًا مختلفًا.

ومع ذلك فلم تتبلور نَظريّة الأجناس بمعناها الحقيقيّ سوى في القرن التاسع عشر، مع تطور العلوم الطبيعيّة ونشأة الأنثروبولوجيا.

لقد أتاحت نظريّات داروين حول تطوُّر الأجناس ونظريّات مندل حول الانتقال الوراثيّ تهيئة المجال أمام انطلاق البحوث الخاصّة بالاختلافات البيولوجيّة بين المجموعات البشريّة، وذلك باستخدام أساليب وأدوات متطورة نسبيًّا.

وتجدر الإشارة إلى أن معظم هذه الدراسات لم يكن هدفها تحديد ترتيب للاختلافات بين الأجناس، ولكن ذلك الترتيب كان يظهر بشكل شبه تلقائيّ من خلال عمليّة التصنيف ومقارنة المعطيات.

الغرض الأوليُّ كان مجرَّد تقديم مفهوم الجنس «ككيان حيوي مرتبط بالسلالة». كان الأمر إذن يتعلّق بتقسيم الشعوب إلى مجموعات متميزة أعدادها لاَ بـأس بهـا، تعكـس خصائص بدنيّة وراثيّة مشتركة لاَ ترتبط بالقوميّة واللغة والتقاليد. وهو مفهوم مُبهَم فـي حدّ ذاته، وبعيد كل البعد عن إجماع الآراء. ومن بين المتخصصين كان هناك من يميّـز بين أربعة أجناس رئيسيّة، ومن يقول بأن هناك خمسة عشر، ومَن قال إنها عشرون، بل ومن قال أربعة وأربعون.

إن الاستخدام المعتاد للأرقام في المنهج العلميّ للمقارنة بين أشياء مختلفة، يُعَدُّ بمثابة مكيدة لخلق الشكل الهرمي لروح الإنسان. عندما يختلف رقمان، نجـنح غريزيًّـا إلـى اعتبار واحد منهما يعلو على الآخر. وفي حالة المقارنة بين البشر لاَ يمكن تحاشي أحكام القيم، والتمييز بين الطيِّب والشرِّير، وبين الماهر وعديم الأهليَّة.

وعلى أي حال لم يكُن في المستطاع تحاشي إضافة ملاحظات أخرى بنفس الحجـج «العلميّة» حول الخصائص التي تتعلّق أكثر بالسمات البشريّة، أي تلك النفسيّة، وأولهـا المقدرة العقليّة، إضافة إلى التصنيفات الأولية التي تعتمد فقط على «الأنماط الظاهريَّة»، أي على اختلافات بدنيّة واضحة ويمكن قياسها.

من دي جوبينو إلى حاصل الذكاء

هذه النقطة بالذات هي التي بدأت تتضاعف منها المشكلات وتبلورت فيها المناقشات الجدليَّة المستمرّة حتى يومنا هذا.

هل يمكن قياس ذكاء الإنسان؟

هل هو وراثيّ؟ لو أن الإجابة بنعم، فإلى أي حدّ؟ مَا الدور الذي تلعبه الوراثة؟ وأي دور تلعبه البيئة في تنمية القدرات العقليّة للبشر؟

رغم أن المجتمع العلميّ لم ينجح في بلوغ أغلبيّة القَبُول حـول تلـك التـساؤلات الأساسيّة، فإن نظريّاتٍ تدّعي وجود درجات للقيم بين الجماعات البشريّة ترتكـز علـى اختلافات في الخصائص البيولوجيّة بدأت تظهر وتنتشر، وهي نظريّات كانت تفتـرض إمكانيّة قياس الذكاء، وعلاقة سببيّة يصعب إثباتها بين الصفات البدنيّة والصفات النفسيّة.

لم تكُن تلك الدراسات حسنة النيّة دائمًا، فإذا كان بعض الدارسين يوسعون أبحاثهم لتشمل أيضا المجال النفسيّ دون أحكام مسبقة، فقد كان اخرون يهدفون بدراساتهم إلى إثبات تفوّق أجناس بعينها عن الأجناس الأخرى.

إن البحث الذي يعتبر شهادة ميلاد العنصريّة الحديثة هو لدبلوماسي فرنسيّ، الكونت جوزيف آرتور دي جوبينو: Essai sur l'inegalité des races humaines (دراسة حول اختلاف الأجناس البشريّة) الذي كتبه عام ١٨٥٣.

لم يكُن دي جوبينو ذلك الشرير الذي يحوك المكائد في الظلام، كما أنه لم يكُن المتعصب نصير التوجُّهات السياسيّة المتسلطة. بل إنه لم يكُن حتى أديبًا أو عالمًا مرموقًا. كان أرستقراطيًّا ودبلوماسيًّا واسع الثقافة ومتعدد الاهتمامات، وكان يبغي التعمق في أبحاثه حول العلاقات البشريّة والردّ على بعض التساؤلات التي طُرحت عليه في أثناء نشاطه المهنيّ ورحلاته. وأول تلك التساؤلات: لماذا هناك أجناس أقلّ تقدُّمًا وتعكس انطباعًا بأنها أقلّ ذكاءً؟

بالنسبة إلى دي حوبينو لم يكُن هناك شكّ في أن الدرجات المختلفة لتقدُّم الأجناس البشريّة تحدِّدها مجموعة من الخصائص التي تشكّل التراث الوراثيّ الفطري لكل مجموعة، والتي تؤثّر بشكل ملموس في القدرة على التنمية، وعليه فإن البشريّة تنقسم إلى عشر حضارات:

١- الهنديّة.
٢- المصريّة.
٣- الأشوريّة.
٤- الإغريقيّة.
٥- الصينيّة.
٦- الإيطاليّة.
٧- الألمانيّة.

وعلى مسافة معينة، ثلاث حضارات أمريكيّة:

٨- المايا.
٩- الإنكا.
١٠- الأزتكيّة.

ولم تكن تهمّ الأحداث التاريخيّة التي أتاحت الفرص الكبرى أو الصغرى للتطور الاقتصاديّ والثقافيّ؛ كانت ملامح كل حضارة مرسومة من البداية على أساس الشكل النفسيّ والبدنيّ للأفراد الذين يمثلون تلك الحضارة.

والنقطة الرئيسيّة لهذا البناء تمثلت في الاتجاه الذي يقول بأن الحضارات التي كان لها التأثير الأكبر في تطور البشريّة جمعاء، وبالتالي في لعب الدور الرائد، هي تلك التي كان المكوِّن الآري فيها سائدًا.

ورغم دِقّة هذه النتائج وحسن تقديمها مدعومة لأول مرة بتحاليل للتشريح المقارن للمخّ، فإنها جعل عديم الخبرة يبتسم من شِدَّة سطحيَّتها. وكون هذه النتائج قد لاقت نجاحًا باهرًا للعامَّة في ذلك الوقت، فهذا يؤكد مرة أخرى مَا أشار إليه يوليوس قيصر في مذكراته، أي أن «... الناس يؤيِّدون على وجه الخصوص من يقول لهم مَا يحبون سماعه».

إن الصفوة الأوربيّة التي كانتِ قد بلغت أوج التوسُّع السياسيّ والاقتصادي والثقافيّ مع نهاية القرن التاسع عشر، لم تكن تنتظر سوى إثبات علميّ بأنها أهل للسيطرة على بقية العالَم. فقد كانت العقليّة الوضعيّة، والتطوُّرية والتقدُّمية الجديدة السائدة في الأوساط الأكاديمية تجعلهم أكثر من منفتحين على فكرة التمييز بين مختلف الجماعات البشريّة على أساس قدراتها العقليّة. فقد توصّل بروكا إلى نتائج باهرة في دراساته حول المخ، وأدخل جالتون مفهوم الانتقاء الوراثيّ Eugenismo. إن فرضيّات داروين حول أصل الإنسان باعتبار أن الله لم يخلقه «مرة واحدة» ولكن باعتبار أنه نتاج نهائيّ لعمليّة مطوّلة جدًّا، تلك الفرضيّات فتحت آفاقًا لإمكانات جديدة. كانت هناك مناقشات بين أنصار المدرسة التي تؤمن بأحادية الأصل الوراثيّ، وتلك التي تؤمن بتعدد الأصول الوراثيّة، أي أولئك الذين يفترضون انتشار الجنس البشريّ من سلالة واحدة، وأولئك الذين ينظرون –على العكس– للظهور المعاصر لأكثر من سلالة مميزة Homo Erectus. إن تأخر مجال البحوث لملايين السنين أتاح تراكم الفرضيّات الاعتباطية والخياليّة، غالبًا في محاولة التوفيق بين التوجّه الأنثروبولوجيّ والتوجّه الدينيّ.

كانت أكثر مناهج التحقق العلميّ مصداقيّة تعتمد على قياسات علبة الدماغ. كان الأمريكيّ صمويل مورتون قد أثبت من خلال قياس أكثر من ألف شخص، أن جماجم البيض في معظمها بيضاوية الشكل وأكبر حجمًا (١٤٢٦سم) من جماجم الصُّفر (١٣٦.سمم) ومن جماجم السود (١٢٧٨سم). وقد سارع هو نفسه إلى استنتاج بعض الفرضيّات التقريبيّة التي تؤيد العبوديّة. وقد بدأت تنشأ داخل الجنس الأبيض نفسه

تصنيفات عرقية تميّز الجنس الشمالي الأكثر بياضًا ونقاء، مع غالبيّة من العناصر طويلة القامة من الشقر وذوي الأعين الزرقاء.

ومع نشأة علم النفس التجريبيّ والقياسات النفسيّة، سرعان مَا تَمّ التوصّل إلى إمكانيّة قياس مستوى ذكاء الفرد بشكل مباشر. أول مؤشرٍ لحاصل الذكاء (مَا عُرف بـ IQ) اخترعه الفرنسيّ ألفريد بينيه عام ١٩،٤ بغرض محدود وحسن نيّة، لتوفير الرعاية التربويّة المناسبة للأطفال المتخلفين نسبيًّا عن طريق التشخيص المبكّر لقدراتهم التحصيلية.

وإذا تأملنا هذا الغرض المحدود لأدركنا أن فكرة اختبار القدرات العقليّة للطفل تحمل في داخلها عيبًا متأصلاً، أي أنها تتبنى معيارًا «قياسيًّا» محدَّدا بشكل اعتباطيّ، على أساس نموذج إحصائي، من شأنه (أي المعيار) بالتالي رفض كل مَا هو غير عاديّ واعتباره غير قياسي. ولكن بعد مرور فترة زمنية محدودة بدأت تتسع دائرة مجالات استخدام اختبارات الذكاء كي تتحوّل إلى أدوات قوية للتمييز الاجتماعيّ.

ماذا يعني هذا المختصر IQ (من الإنجليزية Intelligence Quotient)، الذي طال الحديث عنه؟ هو معامل رقميّ المفروض أن يشير إلى «القدرة العقليّة» للفرد، وبالنسبة إلى الأطفال الذين تَمّ اختراعه أصلاً من أجلهم، كان حاصل الذكاء يحدّد العلاقة بين العُمر الكرونولوجيّ والعُمر العقليّ، لذلك فالأساس المرجعي المساوي لـ١.. هو الذي كان يتحقق عنده التوافق التامّ بين نتائج الاختبار وتلك التي كان يُفترض انتظارها إحصائيًّا للفرد «العاديّ» في ذلك العُمر. بالنسبة إلى الراشد كان الـIQ = 1. ويحدد من خلال التهايؤ الإحصائي لمجموعة من الملاحظات.

إن التجارب المختلفة التي تمت في هذا المجال وانتشرت بشكل سريع خاصّة في الولايات المتحدة، حيث كانت شعبيّة أساليب زيادة الإنتاجية واصطفاء العاملين قد خلقت جوًّا ملائمًا لهذا النوع من التحقّق، أشارت تلك التجارب إلى أن نحو ٧٠ % من شعوب الدول الأكثر تقدمًا كان لديها حاصل ذكاء يتراوح بين ٨٥ و١١٣. وعليه فإن مؤشر ٧٥ كان يمكن أن يُفسَّر على أنه علامة على مهارةٍ عقليّةٍ غير مُرضيَة لشرح الواجبات الأساسيّة المطلوبة من العامل المتوسط ومن المواطن الجيّد.

الآن أصبحت قياسات الذكاء مطروحة للعامة، كما أنها تنتشر على صفحات المطبوعات، لذلك فقد تنوّعت أنماطها ومصداقيتها. ومعظمها يطرح مشكلات متنوعة غالبًا مَا تقترح الاندماج الجيد في النسيج الاجتماعيّ-الثقافيّ المحيط، وفي بعض الأحيان تتطلب سرعة معيَّنة في الإجابة: القدرة على الحسابات الرياضيّة، التفكير في المعطيات

الشفهيّة والرقمية أو الرمزية، فهم الأحداث اليومية، القدرة على الإدراك الحسّيّ، سرعة ردّ الفعل، وأحيانا المهارة الحركيّة.

من البديهي أن سكان الغابات أو البدو الرُّحّل سيجدون أنفسهم غير مؤهلين من البداية للرد على أسئلة مبنية على مفاهيم تقنية-حسابية أو على دقائق لغوية، تمامًا كما سيجد مواطن شيكاغو أو ميلانو صعوبة في اختبارات الأهليَّة التي تعتمد على أساليب ملاحقة الطرائد أو تحديد النباتات الصالحة للأكل. لذلك ففي الاختبارات الأكثر جدية، كانت هناك محاولات لإعداد نماذج منسلخة عن السياق الثقافيّ (التي يُطلق عليها -Culture Free أو Culture-Fair)، ولكنها لم تحقّق النجاح المرجوّ لأن العوامل الثقافيّة في الواقع استمرّت في تأثيرها على الأشكال التي لاَ تخطر على البال، والأشخاص الذين لاَ يؤيّدون أو يؤيّدون فقط جزئيًا القيم الثقافيّة أو الأخلاقيّة السائدة سيجدون أنفسهم في موقف ضعف حتى في التفاعلات التي تبدو للوهلة الأولى بعيدة عن التأثير البيئيّ. هذه الحالات لاَ تفيد سوى في تأكيد ذلك الحشو المستمرّ القائل بأن الأفراد أو مجموعات الأفراد الذين لاَ يتوافقون مع المعيار القياسي يجدون صعوبة في النجاح، وأن أي تصنيف للبشر على أساس معايير نوعية لاَ يمكن أن يكون محايدًا حيث إنه يرتكز على متغيرات تعتبرها المجموعة السائدة مهمة في فترة زمنيّة معيَّنة.

والذكاء نفسه يبدو أنه أحد تلك المتغيرات. في المجتمع الغربيّ المعاصر نجد أن الذكاء يتمتع بدرجة متميزة، ويبدو أنه الصفة الأساسيّة والأكثر تقديرًا. ولكن هل كان هذا دائمًا هو الوضع السائد أم هو كذلك في أي مكان؟

مَا زالت هناك حتى الآن مجتمعات تُعتبر فيها الصفات الأخرى مثل (الشجاعة والكرم وحسّ العدل) أكثر تقديرًا من الذكاء، أو على الأقلّ تُعتبر من المكوِّنات الأساسيّة لكمال شخصيّة الإنسان على الأقلّ لمجرَّد بلوغ أهليَّة حل المشكلات. وفي نفس مجال الثقافات الأوربيّة تعمل معايير مختلفة على تقييم «المهارة» التنافسيّة، خصوصًا فيمَا يتعلق بالكفاءة المدرسيّة: في المدارس الإيطاليّة يُفضَّل الطالب المتحذلق، «سريع الالتقاط» المستعد لإفراغ المعلومات التي درسها عند الطلب، بينما في المدارس الفرنسيّة يميلون أكثر إلى الاستدلال، وفي المدارس البريطانيّة الالتزام وروح التفاخر وتكوين الشخصيّة، بما في ذلك أسلوب التعبير عن المهارات المكتسبة دون تباهٍ، ودون الرغبة المستمرّة في البزوغ كعباقرة.

وأيًّا كان الأمر، فإن حاصل الذكاء في إطار علوم القياسات الأنثروبولوجيّة في القرن العشرين قد اكتسب دورًا يمكن مقارنته بدور أبعاد الجمجمة وأبعاد زاوية الوجه

في القرن التاسع عشر، وقد كان له تأثير مماثل في تشجيع الأسلوب الهرميّ في تصنيف الأجناس.

«المنحنى الجرسي»

خلال الخمس عشرة سنة التي بدأت عام ١٩٦٢ وحتى ١٩٧٧، كان لسلسلة من الأبحاث التي قام بها بشكل مستقل علماء في الأنثروبولوجيا وفي علم الوراثة من الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا وفرنسا، أن أعادت إلى الساحة نظريّة طالما لاقت قبولاً واسعًا لما تتميز به من تلقائيّة حدسيّة، أي نظريّة الربط بين الطقس وكفاءة جنس معيَّن. تقول النّظريّة بأن الجنس الأبيض، المضطر إلى العيش في طقس أكثر برودة، مع مرور مئات الآلاف من السنين، ربما كوّن نوعًا من الذكاء يميل أكثر إلى تعديل البيئة المحيطة، وبالتالي زاد حسّ التجديد التقنيّ عنده. أما في إفريقيا، فإن البيئة الطقسية الأكثر اعتدالاً ربما أتاحت اصطفاء «أفراد أقلّ نشاطًا».

ولكن الضجة الكبرى أثارتها دراسة أخرى نشرها في نفس الفترة اثنان من الباحثين الأمريكيّين: ويليام شيكلاي وآرتور يانسين، انطلاقًا من علاقة مفترضة بين حاصل الذكاء واختلاف الأجناس، وقاما بعرض مستندات إحصائية مدهشة تهدف إلى إثبات أن حاصل ذكاء الزنوج الأمريكيّين يقلّ عمّا هو عليه في البيض بنسبة ١٥%.

وقد عادت القضيّة مرة أخرى إلى السطح بعد مرور عشرين عامًا، وفي نفس الولايات المتحدة، ممّا يثبت أنه رغم الجهود التي بُذلت على جميع المستويات لتحسين الموقف، ظلّت العنصريّة واحدة من أكبر مشكلات هذا البلد الذي تملؤه المتناقضات.

في عام ١٩٩٤ ظهرت على أرفف المكتبات ثلاث دراسات حول الذكاء والجنس[1]. البحث الأخير بعنوان «المنحنى الجرسي»، بلغ رقما قياسيًّا في المبيعات في وقت قصير، وأثار موجة من الجدل داخل وخارج السياق الأمريكيّ، بمقالات افتتاحيّة

[1] دراسة Seymour W. Itzkoff, The Decline of Intelligence in America: a trategy for National Renewal, Praeger, Westport 1994
انحطاط الذكاء في أمريكا: استراتيجية للتجديد الوطني؛
[الثانية] الكندي J. Philipe Rushton, Race, Evolution and Behaviour. A Life History Perspective, Transaction Publisher, New Brunswick, 1994
الجنس والتطوُّر والسلوك. منظور لتاريخ حياة؛
الثالثة في أكتوبر Richard Herrnstein , Charlie Murray, The Bell Curve: Intelligence and Class Structure in American Life. NY The Free Press, 1994.
المنحنى الجرسي: الذكاء والبناء الطبقي في الحياة الأمريكيّة.

في الصفحات الأولى لأهم الجرائد الدولية وتحدوها مطولة على صفحات المجلات الشهيرة.

واللافت للأنظار أن مؤلفي هذا الكتاب المثير، مثلهما مثل دى جوبينو، ليسا من المتخصصين في علم الوراثة أو العلوم البيولوجيّة: ريتشارد هيرنشتاين (توفي بالسرطان في الشهر السابق لنشر الكتاب)، كان أستاذًا في علم النفس في هارفارد، أما شارلي موراي فهي عالمة اجتماع وعضو معهد الأعمال الأمريكي American Enterprise Institute.

وهذا الكتاب الذي يقع في ٨٤٥ صفحة «يُعَدُّ من الكتب التي كُلَّما طالت مناقشتها، قلت قراءتها)، ويبدو أنه صيغ بأمانة فكريّة وتدعمه إحصاءات ومنحنيات بيانية مدهشة.

ولا يمكن تسميته بكتاب عنصريّ بالمعنى الصحيح للكلمة، حيث إنه لاَ يواجه بشكل مباشر موضوع التمييز العنصريّ، ولكنه يهدف فقط إلى تبيان الواقع الاجتماعيّ والاقتصاديّ للمجتمع الأمريكيّ على أعتاب الألفيّة الثانية، وبصفة خاصّة مَا يتعلق ببناء وتطور المكوِّنات المختلفة للسكان.

والفكرة الرئيسية لُبُّ الدراسة هي النَّظريّة التي تقول بأن الدخول إلى السلطة المالية -الاقتصادية والسياسيّة- الثقافيّة في مجتمع تكنولوجيّ على درجة عالية من التنافسية يحدده بشكل متصاعد مستوى ذكاء الفرد، إضافة إلى مجموعة من العوامل الخارجية مثل الثراء والجنس (الذكر أو الأنثى) والطبقة الاجتماعيّة.

لذلك يبدو أن أمريكا في طريقها إلى التحول إلى مجتمع «بسرعتين»: على المستوى الأعلى توجد طبقة من الميريتوقراطيين والتكنوقراطيين الأثرياء الذين يأمرون وينتعشون بسرعة، وعلى المستوى الأدنى جمهور من البروليتاريا يتضاعف بشكل أسرع بكثير ولكن تتضاءل إمكاناتهم المعيشيّة، وتزيد بينهم نسبة المهمشين والمجرمين. (والعنوان «المنحنى الجرسي» ربما قُصد به بيان الخط التصاعدي في البداية ثم التنازلي للتطور السكاني الأمريكيّ في مُجملَه، والذي يرجع إلى التفوق العددي التدريجيّ للمكوِّن الأقلّ موهبة).

ولا جديد حتى الآن. فقد كانت الأمور هكذا في الماضي إلى حدّ مَا، عندما كان زمام الأمر في يد أرستقراطية كانت تسمح لنفسها بتوفير الغذاء والتعليم والتدريب المناسب لأبنائها وبالتالي تتزايد باستمرارٍ فرصها في التنمية، مع تزايد الفارق بينها وبين عبيد وخدم الأرض، المحكوم عليهم جيلاً بعد جيل بتوفير الطاقة البدنيّة لدعم الاقتصاد.

ولكن النقطة الجوهرية في البحثِ، والتي أدَّت إلى اندلاع مناقشات لم تهدأ بعد، هي تلك التي تقول بأن الذكاء -على الأقلّ ذلك الذي يمكن قياسه بحاصل الذكاء- ليس فقط

موزعًا بشكل غير متساو بين مختلف المجموعات العرقيّة، ولكنه وراثيّ في الأساس. وليس هذا فقط، ففي الفصل الأكثر دقة والمخصّص للعلاقة بين حاصل الذكاء والجنس، يعيد هيرنشتاين وموراي طرح الفرضية التي أيّدها قبل قرابة عشرين عامًا شيكلاي ويانسين، والتي تقول بأن متوسط الذكاء عند الزنوج الأمريكيّين يقل بنسبة ١٥% عنه في البيض. من هنا يمكن أن نستنتج تفسير نسب النجاح الضئيلة للأمريكيّين الأفارقة في تولّي مناصب بارزة، أو توقّع الفرص المحدودة حتى في المستقبل لبلوغ مستويات عالية، وذلك لأسباب يمكن أن نصفها بـ«الأسباب الطبيعيّة».

هذه النتائج من شأنها أن تصبغ البناء الاجتماعيّ كله صبغة سياسيّة، فنحن ننطلق مرة أخرى من مقدّمات تدّعي العلميّة ولكنها في الحقيقة غير مُثبتة وتصلح ظاهريًّا لتنمية مفاهيم من شأنها أن تؤثّر تأثيرًا تدميريًّا على حياة الأفراد والجماعات، كما يحدث في أغلب الأحيان عندما يتعلق الأمر بالجنس.

إن نتائج هذا الجدل متنوعة، ولكن يبدو أنها في مجملها تدعم العناصر التي في داخل أو خارج الإدارة الأمريكيّة والتي تعارض ليس فقط الاندماج الكامل بين مختلف المكوّنات العرقيّة، بل تعارض أيضًا سياسة الرعاية الاجتماعيّة. ويبدو أن خلاصة الحديث الدائر في الكتاب تكمن في التساؤل: مَا الفائدة وراء إنفاق ملايين الدولارات في برامج للخدمات الاجتماعيّة لرفع مستوى الأقلّيّات العرقيّة، ما دام ضعفهم الأصلي وراثيًّا، وبالتالي لاَ يمكن معالجته؟

لقد اضطُرَّ الرئيس الأمريكيّ كلينتون إلى التدخل بنفسه لتهدئة الأجواء على مختلف الأصعدة بسبب الملح الذي أُلقيَ على الجرح المفتوح في نسيج المجتمع الأمريكيّ، وبدعم من الصحافة الجادّة النافذة، سارع في التنديد بالطبيعة العلميّة الكاذبة للأساس الذي انطلقت منه هذه الدراسة.

وفي جدل دار مؤخرًا حول نفس الموضوع، تَمّ التأكيد على أن القضيّة لم تنزوِ قط. ففي مارس ٢٠٠٥، وبالضبط في أثناء مراجعتي الأخيرة لهذا الفصل، أثار رئيس لجنة المساواة العنصريّة في بريطانيا العظمى ضجّة باقتراحه تنظيم دورات تعليميّة منفصلة للتلاميذ من ذوي الأصل الإفريقيّ-الكاراييبي، وذلك استنادًا إلى إحصاءات تثبت أن متوسط تحصيلهم أقل من التلاميذ البيض. وجاءت بيانات أخرى لاختبارات أُجريت فيما بعد ليست على أساس الانتماء العرقِيّ ولكن على أساس الحالة الاقتصادية، لتكشف عن أن بين شريحة التلاميذ المستفيدين بوجبة مجانية في المدرسة، أي الذين ينتمون إلى أسر أفقر، يحتلّ الفتيان البيض المرتبة الأخيرة في التحصيل المدرسي، ويتخلفون بذلك عن الزنوج الأفارقة والكاراييبين، كما يتخلفون عن ذوي الأصول الباكستانية والبنجلاديشية.

مجلة الإيكونيميست «The Economist» المعروفة بانتمائها إلى التيار المحافظ، في عرضها للخبر علّقت قائلة إن رجع الدرجات المدرسية المتدنية إلى عوامل عنصريّة بدلاً من المسببات الاجتماعيّة هو أمر «مريح ومناسب» للعديد من الناس، ولكنه أيضًا يمثل خطرًا لأنه يُبعدنا عن القضيّة الحقيقيّة، أي أن النظام المدرسيّ لم يوضع للفقراء. «ليست قضيّة بيض أو قضيّة سود، إنها قضيّة بريطانيّة».[1]

الأجناس ليس لها وجود

على الصعيد العلميّ الخالص تَمّ تحقيق تقدم كبير في الآونة الأخيرة، حتى إننا اليوم نستطيع أن ندحض حُجَجًا كانت تعد من المسلّمات لدى علماء بداية القرن العشرين، فقد أثبت ستيفن جاي جولد أن مورتون وبروكا أنفسهما كانا قد شوّها بعض المعطيات من أجل دعم فرضيتهما.

ولكن التطوُّر الأكثر عمقًا تَمثّل في أنه طرح للمناقشة بشكل جاد مفهوم الجنس نفسه.

في عام ١٩٧٢ نشر عالم الوراثة هارفارد رينتشارد ليوانسين نتيجة أبحاثه، التي تعتمد على أن معظم التنوُّع الوراثيّ البشريّ يمكن العثور عليه داخل الجنس الواحد. وقد اتّبع علماء كبار آخرون ومن بينهم لويجي ولوكا كافالّي سفورتسا من جنوة (أستاذ علم الوراثة المرموق بجامعة ستانفورد) نفس النهج، وأثبتا بشكل مفصّل أن الإنسان العاقل «Homo Sapiens Sapiens» يتميز بدرجة عالية من التنوُّع الشكلي ليس على مستوى الفصائل الجينية التي تتحكم في البروتينات وفصائل الدم[2]. «الجنس ليس مفهومًا علميًا بل اجتماعيّ»، تلك هي النتيجة التي توصلا إليها.

وتؤكد تحاليل أُجريت على حفريات ابتداء من السبعينيات استُخدمت فيها تقنية جزيئية جديدة، طول الفترة الزمنية القصوى لعمليّة التنوُّع الشكلي لمختلف الجماعات البشريّة انطلاقًا من السلالة الأصلية الإفريقيّة. أول انقسام ثنائي بين النواة الأولى للإنسان ومجموعة أخرى بشرتها أفتح يُعتقد أنه تحقق قبل أكثر من مئة ألف سنة ويفترض مرور ٦٠ ألف سنة أخرى للوصول إلى ظهور اختلاف ثان بين مجموعة منغوليه وأخرى قوقازية، دائمًا عقب موجات من الهجرة والتغيرات المناخية.

---

[1] «The Economist» ١٢-١٨ مايو ٢٠٠٥، ص ص ١٤ و٣٧.

[2] Luigi Luca Cavalli Sforza, Genes, Peoples and languages, University of California Press, Berkeley 1987 الجينات والشعوب واللغات

إن تقديرات الفترات الزمنية تختلف بالطبع طبقا لحسابات بعديها وموشرات يتم فحصها. والاكتشافات التي توصل إليها علماء الحفريات ترجع زمن ظهور الإنسان إلى الوراء دائما. وأولى الخصائص التي تشير إلى هذا الظهور -النار وتصنيع الأدوات البدائيّة، ومبادئ اللغة- ترجع إلى ٨٠ أو ٧٠ ألف عام، معلنة ذروة التطور الذي دام مئات الآلاف من السنين. بدأ «الإنسان الماهر» Homo Abilis يزيد من تنقله بحثا عن ظروف معيشيّة أفضل، وأدت حركته إلى مضاعفة الجماعات والتبادلات والتداخلات الجينية. وقبل عشرة آلاف عام، أي بعد فترة إعداد دامت عشرات الآلاف من الأعوام، أدّت تلك التجارة الثقافيّة البينية إلى تأسيس المدن: وُلدت أولى الحضارات «التاريخيّة» التي تقوم على الزراعة وعلى الكتابة. أصبح الإنسان «Sapiens»[1].

لذلك أصبحت فكرة الأجناس التقليدية لاَ تعني الكثير بالنسبة إلى علماء الأحياء المعاصرين، والاختلافات المتعددة بين البشر هي فقط التي تتعلّق بيولوجيًا بالخصائص الوراثيّة. والاختلافات الوراثيّة بين أفراد ينتمون إلى نفس الشعب أو نفس الجنس تبدو بصفة عامّة أهم من الاختلافات بين الشعوب أو بين الأجناس المختلفة. أي أنه من ناحيه الموروث الجيني وفصيلة الدم، قد أشارك في الخصائص سنغاليًا أسود آتيًا من بعيد أكثر ممَّا أشارك جارًا لي من أبناء وطني.

ينتج عن ذلك أن مختلف تصنيفات الشعوب الإنسانيّة هي دائمًا اعتباطية ومصطنعة. ولأغراض الدراسة البحتة. وإذا أردنا تبني نفس معايير الماضي (لون البشرة، الشعر، شكل الجمجمة، شكل الأنف، إلخ) فإننا قد نبلغ من عشرة أصناف إلى خمسين صنفا

كافالي سفورتسا لاَ يحب الحديث عن الأجناس والشعوب، ولكن عن «عائلات». ويحدد منها سبع عائلات أساسيّة: إفريقية، وقوقازية، وشمال آسيوية، وأمريندية، وجنوب آسيوية، وجزيرية للمحيط الهادي، وأسترالية.

ونلاحظ بصفة عامّة مجموعة عريضة من التنوُّعات. ولا توجد جماعة بشريّة تتوافق مع جماعة بيولوجيّة خالصة. وشعوب ترتبط فيما بينها بقرابة وثيقة يمكن أن تتكوّن من أفراد يختلف لونهم، والعكس بالعكس.

يقول كافالّي سفورتسا إن لون الجلد يحكي لنا تاريخ الطقس لا تاريخ الشعوب. بعض الشعوب الهنديّة الأوربيّة المصنفة بالجنس الأبيض، لون بشرتهم أغمق من أكثر الإفريقيّين سوادًا. وفي المناطق التي تضربها الشمس بقوة منذ عشرات آلاف السنين، نجد شعوبًا سوداء، مَا يعني أن الانتقاء عمل لصالح أفراد جلدهم به نسبة عالية من صبغ

---

[1] انظر الجنس والثقافة، Thomas Sorwell, Race and Culture, Basic Books, Harper and Collins,1994

الميلانين Melanina الذي يحمي من ضرر الأشعة فوق البنفسجية، وذلك على مدى فترة طويلة من الزمان للتأقلم مع البيئة. والمواطن السويدي الذي يندرج من سلالة تعرّضت لعشرة آلاف سنة للطقس الإفريقيّ قد يرزق بخلف بشرته سمراء.

إن الاختلافات الحقيقيّة، أي تلك التي يمكن أن تنعكس في شكل اختلافات في الأهليَّة بين مختلف أنواع الجنس البشريّ، رغم أن الخريطة الجينية هي التي تحددها جزئيًّا، تتوزّع كلية بشكل عشوائي.

ونستطيع من خلال الجينات التي تسمى بالجينات المتغيّرة أن نحدد بعض «المسافات» بين مختلف الجماعات البشريّة. لنأخذ على سبيل المثال معامل Rhesus الإيجابي أو السلبيّ، الذي يعتمد على جينة وحيدة: الإنجليز يقدمون Rh-سلبيّ بنسبة ١٦%، والباسك بنسبة ٢٥%، واليابانيون ٣٢%. يمكننا إذن القول إن الإنجليز يبتعدون عن الباسك بنسبة ٩% وعن اليابانيين بـ١٦%. إن مَا يسمى بالمسافة الجينية، وتُحتسب بعمل متوسط الفاقد بين مئات الجينات، يمكن اعتبارها معيارا جديدا لتصنيف الجماعات البشريّة، وهو معيار يفضّله العلماء بدلاً من معيار الجنس الذي تَمّ تجاوزه تمامًا.

وقد كانت هناك محاولات لاستخلاص مَا يشبه الشجرة الجينية للبشر، من خلال مقارنة حاسوبية لـ٤٢ شعبا من القارات الخمس، تعتمد على ١٢٠ خاصّية جينية مختلفة. في هذه الحالة تشير المسافة الجينية إلى الفترة الزمنية التي انقضت منذ أن بدأت الشعوب تختلف بعضها عن بعض، أي مَا يشبه «ساعة التطوُّر».

نستطيع بذلك التأكيد -وليس هذا بالقليل- على أن المؤسسة العلميّة قد أقرّت موت الجنس كمعيار للتصنيف البيولوجي.

كتب لوكا كافالي سفورتسا في كتاب مع ابنه فرانشيسكو دارس الفلسفة يقول: «نستطيع أن نقول إننا إذا أغفلنا اختلافات اللون، فإن الاختلافات بين الأجناس تكون فقط كمية وليست نوعية، بمعنى أننا لن نجد أبدًا من الناحية العمليّة نوعين من الجين الواحد مختلفين تمامًا في أجناس مختلفة. ثم إن الاختلافات داخل القارات في المتوسط أصغر أيضًا. من هذه الزاوية نجد أن الفوضى والمآسي الكبرى، ومظاهر القسوة التي تحدث في العالم بسبب الاختلافات الجنسية، إذا استخدمنا كلمات ماكبث، هي حكاية يقصها غبي، مليئة بالجعجعة والغضب الذي لاَ يعني شيئًا»[1].

---

[1] لوكا وفرانشيسكو كافللي سفورتسا ، من نحن؟، تاريخ الاختلاف البشري.

Luca e Francesco Cavalli Sforza, Chi siamo. La storia della diversità umana, Mondatori, Milano 1993.

ولا نستبعد بعد عدة أعوام أن تكون هناك اكتشافات أخرى تعيد الجدل من جديد حول النتائج التي صيغت اليوم، كما حدث اليوم بالنسبة إلى المراجعة الجذرية للنتائج التي توصّل إليها علماء القرن الماضي. هناك بالفعل الآن من يشكّك في الأطروحات سالفة الذكر، مؤكدًا أنه إذا أُخذت في الاعتبار «حزمة» من الجينات المرتبطة فيما بينها، قد نعود إلى اختلافات بين جماعات بشريّة لاَ تختلف كثيرًا عن تلك التي كانت تسمى «أجناسًا». الأمر الثابت على أي حال هو أنه في كل جماعة محدَّدة جينيًّا أو مورفولوجيًّا، أيًّا كان مُسمَّاها، يوجد تداخل واختلاط مستمرّ، لذا فإن أي جنس أو وحدة عرْقيّة لاَ يمكن أبدًا اعتبارها «خالصة»، أي فرد على سطح الأرض هو نتاج لخليط من الجذور العِرْقيّة التي يستحيل الصعود إلى رأسها.

هناك نقطة جوهرية واضحة قد تكفي وحدها للقضاء على أكثر الفرضيّات عمومية حول الجنس. إن نفس طول العمليّة التي أدَّت إلى نشأة الإنسان الحيوان وكثرة التداخلات تكفي في حدّ ذاتها للتشكيك في أي تصنيف أنثروبولوجيّ صارم. إن أكثر الاختلافات بروزًا وسط الأنماط المتعددة الموجودة اليوم للجنس البشريّ قد تبلورت تدريجيًّا بسبب مجموعة من الظروف والعوامل، ابتداءً من العوامل البيئية إلى تلك الاجتماعيّة، بما في ذلك اللغة، داخل عمليّة لعب فيها عاملا الزمن والمصادفة دورًا رئيسيًّا. إن الزنجي أو الأصفر لم يُخلقا بطريقة معينة، وليسا أقل ذكاءً أو مهارة من الأبيض، لأن الله أراد ذلك أو لأن نوحًا أو شخصًا آخر أسطوريًّا قد بارك أو لعن هذا أو ذاك من نسله، ولكن لأن كل «عائلة» من العائلات البشريّة المختلفة قد نمت لديها مهارات متنوّعة وطرق مختلفة للتأقلم مع البيئة عقب التحديات التي واجهتها في صراعها من أجل الحياة.

إن القزم في الغابة الاستوائية قد لاَ يستطيع حل اختبار ذكاء عادي، ولكننا لن نتمكن من مساواته في قراءة رسائل الطبيعة التي تحيط به، ولن نتمكن من العيش يوما واحدا وسط ظروفه البيئية. خلال رحلتي التي ذكرتها إلى غينيا الجديدة قبل أربعين عامًا، دَهشْتُ من طريقة صيد السمك الطائر في تلك المناطق؛ يستخدمون كطُعمٍ كُوَرًا من نسيج العنكبوت يجعلونها تقفز في ما يشبه الحشرة الطائرة، وكأنها طائرات ورقية تطير على مسافة معينة من المراكب، والسمك الطائر، الذي ينتمي إلى عائلة أسماك القرش، له فك سفلي قوي، يفتحه بسرعة فائقة، ولكن يجد صعوبة في فتحه مرة ثانية عندما يقع فريسة النسيج العنكبوتي. مثل هذه الطريقة في الصيد تفترض ليس فقط الذكاء، بل روح الملاحظة والمهارة التقنية. أيّ حاصل ذكاء إذن قد يحصل عليه صيّاد ميلانيزي إذا ما أُعطي لائحة أسئلة ليملأها، مع مراقبة الوقت بالكرونومتر؟

وبالطبع فإن مشكلة العلاقات بين إمكانية الوراثة والبيئة، ومدى وراثيّة الخصائص المكتسبة، ودخول شعوب بدائيّة في سياقات اجتماعية وثقافيّة جديدة، لا يمكن حلّها بهذا النوع من الاعتبارات السطحية، حتى إن كانت حسنة النية.

إن الأمر الذي يهم أكثر هو أن تحليل مثل هذه القضيّة لاَ يجب أن يتأثر بعوامل عاطفية أو سياسيّة يمكن أن تلعب دورًا خادعًا، سواء في هذا الاتجاه أو في غيره.

ويمكن أيضًا أن تكون هناك عنصريّة معكوسة، أي تحاشي مواجهة حديث بعض الجماعات الإنسانيّة غير الموائمة نسبيًّا للدخول في المرحلة الحاليّة لنمو الجماعات العالمية، خوفًا من أن يبدوِ ذلك الحديث «غير صحيح سياسيًّا» ويكتنفه الغموض. وأنا شابٌّ في لندن ذهبت ضيفًا على دبلوماسي نيجيري من نفس سني، وخلال أمسية في ملهًى ليليٍّ كنت فيه الأبيض الوحيد، قدمني لصديق له طالب في السنة الأخيرة في كلية الطب، بدا لي ظريفًا خفيف الظل، ويعطيك انطباعًا بالاستهتار أكثر من كونه محترفًا. في الصباح التالي وفي أثناء حديثي مع ضيفي وزوجته على الفطور، أتت سيرة صديقهم الظريف، وسألوني إن كنت على استعداد لاعتباره طبيبًا للعائلة. أجبت على الفور: «لن أجد أفضل منه كزميلِ كأسٍ، ولكني لاَ أتصور ولا في الحلم أن أذهب للكشف الطبي عنده!». انفجرت السيدة الشابة ضاحكة وعلّقت قائلة: «هذا بالضبط مَا كنا نتحدث عنه، ولكن واضح أنك لست عنصريًّا؛ أيُّ لندني مكانك كان سيردُّ ردًّا مخالفًا تمامًا خوفًا من إهانتنا».

علم بالمقاس

من هذا المنظور في الحقيقة، نجد أن الحديث حول الجنس يُخاطِر فيه العلم بأن يُتَّخذ كذريعة مرتين.

مرة أولى عندما يقوم الإيديولوجيّون والسياسيّون بالضغط على العلماء لتوفير معطيات بالطلب، أو أن يطوّعوها كي تتماشى مع مواقف تمييزية.

ومرة ثانية عندما يشعر الإيديولوجيّون والسياسيّون بالرعب من تبعات الاضطهاد العنصريّ، ويلجؤون إلى العلماء في اتجاه معاكس، «للمطالبة» بأدلة بالمقاس حول المساواة بين البشر.

وحتى في داخل منظمة اليونسكو، التي انغرست منذ سنواتها الأولى في مكافحة العنصرية بأفضل نيّات هذا العالم، سرعان مَا تمّ اكتشاف المكيدة التي تكمن وراء ذلك التحرُّك.

لاَ يمكن أن ننكر أن البشر لاَ يولدون جميعًا سواسية وأن البعض أقوى وأذكى من البعض الآخر. ولكننا نرى اليوم عادات بربرية لبعض المجتمعات التي تتخلّص على الفور بعد الولادة من الرعية المعوقة بدنيًّا أو نفسيًّا. لو ثبت ذات يوم بما لاَ يدعو إلى الشكّ أن بعض الاختلافات المهمة بلغت حدّ إظهار مستويات غير متساوية من القدرات العقليّة، فهل تنسحب على جماعة بأكملها؟ وهل سيتوجّب علينا القيام ببعض خدمات «الصحة الاجتماعيّة» تجاه تلك الجماعة؟

إن إعلان عام ١٩٥٢ لليونسكو حول الجنس يعكس مثل هذا القلق، مؤكدًا هذا التدقيق الأساسيّ الذي أوضحناه ونحن نتحدث عن تأكيد المبدأ السياسيّ للمساواة: «إن تكافؤ الفرص والمساواة أمام القانون كمبدأين أخلاقيَّين لاَ يعتمدان على الجزم بأن البشر متساوون بحقّ طبيعي».

كما شاهدنا، لم تتوفر حتى الآن إجابة مؤكدة على التساؤل: إلى أي مدى نما تطور البشر بشكل مختلف عن تطور الحيوانات الأخرى؟ لاَ نعلم بشكل مؤكد كم تبلغ نسبة التطوُّر الجيني فيه وكم نسبة التطوُّر الثقافيّ.

في المرحلة الحاليّة لمعارفنا لاَ يوجد أي دليل على أن الاختلافات الجينية بين مختلف العائلات البشريّة تُترجم إلى اختلافات عقليّة ملموسة ومستمرّة، حتى من خلال الوسيلة الفظة للقياس الاختباري. ونحن الآن في مرحلة أعالي البحار حتى بالنسبة إلى الذكاء نفسه. مَا الذكاء؟ كل يوم نكتسب معلومات جديدة حول وظائف المخ، الذي يبقى مع ذلك غامضًا، ونستغل إمكاناته بنسبة ضئيلة للغاية. بصفة عامّة نحن متفقون على أن الذكاء لاَ يكمن فقط في القدرات العقليّة والحسابية، ولكن يفترض أيضًا الحس والانفعال والحدس. ولكننا لن نتمكن من معرفة أهمية نسب تلك المكوِّنات.

لو أن العلم استطاع يومًا، ليس فقط الفهم الأفضل لآليات المخ، ولكن كشْف حقيقة الذكاء والمقرّ الفعلي له داخل مستعمرة الخلايا غير العادية التي تكوّن أكثر الكائنات الحية تطوُّرًا على الأرض، عندئذ فقط قد نستطيع معرفة المزيد حتى بالنسبة إلى مختلف السلوكيات النفسيّة والعقليّة لجماعات بشريّة محدَّدة تتميّز فيما بينها بخصائص جينية متنوعة. ومن يعلم؟ قد تواجهنا مفاجآت كبرى حتى بالنسبة إلى أصدقائنا الحيوانات، التي بدأنا نتساءل عن ذكائها، وهي تساؤلات كانت ستبدو غير معقولة لأي من علماء عصر ديكارت.

إن البحوث المستمرّة في التطوير بشأن الخريطة الجينية قد تؤدّي بنا ذات يوم إلى بعض الاكتشافات الباهرة، مثال أن الأفراد الذين يتقاسمون فصيلة دم معينة أو بعض التكوينات الجينية الخاصّة يكون لديهم بصفة عامّة قدرات واضحة في الحسابات الرياضيّة، أكثر من فصيلة دم أخرى، كما يمكن أن نكتشف أن بعض الجماعات لديها مقاومة مناعية أكبر من جماعات أخرى. أتذكّر أنه حتى وقت ليس ببعيد، في بعض الأنظمة التعليمية، كان العُسر يُعاملون كأنهم معوقون أو ضحايا عادات سيئة. وغالبًا مَا كانوا يُجبَرون على السلوك «الطبيعيّ»، أي على استخدام اليد اليمنى. مؤخرًا فقط اكتشف أن ذلك العيب المفترض له علاقة بفصَّي المخ وأن التدخل في هذا الأمر قد يؤدِّي إلى اضطرابات خطيرة للأعسر.

ولا ننسى أن الادّعاء بالقدرة على القياس العلميّ وبالتالي السيطرة على الصفات البدنيّة والنفسيّة للمخلوق البشريّ قد أدَّى بالفعل إلى انحرافات سياسيّة. إن علم الوراثة الذي نشأ في نهاية القرن التاسع عشر من خلال دراسات الإنجليزي فرانسيس جالتون الهادفة إلى تحسين الجنس البشريّ عن طريق التخلص من الخصائص الوراثيّة غير المرغوبة، مما أدَّى إلى مقترحات بتشريعات تنظم الزواج والميلاد، ترتكز على فحص العوامل المتعلقة بالخصائص السلوكية والبدنيّة التي يمكن توارثها من الأبوين. والأمر الأخطر تَمثّل في الموافقة على قوانين تتيح تعقيم الأفراد الذين تُعتبر عقولهم ضعيفة أو الذين لديهم نزعات إجرامية، وذلك في ٣٠ ولاية أمريكيّة، كما أثّر ذلك في إجراءات قيدية للهجرة الغرض منها حماية «السلالة الأمريكيّة النقية». وأتاح ذلك في النهاية توفير فرص الإلهام للأطباء النازيين ليمارسوا تجاربهم الخرافية لتحسين الجنس. اليوم بدأت تتبلور عودة نشأة علم الوراثة الذي يعتمد على التكنولوجيا الحيوية. ومن حين إلى آخر تظهر نتائج البحوث التجريبيّة التي تدّعي تفسير بعض الخصوصيات للسلوك الإنساني على أساس عناصر فيزيائية بحتة، كما هو الحال في «اكتشاف» أن الشذوذ الجنسي يرجع إلى انحراف عقلي ذي طبيعة جينية.

هناك مَا يكفي كي ندرك أن الحرص في معالجة كل هذه المادة ليس بكثير أبدًا وأن أقلّ مَا يجب فعله هو تعليق أي حُكم.

هل مات حقًّا التمييز العنصريّ؟

لو أن العنصريّة قد تكشّفت من حيث اعتبارها أكذوبة علميّة، فإنها لم تمت، بل أصبحت أكثر حيوية من أي وقت مضى، وذلك لأنها سلوك عقلي متكبّر تجاه الجماعات التي تتصف بخصائص بدنيّة مختلفة عن خصائصنا.

ولا يتعلق الأمر فقط بتأخّر إدراك العامّة للمتغيرات التي تحدث في النماذج العلميّة.

نحن هنا بصدد شيء أكثر عمقًا، فيه غموض، ومصيري: في الحقيقة، إن الدليل (العلميّ) على دنوّ بعض الأجناس بالنسبة إلى أجناس أخرى قد تمّ بناؤه لأنه كانت هناك رغبة من البداية للتوصل إلى نتائج معيّنة. لقد سبق أن استعرضنا قوة الشعور الشعبي في الدفاع عن هوية الجماعة. إنه شعور جارف، يمكن أن يبلغ قياسات قصوى، وبالتالي فهو لاَ يحب التدقيق والتبيُّن، بل يتبع النهج التعميمي. بالنسبة إلى المواطن اللومباردي فإن الجنوبيين كسالى وقذرون، ولا يهمه إن كان من قابلهم شخصيًّا ليسوا كذلك، أكثر مَا يهمه هو المعطيات التي تشير إلى أن الظروف الاجتماعيّة والاقتصادية للجنوب الإيطالي هي في المتوسط أسوأ من الشمال، وأن هذا الفارق لم ينكمش خلال مئتي عام من وحدة شبه الجزيرة. يكفيه التفسير السطحي، ولكنه التفسير الأوحد الذي استقاه من واقع فلسفة حياته الشخصيّة: إن رغبة وقدرة الشخص على العمل هي التي تبلور الفرق كله.

مثل هذه العقليّة منتشرة جدًّا ومتأصلة في الولايات المتحدة، حيث تغلب الفلسفة التي تقول بأن العاطل والمريض والضعيف بصفة عامّة يتحملون مسؤولية مصيرهم العَسِر فوق أرض الفُرص.

وبعد مرور مئتي عام على تأسيس الأمة الأمريكيّة ما زال البروتستانت البيض الأنجلوساكسونيون (WASP) يرون أن الأفارقة الأمريكيّين يشكّلون الشريحة الأقلّ تميّزًا بين المواطنين، وهذا دليل كافٍ على تدنيهم، بصرف النظر عن وجود أو عدم وجود سند علمي. وحتى الذين يتسمون بعقليّة منفتحة، ويتحاشون طرح القضيّة من زاوية التفوّق أو الدونية، نجدهم رغم ذلك يقتنعون أن بين البيض والسود «مسافة» ترجع إلى اختلافات موضوعيّة، وبالتالي فإن الخلط الوثيق بين المكوّنين العِرْقِيّ-الثقافيّ قد يكون في غير صالحهما.

ولقد كان ذلك هو أساس عقيدة التمييز العنصريّ في جنوب إفريقيا: لاَ تمييز ولكن «فصل» مختلف الجماعات العِرْقِيّة، من أجل الصالح العام.

كلمة «Apartheid» في لغة الأفريكانز (لغة البويريين «رعاة البقر» الهولنديين أول من استعمر الطرف الجنوبي للقارة الإفريقيّة)، تعني بالفعل «الفصل»، وأيًّا كان تفسيرها، فهي دائمًا تعارض التماثل أو الاندماج، ولكنها كلمة تريد أن ترتدي ثوبًا من الحكمة والواقعيّة الإنسانيّة.

هذه الكلمة رسمت لسنين طويلة، وحتى وقت ليس ببعيد، سياسة حكومة بريتوريا، التي تمثلت في النموذج الأوحد في التاريخ لحكومة لم تقتصر على إصدار التشريعات

العنصرية التي تستهدف تمييز «جنس» معين، ولكن جعلت من العنصرية الأساس المحوري للسياسة الدستورية في البلاد، مثل ما حدث في النازية والفاشية(٢).

لقد قام الهيكل الحكومي بأكمله في جنوب إفريقيا على مفهوم جديد للصفوة يتمحور حول الجنس (أي العلاقة المباشرة بين لون البشرة وإمكانيّة الدخول إلى السلطة السياسيّة والاقتصادية والاجتماعيّة)، ولكنه مفهوم يتنكر تحت غطاء حماية الهويات العِرْقيّة المختلفة، من أجل المصلحة العامّة.

وخلافًا لنظام الصفوة لدى الهندوس، الذي لاَ يدّعي أية مبرّرات عنصريّة ولكن تمتد جذوره فقط إلى معتقدات قديمة، نجد أن سياسة التمييز العنصريّ قد بحثت منذ البداية عن سلسلة من الحُجج الأخلاقيّة التي تتسم بالإقناع على الصعيد العقلاني والفطرة السليمة. إن تجربة جنوب إفريقيا، حتى إن كانت الآن تنتمي إلى الماضي، تبقى رغم ذلك نموذجًا تاريخيًّا يكشف بوضوح المفهوم الأساسيّ الذي مَا زال يُتخذ كتبرير من جانب العنصريّين اليوم في مختلف الدول دعما لمطالبهم السياسيّة التمييزية[١].

هذا التوجُّه لم يتغير ويمكن التعبير عنه من خلال القياس التالي:

ا) البشر جميعًا ليسوا متساوين، لا على المستوى الفرديّ، ولا على المستوى الجماعي.

ب) بعض الجماعات اكتسبت مع مرور الزمن مهارات في التنمية تفوق الجماعات الأخرى.

ج) وعليه، فإن حليط الجماعات ذات القدرات غير المتساوية قد يُخفّض المستوى العام للأداء.

بعد القياس تأتي النتيجة الطبيعيّة: من العدل، على العكس، أن تتولى الجماعة التي أثبتت قدرات أكبر، دور القيادة بالنسبة إلى الجماعات الأخرى.

تلك التبعية المنطقيّة –التي تخلو من أي شائبة وصبغت بالعقلانيّة كل الإنجازات الاستعماريّة– سادت مجال التعليم بين مختلف أجيال الشباب الأبيض في جنوب إفريفيا، الذين استوعبوها بكل حسن نية، كما لمست ذلك بنفسي خلال لقاءاتي. بعد مرور نحو خمسين عامًا، ظل مطبوعًا في ذاكرتي حديث صحفي أجراه الصحفي والكاتب الأمريكيّ جون جونتر، الذي كان يشتهر في ذلك الوقت بمقالاته حول رحلاته في دول مختلفة.

---

[١]انظر ج. ن. براون: التمييز العنصري : دليل المعلم G. N. Brown, Apartheid : A Teacher's Guide, UNESCO Press, 1987

كان مُحدثه قد أطال الحديث وأسهب في موضوعات كي يقنعه بضرورة الإبقاء، وبكل ثمن، على نظام عزل السود، ومنعهم من الاندماج مع البيض. واختتم يقول «وإلا لأصبحنا دولة من الهجين، مثل البرازيل». وأتذكر أيضًا تعليق جونتر الساذج، الذي لا شكّ أنه أدهش مُحدّثه: «وما الضرر من أن تكونوا مثل البرازيل؟» (هنا تجدر الإشارة إلى أن البرازيل يُنظر إليها على أنها نموذج المجتمع المتعدد الأجناس، ولكنها في حقيقة الأمر لاَ تخلو من المشكلات العنصريّة، حتى وإن كانت لاَ تُقارن بقضايا المنطقة الأنجلوساكسونية).

إن سياسة التمييز العنصريّ التي تدعّمت بفضل الهندسة الدستورية، بدأت تتخذ طابع الإيديولوجية الحقيقيّة، التي ترتكز على مفهوم «التنمية المنفصلة». «منفصلون ولكن سواسية» هو الشعار الذي أتاح تحوّل الاختلافات العرْقيّة داخل دولة جنوب إفريقيا إلى حواجز، الأمر الذي أدَّى إلى خلق قطاعات مغلقة لاَ يمكن أن تتواصل في ما بينها.

وفي الحقيقة، كان المبدأ الذي يكمن وراء البناء كله يتمثّل دائمًا في تفوّق البيض، وهو مَا يُطلق عليه بلغة الأفريكانز «baaskap». وبنفس هذا الاسم تَمّ تأسيس حركة على يد جواهنس ستريجدوم، الذي أعلن بحروف واضحة ودون نفاق: «إما أن يحكم الرجل الأبيض، وإما أن يتولّى الزنجي زمام السلطة. الوسيلة الوحيدة لاستمرار تفوّق الأوربيّين هو حرمان غير الأوربيّين من التصويت».

ولكن كل زعماء السياسة الآخرين اجتهدوا من أجل تخفيف الوقع وتغليف الأساس العنصريّ، وذلك باستبدال الدفاع عن هوية الجماعة به. سياسة «الفصل» داخل حكومة جنوب إفريقيا الفيدرالية كانت تحرص دائمًا على أن تبدو كـ«مسألة بقاء» لا قضيّة عنصريّة. كان هذا هو الموضوع الرئيسيّ لرئيس الوزراء مالان، بطل سياسة التمييز العنصريّ فترة مَا بعد الحرب الثانية. كانت جنوب إفريقيا تُوصَف بأنها دولة متعددة الأجناس والأعراق والثقافات، تتكون من جماعات مختلفة، كل منها حرة في سياستها التنموية، وتسلك طرقها الخاصّة، وكلها تحظى بالجدارة والاهتمام: جماعة الزولو، والبانتو، والخازا، والتوانا، «ملوّن»، «أوربيّ» (هكذا كانت تُسمّى جماعة «البيض» لتحاشي أية دلالة عنصريّة).

وأي اندماج بين هذه الكيانات العِرْقيّة كان يُعَدُّ غير ضروريّ ويتعارض مع مصالح كل جماعة.

وهكذا تبقى جنوب إفريقيا نموذجًا صارخًا لمدى سلبية الاحترام الساخط للاختلاف، وكيف يمكن أن يصبح خرقًا لحقوق الإنسان.

قد يكون هذا المثال كافيا بمفرده لتفسير سبب استمرار بقاء العنصرية رغم كل البراهين حول هشاشة سندها العلميّ.

لأن الأسس العلميّة في الحقيقة –وأكرر ذلك– كانت دائمًا مجرد حجج. بالإضافة إلى الإقصاء اللاهوتي والثقافيّ، أرادوا استبدال أو إضافة الإقصاء البيولوجي، الذي استخدم بشكل منتظم من جانب النبلاء الإسبان ضدّ اليهود المهتدين الذين اكتسبوا حقوقًا متساوية مع حقوقهم، ومن جانب الفاتحين الإسبان تجاه الصفوة المحلية التي كان من الممكن أن تعارض مطامعهم فوق الأراضي الأمريكيّة، ومن جانب النازيين، وأخيرًا من جانب المعاصرين من رجال الأعمال، والأطباء، والمحامين الذين يدافعون عن منافسيهم من الملوّنين، الذين يأتون «من الخارج».

ويظلّ الدافع هو نفسه دائمًا، قويًّا، لا رجعة فيه: التحصُّن ضدّ الآخر الذي يهدِّد مواقفنا.

أي ضمان أمان أكبر من دونيَّة بلا استئناف؟

وأي حكم بالخضوع يمكن أن يبلغ هذه الدرجة من الحتميَّة، مثل تلك المحفورة في بنائنا البدنيّ وفي موروثنا الجينيّ؟

وكما قيل في ملاحظة مرهفة، فإن كلا منا يحمل، بنسبة عالية أو منخفضة، جرعة من Apartheid محفورة في نفسه.

وتبقى في الأعماق دائمًا تلك الحجة الواهية للأفريكانز، أن الفصل فيه مصلحة متبادَلة، ويُعد أيضًا منفعة للمهمَّشين الذين يرون أن «هذا أفضل». منذ عدة سنوات تعرّفت على طالبة من مقاطعة بييمونتي كانت قد عاشت فترة في جوهانسبرج بنظام التبادل لدى عائلة محلية بيضاء. حكت لي أنه عندما كانت تذهب للتسوّق، كانوا يعطونها تعليمات بشراء نفس اللحم الذي تشتريه للكلب لكي يعطوه للخدم الزنوج. سألتها ما إذا كانت قد أبدت نوعًا من الاعتراض على مضيفيها، فأجابتني دون تردد: «لاَ، أبدًا، ماذا تعتقد؟ إن السود يعجبهم جدًّا ذلك اللحم».

وأيضًا قناعتنا بالتفوّق التامِّ للنموذج الغربيِّ وبإمكانيَّة تطبيقه في كل مكان، بما يضمه من تسلسل هرمي للجماعات البشريّة على أساس «نجاحها» والرقي بالاختلافات إلى شيء من «التفوُّق»، يمكن أن يحمل هذا التوجّه جرثومة التفكير العنصريّ.

من هذا المنطلق فإن العنصريّة لن تموت أبدًا، وهي تجسيد حديث للتعصُّب، وهي في الأساس ظاهرة «طبيعيّة»، ومقاومة العنصريّة هي الإنجاز الاستثنائي المُتعَب والهَش للإنسان المتحضّر.

أي التهديدات التمييزية الأخرى يمكن أن تقدمها لنا البحوث الميكروبيولوجيّة، عندما سيتم رسم خرائط وتصنيفات أكثر تفصيلاً للحالة البدنيّة والعقليّة للمتفوّقين من جهة، وللمعوّقين من جهة أخرى؟ وتقنيات الهندسة الجينية التي يتمّ تطويرها لأفضل النيَّات من أجل القضاء على الأمراض المستعصية، هل ستحيي من جديد في مستقبل ليس ببعيد محاولات الاصطفاء المصطنعة، من أجل خلق نماذج بشريّة دائمًا أجمل، ودائما متساوية الكمال؟ ولا يُستبعد أن تظهر مرة أخرى عاهات قديمة وجديدة من أجل خلق فواصل وحواجز على حساب أفراد وجماعات، باسم «كفاءة» المجتمعات دائمة التنافس.

ولكن -كما أكّد ليفي شتراوس- «العاهة الوحيدة التي يمكن أن تصيب جماعة بشريّة وتمنعها من تحقيق طبيعتها بشكل كامل، هي أن تكون وحيدة».



الخاتمة

«إن الأشرار قد فهموا بالتأكيد شيئًا يجهله الطيبون».

وودي آلن

كان الهدف الرئيسيّ للمؤتمر الدولي حول التعددية الثقافيّة، الذي تَمّ تنظيمه في نيويورك بناء على مبادرة الأمين العام للأمم المتحدة وبدعم ثلاثة من أعضاء مجلس الأمن، هو تسليط الأضواء على الدور الذي لاَ بديل له، والمنوط بالأمم المتحدة في موضوع مواجهة الحضارات الحساس وتنافسها، وكان النجاح واضحًا في هذا الاتجاه، فقد كانت المشاركة على مستوى رفيع لممثلى ١٩١ دولة، بمثابة إشارة واضحة من جانب المجتمع الدولي إلى الحرص على مكانة وقدر المنظمة الدولية، ودعم دورها، وقد أولت وسائل الإعلام اهتمامًا كبيرا لحضور بابا الفاتيكان، جنبًا إلى جنب مع رؤساء نحو ثمانين دولة. وقد كان لوجود رئيس الاتحاد الأوربيّ إلى جوار وزير الخارجية الأمريكي صدى كبير، على الرغم من أن كل دولة عضو استمرت في إرسال وفدها الخاصّ بها.

وقد فتح كذلك إقرارُ تدشين برامج تليفزيونية تهدف إلى التربية على التسامُح، البابَ إلى قدر من التفاؤل.

أما على المستوى السياسيّ، فقد كان حتميًّا أن يحدث كما حدث في مؤتمرات الحفاظ على البيئة (التوازن البيئي)، وهو وجود معسكرين أحد ما يؤيد العولمة، والثاني ضدها.

أما الموقف الصارخ فقد كان من جانب رئيس الولايات المتحدة الأمريكيّة، الذي – وبعد مديح فاتر «للتراث القيِّم» الذي يتكون من كل ثقافات الأرض– خصَّص خطابه بكاملة لسرد مبالغ فيه لمميزات عالم العولمة، واصفًا بجلافة «مُعارِضي العولمة» no global بأنهم أعداء التقدُّم الاقتصاديّ، بل والسياسيّ والحضاريّ.

وقد كان حتمًا كذلك ألا يجد المشاركون في هذه المناسبة الكبيرة مفرًّا من إغراءات حب الوطن المفرط، والزهو والعجب كذلك.

وقد قامت مداخلات كثيرة لصالح التعددية، والحوار، والتعاون بين الثقافات، أتاحت الفرصة للاستعراض بالثقافة، والظهور من خلال الأصالة، وحكمة الاستشهادات.

وقد دعا الرئيس الألماني بقوة مستشهدا بكانت إلى «تصالح حرية كل فرد مع حرية الاخرين»، ودعا بعد ذلك إلى ما أسماه جادامر Gadamer «امتزاج الافاق»، وهي عمليّة تلاقح مشترك بين الثقافات، حتى لا تنغلق على ذاتها، ولكن لتدفعها إلى الأمام، وتوجهها نحو تحقيق عمقها الإنساني. واختتم بعبارة لجوته: «لا تسألوه إن كان يستمع إليكم إذا ما كان يتفق معكم تمامًا، ولكن سلوه إذا مَا كان يسير معكم في ذات الاتجاه».

أما الرئيس الإيطالي في تعميقه لموضوع الأنا –وكذلك أيضًا الأنا الجماعيّة– فقد أبرز أنهما يمكن أن يصيرا نفس الشيء تمامًا فقط عندما يصبحان مساويين لـ«أنت»، وأن هوية أي شخص، أو أي مجموعة، لاَ تكون إلا إذا تلاقت ولو بصورة جزئية مع هوية الآخرين، واستشهد بكلام الشاعر دانته: «لاَ تتوقع أن أطلب منك، إذا مَا علمت أنك عدو لي».

أما الرئيس الروسي فقد فاجأ الجميع بأن ركز موضوعه الرئيسي على ضرورة تخليص إشكالية تفاعل الثقافات من إيديولوجية الدم والأرض، واسترجع صورة لبرودسكى، وهى صورة الرجل الذي يشبه «شجرة مقلوبة جذورها إلى أعلى، وليست مدفونة في ظلمات الأرض، ومن ثم فجذورها في الهواء، وفي السماء المفتوحة، وفي الرياح، وفي الضوء، بين الوجوه البشريّة.

أما البابا، رأس الكنيسة الكاثوليكية، فقد جذب الأضواء من جديد بقوله: العودة إلى الله هي أيضًا ردّ فعل على أزمة القيم وعلى «روح الأنانية» التي تسيطير على واقعنا التاريخي الحالي.

وكم كان واضحًا تحذيره من «دكتاتورية التقنية» التي حولت الإنسان إلى آلة بسيطة في يد اللا إحساس، إلى جانب العلمانيّة التي تفرض نفسها بطريقة اصطناعية (مصطنعة) بالتركيز على طموحات إعجازية، ولكنها تثبت دائمًا عجزها عن حل المشكلات الحرجة كالعدالة الاجتماعيّة، والاحترام المبدئي لحق الحياة. وكم كان معبرًا نداؤه للمؤمنين، وغير المؤمنين، ولأصحاب التراث العلماني والدينيّ على السواء، أن يضعوا أرضية مشتركة يؤسسون عليها التعايش، وينأون بها عن أي موقف عدائي.

أما تصريحات الرئيس الفرنسى فقد كانت فلسفية، أكثر منها سياسيّة، وقد تَمّ تفسيرها على أنها ردّ جدلي على الموقف الأمريكيّ.

فقد أكد ممثل وطن الفكر الحر أن «اللا تسامح لاَ يمثل عدوًّا خارجيًّا» أو شيئًا غريبًا على حضارتنا، أو نوعًا من المرض المنعزل الذي يمسُّنا نحن الذين نجلس على درجات

التقدُم الاقتصاديّ والحضاريّ العالية، وبوسعنا أن نجتثّه من عالمنا، كما حدث مع الاستبداد والعبوديّة.

إن اللا تسامح، للأسف، مثله مثل العنف المرتبط به بقوة، مَا زال يمثل أيضًا جزءًا من النسيج الخاصّ بمجتمعاتنا المتقدمة، بل وبصورة تفوق الأماكن الفقيرة من العالم.

ولكي نستطيع إيجاد ثقافة احترام على مستوى العالم، يجب أن نعوّل على تغيير في الرؤى، فالعلاج الناجع ضدّ اللا تسامح، والتعصب، لن يكون بوصف هذه الدولة أو تلك بالشيطان، ولا هذه المجموعة أو تلك، ولا هذا المعتقد، أو ذاك، ولا هذا السلوك أو ذاك، ولكن بالقضاء على القناعات المطلقة التي تمثل الأساس بالنسبة إليها. ولكن لكي يتم ذلك، لاَ يجب علينا بدورنا أن نرتكز على مواقف مطلقة.

أما رؤساء وفود البلاد الصغيرة فلم يحظوا، كما هو معتاد، باهتمام وسائل الإعلام، باستثناء خطاب الرئيس الأوغندي، وهو واحدة من الكلمات التي واجهت مباشرة ودون محسّنات لفظية الموضوعَ الأساسي للمؤتمر، وقد خصصت نشرات الأخبار الرئيسيّة في المساء، وكذلك بعض كبريات الصحف، مساحات واسعة لكلمته، ولكن ليس من الواضح إذا مَا كان ذلك يرجع إلى أن البعض أدركوا أن رئيس أوغندا كان يقول شيئًا ذا بال، أم أنه بالأحرى يرجع إلى أن الخطيب البارع كان خطابه متنوعًا كألوان الطيف، وكان يتحدث حديث الحكيم المخضرم.

فقد قال رئيس الدولة الإفريقيّة -من ضمن ما قال-: «بعض المفاهيم الأساسيّة التي أثبتت نفسها بتضحيات كثيرة فيما يسمى بالغرب، أصبحت بالفعل سائدة ومنتشرة في كل مكان. ويقدّر ذلك بكل موضوعيّة من وُلد، وترعرع بين حضارة مختلفة مثلي، فالديمقراطيّة تحرر الضمير، وحقوق الإنسان كلها عالمية، ونحن في ذلك مدينون للغرب». وواصل حديثه بعد هدوء موجة التصفيق قائلاً: «ولكن ليست سائدة في العالم فكرة أن أول جذور اللا تسامح والعنف هو اليقين المُطلَق».

ومع ذلك يرى كثير من فرسان الفكر الحر، أنه من العبث أن نستوعب احتمال مواجهة في موقف مَا، ليس بين الصواب والخطأ، ولكن بين أمرين كلاهما صواب. فلا يوجد واحد منا، والغربيّون أقلّ من الجميع، يفعل الكثير لتعميق هذه النقطة الحرجة مع أولادنا، التي يجب أن تنطلق منها كل تربية على الليبراليّة والديمقراطيّة، فقد كنت طبيبًا نفسيًّا، قبل أن أشتغل بالسياسة، وكنت أظن أن كل إنسان يجب أن يبذل جهدًا مخلصًا ليتحرر للتخلص من أشباحه الداخلية، كي يشعر بالحرية، وعلى رأس هذه الأشباح كل الأحكام المسبقة، والشروط الإيديولوجية، وهو أمر ليس باليسير، ومن ثم فإن هذا الجهد يجب أن يبدأ منذ الطفولة. وقد أثّر فِيّ كثيرًا مَا كتبه زميلي الأمريكيّ بول واتسلاويك:

«في عالم كل شيء فيه سماوي، لا يستطيع أحد أن يبدل ألوانا. ولكي نفهم كذلك فقدنا مفهوم اللون، يجب أن نترك هذا العالم كله سماوي اللون (أزوري)».

ويؤكد بول بقوله: «يجب أن نختار بين أمرين: إما أن ننسب إلى واقعنا الأصلي قيمة عالمية، ومن ثم نرفض كل شيء أجنبي باعتباره غبيًا، ومعاديًا وغير صحيح، ومضحكا، وإما أن نستوعب أن واقعنا واحد من جملة حقائق ممكنة، وأنه لا يمكن أن يكون أكثر حقيقة من غيره».

❖

وكان الأمين العامّ باديش عشاريا قد تابع كل التصريحات والمواقف دون أن تفلت منه كلمة، محاولاً أن يقرأ ما بين السطور كي ينتقي بعض المضامين البارزة من بعض الجمل والعبارات، ويعرف توجُّهات المتحدثين العميقة. وقد كان المؤتمر يمثل تتويجًا لقرابة عامين من الإعداد، والنشاط الدبلوماسي خلف الكواليس. فعلى مدى أيام الاجتماعات الثلاثة لم يفتر أو يتخلف عن حضور اللجان، ومجموعات العمل، ومتابعة المعاونين في لحظات التصويت الحاسمة، وقد قام بنفسه بسلسلة الاتصالات السرية المؤثرة على هامش المؤتمر.

وقد فضل في كلمة الترحيب التي ألقاها أن يعطي خطوطًا عريضة، ويترك لبعض الساسة الكبار القريبين منه التعبير عن المفاهيم الأكثر تأثيرًا والتي هي موضع خلاف. أما فيما يخص مشاريع القرارات التي تمّ تقديمها للموافقة عليها بالإجماع، فقد كان من المنطقي أن يشرحها أمين عام اليونسكو. وفي ختام المؤتمر، لم يستطيع تجنُّب الظهور أمام الإعلام ليثير الانتباه إلى أهداف ومحتوى البرامج التي أفرزها اجتماع كبار كوكبنا، بعد أن تمّ إبراز مشكلة تلوُّث المجال الجوي الروحي. أم أنه كان يترك نفسه ينساق وراء ميوله البوذية؟

قطع عليه ملحَقه الصحفي أفكاره ليخبره أن المركز الصحفي قد امتلأ وفي انتظار وصوله. كان عشاريا يحس أنه على راحته أكثر في الجو غير الرسمي وسط الصحفيين عنه في جو الدبلوماسيين الخافت. كان يحلو له أن يسمى هذه اللقاءات بـ«الحوارات» (دردشة)، لا المؤتمرات الصحفية، وعلى الرغم من أن هذه المناسبة كانت أكثر التزامات من غيرها، فإن عشاريا لم يرد أن يتخلى عن نبرته المعتادة في اللياقة والألفة. فقد بدأ حديثه، ودون مقدمات، بملخص للمبادرات التي تمّ تدشينها.

«... أتمنى أن تكون الأعمال والأرقام كافية لإظهار كيف أنه -على الرغم من الأحداث المريرة الأخيرة التي أدَّت إلى انعدام مصداقيّة المنظمة الدولية، نعم، أنتم تعرفونني، لا يمكن أن أقلل من أثرها، إلا أن الأمم المتحدة التي أشرف بقيادتها، ما زالت تحتفظ بفاعليتها، وقدرتها على التدخل...».

كان يتحدث بلغة إنجليزية متقنة، مرتجلاً بصوت هادئ وعميق، دون ذلك التنغيم الذي يميز حديث قومه والذي لا يستطيع حتى الهندي المثقف أن يتخلص منه تمامًا.

ولقد كان مظهره الرشيق والأنيق ووجهه النحيل الذي يميز المثقفين يثيران الاحترام، ويلفتان الانتباه. ولقد كان الصمت مطبقًا على القاعة التي كانت تغصّ بمراسلين من كل من أنحاء العالم، وبمصورين وفنيين بالتليفزيون:

«أود أن أخصّص جزءًا من كلامي عن البرنامج التربوي للتليفزيون، الذي تَطلّب الإعداد له مَا يزيد على عام من العمل. وأنتم تعلمون بما يتعلق، وكثيرون منكم كتبوا عنه دائمًا بطريقة غير مرضية ». وتوقف هنيهة بابتسامة أضفت على وجهه جاذبية لا تقاوم: «أغتنم هذه الفرصة لأشكر ثانية الخبراء والمخرجين والفنيين والممثلين، الذين أسهموا فيه. ويؤسفني أنهم كثيرون ولا أستطيع ذكر أسمائهم واحدًا واحدًا. أشكر كذلك العاملين في اليونسكو، الذين أثبتوا أنهم على مستوى مسؤولية التكليف بتنظيم المادة العلميّة، وبتنسيق الأعمال. ويسعدني الآن تلقي آرائكم، واقتراحاتكم وردود أفعالكم، إذ يفيدني كثيرًا كما تقولون هنا في أمريكا «التغذية المرتجعة» (Feedback). هل يمكن أن يفيد جهدنا في تحقيق شيء؟ وهل تستحق عمليّة كهذه أن نرصد لها وقتًا طويلاً وأموالاً طائلة؟».

ثم توقف من جديد عن الكلام، وألقى نظرة سريعة على الحضور الكثيف، فقد علمته خبرته كأستاذ ومحاضر أن يقيس الصمت بحكمة، ليعطى للمستمعين الوقت لاستيعاب المفاهيم، ولأخذ الملاحظات.

هل آن الأوان لنذكر كم هو حجم المعلومات والصور التي تثقل كاهلنا يوميًّا، والتي يتمُّ تخصيصها للعنف؟ لا يكفى فقط تلك الحقيقة، التي للأسف تغص بها أخبار الحوادث، بل هناك أيضًا المفبركة بحرفية وبإخراج فني، فلا يوجد تقريبًا أي فيلم، بما في ذلك الرسوم المتحركة، لا يقدم لنا مشاهد إطلاق نار، وصراعات، وتعذيب، وانفجارات، يتمُّ عرضها كوسيلة وحيدة لمحاربة الشر ولانتصار العدالة.

وقد تعلمنا أخيرًا أن قدرة الأطفال على التفكير يتم قياسها بممارستهم المستمرّة لألعاب الفيديو. ولكن مَا الثمن؟ ويتعجل الخبراء في القول بأن التحسن في التفكير وردّ

الفعل يتحقق فقط، بشرط ألا تكمن المهارة في حل سؤال ما، أو بناء الأشكال المعقدة، ولكن في تدمير أكبر عدد من الأعداء في أقل وقت ممكن.

ولقد فكرت مرات كثيرة كيف أنه في الأدب، وفي الأشكال الجديدة التي حلّت محلّه، لا يبدو الكره، والشر مفرطين ومبالغًا فيهما، وأنه كلّما كانت هناك مبالغة في صورة الكره والشر، ازدادت جاذبيتهما. فالأخيار يحاولون جهدهم أن يكون لهم مصداقيّة. وإذا أردنا أن نظهرهم بشكل أكثر جاذبية، يلزم إضفاء قدر من الشقاوة على صورتهم، ومما يؤسف ولكنه الواقع، أن الطيبين يُضطرُّون إلى الاعتذار لأنهم كذلك، فشخص مسالم ليست كلمة صحيحة من الناحية السياسيّة، ولها مدلولات سيئة دائمًا. أليست هذه أيضًا هي مشكلة الأمم المتحدة، التي ساءت سمعتها لأنها تتردد في استخدام القوّة؟

ولكن ماذا يعنى ذلك؟ هل يعنى أن نستسلم دون شرط للأساطير وآراء الأخيار؟

وتوقف عشاريا عن الكلام مرة أخرى، وسكب قدرًا من الماء من الإبريق الموجود على الحامل الخشبي العملاق، ولاحظ بين مستمعي الصفوف الأولى القريبة بعض الشيء من المنصة، بعض الوجوه المألوفة وقد استغلّ البعض هذه الوقفة السريعة لإلقاء نظرة على ملاحظاته، أو لضبط أجهزة التسجيل، فالحضور كانوا منتبهين للغاية حتى لا تفلت منهم كلمة، فلا تكاد تسمع إلا كحة أو كحتين، وتحريكا بسيطا لبعض المقاعد. وهذه المرة لم تكن هي الوقفة المعتادة المحسوبة بدقة، ولكنها كانت بسبب تردُّد بسيط.

«نهدف من خلال برنامجنا التربوي إلى إظهار أن التسامُح ظاهرة قديمة وعالمية، ومرتبطة بالتقدُّم البشريّ على طريق الحضارة. ومنذ عصر الأنبياء الأقدمين وحتى خطباء التلفاز الحاليين، يمثل اليقين المُطلَق أخطر محرِّض على العنف، ويتعلق باليقين في الله، وفي الأمة، وفي العنصر، بل حتى اليقين في نموذج التنمية الخاصّ. وبالتأكيد ليس كل صور اللاتسامح سواء، ولا تثير نفس العواقب والنتائج، فموقف قضاة روما الإمبراطورية تجاه من كانوا يرفضون التضحية من أجل الإمبراطور، لا يمكن مقارنته بموقف قضاة محاكم التفتيش. وحرب الإبادة التي قامت بها ألمانيا النازية ضدّ اليهود ليس لها مثيل في عمليات الإبادة التي تمّ ارتكابها.

بيد أنه من المهم أن نكشف النقاب عما هو مختف -أي التصديق المطلق الذي يعد القاسم المشترك بين كل هذه المواقف والأحداث- وأن نسرد أوجه الشبه، وأوجه الخلاف، والظروف التي تؤدّي إلى تخفيف أو زيادة حدة هذه المواقف، حيث يجب تقنين ردود أفعالنا تجاه مواقف حالية، بعضها يخلق صورًا معلومة من الماضي.

نحن المعتدلين لدينا مسؤوليات جسيمة، فعلى الرغم من كل شيء مازلنا نمثل السواد الأعظم من البشريّة. ومنوط بنا -وهذا هو أهمُّ معلّم لتسامحنا- أن نكون بمثابة الفلتر الذي تمر من خلاله الأحكام التعميمية. ويجب أن نساعد كل الذين تَمّ تضليلهم وغوايتهم وتخديرهم من جانب السَّحرة والساسة، وأرادوا أن يتحولوا إلى التروِّي والتفكير قبل الإدانة، وأن يراعوا الفروق الطفيفة، ألا يروا دائمًا الأمور فقط أبيض وأسود، وأدرك أنني الآن أقوم بدور الواعظ الخطيب، فقد أطلت عليكم كثيرًا في ثورة انفعالي بالحديث، وأعتذر للإطالة.

وأود أن أختم حديثي -قبل أن أعطيكم الكلمة- بموضوع أهمية وفائدة التربية الدائمة على التسامُح من عدمه.

إن المتعنت الذي يظل يرفض بحزم بعد أن يفكّر مليًّا ويزن الآراء المؤيدة، والآراء المعارضة، يختلف جدًّا عن اللا متسامح الذي يعتقد أنه على الحقّ لدرجة أنه لاَ يحتاج إلى الحديث مع الخصم ويحقّر كذلك من شأن آراء وتصرفات الآخر، التي لاَ تستحق في نظره عناء المعرفة بها، بل من يريد أن يعرف يثير فيه الشكّ والريبة. لقد أثار اختراع الطباعة قلق الأوساط الكَنَسيَّة، ومن ثم تحديد قائمة الكتب «المحظورة»، ولا يزال الحارديم اليهود كالوهابيين بالسعودية، يعتبرون التلفاز أداة شيطانية.

من أجل ذلك فقد يتعين علينا أن نعمل العكس تمامًا، أن نجعل من التلفاز، ومن وسائل الإعلام الحديثة المتاحة لنا، سلاحًا خارقا ضد اللا تسامح.

أعترف بحقٍّ أن الدقائق القليلة المتاحة للإعلانات التليفزيونية «المناهضة للعنف» ليست المأمول، ولكن أول الغيث قطرة، وهي بضعِ قطرات من ترياقٍ في بحر من السموم، ولكنها صرخة احتجاج لمن لاَ يسكن للتعنت الذي صار سلوكًا. إنها أعشاب طبية أُلقيت في أرض ملعونة، يمكن أن يتم استصلاحها يومًا مَا. إن البذرة الأكثر خصوبة تكمن في فكرة بسيطة تبدو صعبة الاستيعاب: الفكرة هي أنه لكي نتحاور، يجب أن يكون لدينا أشياء كثيرة مشتركة. ويمكن أن نتواصل حتى عندما لاَ يكون هناك اتفاق، ولا يجب أن يعني دائمًا عدم الاتفاق الصراع».

توقف مرة أخرى للحظة، ثم استأنف حديثه بصوت أكثر هدوءًا: «من الخيال ربما أن نظن أن الناس مختلفي العرْقيّات والأجناس والديانات الذين يسكنون الأرض، يمكن أن يصلوا في وقت قريب إلى استيعاب الاختلافات فيما بينهم، دون أحكام مسبقة، ودون بغض، بل ويعتبرونه إثراء. يمكن على الأقل أن نتطلع إلى الهدف الأدنى للتسامُح وهو في متناولنا، ويمكن في رسالة بسيطة، لكنها مهدئة. من الممكن ألا نريد، وألا نستطيع اقتسام شيء مع الآخر، ولكن دون أن نريد تدميره. وأقصد بـ«تدميره» -وهنا يلزم قدر

من الشجاعة والتواضع ليس فقط التدمير البدني، ولكن أيضا الإقرار بأن الآخر ند ونظير لنا».

وصمت الأمين العام، وتلا ذلك تصفيق معتدل، خصوصًا من المكان المخصّص للموظفين بالمنظمة، وللمثلين الدائمين. ارتفعت أيادٍ كثيرة تطلب الكلمة، وسرى بين جمهور الحاضرين الضوضاء المعتادة والاختلاط.

فقط أحد رجال الأمن الكثيرين أدرك في تلك اللحظة من الهرج، أن أحد الصحفيين بالصف الثاني، وهو شاب نحيف، يبدو شعره شيئًا غريبًا، كان يمسك أنبوبًا خشبيًّا قصيرًا، كان على ما يبدو يصوبه نحو الأمين العام! لاَ يمكن أن يكون تلسكوبًا... أي شيء هو إذن؟ ظن رجل الأمن أن من غير الملائم التحذير ودقّ جرس الإنذار، ولم يُضعْ وقتًا، وانطلق في هذا الاتجاه، إلا أنه كان متأخرًا جدًّا. فقد وضع هذا الصحفي ذو الشعر المائل إلى الحمرة الأنبوب بين شفتيه، وسُمع صوت صفير خافت، سقط ياديش عشاريا على الحامل دون أن يصدر عنه مجرد أنين.

كانت ذراعه اليمنى تتدلى فوق شعار الأمم المتحدة.

وعلى الرغم من تدخل الطاقم الطبي الفوري في المكان، لم يكُن بوسعهم فعل شيء، فقد لفظ عشاريا أنفاسه الأخيرة على متن سيارة الإسعاف المتجهة إلى المستشفى بعد لحظات احتضار تثير الشفقة. طاف الخبر أرجاء المعمورة، وكان حديث وسائل الإعلام لعدة أيام، وكانت تعبيرات الألم والحزن تجل على الحصر.

وداخل أروقة المنظمة كان هناك من تنفس الصعداء، هذا البروفسور الهندي كان قد أصبح غير مريح بالمرة، مَن كان يظن نفسه؟ غاندي الثاني؟ تَمّ تحقيق الشرطة وفق نماذج أصبحت مألوفة من خلال مئات الأفلام التي تحتوى على المؤامرات ومحاولات الاغتيال الفنية بالتفصيل، لدرجة أنه صار من الصعب القول إن السينما هي النسخة من الواقع، أم أن الواقع هو الذي يعد نسخة من السينما؟

وقد أشار أول تسريبات وكالات الأنباء إلى أن القاتل لم يُبدِ أي مقاومة عند القبض عليه. كان من فنزويلا، وحصل على الجنسية الأمريكيّة، واسمه خوستو أولافاريا، عمره أربعة وثلاثون عامًا، وكان يعمل لصالح صحف يوميّة بأمريكا اللاتينية، وكان معتمَدًا لدى سكرتير عام الأمم المتحدة كمراسل من الخارج، كان أعزب، وليس عليه أحكام، وليس لديه أقارب، وكان يعيش حياة هادئة بشقة صغيرة بضواحي مدينة ترنتون Trenton، ولم يلفت قط انتباه جيرانه، وكان مجهولاً لدى زملائه.

وقد وصف نفسه بأنه «مؤمن نقي»، ولا يبدو أنه كان من أنصار بعض الجماعات الدّينيّة، أو عضوا في كنيسة أو جمعية. وكان قد استخدم سلاحًا غريبا، وخفيفا، ولا يلفت الأنظار، ليتحايل على التفتيش المغناطيسي، فكان سلاحه كله من الخشب، وكان من السهل إخفاؤه تحت سترته. كان السلاح عبارة عن قاذف سهام بدائي وتقليدي Cerbottana *، وقد أكد الخبراء أنه جاء من آسيا، لا من إفريقيا، أو من هنود أمريكا، ربما من النوع البسيط، ولكنه قوى ذو أبعاد صغيرة، مأخوذ من ساق البامبو الذي كان يستخدمه بعض قبائل الفلبين. وكذلك السهمان القصيران، اللذان استخدم أحدهما في الجريمة، كانا من نفس الأصل، والقاتل نفسه لم يكُن لديه صعوبات في أن يعترف بأنه حصل على كل ذلك من أحد علماء الأجناس بأطلانطا.

وقد خضع لتحقيق استمرّ لساعات على يد دستة من سلطات التحقيق، والنتيجة في النهاية هي أنه يحب السلام، وجامع جاهل للتحف الفنية الأصلية، كان قد نظم منذ سنتين معرضًا للأعمال اليدوية لقبيلة بالاوان palawan، نشر بعضها وباعه عن طريق شبكة الإنترنت. وقد اعترف أولافاريا في التحقيق الأول، وبغرور، بأنه قضى ساعات وساعات على مدى ثمانية عشر شهرًا تقريبًا في التدريب الدقيق على استخدام السلاح العجيب، وفي حساب الحركات والمسافات بدقة متناهية.

وقد اكتشفوا أن جدران غرفة النوم بمنزله مغطاة بأهداف من الكرتون، وهناك ثلاث حاويات مملوءة بسهام خشبية سليمة أو مكسورة، صناعة أكثر بدائيّة من السهم المستخدم في الجريمة.

ولكنه رفض بعناد أن يذكر شيئًا عن مصدر السمّ، الذي كان عبارة عن مركّب من سمّ مستخلص من لحاء الأشجار الاستوائية المذاب في عصارة بعض النباتات والماء. وقد ذكرت «نيويورك تايمز» أن المخابرات المركزية الأمريكيّة CIA تظن أنه من أصل كولومبي، وقد تَمّ استنفار مكتب التحقيقات الفيدرالية FBI، والسى آي إيه، وأجهزة مخابرات أخرى في منتصف العالم، لاحتمال وجود شركاء في الجريمة.

وقد أصدرت حكومة كاراكاس، لتجنب أي شبهات، بيانًا أكدت فيه أن منفذ عمليّة القتل البربرية، كان ترك فنزويلا وهو طفل، ولم يضع قدمه فيها مرة أخرى. وفي كلمة العزاء، أدخل الرئيس الأمريكيّ فقرة عن الإرهاب الدولي، تلك الفقرة التي حوت بين السطور اشتباهًا في أن يكون من أصوليين إسلاميين بجنوب شرق آسيا. وقد بثّت محطة فضائية بالإمارات العربية وعلى مدى أسبوع كامل خبرًا يفيد بأن عمليّة الاغتيال كان وراءها المخابرات الإسرائيلية، وأن أولافاريا يهوديّ، وكان يخفي عقيدته.

---

* أنبوب كان يستخدمه البدائيون لإطلاق السهام عن طريق النفخ (المترجم)

وكان القاتل قد أعلن لحظة القبض عليه وعند باب القصر الزجاجي:" لست وحدي، ولكني عضو في «رابطة حماية العقيدة»، ونحن لسنا كثيرين، ولكننا عندنا تصميم، وحماس، لأننا نستلهم من مثل أعلى كبير من أجله مستعدون للتضحية بحياتنا».

وقد أظهرت التغطية المباشرة وجه شاب، هادئ وشارد، ولا يبدو عليه أدنى أمارات الندم، أو الخوف، وحتى نبرة صوته تدلّ على الشعور بالأمن.

«نحن لسنا متعصبين، في منظمتنا رجال ينتمون إلى أديان، وأجناس، وأعراق مختلفة، نعترف بها جميعًا، لأننا متسامحون. الشيء الذي لاَ نعترف به مطلقًا، ولا نستطيع تحمله، هو عدم الإيمان.

الويل لمن لاَ يؤمن بصدق وعزم! الويل! لاَ يهمّ يؤمن بماذا، بالمسيح، بيهوه، بالله، أو بقيم الحرية، والديمقراطيّة. أطلب منكم جميعًا أن تستمعوا إليّ: كيف يمكن التخلّي عن الإيمان؟ لاَ يمكن، ولا يجب التنازل عن الإيمان الصلب والراسخ. يلزم الإيمان والطاعة لمن نؤمن به. ويلزم القتال من أجل مَا نؤمن به. اسمعوني جيدًا: إن البروفيسور عشاريا كان خطرًا، فقد بدأ حملة لتأكيد أن الإيمان الأعمى والمطلق شر، وأنه لاَ توجد حقيقة واحدة، وأنه يجب زراعة بذور الشكّ. وهذا بالضبط ما يفعله الشيطان في جنات عدن، وما يواصل إبليس في وسوسته بعد تمرده.

إن هذا الرجل، أقول لكم، كان لعنة، كان يجب علينا أن نستأصله لخير البشريّة. وإني لسعيد بنجاحي في قتله من أول رمية. إن المبدأ العظيم للحق والخير، وهو مشترك لدى كل البشر على الأرض، هداني بكل تأكيد، وكانت نفخته هو، لا نفختي، هي التي حملت السهم القاتل ووجّهته دون خطأ إلى الهدف».

مراجع الجزء التمهيدي

Walzer M., Sulla tolleranza, Laterza, Bari 1998.
Morsy Z. (a cura di), La tolérance, UNESCO, Paris 1975.
Antonello M., Eramo P., Polacco M., Le voci dell' altro, Loescher Ed., 1995.
Lessing G. E., Nathan le sage, Librairie José Corti, Paris 1991.
Pancrazi P., Della tolleranza, Le Monnier, Firenze 1955.
Università della Tuscia, Dalla tolleranza alla solidarietà, Franco Angeli, Milano 1990
Ricoeur P. (a cura di), Tolerance between intolerance and the intolerable, Bergham Books, Providence Oxford 1996.
Lanzillo M. L., Tolleranza, II Mulino Bologna, 2001.
Campana M., Il fiume della prepotenza, Rizzoli, 1996
Barash D. P., Understanding violence, Allyn and Bacon, Boston 2001.
Cotlett J. A., Terrorism: a philosophical analysis, Kluwer Academic, 2003
AA.VV., Saggi sulla tolleranza, Il saggiatore, Milano 199..
Zeldin T., An intimate history of humanity, Harper Perennial, 1994.
Moser G., Piccola filosofia per i non filosofi, Feltrinelli, Milano 2002.

مراجع الجزء الأول: اللاتسامح الديني

Ellens H. J., The destructive Power of religion: Violence in Judaism, Christianity, and Islam, Vol. 4, Publishers, Westport CT 2004.
Juergensmeyer M., Terror in the Mind of God ; The Global Rise of Religious Violence, University of California Press Berkeley 2003.
Kimball C., When Religion Becomes Evil, Harper, San Francisco 2002.
McTernan O., Violence in God's Name: Religion in an Age of Conflict, Orbis Maryknoll, NY 2003.
Kirk– Dugan C. A., Refiner's Fire A Religious Engagement with Violence. Fortress Press, Minneapolis 2001.
Selengut C., Sacred Fury: Understanding Religious Violence, Walnut Creek, CA Altamira 2003.

De Vries H., Religion and Violence: Philosophical Perspectives from Kant to Derrida, Johns Hopkins University Press, Baltimore 2002.
Bartow O., Mack P., In God's Name: Genocide and Religion in the Twentieth Century, Berg Hahn, New York 2001.
Aletti G., Rossi M., Identita religiosa, Pluralismo, Fondamentalismo, Centro Scientifico Editore, Torino 2004
(يحوي المجلد على المداخلات الرئيسية في الندوة التي نظمتها الجمعية الأيطالية لعلم نفس الأديان بتورينو عام ٢٠٠٢)
De Spinetola O., La Prepotenza delle religioni, Datanews, Roma 2004.
Zolla E., La nube del telaio, Mondadori, Milano 1996.
Brown P., The Late antiquity, Thames and Hudson, Paris 1995.
Murier H., Il Paganesimo, Edizioni Paoline, 1990
Thomas C. G., The earliest civilization, University Press of America, Lanham, New York – London 1982.
Angus S., The mistery religions, Dover Publications Inc., New York 1975.
Vernant J.P., Mythe et religion en Grece ancienne, Ed. du Seuil, Paris 1997.
Jonas H., Lo gnosticismo, Societa' Editrice Internazionale, Torino 1991.
Harvey G., Crdenti Della nuova era. I pagani contemporanei, Feltrinelli, Milano 1997.
Barbiellini Amidei G., New Age Next Age facile dea, Piemme, Casale Monferrato 1998.
Martinez Diaz F., New Age e fede cristiana, Ed. San Paolo, Roma 1995.
Martin W., The Kingdome of the cults, Bethany House Publications, Minneapolis 1997.
Rollet J., Religion ef politique, Grasset, Paris 2001.
Bouquet A. C., Breve storia delle religioni, Mondadori, Milano1972.
Grigorieff V., Religions du monde entier, Marabout, Alleur Belgique 1989.
Santoni E., Panorama des religions, Marabout, Alleur Belgique 1993.
Sharma A. (a cura di),Religioni a confronto, Neri Pozza, Vicenza 1996.
Clement C., Il viaggio di Theo, Longanesi, Milano 1997.
Hellern V., Notaker H., Gaarder J., O livro das Religioes, Cia das Letras, Ed. Sehwarcz, Sao Paulo 2000
Dizionario delle religioni monoteiste, Piemme, Milano 2004.
Di Nola A. M., Attraverso la storia delle religioni, Di Renzo Ed, Roma 1996.
Niewoenher F., Labbé Y. (a cura di), Petit dictionnaire des philosophies de la religion, Ed. Brepols, Paris 1996.
Feuerbach L. A.L' essenza della religione, Newton Compton, Roma 1994.
Northrop F. S. C., The meeting of East and West, Collier Books, New York – London
Huxley A., The perennial Philosophy, Harper Colophon Books, 1970
Brusasco P., L 'India e i suoi segreti, Marsilio, Venezia 1999.
Il buddhismo nella teoria e nella pratica, Pubblicazioni della Associazione Buddhista Italiana, Ed. Buddhismo scientifico, 1970
Kuokay B. D., The teachings of Buddha (Buddhist promoting Foundation), Kosaido Printing Co.,Tokyo 1981.
Oldenberg H., Budda, Corbaccio, Milano 1993.

Collis M., Confucio, Longanesi, Milano 1970
AA.VV., Buddismo impegnato, Neri Pozza, Vicenza 1999.
Victoria B. D., Zen at war,Weatherhill, New York 1997.
Lifton R. J., Destroying the World to Save It: Aum Shinrikyo,Apocalyptic Violence, and the New Global Terrorism, Metropolitan Books, New York 1999.
Armstrong K., A history of God, Ballantine Books, New York 1993.
-. The battle for God, Ballantine Books, New York 2000
Revel J. F., Richard M., The monk and the philosopher, Schocken Books, New York 1998.
Spinoza B., Dio Natura Uomo, Il Tripoli – Firenze 1969.
Pace E., Perché le religioni scendomo in Guerra ?, Laterza, Bari 2004.
Schwartz P. M., The Curse of Cain: The Violent Legacy of Monotheism, University pf Chicago Press, Chicago 1997.
Beatrice P. F.(a cura di), L' intolleranza cristiana nei confronti dei pagani, EDB, Bologna, 1990
Martin D., Does Christianity Cause War ?, Oxford University Press, New York, 1997.
Ratzinger J., Flores D' Arcais P., Dio esiste ?, (supplemento al n. 2/2005 della rivista bimestrial " Micro Mega").
Cardini F., Dio lo vuole ! Intervista sulla Crociata, Il cerchio, 1994
Cardini F., Lerner G., Martiri e assassini, Rizzoli, Milano 2001-.
Kedar B. Z., Crociata e missione. L' europa incontro all ' Islam, Jouvence Roma 1991.
Bonante U., Il Dio degli alrti, Bollati Boringhieri, Torino 1997.
De Rosa F., Un Dio Per il duemila, Pironti, Napoli 1997.
Keller W., The Bible as history. Newly revised english translation, William Morrow and Company, New York 1981.
Blech R. B., Understanding Judaism, Alpha Books, Indianapolis 1999.
Loewenthal E., L'Ebraismo spiegato ai miei figli, Bompiani, Milano 2002.
Ovadia Mi, L'ebreo che ride, Einaudi, Torino 1998.
Solomon N., L'ebraismo, Einaudi, Torino 1999.
Shalak I., Metzvinsky M., Jewish Fundamentalism in Israel, Pluto Press, London 2000
Fabris A., Tre domande su Dio, Laterza, Roma – Bari 1998.
Prudhomme C., Storia dei cristiani, Queriniana, Brescia 1992.
Suffert G., Tu es Pierre, Ed de Fallois, Paris 2000
Wilson A. N., Paolo. L' uomo che invento' il Cristianesimo, Rizzoli, Milano 1997.
Lohse E., The formation of the New Testament, Abingdon, Nashville 1972.
Giovanni Paolo II (con Vittorio Messori), Varcare le soglie della speranza, Mondadori,Milano 1994.
Hill M.P., The Catholic ready answer, Benziger Brothers, New York 1915.
Fo J., Tomat S., Malucelli L., Il libro nero del Cristianesimo, Nuovi Mondi, 2000
Deschner K. H., Storia criminale del Cristianesimo (Tomo I e II), Ariele, Milano 2001.

Merlo G. G., Eretici ed eresie medioevali, Il Mulino, Bologna 1989.
Hamilton B., Le crociate, San Paolo, 2003.
Victor B., The last crusad, St. Martins Press, New York 2004.
Baigent M., Leigh R., L' Inquisizione, Marco Tropea, Milano 1999.
Kamen H., The Spanish Inquisition, New Haven and London 1995.
Camillieri R., La vera storia dell ' Inquisizione, Piemme, Casale Monferrato 2001.
Martini C. M., Eco U., In che cosa crede chi non crede ?, Liberal – Atlantide Editorial, Roma 1996.
Von Bruck M., Cristianity and Buddhismn, Orl Bods New York 2001.
Robbins T., Palmer S. J., Millennium, Messiahs, and Mayhem: Contemporary Apocalyptic Movements, Routledge, New York 1997.
AA.VV., Ecumenismo e dialogo tra le religioni, San Paolo, 2001.
Riccardi A., Intransigenza e modernità. La Chiesa Cattolica verso il terzo millennio, Laterza, Bari 1996.
Rorty R., Vattimo G., Il futuro della religione, Garzanti, Milano 2004.
Coda P., L' amore di Dio é piu grande del nostro cuore. Il dialogo interreligioso, Piemme, Casale Monferrato 2000
Hamidullah M., Initiation a l ' Islam, Imprimerioe d' Alger, Alger 1981.
Mandel G., Il corano senza segreti, Rusconi, Milano 1991.
Khamenei S., Il modello generale e strutturale del pensiero islamico nel Corano, Edito dal Centro Culturale Islamico Europeo, Roma 1987.
Centro Culturale Islamico Europeo, Roma 1987.
Armstrong K., Maometto, Vita del Profeta, IlSaggiatore, Milano 2004.
Mutahari M., L' uomo e la fede, Mancosu Editore, Roma, 1995.
Tali M., Clementi O., Rispetto del dialogo. Islamismo e Cristianesimo, San Paolo, Milano 1994.
AL – Azm S. J., L' illuminismo islamico, Di Renzo, Roma, 2001.
Branca P., Moschee inquiete, Il Mulino, Bologna, 2003.
 - , I mussulmani, Il Mulino, Bologna 2000
Di Nola A. M., L' Islam. Storia e segreti di una civiltà, Newton Compton, Roma 1989.
Emerick Y., Understanding Islam, Pearson Education Company, 2002.
Hiro D., Islamic Fundamentalism, Paladin, London 1989.
Kepel G., Jihad e decline, Carocci, Roma 2001.
AA.VV.. I Fratelli Mussulmani e il dibattito sull ' Islam politico, Fondazione Giovanni Agnelli, 1996.
AA.VV., Dibattito sull ' applicazione della Sharia, Fondazione Giovanni Agnelli, 1994.
Tabatabà A., L' Islam shiita. Centro Culturale Islamico Europeo, Roma 1989.
Maitriser ou accepter les islamistes, عدد خاص من "هيرودوت"، وهي مجلة جغرافية وجيوسياسية، الفصل الثاني ١٩٩٥
Choueri Y. M., Il fondamentalismo islamico, Bologna 1990
Takeyh R., Gvosdev N., The receding shadow of the prophet: The rise and fall of radical' political Islam, Praeger, Westport 2004.
Firestone E., Origin of HOLY War in Islam, Oxford University Press, Mew York 1999

Huband M., Warriors of the Prophet. The Struggle for Islam, West view Press, Boulder 1998.
Turner J. J., The Holy War Idea in Western and Islamic Traditions, Pennsylvania State University Press ,University Park, 1997.
Esposito J. L., Unholy War. Terror in the Name of Islam, Oxford University Press, New York 2002.
Kamil A. A. A. Q., Islam and the race question, UNESCO, 1970
Affatato P., Giordano E., A Oriente del profeta, ObarraO, 2005
Roy O., Genealogie de l' islamisme, Hachette, 1995
Fallaci O., La rabbia e l'orgoglio, Rizzoli, Milano 2001.
Terzani T., Lettere contro la Guerra, Longanesi, Milano 2002.
Baget Bozzo G., Di fronte all ' Islam, Marietti, Genova 2001.
Cardini F., Noi e l' Islam. Un incontro possibile ?, Laterza, Bari 1994.
Salucci G., Bibbia, Vangelo, Corano, ELES, Roma 1997.
Bonante L., Terrorismo internazionale, Giunti. Firenze 2001.
Stern J., Terror in the Name of God: Why Religious Militants Kill, Ecco, New York 2003.
Weinberg L., Ami P., Religious Fundamentalism and Political Extremism, Frank Cass, Portland 2004.
Lewis B., The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror Modern Library, New York 2003.
Introvigne M., I fondamentalismi, Piemme, Casal Monferrato 2004.
Sim S., Fundamentalist world. The new Dark Age of dogma, Icon Books, Cambridge 2004.
Almond G. A., Appleby R.S., Sivan E., Strong religion, Univ. of Chicago Press, Chicago and London 2003.
Demeroth II N.J., Crossing the Gods, Rutgers University Press. New Jersey and London 2003.

مراجع الجزء الثاني: اللاتسامح الثقافي

Toynbee A. J., Civilization on trail, (ترجمة إيطالية)Civiltà al paragone, Bompiani Milano 1949.
Tarnas R., The passion of the western mind, Ballantine Books, New York 1991.
Fukuyama F., The end of history and the last man, Avon Books, New York 1993.
Huntington S. P., The clash of civilizations and the remaking of world order, Simon and Schuster, New York 1996.
Sumner W. G., Folksways, Haeper and Collins, New York 1960
Crespi F., Manuale di sociologia della cultura, Laterza, Bari 1996.
Baslev A. N., Rorty r., Noi e loro, Il Saggiatore, Milano 2001.
Fusari A., L' avventura umana. Indagine sul cammino dei popoli e delle civiltà, SEAM. Roma 2000

Wilson E., On human nature, Harvard University Press, Cambridge 1978.
Aronson E., The social animal, Freeman and Company, San Francisco 1972.
Janigro N., la Guerra moderna come malattia della civiltà, Mondadori, Milano 2002.
Le Than Khoi, Educazione e civiltà. La società di ieri, Armando, Roma 1995.
Wright Q., A study of war, University of Chicago Press, Chicago 1942.
Arendt H., Sulla violenza, Mondadori, Milano 1971.
- La banalità del male, Feltrinelli, Milano 2003.
Maffesoli M., Essais sur ' la violence , Librairie des Meridiens, Paris 1984.
AA. VV., Violence and its causes, UNESCO, Paris 1981.
Cotta S., Perché la violenza ?, Japadre, l' Aquila 1978.
Kakar S., the Colors of Violence. Cultural Identities, Religion, and Conflict. Chicago University Press, Chicago 1996.
Bandura A., Aggression. A social learning analysis, Prentice Hall, 1973.
Storr A,., Human aggression, Bentam Books, New York 1968.
Mitscherlich A., L' idea di pace e l' aggressività umana, Sansoni, Firenze 1972.
AA. VV., Our creative diversity, Report of the World Commission on Culture and Development EGOPRIM, 1995.
Hannerz U., La diversita culturale, Il Mulino, Bologna 2001.
Di Cristofaro Longo G., identità e cultura, Studium, Roma 1993.
Ehrenreich B., Blood Rites: Origins and History of the Passions of War, Metropolitan Books, New York 1997.
Naimark N. M., La politica dell ' odio, Laterza, Bari 2002.
Fanon F., Les damnés de la terre, Francois Maspéro, Paris 1961.
Malet E. (a cura di). La xénofobie, UNESCO, Paris 1994.
Ungari P., Pietrostefani Mallintoppo M.P. (a cura di), Razzismo, xenophobia, antisemitismo, intolleranza e diritti dell ' uomo, L.U.I.S.S., Roma 1996.
Gambino A., Gli altri e noi: la sfida del multiculturalismo, Il Mulino, Bologna 1996
Laplantine F., Identità e metissage, Eléuthera, Milano 2..4.
Venezianni M., Di padre in figlio.Elogio della tradizione, Laterza Bari 2001.
Zolla E., Che cos' é la tradizione, Adelphi, Milano 1998.
Oz A., Contro il fanatismo, Feltrinelli, Milano 2..4.
Reich W., Origins of Terrorism. Psychologies, Ideologies, Theologies, States of Mind, Woodrow Wilson International Center for Scholars, New York 199..
Stout C., The Psychology of Terrorisme, Vol.3, Praeger, Westport 2002.
AA.VV. Les miroirs du fanatisme. Integrisme, narcisisme et alterité, Labor et Fides, Genéve 1996.
Luzzato Voghera G., L' antisemistismo, Feltrinelli, Milano 1994.
Piperno R., L' antisemitismo moderno, Cappelli, Bologna 1994.
Levi L., Che cos' e l' antisemitismo ?, Mondadori, Milano 2001.
Bauman Z., Modernity and the Holocaust, Cornell University Press, Ithaca 1989.
Engel D., L' Olocausto, Il Mulino, Bologna 2005.
Lindquvist S., Diversi. Uomini, donne e idée contro il concetto di razza, Ponte alle Grazie Milano 2003.

Taylor C., Multiculturalism, Edited and introduced by Amy Gutmann, Princeton University Press, 1994.
Habermas J., Taylor C., Multiculturalismo, Feltrinelli, Milano 1998.
Gurun K., Le dossier armenien, Triangle Societé Torque d' Histoire, 1983.
Censenier j., Etnologia, dell ' Europa, Il Saggiatore, Milano 1994.
Dummett M., On immigration and refugees, Routledge, London – Mew York 2001.
Ignatieff M., The Warrior's Honor: Ethnic War and the Modern Conscience, Metropolitan. Books, New York 1998.
Saks J., The Dignity of Difference. How to Avoid the Clash of Civilizations, Continuum, New York 2002.
Man M., Il lato oscuro della democrazia.Violenza etnica, Università Bocconi Editore, Milano 2005.
Orsini A. (a cura di). Guerre globali. Capire I conflitti del XXI secolo, Carocci, Roma 200.3.

مراجع الجزء الثالث: اللاتسامح السياسي

Locke J., Lettera sulla tolleranza, Laterza, Bari 1994.
Bayle P., De la tolérance, Presses Pocket, 1992.
Voltaire, Traité sur la Tolérance, Flammarion, Paris 1989.
Montesquieu, Lettres Persanes, Les livers de poche, 1989.
Finley M. I.,La democrazia degli antichi e dei moderni, Mondadori, Milano 1992.
AA.VV., La Laicité, Ed. du Seuil, 1995.
Leang M., Educazione alla libertà, Giunti Lisciani 1992.
Hobsbawn E., Il secolo breve, Rizzoli, Milano 1993.
- , intervista sul nuovo secolo, Laterza, Bari 1999
AA.VV., Peace and conflict issues after the cold war, UNESCO, Paris 1992.
AA.VV., Nations el nationalismes, la Decouverte, Paris 1995.
Nussbaum M., Rusconi G.E., Viroli M., Piccole Patrie grande mondo, Donzelli, Roma 1995.
Buruma I., Margalit A., Occidentalism. The West in the Eyes of its Enemies, Penguin Press, 2004.
Picco G., delli Zotti G. (cura di), International solidarity and national sovereignity, I.S.I. (Istituto di Sociologia Internazionale), Gorizia 1995.
A A. V V., Le droit d' etre un home, UNESCO, Lattes. 199..
A A. V V., A human right message, Edited by the Ministry of Foreign Affairs of Sweden, 1998.
AA.VV., Human rights and religious freedom in Europe for peace and in the spirit of Helsinki, Marsilio, 1989.
De Carvalho J. M., Direitos humanos no tempo e mo espaco, Brasilia giuridica, 1998.

De Athayde A., Ikeda D., Direitos humanos no seculo XXI, Record, Rio de Janeiro 2000
Sartori G., Pluralismo, multiculturalismo e estranei, Rizzoli, Milano 2000
Moncada di Monforte M., Occidente senza futuro. La storia oltre la storia, Armando, Roma 1998.
Jewett R., Shelton J., Captain America and the crusade against evil,. The dilemma of zealous nationalism, William B. Eardmans, Cambridge 2003.
Flores M., Tutta la violenza di un secolo, Feltrinelli, Milano 2005.
Scruton R., The West and the Rest: Globalization and the Terrorist Threat, ISI Books, Wilmington 2002.
Attali J., L' homme nomade, Fayard, 1993.

مراجع الجزء الرابع: اللاتسامح المذهبي

Antiseri D., Relativismo, nichilismo, individualismo, Rubettino. 2003.
Gianello G. Di nessuna chiesa. La libertà del laico, Cortina, Milano 2005.
Onfray M., Trattatto di astrologia, Fazi, Roma 2005.
Ouellet F., Relativismo e tolleranza, Unicopli, Padova 2002.
Sabine G. H., A history of political theory, G.G. Harrap and Co., London 1961.
Mayor F., Forti A., Scienza e potere, Sperling and Kuplfer, Milano 1995.
Jonas J., Dalla fede antica all ' uomo tecnologico, Il Mulino, Bologna 2001.
Science and absolute values, Third International Conference on the Unity of Science, London November 21-24 1974, The International Cultural Foundation Inc., New York 1974.
Appleby S., The ambivalence of the sacred, Rowneur and Littlefield, 2003.
Rusconi G. E., Come se Dio non ci fosse. I laici, i cattolici e la democrazia, Einaudi, Torino 2000
Bobbio N., Elogio della mitezza, Linea d' ombra, 1994.
Breman P., Terror and liberalism, W.W. Norton CO., New York – London 2003.
Haat G., The freedom of God's will, Routledge.
Tourane A., Critica della modernità, Il Saggiatore, Milano 1993.
Nataf A., Les libres penseurs, Bordas, Paris, 1995.
Polin C., Le totalitarisme, Presse universitaires de France, Paris 1982.
Fisichella D., Totalitarismo Un regime del nostro tempo, La Nuova Italia Scientifica, Roma 1994.
Eco U., Cinque scritti morali, Bompiani, Milano 1997.
Rosenbaum R., Explaining Hitler. The Search for the Origins of His Evil, Random House, New York 1998.
Levi – Strauss C., Race et histoire, Denoel, Paris 1952.
Shapiro J. L. Race mixture, UNESCO, Paris 1953.
Herrnstein R., Murray C., The bell curve: intelligence and class structure in American Life, The Free Press. New York 1994.

Tommasi L. (a cura di), Razzismo e società plurietnica, Franco Angeli, Milano 1997
Kohn M., The race gallery, Vintage, London 1996.
Segal R., The race war, Bantam Book 1966.
Sowell T., Race and culture, Harper and Collins, 1994.
Cavalli Sforza L. L., Genes, peoples and languages, University of California Press, Berkeley 1987.
Cavalli Sforza L. Cavalli Sforza F., Che siamo. La storia della diversità umana, Mondadori, 1993.
Brown F. N., Apartheid: a teacher 's guide, UNESCO, Paris 1987.
-, Combattre l' apartheid, UNESCO, 1988

منافذ بيع مكتبة الأسرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة ساقية
عبد المنعم الصاوى

الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو
من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب
أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز
ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة
ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة جامعة القاهرة

بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى - الجيزة

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون
ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة - الهرم
مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة
ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية
٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية
ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية
التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦
مدخل (أ) - الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس
مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -
الجامعة الجديدة - الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد
بجوار مدخل الجامعة
ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان
السوق السياحى - أسوان
ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط
٦٠ ش الجمهورية   أسيوط
ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا
١٦ ش بن خصيب - المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)
مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا
ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا
ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى
ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقاً

مكتبة دمنهور
ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة
٥ ش الثورة - المنصورة
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف
مبنى كلية الهندسة الإلكترونية
جامعة منوف

مكتبـــات ووكـــلاء

البيع بالدول العربية

لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة-
بيروت - ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص. ب : ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
بيـروت - الفـرع الجـديد - شـارع
الصيداني - الحمراء - رأس بيروت -
بناية سنتر ماريبا
ص. ب : ١١٣/٥٧٥٢
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

ســوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع -
سوريا - دمشق - شارع كرجيه حداد -
المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣٦٦
- الجمهورية العربية السورية

تونـــس

المكتبة الحديثة - ٤ شارع الطاهر صفر-
٤٠٠٠ سوسة - الجمهورية التونسية .

المملكة العربية السعودية

١ - مـؤسـسـة العـبـيـكـان - الرياض
(ص. ب: ٦٢٨٠٧) رمـز ١١٥٩٥ - تقـاطع
طريق الملك فهد مع طريق العروبة -
هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨ .

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات والأدوات الكتابية - جدة - الشرقية -
شارع الستين - ص. ب: ٣٠٧٤٦ جدة :
٢١٤٨٧ - ت : المكتب: ٦٥٧٠٧٢٢ -
٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨.

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع -
الرياض - المملكة العربية السعودية -
ص. ب: ١٧٥٢٢ الرياض: ١١٤٩٤ - ت:
٤٥٩٣٤٥١.

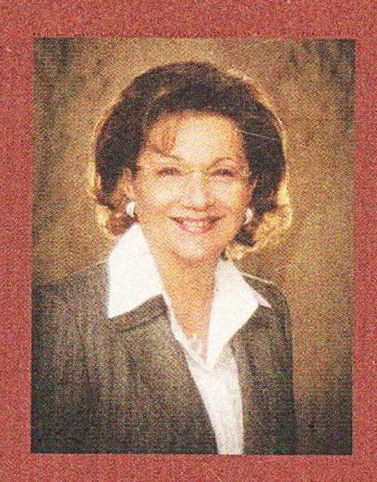
٤ - مـؤسـسـة عـبـد الرحـمـن السديري الخيرية - الجوف -
المملكة العربية السعودية - دار الجوف
للعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجوف - هاتف:
٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠ فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع
ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦ +
تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +
ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الأردن.

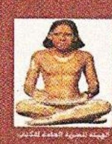




تذكرت بمناسبة مرور عشرين عامًا على بدء مشروع القراءة للجميع عام ١٩٩٠، حكاية تقول إن الفيلسوف اليوناني "أرسطو" كان معلمًا للإسكندر المقدوني، وإنه استطاع أن يشحن وجدان الإسكندر، ويشحذ رغبته ولعًا بكل أشكال التعليم والقراءة، حتى إن الإسكندر لم يكن يظهر إلا وفي يده كتاب، لكن حدث خلال إحدى رحلاته إلى آسيا أن عانى قلة الكتب، فإذ به يأمر أحد قادة جيوشه أن يحضر له بعض ما يقرؤه وكأن هذه الحكاية قد جاء تذكرها بمثابة حساب للنفس عما أنجزناه حتى لا يعاني أحد قلة الكتب وجودًا وثمنًا، فتجلت مكتبة الأسرة، التي بدأت عام ١٩٩٤، هي المصالحة الواقعية التي تجاوزنا بها تلك المشكلة، تحقيقًا للإتاحة العامة للكتاب، وذلك بالربط بين اتساع إصداراتها المتنوعة في شتى مجالات المعرفة، والدعم المادي الذي تتمتع به أسعار تلك الإصدارات، فتجعلها في متناول الجميع. وقد تلازم نشاط مكتبة الأسرة لسنوات عدة مع فعاليات مشروع القراءة للجميع، لكننا أخيرًا أكدنا ضرورة استمرار إصدارات مكتبة الأسرة طول العام، انطلاقًا من حكمة قديمة مازالت تعاصرنا، وهي أن من يستطيع القراءة، يستطيع رؤية ضعف ما يراه الآخرون.

سوزان مبارك







٦ جنيهات



٢٠١٠